

# الدولة العثمانية

## دولة إسلامية مفترى عليها

تأليف

أستاذ دكتور عبد العزيز محمد السنوى

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ  
بكلية الدراسات الانسانية بجامعة الأزهر  
فرع البنات بالقاهرة

الجزء الأول

مكتبة المطبع والنشر  
مكتبة الأنجلو المصرية  
١١٥ شارع مصر

القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٨٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وقل رب زدني علما »

## الكتاب التالي :

دور الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا  
وموقفها من أهل الدمة .

## شعارنا :

القافلة تمضي في مسيرتها ، شوطاً بعد شوط ،  
ونترك وراءنا العجزة الحقةدة يتكتلون ويتآمرون .  
« ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .  
صدق الله العظيم .

# جسر عمان واليمن والمغرب

والصلاة والسلام على محمد رسول الله وعلى سائر رسله وأنبيائه وأصفياه .

## مقدمة المؤلف

يتناول هذا الكتاب ، في دراسة علمية موضوعية محايدة ، تاريخ الدولة العثمانية من بعض جوانبها . وكنت قد تناولت في مؤلف سابق بعض المعالم البارزة في تاريخها السياسي منذ قيامها حتى فتح جزيرة كريت عام ١٦٦٩ (١) . وعلى مبلغ علمي لم تتعرض دولة في العالم لمثل ما تعرضت له هذه الدولة من حملات عنيفة ضارية استهدفت التشهير بها والنيل منها . وقامت بهذه الحملات المكثفة قوتان عالميتان عاتيتان ، هما : الاستعمار الأوروبي والصهيونية . واتخذت هذه وتلك من المؤلفات التاريخية والبحوث ( العلمية ) ، والتصريحات الرسمية ومن مجموعات الوثائق التي نشرتها بعض الحكومات الأوروبية مجالا رحباً لإذاعة ما راق لها أن تنشره عن الدولة تحاملاً عليها . وقد ردد بعض المؤرخين والباحثين العرب عن جهالة أو تجاهل أو حقد تلك الآراء الخاطئة والظالمة معاً في مؤلفاتهم . واستقرت في أذهان الأجيال المتعاقبة من رجال الفكر العربي والإسلامي صور حالكة الظلام عن الدولة العثمانية ، واقرن ذكرها في أفئدتهم بمظالم وعن تكلمت على رعاياها من استغلالهم بتقرير ضرائب تصفية وجزافية عليهم ، ومن مصادرة أموالهم وأراضيهم ومعاصليلهم وماشيتهم ، ومن تخلف ، ومن لإجراء مذابح عامة ، ومن عزلة عن العالم فرضتها الدولة على ولاياتها العربية مما أدى إلى نشر الفقر والجهل والمرض . وغفل أولئك المتحاملون عن الخدمات التي أسدتها الدولة لولاياتها العربية بوجه خاص، وهي خدمات يجب أن تذكر لها وتشكر عليها . وتناسوا أيضاً أن الدولة العثمانية واجهت أخطاراً دولية جسيمة كانت تهدد

(١) ذكره عبد العزيز محمد الشاوي : أوروبا في مطلع المصور الحديثة . الناشر دار المعارف بالقاهرة . ج ١ ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٩ ، ص ص ٥١٥ - ٨١٠ .



العالم العربي بأفدح الأخطار . وكان من بينها وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية وتسلمهم إلى شرق الجزيرة العربية واستيلاؤهم على مواقع عسكرية هامة ومحاولاتهم المكرورة دخول البحر الأحمر من منفذه الجنوبي للاستيلاء على جدة والزحف منها على مكة المكرمة لهدم الكعبة الشريفة ثم موالاة الزحف على المدينة المنورة لئيش قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وكان الغزو البرتغالي لشرقي الجزيرة العربية هو أول غزو أوروبي عسكري صليبي في التاريخ الحديث لأقاليم عربية . وكان شعاره « الصليب أو المدفع » .

لقد عاشت الدولة العثمانية أكثر من ستة قرون واجتاحت جيوشها الإسلامية العثمانية أقاليم شاسعة في جنوبي شرق أوروبا ووسطها ، وهي أقاليم لم تخضع قط من قبل لحاكم مسلم . وأحرزت باسم الإسلام انتصارات خاطفة وباهرة ، وقساقطت في أيديها دول أوروبية عديدة . وامتلأت قلوب الحكومات والشعوب الأوروبية فرحاً وعلماً من هذه الدولة الإسلامية الطارئة عليها في عصر دارها . وتعرضت الدولة في مسيرتها في أوروبا لتكتلات صليبية دولية تنادت إليها البابوية في روما وأسهمت فيها دول أوروبية عديدة . وفي بعض الأحيان تبادلت الدولة مع أعدائها الهزائم والانتصارات . ولم تترك الدول الأوروبية للدولة فرصة لالتقاط أنفاسها . وعلى الرغم من ذلك كانت الدولة تنهض من كبوتها وتعيد بناء قواتها البرية والبحرية وتستأنف مسيرتها المظفرة .

وإذا كانت الدولة العثمانية قد عايشت الزمان أكثر من ستة قرون فإن إمبراطورية نابليون الأول لم تعمر أكثر من أحد عشر عاماً منذ تنويعه إمبراطوراً ( ١٨٠٤ - ١٨١٥ ) ثم انهارت هذه الإمبراطورية إلى مغيب عقب هزيمته في معركة وترلو Waterloo في اليوم الثامن عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨١٥ أمام القائد الإنجليزي ولنجتون والقائد الروسي بلوخر Blucher ، وكذلك الإمبراطورية الثانية La Seconde Empire ، فقد انهارت هي الأخرى ، وأصبحت هباء

منبثاً بعد ثمانية عشر عاماً ( ١٨٥٢ - ١٨٧٠ ) عقب هزيمته في معركة سيدان Sedan في اليوم الثاني من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٠ .  
وقتل نابليون الثالث مع قلة من خالصائه لوأذاً إلى البحر قاصدين لإنجلترا  
المنفى التقليدى لحكام فرنسا . ومع ذلك حرص المؤرخون الأوروبيون على  
إحاطة تاريخ هذين العاهلين بهالات من المفاخر والمجد في الوقت الذي  
نعتوا السلطان العثماني بأنه « السلطان المسلم الجاهل المتبربر المستغرق في ملذاته  
مع حواريه الفاتنات » . والحق أن وصف الدولة العثمانية بأنها « دولة  
إسلامية مفترى عليها » هو أصدق قليلا من أى وصف آخر .

ولذا كان تاريخ الدولة العثمانية قد تكاثرت حوله الافتراءات والأباطيل ،  
فليس معنى ذلك أنها كانت مبرأة من المآخذ والعيوب . فلكل دولة مزايا  
تذكر لها ، ومآخذ تسجل عليها . وليس من الدراسة الموضوعية ولا من  
الأخلاق إغفال المزايا لأى دولة والاقتصار على تسجيل عيوبها ، بل يجب  
عرض الجانبين معاً . ولم تغفل هذه الدراسة عن ذكرهما تمشياً مع منهاج  
البحث التاريخي .

وقد شملت هذه الدراسة جوانب مكثفة وعديدة من التاريخ الحديث  
والمعاصر في الشرق والغرب والتاريخ الإسلامى في العصور الوسطى  
والنظريات والنظم والعلوم السياسية والقانون الدولى العام والعلاقات الدولية ،  
فضلا عن قواعد الشريعة الإسلامية من حيث عمليات الخصاء بنوعها ، وتعدد  
الزوجات ، واقتناء الجوارى وإنسال سلاطين الدولة العثمانية منهن وتغير  
الوضع القانونى لهؤلاء الجوارى بعد الإنجاب منهن وأنواع الفرش التى حددتها  
الشريعة الغراء من فراش قوى وفراش متوسط وفراش ضعيف وما إلى ذلك  
من دراسات تطلبها معالجة هذه الموضوعات وغيرها .

ومن حقي أن أذكر أنى كتبت معظم فصول هذا الكتاب وأنا اجتاز  
ظروفاً صحية بالغة الخطورة : وكان قيامى بهذا العمل نوعاً من المغامرة بحياتى ،  
إذ كنت ممنوعاً من بذل أى مجهود عقلى . وكان مطلوباً منى أن أعيش في  
حالة استرخاء ذهنى كامل . وكان مما قض مضجعى أن يدركنى الموت قبل

أن أفرغ من وضع هذا الكتاب . وشاء الله سبحانه وتعالى أن تسعني رحمته ، فأعانني على اجتياز هذه الفترة الصعبة العصيبة ، وعلى أن أمضي قدماً في استكمال الكتاب . ولهذا استغرق وضع الكتاب وطبعه سنين عددا .

وكانت الخطوة التي وضعها أول الأمر لهذه الدراسة تشمل ، فيما تشتمل عليه ، سبعة فصول عن الدور الذي قامت به الدولة العثمانية في نشر الإسلام في جنوبي شرق أوروبا ووسطها ، ثم موقف الدولة من أهل اللغة ، ولكني رأيت أن أكتفي بهذا القدر من الكتاب ، وأن أفرد لـهذين الموضوعين دراسة إضافية ومستقلة ستظهر في قابل الأيام وفي وقت قريب بإذن الله ، لأن مادتها العلمية مختزنة في ذهني . وشرعت فعلاً في كتابة بعض فصول الكتاب الجديد .

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

أ . د

عبد العزيز محمد الشناوي

غرة رجب عام ١٣٩٨  
السابع من شهر يونيو — حزيران — عام ١٩٧٨

مصر الجديدة في

# الفصل الأول

## الدولة العثمانية

### بعيدا عن حملات التشهير بها

الوجود الإسلامي العثماني في أوروبا :

تشغل الدولة العثمانية حيزاً كبيراً للغاية في التاريخ - سواء تاريخ العالم الإسلامي أو تاريخ العالم الأوروبي المسيحي : امتدت فتوحاتها إلى ثلاث قارات هي : آسيا وأوروبا وإفريقية . وغدت دولة آسيوية أوروبية إفريقية . وكانت جيوشها أكثر الجيوش الأوروبية تعداداً وأحسنها تدريباً وأعظمها تسليحاً وأكملها تنظيمًا . عبرت جيوشها البحر من الأناضول إلى أوروبا عام ١٣٥٦ على عهد السلطان أورخان ثاني السلاطين العثمانيين ومضت في زحفها تكتسح أقاليم مسيحية أوروبية واستولت على بلاد اليونان بما فيها شبه جزيرة المورة ، وبلغاريا ، ورومانيا ، والصرب ، والمجر ، وترنسلفانيا ، والبوسنة والهرسك وألبانيا ، والجبل الأسود . ومضت جيوشها في زحفها حتى بلغت مشارف فيينا عاصمة النمسا في أواسط أوروبا . فكانت الدولة العثمانية هي أول دولة إسلامية في التاريخ الأوروبي تصل بقواتها الجرادا إلى هذه الأراضي الأوروبية . وكان الوجود الإسلامي العثماني - العسكري والسياسي - في هذه الأقاليم الأوروبية حقيقة واقعة لا مرأى فيها . وقامت الدولة بدور هام في نشر الإسلام في أصقاع شتى من هذه الأقاليم الأوروبية . ويلاحظ أن العثمانيين اعتنقوا الإسلام طوعاً منذ وقت مبكر يرجع إلى حكم عثمان مؤسس الدولة العثمانية . وغدا الإسلام عقيدة دينية رسمية لهم (١) .

وكان العثمانيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شيء . فكان ولاؤهم يتجه إلى الدين الإسلامي أولاً ، ثم إلى السلطان ثانياً ، ثم إلى الدولة ثالثاً (١) وكانت روح الجهاد الديني غالبية في إسلام العثمانيين . وازدادت قوة وصلابة عندما استقروا في الأناضول على حدود أو على مقربة من الكيانات المسيحية المتناثرة وقتذاك في هذا الإقليم . واحتفظوا بهذه الروح في مسيراتهم الحربية في أوروبا . فالإسلام عند العثمانيين دين محاربين ، وشعارهم الصيحة للحرب وحمل السلاح . وازدادت الروح الدينية الحربية تأججاً في نفوس العثمانيين عند ما واجهوا تكتلات صليبية متعاقبة واسعة النطاق ضمت عديد الدول الأوروبية . وكانت البابوية في روما تتنادى إلى هذه التكتلات . وكأن الحركة الصليبية التي شهدتها الشرق الإسلامي منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى حتى أواخر القرن الثالث عشر قد انتقلت ميادنها إلى أوروبا . ولكن شتان بين الحركتين : فالصليبيون في أوروبا واجهوا قوات إسلامية عثمانية مسلحة وقفت في وجه الصليبية الأوروبية صفاً كأنها بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً . ولم تجد الحركة الصليبية في أوروبا ثغرة تنفذ منها لتفتيت وحدة الصف الإسلامى العثمانى . فكان النصر حليف القوات الإسلامية العثمانية في معظم المعارك الضارية التي نشبت بين الفريقين . وكانت الدولة العثمانية تروم تحويل « دار الحرب » إلى « دار الإسلام » . وسار في أثر القوات الإسلامية العثمانية القضاة والمفتون ومن إليهم من رجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة (٢) ، وذهب في أعقابهم أتباع الطرق الصوفية ورجال الفكر . وأسهم الجميع في غرس بذور الإسلام في الأقاليم المفتوحة مما ساعد على نشر الإسلام في أوروبا . وبذلك اقترنت حركة الفتوح الإسلامية العثمانية سواء في الأناضول أو في أوروبا بنشر الإسلام . وقد انتشر انتشاراً سريعاً وواسعاً في بعض الأقاليم ، وانتشر انتشاراً وثيداً في أقاليم أوروبية

---

Lewis Bernard; The Emergence of Modern Turkey. Second (١)  
Edition. London, 1968, p. 2. ١

(٢) انظر : هذه الدراسة ص ص ٢٩٦ - ٤٥٣

أخرى . وغدت العواصم التي اتخذتها الدولة العثمانية تبعاً وهي : قونية ،  
بروسة ، وأدرنة ، وإستانبول مدناً إسلامية عثمانية ومراكز للدراسات الإسلامية  
والحياة الإسلامية : وتنافس السلاطين وزوجاتهم وسائر أفراد الأسرة العثمانية  
الحاكمة وأثرياء العثمانيين على إقامة المساجد الرائعة والمعاهد والمدارس لتدريس  
علوم الشريعة وأصول الدين وما يتصل بها من دراسات إسلامية عليا ،  
وكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم . كما أقاموا العديد من الكتايا والأسبلة  
والخانقوات (١) والحمامات العامة . وأوقفوا الكثير من الأوقاف الدارة للانفاق  
من ريعها على تلك المؤسسات الدينية والخيرية .

### أسماء الدولة العثمانية عبر تاريخها :

وقد عرفت الدولة العثمانية في التاريخ بعدة أسماء . ففي عصورها الأولى  
أطلق العثمانيون عليها « دولت عليه » أي الدولة العلية ، ثم أطلقوا عليها  
« سلطنة سنية » أي السلطنة السنية ، كما أطلق عليها بعد اتساع ممتلكاتها في  
أوروبا وآسيا وإفريقية « إمبراطور لق عثمانلي » أي الإمبراطورية العثمانية .  
وعرفت أيضاً باسم « دولت عثمانلي » أي الدولة العثمانية . وارتاح العثمانيون  
للاسمين الأخيرين لاحتواء كل منهما على لقب عثمانلي (٢) ، إذ كانوا يعتزون  
بانتسابهم إلى عثمان الأول مؤسس الدولة ، وهو الذي سميت باسمه الدولة  
والأمة ، ويرون فيه المثل الأعلى للحاكم المسلم الغازي (٣) والمتكشف في  
حياته الخاصة : ويلدرون عنه أنه لم يترك عندما جاز إلى ربه سوى ثوبين  
وفرس (٤) . ويتضح من هذا العرض أن استخدام كلمات تركيا وأتراك وتركى  
وهي مصطلحات وردت من أوروبا بمعنى الدولة العثمانية والعثمانيين والعثافي  
بعيد عن الدقة في الصياغة اللفظية حتى أوائل القرن العشرين . أما كلمتا

---

(١) خانقوات أو شوائق . مفردا خانقاه . ومعناها الدار التي يظفر فيها الصوفية  
لعبادة الذكر وتلاوة الأوراد . والخوائق غير الخوائيق التي تمنى المرض للمسي اللبحة .

(٢) الصفة من اسم عثمان في اللغة التركية « عثمانلي » ، وفي اللغة العربية « عثماني » .

(٣) الغازي كلمة تركية مأخوذة من اللغة العربية بمعنى المجاهد .

(٤) محمد جميل بهم : فلسفة التاريخ العثماني . أسباب الخطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها .

تركي وآراك فقد كان العثمانيون يطلقون هاتين اللفظتين على الأجناس التركية المتخلفة في نظرهم والتي كانت تقطن في آسيا ، مثل السلاجقة والتركمان والأوزبك (١) Buzbega فكان العثمانيون يتمسكون بكلمتي « عثماني » و « عثمانيين » لقباً مميزاً لم تعبيراً عن اعتزازهم بانتمائهم إلى عثمان الأول من ناحية ، واستعلاء على هذه الأجناس التركية الآسيوية المتبربرة في نظرهم (٢) Les Barbares asiatiques de race turque من ناحية أخرى .

وبعض العصور والأجيال والأحقاب استخدم العثمانيون حتى أوائل القرن العشرين كلمتي تركي وآراك في معنى ينبثق عن الاستعلاء الذي كان سمة بارزة في أخلاقهم . فكانوا يطلقون لفظة تركي على الفلاح العثماني الجاهل أو أحد سكان قرى الأناضول بمعنى واحد هو الجلف (٣) تهكماً عليه ، أو تحقيراً له ، أو سخرية به . وقد ذهب العثمانيون إلى أبعد من ذلك ، إذ كان إطلاق كلمة تركي على أحد العثمانيين المقيمين في العاصمة أو في إحدى المدن العثمانية يعتبر إهانة له (٤) ، على الرغم من أن لغتهم كان يطلق عليها في جميع العصور التاريخية اللغة التركية (٥) .

---

(١) Lavisse Ernest et Rambaud Alfred; Histoire Générale du Quatrième Siècle à Nos Jours. 12 Tomes. Paris. t. v, 3 ème édition, 1922, p. 886.

(٢) Loc. cit.

(٣) الجلف بكسر الجيم وسكون اللام . جمعها أجلاف ، على وزن حل وأحمال . وهي مأخوذة من أجلاف الشاة ، وهي الملوخة بلا رأس ولا قوائم ولا بطن . وكان العرب يطلقون كلمة جلف على الشخص اللفظ الشرس غليظ القلب الذي لم يكتسب أخلاق أهل الحضرة في رقيهم ولين طباعهم ودمائة أخلاقهم . فإذا تخلف مثل هذا الشخص بسلوكهم الاجتماعي الممتاز فكانه نزع جلده وليس فيه .

(٤) Lewis Bernard; op. cit., pp. 1—2, f.n. No 1, p. 2.

(٥) يخرج بعض المؤرخين على هذا التعميم ، فيذكرون حين يتكلمون عن اللغة التركية صراحة « اللغة التركية العثمانية » .

ويحدد أحد المؤرخين الحرب العثمانية اليونانية التي اشتملت في عام ١٨٩٧ (١) تاريخاً تغير فيه تقديراً تاماً مدلول كلمات تركيا وأتركى للدلالة على الوطن التركي والشعب التركي (٢) ويستند في رأيه إلى قصيدة نظمها الشاعر العثماني محمد أمين بك بمناسبة هذه الحرب جاء فيها .  
« بن برتوركم حنسم أولو در » (٣) .

ومعناها « أنا تركي ، ديني وجنسي من أعظم الأديان والأجناس » . ولا يمكن الأخذ بهذا التوحيد الزمني ، لأن الحالة التي تكلم فيها مينورسكي Minorshky تعد من الحالات النادرة والشخصية . أما التوحيد الرسمي والقانوني والدولي لاستخدام تلك الكلمات الثلاث بمعناها الحديث فهو عام ١٩٢٣ حين أعلن قيام النظام الجمهوري في تركيا . وكان الباحث لمصطفى كمال أتاتورك وزعيم الحركة الكمالية وأول رئيس للجمهورية التركية على استخدام تلك الكلمات الثلاث بمعناها الحديث هو الابتعاد بشعبه عن الخط الإسلامي للدولة ونبذ تقاليدها وتغيير حياتها الثقافية والاجتماعية وتشريعها الإسلامية ونظمها السياسية ، وازدياد الاقتراب من أوروبا في حركة عبور لشعب تركي بمخاز حدود بلاده لاستبدال حضارة أوروبية جديدة بحضارة إسلامية كانت تطبع حياة الدولة وشعبها بطابع إسلامي مسيطر وبارز .

(١) تسمى هذه الحرب حرب الثلاثين يوماً ، لأنها استمرت قرابة شهر ، إذ أعلن السلطان عبد الحميد الثاني الحرب في السابع عشر من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٩٧ ، ثم أعلنت الهدنة في التاسع عشر من شهر مايو - آيار - عقب تدخل الدول الكبرى . وأبرمت معاهدة الأستانة في اليوم الرابع من شهر ديسمبر - كانون أول - ١٨٩٧ ، ونصت على أن تجلو القوات العثمانية عن إقليم ثساليا Thessaly ماعدا قرية واحدة وبعض مواقع إستراتيجية . واستولت اليونان على هذا الإقليم للمرة الثانية .

انظر أسباب الحرب وملازماتها ونصوص معاهدة الأستانة في :

\* Miller W.; The Ottoman Empire and its Successors 1801—1927.  
London, 1927, pp. 435—438.

Minorshky V.; Encycl. of Islam Art. Turan. (٢)

Loc. Cit. (٣)

Lewis B.; qq 333—343. وأنظر تفصيلات أوفى من هذا الموضوع كتبها الأستاذ



## نظرة الأوروبيين إلى الدولة العثمانية :

ونظر الأوروبيون إلى الفتوح العثمانية في أوروبا على أنها فتوح إسلامية . ووقر في أذهانهم أن أى نصر عسكري تحققه الدولة العثمانية إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية . فباسم الإسلام فتح السلطان محمد الثاني عام ١٤٥٣ القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية واتخذها عاصمة لدولته . واستبدل اسماً جديداً هو إستانبول<sup>(١)</sup> ، ومعناها دار الإسلام ، باسمها القديم وهو القسطنطينية . وأطلق على هذا السلطان « محمد أبو الفتوح » أحياناً ، و « محمد الفاتح » أحياناً أخرى . وباسم الإسلام شرع هذا السلطان ينفذ مشروعاً خطيراً هو الاستيلاء على روما مقر البابوية . ونزلت القوات الإسلامية العثمانية في أوترانت Otranto في مملكة نابولي عام ١٤٨٠ ، وأسرت أحد عشر ألفاً من سكانها ، واعتزم محمد أبو الفتوح أن يتخذ من أوترانت قاعدة زحف منها شمالاً في شبه جزيرة إيطاليا حتى يصل إلى روما . وأقسم ليقدم الطعام يديه إلى حصانه وهو واقف على مذبح الكنيسة البابوية في روما . ولكن عاجلته المنية في اليوم الثاني من شهر مايو - آيار - عام ١٤٨١ ، وتنفست أوروبا الصعداء حين علمت بوفاة ، وأمر البابا أن تقام صلاة الشكر *Te Deum* ثلاثة أيام . وباسم الإسلام استولى السلطان سليمان المشرع على بلغراد ثم جزيرة رودس ، وكانت معقلاً لطائفة فرسان القديس يوحنا ، ثم دخل بودابست عاصمة المجر . وباسم الإسلام والانتصار للإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة حرب شمالي إفريقيا في الصراع الصليبي الذي احتدم بينهم وبين الإسبانين والبرتغاليين الذين أرادوا احتلال هذه الأقاليم وتحويل سكانها إلى المسيحية .

(١) يرد اسمها في صيغ مختلفة هي :

إستانبول (بصرف النون) ، إستانبول (بصرف الميم) ، إسلامبول (بصرف الألف واللام) . وكان يطلق عليها في بعض الأوقات دار الخلافة ، ودار السعادة . وفي القرن التاسع عشر ، يرد ذكرها في كثير من الفرمانات السلطانية على هذا النحو : الآستانة ، وهي كلمة فارسية معناها نصية . ولا يطلق عليها بعد إعلان النظام الجمهوري في تركيا الحديثة سوى إستانبول . انظر ثبت المصطلحات التركية في نهاية هذه الدراسة .

وبذلك حفظت الدولة العثمانية لشمال إفريقيا إسلامه وعرويته . وأوغلت الحياوش العثمانية في زحها على قلب أوروبا حتى بلغت مشارف فيينا . وكانت الأساطيل العثمانية تحقق أمجاداً حربية رائعة ومتلاحقة على التكتلات الصليبية وبخاصة في الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط (١) . وتصادم العداء نتيجة هذا الصراع بين أوروبا المسيحية والدولة الإسلامية العثمانية .

ولذلك لم يكن أمراً عجباً أن الأجيال المتعاقبة من الأوروبيين والتي عاصرت الدولة العثمانية على امتداد تاريخها الحافل قد ربطت في عقولها بين الإسلام والدولة العثمانية . وتداعت إلى أفئدتهم ذكريات الفتوح الإسلامية الكبرى في صدر الإسلام . واعتقدوا أن هذه الدولة هي الرمز الحي للمسلم للإسلام . وبمضي السنوات والأحقاب والأدهار ازداد هذا الربط عمقاً ورسوخاً في أذهانهم . فكان إذا دخل أحد مسيحي أوروبا في الإسلام لم يقل عنه الأوروبيون إنه أصبح مسلماً ، بل قالوا عنه إنه غداً عثمانياً . حتى لو كان هذا التحول قد حدث في فاس أو أصفهان (٢) . وهكذا أصبحت عبارة الدولة العثمانية مرتبطة بالدين الإسلامي بعروة وثقى لا انفصام لها ، مما أدى إلى تصاعد موجات الحقد والعداء بين الغالبية العظمى من الحكومات والشعوب الأوروبية للدولة العثمانية بصفتها دولة إسلامية تحكم شعوباً مسيحية أوروبية .

ومما هو جدير بالذكر أن ريتشارد نولز Richard Knolles مؤرخ عصر الملكة إليزابيث Elizabeth في إنجلترا (١٥٥٨-١٦٠٣) وصف الشعوب الأوروبية العام تجاه الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية ضد أوروبا فكتب هذه الجملة المعبرة « إن الإمبراطورية العثمانية هي مصدر الرعب في العالم » (٣) . ومع ذلك فإن العثمانيين لم يزجوا بأنفسهم في الصراع المذهبي

---

(١) من نشاط الأسطول العثماني أنظر ص ص ٨٦٦ - ٨٩٨ في الفصل الثامن والعشرين في هذه الدراسة .

Lewis Bernard; op. cit., p. 13.

(٢)

Lewis Bernd; Politics and War. Princeton. Near East Paper. (٣)

Number. Program in Near Eastern Studies. Princeton University. 1975. p. 199.

الدموى الذى نشب بين الكاثوليك والبروتستانت ، ولذلك كانت الدولة العثمانية ملاذاً تستهوى أفئدة المضطهدين والمضطهدين فى الأرض الأوروبية يلتصقون فى رحابها الأمن والملاذ والتسامح . وقد كتب مارتن لوتر فى كتيب نشره فى عام ١٥٤١ أن الفقراء المسيحيين الذين يظلمهم الأمراء الجشعون وأصحاب الأرض يفضلون أن يعيشوا تحت حكم الأتراك ولا يعيشون فى كنف حكام مسيحيين يمارسون أساليب ظالمة فى حكم الفقراء» (١) .

أفادت الحكومات والشعوب الأوروبية التى خضعت للدولة العثمانية لتجدها نفسها تخضع لأول مرة فى تاريخها لحاكم مسلم ، ومن ثم عملت جاهدة على تصفية هذا الوجود الإسلامى العثمانى من أراضيها ، وأسهمت معها دول أوروبية لم يمتد إليها الحكم العثمانى . ولكن جمعت بينها وحدة الهدف فى الانتصار للمسيحية والقضاء على الإسلام ودعم مصالحها الاستعمارية بتوزيع الممتلكات العثمانية أسلاباً بينها . وتأسيساً على هذه النظرة الأوروبية فإن المحالفات الدولية التى واجهتها الدولة العثمانية عبر تاريخها الحافل—وما كان أكثر هذه المحالفات—كانت فى لحمتها وسداها محالفات صليبية ضد الإسلام ، أملت لها روح صليبية ووجهتها روح صليبية . وكانت حكومات بعض الدول الأوروبية منحرض رعايا الدولة العثمانية المسيحيين على الثورة ، وتقدم بالأسلحة والخاثر والأموال لإجراء مذابح عامة بين رعايا الدولة المسلمين أصلاً ورعاياها الذين اعتنقوا الإسلام لنشر الرهبة والذعر بين هؤلاء الأخيرين كى يرتدوا إلى المسيحية . وكانت هذه الحكومات تبذل لهم وعوداً بغيره وبراقة بتعويضهم مالياً وعمرانياً إذا فشلت أمثال هذه الثورات أو لم تسفر المذابح العامة عن تحقيق أهدافها المرجاة . وأطلقت الحكومات الأوروبية على السلطان العثمانى شتى الأوصاف : فهو « رجل أوروبا المريض » حيناً ، و « المريض الذى لا يرجى شفاؤه » حيناً ثانياً ، و « المريض الذى يجب الإجهاز عليه شفقة به ورحمة عليه حتى يستريح ويريح » حيناً ثالثاً .

### الدولة العثمانية دولة متوسطة :

تعد للدولة العثمانية دولة متوسطة Un Etat Méditerranéen أى .

من دول البحر المتوسط . وكان يطلق عليه العثمانيون « آق دكيز » (١) . إذ كانت الدولة تطل على معظم سواحل هذا البحر : الساحل الشرقى بأكمله ، والساحل الجنوبي بطوله ابتداء من مصر حتى الحدود الشرقية لمراكش ، المملكة المغربية حالياً (٢) ، والساحل الشمالى فى ثلثه الشرقى تقريباً حتى البحر الأدرياتي (٣) الذى تطل على مدخله ألبانيا ، ويطلق عليها العثمانيون « أرناؤط لى » ، كما يطل عليه إقليم الجبل الأسود Montenegro ، ويطلق عليه العثمانيون « قره داغ » . وعززت الدولة العثمانية وجودها العسكرى والسياسى والدينى فى البحر المتوسط باستيلائها على عدد من الجزر الهامة القائمة فى حوضه الشرقى مثل رودس (١٥٢٢) ، وقبرص (١٥٧١) وكريت أو كريد (١٦٦٩) (٤) . وإن كانت قد أخفقت فى الاستيلاء على جزيرة مالطة عام ١٥٦٥ فى أواخر حكم السلطان سليمان المشرع بعد أن تكبد العثمانيون خسائر فادحة فى الأرواح والسفن والعتاد : وكان فرسان القديس يوحنا قد اتخذوا من جزيرة مالطة مركزاً لنشاطهم الصليبي ضد السفن الإسلامية فى حوض البحر المتوسط . وظلوا بها حتى شهر يونيو - حزيران ١٧٩٨ عقب استيلاء بونابرت عليها وهوى طريقه إلى مصر على رأس الحملة الفرنسية . ونجحت أيضاً الدولة العثمانية فى الاستيلاء على عدد من جزر البحر الأيوني وبحر

(١) أطلق العرب عدة أسماء محلية مختلفة على البحر المتوسط . وكان من بينها .

بحر الروم أو البحر الرومى على الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

بحر الفرنج ، أو بحر الفرنجة ، أو بحر الإفرنجية على حوضه الغربى .

بحر مصر ، أو بحر الإسكندرية فى جزئه الواقع أمام الساحل المصرى .

بحر الشام ، أو البحر الشامى فى جزئه الذى تطل عليه بلاد الشام .

(٢) لم تدخل مراكش فى نطاقه الأقاليم التى امتد إليها النفوذ العثمانى فى شمال إفريقيا ، لأن هذا النفوذ لم يطل أكثر من بضعة شهور فى عام ١٥٥٤ على عهد السلطان سليمان المشرع . وستعرض لهذا الموضوع فى موطن قادم فى هذه الدراسة ( ص ص ٩٣٤ - ٩٣٦ ) فى ثنايا الفصل التاسع والعشرين فى الجزء الثانى .

(٣) يطلق عليه أيضاً البحر الإدرىاتى .

(٤) كان العرب يطلقون على جزيرة كريت اسم إقريطس .

إيجيه (١) . وكانت هذه الجزر أو معظمها جيواً صليبية بعد انحسار موجة المد الصليبي الأوروبي عن الشرق الإسلامي بسقوط عكا آخر معقل للصليبيين في بلاد الشام في اليوم الثامن عشر من شهر مايو - آيار - عام ١٢٩١ على عهد السلطان خليل ابن السلطان قلاوون من سلاطين دولة المماليك البحرية : فانخذت الحركة الصليبية من هذه الجزر قواعد عسكرية بحرية تتعرض للسفن الإسلامية ، العثمانية والعربية ، في أعالي البحار وتستولى على شحناتها ، وتأسر كبار ركبها وسيداتها ، وتقذف بالباقيين في أعماق البحر . كما كانت السفن الصليبية من وقت لآخر تقوم بغارات تخريبية مباغتة على موانئ مصر والشام والأناضول . وحصت عزيمة الدولة العثمانية على تصفية هذه الجيوب أو القواعد الصليبية تأميناً لأرواح المسلمين وأموالهم في البحر والبر من شرور الصليبيين . وهكذا سيطرت الدولة العثمانية على ما يمكن أن نسميه جزر وقواعد الخوض الشرق للبحر المتوسط . كما سيطرت سيطرة كاملة في معظم الأوقات على البحر الأسود . وكان العثمانيون يطلقون عليه « قره دكيز » . وجاء حين من الدهر نجح العثمانيون في جعل البحر الأسود بحيرة عثمانية مغلقة ، ومنعوا خروج السفن الروسية من هذا البحر إلى المياه الدافئة - أي مياه البحر المتوسط - ثم سمحوا ، تحت الضغط الروسي حيناً ، ونحت ضغط الدول الأوروبية الكبرى حيناً آخر ، بمرور السفن عبر مضيق الدردنيل وبحر مرمرة ومضيق البوسفور إلى البحر الأسود والخروج منه تحت قبود معينة . وسنعرض لهذا الموضوع في شيء من التفصيل في موطن قادم في هذه الدراسة (٢) .

### الدولة نخوض صراعاً حربياً ضد الدولة الصفوية في فارس :

خاضت الدولة العثمانية صراعاً حربياً ضارياً ضد الدولة الصفوية في فارس . وكان يحكم الأخيرة الشاه اسماعيل الصفوي ( ١٥٠١-١٥٢٤ ) ، وهو المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية . واتخذ المذهب الشيعي مذهباً رسمياً

( ١ ) كان يطلق على جزائر بحر إيجيه « جزائر بحر سفيد » .

( ٢ ) انظر في هذه الدراسة ص ١٩٠ - ٢٢٠ .

للدولة (١) . وعمل على نشره في العراق . ونجح في ذلك إلى حد بعيد . ثم حاول نشر هذا المذهب في الأناضول ، وهي الموطن الأصلي للدولة العثمانية . ولقى المذهب الشيعي استجابة واسعة من رعايا الدولة وبخاصة في شرق الأناضول . واشتهر هؤلاء الشيعة باسم قزل باش (٢) أى أصحاب الرموس الحمراء . فهب السلطان العثماني سليم الأول ( ١٥١٢-١٥٢٠ ) لاستئصال الخطر الشيعي الزاحف عليه ، وانتصر على الشاه اسماعيل في موقعة تشالديران في أغسطس - آب - عام ١٥١٤ ودخل في العام التالي تبريز العاصمة ، وهرب الشاه إلى جوف بلاده . واستولى سليم على كثير من بلاد أرمينية الغربية وما بين النهرين وتبليس وديار بكر وجميع الأراضي الجغوية حتى الرقة والموصل وهبط بالدولة الصفوية إلى دولة من الدرجة الثانية . ثم عاد سليم إلى إستانبول ليعد العدة لصراع حربي ضد أقاليم الشرق العربي الإسلامي .

الدولة تتجه نحو الشرق العربي الإسلامي :

### فتح الشام ومصر :

وفي هذا الصراع ضد الأقاليم العربية الإسلامية في الشرق ظهرت الدولة العثمانية لأول مرة في تاريخها كدولة من دول البحر الأحمر . ولّى سليم وجهه شطر بلاد الشام (٣) وكانت جزءاً من دولة المماليك الشراكسة وانتصر في معركة مرج دابق في أغسطس - آب - ١٥١٦ على السلطان الغوري .

---

(١) أمر الشاه اسماعيل الصفوي بعد اعتلاله العرش الخطباء في أذربيجان أن تكون الخطبة باسم الأئمة الاثني عشر . وأمر المؤذنين أن يضيفوا إلى الأذان صيغة الشيعة وهي « أشهد أن علياً ولي الله » . وأمر الجنود بقتل كل من يمارس ذلك .

(٢) قزل باش كلمتان تركيتان . « قزل » معناها أحمر اللون . و « باش » معناها رأس .

(٣) أطلق فريق من المؤرخين والباحثين المسلمين عبارة « بر الشام » على بلاد الشام ، بينما أطلق فريق آخر منهم عليها « الشام » . وأطلق عليها أقرانهم الأوروبيون كلمة « سوريا » ونكتب أيضاً « سورية » و La Syrie بالفرنسية و Syria بالإنجليزية . بينما تمسك سكانها بأسماء محلية كان بعضها ذا طابع جغرافي ، وكان البعض الآخر ذا طابع طائفي . ولما فتح العثمانيون بلاد الشام قسموها إلى عدة أقسام إدارية أطلقوا على كل قسم اسماً خاصاً كما سنرى في موطن قادم في هذه الدراسة .

وتساقطت في يديه تباعاً المدن الرئيسية : حلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق .  
وانساب جنوباً واستولى على فاسطين ودخل مصر حيث انتصر على السلطان  
طومان باي آخر سلاطين دولة المماليك الشراكسة في معركة الريدانية في يناير -  
كانون ثان - عام ١٥١٧ ودخل سليم القاهرة في اليوم السادس والعشرين  
من ذات الشهر . وتم له بعد حين القبض على غريمه طومان باي واقتيد إلى  
المشنة . وبذلك طويت صفحة دولة المماليك الشراكسة ، وانتقلت من مسرح  
التاريخ إلى كتبه .

### دخول الحجاز وبعض مناطق في اليمن تحت السيادة العثمانية :

وفي أثناء إقامة السلطان سليم في مصر استقبل وفداً من أعيان الحجاز بعث  
به الشريف بركات أمير مكة المكرمة . وكان على رأس هذا الوفد ابنه  
« أبو نعي » وحمل معه رسالة من والده أعان فيها الشريف بركات قبوله دخول  
الحجاز تحت السيادة العثمانية ، وأرسل مع ابنه مفاتيح الكعبة الشريفة وبعض  
مخلفات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : وبذلك دخل الحجاز دخولا  
تلقائياً وسلمياً تحت السيادة العثمانية . ونهج هذا النهج الأمراء المماليك الذين  
كانوا يحتلون وقتذاك بعض مناطق في اليمن . على هذا النحو دخلت في خلال  
سنة واحدة ( ١٥١٦-١٥١٧ ) أربعة أقاليم إسلامية عربية هامة هي : الشام ،  
ثم مصر ، ثم الحجاز ، ثم أجزاء من اليمن ، تحت الحكم العثماني ، وزاد عدد  
رعاياها المسلمين العرب زيادة كبيرة للغاية . وأصبح البحر الأحمر بحيرة  
عثمانية تقريباً . فصر والحجاز واليمن تطل على أجزاء طويلة من ساحليه الشرقي  
والغربي ، وتلحم الطابع الإسلامي العثماني للبحر الأحمر حين فتح السلطان سليمان  
المشرع ( ١٥٢٠-١٥٦٦ ) الذي خلف والده سليم الأول كلا من مصروع  
وسواكن عام ١٥٥٧ منتهزاً فرصة اندلاع حرب أهلية في الحبشة . وقد  
نجحت الدولة في تخفيف الضغط البرتغالي على التجار العرب والإمارات  
العربية الساحلية . كما أوقفت الاعتداء البرتغالي إلى حد جعله يعجز عن أن  
يعد مواقعه إلى داخل البحر الأحمر وإلى الولايات العربية الداخلية ، وحطمت  
المحاولات التي بلها البرتغاليون لتكوين جبهة مسيحية منهم ومن الأحباش ضد

القوى العربية الإسلامية في البحر الأحمر وشرق إفريقيا . ولكن إحقاقاً للحق لم يكن الحجم الضئيل نسبياً من التجارة العالمية الذي استطاع العرب أن يجلبوه إلى الطريقين التجاريين القديمين - وهما طريق العراق والشام، وطريق البحر الأحمر ومصر - على الرغم من الحصار البرتغالي لم يكن كافياً لأن يعيد الازدهار الاقتصادي الذي عاش العرب في ظلالة الوارفة من التجارة العالمية قبل وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية . ولكن حسب الدولة العثمانية أنها أضفت الأمن والأمان على البحر الأحمر وجعلته بحراً إسلامياً مغلقاً في وجه السفن البرتغالية، ثم عممت هذا المبدأ على جميع السفن المسيحية فحرمت عليها الإبحار في مياه البحر الأحمر شمالي ثغر الحما في اليمن . فكان على هذه السفن أن تفرغ شحناتها في هذا الميناء ثم يعاد شحنها على سفن إسلامية يعمل عليها قباطنة وبحارة مسلمون وتمخر عباب البحر الأحمر وتتردد على ثغوره حتى السويس شمالاً . وكانت حجة الدولة أو ذريعتها في هذا المنع أن أهم الأماكن الإسلامية المقدسة في العالم على الإطلاق تقع في الحجاز . وتطل سواحل هذا الإقليم على مياه البحر الأحمر . فيجب أن تكون الملاحة فيه مقصورة على السفن الإسلامية . وظلت الدولة حريصة على تطبيق هذا المبدأ حتى القرن الثامن عشر الميلادي :

ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين بعامه والمؤرخين العرب بخاصة كانوا يطلقون على البحر الأحمر بحر الحجاز<sup>(١)</sup> قبل أن تصبح الدولة العثمانية صاحبة

(١) من هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال :

أبو شامة . الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . ج ٢ ، ص ٣٥ ، ٣٧ .  
ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . تحقيق المرحوم الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين الشيال . ج ٢ ص ١٣٠ .

ابن لياس . بدائع الزهور في وقائع الدهور . تحقيق الأستاذ الدكتور محمد مصطفى . ج ٤

ص ١٠٩

انظر بحثاً للدكتور حسين محمد ديب في :

مجلة كلية العلوم الاجتماعية . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .



السيادة على معظم الأقاليم التي تطل على ساحليه . وكان مرد هذه التسمية إلى أن البحر الأحمر هو الطريق البحري المؤدى إلى بلاد الحجاز حيث يأتي إليها المسلمون من كل فج عميق لأداء الحج والعمرة ، أو الاعتار فقط .

وهكذا أصبحت الدولة العثمانية تضم بين أقاليمها العربية ، منذ حكم السلطان سليم الأول ، الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز وعلى رأسها المسجد الحرام حيث الكعبة الشريفة في مكة المكرمة ، والمسجد النبوي الشريف مثوى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في المدينة المنورة ، فضلاً عن المسجد الأقصى في فلسطين وهو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الله عليه الصلاة والسلام (١) ، مما أضفى على الدولة زعامة دينية في العالم الإسلامي وأضيف إلى ألقاب كل سلطان من سلاطين الدولة العثمانية لقب « حامي حرمي الحرمين الشريفين » تأكيداً لزعامة الدينية للدولة على العالم الإسلامي السني . وأوقفت الدولة أوقافاً كثيرة على الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز . وكانت إيراداتها تصب في خزانة مستقلة بالقصر السلطاني تعرف باسم « حرمين دولابي » (٢) . وجرت العادة في معظم الأوقات على تعيين كبير الأغوات الخصيان السود ناظرأ على أوقاف الحرمين . كما رصدت الدولة أوقافاً على المسجد الأقصى وأقامت أسواراً على طرفيه الجنوبي والشرقي .

---

١ - الرياض . العدد الأول عام ١٣٩٧ هـ تحت عنوان « بحر الحجاز في العصور الوسطى » . صص ٣٩٩-٤١٦ .

ومما يذكر أيضاً أن البحر الأحمر كان يطلق عليه « بحر القلزم » نسبة لمدينة « القلزم » الواقعة في أقصى الشمال في هذا البحر بالقرب من مدينة السويس . أما اسم « بحر السويس » فكان لا يطلق إلا على خليج السويس . ويرى البعض أن باب المندب وخليج عدن وخليج بربرة هو نهاية البحر الأحمر من ناحية الجنوب .

( ١ ) يقع المسجد الأقصى في الجزء الجنوبي الشرقي من مدينة بيت المقدس القديمة ، وهو يعد المسجد الجامع في بيت المقدس .

( ٢ ) انظر في هذه الدراسة صص ٤٤٥ - ٤٤٦ .

وكان مما أضفى على الدولة الطابع الدينى الإسلامى الراسخ والمتميز أنها كانت حريصة الحرص كله على الالتزام بتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية تطبيقاً دقيقاً فى تصرفاتها وإقامة الشعائر الإسلامية واحترام التقاليد الدينية ، وأنها أنشأت ، منذ زمن مبكر ، الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وجعلت لها اختصاصات واسعة ورصدت لها موارد مالية ضخمة ، وكان شيخ الإسلام هو الذى يرأس هذه الهيئة ، وكانت تعاونه مجموعات من كبار علماء الدين يشكلون أجهزة فنية متعددة الأسماء والاختصاصات وألحقت بمكتبه . وقد أحاطت الدولة شيخ الإسلام بكل مظاهر الإجلال والتكريم وتبوأ مكاناً علياً . وكان مركزه ينادد مركز الصدر الأعظم .

#### أمانات مقدسة :

اهتم سلاطين الدولة بمخلفات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه والتي كانت قد جاءت هدية من الشريف بركات أمير مكة المكرمة إلى السلطان سليم الأول فى أثناء إقامة الأخير فى مصر كرمز لدخول الحجاز تحت السيادة العثمانية . وقد حمل سليم هذه الهدية معه إلى إستانبول حيث حفظت فى خزانة قصر طوب قابى وأطلق عليها « أمانات مقدسة » وهى جملة عربية وضعت فى صياغة تركية . وكانت هذه الآثار تضم برده وعرفت فى اللغة التركية « خرقه شريف » . وسجادة صلاة ، والبرق النبوى - أى العلم النبوى - وقوساً وسهماً ، وحدوة فرس ، وسناً من أسنانه ، وشعيرات من لحيته ، وحجرأ يحمل أثر قدمه ، ومفاتيح الكعبة ، ونسختين من القرآن الكريم يقال لهما كانتا للخليفتين عثمان ، وعلى . وضمت إلى هذه المجموعة أسلحة وأدوات وثياب يقال إنها كانت للأنبيا السابقين والخلفاء والصحابه . وخصصت الدولة قوة عسكرية تتكون من أربعين فرداً لحراسة المخلفات النبوية . وكانت هذه القوة هى هيئة الفرقة الخاصة وتسمى « خاص أوطه ليه » وكانت بمثابة حرس شرف لبردة النبي صلى الله عليه وسلم ، وغيرها من المخلفات النبوية . وكان يقام فى منتصف شهر رمضان من كل عام حفل دينى يطلق عليه « خرقه سعادت » يرتل فيه القرآن الكريم ترتيلاً إلى ما بعد منتصف الليل ، ويحضر

هذا الحفل السلطان وشيخ الاسلام والصدر الأعظم وكبار رجال الدولة من أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وقادة أسلحة الجيش والأسطول وغيرهم. واستهدفت الدولة من إلقاء هذا الحفل الديني تعميق الفكرة الدينية الإسلامية في نفوس رعاياها وحملهم على مزيد من الالتصاق بالدين ونشر الجو الديني العابق في شهر رمضان المعظم .

وفتح السلطان سليمان المشرع لإقليم العراق عام ١٥٣٤ وامتد النفوذ العثماني إلى الأحساء المطل على الخليج العربي ثم إلى بعض إمارات ومشيخات هذا الخليج ، كما استولى على عدن . ومن ناحية أخرى أنشئت ثلاث نيابات عثمانية في شمال إفريقيا ، هي : الجزائر ثم طرابلس ثم تونس ، وبذلك امتد النفوذ العثماني إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط . وعلى هذا النحو اتسع نطاق الوجود العثماني في العالم العربي من الجزائر غرباً إلى الخليج العربي شرقاً ، ومن حلب شمالاً إلى خليج عدن وبحر العرب جنوباً . وزاد عدد الرعايا العرب في الدولة زيادة كبيرة للغاية بعد أن انجذبت في فتوحاتها نحو العالم العربي وأصبحت ذات صبغة عربية قوية بعد أن كانت ذات طابع أناضولي وأوروبي ، كما أنها غدت تضم — فضلاً عن قلب الإسلام : مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس — العواصم والأمصار الإسلامية العربية الكبرى مثل دمشق عاصمة الدولة الأموية ، وبغداد عاصمة الدولة العباسية التي كانت مركز إشعاع حضارى للعالم ، والقاهرة عاصمة الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية ودولتي المماليك حيث قام بها الأزهر الشريف القبلة العلمية الأولى للمسلمين ، والقبروان في تونس ، والكوفة والبصرة ، وكان يطلق عليهما « المصران » (١) .

### الدولة تحقق نجاحاً دينياً مذهبياً في الأناضول والعالم العربي :

وقد حققت الدولة العثمانية في حربها ضد الدولة الصفوية وفي فتوحاتها في العالم العربي نجاحاً كبيراً من الناحية الدينية المذهبية . فقد استأصلت الشيعة من الأناضول . ومنعت زحف المذهب الشيعي على الشرق العربي الآسيوي وعلى مصر . أما العراق فكانت له أوضاع خاصة . كان موطن العتبات

---

(١) بكسر حرف الميم ، وسكون حرف الصاد .

أو المزارات المقدسة ويضم آثار الشيعة. وكان الشاه اسماعيل الصفوى قد نجح كما ذكرنا في نشر المذهب الشيعى في ربوع العراق وأصبح الشيعة يشكلون قطاعاً رئيسياً من قطاعات السكان، ولهم تقاليدهم وعاداتهم ولا يرضون عنها ببديلا، إذ أصبحت جزءاً من عقيدتهم الدينية. ولما فتح السلطان سليمان المشرع العراق ودخل بغداد في ديسمبر - كانون أول - عام ١٥٣٤ حيث أقام أربعة أشهر عمل خلالها على إرضاء مشاعر أهل السنة وأهل الشيعة معاً. ورصد أوقافاً يتفق لإبرادها على أهل المذهبين. وخرج من بغداد في رحلة تعرف فيها على قبر أبى حنيفة وأعاد بناء ضريحه. وكان الشيعة من أهل فارس قد دنسوا رفاته وهدموا القبة والضريح. وعلى الرغم من أن السلطان سليمان كان سنياً حنفياً، زار العتبات المقدسة. وكانت المنطقة التى تحيط بكر بلاه تغمرها مياه الفيضان وتصل إلى العتبات المقدسة. فأمر ببناء سور يسمى السلمانية حول المدينة لوقايتها من مياه الفيضان، ثم وسع ترعة الحسينية كى تناسب فيها المياه على مدار السنة فزرعت المنطقة حول العتبات المقدسة بالبساتين وحقول القمح. وزار قبر الإمام على في النجف. وهكذا انتهج السلطان سليمان المشرع تجاه أهل السنة والشيعة سياسة تم عن الحكمة والحصافة ورحابة الأفق العقلى. أما أهل اليمن فقد احتفظوا بمذهبهم الشيعى وهو مذهب الإمامية الزيدية. كما كانت هناك طائفة قليلة نالعد نسبياً من الشيعة في لبنان يطلق عليهم « العلويون ». وفيما عدا ذلك كان سكان الولايات العربية من أهل السنة.

لم يكن الاحتلال العثمانى للعالم العربى استعماراً تحت ستار الدين :

ومنذ مطلع القرن العشرين ارتفعت أصوات بعض الباحثين وأشباههم ممن ليست لديهم خلفية تاريخية سليمة وعميقة يصفون الاحتلال العثمانى للعالم العربى بأنه كان شراً مستطيراً. ولعل أحدث هذه الأصوات ماكتبه بعض مستشارى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة فى الميثاق الذى صدر فى الحادى والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٩٦٢، إذ قالوا إن هذا الاحتلال كان استعماراً مقنعاً باسم الدين، والدين منه براء. وهم يجهلون أو يتجاهلون عدة حقائق هامة، منها أن المجتمعات

في العالم العربي وقتذاك كانت مجتمعات دينية إسلامية بكل ما تحمله هذه العبارة من مدلولات ، وأن الوشيجة الدينية ربطت المسلمين من رعايا الدولة بالسلطان العثماني بعروة وثقى على أساس أن السلطان كان الرئيس الأعلى لأكبر دولة إسلامية في العالم ، وأنه بحكم منصبه كان المهيم على الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والتي كان يرأسها شيخ الإسلام - مفتي إستانبول سابقاً - وذلك قبل أن يضفي السلطان على نفسه لقب خليفة في أواخر القرن الثامن عشر لأسباب سياسية استهدف منها إرهاب الدول الأوروبية الطامعة في ممتلكات الدولة ، كما أن العاطفة الدينية الإسلامية كانت أكثر تأصلاً وعمقاً في نفوس رعايا الدولة من العاطفة الوطنية - وعلى أحسن الفروض كانت العاطفتان الدينية والوطنية ممتزجتين مثابكتين بحيث كان يصعب الفصل بينهما . وكان يتصاعد ذلك الارتباط الوثيق بين الرعايا المسلمين والدولة كلما تعرضت لهزيمة عسكرية من الجيوش الأوروبية فكان هؤلاء الرعايا يزدادون التصاقاً بالدولة العثمانية ويزداد ولاؤهم عمقاً للسلطان العثماني .

ويرجع التصاق الولايات العربية وولاؤها للدولة العثمانية إلى أنها كانت تنظر إلى هذه الدولة على أنها الدرع الواقى الذى يحميها من شرور أطماع الاستعمار الأوروبي ، ويتيح لها في ظل الدولة العثمانية المسلمة قدراً كبيراً من الحرية في الحفاظ على تقاليدها المحلية الموروثة وفي مزاوله شعائرها الدينية ، وفي أن تحيا حياة أفضل - في نظرها على الأقل - فيما لو احتلتها دولة أوروبية مسيحية . وأطلق السكان العرب على القوات العثمانية المربطة في بلادهم اسم « الحامية العثمانية » بدلا من « جيش الاحتلال العثماني » . وعلى هذا النحو نشأت مصالح مشتركة بين الدولة العثمانية وولاياتها العربية . وكانت هذه المصالح هي الروابط الدينية والمصالح السياسية والحفاظ على التقاليد الإسلامية (١) .

وإذا كانت قد قامت في بعض الولايات العربية حوادث تمرد أو عصيان ،

(١) دكتور محمد وفست رمضان . حل بك الكبير . الناصر دار الفكر العربي . القاهرة .

فمن الخطأ وصفها بأنها حركات استقلالية أو انفصالية عن الدولة العثمانية ، لأنها كانت حركات تزعمها أصحاب عصبية أو قواد عسكريون (١) أو زعماء دينيون من أتباع مذاهب دينية إسلامية استهدفوا منها الانفراد بشئون الحكم والإدارة والمال على أن تكون الولاية في الأعم الأغلب في نطاق الدولة العثمانية . ومن الأمثلة التي تساق في هذا الصدد على بعض هذه الحركات بشى قياداتها : حركة على بك الكبير في مصر (٢) ، والنزاع بين قبائل الأكراد والباشوات العثمانيين في العراق ، وكذلك النزاع بين الزيدية والدولة العثمانية في اليمن وأسفر في إحدى مراحلها عن عقد اتفاق دعان (٣) .



(١) يستثنى من هؤلاء القواد العسكريين قائدان أحدهما جان برعى القرالى نائب الشام فقد أعلن نفسه سنة ١٥٢٠ على عهد السلطان سليمان المشرع سلطاناً على الشام وأمر بأن يذكر اسمه دون سواء في خطبة الجمعة وأن تضرب السكة باسمه على العملات الذهبية والفضية ، وأطلق على نفسه «الملك الأشرف أبو الفتوحات» وزينت له دمشق ثلاثة أيام وأوقدت له الشموع أمام المحلات . وقيل له الأمر الأرض . وقد فشلت قواته في دخول حلب وانتهت حركته بالقتل . ولحق مصرعه وأرسلت رأسه إلى إستانبول .

انظر :

ابن إياس ، مرجع سبق ذكره ، ج ٥ ، صص ٣٦٧-٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣-٣٧٧ ، ٣٨٢-٣٨٤ .

أما القائد الآخر فهو أحمد باشا ثالث الولاية العثمانية على مصر . تولى منصبه في أغسطس - آب - ١٥٢٤ وسولت له نفسه العصيان على الدولة وأمر بأن يضرب باسمه في المساجد وأن تضرب العملة باسمه واستفحلت حركته . وقد تصدى له الإنكشارية وقتلوه وأرسلوا رأسه إلى إستانبول . وكانت مدة ولايته ستة أشهر .

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربى لمصر إبان الحكم العثمانى . بحوث الندوة الدولية لألفية القاهرة (٢٧ مارس - آذار - ٥ أبريل - نيسان ١٩٩٩) . مطبعة دار الكتب بالقاهرة . ج ٢ ، ١٩٧١ ، صص ٦٦٧ - ٧٢٥ .

(٣) انظر خطاب الإمام يحيى إلى وفد علماء مكة المكرمة بتاريخ ١٨ من شهر شعبان عام ١٣٢٥ الموافق ٢٨ من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٩٠٧ وقد أعلن فيه ولاءه وخضوعه للسلطان العثمانى . ولكنه طالب في ذات الوقت بالاعتراف بوضعه الخاص في اليمن . وانظر أيضاً لخصوص اتفاق دعان الذى عقد بين الإمام يحيى والقواء أحمد عزت باشا في فترة شهر ذى القعدة =

ب وفاة السلطان سليمان المشرع عام ١٥٦٦ ينتهى العصر الأول من تاريخ الدولة وهو عصرها الذهبى ، بلغت فيه الأوج من النفوذ الدولى والقوة الحربية والتوسع الإقليمى المطرد . ويبدأ العصر الثانى وقد تولى فيه الحكم عدد من السلاطين أطلق على عدد كبير منهم « السلاطين الثنابلة » (١) Les Sultans Fainéants انصرفوا عن مباشرة اختصاصاتهم وانغمسوا فى حياة المجون مع الجوارى الفاتنات فى الحرير السلطانى . وأصبحت الكلمة العليا فى الدولة لمراكز القوى ، وهى : القياق الإنكشارية ، والحرير السلطانى ، والأغوات الخصيان . وأخذت الدولة تفقد رويداً رويداً ممتلكاتها فى القارات الثلاث . وكانت معاهدة كارلوفتز Karlovitz ( ٢٦ من يناير - كانون ثان - عام ١٦٩٩ ) أول معاهدة تفرض عليها كدولة منزومة بعد حرب خاضتها وتنازلت فيها عن أقاليم واسعة كانت تحت الحكم العثمانى وتعد جزءاً من دار الإسلام وانتقلت إلى دار الحرب . فكانت هذه المعاهدة استهلالاً مبيتاً للقرن الثامن عشر فى تاريخ الدولة . وتعاقب فرض معاهدات جائرة عليها . واستطال اضمحلالها فترة ناهزت المائة والخمسين عاماً لأنها كانت دولة ذات جنود عميقة ودعائم راسخة بحيث لم يكن من السهل أن تختفى هذه الدولة العملاقة فى سنوات ذات عدد . ويعد مؤتمر برلين الأوروبى ( ١٨٧٨ ) هو بداية النهاية بالنسبة لها . إذ تكتلت عليها فى هذا المؤتمر وفى خلال السنوات القليلة التى لحقته الدول الكبرى مثل روسيا ، والنمسا والمجر ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والكيانات السياسية البلقانية التى كانت خاضعة للدولة ونجحت هذه وثلاث فى تمزيق أوصال الدولة . واستطاع السلطان عبد الحميد الثانى فى ظروف متناهية فى ظلامها وقسوتها أن يحافظ على تماسك ما تبقى من الدولة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وأن يتمسك بتقاليدها وطابعها الإسلامى

---

= عام ١٣٢٩ الموافق ٢٤ من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١١ فى : دكتور السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث . اليمن والإمام يحيى . ( ١٩٠٤-١٩٤٨ ) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة ، ١٩٦٣ ، صص ٤٨٩ - ٤٩٧ .  
(١) أنظر صص ٦٠٣-٦٠٤ فى هذه الدراسة .

حتى إذا عزله رجال الطغيان العسكري وبعض الصهيونيين عام ١٩٠٩ (١) انفردوا بالحكم وزجوا بالدولة في مغامرات خارجية لتغطية فشلهم في الحكم . وكانت النتيجة أن سقطت الدولة في أعقاب الحرب العالمية الأولى بعقد هدنة مندروس Mudros ( ٣٠ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٨ ) ومعاهدة سيفر Sèvres ( ١٠ من أغسطس - آب - عام ١٩٢٠ ) .

### مدى نجاح الدولة في نشر الإسلام في أوروبا :

ولم تنجح الدولة العثمانية نجاحاً كلياً في نشر الإسلام بين جميع رعاياها المسيحيين في ولاياتها الأوروبية لأسباب خارجة عن إرادتها . وسنبسط هذا الموضوع في شيء من التفصيل في كتابنا القادم بمشيئة الله وهو « دور الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا وموقفها من أهل اللمة » . ولكن النجاح « المخلود » الذي حققته الدولة في مجال الدعوة الإسلامية كان من حيث نتائجه وآثاره أكثر بكثير من نجاح الدولة في فتوحاتها العسكرية الإسلامية وفي عثمانة L'Ottomanisation الشعوب المسيحية الأوروبية التي دانت لحكمها (٢) فإن الفتوحات الإسلامية العثمانية قد انحسرت في القرون التالية للقرن السادس عشر حيث بلغت الدولة أقصى اتساعها الإقليمي في هذا القرن : وأصبحت الفتوحات الإسلامية العثمانية تاريخاً يروى للأجيال المتعاقبة عن مجد عسكري ذوى : أما العثمنة فكانت تكون معدومة . ولكن تركت الدولة بصماتها قوية واضحة في مجال نشر الدعوة الإسلامية في أوروبا . فعلى امتداد قرون وتعاقب عصور ودهور ظلت جماعات إسلامية تعيش إلى اليوم على تراث الأرض الأوروبية التي كانت جزءاً من الممتلكات العثمانية وتشكل على نحو من الأنحاء أقاليم هامة من « دار الإسلام » . ولم ترض هذه الجماعات الإسلامية عن دينها بديلاً . وقاومت شتى أنواع الضغوط التي بذلت لتحويلها إلى المسيحية بعد أن

---

(١) أنظر العصلين الثاني والثلاثين والثالث والثلاثين بعنوان (آراء محايمة في حكم السلطان عبد الحميد الثاني) في الجزء الثاني في هذه الدراسة .

(٢) أنظر في هذه الدراسة ص ٣٢١ - ٣٢٧ ، ٣٤٠ - ٣٤٢ .



غاب النفوذ الإسلامى العثمانى - العسكرى والسياسى - عن هذه الأقاليم ، وجاءت على أنقاضها دول مسيحية ذات حكومات مسرفة في تعصبها زروم القضاء على كل أثر إسلامى تركه العثمانيون ورائهم . ولكن ظل الأثر الحى المحسوس الباقى من الحكم العثمانى فى أوروبا : جماعات إسلامية تعيش إلى الوقت الحاضر فى بلغاريا ، ورومانيا ، وألبانيا (١) ، واليونان ، ويوغوسلافيا بما كانت تضمه الدولة الأخيرة قبل لإنشائها من أقاليم كانت تسمى الصرب والجبل الأسود والبوسنة والمهرسك فضلا عن بعض الجزر القائمة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط وبحر إيجه وبحر الأروخبيل :

ونسوق هنا مثالا يوضح هذه الحقيقة: فقد شهد الأسبوع الأول من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٧٧ أكبر حدث إسلامى دينى وثقافى فى أوروبا ، إذ افتتحت لأول مرة كلية للدراسات الإسلامية فى يوغوسلافيا حيث يعيش فيها اليوم أربعة ملايين مسلم . وستكون هذه الكلية نواة لجامعة إسلامية تدفع بالعمل الإسلامى فى أوروبا خطوات واسعة . واشترك فى افتتاح الكلية ، وقد أقيمت فى مدينة سبراجيفو Sarajevo عدد كبير من وفود الدول الإسلامية والجاليات الإسلامية فى أوروبا وأمريكا واشترك مندوب عن الأزهر الشريف تحدث باسم مصر . وتقوم الكلية حالياً بإعداد العلماء والأئمة والوعاظ والمدرسين ومن إلهيهم من العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية فى أوروبا ربطاً للجيل الجديد من مسلمى أوروبا بالإسلام وغرس مبادئه فى قلوبهم . وهكذا

---

(١) أغلقت المساجد وكذلك الكنائس والمعابد اليهودية فى ألبانيا منذ أن ساد الحكم الشيوعى هذه البلاد فى الستينيات من القرن العشرين . وكان عددها ٢١٦٩ مسجداً وكنيسة وبيعة . وقد تم إغلاقها « بإرادة الشعب الألبانى » كما جاء فى البيانات الرسمية . وقد نص الدستور الألبانى الشيوعى على حظر للشعائر الدينية أيّاً كان نوعه . وقامت السلطات الشيوعية فى ألبانيا بهدم عدد من دور العبادة ، واحتفظت بقلة منها كعالم ثقافية أثرية ، بينما أعادت فتح بقيتها كدور للمسارح والسينما أو كساكن أو كمستودعات .

نجد أن المسلمين في يوغوسلافيا - وهم حفدة أولئك الذين اعتنقوا الإسلام إبان الحكم العثماني - عملوا على حفظ التراث الإسلامي ودراسته وتجليته ونشره ، وإيجاد أجيال صاعدة من المسلمين يجمعون إلى الكفاية العلمية والمهنية التي اكتسبوها في المجتمعات الأوروبية الإيمان بالله والتفقه في العقيدة والشريعة ويقفون سداً منيعاً في وجه الدعوة التي تقوم بها القاديانية والبهائية في أوروبا ، ويصبحون مؤهلين للقيادة والريادة في كل المجالات الروحية والعلمية والمهنية (١).

والخلاصة أن الوجود الإسلامي العثماني في أوروبا بصفة خاصة قد أوجد موجات من الذعر بين الحكومات والشعوب الأوروبية من هذه الدولة التي كانت العسكرية الخصبية الأولى البارزة في بنيانها والغالبة على تصرفاتها . وصحب هذا الذعر حقد دفين عليها ، ومن ثم نشأت في أوروبا حملات إعلامية للتشهير بها . وبمضي الزمن انتقلت الحملات التشهيرية إلى بلاد الشام بوجه خاص ، إذ كانت بيئة صالحة لنمو هذه الحملات بسبب كثرة التنوع البشري واللغوي والديني بها ، وكثافة عدد البعثات التنصيرية بها واعتمادها على تدخل الحكومات الأوروبية وعلى نظام الامتيازات الأجنبية . وكانت الدولة قد أسهمت بطريق غير مباشر في تعميق حملات التشهير بها ، إذ أبت بصفة عامة على التقسيمات الإدارية التي كانت قائمة أيام دولة المماليك الشراكسة ، كما أبت على العصبيات الإقطاعية . وكانت ذات بأس شديد . ولم يكن أفرادها يكونون ولاء أو تقديرًا للدولة العثمانية . وردد المؤرخون والباحثون ورجال السياسة العرب حملات التشهير وأضافوا إليها جديداً .

---

(١) محمود مهدي ، رسالة بحث بها من يوغوسلافيا بعنوان « أربعة ملايين مسلم في يوغوسلافيا » ، ونشرت في جريدة الأهرام ، العدد ٣٢١٩٤ ، الصادر في ١٦ من شهر ذي القعدة ١٣٩٧ الموافق ٢٨ من أكتوبر - تشرين أول - ١٩٧٧ ، ص ١١ ، مجموعة السنة ١٠٢ .

ونرجىء الحديث عن هذه الحملات إلى أول الجزء الثاني حيث أفردنا لها أربعة فصول (١) بعد أن نبحث أولاً نشأة الدولة وخصائصها العامة وسياساتها العليا وهيئاتها الحاكمة ومراكز القوى فيها . فهذه الموضوعات تشكل عناصر أساسية في تاريخ الدولة بما انطوت عليه من مزايا وعيوب ، وما أتاحت من رغبة في التشهير ، أو اتجاه نحو النقد الموضوعي المحايد .



## الفصل الثاني

### نشأة الدولة العثمانية

#### أصل الأتراك العثمانيين :

دخل الأتراك العثمانيون آسيا الصغرى في الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادي كقبيلة من القبائل التركية التي كانت ، على فترات متباعدة حيناً ومتقاربة حيناً آخر ، تنزح من مناطق الإسكس في وسط آسيا متجهة غرباً نحو آسيا الصغرى أو الأناضول .

وتتعدد في التاريخ المبكر للعثمانيين روايات أدنى إلى الأساطير منها إلى الحقائق . وعلى الرغم من أن المؤرخين استقوا هذه الروايات من الحوليات العثمانية القديمة ، فإنهم لا يزالون على خلاف عميق حول قيمتها التاريخية : منهم من يلق عليها ظلالاً كثيفة من التشكك فيها . ومنهم من يعتبرها حقائق لا تشوبها شائبة من ارتياب تأسيساً على أنها دونت بمعرفة أناس عاصروا أحداثها .

ونقرر إحدى هذه الروايات أن تلك القبيلة التركية قد أسدت سنة ١٢٣٢ ، في أثناء رحالها في وهاد الأناضول خدمة جليلة لعلاء الدين الأول (١٢١٩-١٢٣٥) سلطان دولة الروم السلاجقة - ويطلق عليها أيضاً دولة الأتراك السلاجقة - فقد حدث أنها شاهدت جيشين يقتتلان ، وأدركت أن أحد الجيشين ليس ندأ للجيش الآخر ، فانضمت القبيلة إلى جانب الجيش الضعيف الذي كاد يلقى هزيمة محققة . وكان انضمام القبيلة إليه سبباً في انتصاره . وبعد المعركة كانت مفاجأة سارة للقبيلة التركية حين تبين لها أنها تدخلت لنصرة بني جلدتها ، وهم الأتراك ( ٣٢ - الدولة العثمانية )

السلالة الذين كانوا يحاربون فرقة مغولية من جيش الخان أوكتاي ابن جنكيز خان ، كان قد عهد إليها استكمال فتح آسيا الصغرى .  
وتندبراً لتدخل القبيلة التركية في المعركة أقطعها علاء الدين الأول سلطان دولة الأتراك السلجوقية بقعة مترامية من دولته<sup>(١)</sup> التي كانت تحتاز دوراً لاضمحلال ، وتدل هذه القصة على الطابع الحربى العنيف الذى اتسم به أفراد القبيلة التركية ، فقد خاضوا المعركة لغير مصلحة لهم . وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين الألمان يعتبرون هذه القصة من قبيل الأساطير التاريخية ، بينما يرى البعض الآخر من المؤرخين الإنجليز أن هذه القصة حقيقية لا مرأ فيها ، ويضيفون تعليقاً عليها بقولهم إن الدافع الحقيقى الذى دفع السلطان علاء الدين الأول إلى منحهم الأرض أنه لم يرحب في قرارة نفسه بهذه القبيلة . فقد أثبتت أنها على حظ موفور من الشجاعة والخبرة الحربية والكفاية القتالية ، ومن ثم فلم يطمئن إليها ، ولذلك لم يرغب في إدماج هذه القبيلة في قواته وانتهى تفكيره إلى منحها تلك الأراضي . وبهذا الإجراء يتخلص من هذه القبيلة من ناحية ، ويشغلها بالحرب - ضد الدولة الرومانية الشرقية - الدولة البيزنطية - المجاورة لها في نيقية من ناحية أخرى .

وفي ذات الوقت ظفر رئيس تلك القبيلة التركية واسمه أرطغرل بلقب « أوج بى » أى محافظ الحدود . وكان منح هذا اللقب اسماً يتمشى مع أحد التقاليد التي درجت عليها الحكومة المركزية في دولة الأتراك السلجوقية ، وهو منح أى رئيس من رؤساء العشائر يعظم أسماً ، ويالحق به عدد من العشائر الصغيرة لقب محافظ الحدود . وكانت دولة الأتراك السلجوقية تحرص أيضاً حرصاً بالغاً على أن تمين من بين رجالها رئيساً أو عدداً من الرؤساء ، يلقب كل منهم لقباً أكثر رفعة هو « أوج أميرى » أى أمير الحدود .

غير أن أرطغرل رئيس تلك القبيلة التركية كان ذا أطماع سياسية بعيدة ،

(١) كانت هذه البقعة تشمل للمعمرات الشرقية من جبال طومانجج Toumanidji وارمنى Ermeni يقضى فيها أفراد القبيلة فصل الصيف ، وسهول سوكود Soegud يقضون لى ربوها فترة الشتاء .

فلم يقنع بهذه المنطقة التي أقطعها إياه السلطان علاء الدين الأول ، ولم يقنع باللقب الذي ظفر به ، ولم يقنع بجمعة المحافظة على الحدود ، بل شرع يهاجم ، باسم السلطان علاء الدين ، ممتلكات الدولة الرومانية الشرقية - الدولة البيزنطية - في الأناضول ، ونجح في سياسة التوسع الإقليمي ، فضم إلى المنطقة التي يحكمها مدينة إسكي شهر<sup>(١)</sup> . وقد مات أرطغرل عن ثلاثة وتسعين عاما . وكان قد اتخذ سو كود مقراً له ودفن فيها . وحلفه في حكم المنطقة سنة ١٢٩٩ ابنه عثمان الذي سميت باسمه الأمة والدولة . وسرعان ما تمت هذه الإمارة حتى أصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت أقاليمها وولاياتها في آسيا وأوروبا وأفريقيا ، وغدت من أكبر الدول الإسلامية التي شهدتها التاريخ ومن أشدها بأساً وأعزها جنداً<sup>(٢)</sup> .

(١) يرد اسم هذه المدينة في بعض المصادر والمراجع التاريخية مكتوباً كلمة واحدة : إسكيشهر . وإسكي مضاهي اللفظة التركية «قديم» وتدخل هذه اللفظة في أسماء الأماكن ، فيقال إسكي شهر بمعنى المدينة القديمة ، وإسكي حصار بمعنى الحصن القديم . وإسكي شهر تقع في الجزء الغربي من إقليم الأناضول الأوسط ، على نهر يورسوق ، وهو فرع من نهر سقاريا . وتحتضن بشيرة واسعة وعريضة من عصور التاريخ . وفي الوقت الحاضر تشتهر بأنها مأوى هام للقطيعين الحديدين من إستانبول إلى أنقرة ، ومن إستانبول إلى قونية . كما تشتهر ببيتانيهما الحارة وبالصصلال الذي يوجد بجوارها .

(٢) ظهرت في سنة ١٩٣٥ دراسة جديدة باللغة الفرنسية عن نشأة الدولة العثمانية قام بها الأستاذ محمد فؤاد كوبرلي أحد كبار المؤرخين الأتراك حمل فيها حلة حديثة على آراء المؤرخ الإنجليزي جيبونز Gibbons الذي سطعها في كتابه تأسيس الإمبراطورية العثمانية *The Foundation of the Ottoman Empire* والذي نشره في سنة ١٩١٦ وخلاصة الدراسة التي انتهى إليها الأستاذ كوبرلي أن الأتراك العثمانيين ينتمون إلى قبيلة وفدت على الأناضول مع السلاجقة الفاتحين . وفي أواخر القرن الثالث عشر كان أرطغرل ثم عثمان من بعده رئيسين لمدينة صغيرة من عشائر الحدود تنتمي إلى قبيلة قابي ، وكان موطنها إسكي شهر على الحدود التركية البيزنطية . وفي نفس الوقت كان يربط على حدود الأناضول الغربية عدد من أمراء الحدود يقيمون على حدود بيزنطة كلما واثم الفرس ، وما كان أكثرها ، ويسكنون فيها الحب . وكان من بين أمراء الحدود من استولى على بعض الاستحكامات والمدن ، ولكن استطاع عثمان في مثل هذه المنطقة وبين هذه القوى المتنافسة أن يؤسس كياناً سياسياً مستقلاً تمثل في الدولة العثمانية . وتعرض هذا المؤرخ التركي إلى عدة مسائل هامة منها ما هو خاص باعتناق العثمانيين الدين الإسلامي ، وبأولول لإرجاعه إلى عصور سابقة على دخولهم إلى آسيا الصغرى . وتبدو في كتابه روح الصلف التركي والرغبة في إبعاد

## العثمانيون يستنقون الإسلام :

وعلى عهد الأمير عثمان وفي وقت مبكر تحدد الوضع الديني والعسكري والسياسي للأتراك العثمانيين ، فقد اعتنق هذا الأمير الدين الإسلامي وتبعه الأتراك العثمانيون . وكانت عقيدتهم الدينية قبل ذلك غير واضحة تماماً ، ويحتمل أنهم كانوا في حالة تحول من الوثنية أو من عقائد أخرى إلى الإسلام .

هناك رواية مستمدة من التحولات العثمانية القديمة تشير إلى الملابس التي أدت إلى اعتناق عثمان الديانة الإسلامية . تقول هذه الرواية إن الأمير عثمان كان يتردد على منزل أحد العلماء المسلمين المتحمسين في الدراسات الدينية ، واسمه الشيخ أدع بالي ، وتطلق عليه المراجع العربية « أدب حالي » ، وكان يقيم هذا العالم في قرية محاورة لمدينة إسكي شهر . وفي خلال زيارته كان يلحس ابنة الفقير واسمها « مال خاتون » فراهه سحماًها وطلب يدها من والدها ، ولكنه رفض نظراً لما كان هناك من فارق بينه وبين عثمان من الناحية الاجتماعية ، ولكن عثمان داوم على زيارة

---

شكل مايرى فيه - ساساً بالعثمانيين في هذا الدور المبكر من تاريخهم - ومن ثم كان تعامله الشديد على آراء جيونز بل وتجرعها . وقد طبع الأصل التركي لهذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩٦٢ بمقدمة للمؤلف لم تظهر في الكتاب الفرنسي ، كما أضاف إليه زيادات جديدة . وقد تولى الأستاذ الدكتور أحمد السيد سليمان أستاذ الدراسات التركية بكلية الآداب بجامعة القاهرة تعريب الكتاب التركي سنة ١٩٦٥ باسم « قيام الدولة العثمانية » ونشر بالقاهرة سنة ١٩٦٧ . ومن الصعب أن تقبل كل الآراء التي تتصل بلسان الدولة العثمانية والتي وردت في حراسته لسببين : روح انتعاج الشديد ، واعتقاده بأن النتائج التي وصل إليها ليست أحاسنة ، وقد سجل عليه لهذه العبرة المبررة . ومما يمكن من أمر فلايد أن نتعرف بأن النتائج التي حصلنا عليها ليست كافية لا كيمياً ولا كماً ، وبأننا لانزال نبحث عن أن نكون قد حصلنا لفرضنا من الإمراضورية العثمانية أو حق أن نكون قد وضعناه بعض الشيء . من ٧ من النص العربي .

ومما يذكر في هذا الصدد أن عهد فؤاد كوبرلي كان من أعوان مصطفى كمال ، استعان به في دعم فكرة القومية التركية الحديثة من طريق كتابة التاريخ على النحو الذي أراد مصطفى كمال من تخليصه من المقاهيم الإسلامية كتنأيد الإجراءات العلمانية . وقد بعينه مصطفى كمال وزيراً للخارجية في الثلاثينات من القرن العشرين . وبسبب مجموعته الضخمة في التاريخ التركي أصبح محمد فؤاد كوبرلي يلقب بأستاذ الجليل في تركيا الحديثة .

الشيخ لما لمسه فيه من العلم والفضل ، أولأنه كان يهد عزاء وسلاوى فى التردد على الدار النبى تضم الفتاة التى بلغ حبه لها شفاف قلبه . وكان الشيخ لا يرفض أن يستضيف عثمان كلما زل فى رحابه ، وفى إحدى المرات غفا عثمان فى منزل الفقيه ورأى فى المنام القمر ينبثق هلالا من صدر هذا الفقيه ، ثم نما وكر فى الصبح حتى اكتمل بدرأ ، وعندئذ نوارى فى ظهره . ثم خرجت من ظهره شجرة ضخمة باسقة وارفة الظلال امتدت اعصانها ذات اليمين وذات اليسار وغطت الفيافي والقفار عبر جبال الفوقاز والبلقان وطوروس وأطلس . ومن جذور هذه الشجرة انسابت المياه فى أنهار الدجلة والفرات والليل والدانوب . ثم هبت فجأة ريح قوية حولت أوراق الشجر إلى نصل سيف باز ، وكان على مقبضه خام مرصع بالياقوت والزمرد ، وقد أمسك عثمان بهما معاً عندما استيقظ من هذا الإغناء ، ولما قص على مضيقه هذه الرؤيا — وكان علما بتأويل الأحلام — بشره بأن أسرة عثمان ستحكم العالم ، ووافق على أن يزوجه ابنته . وقام تلميذ للشيخ بهد قران عثمان . وعند ما أصبح عثمان أمير قبيلته شيد تكية لهذا التلميذ أوقف عليها أوقافاً عظيمة من القرى والأرض الزراعية .

ونوجد رواية أخرى سابقة عليها ولكنها قريبة منها ومقتناة أيضاً من الحواريات العثمانية القديمة تقول إن أرطغرل — والد عثمان — قضى ليلة فى دار أحد الزهاد المسلمين . وقبل أن يأوى إلى فراشه جاء الزاهد بكتاب ووضع على رء ، فسأله عثمان عن هذا الكتاب فأجابه بأنه القرآن الكريم ، واستنصر منه عن محتواه ، فقال له صاحب الدار إنه كلام الله أنزله للباس على لسان محمد صلوات الله عليه . وحل أرطغرل الكتاب وأخذ يقرأ واقعاً حتى الصبح ، ثم نام فرأى فيما يرى النائم كل ملاكا يبشره بأنه وذريته سيملوكدرم جيلا بعد جيل على مدى القرون والأدهار لقاء احترامه القرآن .

وبرى جيرة Giese — وهو أحد المؤرخين الألمان المتخصصين فى الدراسات التركية — أوما يطلق عليها التركيات — أن هاتين الروايتين محاولتان لدم مشروعية حكم العثمانيين لسائر القبائل التركية بآسيا الصغرى بتدخل إلهى . وقد



حل المؤرخ التركي المعاصر الأستاذ محمد فؤاد كوبرلى حلة عنيفة على هاتين الروایتين (١).

ومهما يسكن من أمر ، فإن صلاتهم الوثيقة بدولة الأتراك السلاجقة فى الأناضول - وهى دولة إسلامية - كانت عاملاً هاماً ساعد على اعتناقهم الدين الإسلامى فى سرعة وسهولة . وعلى ذلك فقد تحدد الإسلام عقيدة دينية رسمية للأتراك العثمانيين من عهد الأمير عثمان ، وسار عثمان فى حكمه على هدى إيمان عميق وبساطة فى الدين ، وكان متحمساً لعقيدته الدينية ، وأخضع حكمه لمشورة الفقهاء المسلمين . وكانت العدالة أبرر ما يميز تصرفاته فى عصر كان ينضج بالجوهر والعنف . وكان للإسلام أثر كبير فى مستقبل العثمانيين لا يقل عن الأثر الذى تركه الإسلام فى عرب شبه الجزيرة العربية قبل العثمانيين بسبعة قرون عند ما بث محمد صلوات الله عليه ، فقد هب الإسلام للأتراك العثمانيين وحدة العقيدة وعباءة بشعور دينى دافق جماهم جد متحمسين للإسلام . واجهتهم إلى هذه الماطقة الدينية المتأججة روح عسكرية طاغية بحيث غدت سمة بارزة فى الأتراك العثمانيين . وقد استمدوا هذه الروح العسكرية من يثنتهم الأصلية فى سهول آسيا ، ثم عمل السلاطين على تعميقها فى نفوسهم ، فلازمتهم طوال تاريخهم العاقل عبر القرون والأدهار.

العثمانيون يطورون أسلوب حياتهم :

ومن ناحية ثانية أعظم الأمير عثمان متدرة قائمة على وضع النظم الإدارية لإمارته بحيث قطع العثمانيون على عهده شوطاً مبتدأ على طريق التحول من نظام القبيلة المتجولة إلى نظام الإدارة المستقرة مما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها تطوراً سريعاً إلى دولة كبرى وإعدادها للدور الضخم الذى قامت به بعد ذلك . ومن ناحية ثالثة فإن أهم دولتين كانتا فى آسيا العنرى ، وهما الدولة البيزنطية ودولة الأتراك السلاجقة ، كانتا قد وصلتتا إلى حالة إعياء شديد نتيجة الصراع الطويل الذى

---

(١) محمد فؤاد كوبرلى : قيام الدولة العثمانية . ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان .

خاضته كل منهما ضد الأخرى ، ونتيجة تعرض الدولة البيزنطية للنزو اللاتيني ، ونتيجة تعرض دولة الأتراك السلاجقة للنزو المنولي ، فكان في شبه جزيرة الأناضول فراغ سياسي ، وكانت الأوضاع السياسية مهتأة لظهور دولة تملأ هذا الفراغ السياسي على أنقاض الدولتين المتداعيتين ، ومن ناحية رابعة فإن نشأة الإمارة العثمانية في الشمال الغربي للأناضول على حافة العالم المسيحي - وهو ما يسمى دار الحرب - وعلى حافة العالم الإسلامي - وهو ما يسمى دار الإسلام<sup>(١)</sup> - قد فرضت عليها سياسة حرية معينة ، ذلك أن هذه الإمارة كانت على الحدود . والثابت في تاريخ الأناضول أن الإمارات التي نشأت على الحدود كانت أوفر نصيباً في عوامل النمو والتطور من إمارات الداخل ، وأنه لم يكن في استطاعة هذه الإمارات الداخلية أن تتطور وتندو بنفس السرعة التي تطورت وتمدت بها إمارات الحدود<sup>(٢)</sup> . واستطاع الأمير عثمان أن يحرز انتصارات عسكرية على البيزنطيين ، وقد أبدى علاء الدين كيقيباذ الثالث سلطان دولة الأتراك السلاجقة تقديره العميق لخدمات عثمان فمدحه لقب «عثمان غازي حضر نلري مرزبان عاليجه عثمان شاه»<sup>(٣)</sup> ، أي «حضره عثمان الغازي ، حارس الحدود ، العالي الجاه ، عثمان شاه» .

### عثمان يعلن استقلاله :

وكان من حظ عثمان أن أغار المنول سنة ١٣٠٠ على دولة الروم السلاجقة في آسيا الصغرى ، وحدث ما كان متوقفاً إذ زالت دولة الأتراك السلاجقة وتولى

(١) يطلق على مثل هذه المواقع في التاريخ الإسلامي لفظ « الثغور » .

(٢) من الأمثلة التي توضح هذه الظاهرة السياسية أن إمارة كرميان على الرغم من أنها كانت تشكلاً سياسياً قوياً - عجزت عن التقدم والنمو حين تمحوت إلى إمارة داخلية نتيجة لما أحاط بها من قوى سياسية جديدة أقامها قادة من الكرومانيين أنفسهم ونتيجة أيضاً لتضييق القرمانيين .

(٣) كلمة مرزبان فارسية تشكون من (مرز) ومعناها حذم (بان) ومعناها حارس ، وهكذا يكون معنى الكلمة كلها حارس أو محافظ الحدود . أما (عاليجه) فكلمة تركية معناها عالي الجاه أو صاحب المقام الرفيع . وأما (شاه) فهي لفظة فارسية ومعناها عامل .

السلطان علاء الدين كيقباز الثالث سنة ١٣٠٧ ، وأعلن عثمان استقلاله مقتدياً  
بغيره من الأمراء الذين بلغ عددهم ثلاثة عشر أميراً<sup>(١)</sup> أسس كل منهم حكومة  
مستقلة على أقطار دولة الروم السلاجقة أو الأتراك السلاجقة. وأبدى عثمان اهتماماً  
عميقاً بدعم الجيش وتنظيم الحكومة ، وتمتع بشهرة عريضة بين معاصريه من  
الأمراء واعتبر عثمان المؤسس الأول للدولة العثمانية . وقد نسبت الدولة والأمة  
إليه<sup>(٢)</sup> فسميتا باسمه كما سبق أن ذكرنا ويقال إنه اتخذ لنفسه لقب سلطان، بينما  
يرى البعض أن ابنه أورخان كان أول من تلقب بهذا اللقب .

الزواج من الأجنبية :

أيقن عثمان أن عشيرته التركية بتعدادها القليل لن تستطيع بمفردها تأسيس  
الدولة التي يتطلع إلى تكوينها ممتدة الأطراف مهيجة الجانب . فوسم سياسته على  
على أساس مصاهرة الدول أو الكيانات السياسية المجاورة أو المتاخمة ، واستقدام  
الرفيق يختلف الوسائل من شتى البلدان ، واستخدام الممارين الذين تسهويهم  
الشهرة والنعائم الكثيرة في ميادين القتال ، فاختار عثمان لنفسه زوجة مسيحية  
من قيليقياء ، ورشح سيدة يونانية مسيحية رائعة الجمال زوجة لابنه أورخان كما  
سنرى في موطن قادم . وهكذا رى أن اقتران السلاطين بالأجنبيات رافق نشوء  
الإمارة ثم السلطنة .

وقد حمل بعض الباحثين على زواج سلاطين الدولة العثمانية من الأجنبية ،  
واعتبروا هذه الزيجات من أسباب اضمحلال الدولة العثمانية وضعفها . والواقع أن  
الزوجة الأجنبية لم تنس قط وطنها الأصلي أياً كان : الروسية أو جمهورية البندقية  
أو غيرها ، ولم تنس قوميتها السابقة ، فاستغلت وضعها في العصر السلطاني بصفتها  
باش قادين ، أو كازكى Kaséki ، أو كازكى قادين Kaséki Kadine<sup>(٣)</sup> .

- (١) تذكر بعض المراجع أن عدد حولا الأمراء كان أحد عشر أميراً .
- (٢) الصفقة من عثمان والفة التركية « عثمانلى » بينما هي في اللغة العربية « عثمانى » .
- (٣) باش قادين ، لقب يطلق على الساطنة الأولى وهي والدة أكبر أولاد السلطان .
- أما كازكى فلقب يطلق على أمهات أبناء السلطان، بينما تلقب أمهات بناته كازكى قادين . وكان  
السلطان يلتزم بحكم المشرية فلا يمدى عدد زواجه الأربع ويطلق عليهم « باش قادينلر » .

واهتمت اهتماماً كبيراً بخدمة مصلحة وطنها الأصلي على حساب مصلحة الدولة العثمانية . وسنرى في مواطن كثيرة قادمة في هذه الدراسة أمثلة عديدة لازدواجية الولاء أو بهابارة أكثر دقة تضارب الولاء وتضارب المصالح والمهم أن أولئك الباحثين الذين حملوا على تلك الزيجات ذهبوا إلى أن مساوئها لم تظهر مبرهاً ، لأن الدولة كانت في عطفوان قوتها . ولما أخذت الدولة في الضعف بدت للعيان أخطار هذه الزيجات . وفي هذا الصدد يقول أحد أولئك الباحثين « لا ريب في أن الملل الفتاة التي تسرى إلى الأجسام في مقتبل العمر ، وإبان اشتداد الصحة ، قد لا تظهر علاماتها في عهد الشباب والصحة ، بل يتأخر ظهورها إلى أن تضعف المناعة منذ سن الكهولة . ومن هذا القبيل ما أصاب الإمبراطورية العثمانية من جراء تهافت السلاطين على الزواج من الأجنبية والتسرى بهن »<sup>(١)</sup> ، ثم يعود هذا الباحث إلى التفرقة بين نوعين من الزيجات فيقول « إن المؤسسين الفاتحين من آل عثمان ، اختاروا الزواج من الأخنديات لثابة سياسية ، غير أن الذين أتوا من بعدهم اقتصر غايتهن في هذا الزواج ، على انتقاء الحسنات من الجوارى والسرارى » ويختتم تعليقه قائلاً إن السلاطين العثمانيين قد متوا بحكم المحظيات<sup>(٢)</sup> .

#### عثمان يوسع رقعة بلاده

اتخذ عثمان من ميخائيل ذى اللحية المرفجة Michael Fork Beard — وهو بزنطى مرتد عن المسيحية — نائباً له في ميسادين الحرب . ومضى عثمان يوسع رقعة بلاده . وكان مسرح نشاطه الحربى مقصوراً على مقاطعة بيثنيا Bithynia إذ أغرته أطرافها الخالية من وسائل الدفاع الإمبراطورى على شن الإغارات الخاطفة على أراضي الدولة البيزنطية . وقد قام بهذه العمليات الحربية بصفته أميراً في خدمة السلطان السلجوق المسلم علاء الدين كيقيباذ الثالث ، ثم

(١) محمد جميل بهيم : فلسفة التاريخ العثمانى . أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها . بيروت ، ١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م ، ص ١١ .  
(٢) المرجع السابق ، ص ١٢ — ١٤ .

بصفته - بعد سنة ١٣٠٧ م - أميراً مستقلاً بهذه الإمارة تمام الاستقلال ثم سلطاناً عليها .

وعلى هذا النحو مضى عثمان يوسع رقعة بلاده . وفي سنة ١٣٠٨ وبعد وفاة السلطان علاء الدين الثالث استولى عثمان على قلعة عك حصار ، وباستيلائه عليها أطل العثمانيون على البوسفور، لأن هذه القلعة كانت آخر حاجز أمام زحف العثمانيين في شبه الجزيرة الضيقة التي تحدد بين نيوميديا والبحر الأسود والتي تكون الركن الشمالى الغربى من شبه جزيرة الأناضول .

وفي نفس السنة سيطر العثمانيون على الطريق للمائى الموصل بين القسطنطينية وبروسة بعد أن استولوا على جزيرة كالوليمنى Kalolimni التي تقع في بحر مرمره على مقربة من خليج مودانيا Mudania .

وسقطت في أيدي العثمانيين أيضاً قلعة تريكوكا Tricocca ويطلق عليها العثمانيون هودج حصار ، وكانت هذه القلعة تشرف على المواصلات بين نيقيا ونيوميديا .

ومع عثمان وهو على فراش الموت سنة ١٣٢٦ بفتح مدينة بروسة (١)

(١) يطلق العثمانيون عليها أيضاً بروسة ، وأصبح لها شأن كبير في العالم الإسلامى منذ أن أخذها أورخان بن عثمان مقلداً له وضرب بها أول سكة فضية لها قيمتها وهي الأتجة سنة ١٣٢٧ ( ٧٢٧ هـ ) . ولما فتحت القسطنطينية وأخذها السلطان محمد الثاني عاصمة لدولة صارت الأوامر إلى سكان بروسة بالترحال إلى العاصمة الجديدة . على أن بروسة استفادت من الساب رقعة الإمبراطورية إذ عُدت مركزاً لقيادة الحملات العسكرية في الشرق . والأهمية الاقتصادية لمدينة بروسة تفوق أهميتها السياسية في التاريخ العثماني ، فهي من أقرب المراكز الإسلامية إلى العالم السبعي . وازداد وصول قوافل الحرير الفارسى إلى سوق بروسة، وتحتل هذه القوافل إلى حد ما من أسواقها القديمة مثل طرابزون وحلب . وحدث في سنة ١٤٠٠ مركزاً من أهم المراكز الدولية لتجارة الحرير وصناعاته . وتمتد صناعة الحرير وتجارته في بروسة من أسباب الازدهار الاقتصادي الذي تمتعت به المدينة . وكانت كثرة الخانات — للمراكز والمستودعات التجارية — في المدينة إبّان القرن الخامس عشر الميلادي والتاسع الهجري دليلاً مادياً على حجم النشاط التجاري فيها . وبروسة عاصمة ولاية خداندكار .

Brousse وكان ابنه أورخان على رأس القوات التي زحلت عليها ، وأوصى عثمان بأن تنقل رفاته إلى يروسة في كنيسة القصر التي حولت فوراً إلى مسجد ، وأصبحت يروسة عاصمة جديدة للأتراك العثمانيين في سلسلة العواصم التي انتقلوا إليها عبر تاريخهم . وشيد السلاطين العثمانيون الأوائل في هذه المدينة عدداً من المساجد الرائعة ، نذكر منها على سبيل المثال ثلاثة مساجد ، هي : يشيل جامع ، أولو جامع ، ييلدم .

نخلص من هذا كله إلى أن التحركات الحربية التي قام بها العثمانيون في هذه المرحلة الأولى من تاريخهم كانت تحتاج عدة عوامل ، هي : الروح الدبيلة الجياشة ، والطبيعة العسكرية الصارمة ، والموقع الجغرافي لإمارتهم ، والأوضاع السياسية في المنطقة المحيطة بهم . وكانت هذه التحركات الحربية بداية لسياسة حربية نشيطة حرصوا على الالتزام بها ، وانفسحوا في بقاع آسيا وأوروبا وأفريقيا غزاة قاطعين .

### نظرة أوروبا إلى الأتراك العثمانيين :

ومعذ أن عبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد بوغاز جبل طارق سنة ٧١١ م واجتاحوا بلاد الأندلس في القرن الثامن الميلادي لم تعرض المسيحية لثل هذا الخطر الداهم إلا عندما روعت أوروبا ابتداءً من القرن الخامس عشر بزحف الأتراك العثمانيين على بلاد البلقان وتوغلهم فيها ثم أنجاهم إلى قلب أوروبا . وقد نظرت أوروبا إلى الفتوح العثمانية على أنها فتوح إسلامية ، وكان الأتراك العثمانيون - في تقدير أوروبا - هم الرمز الحي للجسد للإسلام ، واختلط الأمر على الأوروبيين في ذلك الوقت فسكانوا يطلقون على المسلم لفظ تركي ، وخلطوا بين العرب والأتراك . وكان هذا الخلط في أذهانهم نتيجة طبيعية . فقد كانت فتوح العثمانيين في البلقان ووسط أوروبا فتوحاً إسلامية ، وباسم الإسلام استولى العثمانيون على جزر البحر المتوسط التي كانت قواعد عسكرية صليبية ، أو ما يسمى بالتمير العسكري الحديث جيوباً صليبية . وباسم الإسلام فتح السلطان محمد الثاني

القسطنطينية ، وباسم الإسلام قاد السلطان سليمان المشرع<sup>(١)</sup> ست عشرة حملة عسكرية في جوف أوروبا ووصل بها إلى أسوار فيينا ، وباسم الإسلام والانتصار للإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة العرب في شمال أفريقيا في كفاحهم ضد الإسبان ، ودكوا القواعد العسكرية الأوروبية أو الجيوب الصليبية التي أقامها الإسبان على امتداد الساحل الشمالى لأفريقيا لتكون عجلات عسكرية صليبية تأوى إليها السفن الإسبانية وغربها في صراعها ضد القوى الإسلامية . فأسدى العثمانيون خدمات جليلة لعرب شمال أفريقيا ، إذ حفظ الأتراك العثمانيون لهم عربيتهم وإسلامهم . وكان إذا اعتنق أحد المسيحيين الدين الإسلامى قال عنه رفاهه الأوروبيون المسيحيون وعشيرته إنه غدا تركياً ، ولم يقولوا عنه إنه أصبح مسلماً حتى إذا كان اعتناقه الإسلام قد حدث في فاس أو أصفهان .

"It is curious that while in Turkey the word Turk almost went out of use, in the West it came to be a synonym for Muslim, and a Western convert to Islam was said to have 'turned Turk', even when the conversion took place in Fez or Isfahan". (2)

وعلى الرغم من أن كلمة تركى كان قد بطل استخدامها في الدولة إلا أن هذه

---

(١) يطلق جمهور الباحثين على هذا السلطان صفة القانونى ويقولون سليمان القانونى . ولكن كلمة [ المشرع ] أكثر دقة من حيث الصياغة الفنية ، لأن هذا السلطان قد أنعم الله موهبة عظيمة في وضع التشريعات والنظم لأحق التفاصيل عند وضع أى أمر . فلم تكن تشريعاته تعاد صيغة ولا كبيرة إلا تمرجت لها ، فجاءت جامعة مانعة . كما أن هناك فرقا بين هذين المصطلحين : المشرع والقانونى . ينص من تشريع السلطات في الدولة إلى ثلاث سلطات : السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية . وبلوح أن أحد الباحثين القداس قد أطلق من جهالة ودون فهم أو ترو صفة القانونى على سليمان ، وجاء الباحثون بعد ذلك وطبقاً لتقليد الأعمى فاطنوا عليه سليمان القانونى ، والتصفت به هذه التسمية كما التصفت في أذهان الأجيال المتعاقبة . وجدير بالذكر أن المراجع الفرنسية والإنجليزية تطلق عليه الصفة الصحيحة وهي المشرع على هذا النحو : Soliman Le Législateur .

Suleiman, The Legislator.

(2) Bernard Lewis; The Emergence of Modern Turkey. Second Edition, London, 1968. p. 13.

الكلمة كانت مرادفة لكلمة مسلم في أذهان الأوروبيين الغربيين<sup>(١)</sup>. وهكذا زالت فكرة العروبة من أذهان الأوروبيين أو كادت، وحلت محلها فكرة الإسلام في صومه، تمثلها قوة الأتراك العثمانيين بعد أن انتقل مشعل الإسلام إلى سواعدهم القوية. ولم تعد العروبة تثير في أوروبا سوى ذكريات بعيدة ترجع إلى ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية والفتوح الأولى للمسلمين العرب والحضارة العربية على عهد الخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية، وهي ذكريات تصلح لكي تكون موضوعات علمية لدراسات تاريخية مستفيضة بعد أن ازوى العرب من ميادين السياسة الدولية والاقتصاد المالى وظهر عجزهم عن إقامة كيان دولي خاص بهم قائم بذاته يجمع شتاتهم وسط التيارات والمفاسات والمساومات الدولية في مطلع العصور الحديثة<sup>(٢)</sup>.

وفي ضوء هذا الرأي الذي استقر في أذهان الأوروبيين عن الأتراك العثمانيين اعتبروا أى نصر عسكري تحققه القوات العثمانية سواء في البر أو البحر إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية. وتأسيساً على هذه النظرة الأوروبية إلى الأتراك العثمانيين فإن المحاللات الدولية التي تكونت ضد الدولة العثمانية عبر تاريخها الحافل كانت في لحمتها وسداها محاللات صليبية ضد الإسلام أمثلتها روح صليبية

(١) استعملت لأول مرة وبصفة رسمية كإمتا تركيا وتركى للتعبير عن الدولة والمواطن منذ إعلان النظام الجمهوري في تركيا سنة ١٩٢٣.

انظر المرجع السابق ص ٣.

(٢) الدكتور محمد بدح شريف وزكى المحاسي وأحمد عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة. من مطبوعات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية. الناشر مكتبة الأهل بالمصرية بالقاهرة، لم تذكر سنة الطبع، ص ١٩٢.

وقد أعاد الدكتور عزت نصر الفصيلين الذين كتبهما في هذا الكتاب وهما الثالث والسادس في كتاب جديد بعنوان «دراسات في تاريخ العرب الحديث» وقد ضم هذا الكتاب، فضلا عن هذين الفصلين، دراستين سبقي نشرهما : الأول من «التقسيم الإداري أسورية في العهد العثماني»، والثانية من «دمشق في منتصف القرن الثامن عشر»، وأضاف إلى هذا الكتاب دراستين جديدتين الأولى حداث إسلامية بعنوان «المسألة الجزائرية في السياسة الدولية من تأسيس الثيابة إلى حقبة سنة ١٨٣٠» والثانية بعنوان «العالم الرئيسية في تاريخ القضية الفلسطينية».

وقد تولت دار النهضة العربية للطباعة والنشر في بيروت نشر هذا الكتاب سنة ١٩٧٠.



ووجهتها روح صليبية . وعلى ذلك فإن الحروب الصليبية التي شهدتها الشرق الإسلامي لم تلتها إسقوط عسكا آخر معقل للصليبيين في يد المسلمين على عهد السلطان خليل بن قلاوون في الثامن عشر من مايو ١٢٩١ ، بل استمرت متجددة متينة فظة في نفوس الأوروبيين في العصور الحديثة وإن اختلفت مياديتها وشخصياتها والدول التي شاركت فيها والأسلحة التي استخدمت فيها . وستعرض لهذه النقطة عند الكلام في مواطن قادمة على خصائص الحروب الصليبية في العصور الحديثة . ومن ناحية أخرى فإن الانتصارات العسكرية الرائعة التي أحرزها الأتراك الثمانيون على الأوروبيين قد أضفت عليهم هالة من المجد و أرجاء العالم الإسلامي ، ونظر المسلمون في مشارق الأرض ومناكبها إلى الدولة الثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى يستظلون بظلها الظليل ، ونظروا إلى السلطان الثماني وهو يحوض الحروب تباعاً ضد الدول الأوروبية على أنه الأمل المرجى في إعادة المجد النابر للإسلام . فكانت عواطف المسلمين وآمالهم متعلقة بالدولة الثمانية وعائلها بصفته خليفة وسلطاناً ، ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت بعد في نفوس الشعوب الإسلامية في ذلك الوقت المبكر من العصور الحديثة . وكانت الوشيجة الديلية هي التي ربطت بمروءة وثقى بين الدولة الثمانية والشعوب الإسلامية سواء التي دانت لحكمها أو ظلت بمعأى عن سيطرتها .

تحميل بعض المؤرخين الأوروبيين :

ويبدى بعض المؤرخين الأوروبيين الأسف العميق لأنه حين استنفصل خطر الأتراك الثمانيين على وسط أوروبا في القرن السادس عشر في أثناء حكم السلطان سليمان المشرق كانت أوروبا في شغل شاغل عن هذا الخطر الإسلامي الذي أحرق بها ، وانشغلت على بكرة أيها - أباطرة ومالوكا وأمراء وشعوبا - بالصراع الديني المذهبي بين أنصار الكاثوليكية وأنصار الحركة اللوثرية وما تفرع عن الحركة الأخيرة من مذاهب ، فأصبح الأوروبيون في ذلك الوقت المعصيب طرائق قديماً ، واشتغلت بينهم حروب خضبت أرض أوروبا بالدماء . وكان الواجب في نظر هذا الفريق من المؤرخين أن يسفر تساقط خطوط الدفاع الأوروبية في

أبدى المثنائين عن وقف الصراع الديني المنهجي لتقف الدول الأوروبية كتلة واحدة وفي صف واحد كالبنيان المرصوص لفرء خطر هذا العملاق التركي الذي داهمها . وقد تناسى هذا الفريق من المؤرخين الملتاعين المحزونين أن المشروعات الصليبية كانت في القرن السادس عشر بالذات هي « المودة » *La Mode* الشائعة في السياسة الدولية . وقد تكررت ظاهرة إعلامية في أثناء الحروب الإيطالية التي نشبت بين فرنسا وإسبانيا واستطالت خمساً وستين سنة ( ١٤٩٤ - ١٥٥٩ )<sup>(١)</sup> . كان فرنسوا الأول ملك فرنسا وشارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة يتخافسان حيناً ويتجاران حيناً آخر بمشروعات صليبية تستهدف إجلاء المثنائين عن ممتلكاتهم في أوروبا وغزو إسطنبول وطرد الأتراك المثنائين منها . وقد شهد القرن السادس عشر محالفات صليبية ضد الدولة العثمانية ، وحسبنا أن نشير إلى واحدة منها على سبيل المثال ، وهي المحاولة التي عقدت في سنة ١٥٣٨ بين البابوية وإسبانيا وجمهورية البندقية حين نزلت القوات العثمانية في أوترانت *Otranto* في إيطاليا<sup>(٢)</sup> . وقد استطاع الأسطول العثماني تحطيم الأساطيل التحالفية ضده في موقعة بريثيزا *Prévezza* جنوب جزيرة كورفو .

نخلص من هذه الإشارة السريعة لتتجامل بعض المؤرخين الأوروبيين إلى أن الأتراك المثنائين واجهوا تكتلات دولية صليبية في القرن السادس عشر ، كما واجهوا أمثال هذه التكتلات من قبل ومن بعد هذا القرن . ولعل الرأي الذي يبديه معظم المؤرخين الأوروبيين يخفى وراءه محاولة للتقليل من شأن الانتصارات

(١) أنظر مرصاً لهذه الحروب الإيطالية في مختلف مراحلها :  
 دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة . الطبعة الثانية ، ١٩٧٥ ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة - ص ١٣٦ - ٢٩٦ .  
 (٢) هي مدينة بحرية جنوب إيطاليا ، تقع في إقليم يعرف بهذا الاسم على مقربة من مضيق أوترانت الذي يصل بين البحر الأدرياتيكي والبحر الأيوني ، كما أن إقليم أوترانت يشكل كعب الخفاء الإيطالي . *le talon de la botte italienne* .

التي حققها الأتراك العثمانيون براً وبحراً ، أو لتعبير المزامم التي نزلت بالشعوب الأوروبية ، وهو على أي الحالتين يكشف عن نزعة صليبية لاتزال كاملة مستعرة في نفوس فريق من المؤرخين الأوروبيين في القرن العشرين . وبقدراً أسفهم على ما حدث في القرن السادس عشر كان ابتهاجهم للموقف السلبي الذي اتخذته الأتراك العثمانيون في القرن السابع عشر حين اندلعت في أوروبا حرب دينية طاحنة بين الدول الكاثوليكية والدول البروتستانتية هي حرب الثلاثين عاماً ( ١٦١٨ - ١٦٤٨ ) ، إذ لم ينتهز الأتراك العثمانيون هذه الفرصة للانقضاض مرة أخرى على وسط أوروبا ثم التوغل في غربها ، وكانت الدولة العثمانية تمر في أثناء هذه الحرب بنوبة ضعف أصابتها بالشلل العسكري .

## الفصل الثالث

### الخصائص العامة

### للدولة العثمانية (١)

#### أولاً : دولة عسكرية

تجمعت في الدولة العثمانية مجموعة فريدة من الخصائص العامة ، نذكر منها ما يتصل اتصالاً مباشراً بموضوع هذه الدراسة . كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية ، وتبوقراطية un état théocratique أى دينية ، وعلمية ، وذات حكم مطلق ، وطبقية ، وإقطاعية من نوع خاص .

والحق أن العسكرية المصارمة كانت المهيمنة الأولى للدولة . وقد طبعت هذه العسكرية أخلاق العثمانيين وطبعت تصرفات الدولة بل وسياستها العليا بالطابع العسكري العنيف . ولم تكن النزعة الحربية لدى العثمانيين نزعة طارئة ، بل كانت نزعة أصيلة استمدوها من ينشئهم الأولى في أواسط آسيا قبل أن يتجهوا إلى آسيا الصغرى . وقد عزز هذه النزعة الحربية الموقع الجغرافي لإماراتهم في شبه جزيرة الأناضول حيث أحاطت بالعثمانيين كيانات سياسية كان بعضها مسيحياً والبعض الآخر إسلامياً . وكانت العلاقات بين العثمانيين وهذه الكيانات السياسية علاقات عدائية في معظم الفترات ، إذ قامت الإمارة العثمانية — كما سبق أن ذكرنا — على سياسة التوسع الإقليمي في شتى الاتجاهات ، ومن ثم اضطربت حياة العثمانيين بالصبغة العسكرية ، وعلى ذلك فإن الحياة العسكرية بكل ما تفتوى عليه من معاني النظام والصرامة والشجاعة واسترخاء الموت والطاعة العمياء كانت مصاحبة لنشأة إمارتهم . واستمر العثمانيون هذه الحياة ، فالتصقت بهم والتصقوا بها عبر العصور والأدهار .

كان الشعب العثماني مدرباً للحرب، مطواعاً للسلطين، نظر إلى الحرب على أنها واجبه الأول. واستأثر الجيش بالسكان الأولى من عناية السلطين، ولذلك كان الجيش العثماني يتميز بالتنظيم العسكري الصارم والتدريب الدقيق الطويل، والعداد الوفير وتذوق الأسلحة من مشاة وفرسان ومدفعية. وكان سلاح المدفعية فتناً كبيراً رهيباً كفل للعثمانيين اقتصارات ساحقة وخاطفة على أعدائهم، وبخاصة عندما كان هؤلاء الأعداء يعتمدون اعتماداً أساسياً على سلاح الفرسان.

كان المبدأ الأساسي للدولة العثمانية هو أنها بدأت إمارة غزاة محاربيين، فاستمرت رقمتها وتطورت إلى إمبراطورية شاسعة الأرجاء، ولكنها تلتزم أولاً وقبل كل شيء بدس المبدأ لا تحيد عنه، وهو أن الدولة قاعدة لجيش يجب أن تسخر البلاد في خدمته، وفي تزويده بالقوى البشرية والمادية، ونشر التعبئة الروحية بين أفراده، وهذا المبدأ هو الذي دان به الأتراك العثمانيون، وكانوا لا ينفون عنه حولا.

### وحيقتان للجيش:

وفضلاً عن ذلك جعلت الدولة العثمانية للجيش وظيفتين: الحرب والحكم. فهي تعتمد على الجيش وقت السلم كما هو عدتها زمن الحرب. وقيل في هذا الصدد إن الجيش العثماني كان بمثابة عملة نقشت على أحد وجهيها كلمة الحرب، ونقشت على الوجه الآخر كلمة الحكم. وفي ضوء هذا الاختصاص الثنائي للجيش العثماني كان العسكريون في الدولة لا يشغلون المناصب العسكرية فحسب، بل كانوا يشغلون أيضاً القابلية العظمى من المناصب المدنية القيادية وما دونها ما عدا مناصب القضاء والوظائف الدينية.

وفي ظل هذه الفترة مدت الدولة الاختصاص الثنائي للجيش إلى الولايات العثمانية. وهاتان المهمتان — الحرب والحكم — اللتان جعلتا من اختصاص الجيش العثماني قد ارتبطتا ببعضهما البعض أشد الارتباط. ومن هنا كانت سيطرة الجيش

على أجهزة الحكم وعلى النابلية العظمى من شتى القطاعات ظاهرة واضحة في تاريخ الدولة العثمانية .

يقول المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي Arnold Toynbee إن العثمانيين يستمدون طريقهم في حكم الشعوب التي دالت لهم من واقع البيئة الأولى التي نشأ فيها هؤلاء العثمانيون، وهي بيئة البراري في أواسط آسيا والتي تسمى أيضاً أراضي الإستبس Steppe Land ، فالسلطان العثماني كان يمارس حكم تلك الشعوب كما كان العثماني يمارس رعي الماشية في أراضي الإستبس أو البراري . ويقول هذا المؤرخ إن ممارسة الرعي كانت تتكون من ثلاثة عناصر : الراعي والماشية وكلب الحراسة . فالسلطان — في رأى هذا المؤرخ — هو الراعي ، أما الماشية فهي الشعوب التي خضعت للدولة ، أما كلب الحراسة فهو الجيش العثماني<sup>(١)</sup> .

وفي الحروب المديدة المتلاحقة التي خاضها العثمانيون في أوروبا وبخاصة في القرن السادس عشر كان المراقبون العسكريون والسياسيون الأوروبيون يذهلون للمستوى الرفيع الذي بلغه الجيش العثماني تسليحاً وتدريباً وتنظيماً . وقد سجدوا آراءهم عن عظمة الجيش في تقاريرهم بثوابها إلى حكوماتهم . ونذكر منها على سبيل المثال ما كتبه بوسبيك Busbecq السفير النمساوي في إستانبول عام ١٥٥٤م ، وقد هالته الفروق الصارخة بين الجيش العثماني والقوات المسلحة للدولة الرومانية المقدسة . وقال إن دهشة بالغة تمر به حين يعقد المقارنات بينهما ، ثم يفكر في النتائج التي يسفر عنها الزحف العسكري العثماني على أوروبا فتروعه هذه النتائج . وكان مما قاله إن هاتين الدولتين كانتا تقفان في مواجهة عسكرية ويقع الاشتباك المسلح بينهما . وفي جانب توجد الدولة العثمانية وهي إمبراطورية عظيمة قوية على درجة كبيرة من الثراء ، تحشد جيوشاً جارية تسودها روح عسكرية عالية ، وأفراد هذه الجيوش مدربون على الحرب يتحلون بالصبر والنظام والاتحاد والتيقظ . وفي جانب آخر

---

(1) Toynbee Arnold J.; A Study of History. London, 1945, Vol. 111. pp. 22-28.

توجد الدولة الرومانية المقدسة ، ويصف جنودها بالإغراق في الترف والميل إلى المناد والمشاكسة والاستخفاف بالنظام وحب الشهوات من الخسالة والدعارة والفجور والإسراف في الأكل . ويخلص هذا المبعوث النمساوي من مقارناته إلى القول بأن العثمانيين قد أعدوا للنزو وتحقيق الانتصارات ، أما جنود الإمبراطورية الرومانية المقدسة فقد أعدوا لتقبل الهزائم<sup>(١)</sup> . وهذه شهادة لها قيمتها من عدة نواح ؛ لأنها صادرة عن رجل معاصر ، ولا يمكن أن يتصف بالتحيز للعثمانيين ، ولأنه رجل عرف بدراساته العميقة في تاريخ الأتراك العثمانيين ، وهي دراسات تقوم على المشاهدة والاتصالات الشخصية برجال الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup> .

وهناك أستاذ أمريكي — يسمى ليبيير Lybyer — توفر على دراسة النظم العثمانية يقول إن الجيش العثماني كان يجمع بين أفراد جميعاً شعور الولاء العميق للسلطان . وإذا صدرت الأوامر باستدعاء الجيش لحلة عسكرية كبرى اجتمع الجيش على فكرة أبيه حول السلطان . وفي مسيرة الجيش وفي مرابطته في المعسكرات وفي خوضه المارك كان كل فرد في فرق الجيش يأخذ مكانه بأوامر تصدر إليه من السلطان . وكان السلطان أيضاً هو المحور الرئيسي الذي ينظم جميع عمليات التشكيل التي تتم في المعركة ، والكل يدين له بالولاء القام جسماً وعتلاً وروحاً .

---

(1) When I compare the difference between their soldiers and ours I stand amazed to think what will be the event. For on their side there is a mighty strong and wealthy Empire, great armies, experience in war, a veteran soldiery, a long series of victories, patience in toil, concord, discipline, frugality and vigilance. On our side there is public want, private luxury, soldiers refractory, commanders covetous, a contempt of discipline, licentiousness, rashness, drunkenness, gluttony; and what is worst of all, they are used to conquer, we to be conquered. see Hubbard G. E.; The Day of the Crescent, p. 85.

(٢) من مؤلفات هذا السفير النمساوي نذكر :

a) Legationis turcicae epistolae. leyde, 1633.

b) Opera omnia quae exstant. Bale, 1٥40.

The Sultan was commander-in-chief of the entire army, standing, feudal, and irregular. When the army was summoned for a great campaign, it gathered about him; on the march and in campaign, every body of troops had its place with reference to him; in formation of battle, he was the central point about which the whole vast display was organized. When the army was assembled, and then only, the Sultan stood forth visibly and palpably as the head and center of the ruling Institution and of the Ottoman Nation upon which it rested. His kullar <sup>(1)</sup> were gathered about him in devotion of body and soul, they were going forth under his leadership against the infidel or the heretic. . . . They marched, encamped and fought under his eye and command, they formed an honored and privileged nucleus in the midst of a vast, loyal, and ambitious national army. (2)

### الأسطول:

وعلى الرغم من أن العثمانيين لم يكونوا رجال بحر وكانوا يقيمون أول الأمر ركوب البحار إلا أنهم سرعان ما أدركوا أهمية السفن الحربية في المحافظة على ممتلكاتهم الجديدة وضم مزيد من الممتلكات، ومن ثم أنشأوا الأسطول البحري لمفازة الدول التي كانت تعتمد على السلاح البحري مثل الدولة الرومانية الشرقية وجمهورية البندقية وجمهورية جنوة وغيرها. وسنفرد في موطن قادم في هذه الدراسة فصلا للقوات المسلحة العثمانية بقسميها الجيش والأسطول.

---

(١) لفظة Kullar التي وردت في المتن الإنجليزي كلمة تركية هي فولار، ومعناها صيد وهي جمع قول Kul أو Koul أي عبد .

(2) Albert Howe Lybyer, The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent. Harvard University Press. 1913. pp. 109-110.



## ثانياً : دولة دينية

والدولة الثمانية دولة دينية . ويقصد بهذه العبارة الطابع الدينى الإسلامى الذى اتسمت به تشريعاتها ومعظم تصرفاتها .

كان للهيئة الإسلامية فى الدولة وضع معترف به ومركز مرموق . وكان يطلق على رئيسها المفتى أو مفتى إستانبول ، ثم أطلق عليه بعد ذلك اسم شيخ الإسلام . وكانت الهيئات القضائية والهيئات ذات الطابع أو النشاط الدينى تخضع لنفوذه . وكان السلاطين حريصين على تدعيم سلطته ويمولون على استغلالها كلها حزبهم أمر أو أهدموا على مشروع خطير . كان المفتى يصدر فتوى تجيز الحروب التى تخوضها الدولة دفاعاً أو هجومياً ، وعقد الصلح وغير ذلك من الأحداث الجسام التى واجهتها الدولة عبر تاريخها الطويل ، وكانت الدولة تهتم اهتماماً بالغاً بشىء التعبئة الروحية بين أفراد القوات المسلحة وإثارة عاطفتهم الدينية وصولاً إلى « تسخين » الجنود روحياً قبل خوض المارك .

## المسجد الكبير :

وكان من مظاهر الطابع الدينى الذى اتسمت به الدولة الثمانية العناية الفائقة التى أبداه السلاطين بإنشاء العديد من المساجد الكبرى التى غدت رمزاً مجسداً للفن المبارى العثمانى وما يملكه من تطور حيث ظهر أثر الفن البيزنطى فيه . ونشير هنا إلى أن السلطان محمد الفاتح لم يقنع بتحويل كاتدرائية القديسة صوفيا إلى مسجد عقب فتح مدينة القسطنطينية ، بل اهتم ببناء مسجد جديد فى قلب العاصمة بعد أن أطلق عليها اسم إستانبول . وأقام المسجد الجديد على أنقاض الكنيسة الرسولية التى كانت تستخدم فى وقت سابق مدفناً للأباطرة . وأطلق على هذا المسجد الجديد الجامع الحميدى أو جامع السلطان محمد الفاتح . ولما تولى السلطان سليمان المشرع العرش شرع فى سنة ١٥٥٠ — وكانت الدولة قد بلغت أوج قوتها — فى إنشاء

مسجد عظيم في إستانبول قدر له أن يحجب عظمة البني المهارى الضخم الذى عرف بكاتدرائية القديسة آيا صوفيا. وغدا جامع سليمان من أجمل وأروع المساجد في الدولة<sup>(١)</sup>. وازدانت إستانبول بمسجد رائع آخر شيده السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) وتناثرت المساجد الكبرى في المدن العثمانية مثل بروسة وأدرنة وغيرها، ويقول أحد الباحثين إن رصد الإعتمادات المالية الضخمة على تشييد هذه المساجد دليل على عناية السلاطين بمراعاة الشعور الدينى المتسلط على الرعايا العثمانيين. ومن ثم قام تنافس من أجل إقامة المساجد بين السلاطين الذين تماقبوا على عرش الدولة. ولم يكن سبب هذا التنافس حاجة ملحة إليها بقدر ما كان الهدف هو اكتساب قلوب الشعب عن طريق الدين<sup>(٢)</sup>.

ولم يكن إهتمام السلاطين بإنشاء المساجد مقصوراً على الأقاليم التى كانت مهاداً للعثمانيين عند نشأة دولتهم، بل امتد هذا الإهتمام إلى الولايات الإسلامية. ففي مصر — على سبيل المثال — كان الباشوات العثمانيون يشيدون — بناء على أوامر تصدر لهم في غالب الأحيان من إستانبول — مساجد جديدة لازتال إلى اليوم تحمل مظاهر العمران في مصر إبان الحكم العثمانى. ونذكر من هذه المساجد : مسجد سليمان باشا في القلعة (١٥٢٨)، والحمدودية (١٥٦٧)، وسفان باشا (١٥٧١)، والمسكة صفية (١٦١٠)<sup>(٣)</sup>. وكان السلاطين يمهّدون إلى الولاة في مصر بإصلاح

(١) بروكلمان كارل: الأتراك العثمانيون وحضارتهم، ترجمة الدكتور نبه أمين فارس، والأستاذ منير البعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٩١٩، ص ٧٩-٧٢.

(٢) محمد جميل بيهم: العرب والفكر في الصراع بين الشرق والغرب، المطبعة الوطنية، بيروت. ١٩٥٧، ص ١٢٥.

(٣) أنظر بخصوص المساجد التى شيّدت في مصر إبان الحكم العثمانى كلام من : حسن عبد الوهاب باشا. تاريخ المساجد الأثرية. الناشر وزارة الأوقاف بالقاهرة، مطبعة دار الكتب جز ١، ١٩٤٦ ح ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٨، ص ٣٠٢ - ٣١١. دكتور عبد الرحمن زكى : قلعة صلاح الدين وقلع إسلامية أخرى. مشروح الألف كتاب. مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٠ ص ٢٤، و ص ٧٩. دكتور عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام. الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٣١٥، و ص ٣١٩.

وتجديد المساجد القديمة وعلى رأسها الجامع الأزهر<sup>(١)</sup>.

### التطبيق الصارم للشريعة الإسلامية :

ووضع الطابع الدينى وعمقه فى الدولة من حرصها على تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية تطبيقاً صارماً من ناحية، وعلى المحافظة على التقاليد الإسلامية من ناحية أخرى. فمن الناحية الأولى كانت الدولة تؤكد فى شتى المناسبات أنها تلتزم التزاماً دقيقاً بمبادئ الشرع. ونذكر هنا على سبيل المثال أنها حين أصدرت قانون نامة الذى وضعه السلطان سليمان المشرع توجت هذا القانون بجملة معبرة وردت فى صدره « قانوننامى سلطانى كى شريعى شريفى موافقانى محرر أولوب » أى « القانون نامة السلطانى الذى يتفق مع الشريعة الشريفة »<sup>(٢)</sup>.

أما من الناحية الثانية وهى المحافظة على التقاليد الإسلامية، فنذكر على سبيل المثال أيضاً أن السلطات العثمانية لم تكن تسمح لأحد بانتهاك حرمة شهر رمضان، ولذلك لم يكن يجوز أحد، مهما كان مركزه، وسواء كان مسلماً أو غير مسلم، على أن يأكل أو يشرب فى مكان عام فى أثناء النهار طوال شهر الصيام. كان ضرب هذا الشخص أو تجريمه من الإجراءات الفورية الرادعة التى تتخذ ضده. وكان التجريس عقوبة مقررة ومعترفاً بها. فكانوا يحلقون نصف لحية المذنب ونصف شاربه، ثم يضعونه على ظهر حمار، ووجهه متجه إلى ذيل الحمار، ويقبض بيده على ذنب الحمار، ويمسحون هذا الشخص بمصارين ذبيحة أى

---

(١) عبد الجواد صابر لإسماعيل : دور الأزهر فى عصر إبان الحكم العثمانى رسالة أعدت تحت إشراف المؤلف وأجيزت لدرجة الماجستير بتقدير جيد جداً فى التاريخ الحديث من قسم التاريخ والحضارة بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر سنة ١٩٧٠، ص ص ٣٣٧ — ٣٤٤ ( لم تطبع الرسالة بعد ) .

(2) Gibb Hamilton and Harold Bowen, Islamic Society and the West. A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East. Volume 1, Part 1 and Part II. Oxford University Press. 1962. Vol. I Part 1, p. 23, fn., 2.

بأمعائها ، ويضعون على كتفيه كرشها أو جلدها ، ويطوفون على هذه الصورة المذكورة الشوارع والطرقات ، ورجال أشداء يصدونه ويضربونه بالفلل ، وكانوا يجتمعون حوله الصبية يصرخون ليجتمع حوله مزيد من الناس . وكان التجريس يستخدم إذا كان المفطر مسلماً شاباً قوياً صحيح الجسم . وكان يطلق أيضاً على هذه العقوبة التشهير . وكان لا بد أن يعقب إحدى هاتين العقوبتين توقيع عقوبة أخرى هي الزج به في الترسيم أى الاعتقال<sup>(١)</sup> . وكانت العقوبة الأخيرة تطبق على المسلم وغير المسلم على حد سواء .

### أربع قوافل رسمية لأداء الحج :

تولت الدولة تنظيم الحج إلى الحجاز وأشرفت عليه إشرافاً فعلياً ، واعتبرت هذا العمل واجباً يقع على عاتقها على الرغم من أن الدولة كانت تعارس الحكم في نطاق ضيق جداً لم يكن يتجاوز بضعة قطاعات ، مثل الإدارة المالية وتشمل جمع الضرائب من الممولين معتمدة على للتزمين في الأديان وشيوخ الطوائف في المدن ، ثم المحافظة على الأمن العام ، وتنظيم مرفق القضاء . فكانت قلة التدخل الحكومي من أهم ما يوصف به الحكم العثماني<sup>(٢)</sup> . وقد نظرت الدولة إلى الحج على أنه الركن الخامس من أركان الدين الإسلامي ، وأن واجب على الأمر تيسير الحج أمام الراغبين في أداء هذه الفريضة .

(١) كانت تستخدم في بعض المراجع كلمة « الرقانة » بنفس معنى الترسيم . والرقانة سجن يوضع فيه المتهملون وراغبين صدرت عليهم أحكام قضائية .

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشنولى : دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي للمصر إبان الحكم العثماني . بحث في إحدى وستين صفحة من القطع الكبير نوقش في الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ( ٢٧ مارس — ٥ أبريل ١٩٦٩ ) وطبع في الجهاد الثاني من بحوث الندوة ، ص ٦٦٧ — ٧٢٩ .

فأنشأت الآبار على طول الطرق المؤدية إلى الحجاز وأقامت في البادية حصونا لحراسة الآبار وشجعت على تشييد الخانات<sup>(١)</sup>، وأقامت الخافر، وكانت تتحرك كل سنة أربع قوافل حج رئيسية من كافة أنحاء الدولة في مواعيد محددة ووفق نظام رتيب وفي رقعة قوة عسكرية يقودها أحد كبار العسكريين يسمى سردار الحج<sup>(٢)</sup> . وكانت كل قافلة ترأسها شخصية كبيرة تسمى أمير الحج . وكانت هذه القوافل من حيث الأهمية العددية : قافلة الحج الشامي وتضم حجاج بلاد الشام والجزيرة وكردستان وأذربيجان والقوقاز والقرم والأناضول والبلقان وحجاج إسطنبول نفسها ، وكانت أوفر مدن البحر المتوسط سكاناً بعد البندقية . وكان عدد أفراد قافلة الحج الشامي يتراوح في كل عام بين ثلاثين ألفاً وخمسين ألفاً ثم قافلة الحج المصري

---

(١) خانات جم خان وهو فندق أو وكالة ممددة لاستقبال التجار الأفراب والحجاج وغيرهم من المسافرين . والخان عبارة عن بناء في وسطه ساحة كبيرة مربعة الشكل تسمى المحوش ، ويحيط بهذا المحوش رواق على الحوائط الأربعة ، والرواق مرتفع على أعمدة . ويترسل للمسافرون في الدور العلوى ويسمى الطابق ( وفردا طابق ) ، والطابق مقسمة إلى عدد من الغرف تعل على المحوش اتقى فيوسط الخان . وفي الدور الأرضي كان يخصم عمل لإيواء الجمال والخيول وغيرها من الحيوانات التي يركبها للمسافرون كما كانت توجد في الدور الأرضي عجلات أو مضارن تدور فيها بضائع التجار النازلين في الخان . وفي القرن السابع عشر أدخل تعديل على تصميم الخان ، فأصبحت الساحة الداخلية — المحوش — أقل مساحة . وكان المحوش يسقف بالقباب ، فيتحول إلى مستودع إضافي لتكوين البضائع بأمن من التقلبات الجوية . وكان يوجد بالخان بئر ماء وميضأة ومسجد . وكان الخان عنصرأ حياً دعالا في حياة المدن في تلك العصور .

الظر كلام من :

جان سونلجي : دمشق الشام . لحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر ، تعريب فؤاد أفرام البستاني . الطبعة السكائوليكية ، بيروت ، ١٩٣٦ ، ص ٤٢ — ٤٦ .  
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المالبيكي في مصر والشام . القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤١١ .

(٢) سردار معناها قائد .

وتضم حبيج مصر وشمال أفريقيا ، ثم قافلة الحج العراقي وتضم حجاج العراق وفارس ، ثم قافلة الحج اليمني وتجمع حبيج اليمن والهند وماليزيا وإندونيسيا وغيرها .

### تشجيع التصوف :

وكان من مظاهر الاتجاه الديني في سياسة الدولة تشجيع التصوف بين السنيين . وقد تركت الدولة مشايخ الطرق الصوفية يمارسون سلطات واسعة على المريدين والأنبياء . وانتشرت هذه الطرق الصوفية انتشاراً واسعاً أول الأمر في آسيا الصغرى ، ثم انتقلت إلى معظم أقاليم الدولة . وقيل في هذا الصدد إن حياة الجماهير الدينية قد خضعت لتأثير مشايخ الطرق الصوفية أكثر مما خضعت لتأثير رجال الدولة الرسميين<sup>(١)</sup> . وقد مدت الدولة يد العون المالي إلى بعض الطرق الصوفية ، أو على الأقل إلى الطرق الصوفية القويمة المذهب وفضلتها على غيرها<sup>(٢)</sup> . وكان من أهم الطرق الصوفية : النقشبندية ، والمولوية ، والبكتاشية ، والرفاعية أو الأحمدية ، والخلوتية ، والكاذرونية نسبة إلى المتصوف الإيراني أبي الإسحاق الكاذروني ، ولذا تسمى أيضاً الطريقة الإسحاقية أو المرشدية<sup>(٣)</sup> . وقد نجم عن تمدد هذه الطرق الصوفية من ناحية وانتشارها من ناحية أخرى أن بدأ الطابع الديني ملحوظاً بل قوياً في نفوس السنيين وامتازت حياتهم الدينية بالحياة .

---

(١) بروكلمان كارل : التراث العثمانيون وحضارتهم . مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٤ .  
(2) Hourani Albert; The Ottoman Background of the Modern Middle East. Essex, England, 1970. p. 8.

(٣) كان أتباع هذه الطريقة يستقون مبدأ الدعوة الدينية وعاهدة السكفار . وقد دخلوا شبه جزيرة الأناضول في النصف الثاني من القرن الثالث عشر بعد الفزو المقل مباشرة ، وزاولوا نشاطهم في منطقة الإمارات التي كانت تابعة في شربى الأناضول ، وظفروا بمركز ممتاز في دوائر الحكومة العثمانية ، وأضنى السلاطين العثمانيون حمايتهم على أتباع هذه الطريقة للاستفادة بهم من إذكاء الروح الدينية الإسلامية في تلك المنطقة المحاسنة التي كانت مسرحاً لعمليات حرية متعاقبة خاضها العثمانيون ضد السكيات المسيحية .

الظفر : محمد فؤاد كوهنر إلى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٨

### نظام الفتوة :

وإلى جانب الطرق الصوفية وجد في الدولة نظام الفتوة الذي كان الطابع الإسلامي للفروسية العربية. وكان هذا النظام موجوداً في الأناضول قبل قيام الدولة العثمانية، ولكنه أخذ مظهراً جديداً على يد الأتراك العثمانيين. وعرف أفراد هذا النظام بعدة أسماء منها آخيان روم ، والأخية الفتيان ، والآخيات . وكان الاعتقاد السائد بين جمهرة الباحثين إلى عهد قريب أن كلمة آخيان مأخوذة من اللفظة العربية إخوان ، وأن مفرد آخيان هو آخى . ولكن فرد المستشرق الفرنسي دني Dany J. أن كلمة آخى جاءت من اللفظة التركية آقى بمعنى الرجل الذي يجمع بين الشهامة والكرم ، وأنها ليست مأخوذة من الكلمة العربية آخى<sup>(١)</sup> . وهذا التفسير أدنى إلى الحقيقة ، لأن هاتين الصفتين . وهما الشهامة والكرم - كانتا من أبرز صفات أفراد هذه الجماعة . وقد التقى بهم الرحالة المسلم ابن بطوطة<sup>(٢)</sup> في جولاته في الأناضول في أثناء رحلته الأولى التي كانت أطول وأهم رحلاته الثلاث ، وقد قضى في رحلته الأولى ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً<sup>(٣)</sup> . وعاصر اثنين من سلاطين الدولة العثمانية هما عثمان الأول ( ١٢٩٩ - ١٣٢٦ ) وابنه أورخان ( ١٣٢٦ - ١٣٦٠ ) . وقد زار ابن بطوطة بلاد الأناضول في أثناء حكم هذا

(١) محمد فؤاد كوبرلي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٠ .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم ، وكنيته أبو عبد الله ، ولقبه شمس الدين وشهرته ابن بطوطة . وقد ولد في طنجة في اليوم السابع عشر من شهر رجب سنة ٧٠٣ هـ الموافق الرابع والعشرين من شهر فبراير سنة ١٣٠٤ م وجزا إلى ربه في مدينة فاس سنة ٧٧٠ هـ ( ١٣٦٨ - ١٣٩٩ ) م . وكان قد تولى على السابعة والستين من العمر . وفي رواية أخرى أنه تولى سنة ٧٧٩ هـ ( ١٣٧٧ ) م وله من العمر ثمانية وأربعة وسبعين عاماً . وكان إلى وفاته يتولى القضاء في فاس .

(٣) بدأ ابن بطوطة رحلته الأولى من طنجة مسقط رأسه في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب المراد عام خمسة وعشرين وسبعمائة ممتداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ( ١٤ يونيو ١٣٢٥ م ) ، وأنتهاها في مدينة فاس التي وصل إليها يوم الجمعة في أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسة وسبعمائة ( أواخر ١٣٤٩ ) . وقد انتهى من رحلاته الثلاث في سنة ٧٥٤ هـ ( ١٣٥٤ م ) .

الابن السلطان أوردخان . وقابله وقال عنه إنه أكبر ملوك التركان وأكثرهم  
مالاً وبلاداً وعسكراً ، له من الحصون ما يقارب مائة حصن ، وهو في أكثر أوقاته  
يتفقددها ، ويقبم بكل حصن أياماً لإصلاح شئونه . وقد أعطى ابن بطوطة سورة واضحة  
للدولة العثمانية في دور نشأتها ، إذ وصف الإمارات والولايات التركية المتعددة قبل  
أن يجمعها كلها الأتراك العثمانيون في دولة واحدة <sup>(١)</sup> . ويهمننا في هذه الدراسة أن  
ابن بطوطة خالط الإخوان الأتراك ووقف على نظمهم وزواياهم وأسلوبهم في  
الحياة ، ثم تحدث عنهم في كتابه <sup>(٢)</sup> حديثاً شائقاً ضافياً تحت اسم الأخية القتيان <sup>(٣)</sup> .  
وقال إنهم كانوا مثلاً فريداً في الشهامة والكرم وقضاء الحوائج والوقوف في وجه  
الظلم والاقتصاص من الظلمة ومن لحق بهم من أهل الشر . وكانوا يحملون معهم  
الأسلحة في حلهم وترحالهم . وذكر أنهم كانوا يتنافسون على استضافة الغرب

(١) دكتور محمد محمود الصياد: رحلة ابن بطوطة . بحث منشور في «تراث الانسانية»  
القاهرة ، المجلد الثالث لسنة ١٩٦٥ ، العدد الثاني ، فبراير ١٩٦٥ ، ص ١٠١ — ١١٦ .  
(٢) من التجاوز أن يطلق كلمة «كتاب» ، لأنه لم يضح هذا الكتاب ، فإنه لما  
انتهى من رحلاته الثلاث ، وكان قد أمضى فيها زهاء ثلاثين سنة سائحاً في الأرض ، حط رحله  
في فاس باستدعاء من السلطان أبي عيان من ملوك بني مرين ليجلس إلى الناس في تلك المدينة  
يحدثهم عن مشاهداته في البلاد التي زارها ، وطلب السلطان من أحد موظفيه وهو محمد بن جزي  
الكلبي أن يدون أحاديث ابن بطوطة . وقضى في هذا العمل ثلاثة أشهر يستمع إلى الرحلة  
ويدون ما يقوله . وفرغ من هذا العمل في الثالث من شهر ذي الحجة سنة ست وخمسين  
وسبع مائة ( ديسمبر ١٣٥٥ م ) وبالحق أن هذا التدوين كان مجرد مسودة للرحلة ، فأعاد  
صياغتها ، «فكان الفراغ من تأليفها في شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبع مائة» ( فبراير  
١٣٥٦ م ) أي أنه أنقذ قرابة ثلاثة شهور في تدوين المسودة ووصفها في مورتها النهائية .  
وأشأن على الكتاب اسم «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» .

(٣) البيهقي ( محمد بن فتح الله بن محمد البيهقي ) : انتهى من رحلة ابن بطوطة الطنجي  
الأندلسي . وهي مخطوطة محفوظة في مكتبة الأزهر برقم ٤٠٦٣ ، وتقع في ٧١ ورقة أي ١٤٢  
صفحة . وقد رجعا إلى هذه المخطوطة التي تناولت أخبار الأخية القتيان ص ١٨ — ٢٨ .

وقد طهرت عدة طبعات ومختصرات نقلت عن هذه المخطوطة ورجعنا إلى كتابين آخرين  
أحداهما : «رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» .  
روجت وصححت على عدة نسخ خطية بمعرفة لجنة من الأدباء سنة ١٩٦٤ م — ١٣٨٣ هـ .  
وهي في جزئين يقعان في مجلد واحد ، وقد اشترتها المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة من  
١٨١ — ٢٠٩ . والكتاب الآخر يسمى «رحلة ابن بطوطة من طنجة إلى الصين والأندلس  
وأفريقيا» للاستاذ محمود المرقاوي . وتقع هذه الطبعة أيضاً في جزئين في مجلد واحد  
ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٦٨ ج ١ ، ص ١٥٦ — ١٦٦ .



الوافد إلى بلدتهم . وكان نظام هذه الجماعة أن ينتخب أهل كل صناعة أو مهنة أو حرفة رئيساً لهم يلقب أخى ، ويشترط أن يكون الرئيس وجماعته من الشبان العزاب المتجردين ، ويقدمون رئيسهم عليهم . ويبقى الرئيس زاوية وداراً للضيافة ويشترك الجميع في نفقاتها وخدمتها ونفقات ضيوفها . ووصف ابن بطوطة زواياهم وقال إنها منتشرة في طول البلاد وعرضها ، وأنها توجد في كل مدينة وبلد قروية ، كما توجد في مناطق الحدود . وكانوا يذهبون سوا إلى المسجد في صلاة الجمعة والعديد في المناسبات الدينية الأخرى ، ويحيطون بحاكم الإقليم أو المدينة ، وكل منهم يحمل سلاحه .

وينكر الأستاذ محمد فؤاد كوبرلى - استناداً إلى النقوش وشواهد القبور والوثقيات والمصادر التاريخية - أنهم كانوا جميعاً عزاباً ، ويقرر أن أعداداً كشيعة العدد منهم كانوا متزوجين ، وأنهم كانوا من أرباب الثروات الضخمة والنموذ المريض ، وأن من بينهم من تقلد المناصب الإدارية العليا . وكان لهم أدوار خطيرة في تأسيس الدولة العثمانية وفي إنشاء فرق الإنكشارية في الجيش . وكان السلاطين العثمانيون وكبار العادة ينزلونهم منازل التكريم<sup>(١)</sup> .

وقد اختلط أفراد هذه الطائفة بطوائف الصناعات في المدن ، واتصلوا بأصحاب الأراضي في الريف اتصالاً وثيقاً ، ثم انضم إليهم عدد من رجال الدولة في الأناضول ، ومن القضاة والتجار والمشايع الذين يقيمون إلى طرق صوفية شتى . والحق هؤلاء وأولئك بزوايا الآخيان . واختلط الأمر على كثير من الباحثين ، فذهب بعضهم إلى أن الآخيان كانوا يشكون منظمة لأرباب الحرف ، واعتقد البعض الآخر أنهم كانوا إحدى الطرق الصوفية . ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن أفراد طائفة الآخيان قد اسطبقوا بالطابع الصوفى ، ولكنهم لم يشكّلوا طريقة صوفية خاصة بهم . وجدير بالذكر أنهم كانوا يعتقدون المذهب السنى . ولم

(١) محمد فؤاد كوبرلى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٩ - ١٦٢ .

يكن في استماعتهم اعتناق المذهب الشيعي لأنهم كانوا يخضعون لرقابة الدولة . وكانت السلطات العثمانية متعصبة جد التعصب للمذهب السني وقد زاد تعصبها لهذا المذهب حدة طول مراعها مع الدولة الصفوية في فارس .

### اختيار اسم إسلامي بدلاً من القسطنطينية :

ومما تجدر الإشارة إليه - ونحن نتكلم عن الطابع الديني للدولة العثمانية - التسمية الإسلامية التي أطلقها السلطان محمد الفاتح على القسطنطينية عقب استيلائه عليها في ٢٩ من مايو ١٤٥٣ ، فقد استبدل بهذا الاسم اسماً جديداً هو إستانبول <sup>(١)</sup> ، وهي كلمة تركية معناها دار الإسلام . ولا يخفى المغزى الديني لهذا الاسم الإسلامي الذي أطلقه السلطان على عاصمة دنيوية وسياسية ظلت قروناً وأعصرراً وأدهاراً مقراً للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية - اليونانية - تهفو إليها قلوب الملايين من أتباع هذه الكنيسة ، كما كانت عاصمة سياسية للدولة الرومانية الشرقية منذ أن أنشئت سنة ٣٣٠ م على يد الإمبراطور قسطنطين ( ٣٠٦ - ٣٣٧ ) <sup>(٢)</sup> وظلت القسطنطينية قلعة حصينة صمدت في وجه المسلمين الأوائل وحالت دون امتداد الفتوح الإسلامية إلى شرق أوروبا حتى جاء الزحف العسكري العثماني بطرق بشدة ممتلكات الدولة الرومانية الشرقية منذ مطلع القرن الرابع عشر . واستولى العثمانيون على هذه العاصمة التي كانت يونانية الحضارة واللغة والتراث ، أرثوذكسية المذهب الديني . ولم يشأ السلطان محمد الفاتح أن يطلق اسمه أو اسم أحد من أسلافه على هذه المدينة على الرغم من أنه كان يملك القدرة على مثل هذا

(١) تكتب في بعض المراجع إستانبول تارة وإسلامبول تارة أخرى .

(٢) دكتور سـ دـ عبد الفتاح حـشور : أوروبا العصور الوسطى . جزءان ، الجزء الأول : التاريخ السياسي ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٦٥ ، ص ٢٠ .

التغيير، ولكنه اكتفى بتغيير اسمها وجعله اسماً إسلامياً ، وقنع بنقل عاصمة دولته إليها، وهذان التغييران كانا أبلغ من أى تغيير آخر .

### تقليد ديني عند إرتقاء السلاطين العرش :

استن سلاطين الدولة تقليداً دينياً عقب فتح القسطنطينية وإطلاق الاسم الإسلامى «إستانبول» عليها . كان السلطان محمد الفاتح فى قمة ابتهاجه بهذا النصر العظيم الذى حققه بإستيلائه على عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، وتقديراً منه للدور الذى قام به الصحابى أبى أيوب الأنصارى أحد قادة الجيش الأموى الذى زحف على القسطنطينية سنة ٦٧٠م على عهد يزيد بن معاوية لفتحها واستشهد فى حمايات الحصار . وكان كشف موقع قبره على مقربة من أسوار القسطنطينية قبل فتح هذه العاصمة البيزنطية بأيام قد أدى إلى تفجير الشهور الدينية الإسلامى لدى الجيش العثمانى المهاجم — رأى هذا السلطان أن يشيد مسجداً بالقرب من ضريح الشهيد أبى أيوب الأنصارى ، وازدان هذا المسجد بالرخام الأبيض . وإلى جانب هذا المسجد ، وفى مقام الشهيد أبى أيوب الذى لا يمدون أن يكون بناء مربعاً بسيطاً تلوته قبة ، كان يقام حفل دينى رسمى عقب إعتلاء كل سلطان جديد العرش ، فكان السلطان يذهب فى موكب رسمى حامل إلى هذا المسجد ، ثم يدلف إلى ضريح أبى أيوب الأنصارى . وفى جو دينى عابى كان السلطان الجديد يتسلم من يد شيخ الطريقة المولوية — بيوك چلبى — سيف السلطان عثمان الأول الجدد السكبير للسلاطين العثمانيين (٢) .

### اهتمام عميق بالحجاز :

ويبرز الطابع الدينى للدولة فى اهتمامها الكبير بإقليم الحجاز منذ أن غدا ولاية عثمانية . فكانت تبعية الحجاز للدولة قد أضفت عليها مركزاً دينياً مرموقاً فى جميع

(١) انظر فصلا فى هذه الدراسة بعنوان فتح القسطنطينية .

(٢) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم . مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ .

أرجاء العالم الإسلامى على أساس أن هذه الولاية تضم أم الأمّا كن المقدسة الإسلامية على وجه الأرض. وتبجلى هذا الاهتمام فى عدة امتيازات قررها السلطان سليم الأول وهو لا يزال فى القاهرة لولاية الحجاز دون سائر الولايات العثمانية . وسار على هذا النهج السلاطين العثمانيون الذين تربعوا على عرش الدولة من بعده ، وعملوا على دعم هذه الامتيازات بحيث أصبح فى حكم الاستحالة المساس بها . وكان من بين هذه الامتيازات الإعفاء الضريبى ، فكان الحجاز لا يقدم جزية سنوية للدولة على الرغم من أن السلطان كان يحرم على فرض هذا الالتزام على معظم الولايات العثمانية ، أما ولاية الحجاز فكانت تنلقى كل عام اعتمادات مالية ضخمة ترصد فى ميزانية الحكومة المصرية <sup>(١)</sup> . وقد أمر السلطان سليم الأول بزيادة الاعتمادات المالية المخصصة للحجاز ، كما أمر بأن تتحمل الحكومة المصرية هذه الالتزامات القديمة والمستحدثة . وكان يطلق عليها المصطلح التاريخى « الصرة » وترسل مع قافلة الحج المصرى . وكان إرسال « الصرة » إلى الحجاز يند من أم واجبات الباشا العثمانى فى مصر ، ويحاسب حساباً عسيراً إذا قصر فى إرسالها . وإلى جانب إعفاء الحجاز - كولاية عثمانية - من دفع الجزية للدولة تتمتع أهل الحجاز - من قبيل الرعاية لهم - بالإعفاء الضريبى من معظم الضرائب الشخصية والعقارية سوى ضرائب على أصحاب الأغنام والجمال <sup>(٢)</sup> . وتمتع سكان الحجاز أيضاً بالإعفاء من التجنيد أو الخدمة العسكرية ، كما أبت الدولة على الحكم الذاتى

(١) كانت هذه الاعتمادات تتكون أساساً من حصيلة الأراضى الزراعية وغيرها من العقارات الثابتة التى أوقفها أهل البغد من المسلمين ومصر زلى إلى انة تصرف على المحرمين المصريين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة وعلى الأشراف وغيرهم من سكان مدن الحجاز . ويحاسب الأموال السائلة كانت تعين إلى الحجاز كميات من القمح والذرة والأرز .

(٢) انظر كلام : (٢)

حسين بن محمد نصيف : ماضى الحجاز وحاضره . جدة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠-١٩٣١) ص ٩٤ .  
حافظ وهب : جزيرة العرب فى القرن العشرين . الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ

(١٩٦٧) م ، ص ١٥٢ .

الذى كان يتمثل فى نظام الشرافة وأقامت بجانبه نظاماً مدنياً . (١)

### لقبان دينيان :

اهتم سلاطين الدولة العثمانية اهتماماً عظيماً للناية بإبراز لقبين دينيين من بين القابهم العديدة ، إذ كان هذان اللقبان يضيفان على سلاطين آل عثمان صبهة دينية لها بريقها ووزنها فى أرجاء العالم الإسلامى . كان أولهما لقب « حاكى حى الحرمين الشريفين » أو « خادم الحرمين الشريفين » وكان السلطان سليم الأول قد اتخذ لنفسه هذا اللقب بعد أن أرسل شريف مكة ابنه إلى القاهرة ليبلغ السلطان سليم ولاءه واعترافه بالسيادة العثمانية على الحجاز . وتمسك السلاطين العثمانيون منذ ذلك الوقت بهذا اللقب الدينى . وكان مرد اهتمامهم بهذا اللقب إلى تأكيد زعامة الدولة العثمانية للعالم الإسلامى ، بعد أن اقتصر العثمانيون على الشام لإسماعيل الصدى فى موقعة تشالديران ( ٢٢ من أغسطس ١٥١٤ ) ودخلوا تبريز عاصمة فارس التى هبطت إلى دولة من الدرجة الثانية ، وبعد أن قضى العثمانيون بعد ذلك على دولة المماليك البرجية وامتثلوا على الشام ثم مصر ، وبعد أن دخل إقليم الحجاز تحت السيادة العثمانية سنة ١٥١٧ وأصبح ولاية عثمانية تضم أهم الأماكن الإسلامية المقدسة يجتمع فوق رآها كل عام حشود إسلامية كثيفة العدد يأتى أفرادها من كل فج عميق يؤدون فريضة الحج ويشهدون منافع لهم فى بلاد تابعة للدولة العثمانية . ومنذ ذلك الوقت برز فى الدولة الطابع الدينى الإسلامى بروزاً قوياً للناية ، واشتد هذا الطابع الدينى كلما مضت السنين فى القرون التالية .

---

### (١) أنظر كلام من :

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى تاريخ مفصل جامع للقضية العربية فى ريم قرن • ثلاثة أجزاء ، ج ١ ، انتشار بين العرب والترك . القاهرة ، مطابع عيسى البابى الحلبي وشركاه مصر ١٩٣٤ م ١٠٤ دكتور سيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠ - ١٩٠٩ . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٠١ .

أما اللقب الدينى الآخر الذى اهتم به سلاطين الدولة فهو لقب خليفة ، وقد بدأ اهتمامهم به فى القرن الثامن عشر واشتد هذا الاهتمام فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . واتخذوا من الخلافة وإحياء مجدها واسترداد ما كان لها من الهيبة والنفوذ والسكاننة وسيلة لمقاومة ضغط الدول الأوروبية الاستعمارية عليها ، وبخاصة الدول التى كان لها رعايا مسلمون مثل بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا . وكان السلاطين يهددون بتحريك هؤلاء الرعايا المسلمين ضد حكومات دولهم الأوروبية عن طريق إعلان الجهاد الدينى ، وهو فرض عين على كل مسلم بالغ قادر . وسنعرض لهذه . المسألة فى موطن قادم عند الكلام عن موضوع « الخلافة العثمانية وعلاقتها بتاريخ أوروبا الحديث » . وحسبنا أن نذكر هنا أنه بالمصاق لقب خليفة بالسلطان العثمانى - وهو المصاق متمم هادف - نستطيع أن نقول إنه أصبح لرئيس الدولة العثمانية لقبان : لقب مدنى هو السلطان ، ولقب دىنى هو الخليفة .

#### رأى الجبرتى فى الدولة العثمانية :

والمؤرخ المشهور الشيخ عبد الرحمن حسن الجبرتى - كأحد كبار رجال الفكر الإسلامى - يستهويه الطابع الدينى البارز فى سياسة الدولة العثمانية ، فيتكلم بإعجاب ، وفى عبارات مسجحة عن اهتمام السلاطين العثمانيين « بإقامة الشرائع الإسلامية والسنة المحمدية ، وتعظيم العلماء وأهل الدين ، وخدمة الحرمين الشريفين ، والتمسك فى الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع ، فتصرفت دولتهم ، وطالت مدتهم ، وهابنهم الملوك ، واتقاهم الممالك والملوك » (١) .

#### نظام الملل :

والدولة العثمانية دولة دينية لأن رعاياها غير المسلمين كانوا يخضعون لنظام

(١) الجبرتى الشيخ عبد الرحمن : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٧ هـ ، أربعة أجزاء ، ج ١ ، ص ٢١ .

الملل ، وهو نظام يقوم على تصنيف رعايا الدولة غير المسلمين تصنيفاً لا يقوم على أساس الجنس أو القومية أو اللغة ، بل على أساس المذهب الديني الذي يدين به هؤلاء الرعايا . وكان يطلق على كل مذهب ديني « ملة » . وكان لكل ملة رئيس ديني ينظر في المسائل الدينية ؛ ويقوم - مستعيناً ببعض مساعدين من رجال الدين المسيحي - بالفصل في قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بأنباع هذه الملة دون تدخل من جانب الدولة التي تركت لرئيس كل ملة ممارسة هذا الاختصاص . وقد منع نظام الملل الرعايا غير المسلمين كياناً ذاتياً خاصاً . وكان الروم الأرثوذكس - أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية - أهم ملة غير إسلامية في الدولة العثمانية . ويتدرج تحت هذا الاسم اليونانيون والبلغار وسكان البوسنة والمهرسك والجبل الأسود وبعض الألبانيين وغيرهم . وكان مقر رئيس هذه الهيئة في إستانبول ، ويسمى البطريرك ، ويطلق عليه أيضاً بطريرك القنار نسبة إلى حي القنار ، وهو أحد أحياء العاصمة ، وكان يقوم فيه مبنى البطريركية . وكانت تسكن هذا الحي عائلات يونانية عريقة تتمثل فيها أرستقراطية المال والثقافة والمجد الأسيل ، ويسمون « القناريون » Les phanariotes وكانوا يختلفون عن اليونانيين الموجودين في شبه جزيرة البلقان . ولما كان البطريرك يونانياً ، فقد احتكر اليونانيون عامة السيادة الروحية على الشعوب التي تدين بمذهبهم مثل الصرب والبلغار وغيرهم . وكانت الملة الثانية هي ملة الروم الكاثوليك ، وكانوا أقل شأنًا من الروم الأرثوذكس ، ثم الملة الثالثة وهي ملة الأرمن ، وأخيراً ملة اليهود .

ويتعارض نظام الملل مع فكرة الدولة الحديثة التي تنظر إلى رعاياها على أساس المساواة في الحقوق والواجبات بنقض النظر عن دياناتهم . ولكن كانت التفرة الدينية موجودة في تلك القرون في كافة أنحاء العالم . ومع ذلك فقد كانت الدولة العثمانية متقدمة عن الدول الأوروبية المعاصرة لها ، لأنها كانت تسمح بوجود ديانتين هما المسيحية واليهودية ومذاهب دينية مختلفة وعديدة في بلادها

بجانب الدين الإسلامى . وسنتناول هذا الموضوع بشئ من التفصيل عند الكلام على الطابع المالى للدولة .

### فقرتان من وثيقتين :

ونقتبس هنا فقرتين جاءتا فى وثيقتين من الوثائق الرسمية التى صدرت عن الدولة العثمانية . جاءت الفقرة الأولى فى الوثيقة المعروفة باسم خطى شريف ، جلخانة وقد صدرت هذه الوثيقة فى سنة ١٨٣٩ وجاء فيها « إن الدولة كانت تراعى الأحكام الشرعية فبلت قة المجد . ومنذ مائة وخمسين سنة أهملت الإدارة الشرعية بسبب النوازل وما عرض من حوادث » (١)

أما الفقرة الثانية لجاءت فى الوثيقة المعروفة باسم خطى همايونى . وقد صدرت هذه الوثيقة فى سنة ١٨٥٦ وكان مما ورد فيها « لا يخفى أنه منذ ابتداء ظهور دولتنا العلية كانت الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية للنفية فى غاية المراعاة الكاملة ، ولذلك كانت قوة سلطتنا السنية وثبوتها مع راحة جميع الرعايا ورفاهيتهم وعمار البلاد فى غاية ما يكون من الكمال . ولكن منذ مائة وخمسين سنة لم يمد انقياد ولا امتثال لا للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة لسبب ما طرأ عليها من الحوادث الكثيرة . ولهذا تحولت تلك القوة إلى ضعف ، والراحة إلى التعب ، والعمار إلى الدثار . وأية مملكة لا تقوم بحفظ القوانين الشرعية تؤول إلى الانحلال . . . » (٢)

تدل هاتان الفقرتان على الطابع الدينى الإسلامى الأصيل فى السولة العثمانية . فإن السلطان الذى أسسهما — وهو عبد المجيد الأول ( ١٨٣٩ — ١٨٦١ ) — كان يتفق رأياً مع كبار رجال حكومته على أن المجد الذى حققته الدولة

(١) دكتور عبد الكريم غرابية : سوريا فى القرن التاسع عشر ( ١٨٤٠ — ١٨٧٦ ) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية . القاهرة ، ١٩٦١ — ١٩٦٢ ، ص ٣٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥ — ٣١ .



في عبورها القهفية إنما مرده إلى التزامها بمبادئ الشريعة الإسلامية، وأنها إذا كان قد أسأها ومن أو «اضمحلال» خلال القرن التاسع عشر فلأنها أهلت لسبب أو لآخر تطبيق مبادئ الشريعة . وقد جاءت الفقرة الثانية أكثر إيضاحاً وتفصيلاً : فهي تقرر أن الدولة التزمت التزاماً دقيقاً بأحكام الشريعة ، وأن حرصها على اتباع أحكام القرآن الكريم قد صاحب نشأة الدولة ، وأن هذا الحرص قد أدى إلى النتائج التالية : قوة الدولة العثمانية ، استقرارها ، راحة الرعايا ورفاهيتهم ، عمران البلاد . ولما باعدت الدولة بينها وبين تطبيق المبادئ الإسلامية تحولت قوة الدولة إلى ضعف ، وراحة السكان إلى متاعب ، كما توقفت مشروعات الإصلاح والتعمير ، وأندثر بعضها . ثم تخلص الفقرة إلى حكم عام شامل تقول فيه إن الدولة التي تتبعد عن الأخذ بمبادئ الشريعة ولا تطبق قوانينها يكون مآلها الاضمحلال . وسنعرض للوثيقين اللتين اشتملتا على هاتين الفقرتين في الفصل التالي عند الكلام على المحصصة الثالثة للدولة العثمانية وهي أنها دولة طلمية .

### الجامعة الإسلامية :

والدولة العثمانية هي التي احتضنت حركة الجامعة الإسلامية في القرن التاسع عشر ، وهي حركة كان قد ننادى إليها السيد جمال الدين الأفغانى ( ١٨٣٩ - ١٨٩٧ ) ، وكانت تدعو إلى وحدة الصف الإسلامى فى محتواه الكبير : شعبياً وحكومات . فى مشارق الأرض وفى مقاربها ، والوقوف كالبنيان المرصوص بشد بعضه بعضاً حول الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية فى العالم فى ذلك الوقت . ولم تستهدف هذه الحركة التفوق السياسى أو السيطرة على العالم أو سيادة المجلس أو اللغة ، ولكن كان غرضها تخليص "العالم الإسلامى مما يؤن منه من سيطرة أجنبية مسيحية ، وتدخل أوروبى ، وأزمات سياسية ، واختناكات مالية ، ونهب ثرواته ، واستقلال شعبه . ويلاحظ أن حركة الجامعة الإسلامية عاصرت حركتين أخريين فى العالم المسيحى هما : حركة الجامعة الصقلبية وحركة الجامعة الجرمانية فى

أوروبا<sup>(١)</sup>، ويلاحظ أيضاً أن حركة الجامعة الإسلامية أعم وأشمل من حركة القومية العربية التي تنادى إليها فريق من القوميين المسيحيين في بلاد الشام رداً على حركة الجامعة الإسلامية. ومهما قيل في بواعث وأهداف حركة الجامعة الإسلامية، فإن الدولة العثمانية باحتضانها هذه الحركة كانت رمزاً حياً مجسداً للتضامن الإسلامى للوقوف في وجه الزحف الأوروبي الاستعماري على العالم الإسلامى .

وقد أفصح أحد الباحثين الأمريكيين — وهو لوثرروب ستودارد Lothrop Stoddard — عن الضرورة الملحة التي كانت تتطلب من المسلمين الاستجابة لحركة الجامعة الإسلامية . فقال إن العالم المسيحي على اختلاف شعوبه تسوده روح صليبية وتعصب ديني عميق . ويريد تحطيم الدولة العثمانية وغيرها من الدول الإسلامية ، ويريد أيضاً سحق الإسلام . ومضى يقول إن الدول المسيحية في عدائها وحقدتها على الدول الإسلامية تلجأ إلى العدوان المسلح ابتغاء إذلال الدول الإسلامية ، كما تعمل دائماً على القضاء على كل حركة إصلاحية يحاولها المسلمون في بلادهم . وكان مما جاء في كتابه وهو يبسط آراءه في موقف المسيحيين الغربيين من دول الشرق بعامة والدول الإسلامية بخاصة « العالم النصراني » على اختلاف أممه وشعوبه ، عرقاً وجنسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم ، وللإسلام على الخصوص ، لجميع الدول النصرانية متحفة معاً على ذلك المالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . ويعضى في كتابه

---

(١) كانت حركة الجامعة الصقلية تسمى اقم حيم صقلية أوروبا على اختلاف حضاراتهم ومذاهبهم فتغلص من السيطرة العثمانية والنهوض الألماني ، ثم تكون كتلة حضارية سياسية شرقى أوروبا ووسعها تقوى على مناهضة غرب أوروبا وتسمى لتحقيق آمال الروسيا و التفوق . أما حركة الجامعة الجرمانية فعملت على تكوين وحدة سياسية من العناصر الجرمانية تعمل أولاً لسيطرة على وسط أوروبا ثم على بقية أجزائها ، وقب سداً متنبأ أمام فرنسا من جانب ، وأمام الصقلية من جانب آخر ، وتفرض رغباتها على الاثنين .  
انظر :

دكتور محمد مصطفى صفوت: الاحتلال الإنجليزي لمصر وموقف الدول الكبرى لزياده .  
القاهرة ، ١٩٥٢ ، دار الفكر العربي ، مرس ١٧ — ١٨ .

يقول « والروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى كرون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت في قلب بطرس الناسك<sup>(١)</sup> من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها ، متغلغلاً في أحشائها ، ومنتشياً في كل عرق من عروقها ، وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء ، والحقد ، والتعصب الديني المقيت ... وجميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عدااء الإسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بمجد جميع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسمق الإسلام سحقاً » . وبضمت عرض آرائه بقوله « جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامى يجب عليه أن يصعد اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزيادة عن كيانه ووقايته نفسه من اللغاء المقبل ، وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى ، إنما يجب عليه اكتفاء أسباب تقدم الترب والوقوف على تفوقه وقدرته »<sup>(٢)</sup> .

---

(١) كان بطرس الناسك أحد الدعاة لشروع الحروب الصليبية أخذ بطول في أوروبا بعد المجلس العام الذى عقده البابا إربان الثانى Urban II فى كليرمنت Clermont بجنوب فرنسا سنة ١٠٩٥ وناقش ضرورة إنقاذ بيت المقدس من المسلمين ١١ وكان بطرس فى طوافه يحث المسيحيين على غاربه المسلمين . وكان رجلاً طاعناً فى السن ، على حظ موهوب من القدرة على الخطابة وكانت فصاحته وحيثته الغريبة : يشابه الملهة ، وبقدسية الممارتين ، وحارده الأهرج ، جعلنا منه شخصية ذات تأثير على جماهير العامة والدعاة فى غرب أوروبا ونجح فى جمع حشود آدمية كثيفة العدد من الرهاص وخرجي السجون والأشقياء والراغبين . واصطط كثير منهم لساذهم وأطفالهم . واقتربوا فى طريقهم إلى الشرق جرائم منكرة جعلت سكان المجر ووعاها الدولة البيزنطية يتورون عليهم ووصلوا إلى القسطنطينية . وسارع امبراطور الدولة الرومانية الشرقية بمساعدتهم على العبور إلى آسيا الصغرى رغبة فى التخلص منهم . وكان عددهم ثلاثمائة ألف رجل . مقابلهم الأتراك السلاجقة فى ألبانيا وأوقوا بهم هزيمة منكرة . ويعتبر بطرس الناسك هو المسئول عن هذه الحقبة الحفقاء .

انظر :

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية . جزءان ، ١٩٦٣ ، الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة . ج ١ ، ص ١٣٥ - ١٤٠ .

(٢) لوثرروب ستودارد : حاضرم العالم الإسلامى . ترجمة عبد الج نويس . ونطبع الأمير شبيب أرسلان . جزءان ، القاهرة ، ١٩٤٣ هـ ، ج ١ ، ص ١٢٧ - ١٣٨ .

### الاتحاديون يتمسكون بالشعار الدينى :

وقد ظل الطابع الدينى الإسلامى ملحوظاً فى الدولة على الرغم من أن قادة انقلاب سنة ١٩٠٩ — وهم أعضاء جماعة الاتحاد والترقى ومعظمهم من ضباط الجيش — كانوا قد ابتعدوا عن الخط الإسلامى الواضح ، وتخططوا بين حركة الجامعة الثمانية<sup>(١)</sup> وحركة التتريك<sup>(٢)</sup> والحركة الطورانية<sup>(٣)</sup> ، وأمعنوا فى الأخذ بنظام الحكم المركزى الذى وجدوه قائماً حين جاءوا إلى الحكم ، ثم عاوتهم تحطيم نظام الشرافة فى الحجاز . حتى إذا دامهم المدوان الاستعمارى الإيطالى على طرابلس الغرب فى سنة ١٩١١ هادوا يرفعون شعار الجامعة الإسلامية ابتغاء

---

(١) الجامعة الثمانية تهدف إلى صبح القوميات المختلفة فى داخل الدولة بالصيغة الثنائية أو ما يسمى عشنة القوميات : فالشكل عشانيون لافرق بين عرب وأنراك وأكراد وألبان وأرمن . وتطبيق حركة الجامعة الثمانية يؤدى إلى كبست القوميات الحاضرة للدولة الثمانية وحلها على التنقل عن أمانها القومية . وبشبه أحد المؤرخين حركة الجامعة الثمانية بينناى مقام على الرمال .

الطار :

Kedourie, Elie; England and the Middle East. The Destruction of the Ottoman Empire. 1914—1921. London. 1956. p. 59.

(٢) التتريك هو صبح جميع ولايات الدولة بما فيها الولايات العربية بالصيغة التركية ولمرعاة التركية لفرسمية المدارس والمحاكم وترجيح مصالح الأتراك بفض النظر عن الإضرار بأرغايا غير الأتراك . وتطبيق سياسة التتريك يؤدى إلى حكم الدولة على أساس السيادة الجنسية للعنصر التركى ، وتكون الدولة الثمانية دولة تركية لا عثمانية . وقد تطرف فريق من الأتراك فدعوا إلى لزالة أسماء الخلفاء الراشدين من الجوامع ووضع أسماء السلاطين العثمانيين الأوائل عليها مثل سليم وسليمان وغيرهما . وقد ظهرت هذه الحركة عقب الحرب البلقانية الأولى .

(٣) الحركة الطورانية تقوم على أن الشعب التركى ينتسب إلى أصول طورانية ، وأن السبيل لبعث الجيش التركى يكمن فى اتحاده من جديد مع الشعوب التى تحت لايه صلة القرين من السلاطة الطورانية . وكانت الحركة الطورانية تدعو إلى إحياء أجداد الأتراك الأوائل وربط الأتراك المعاصرين بقرائهم الحضارى القديم والدعوة إلى تخليص التراث الفسكرى التركى من للؤثرات الفارسية والعربية التى دخلت عليه . وقد أدى هذا الاتجاه إلى تأسيس الأكاديمية التركية سنة ١٩١٣ وإلى ترجمة القرآن إلى اللغة التركية . وظهرت الدعوة إلى إنشاء لغة جديدة وأدب جديد وأبلى اتحاد « بى لسان » أى اللغة الجديدة ، وتبعه اتحاد « بى حياء » أى الحياة الجديدة . ولم يلبث أن اندمج هذان الاتحادان فى اتحاد واحد . وقد لقيت ==

الحصول على تأييد الشعوب الإسلامية في العالم واستثارة العاطفة الدينية الإسلامية في نفوس هذه الشعوب وحكوماتها وهيئاتها وجمعياتها كي تسارع إلى دعم القوات العثمانية — أو المجاهدين كما كان يطلق عليهم — بالمال والأتس والسلاح والمواد التمويلية والمساعدات الطبية لجرحى هؤلاء المجاهدين .

### الطابع الديني في الحرب العالمية الأولى :

وفي أقل من ثلاث سنوات برز الطابع الديني الإسلامي للدولة مرة أخرى واضحا قوياً عقب دخول الدولة الحرب العالمية الأولى في اليوم الخامس من شهر نوفمبر ١٩١٤ إلى جانب دولتي الوسط — ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية — ضد روسيا وبريطانيا وفرنسا<sup>(١)</sup> . ولم تسكد تمر ساعات معدودات على دخول

---

كلمة «طوران» انتشاراً واسعاً في الأوساط الرسمية والשמعية حتى أصبحت محلات الخلقة ولطعام والفنادق تحمل اسم طوران . ونفى الصحفيون والمفكرون والكتاب ومن لا يهتم بطورانياتهم . وقد ظهرت الحركة الطورانية عقب الحرب العالمية الثانية (١٩١٢-١٩١٣) . وما هو جدير بالذكر أن الحركة القومية التركية الحديثة والجمهورية التركية المعاصرة استمدتا الكثير من مبادئ الحركة الطورانية .

انظر كلا من :

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٥٩-٥٨ .  
توفيق طي برو : العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ( ١٩٠٨ — ١٩١٤ ) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٠ ، ص ٥٦٧-٦١٠ .

دكتور محمود صالح منسى : حركة البقطة العربية في الشرق الآسيوي . دار الفكر العربي . القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١٢٢-١٢٩ .

(١) اشتملت الحرب العالمية الأولى في ٢٨ من يوليو (تموز) ١٩١٤ حين زحف الجيش النمساوي على بلغراد، وسارعت ألمانيا في ٢ من أغسطس (آب) إلى إعلان الحرب على فرنسا وروسيا ، ودخلت بريطانيا الحرب في منتصف ليلة ٤/٥ أغسطس وتتابع دخول الدول في هذه الحرب . وتظاهرت تركيا وتذاك بالحيطة ، ولكن كانت كل الدلائل تشير إلى أنها ستدخل الحرب وشيكاً إلى جانب ألمانيا . وكان أنور باشا وزير الحربية التركي قد اقترح في الثاني والعشرين

تركيا الحرب حتى صدرت فتوى من شيخ الإسلام في إستانبول ، ثم لحقت بها فتوى أصدرها السلطان محمد رشاد الخامس ( ١٩٠٩ - ١٩١٨ ) بصفتها خليفة ، ثم أعقبها فتوى ثالثة وقع عليها شيخ الإسلام وعثمانية وعشرون من كبار العلماء من ذوى المناصب الدينية الكبرى<sup>(١)</sup> والدراسة التحليلية لهذه الفتاوى الثلاث توضح عدة حقائق تؤكد رغبة الاتحاديين في إبراز الطابع الديني للدولة ، منها :

أولاً : إن هذه الفتاوى الثلاث موجهة إلى جميع المسلمين في بقاع الأرض سواء الذين يعيشون تحت حكم الدولة العثمانية أو الخاضعين لحكم الدول « عدوة الإسلام » ، وهى روسيا وبريطانيا وفرنسا أو غير هؤلاء وأولئك من مسلمى العالم .

ثانياً : إن الحرب التى تخوضها الدولة هى حرب دينية تستهدف تحرير المسلمين المستعبدين ، والدفاع عن الدولة ، وأنه قد وضح — بما لا يدع مجالاً للشك — أن النصارى من أعداء الإسلام يستهدفون تدمير الدولة وتحطيم الإسلام ، لأن الدولة العثمانية هى دولة الإسلام الكبرى ومقر الخلافة ودرع الإسلام .

ثالثاً : دعوة جميع المسلمين في مشارق الأرض ومناكبها إلى الاتحاد والاشتراك

== من شهر يوليو (تموز) ١٩١٤ على البارون دون وانجنهايم Baron von Wangenheim السفير الألماني في استانبول عقد معاهدة تحالف مع ألمانيا . وقد وقعت في اليوم الثاني من أغسطس (آب) ١٩١٤ وافقت الدولتان على أن تظل المعاهدة سرية . وفي ذات اليوم أعلنت الحكومة التركية التمسبة العامة . وتم الاتفاق بين تركيا وألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية على أن تقرم تركيا الحبيدة حتى نهاية شهر أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٤ . وفي نفس الوقت كانت البعثات العسكرية الألمانية تباشر عملها في تركيا واعتبرت مسئولة عن قيادة الجيش التركي . وكانت هذه البعثة تحت رئاسة الجنرال ليان فون ساندروز General Liman von Sanders وكان قد شغل منصب المفتش العام للجيش التركي منذ يناير (كانون الثاني) ١٩١٤ .

Hurewits J.C.; *Diplomacy in the Near and Middle East*. 2 vols. vol 1 (1535—1914) vol. II (1914—1956) New York, 1956. vol II, pp. 1—2.

(١) جورج ألوغيوس : بغلة العرب . تاريخ حركة العرب القومية ، تقديم دكتور نبيه أمين فارس ، وعريب دكتور ناصر الدين الأسد ودكتور إحسان عباس . بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ، الخامس ، دار العلم قلايين ، ص ٢٢٢ .

في الدفاع عن الإسلام وعن الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة  
والقدس الشريف .

رابعاً : إن الجهاد الديني فرض عين على كل مسلم بالغ وقادر . وعلى المسلمين  
أن يطيعوا كتاب الله وأوامره كما فسرتها تلك الفتاوى الشريفة .

خامساً : إن الدولة استهدفت إثارة الشعور الديني في جميع أنحاء العالم الإسلامي  
على بريطانيا وحليفتها .

### حرب المنشورات الدينية :

وعكفت الحكومة التركية بالتعاون مع المستشرقين الألمان على طبع تلك  
الفتاوى الثلاث مع تعليقات دينية عليها في كتيبات ومنشورات للتأثير في الجماهير  
التي تمتنع الإسلام . وكتبت بجميع اللغات التي كان يتكلم بها المسلمون في أنحاء  
العالم الإسلامي . وهرت إلى مصر والسودان والهند وقارس وأفغانستان وماوراءها  
فصلا عن نيات شمالي أفريقيا . واختلف أسلوب هذه الكتيبات والمنشورات :  
كان بعضها يحرض الجنود على الحرب من جيوش بريطانيا وحليفتها ، وبعضها  
يدعو إلى القتل والاعتقال وغيرهما من الاعتداءات الفردية ، وبعضها كان يطلب  
من المسلمين الامتناع عن تقديم أية مساعدة للدول عدوة الإسلام حتى حينما  
يكونون معرضين لمقوبة الإعدام . ولكن كانت جميع هذه المنشورات تتفق في  
إبراز فكرة واحدة ، هي : أن الإسلام معرض للأخطار بسبب أطماع بريطانيا  
وحليفتها ، وأن الجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام إنما هو فرض عين على كل  
مسلم بالغ قادر .

### إنفاذ بعوث دينية إلى العالم الإسلامي :

وعمدت الحكومة التركية إلى إنفاذ بعوث دينية تؤيد بالقول واللسان ما تضمنته  
الكتيبات والمنشورات والبلاغات الرسمية كي يكون لها مزيد من التأثير في نفوس

المسلمين . وكان الرسل من شتى الفئات : كان من بينهم وعاظ متجولون ، وعلماء ذوو ثقافة دينية ، ومحرمون محترمون ، انتشروا في جميع البلاد التي كان في استطاعتهم التسلل إليها ، فدخلوا الأقاليم الأفريقية التي كانت تحت حكم بريطانيا أو فرنسا أو إيطاليا مثل مصر والسودان وطرابلس وتونس والجزائر ، كما ركزوا جهودهم على الشعوب الإسلامية من غير الأتراك رغبة في استمالتها إلى نلبية دعوة الجهاد الديني . فدوا نشاطهم الدعا إلى المعتقد والأفكار الإيرانية ، وفي مقدمة هؤلاء العرب تطلب منهم المساعدة إلى الجهاد دفاعاً عن الإسلام وعن الأماكن المقدسة .

### تلف الدولة على استصدار إعلان ديني من الشريف الحسين :

وحرساً على إضفاء مزيد من الطابع الديني على هذه الحرب طلبت الدولة الشريف الحسين بن علي أمير مكة وشريفها أن يصدر إعلاناً عاماً يوجهه إلى العالم الإسلامي قاطبة يدعو فيه المسلمين إلى الجهاد الديني ضد بريطانيا وحليفاتها على غرار الفتاوى الثلاث التي صدرت عن إستانبول . ولكن الشريف أحجم عن الاستجابة لهذا الطلب . وضغطت عليه الحكومة في إستانبول ضغطاً لا هوادة فيه . وأتمت عليه البرقيات والرسائل من العاصمة : من سعيد حليم باشا الصدر الأعظم ، وأنور باشا وزير الحربية ، وطلعت باشا وزير الداخلية وغيرهم من أعضاء الوزارة ، كما أخذ أحمد جمال باشا القائد العام للجيش الرابع في دمشق <sup>(١)</sup> يبحث

---

(١) توجد شخصيتان عسكريتان تحمل كل منهما اسم جمال باشا . أولهما أحمد جمال باشا الذي ورد ذكره في المتن . وقد كان وزيراً للبحرية في الوزارة العثمانية وعضواً بارزاً في حركة الاتحاد والترقي . ووقع عليه الاختيار ليقود الحملة العسكرية على مصر لإجلاء الإنجليز عنها . وقد منح من السلطات بحكم القانون العسكري ما أصبح بقتضائها رئيساً للحكومة في بلاد الشام وفائداً عاماً للجيش الرابع . وقد وصل دمشق في الخامس من شهر ديسمبر ( كانون الأول ) سنة ١٩١٤ ودخل دمشق في موكب رسمي . واتخذها مقراً لقيادته . وكان لا يشار زملاءه في الأخذ باتجاهات الحركة الطورانية ، بل كان يؤمن بالتضامن الإسلامي . واعتزم في أول الأمر كسب الرعايا العرب إلى جانب الدولة واستدالة المسلمين إلى المشاركة الفعالة في الجهاد الديني ضد بريطانيا وحليفاتها .



الشریف الحسين على أن يصدر إعلاناً بالجهاد الديني ، وأن يبعث إلى دمشق راية الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأن يحشد جيشاً من قبائل الحجاز . وهكذا أظهرت الدوائر العليا في الدولة تلهماً على استصدار إعلان الجهاد الديني من الشریف الحسين . وكان مرد هذا التلهف إلى المكانة الدينية الفريدة التي كان يتبوّأها الحسين . ويقول أحد الباحثين إن مكاتبة « لاتما دلهما مكانة شخص آخر في العالم الإسلامي ، تلك المكانة التي تستمد قوتها من نسبه ومن منصبه أيضاً . وبينما كانت سلطة جيرانه <sup>(١)</sup> محصورة في نطاق أراضيهم ، فإن سلطته كانت تتجاوز حدود بلاده ، ويمتد صوته إلى الجموع النفيرة من سكان العالم الإسلامي ، فهو حفيد النبي والقيم على الأماكن المقدسة . وهذان الأمران اللذان يستوجبان التبجيل وضياء في منزلة ينفرد بها ولا يطاوله فيها أحد ، بلغت من الرفعة بحيث كان يستطيع أن ينازع سلطان الخليفة نفسه في الشئون التي تتصل بسلامة المدينتين المقدستين ، فقد كان أمير مكة ، حاضرة الإسلام ومثابته ، ولا يستطيع مسلم مؤمن أن يصم أذنيه عن ندائه ، وخاصة إذا كان مسلماً عربياً . وكان يقع عليه وحده دون غيره عبء تأييد السلطان حينما يعلن للناس أن الأماكن المقدسة في مكة والمدينة معرضة للخطر . وهكذا فإن مؤازرته — في أمر كال دعوة للجهاد — كانت عاملاً مهماً بل عاملاً حاسماً ، ولذلك كان الأتراك يسعون بلمحة إلى الحصول على هذه المؤازرة <sup>(٢)</sup> . ونضيف إلى هذه الأسباب سبباً آخر هو أن رجال الدولة في إستانبول كانوا

---

== أما الشخصية العسكرية الأخرى التي تحمل اسم جمال باشا فهي شخصية محمد جمال باشا . وكان مناصراً لسميه ، وكان قائداً للجيش الثامن في خلال هذه الحرب . وكان مركزه معاً . وإذا ذكر اسم جمال باشا فيكون المقصود هو أحمد جمال باشا .

(١) نذكر من بين هؤلاء الجيران : ابن سعود في نجد ، الإمام يحيى في اليمن ، وعبد الإديسي في مصر ، ومبارك آل الصباح في الكويت ، وابن الرشيد في مصر .

(٢) جورج أنطونينوس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢١ .

يدركون جيداً أن الدعوة الوهابية<sup>(١)</sup> في شبه الجزيرة العربية، والثورة المهدية في السودان، والمقاومة الإسلامية العنيفة التي لقيها الاستعمار الأوروبي في الجزائر وتونس والمغرب وطرابلس قد أظهرت أن استخدام الدافع الديني في الدعوة إلى الحرب لا يزال يحتفظ بقوته القدسية ومقدرته على إثارة النفوس ضد الاستعمار المسيحي. ولكن الشريف الحسين كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، إذ كان في مفترق الطرق. فهو يسكر في القيام على الدولة العثمانية وتحريك ثورة عربية هادرة تستهدف تخليص البلاد العربية الآسيوية من الحكم العثماني. وكان قد

(١) لا تدل كلمة « الوهابيين » دلالة صحيحة على الحركة الإصلاحية التي تنادي إليها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ — ١٧٩١) في إقليم نجد بشبه الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر الميلادي، وهي أولى الحركات الإصلاحية التي ظهرت في الدولة العثمانية، وبعبارة أكثر دقة، بين الشعوب العربية الخاضعة للدولة العثمانية، وقد أطلق خصوم هذه الدعوة الإصلاحية عليها اسم « الوهابية » إضعافاً لها وإضعافاً بأنها لا تعدو أن تكون مذهباً جديداً من المذاهب الدينية. وقد نسب هؤلاء الخصوم مجموعة الآراء إلى دعا إليها محمد ابن عبد الوهاب إلى اسم والده، على غرار التسميات التي لحقت بالطرق الصوفية، فهي تشتق اسماءها من اسماء مؤسسيها. أما أنصار الدعوة فيرفضون تسميتها بالوهابية. ويؤثرون أن يسموا أنفسهم التوحدين أو المسلمين تأسياً على أن حركتهم الإصلاحية تناقض في الرجوع إلى القرآن والسنة، إلى الإسلام في حالته الأولى، إلى التوحيد، وتمييزاً بينهم وبين من لا يؤمن بمبادئهم التي هي في رأيهم مبادئ الإسلام الأولى والصحيحة. وقد حدثت هذه المجادلة في الفترة الأولى من تاريخهم التي تميزت بالشدد. أما الآن فيطلقون على أنفسهم كلمة السانين، وقد تأكدت هذه التسمية بصفة رسمية وصرح بها في القانون الذي صدر عن محكمة العجاز في ٣١ من أغسطس سنة ١٩٢٦ فهو ينص على أن مذهب الدولة الرسمي هو المذهب الساني.

انظر كلام :

Documentation Française, Notes et études documentaires, no. 1529, 10 septembre; 1951.

Godchot J. E.; Les Constitutions du Proche et du Moyen—Orient. Paris, 1957, pp. 28—42.

دكتور جمال الدين الشيال: الحركات الإصلاحية ومراكز القادة في المشرق الإسلامي الحديث. الجزء الأول: الهند والجزيرة العربية. من مطبوعات معهد الدراسات العربية المالية. القاهرة، ١٩٥٧ م ص ٥٥ — ٦٦.

دكتور السيد رجب حراز: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٩ حاشية رقم ١.

تلقى في اليوم السادس عشر من شهر نوفمبر ( تشرين الثاني ) سنة ١٩١٤ عرضاً مؤرخاً في ٣١ من أكتوبر ( تشرين الأول ) سنة ١٩١٤ من لورد كيتشنر Kitchener وزير الحربية البريطانية. وكان هذا العرض يتضمن وعداً قاطعاً للحسين بأنه إذا وقف هو وأبنائه إلى جانب بريطانيا في الحرب ضد تركيا ، فإن الحكومة البريطانية تضمن له بقاءه في منصب أمير مكة واحتفاظه بجميع حقوق هذا المنصب وامتيازاته ، وأنها تحميه من كل اعتداء خارجي . واختتم لورد كيتشنر هذا العرض بتأجيل يشير إلى أن الشريف الحسين في حالة مبايعته بالخلافة يستطيع أن يطمئن إلى اعتراف بريطانيا به . وكان تلويح بريطانيا بهذه العروض الغريبة أحد الأسباب في امتناع الشريف عن إصدار دعوة إلى الجهاد الديني ، ولكنه لم يجرؤ على الإفصاح عن مكنون قلبه ، فرد على الطلبات السكرورة التي بعث بها إليه رجالات الحكومة في إستانبول بأنه يؤيد الدعوة إلى الجهاد ويباركها في صمت ، أما تأييده لها في العلن فأمر يؤدي إلى عواقب وخيمة ، لأنه يخشى أن يعتمد الأسطول البريطاني الموجود في البحر الأحمر إلى فرض الحصار على ميناء جدة وميناء ينبع وسواحل الحجاز الممتدة ، وينقطع وصول المؤن بحراً ، فيواجه السكان أزمات خائفة في المواد التموينية ، ولا تملك أن تنقلب إلى مجاعة ، وهو أمر يؤدي إلى اشتعال الثورة بين القبائل<sup>(١)</sup> .

#### الحرب النفسية :

كظم رجال الدولة في إستانبول عيظهم ، فهم يريدون أن يؤكدوا مراراً وتكراراً أن الحرب التي تخوضها الدولة ضد بريطانيا وحليقاتها هي حرب دليّة ، ويريدون أن يعتقد المسلمون في مشارق الأرض ومنازلها أن العثمانيين هم حماة الإسلام وحماة الأماكن المقدسة ، وأن أمير مكة وشريفها يؤيد علناً الدعوة إلى الجهاد . فصدّرت التعلّيات إلى أئمة المساجد في ولايات الشام بأن تتضمن خطب أيام الجمعة ما يفيد أن الشريف الحسين قد بارك الدعوة إلى الجهاد الديني . وصدّرت التعلّيات أيضاً إلى الصحف العربية بأن تقوم بدورها في المجال الإعلامي ، وتشر أن

وتضيق الحقيقة التاريخية بين هذين الرأيين المتعارضين أشد التعارض، ولكل رأى أسائده وحججه. ومع ذلك فنشير إلى حقيقتين ترضيان نفسيهما فرضاً في هذا المجال . وتتمثل الحقيقة الأولى في أن تعطيل الدستور لم ينجح عنده فعل لدى الأتراك العثمانيين . ويقول أحد الباحثين تعليقاً على هذه السلبية « إن عمل السلطان هذا لم يولد أى رد فعل في البلاد ، لأن الحياة الدستورية لم تكن عندئذ مدعومة برأى عام واسع » ولا بعلقة قوية من المستديرين . بل كان من عمل مدحت باشا مع جماعة محدودة من المفكرين » .<sup>(١)</sup> أما الحقيقة الثانية فإن تعطيل الدستور استمر إحدى وثلاثين سنة لم تفتح خلالها أبواب « ضلوه بأعجبه » التي كان يجتمع فيها النواب . وكانت المحافظة على سلامة المبنى تتطلب فتح فاعاته وأبوابه ونوافذه على فترات استمر متقاربة أو متباعدة لتركيب أنواع جديدة من زجاج الأبواب والنوافذ بدلا من تلك التي تحطمت بفعل الرياح والمواصف . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث قط . ويدل التحليل الموضوعي لماتين الحقيقتين على تأصل روح الحكم المطلق في السلطان عبد الحميد ، فضى يحكم الدولة في غيبة دستور أوقف تنفيذ أحكامه بمحض رغبته ، وأن الأتراك العثمانيين - كقاعدة جماهيرية عريضة - لم يجدوا غضاضة في الخضوع لما ألته آياؤهم وأجدادهم من حكم مطلق كان يمارسه سلاطين الدولة طوال قرون وعصور وأدهار<sup>(٢)</sup> .

(٢) ساطع المعصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٨ .

(١) لم يمنع هذا الصمت الذى وان على قلوب الأتراك العثمانيين بعد تعطيل الدستور سنة ١٨٧٨ من وجود قطاعات من ضباط الجيش والنقباء الأتراك كانوا يؤمنون إيماناً راسخاً بضرورة قيام حكم دستورى يعمل على الحكم المطلق الذى يمارسه السلطان عبد الحميد . وكان لهم نشاط واسع أخذ طابع الشرعية مارسوه في الداخل ووالجارج مثل جنيف سنة ١٨٩٦ وباريس سنة ١٩٠٧ وتكونت جمعيات سياسية سرية في الداخل وعلنية في الخارج . وكان من بين المناضلين أحد رضا - هو الذى انتخب فيما بعد رئيساً لأول مجلس نيابي اجتمع في المعروطة الثانية بعد كفاح وإغتراب استمر نحو عشرين سنة . وقد أصدر من باريس جريدة « مهورث » ومسانها المشورة .

(م أ - الدولة العثمانية )

أما الرأي الموضوعى الذى تطرحه فى هذه الدراسة فيتلخص فى أن تعطيل الدستور بمقولة تفرغ الحكومة لمواجهة المشكلات الخارجية لم يمنع وقوع كوارث أليمية حالت بالدولة وأظهرتها بمظهر الدولة التى لاقدرة لها على إدارة شئونها . فكان من بين هذه الكوارث : احتلال بريطانيا جزيرة قبرص ( ١٨٧٨ ) واحتلال فرنسا لتونس ( ١٨٨١ ) واحتلال بريطانيا لمصر ( ١٨٨٢ ) وضم الروملى الشرقى إلى بلغاريا ( ١٨٨٥ ) وفرض الرقابة المالية الدولية على الدولة ( ١٨٨١ ) وفرض المراقبة الإدارية على مقدونيا ( ١٩٠٣ )<sup>(١)</sup> ، وعلى ذلك فإن العودة السريعة إلى الحكم المطلق لم تكن إلا انعكاساً لنزعة أسيولة فى السلطان عبد الحميد لهذا النوع من أنواع الحكم .

وعلى هذا النحو جاءت التجربة الدستورية فى حياة الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر بالإخفاق .

وتتكرر التجربة الدستورية فى العقد الأول من القرن العشرين حين اشتد نشاط جمعية الاتحاد والترقى ، وكانت تضم خليطاً من أجناس وأديان شتى ، ولكن كانت السكثة الغالبة فيها من الأتراك ، ويليههم اليهود . وكان الضباط الأتراك هم أصحاب النفوذ فى مجالس الحزب .

وانتهزت هذه الجمعية فرصة فرض نظام الرقابة الدولية على الشئون المالية وأجهزة الأمن فى ثلاث ولايات هى موناستير Monastir ، وفوسوه ، وسلانيك ، وهى الولايات التى يطلق عليها اسم جهاى هو مقدونيا Macedonia . وكان قوام هذه الرقابة خمس دول هى بريطانيا وفرنسا والروسيا والنمسا وإيطاليا . ووجدت الجمعية فى هذه الولايات الثلاث مفاعاً صحياً لمباشرة نشاطها من أجل « إصلاح

(١) انظر عرضاً شاملاً لبعض هذه الكوارث فى الفصل السابع عشر والثامن عشر  
فى كتاب :

-- Miller, W.; op. cit., Chapter XVII. pp. 399-426.  
and Chapter. XVIII. pp. 427-473.

الأحوال العامة في الدولة العثمانية وإنهاء الحكم المطلق وإعادة الدستور». وقد نجحت الجمعية في حمل السلطان عبد الحميد الثاني على إعلان الدستور. وقد تم إعلان هذا الدستور، ويسمى المشروطية الثانية<sup>(١)</sup>، في اليوم العاشر من شهر يوليو (تموز) سنة ١٩٠٨. وعلى غرار ما حدث عند إعلان المشروطية الأولى أطلقت الدافع ابتهاجاً بصدور المشروطية الثانية. وأجريت الانتخابات العامة لأول مجلس مبعوثان يجمع في عهد المشروطية الثانية. وتدخلت جمعية الاتحاد والترقي في عمليات الانتخابات لصالح مرشحينها<sup>(٢)</sup>. وكانت الدوائر الانتخابية قد حددت تحديداً يحقق مصلحة العنصر التركي على حساب الأجناس الأخرى. وكان العرب يمثلون أغلبية عديدة على الأتراك بنسبة تقارب ثلاثة إلى اثنين<sup>(٣)</sup>. وجاء تكوين مجلس المبعوثان معارضاً مع هذه الأغلبية العديدة للعرب<sup>(٤)</sup>.

---

(١) لم تسكن المشروطية الثانية سوى المصروع الذي كان قدمه منحت بإعلاء سنة ١٨٧٦ بكل ما كان يحويه من ميوه أصبحت في سنة ١٩٠٨ أهد سوا. وأعيدت إليه الحياة بحرة قلم. انظر عرضاً لأهم مواد في:

توفيق على برو، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٠—١٠٤.

(٢) انظر سياسة جمعية الاتحاد والترقي في توجيه الانتخابات وجهة تخدم عنصرهم، في

توفيق على برو، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٤—١١٧.

(٣) كان تعداد رعايا الدولة العثمانية في سنة ١٩٠٨ باستثناء مصر قد بلغ اثنين وعشرين مليوناً، منهم سبعة ملايين ونصف مليون من المجلس التركي، وثمان مائة وخمسة ملايين من العرب، والأربعة ملايين الباقي من اليونانيين والألبانيين والأرمن والأكراد وعناصر أخرى أقل عدداً وأصغر وزناً.

انظر:

جورج الطوبوس، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٩ ملحق رقم ١.

(٤) كان عدد النواب الأتراك في مجلس المبعوثان ١٤٢، وعدد النواب العرب ٦٠، وعدد الألبانيين ٣٥، واليونانيين ٢٤، والأرمن ١٢، واليهود خمسة، والصرب ٣، والأفلاخ واحداً.

انظر:

سالم المصري، مرجع سبق ذكره، ص ١١٠.

## باشا سون شريعة محمدية

### فلتعض الشريعة المحمدية :

ولم تسكد تمر تسعة أشهر على عهد المشروطية الثانية حتى اندلعت ثورة طامة في عاصمة الدولة في اليوم الأخير من شهر مارس ( آذار ) سنة ١٩٠٩ تطالب بإلغاء المشروطية وإعلان « الشريعة المحمدية » وإسقاط الحكومة القائمة وفض المجلس الديني . وضمت هذه الثورة عنصرين هامين : عنصر ديني تمثل في الدراويش وأئمة المساجد ومن إليهم من رجال الدين ، وعنصر عسكري تمثل في جنود الحامية العسكرية الرابطة في إستانبول . وقد وقع هؤلاء الجنود تحت تأثير الدراويش الذين نجحوا في إغاثتهم على زعم أن المشروطية تخالف الشريعة الإسلامية ، وأن عبد الحميد خليفة المسلمين لا يوافق على المشروطية في قرارة نفسه ، ولكنه أصدرها تحت الضغط والإكراه . وفي هذه الثورة أربقت دماء غريزة وبرشة عند ما غادر الجنود ثكناتهم وحاصروا ضوئه بأعجبه ، وهي مقر مجلس المبعوثان ، كما حاصروا الباب العالي ، وقتل الجنود وزير العدلية وأحد الأعضاء العرب في مجلس المبعوثان ، وقتلوا طائفة من كبار الضباط وصغارهم في ثكناتهم وفي خارجها ، وأرسلوا وفدًا إلى السلطان يطالب بتنفيذ رغباتهم .

وآرتاح السلطان عبد الحميد لهذه الحركة أو الثورة المضادة . ولقيت مطالب الثوار استجابة فورية منه ، وتألقت وزارة جديدة لتنفيذ هذه المطالب . وقال الثوار : « عند إعلان المشروطية أطلقت المدافع إحدى وعشرين طلقة ، فيجب أن يتم الاحتفال بإعلان الشريعة المحمدية بإطلاق مائة طلقة وطلقة » . وأخذ جنود الجيش يطوفون الشوارع في إستانبول ، ويطلقون الأعيرة النارية من بنادقهم ، ويصيحون بأعلى أصواتهم « باشا سون شريعة محمدية » أي فلتعض الشريعة المحمدية <sup>(١)</sup> .

(١) ساطع المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٦ .

وكانت سكتائب الجيش تسير على هذا النحو مع دوى طلقات الرصاص وصيحات التحية من الجماهير . وفي مقدمة كل مجموعة من الجيش جماعة من البدو يش حاملين أعلامهم المختلفة الألوان ، ويشيرون الحاس الدائق في الجنود ، ويرددون الهتاف الذى اتخذوه شعاراً لهم وهو : باشا سون شريعة محمدية .

وفي هذه الثورة اتجه الجنود اتجاهاً خطيراً : تمقبوا في غير هواية الضباط « المكتبلية » أى الضباط المتخرجين في المعاهد العسكرية الحديثة . وكان الجنود يبحثون عنهم في كل مكان لقتلهم بحجة تطهير الجيش منهم ، وحتى لا يبقى في الجيش سوى الضباط « الألايلية » ، وهم الضباط الذين نشأوا وتقدموا من بين صفوف الجند ، بداء على خدماتهم وخبراتهم العملية دون أن يتلقوا تعليماً في المعاهد أو المدارس العسكرية<sup>(١)</sup> .

وقد واجهت جمعية الاتحاد والترقى هذه الحركة بعمل عسكري سريع وحاسم . فقررت تحريك الجيش الرابط في الولايات الثلاث التى كانت مهد الشرطية الثانية إلى الآستانة . واستطاع هذا الجيش الذى عرف باسم جيش الحركة أن يحتل الآستانة . واجتمع أعضاء مجلس المبعوثان مع أعضاء مجلس الأعيان في آيا استدانوس — التى أصبح مقراً لجيش الحركة — وعقدوا جلسة رسمية قرروا فيها خلع السلطان عبد الحميد وتعيين أخيه الأمير محمد رشاد سلطاناً باسم السلطان محمد الخامس . وكان رجلاً طاعناً في السن بلغ الرابعة والستين من العمر ، ارتضى لنفسه أن يكون دمية يحركها رجال جمعية الاتحاد والترقى أنى شاءوا .

وانفرد رجال الاتحاد والترقى بحكم الدولة خلال الفترة من سنة ١٩٠٨ أو سنة ١٩٠٩ على أحسن تقدير حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ إلا في فترة زمنية قصيرة . وباشروا حكماً مطلقاً على الرغم من وجود دستور ووجود سلطان يحمل لقب خليفة ووجود مجلسين نيابيين — المبعوثان والأعيان —

---

(١) ساطع المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١١ — ١١٢ .



وأسرفوا بإسرافاً بعيداً في الأخذ بنظام الحكم الاستبدادي. ولكن الأتراك العثمانيون المعاصرون. — الذين عاصروا حكم السلطان عبد الحميد و عاشوا الفترة التي حكم فيها رجال الاتحاد والترقي — يترحمون على حكم السلطان عبد الحميد ويذكرون هذا السلطان بالخير الكثير<sup>(١)</sup>.

والنتيجة التي نلتقي إليها من هذا العرض السريع هي أن الحكم المطلق كان صفة بارزة في الدولة العثمانية ، وأن هذا النوع من أنواع الحكم قد صاحب الدولة في جميع مراحل حياتها : في نشأتها ، وفي مسيرتها ، وفي اتساعها ، وفي عتفوان قوتها ، وفي اضمحلالها وضعفها .

---

(١) محمد جميل يهيم : فلسفة التاريخ العثماني الخ ، درجم سبق ذكره ، ص ١٧٨ .

## الفصل الخامس

### الخصائص العامة للدولة العثمانية (٣)

#### خامساً - دولة طبقية

والدولة العثمانية دولة طبقية ، بمعنى أنها كانت تضم أفراداً من العبيد أو الأرقاء ، وأفراداً من الأحرار . وكانت الهيئة الحاكمة العثمانية بأكلها من أسنر فرد فيها إلى الصدر الأعظم - أى رئيس الوزراء - ما عدا أفراد الأسرة السالطانية - عبيداً للسلطان ، ويطلق عليها جميعاً المصطلح التركى *قولا* Kullar أى العبيد . ويطلق على كل فرد فى الهيئة الحاكمة لفظ *قولا* Houl أو *كول* Kul أى العبد ، ويقصد به عبد السلطان . وكان هؤلاء الأفراد يوسفون فى أوراق الدولة الرسمية بصفة العبيد<sup>(١)</sup> وكانوا لا يشعرون بنضاضة فى إلصاق هذه الصفة بهم ، بل كانوا جد نفوذيين بها .

وكانت الدولة تحصل على هؤلاء العبيد من أربعة منابع : أسرى الحروب ، الشراء ، الهدايا ، ضريبة النفلان . أما الذبح الأول وهو الأسر فقد حصلت الدولة على عدد كبير من الأسرى فى الحروب التى خاضتها فى أوروبا بوجه خاص . ويصبح هؤلاء الأسرى عبيداً بحكم وقوعهم فى الأسر ، وسنعود إلى موضوع أسرى

---

1) D'Ohsson, Ignatius Mouradgée; Tableau Général de l'Empire Ottoman, 7 vols., Paris, 1788-1824, t. VII, p. 203.

وقد ولد هذا المؤلف فى تركيا ، وأقام فيها رجباً طويلاً من الزمن ، وحسب على وضع هذا الكتاب من سنة ١٧٨٨ إلى سنة ١٨١٨ . وبعد هذا الكتاب بمثابة موسوعة . وقد طبع طبعين : طبعة ثالثة ، وطبعة مادية . وما يذكر أنه تولى قبل أن يتم طبع جميع أجزاء الكتاب ، لتمام ابنه بالإشراف على طبع الأجزاء الثلاثة الأخيرة التى كانت متبقية .

الحرب غير المسلمين في موطن قادم في هذه الدراسة . أما اللبغ الثاني ، وهو الشراء ، فكان يتم في سوق الرقيق في عاصمة الدولة وفي غيرها من المدن حيث كانت تعرض نماذج بشرية مختلفة ، كان يجسء بها تجار الرقيق عقب جولاتهم في شتى أنحاء أوروبا . أما الهدايا وتمثل اللبغ الثالث من منابع العبيد ، فمن المعروف لدى المعاصرين والمراقبين السياسيين والعسكريين وتلك إن أحب الهدايا إلى قلوب سلاطين الدولة كانت تتمثل في الشبان الأصحاء الأقوياء . وأخيراً فإن ضريبة الفلاند كانت أخصب المنابع الأربعة حصيلة . وكانت إحدى الدعائم الرئيسية التي استندت إليها الدولة ، سواء في القوات المسلحة أو في أجهزة الحكم . وبعضى الزمن انحصرت المنابع الأربعة في منبعين هما : الأسر ، وضريبة الفلاند .

#### ضريبة الفلاند :

هي ضريبة آدمية فرضتها الدولة على رعاياها المسيحيين الذين يتفقون مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية القائمة في إسطنبول . وكانت تجمع أولادهم ، وهم سن غضة ، وتحوّلهم إلى الدين الإسلامي ، وتنظم لهم دراسات علمية - مدنية وعسكرية - لتجمل منهم في نهاية المطاف أدوات إسلامية للحرب والحكم في خدمة الدولة . ويطلق على هذه الضريبة الأدمية المصطلح التاريخي : ديوشيرمة Deuchurmé أي ضريبة الفلاند (١) .

كانت الدولة تهتم مندوبين إلى المناطق التي تقطنها العائلات المسيحية . ويجمع المندوب بقسيس القرية ويطلب كشفاً بأسماء الأطفال الذكور الذين قام بتعميدهم . ولم يكن هناك قانون معين أو لائحة تحدد طريقة اختيار الأولاد . وكانت الحكومة تحدد لكل مندوب عدد الأولاد الذين يجمع إحضارهم للسلطان . ويشكل المجموع الكلي للأولاد الرقم النهائي للفلاند الذين تحتاج إليهم الدولة في

(١) يرمزها المؤرخون والباحثون في أوروبا وأمريكا  
The Tribute Boys  
أو The Tribute Children

فترة معينة لإعدادهم سواء للخدمة في القوات المسلحة أو في مناصب الحكومة زوما إلى ذلك .

كانت الحكومة تمارس جمع الأولاد من الريف في العادة ، وكانت تأخذ أولاد المزارعين ، وتستعجب لدواعي الرحمة ، فلا تأخذ الطفل وحيد والديه ، وكانت لا تأخذ الأطفال الذين في سن الرضاعة ، لأن أمثال هؤلاء الأطفال يشكلون غيباً ، فقبلاً على المواطنين المختصين بقتلثة النملان ، وكانت الحكومة لا تأخذ الأولاد الذين تجاوزوا الحلم ، لأنه يصعب فصل أمثال هؤلاء الأولاد عن ماضيهم وعن أهلهم . وعن ييشتم الأولى . ولذلك كان مندوبو الحكومة يأخذون في معظم الأحوال بالأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين سن السابعة وسن العاشرة<sup>(١)</sup> . ومنذ أن يتحرك مندوب الحكومة بهؤلاء النملان من القرية إلى عاصمة الدولة تنقطع الصلة نهائياً بينهم وبين ذويهم . وكان المندوب الحكوى يخرج من القرية بحصيلة مالية وبشرية . وتمثل الحصيلة المالية في الرشا التي يحصل عليها من بعض الآباء الموسرين في سبيل التناضى عن جمع أولادهم ، وكانت هذه الحصيلة المالية تختلف قلة وكثرة تبعاً لدرجة ثراء الآباء من ناحية ، ومدى جشع المندوبين من ناحية أخرى . أما الحصيلة البشرية فتتمثل في أولاد يحصل عليهم لحسابه بطريقة غير قانونية ، وفي بسات غافقات لبيهم لمن يهوى جمال القوام وفتلة الوجه وميمة الصبا ، وكان المندوب

(١) يقرر بعض المؤرخين أن الدولة النهائية كانت تأخذ الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين اثنتا عشرة والمفرين . انظر Lybyer, op. cit. p. 53 ومن الصعب أن تأخذ بهذا الرأي ، لأن الأولاد في مثل تلك المرحلة المتأخرة نسبياً في السن يكون في حكم الاستحالة عليهم أن ينسوا آبائهم وأمهاتهم وذوى قرباهم وديانتهم والوسط الذي ترعرعوا فيه . وكانت الدولة تحرس حرصاً بالغاً على أن ينسى هؤلاء الأولاد ماضيهم . ولذلك كانت تسرع في تجرد وسولهم إلى العاصمة في تحويلهم إلى الإسلام وفي تدريبهم تدريباً مدياً وعسكرياً ابتغاء إفساد الستيار كتيّف وسريع من الشبان لدى الأطفال ، فلا يتذكرون شيئاً عن ماضيهم . وهو أمر لا يوفر إلا إذا انتزعوا من أهلهم في سن مبكرة . وسيظل موضوع تحديد السن التي كان يؤخذ فيها النملان موضع خلاف بين المؤرخين . ولكل طريق أسايده .

لا يتورع عن عرض هذه الحصة البشرية التي جعمها لنفسه ليبيها في سوق الرقيق بالماصمة أو يطوف بها على كبار الموظفين أو على من يأنس فيهم شفقاً بالجلوس ومقدرة على اقتناء الآنسات اللذات .

وفي عاصمة الدولة كان يتحول الأولاد إلى الإسلام ، وتجري لهم جراحة الختان *La circoncision* ، ويتلقون أول الأسر تربية دينية ، فيتعلمون مبادئ الدين الإسلامي ، ويحضرون دراسات في اللغة التركية ، والتاريخ الإسلامي العام والتاريخ العثماني ، والنظم المثمانية وما إلى ذلك وفق مناهج وضعت بعناية ، واستهدفت نحو كل أثر من آثار أسولهم وعواظهم المسيحية الأولى . فينشأون على التمسك بالدين الإسلامي والتعلق بالدولة المثمانية . وكانوا إلى جانب هذه الدراسات المدنية يتلقون تربية عسكرية صارمة : تزداد علماً كلما اشتد ساعدهم .

وكان هؤلاء الأولاد يقسمون إلى ثلاث مجموعات حسب لياقتهم البدنية وقدراتهم العقلية ، فيوشعون في المكان الذي يبدو مناسباً لكل منهم .

المجموعة الأولى : ويدأ أفرادها لشغل وظائف النظم في القصور السلطانية وكانوا في المادة أجمل الأولاد شكلاً . وهؤلاء يتلقون نوعاً من التدريب في القصور السلطانية في بروسة ، أو أدنة ، أو غلطة ، أو غاليبولي ، كما كانوا يتحقون بمدارس سلطانية خاصة في قصور إستانبول . وكان يطلق عليهم إيج أو غلانات أي غلمان البلاط (١) ويمدون للخدمة في القصور السلطانية .

المجموعة الثانية : ويدأ أفرادها لشغل الوظائف المدنية الكبرى في الدولة . وهؤلاء أيضاً يتلقون تلميحاً عسكرياً ومدنياً خاصاً . وكان بعضهم يصل إلى منصب الصدارة العظمى أي رئاسة الوزارة . وكان يطلق على أفراد المجموعتين الأولى والثانية المصطلح التاريخي أو التركي « أوج أو غلان » ومؤدى هذا النظم أن الدولة المثمانية سمحت طواعية بجمع أطفال مسيحيين من أبناء رعاياها ، ثم حولت

١ (١) مفردتها إيج أو غلان .

هؤلاء الأنطال إلى الإسلام ودرّبهم تدريباً مدنياً وعسكرياً على أرفع المستويات، ولكن جنتهم عبيداً أرقاء وصمحت لهم بالزواج من أميرات ومن في مستواهن، وانخفضت من هؤلاء العبيد المسلمين المدرّبين - وفي وضعهم الجديد الاجتماعي والديني والزمني - عنكما يشتركون في حكم دولة إسلامية ويعيشون في مستوى رفيع ويجمعون بين الثراء والجاه والنفوذ.

المجموعة الثالثة : كان يمد أفرادها ليسكونوا فرق مشاة في الجيش العثماني ، ويطلق على أفراد هذه المجموعة : الإنكشارية . وكان تعدادهم ساحقاً جداً بالنسبة لعدد المجموعتين الأوليين . وسنرجى الحديث عن أفراد المجموعة الثالثة ، وهم الإنكشارية ، إلى موطن قادم في هذه الدراسة عند شرح تشكيلات الجيش العثماني

امتيازات القولا :

تمتع القولا - وهم العبيد أفراد الهيئة الحاكمة في الدولة - بمدة امتيازات كان من بينها :

أولاً : كان شغل المناصب في الدولة مقصوراً على طبقة القولا ، وكانوا يدرجون في هذه المناصب إلى أعلاها ، فتمتعوا بمركز اجتماعي ومادي وأدبي مرموق. ولم يكونوا يشعرون - كما سبق أن ذكرنا - بفضاضة أو امتحان من صفة العبد التي تلحق بكل منهم ، بل إنهم كانوا جميعاً يشعرون بفخر وشرف لأنهم عبيد السلطان ، وطريق العبودية هو الذي سما بهم إلى الدرجات العلى في حياتهم الوظيفية

ثانياً : تمتع القولا بالإعفاء الضريبي . وقد دافع الأستاذ الأمريكي ليبر Lybber عن هذا الإعفاء ، قائلاً إنه من المتناقضات أن يقوم السلطان بالإعفاء على هؤلاء الأفراد العبيد إقطاعاً كاملاً يشمل المسكن والمأكل والملبس وغير ذلك من وجوه الإبقاء ، ويفقد عليهم في ذات الوقت المرتبات والامتيازات ، ثم يفرض

عليهم ضرائب . ثم يقول إن السلطان لم يوفر لهم كل ضرورات الحياة فحسب ، بل هياً لهم — أو لعدد كبير منهم — حياة مترفة حافلة بالكماليات بفضل الدخول العالية التي كانت الدولة تقدمها لهم تحت مختلف الأسماء . ويخلص من تعليقه إلى القول بأن السلطان كان يريد من العبيد أفراد الهيئة الحاكمة أن يتفرغوا تفرغاً تاماً لخدمة السلطان والدولة ، كل في الموقع الذي يعمل فيه ، وكان لا يريد أن يشغلوا أذهانهم بأي تفكير في مسألة طارئة أو خارجة عن صميم عملهم .

وهذا القول هو دفاع واهٍ ، لا يأخذ به أى باحث محايد ، فلا يعتبر دفع الضرائب لخزانة الدولة أمراً يدعو الفرد إلى الانصراف عن مهام منصبه أو عائلاً يشغله عن التفرغ لعمله . والحكومات لا تنفي أصحاب الدخول الكبيرة أو المتوسطة من دفع الضرائب ، بل إنها على العكس تتصاعد بنسب الضرائب كلما ازداد حجم الإيراد العام للممولين . وفي ضوء هذه الاعتبارات يمكن القول إن الإعفاء الضريبي الذي قرره الدولة لطائفة القولا هو تعميق للنظام الطبق الذي أخذت به الدولة ، وأحدث جنوة متقدمة من الحقد في نفوس الجماهير الكادحة ، وبخاصة بعد أن مدت الدولة الإعفاء الضريبي إلى الهيئة الحاكمة الأخرى وهي الهيئة الإسلامية .

ثالثاً : الإعفاء من الخضوع للقضاء العادي الذي كان يخضع له رعايا الدولة الذين هم خارج نطاق العبيد أفراد الهيئة الحاكمة . وكان القضاء العادي يمثل في المحاكم الإسلامية حيث كان القضاء السلون يفصلون في القضايا التي ترفع إلى هذه المحاكم . وشعر العبيد أفراد الهيئة الحاكمة بفضاخة بل وكرامية لخضوعهم قضائياً للمحاكم الإسلامية العادية ، لأن قضاء هذه المحاكم كانوا يتبعون الهيئة الإسلامية ، وهم بذلك يقومون إلى تشكيل طبقي آخر . وكان العبيد يرون أيضاً أن الدراسة التي تلقاها القضاء كانت مقصورة على القانون ، بينما كان تعليم العبيد يشمل الدراسة المدنية والسكرية . وخرجوا من هذه المقارنة إلى أن تعليمهم كان أرق وأعمق وأكثر تمعداً من دراسة رجال القضاء .

رأى السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢) - وكان يعيل إلى السلم - أن يرضى غرور هؤلاء القولا ، فقرر إعفاءهم من الخضوع للقضاء العادى ، وإنشاء محاكم خاصة بهم تتكون من ضباط منهم ، تنظر فى القضايا الخاصة بهؤلاء العبيد ، سواء كانوا من القوات المسلحة ، أو من أعضاء البلاط السلطانى ، أو من رجال الإدارة . وكان إعفاء القولا من الخضوع للمحاكم العادية تمييزاً جذرياً فى النظام القضائى للدولة وإكثاراً من امتيازات العبيد وتعميقاً للفروق بينهم وبين أفراد الهيئة الإسلامية . وسرعان ما ظهرت آثار هذا النظام القضائى ، مما أدى إلى فصل القولا عن بقية سكان الإمبراطورية ، كما أصبح هؤلاء العبيد يكونون قومية قائمة بذاتها ، أو كما يقول المؤرخ الأمريكى ليبيير « قومية منفصلة » (١) . a separate nationality .

وعلى الرغم من هذه الامتيازات فقد كان وضع القولا شائكاً دقيقاً ، كانوا محرومين من الحقوق المدنية ، إذ كانوا يعتبرون ملكاً للسلطان . وفى استطاعته أن يأمر بإعدام من يشاء منهم دون الالتجاء إلى إجراءات قضائية ، وفى وسعه أيضاً أن يصادر ما يشاء من ثرواتهم عقب وفاتهم ، بل قبل أن يحتويهم القبر (٢) . وقد تفاسى نفر من الباحثين هذه الصورة القائمة من حياة القولا ، واستقرت فى أذهانهم الصورة الأخرى الوضيفة ، وهى امتيازاتهم . والدراسة الموضوعية تتطلب أن نذكر كلا الجانبين - الثام والوضئ - ونخلص إلى أن هذا النظام ، على الرغم من المآخذ التى سجلناها عليه ، قد أخرج للدولة رجالاً على جانب كبير من الكفاية ، ولكنه أوجد بعض الأزمات حتماً طبقياً ، وعمل على تفتيت وحدة الصف بين العاملين فى خدمة الدولة .

حقد الرعايا المسلمين الأحرار على العبيد :

ذكرنا أن القولا - وهم طبقة العبيد - قد اتصلوا قضائياً ومالياً وشرعياً

1) Lybyer A.H., op. cit., p 116

2) D'Oheeson ; op. cit., t., VII, p. 148 .



واجتماعياً من رعايا الدولة . وأصبح العبيد يشكلون طبقة قائمة بذاتها تتمتع بحقوق وامتيازات لم يتمتع بها سائر رعايا الدولة . وكان هذا الفصل بين العبيد ورعايا الدولة الأحرار في الحقوق والامتيازات من أهم الأسباب التي أدت إلى تقود الرعايا الأحرار من العبيد وتزايد الحقد الطبقى ، مما أدى إلى فصل ما يمكن أن نسميه الوحدة أو الالتحام بين القاعدة الجماهيرية في الدولة وبين الهيئة الحاكمة فيها . وقد أدى هذا الانفصال من ناحية ، والامتيازات التي أغدقت على القولاار من ناحية أخرى ، إلى انهيار هذا النظام ، فلم يأت القرن الثامن عشر إلا وكان النظام القائم على وجود هيئة حاكمة من العبيد قد تهاوى . إذ انزع المسلمون الأحرار تقريباً كل الوظائف التي كان يحتكرها أفراد طبقة القولاار<sup>(١)</sup> . وكانت هذه النهاية أصحاً طبيعياً ومفوقاً ، لأن احتكار العسكريين العبيد لمناصب الدولة العسكرية والمدنية معاً ، وحجب هذه الوظائف عن رعايا الدولة الأحرار ، والحيولة بينهم وبين ما يشتهون من الاشتراك في شئون الحكم والإدارة وإيجاد فتنتين : فئة متميزة ومتميزة هي فئة العسكريين أو أهل الثقة ، وفئة مبعدة هي فئة أصحاب التخصصات العلمية الرفيعة ، وأهل الخبرة ، كل أولئك أدى إلى عدة نتائج ، كان من بينها دمج الحكم العثماني بالطابع العسكري المتعصب ، والحقد الطبقى ، وحرمان البلاد من كفايات كثيرة ، بحيث لم يعد لدى الدولة رصيد من العناصر غير العسكرية تستطيع أن تدفع بها عجلة الإصلاح إلى الأمام . ولم يدرك المصلحون كل هذه العيوب إلا في وقت متأخر<sup>(٢)</sup> .

وكان رعايا الدولة المسلمون الذين ولدوا مسلمين من آباء وأمهات مسلمين Moslem born subjects يشعرون بدعاسة الظلم الواقع عليهم ، لأنه كان محرماً عليهم الانتماء إلى الهيئة الحاكمة التي احتكرت مناصب الدولة في البلاط السلطاني والحكومة والجيش . وزاد من مرارة هؤلاء المسلمين أن أجدادهم وآبائهم أراقوا

1) Gibb, Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. I. Part I. p 44

(٢) دكتور عبد الكريم غرابيه ، مرجع سبق ذكره ص ٢٢ .

دماءهم غزيرة على ثرى الأراضى التى فتحوها انتصاراً للعقيدة الديلية ، ثم لى حقدتهم  
المنى ، فلا تسمح لهم الدولة بتقلد الوظائف ، بينما تنفق الامتيازات إغداقاً على  
أولئك العبيد الحديق عهد بالإسلام ، لأنهم ولدوا جميعاً مسيحيين من آباء  
مسيحيين وأمهات مسيحيات . وانتهى الأمر بأن وضعت شئون الدولة فى أيدي  
أناس جاءوا إلى الحياة الدنيا مسيحيين ثم أخذتهم الدولة وحملتهم على اعتناق  
الإسلام ودربتهم على شئون الحكم والإدارة والحرب وفتحت لهم أبواب الرزق  
الوفير على مصادرها .

The Moslem born population came to feel that somewhere there was a great injustice. They whose ancestors had shed their blood for the faith were, in the lands which their fathers had conquered, denied admittance to the class which not only filled most of the offices of army and state but enjoyed high privileges. Some of the conquered inhabitants, infidel-born, might alone become nobles paid by the state rather than contributing to its expenses, not subject to the judges trained from boyhood in the Sacred Law; which their own Mos'em sons were riding excluded from the honored class, were obliged to bear a part in the burdens of the state with small hope of sharing its glory, and were expected to take their chances before the same courts to which Christians and Jews were brought for civil and criminal cases. The very extent of the Kullar made toward the break-down of the system.<sup>(1)</sup>

---

1) Lyppe, A. H., op. cit., p. 117.

وقد أسفر نظام القولار — العبيد — عن وجود طبقتين مسلمتين كُتبتا من العبيد أو الأرقاء : طبقة عسكرية تتمثل في فيالق المشاة ، وهم الإنكشارية ، وطبقة حاكمة تتولى المناصب القيادية في البلاط السلطاني وفي الإدارة وفي حكم الولايات . وقد دربت كل من هاتين الطبقتين للنرض الذي خصصت له . فالجرب والحكم في الدولة العثمانية كلاهما علم يحصل عليه بالدراسة والتدريب الأفراد العبيد وهم الهيئة الحاكمة . وبذلك كانت الكفاية هي الميار الأول في الالتحاق بالجيش أو في تقلد المناصب الإدارية الكبرى . ومن هذه الناحية كانت الدولة العثمانية تختلف عن الدول الأوروبية المعاصرة لها . فقد كان تقلد المناصب الكبرى فيها مقصوراً على عرافة الأصل وكرم المعتقد ، فلا تشغل في معظم الأحوال إلا طبقاً لنظام الوراثة يتقلدها النبلاء والهارونات والأدواق ومن إليهم من أصحاب الرتب والألقاب الموروثة .

### طبقة الأحرار :

وإلى جانب طبقة القولار — الأرقاء أو العبيد — وكان أفرادها يشغلون مناصب قيادية وغير قيادية في العديد من القطاعات الحكومية العسكرية والمدنية ويتمتعون بإعفاءات وامتيازات شتى ، كانت توجد طبقة أخرى من الأحرار يتولى أفرادها وظائف قيادية وغير قيادية في قطاعات حكومية أخرى معينة ذات طابع ديني إسلامي . ويتنمى أفراد هذه الطبقة إلى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة *The Religious Islamic Ruling Institution* وهو مصطلح جرت به أفلام الباحثين الأمريكيين والأوروبيين . وكان أفراد هذه الهيئة أحراراً ، بمعنى أنهم لم يكونوا قط عبيداً ، ولم يسلكوا الطريق الذي سار فيه القولار . وكان آباؤهم مسلمين ، ووالدوا مسلمين أحراراً ، ونشأوا وترعرعوا أحراراً ، وتعلموا أحراراً . وكانت هذه الهيئة تضم جميع المسلمين في الدولة العثمانية خارج الهيئة الحاكمة التي

كان أفرادها في مستوى أعلى من مستوى المسلم العادي<sup>(١)</sup> . وكانوا يقولون مناصب القضاء والإفتاء وإدارة الأوقاف ، وينظرون في جميع المسائل التي تتعلق بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ويباشرون مهنة التعليم ويشرفون على المساجد وسائر المنشآت الدينية والمؤسسات الخيرية ، وكان لهم نظام تعليمي خاص يختلف عن النظام التعليمي الذي خضع له القولا .

ولذلك كان أهم اختلاف بين الهيئة الإسلامية والهيئة الحاكمة - القولا - أن أعضاء الهيئة الإسلامية جاؤا إلى الحياة من عائلات مسلمة ، وظلوا على الإسلام في شتى مراحل حياتهم ، بينما جاء أعضاء الهيئة الحاكمة من عائلات مسيحية ، ثم جعلتهم الدولة طبقاً لنظام ضريبة الثلثان ، ثم حولتهم إلى الإسلام ، ودربتهم تدريباً خاصاً توطئة لشغل وظائف معينة في البلاط السلطاني أو في مناصب إدارية أو مراكز عسكرية .

وكان السلطان على رأس الهيئة الإسلامية ، وهو الذي يمين من أعضائها كبار المسلمين في المناصب العليا في الهيئة الإسلامية ، وله الإشراف على دخلها المالي ، ويسين مشرفين يقولون الرقابة على شئونها المالية . وعلى ذلك فالهيئتان الرئيسيتان في الدولة العثمانية ، وهم القولا والهيئة الإسلامية الحاكمة ، كانتا تلتقيان في شخص السلطان ، كما كانتا تلتقيان في المستويات الأقل في العلاقات المالية الحكومية وغيرها . ونظراً لأهمية هذا الموضوع على أساس أن الدولة العثمانية كانت ذات طابع ديني إسلامي عميق ، سنفرد في موطن قادم في هذه الدراسة فصلاً مستقلاً عن الهيئة الإسلامية كهيئة حاكمة .

---

(١) محمد الأستاذ الأمريكي لير تسكون الهيئة الإسلامية ومحتواها في الدولة العثمانية

على النحو التالي :

It (The Religious Islamic Ruling Institution of the Ottoman Empire) included all those Mohammedans in the Ottoman Empire, outside of the Ruling Institution, who were in any way lifted above the level of the ordinary believer .

Lybyer A. H., op. cit , p. 199.

( م ٩ - الدولة العثمانية )

## الفضل السادس

### الخصائص العامة للدولة العثمانية ( ٤ )

#### سادسا : دولة إقطاعية من نوع خاص

والدولة العثمانية دولة إقطاعية من نوع خاص . وتمثل طابعها الإقطاعي في نظامين . نظام الإقطاع الحرب من ناحية ، ونظام الالتزام من ناحية أخرى . وسنمعرض أولا عرضاً مرسياً للملامح العامة لنظام الإقطاع الحربى ، ثم نستكمل عرض بعض ملامح أخرى لهذا النظام في موطن قادم في هذه الدراسة عدد تفصيلي تشكيلات الجيش العثماني وتكوينها واختصاصاتها .

#### نظام الإقطاع الحربى :

طبقاً للنظام الإقطاعي الحربى كان السلطان يمدح أرضاً زراعية لأفراد من سلاح الفرسان - أو الخيالة بمصطلح ذلك العصر - ويستقرون فيها ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يقولون زراعتها بصفتهم مستأجرين . وكانت هذه الأراضي تسمى إقطاعات<sup>(١)</sup> ، وكان يطلق على الفرسان الذين يحصل عليهم الجيش عن طريق الإقطاع الحربى اسم السباعية الإقطاعية<sup>(٢)</sup>

(١) كان يطلق على هذه الإقطاعات اسم « ديريلكات » أى رزق . ومفردها « ديريلك » . وقد استخدم هذا المصطلح للدلالة على أى مورد رزق يقدمه السلطان لمن يخدمونه ، سواء كان هذا المورد في صورة أموال سائلة أو على شكل أرض .

(٢) السباعية كلمة تركية مأخوذة من أصل فارسي ومعناها الفرسان . واسكتب في جنيته الفردي سباهي . وتجمع في اللغة التركية سباهيان . وتظهر في المراجع الفرنسية والإنجليزية في عدة صياغات اللطيفة مختلفة مثل :

Sipah	—	Sipahi	—	Spahi
Spacoillain	—	Spai	—	Spachi

Feudal Spahis . وكان هذا النوع من الفرسان الإقطاعيين<sup>(١)</sup> لا يتداولون مرتبات نقدية من الحكومة ، بل كانوا يعتمدون في معيشتهم على المحاصيل الزراعية التي تنفلها لهم الإقطاعات الممنوحة ، ولذلك كانوا يعدون الفلاحين مادة بالماشية والبنود . وفي هذه الحالة كان السباهية الإقطاعيون يستولون على نصف المحصول<sup>(٢)</sup> ، كما كانوا يعتمدون على حصيلة العشور وغيرها من الضرائب المقررة على الفلاحين - الأرض أو المحاصيل - ويقومون بجبايتها منهم لحسابهم . وكانت الإيرادات التي يستولون عليها يطلق عليها المصطلح التركي « مال مقاتلة » بمعنى مال المقاتلة . وهاتان الكلمتان عريقا الأصل .

وفي مقابل هذه الامتيازات كان على هؤلاء الفرسان الإقطاعيين أن ينضموا للجيش - حالاً تشبكت الدولة في حرب - ومعهم عدد من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم . وكان عدد هؤلاء الفرسان الإقطاعيين يتناسب تناسباً طردياً مع مساحة الإقطاع الحربي ومع الإيراد الذي تنفله هذه الأرض الإقطاعية .

### أنواع الأراضي الإقطاعية :

وكانت الأراضي الإقطاعية على ثلاثة أنواع رئيسية ، هي :

أولاً : إقطاع مساحته صغيرة نسبياً ، ويسمى « تيمار »<sup>(٣)</sup> Timar وكان

(١) تقتضي الدولة في الصياغة القنطرية أن تترك كلمة « إقطاعيين » بانطفاة فرسان أو سباهية تميزاً لهم عن سائر فرق من فرق الخيالة في الجيش الثابت Standing Army وكان يطلق على هذه الفرق الست : الخيالة الناجزة standing Cavalry كانت من بينها فرقان اسميان « علوفه جي » أي الرجال الذين يتناولون مرتبات ، وفرقتان اسميان « غرباء » وفرقتان اسميان السلفدارات ، بمعنى حملة السلاح أو السيوف . وستعرض لهذه الفرق الست بالشرح عند الكلام على الجيش عثمانى .

Gibb Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. 1, (٢)  
Part 1, p. 247.

(٣) تيمار كلمة فارسية اقتبسها عثمانيون من اللغة الفارسية ، وهي ترجمة لكلمة pronoin اليونانية ، وهي تابل في اللغة اللاتينية انطفاة aura ، واشتقت منها curator الإنجليزية curateur الفرنسية . ومطابقاً ، انظر وقت ، أو وصى ، أو وكيل تركي ، أو ولي ، أو قيم .

يطلق على التابع الإقطاعي « تيارحي »<sup>(١)</sup> . وينزل هذا التبار على صاحبه إيراداً يبلغ ثلاثة آلاف آقجة ، وهي عملة عثمانية من الفضة<sup>(٢)</sup> . وكان على التابع الإقطاعي أن يقدم إلى الجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان يتراوح بين اثنين وأربعة بخيولهم وأسلحتهم<sup>(٣)</sup> .

ثانياً : إقطاع أكبر مساحة من الإقطاع السابق ، ويسمى « زعامت »<sup>(٤)</sup> يمنحه السلطان للفرس إذا أظهر كفاية قتالية . وكان يطلق على صاحب « الزعامت » اسماً جديداً هو « زعيم » . وينزل هذا الإقطاع على صاحبه دخلاً يصل إلى مائة ألف آقجة . وفي مقابل هذا الدخل الكبير نسبياً كان على الزعيم أن يقدم للجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم . وكان هذا العدد يتحدد بنسبة فارس عن كل خمسة آلاف آقجة

وكان هذان النوعان من الإقطاع الحربي - تبار وزعامت - يخضمان لنظام التفتيش يقوم به موظفو الحكومة المختصون ، ويسمون « الدفترداريون »<sup>(٥)</sup>

(١) كان يطلق أيضاً على صاحب التبار: تبار ساحي ، أو أهل تبار ، أو تبار لاري .  
(٢) الآقجة عملة فضية صغيرة الحجم ، واسمها بالكامل آقجة ملباني . وللقطع الأول من الكلمة « آق » مأخوذ من اللغة التركية ومعناه أبيض ، وللقطع الثاني من الكلمة « ج » مأخوذ من اللغة الفارسية وهو تصغير لكلمة أبيض . وكان يطلق على الكلمة في معظم الأحيان عشالي . وقد صرحت هذه العملة على عهد السلطان أورخان بن عثمان ( ١٣٢٦ - ١٣٦٠ ) وكانت تستخدم في كافة أنحاء الدولة كعملة رسمية لم يغير وزنها أو طرازها حتى نهاية القرن السابع عشر . وكان المؤرخون الأوروبيون عندما يترصدون للعملة العثمانية يذكرون كلمة أسپر Aspre أو Asper وهي كلمة يونانية بمعنى أبيض . ويذهب بعض الباحثين إلى القول إن كلمة آقجة قد استخدمها الأتراك السلاجقة قبل الأتراك العثمانيين وكان وزنها لا يزيد على ربع مثقال من الفضة الخالصة بنسبة ٩٠ ٪ ولم تكن قيمتها مستقرة .  
انظر :

Gibb Hamilton and Harold Bowen. op. cit., Vol 1, Part II, p. 49, f. n. 2

(٣) كان السلاح أول الأمر القوس والسهاب ، ثم تدرج إلى الرمح الخفيف والسيوف القصيرة ، ثم الخشبة الحديدية ، والخن الصغير المستدير ، وأخيراً الدرع والقفزة الشاذكة .  
(٤) زعامت اعتلت من الكلمة العربية « زعامت » .

(٥) الدفترداريون مفرعها الدفتردار . والدفترداريون هم فئة من كبار رؤساء الموظفين المخصصين في الشؤون المالية سواء في الحكومة المركزية أو حكومات الولايات العثمانية .

وكانت تربية الخيول والعناية بها وتدريبها تدريباً متواصلًا أموراً تعد في مقدمة واجبات صاحب الإقطاع الحربى . فإذا استبان لموظفى الحكومة فى أثناء دوراتهم التفتيشية على الإقطاعات الحربيه إهمال أو تراخ من صاحب الإقطاع فى تربية الخيول كان هذا الإهمال أو التراخى سبباً كافياً لانتزاع الإقطاع منه .

وكانت الإقطاعات التى من نوع « تيارات » و « زعامات » توجد فى ولايات الدولة المحكومة من إستانبول رأساً سواء فى أوروبا أو فى آسيا . ومع ذلك فلم تعاقب الدولة هذا النظام على جميع تلك الولايات ، كأن هذه الإقطاعات لم تكن تخضع تماماً لنظام واحد فى جميع المقاطق . ومن الأقاليم التى طبق فيها نظام الإقطاع الحربى : الروملى - بودا - اليوسفة - طمسفار<sup>(١)</sup> - Temesvar - ديار بكر - أرضروم - دمشق - حلب - بغداد - شهر زور - إيلات الأناضول - جزر الأرخبيل - قرمان - مرعش - سيواس .

وكان أصغر السباهية مركزاً يذهبون إلى الحرب دون أنباع ، راكبين خيولهم ، ويرتدون سديريات من الزرد ومعهم خيامهم .

### القليج والترقى :

وكانت الأرض المملوكة سواء كانت « تيارات » أو « زعامات » تتكون فى العادة من جزءين هما : الأرض الأصلية ، وتسمى « قليج »<sup>(٢)</sup> ، وإضافات تسمى « ترقى »<sup>(٣)</sup> وكانت هذه الإضافات تمنح بقصد توفير عشر المخول التى يديرها « القليج » . وكانت أجزاء الإقطاع المتكونة من هذه الإضافات تسمى :

- 
- (١) طمسفار أحد أقاليم الحرب . وقد قسم فى سنة ١٩١٩ بين يوغوسلافيا ورومانيا .
  - (٢) قليج لفظة تركية بمعنى سيف . وكانت الأرض الأصلية من الإقطاع تسمى بهذا الاسم ، لأن الإيرادات التى يجلبها هذه الأرض الأصلية تعتبر كافية لتغطية نفقات السباهى وإعطائهم . ومن هنا كانت تعد السلطان بسيف فى أثناء الحرب .
  - (٣) القليج هذه اللفظة من الكلمة العربية : ترقى .



أيضاً « حصّة »<sup>(١)</sup> . وكانت الحكومة تلجأ إلى انزعاج هذه الحصص من حوزة إقطاعي وإضافتها إلى إقطاعي آخر . وقد استغلت الحكومة هذه القاعدة لتشجيع كل سباهي على الوفاء بالتزاماته على أكمل وجه ، لأنه يرى رأى العين أن الإقطاعي الذي يظهر تراخياً في عمله تعاقبه الحكومة بتجريدته من الحصص وإضافتها إلى إقطاعي آخر . ويستمر هذا الإجراء بمثابة إنذار للإقطاعي المتراخي في عمله . فإذا استمر متكاسلاً لجأت الحكومة إلى إحراء أكثر حزمًا وأشد قسوة ، وهو تجريدته من الأرض الأصلية - قليج - بصفه مؤلفة أو دائمة . ولكن ما حدث كان العكس تماماً ، فإن التياراتية - وهم أدنى درجات السباهية المعادين من أصحاب التيارات - كانوا يطمحون في جهر تاريخ الدولة العثمانية إلى الترقى إلى مرتبة « زعيم » أى صاحب « زعامت »<sup>(٢)</sup> .

ثالثاً : إقطاع أكبر مساحة من الدوعين الأولين ويسمى « خاص » . وفضلاً عن مساحته الكبيرة ، وهذه كانت في حد ذاتها مهيزة ، كانت له ميزة أخرى تتمثل في عدم خضوعه لتفتيش الدفتردار أو غيره من موظفي الحكومة . وكان هذا الإقطاع « الخاص » يتمتع للولاية الذين في الخدمة الحكومية . فإذا ما تركوا مناصبهم نتيجة الوفاة أو العزل أو الترقية إلى منصب آخر ، نزع منهم الإقطاع « الخاص » . وجدير بالذكر أن بعض « التيارات » و « الزعامات » كانت تمتنع لبعض شاغلي المناصب الكبرى في الدولة ، فكانت تشبه الإقطاع « الخاص » الذي كان يرتبط بالمناصب .

وقد طبقت الدولة النظام الإقطاعي الحربي منذ وقت مبكر جداً يرجع إلى بداية حكم الأتراك العثمانيين حين كانوا يشكلون إمارة صغيرة في الشمال الغربي

(١) جاءت هذه الكلمة من لفظة عربية هي « حصّة » بمعنى نصيب الفرد من تقسيم لإيراد محاسنات عقارية مثلاً .

2) Gibb Hamilton and Harold Bowden : op. cit., vol I, Part I, p 49

لأسماء البحرية ، ثم توسعت الدولة في تطابق هذا النظام الإقطاعى البحرى . وكان يشترط في الأتباع الإقطاعيين أن تسكون أصولهم عثمانية بمحة ، فإذا تطرق الشك إلى أن أصولهم غير عثمانية سرحوا فوراً وانزع منهم الإقطاع البحرى وما يستتبعه من امتيازات .

#### خواص هايون - يورتلقات :

وبجانب هذه الإقطاعات البحرية كانت بعض الإقطاعات التى من نوع « الخالص » ملكاً خاصاً للسلطان ويطلق عليها « خواص هايون » <sup>(١)</sup> وكانت أكبر وأهم الإقطاعات جميعاً من حيث المساحة وجودة الأرض ، وكان السلطان يمنع أجزاء منها لبعض أعضاء الأسرة الحاكمة من أميرات وسيدات من حريمه . كما كانت هناك أراض أخرى لها الطابع الاقتصادى المسكرى تأسيساً على أن الإيراد الذى تنفله هذه الأراضى يخصص لإعاقه على الأغراض العسكرية مثل أفراد حرس الحصون والحاميات المحلية وعلى السلاح البحرى فى إستانبول . وكانت هذه الأراضى تعرف باسم اليورتلقات <sup>(٢)</sup> و « الأوجاقلقات » <sup>(٣)</sup> .

#### توزيع الإقطاعات البحرية :

كان نصف الأراضى الإقطاعية فى أيدي السباهية ، وتوزع على شتى قطات

---

(١) سبق أن شرحنا معنى هذه اللفظة في هذه الدراسة ، ص ٩٧ ، حاشية رقم ٤ .  
(٢) يورتلقات ومفردها يوزرلى ، معناها الخيعة ، أو البيت ، أو مسقط الرأس ، أو الوطن . والإصانة فى نهاية الكلمة وهى « لى » و صيغة المفرد ، وأقاب و صيغة الجمع معناها « ملك له » وبذلك يكون المعنى الكلى : ملكة بيت أو الخيعة أو مسقط الرأس أو لوطس .

(٣) أوجاقلقات كلمة تركية مشتقة من أوجاق بمعنى دوقد ، أو فرقة عسكرية . ويستخدمها الجيش على هذا النحو : وجاقلى أى رجل منتسب إلى فرقة عسكرية . وكان هذا المؤرخ يجمعها ويقلبها .

والإضافة الواردة فى نهاية هذه الكلمة : أوجاقلقات وهى لابت من صيغة الجمع ، معناها لى من صيغة المفرد ، ومعناها ملك لـ . . . وبذلك يكون معنى الكلمة المذكورة فى المتن هو أراض إقطاعية تتبع أوجاق أو أرض ملك للفرقة العسكرية .

المسكربين الإقطاعيين . فسكانت الأرض الإقطاعية ذات الدخل في صنيق<sup>(١)</sup>  
عادي توزع على النحو الآتي :

(١) صنيق لفظة تركية لها عدة معان : (١) علم أو يرق une bannière  
(٢) لواء أو فرقة ، أى تشكيل من تشكيلات الجيش une brigade (٣) قسم إدارى كبير  
في ولاية يحكمه أحد البسكوات une circonscription territoriale administré  
par un bey (٤) الحاكم على هذا القسم الإدارى الكبير ، كما كان يطلق على الإقليم الذى  
يحكمه صنيقية .

وفي تاريخ مصر إبان الحكم العثماني كانت ترد كلمة صنيق في أحد معنيين : أولهما مجرد  
رتبة أو وظيفة titre ou fonction فإذا كان يحمل الرتبة ولا يشغل منصباً ، أطلق عليه  
« صنيق بطال » وهذا اللفظ مأخوذ من كلمة بطل أى عدم وجود حمل . وكان الباشا  
العثماني في القاهرة يمنح رتبة الصنيقية . وكان يصحب منح هذه الرتبة ترقية صاحبها إلى رتبة  
بك . وكان مقام حفل كبير في القاهرة يطلق عليه الاصطبة والفقطان . أما المعنى الثاني لاستخدام  
كلمة صنيق فهو أحد أعضاء « هيئة صناجق مصر » أو « جماعت أمراء عافطين  
مصر المهروسة » وكان عددهم في معظم الأحيان أربعة وعشرين صنيقاً . ويسمى كل منهم  
« صنيق طبلخانة » واسكتب أحياناً « صنيق طبل خانة » أى تدق له الطبول عند مطلع  
الشمس وفي غروبها ، وعند تفرقاته وذلك تقديرًا لملو مركزه وسمو مقامه . وقد احتفظت  
حكومة إستانيول لناسها بحق تعيين أربعة منهم هم صناجق الثغور المهمة الثلاثة وهي  
الاسكندرية ، ودهياط والسويس ، وكذلك وكيل الباشا العثماني في القاهرة ويسمى الكتخدان .  
ويلاحظ أن عدد البسكوات الصناجقة في مصر لم يكن دائماً أربعة وعشرين ، فغارة كان يقل  
عن هذا الرقم ، وغارة أخرى يتجاوزها . وعلى العموم كان البسكوات الصناجقة المماليك  
يحكمون الأقاليم الإدارية الكبرى الخمسة وهي الغربية ، المنوفية ، الشرقية ، البحيرة ،  
جرجا ، كما كانوا يعقلون مناصب كبرى مثل القنطرة ، أمير الحج ، أمير الخريفة الإرسالية  
أى قائد القوة العسكرية المرافقة لحزينة مصر المرسلة إلى إستانيول ، قيادة الحملات العسكرية  
التي ترسل من مصر للانضمام إلى الجيش العثماني في وقت الحرب . ويلاحظ أيضاً أن مصطلح  
« صنيق طبلخانة » كان متداولاً في مصر في العصر المملوكي قبل العثماني ، إذ أن بعض  
الأمراء في دولة المماليك كانوا أمراء طبل خانة أى يكسبهم مركزهم أن تدق لهم الطبول وغيرها  
من الآلات الموسيقية التي تتسكون منها طبلخانة السلطان المملوكي .

انظر .

Gaudefroy — Demombynes :

La Syrie à l'Epoque des Mameloukes d'après les Auteurs  
Arabes, Paris, 1928, p 38

واسكتب كلمة صنيق بحرف الصاد ثارة ، وبحرف السين نارة أنزى ، كما اسكتب  
في صيغ مختلفة ، منها :

$\frac{٧}{٨}$  مساحة الإقطاع من نوع التيارات

$\frac{١}{٩}$  مساحة الإقطاع من نوع الزمامات .

$\frac{١}{٩}$  مساحة الإقطاع من نوع الخواص .

$\frac{١}{٩}$  مساحة الإقطاع من نوع أوجافقات

$\frac{١}{٩}$  أوقاف .

وكان العسكريون الإقطاعيون يتمتعون بحقوق وراثية، ولذلك ارتبطت مصالحهم ومصالح عائلاتهم بهذا النظام، ونجم عن تقرير حق الوراثة في الإقطاعات

== سنجق — سنجان — ساجاق

سنجق — سنجان — ساجاق

ونجم على النحو الآلى .

ساجق — ساجق

ساجق — ساجق

أنظر

Barbier de Meynard; Dictionnaire turco-français, 2 vols., Paris, 1881-1886, vol. II, p. 63, 100, et 218.

Buctor; Dictionnaire français-arabe, revu et augmenté par A. Caussin de Perceval. 2 vols., Paris, 1829, vol. I, p. 94.

Bozy; Supplément aux dictionnaires arabes, 2<sup>ème</sup> édition : cyde—Paris, 1927, t. I, p. 691, 846.

الجزى ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٦٨ .

حسين أفندي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١ ، ص ١٤ ، ص ١٦ ، ص ١٧ .

أن انتفى احتمال قيام حركات تمرد أو منافسة من جانب أفراد هذه الطبقة للسلطين<sup>(١)</sup>. وسنقتول نظام الوراثة في الإقطاعات الحربية بشيء من التفصيل في موطن قادم في هذه الدراسة عند الكلام على القوات المسلحة العثمانية .

### مزايا الإقطاع الحربي :

من مزايا هذا النظام أنه ساعد على التوسع الأفقي والرأسي في زراعة مساحات شاسعة من الأراضي داخل الأقاليم العثمانية في أوروبا وفي آسيا . وأطمأنات الدولة إلى أن جهوداً صادقة تبذل للقبوض بزراعتها بدافع المصلحة المشتركة بين الأتباع الإقطاعيين وبين الفلاحين . كما أن هذا النظام كفل للدولة الحصول في زمن الحرب على قوات من الفرسان كانت تبليغ في بعض الأوقات مائتي ألف رجل<sup>(٢)</sup> دون تسكاليف تذكر ، لأن التابع كان يذهب إلى الحرب ومعه جواده وسلاحه . فضلاً عن ذلك فقد وفر هذا النظام على الدولة مصرتبات المسكرين سواء في زمن الحرب أو في أوقات السلم . وقد طبق هذا النظام على سلاح الخيالة - سلاح الفرسان - ولم يطبق على سلاح البيادة - سلاح المشاة . وفوق كل هذه المزايا وأهمها نذكر المستوى الحربي العالي الذي كان يتمتع به الفرسان الإقطاعيون . وقد قرر أحد كبار المؤرخين الأتراك وهو أحمد جودت « أن أقوى قوات قتالية في الدولة العلية كانت تتسكون من أصحاب القنارات والزعامات »<sup>(٣)</sup> وتضاف إلى مزايا الإقطاع الحربي مزايا أخرى . فقد ربط المسكرين بالأرض ، وحال دون اتحاد الفتوح العثمانية طابع الاحتلال العسكري .

1) Gibb Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. I, Part I, p 52

2) Loc. cit.

3) op. cit, p. 58, f.n. 1

فلا من أحد جودت : تاريخي جودت ، ١٢ جزءاً ، إستانبول ١٣٠٩ هـ ، دوات عليه أن أن جميع قوت عسكرياً أرباب تيار وزعامت أهيى . ج . ١ ، ص ٩٠ .

وأخيراً فقد خفف نظام الإقطاع الحربى عن الإدارة المالية فى الدولة عبء جمع الضرائب من الفلاحين فى الأراضى التى طبق عليها هذا النظام .

### عيوب الإقطاع الحربى :

لم يخل نظام الإقطاع الحربى من عيوب . فإن ارتباط أصحاب التيارات والزعامات بالأرض قد جعل بعضهم يتقاعس عن مبارحة أراضهم عند دعوة الحكومة لهم بالالتحاق بالجيش عند نشوب الحرب . فإذا استجابوا للتغير العام وأخذوا أماكنهم فى ساحة القتال ، تحرقوا شوقاً إلى العودة إلى أراضهم . ولذلك كانت تهمرس الحكومة على أن يكون نفوذها عليهم قوياً خشية أن تصبح هذه القوة عديمة الفائدة إذا تراخت قبضة الحكومة عليهم .

كما كان بعض أصحاب الإقطاع الحربى يهملون المزارع الشاق الطويل سواء لهم شخصياً أو لأتباعهم الأمر الذى كان يؤثر على كفاءتهم القتالية . كما كان البعض الآخر لا يعنى العناية القائمة بتربية الخيول وهى عماد سلاح الخيالة . وفى أمثال هذه الحالات كانت الحكومة تتدخل وتزع منهم أراضى الإقطاع وتجردهم من امتيازاتهم .

ويؤخذ على نظام الإقطاع الحربى أيضاً أنه جعل الفلاحين أداء مسخرة فى يد العسكريين فى أوقات السلم . كان الأولون ينصرفون إلى فلاحه الأرض واستثمارها تحت إشراف العسكريين الذين كانوا يدوزون بالنظم الأكبر مادياً وأدبياً ، وأصبحوا فى وضع يشبه وضع السادة . وبقي الفلاحون فى وضع أقل بكثير من وضع العسكريين ، بل إنهم كانوا فى حكم الأرقاء . وفى ضوء هذه المقارنة بين الإقطاعيين العسكريين والفلاحين يتهاوى رأى الذى يقرره بعض الباحثين بأن الفلاحين والفرسان الإقطاعيين احتجروا أنفسهم بمضى الزمن شعباً واحداً مهما

كانت أصولهم الجنسية ، وذلك باستثناء الحالات التي كانت الاختلافات الدينية تحول دون ذلك<sup>(١)</sup> .

### لم يتسكن العثمانيون الإقطاع الحربى :

وكان أخذ الدولة العثمانية بالنظام الإقطاعى الحربى أمراً طبيعياً ، لأنها كانت دولة عسكرية بكل ما تحمله هذه العبارة من معان . وكان الجيش يظهر — كما سبق أن ذكرنا — بأعظم قسط من اهتمام الدولة وعنايتها ، وفرت له جميع الإمكانيات البشرية والمادية ليفدو أكبر قوة عسكرية ضاربة .

ولم يتسكن الدولة العثمانية نظام الإقطاع الحربى ، فقد كان هذا النظام ممة بارزة فى الدولة السلجوقية التي كانت ذات سبنة حربية ، كما أن مصر قد عرفت نظام الإقطاع الحربى وبخاصة عند ما أدخله السلطان صلاح الدين الأيوبي فيها أيام الدولة الأيوبية . وكان صلاح الدين قد شاهد ومارس الإقطاع الحربى فى الدولة الزنكية على عهد نور الدين محمود بن عماد الدين زكى الذى أسس دولته ذات العاصمتين : حلب والموصل ، وأوغل فى حروبه ولجأ إلى تعميم نظام الإقطاع ، ودرج على ذلك ابنه نور الدين . وتوطد نظام الإقطاع الحربى فى مصر والشام زمن السلاطين الأيوبيين الذين أوروثوا هذا النظام لدولتى المماليك البحرية والشرابية . وهكذا نجد أن النظام الاقتصادى العسكرى ساد مصر إبان حكم الدول ذات الطابع الحربى والتي قامت فيها .

كان فى مصر زمن صلاح الدين وخلفائه سلاطين الدولة الأيوبية نومان من الإقطاع : الإقطاع الحربى ، ولم يكن يختلف فى أصوله وقواعده ومظاهره عن الإقطاع السلجوقى ، إذ افترق بما يؤديه صاحب الإقطاع من خدمات حربية ومن خضوعه لسيطرة الحكومة المركزية .

---

(١) Gibb Hamilton and Harold Bowen, op. cit., vol 1, Part I pp. 46-47.

ومن أهم هذه الخدمات تقديم عدد معين من الفرسان بخيولهم وسلاحهم إلى الجيش عندما تشترك الدولة في حرب ما . وأصبحت مصر مقسمة إلى إقطاعات لأبناء البيت السلطاني الأيوبي وإقطاعات لأمرأ الأجناد وإقطاعات للمرابن . أما النوع الثاني فهو الإقطاع الإداري واختص به الأمرأ من الأسرة الأيوبية الحاكمة وكبار الموظفين . وكان السلطان يوصى أرباب الإقطاع الحربي بأن يكونوا دائماً « في التأهب للخدمة كالسهم الموضوع في وتره » وأن يكتروا من الفرسان بزيادة العطاء لهم<sup>(١)</sup> . وكان من وجوه النقص الإقطاعي في التنظيم الأيوبي أن القطعين كانوا يذهبون إلى إقطاعاتهم للإشراف على جمع المحصول وتخزينه . والزم السلاطين الأيوبيون بذلك ، فكان إذا خرج أرباب الإقطاع إلى ساحات القتال ثم حلت مواعيد الحصاد ، فإنهم يسودون مراعاةً إلى إقطاعاتهم ، بينما تكون العمليات الحربية دائرة في منتهى الضراوة .

ومع ذلك فإن الدولة الأيوبية قد نجحت إلى حد بعيد في حماية الفلاحين الخاضعين للإقطاع الحربي من سادتهم الإقطاعيين العسكريين ، فكانت تحدد الإيجارات والحبايات التي يدفعها الفلاح لسيده الإقطاعي ، وتراقب تنفيذ هذه الالتزامات مراقبة دقيقة ممعاً لاستغلال العسكريين للفلاحين . ومن هنا انطلقت العبارة المشهورة وهي أن السادة الإقطاعيين العسكريين في العصر الأيوبي كانوا في نعمة محدودة<sup>(٢)</sup> .

#### (١) انظر :

دكتور السيد الباز العريش : الإقطاع في الشرق الأوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادي . حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، العدد الرابع ، يناير ١٩٥٧ .

دكتور حسين محمد ربيع : الظلم المالي في مصر زمن الأيوبيين . مطبوعات كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٦٤ م ص ٣٨ - ٣٩ .

#### (٢) المرجع السابق ، ص ٣٤ .



وجرت دولة المماليك الشراكسة<sup>(١)</sup> على توزيع الأراضي — وموارد أخرى في بعض فترات الحكم — إقطاعات بين السلطان والأمراء والأجناد . وكانت الأراضي المقطعة ثلاث درجات من حيث الرى والمخصوبة ووفرة الإنتاج . وأطلق على ديوان الجيش ديوان الإقطاع دلالة على إيفال الدولة في تطبيق نظام الإقطاع الحربى . وكان هذا الديوان بدولى إصدار الوثائق الإقطاعية الأولى ، ثم يقوم ديوان الإنشاء بإعداد الصياغة اللغوية النهائية للمقطع، ويعرف هذا المستند باسم المنشور ، وبكسله المقطع ، وبذلك يأخذ الإقطاع الصيغة القانونية . وكان يعرف إقطاع السلطان باسم « الخاص السلطانى » أو « بلاد الخاص » أو « الخاص الشريف » تمييزاً له عن « الأملاك السلطانية » الممنونة بالشريفة ، فالخاص هو الإقطاع الذى يحوزة السلطان بوصفه سلطاناً ، وهو إقطاع استغلال كغيره من الإقطاعات ، فهو يحوزة لكنه لا يملك رقبته ، ولذلك ينقل إلى غيره بزوال السلطنة عنه ، أما الأملاك الشريفة السلطانية فهى التى يشترطها السلطان بماله من إيراداته المتنوعة . وكان أولاد السلاطين يحوزون إقطاعات حربية كبيرة وهم لا يزالون صغار السن في بعض الأحيان ، ويحوزون أيضاً الرتب العالية في الجيش المملوكى . وكانت أهم فرقة في هذا الجيش من حيث حيابة الإقطاع الحربى هى فرقة أجناد الحلقة . وكانت هذه الفرقة هى الأصل في حيابة الإقطاع الحربى ، وكانت تليها فرقة المماليك السلطانية ثم فرقة أجناد الأمراء<sup>(٢)</sup> . وكانت الدولة تمنح إقطاعات للعربان والتركمان والأكراد . وكانت

(١) آثارنا أن نذكر من إحدى دوائى المماليك كمال للإقطاع الحربى المذكور من قبل الاختصار ، وبذلك نكون قد ذكرنا عن الدولة الأيوبية ودولة المماليك الشراكسة من ناحية الملامح العامة للإقطاع الحربى مما ورد من يد الإصلاح على هذا النظام ودولة المماليك البحرية إلى الدكتور سعيد عبد الحامى عاشور : المعجم المماليكى المجلد ١ ص ٣٤٨ ، ٣٥٢ ، كتابه الآخر : مصر في عصر دولة المماليك البحرية المجلد ١ ، ١٩٥٩ ، القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٩٧ .

(٢) الدكتور إبراهيم على طرخان : الإقطاع الإسلامى ( مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد السادس ، سنة ١٩٥٧ ) .

وانظر أيضاً لهذه المؤلفات : مصر في عصر دولة المماليك المراكبة ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢١٥ — ٢٣٩ .

هذه المقامير الثلاثة الأخيرة تستخدم الدولة عن طريق حماية الحدود ورد غارات القبائل التركمانية الأخرى المعادية . وكان لهؤلاء العربان والتركمان والأكراد سجل خاص في ديوان الجيش تدون فيه جميع البيانات عن إقطاعاتهم الحربية . على هذا النحو كان سلاطين الدولة الأيوبية ودولتي المماليك يقطعون الأمراء أراض زراعية وغيرها لاستغلالها تسمى إقطاعات . وكان كل إقطاع يختلف عن الآخر من حيث حجمه ، أى مساحته ، وموقعه ، وخصوبة تربته مما يؤثر في النهاية على مايفله من إيراد . وكان صاحب الإقطاع لا يتقاضى عن خدماته في الجيش مرتبات نقدية أو عينية من الدولة ، بل كان يؤدي للدولة ، نظير الإقطاع الممنوح له ، خدمات حربية ومالية ومدنية . وكان أهمها الخدمات الحربية . فعند ما تلشب الحرب كان يتعين على كل مقطع - أى صاحب إقطاع - أن يقدم إلى الجيش عدداً من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم وملابسهم وذخيرتهم . وكان هذا العدد يتناسب مع مساحة الإقطاع ويميزاته <sup>(١)</sup> .

وكان السلاطين يعمدون إلى حرمان المقطع من إقطاعه إذا بدا منه تقصير في تربية الخيول أو إعداد الفرسان . وكانت الدولة تلجأ - كإجراء وقائي - إلى تفتيت الإقطاع بحيث لا يكون كتلة إقليمية واحدة خشية أن يستقل بها صاحب الإقطاع أو يزداد بها نفوذه على حساب السلطة المركزية . وكان يجوز نقل الإقطاع من شخص إلى آخر .

(١) تمثلت الخدمات التالية التي كان يؤديها صاحب الإقطاع وأن يؤدي من حصة الأموال التي قام بمصايفها التزامات الدولة ، مثل أداء حزية الجوالى - وهى جزية الرأس المقررة على أهل التمة من اليهود والنصارى والمسلمين دون النساء والصبية والزحان والأرقاء والجنان فضلاً عن الدخوع والفقرات - وكذلك نصيب الدولة في الألبان - أى الدس - والفراريح - أى الدجاج . وكان رسم الألبان يقسم إلى ثلاثة أقسام : قسم لـديوان الجيش ويسمى للمقطع ، وقسم للمزارع وكان رسم الفروج أو الفراريح يقسم كذلك إلى ثلاثة أقسام : دجاج للدولة ، ودجاج للمقطع ، وفائض يدار الثلث يسمى أمساب القرية أى أجرة القرية ويخصص للفلاح

أما الخدمات المدنية التي كانت مفروضة على صاحب الإقطاع لتتصرف في صيانة المسور وإمداد الفلاحين بالتقوى والاهتمام بالزراعة بوجه عام .

انظر .

دكتور حسين - ٤ - ربيع الثعظيم للآلية ، مرجع - سبق ذكره ، ص ٢٥ - ٣٩

تلك ملامح سريعة جسداً للنظام الحربى الذى طبقته الدول ذات الطابع الحربى والتي تأسست فى مصر قبل الفتح العثمانى لها ، وهى الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية ودولة المماليك الشراكسة . ومن هذه الملامح يتضح أن كلا النظامين الإقطاعيين : العثمانى من ناحية ، والأيوبي والمملوكى من ناحية أخرى يتشابهان فى بعض الجوانب ويختلفان فى جوانب أخرى . ولكن الفكرة الأساسية وراء منح الإقطاعات الحربية كانت واحدة فى ذهن ولى الأمر ، وهو الساطان فى هذه الدول الأربع ، وهذه الفكرة هى ضمان حصول الدولة على قوات قتالية بمجرد إعلان التعبئة العامة . أما وجوه الاختلاف فكانت تنصب على مسائل شكلية فى أثناء التطبيق العملى لهذا النظام فى كل دولة من هذه الدول الأربع .

ويلاحظ أن الدولة العثمانية طبقت النظام الإقطاعى أول ما طبقته فى الولاياتين الأصليتين اللتين ترفان باسم الأناضول<sup>(١)</sup> والرومل<sup>(٢)</sup> . وتطلى الولاية الأولى الأناضول أو شبه جزيرة الأناضول أو آسيا الصغرى ، وتشمل الثانية بلاد البلقان فى أوروبا . ولما فتحت الدولة معظم الأقاليم العربية فى آسيا وإفريقية فى القرن السادس عشر شرعت فى تطبيق الإقطاع الحربى أو نظام الالتزام أو كليهما معاً فى الولايات العربية . ولم يكن هذا التطبيق تطبيقاً حرفياً لما كان عليه العمل فى تسلكا الولاياتين ، لأن القوانين والإجراءات التى صدرت لهما فى القرن الخامس عشر كانت تمكس الأحوال السائدة فى الأناضول وبلاد البلقان وقتذاك . ولذلك يمكن القول إن الدولة العثمانية طبقت النظام الإقطاعى على نحو من الأنحاء فى الولايات العربية .

وستتكمّل هنا - كتمال - عن ثلاثة من الأقاليم العربية التى وقعت تحت السيادة العثمانية وهى مصر وبلاد الشام والعراق

(١) يطلى عليها و يسمى المراجع لبل اناضولى

(٢) يطلى عليها و يسمى المراجع لبل روملى .

## نظام الإلتزام :

أما النظام الآخر الذى كان يحمل الكثير من سمات النظام الإقطاعى فهو نظام الإلتزام . وقد طبقته الدولة العثمانية فى الأقاليم أو المدايق التى لم تخضع لنظام الإقطاع المسمى . وجدير بالذكر أولاً أن الدولة العثمانية لم تبسكو نظام الإلتزام . فقد وجدته معمولاً به فى بعض الأقاليم التى خضعت لها سواء فى الأناضول أو البلقان أو فى شمال العراق . ولما فشل نظام المقاطعات أو الأمانات فى مصر وأسفر تطبيقه عن عيوب كثيرة<sup>(١)</sup> ، رأت الدولة أن تستبدل به—هذا

(١) عن نظام المقاطعات أو الأمانات انظر كلام من :

Shaw Stanford J., *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt. (1517-1798)* Princeton University Press, Princeton. N J., 1962. p. 27 & pp. 352—362.

Shaw Stanford J.; *The Ottoman Archives as a source for Egyptian History.*

in

*Journal of the American Oriental Society* vol. 83. (1963), p. 448.

Shaw Stanford J., *Landholding and land-tax revenues in Ottoman Egypt* pp. 94—95, 99.

وهو أحد بحثين تقدم بهما ستانفورد شو الأستاذ بجامعة برنستون بالولايات المتحدة إلى مؤتمر دولى عقد فى شهر إبريل ١٩٦٤ بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن عن تاريخ مصر الحديثة من الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ إلى ما بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، بل إن بعض البحوث قد امتدت الحلقة التاريخية التى تناولتها إلى سنة ١٩٦٢ وشملت نمو الإنتاج الزراعى فى مصر من سنة ١٨٢١ حتى سنة ١٩٦٢ . وكان موضوع البحث الآخر الذى قدمه ستانفورد شو : المصادر التركية عن التاريخ المصرى . وقد سمعت البحوث التى ألقيت فى المؤتمر ، وأولى الأستاذ هولت ب . م . أستاذ تاريخ العالم العربى فى جامعة لندن لمصر هذه البحوث فى كتاب جعل عنوانه :

*Political and Social Changes in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic*; edited by P.M. Holt. London, 1968.

Holt P.M.

( م ١٠ — الدولة العثمانية )

النظام نظاماً آخر هو نظام الإلتزام . وسندلم إلماً سريماً باللامح العامة لهذا النظام .

وبتقضى نظام الإلتزام كانت الدولة تعهد - بعد إجراءات معينة - إلى شخص من دوى النفوذ والثراء في العادة بحماية الضرائب المربوطة على الأراضي الزراعية والمقرورة على الفلاحين في قرية أو أكثر من قرية لمدة زمنية محددة أول الأمر . وكان يطلق على هذا الشخص المصطلح التاريخي « الملتزم » . وكان عليه ، قبل أن يباشر عمله كملتزم ، أن يدفع مبلغاً من المال يعادل ضريبة سنة من الضرائب المقررة على المنطقة التي يمارس فيها اختصاصاته ، وكانت هذه المنطقة تسمى « دائرة الإلتزام » .

### إجراءات الحصول على حق الإلتزام

كانت الحكومة تمنح هذا الحق بطريقة المزاد بين راغبى الحصول على حق الإلتزام أو بطريقة الاتفاق . وكان إجراء المزاد هو أكثر الطريقتين تطبيقاً<sup>(١)</sup> . وكان تطلق على المزاد لفظة « مزايمة »<sup>(٢)</sup> .

وكانت جلسات المزاد تعقد في أوائل شهر توت من كل سنة ، أى أوائل شهر سبتمبر ، لأن المصريين اعتادوا أن يربطوا كأسلافهم مواسم الزراعة ومواعيد الفيضان ووقت الوفاء بشهور التقويم القبطى لانساق مواعيده ، ولكن

= in

Bulletin of the School of Oriental and African Studies.  
University of London. vol. 26, 1, 1963, pp. 185 - 186

Gibb Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. 1, Part 2,  
p. 21 n.

1) Arminjon Pierre; La Situation Economique et Financière  
de L'Egypte Le Soudan Egyptien. Paris, 1911; p. 678

2) Shaw Stanford J; Landholding etc, op. cit., p. 95.

كانت الحكومة تفص في وثائق الإلتزام على التاريخ المحجى الموافق للتاريخ القبطى ، لأن سداد المال الميرى كان يتم حسب أشهر التقويم الهجرى <sup>(١)</sup> .

وطبقاً لنظام الإلتزام كانت الأرض الزراعية في القرية تقسم إلى أربعة وعشرين قيراطاً . وهذا التقسيم لعلقة له بقراريط الفدان المعروفة . فقد يصل القيراط في نظام الإلتزام إلى عشرات الأفدنة <sup>(٢)</sup> . ومن المعروف أن المزاد يرسو على من يمرض أكبر مبلغ بين المتزايدين . وعقب سداد المبلغ في ديوان الروزنامة <sup>(٣)</sup> ، يحمل هذا الشخص بصفة رسمية لقب ملتزم ، ويتلقى ثلاثة مستندات رسمية ، أولها « تقييد الإلتزام » ويحدد فيه تحديداً دقيقاً المال الميرى الواجب سداده ، وأهم القرية أو القرى الملتزمة ، وعدد قراريطها ، ومساحة هذه القراريط .

---

(١) إبراهيم اللوىلى : الأرض والفلاح في العصر المملى . بحث منشور في « الأرض والفلاح في مصر على مر العصور » الناشر : الجمعية المصرية لدراسات التاريخة ، القاهرة ، سنة ١٩٧٤ ، الفصل السابع ، ص ٢٢٥ — ٢٥٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) تتكون كلمة روزنامه من جرعين : روز ، وهى كلمة فارسية معناها النهار ونامة بمعنى دفتر الحوادث أى دفتر الحوادث اليومية أو الحساب اليومى ، ثم أصبح معناها الديوان الذى يقوم بتحرير وضبط الحسابات والدفاتر الرسمية . وكان رئيس هذا الديوان يسمى روزنامجى . وكان فى أول الأمر عثمانياً يحضر من استانبول لشغل منصبه . وظل منصب الروزنامجى على هذا الوسم إلى النصف الثانى من القرن السابع عشر حين شمله الأمراء المماليك ذوو العوذ .

من القسم الأول الخاص بفرح مصطلح الروزنامة ، انظر :

دكتور حسن عثمان : تاريخ مصر في العهد المملى ( ١٥١٧ — ١٧٩٨ ) في كتاب : الهدى في التاريخ المصرى تأليف بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول سابقاً (جامعة القاهرة) . القاهرة ١٣٩١ هـ — ١٩٤٢ م ، ص ٢٣١ — ٢٨٤ انظر ص ٢٩١ ، حاشية رقم ١

ومن القسم الثانى الخاص بشخصية الروزنامجى ، انظر : يوسف اللوانى ( ابن الوكيل ) تحفة الأحياء بمن ملك مصر من الملوك والنواب . مخطوطة مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ٢٨ تاريخ ، ص ١٠٣ .

أما المستند الثاني الذى يصدر إلى الملتزم فكان يسمى « التمسكين »<sup>(١)</sup> وكان بمثابة عقد . ولهذا يطلق عليه بعض الباحثين « عقد الإلتزام » وكان يحمل ختم لباشا العثمانى والدفتدار<sup>(٢)</sup> . وتوضح فيه منطقة إلتزامه ومقدار الأموال الأميرية المقررة عليها ، كما يرد فى هذا المستند نص صريح موجه إلى الملتزم بضرورة معاملة الفلاحين وسائر الأهالى بالرحمة والعدل<sup>(٣)</sup> ، « وأن يكون متسامحاً مع الفلاحين ، وألا

(١) التمسكين وحملها التمسكينات يقول عنها الأستاذ محمد عفيق قربال إنها من أهم مصطلحات العصر العثمانى فى مصر . فلا بد من تمسكين اديم أو جديد ، والهمى أو وهمى ، لا كتساب حق أو الانتفاع بحق . ومن أهم التمسكينات إذ ذاك التقاسيط التى يصدرها الباشا للملتزمين ويحتكون بواسطتها من حصص الخزائن .

انظر : حسين أفندى : ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية ، كما شرحه حسين أفندى أحد أفندية الروزنامة فى عهد الحملة الفرنسية . نهر وتعليق الأستاذ محمد عفيق قربال تحت عنوان « مصر عند مفرق الطرق » ( ١٧٩٨ — ١٨٠١ ) المجلد الأول . مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ( جامعة القاهرة ) المجلد الرابع ، الجزء الأول ، مايو ١٩٣٦ ، ص ١ — ٧٠ ، ص ١١ ، حاشية رقم ١

واستغنى فى مصر فى أثناء الحكم العثمانى مصطلح آخر يسمى كذلك بفتح السين الأول وهمى كلمة تركية وتجمع كدكات ، ومعناها التمسكين من مزاوله صناعة ما انظر المرجع السابق ، ص ٢٦ حاشية رقم (١)

(٢) الدفتدار هو رئيس الديوان الدفترى . وكان هذا الديوان بمثابة وزارة المالية بالمصطلح الحديث ، كما كان عصب النظام المالى القائم على نظام الإلتزام ، كان يده ديوان الروزنامة . وكان الدفتدار عملياً فى أوائل العصر العثمانى فى مصر ، ويختار من بين كبار رجال الخزانة السلطانية المركزية فى إستانبول ، ويرد ذكره فى الأوراق الرسمية بالقب « دفتدار أفندى » أو « دفتدار خزينة عامرة » . ولما تركزت السلطة فى يد الأمراء المماليك احتكروا هذا المنصب لأنفسهم منذ أواخر القرن السابع عشر أو أوائل القرن الثامن عشر .

انظر : دكتورة لى عبد العظيم أحمد : الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى . رسالة دكتوراه فى التاريخ الحديث من كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، سنة ١٩٧٥ — رسالة دكتوراه لم تطبع بعد — ص ٢٨٤ .

(٣) انظر كلام : يعقوب أرتين : الأحكام المرعية بشأن الأراضى للمصرية . لم يرب سميد حمون ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ ( ١٨٨٨ م ) ، ص ٤٥ محمد البجيرى وعبد الله غنام : شرح القوانين واللوائح الزراعية ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ٢٨٥ .

يظلم أحداً منهم»<sup>(١)</sup>. وكان الملتزم يسلم في ذات الوقت مستنداً يطلق عليه تسمية أو فاميك . ويرد هذا المصطلح في المراجع الفرنسية Vahmik<sup>(٢)</sup> . ويكتب هذا المستند على ورقنة لا يعدو حجمها راحة اليد . وهذا المستند بمثابة أمر موجه من الحكومة إلى فلاحى منطقة الإلتزام تبلغهم بأنهم أصبحوا منذ ذلك الوقت فمساعداً في حوزة الملتزم ، فعليهم أن يلتزموا بطاعته<sup>(٣)</sup> .

وفي ذات الوقت كانت تصدر عن ديوان الروزنامة « تذكار ديوانية » إلى سكان كل قرية يحدد فيها اسم الملتزم ومقدار المال الميرى الربوط على أراضي القرية وغير ذلك من التزامات مالية ، وذلك من قبيل الرعاية لمصالح الفلاحين فلا يطالبهم الملتزم بأكثر مما هو مقرر عليهم .

#### فئات الملتزمين :

إذا أخذنا مصر كمثال لولاية عثمانية طبقت فيها الدولة نظام الإلتزام نجد أن الملتزمين كانوا أخلاقاً شتى من المجتمعات التي وجدت في مصر إبان الحكم العثماني . كان من بينهم عسكريون ومدنيون وسيدات . فن العسكريين رجال الأوجاقات أى فرق الحامية العثمانية ، والضباط العثمانيون المتقاعدون ، وهؤلاء كانوا يعضون شهور السنة في التفتل بين القاهرة وإستانبول<sup>(٤)</sup> . وكان من بين الملتزمين العسكريين أيضاً أصحاب العسقيات كأمرأه المالك ومن ينتمون إليهم مثل الجلبيه ، وم المالك الذين لم يولدوا في مصر ، بل جلبوا من خارجها ، ويسمون أيضاً الأجلاب . أما الملتزمون المدنيون فكان من بينهم الأشراف وكبار علماء الأزهر ، وفيهم شيخ الأزهر ، وأرباب السجاجيد وهم طائفة تجمع أفرادها بالإحترام العميق من

(١) إبراهيم المولى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٧

(٢) Arminjon Pierre; op. cit., p. 679.

(٣) دكتور أمين مصطفى عفيفي عبدة : تاريخ مصر الاقتصادية واللى في العصر الحديث .

الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٤ ؛ ص ٣٨١ .

(٤) Shaw Stanford J.; Landholding etc.; op. cit., p. 96



المصريين تكريماً لأجدادهم الأولين من كبار الصحابة <sup>(١)</sup>. وكان من بين المترجمين المدنيين أيضاً التجار ومشايخ العرب مثل الهوارة وغيرهم ، ثم دخلت النساء ميدان الالتزام في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وطرأت على الريف المصري هذه الظاهرة الاجتماعية الجديدة ، وهي وجود سيدات ملتزمات إلى جانب المترجمين ، وازدادت هذه الظاهرة وضوحاً وبروزاً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر <sup>(٢)</sup>. وكان يطلق على السيدات الملتزمات مصطلح تركي عربي هو

(١) كان أرباب الساجيد يتقدمون إلى عدة أسر ، هي أسرة الشيخ البكري وأهل من أصلا ، إلى بكر الصديقي ، وأسرة الشيخ السادات وتنتمي إلى أسرة علي بن أبي طالب ، وأسرة الشيخ العناني وتشمل أفرادها من عمر بن الخطاب ، وأسرة الشيخ الحضري ، وترجع أصولها الأولى إلى الزبير بن العوام .

ولما فتح السلطان سليم الأول مصر اهتم بأمر أرباب الساجيد اهتماماً كبيراً جداً ، ورغب لهم موارد رزق سخية ودائمة ، وأعطاهم بلاداً ومكنهم فيها . وكانوا أعضاء في ديوان القاهرة . وكان الباشا العثماني في مصر وكبار موظفي الحكومة يرجعون إلى أرباب الساجيد — وكان معظمهم يجمع إلى شرف المهتد فرارة العلم — فيرجعون إليهم عندما تستغلق عليهم دقائق السائل الهامه ، ويستشهدون بأرائهم . وكانوا يلقون « القادم » أي الهدايا من الباشا العثماني عند تعيينه في منصبه وقدموه إلى مقر منصبه . وكانوا يسعدون إليه في القلعة في أول كل شهر عربي تهنته بمحاول الشهر . وكان يقدم لهم في حق المناسبات على مدار السنة قراوى سمور ، وهو الرداء الرسمي لشاغلي المناصب الكبرى والشخصيات الكبيرة .

(٢) يقرر الأستاذ محمد شفيق غربال في تعليقه على لجاجة حسين أفندي — وهو أحد أفندية ديوان الروزامة التي قال إن الالتزام أصبح « لاجريعات » — أنه يجهز أن هذا الأفندي لم يقصد إطلاقاً أن يقول إن المترجمين في عهده كانوا جميعاً من النساء . . . ولكن الأستاذ غربال يقول في ذات التعليق إنه من الصعوبة تفسير « ماذا يريد أنت يقول » حسين أفندي .

وعند يكون أحد الأبواب الذي حدثت منه السيدات ميدان الالتزام هو حق التوريث الذي تقرر للمترجمين في القرن الثامن عشر أو أواخر القرن السابع عشر على حصص إتراساتهم قد أباح عديد القرمس أمام الزوجات ، فورث من أزواجهن تصيبهن القرمس في حصص الالتزام بعد أن أتمس الإجراءات التي كان يتطلبا القانون من حيث تقديم الطلب ودفع الخواص ، وهو الرسم المقرر ، كما سنرى بعد قليل .

انظر : حسين أفندي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦ .

خواتين ، والخواتين جمع تكسیر عربی لكلمة خاتون التركية ومنها سيدة<sup>(١)</sup> . وكانت السيدة المتزمنة تطبق عليها ذات الإجراءات التي يخضع لها الرجال المتزمنون فكانت السيدة تدخل مزاد الإلتزام ، فإذا رسا عليها المزداد كان اسمها يدرج في دفاتر الروزنامة . وتمين المعاونين لها في منطقة الإلتزام ، وتزور المنطقة من حين لآخر لتطمئن على صبر الأمور وكانت تهدد هذا ، وتهدد ذلك ، وتشهد ضرب الفلاحين الماطلين . وكان المشد<sup>(٢)</sup> يستجيبهم من شوارعهم . وتسلم الأموال فتأخذ نصيبها وتسدد لديوان الروزنامة الضرائب المقررة وتستلم المحالصات واستمر العصر النسائي في نظام الإلتزام حتى أوائل القرن التاسع عشر حين أننى محمد على نظام الإلتزام كلية في سنة ١٨١٤ بعد أن قرر تقديم تموينيات هزيلة مالية أو عينية للمتزمنين والمتززمات<sup>(٣)</sup> . ويشير المؤرخ الجبرتي إلى نشاط السيدات المتززمات في مقاومة محمد على حين قرر إلغاء نظام الإلتزام وقيامهن بمظاهرة إلى الجامع الأزهر حيث طالبن من علائه تعطيل الدراسة في الأزهر والوقوف بجانبهن في وجه هذا الوالى<sup>(٤)</sup> .

(١) إبراهيم اللويحي ، مرجع ذكره ، ص ٢٠٢ .

(٢) المشد هو الشخص المكلف بصط وإحضار الملاح الماطل وصره ، ويستمرس له بعد قليل عند الكلام على معاونى المتزمن في أراضى الإلتزام .

(٣) لم يبلغ محمد على نظام الإلتزام في جباية الأموال الأميرية دمة واحدة ، بل من الإلغاء بعدة مراحل بدأت في سنة ١٨٠٩ وانتهت في سنة ١٨١٤ . وفي تلك السنة ترك لمرق من المتزمنين أراضى الوسية بصفة ملك منقعة يستغلونها على مدى حياتهم دون أن يدفعوا عنها ضرائب ، ثم ترد إلى بيت المال عقب وفاتهم . وقرر لمرق آخر من المتزمنين مماشيات سنوية نقدية تعادل دخلهم من نظام الإلتزام بناء على تقديرهم . وكانت هذه التقديرات أقل بكثير من « الدائس » ، وهو دخلهم الذى كانوا يحصلون عليه ، لانهم لم يسكروا بملكون وقت تقديمها للفرس الذى طالبت من أجله هذه التقديرات .

الطريق

دكتور محمد موسى لميطة : تاريخ مصر الاقتصادية في النصور الحديثة . القاهرة ، ١٩٤٤ ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، ص ١١٣ - ١١٥ .

(٤) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ص ٢٠٤ حوادث اليوم الخامس من شهر ربيع أول سنة ١٢٢٩ الموافق اليوم السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٨١٤ .

## أرباح الملتزم :

كان الملتزم يحق في ظل نظام الإلتزام أرباحاً مادية وعيالية تنوعت أشكالها وطبيعتها . فهو أولاً يحصل على « الفائض » وهو الفرق بين ما يدفعه أو يتعهد بدفعه للحكومة<sup>(١)</sup> وبين حصيلته ما يجنيه فعلاً من ملاحى القرية أو القرى الواقعة في دائرة الإلتزام . فضلاً عن هذا « الفائض » كان الملتزم يحتفظ لنفسه بجزء من الأرض يسمى أرض « الوسية »<sup>(٢)</sup> وكانت هذه الأرض تعادل من حيث مساحتها عشر مساحة الأراضى التى فى أيدي الملاحين والواقعة فى منطقة الإلتزام<sup>(٣)</sup> . وكانت أرض الوسية أيضاً معفاة من الضرائب . وهذا الإعفاء الضريبي المقرر لأرض الوسية كان إمتيازاً فى ذاته ، وأضيف إليه إمتياز آخر ، هو تسكين الفلاحين بزراعة هذه الأرض بالمجان وفقاً لنظام السخرة . وعلى الرغم من هذين الإمتيازين كان بعض الملتزمين يفضلون تأجير أرض الوسية للفلاحين . وقد وجد هذا الفريق من الملتزمين أن تأجير هذه الأرض يحقق لهم كسباً مالياً يفوق السكسب الذى يعود عليهم من زراعتها لحسابهم الخاص<sup>(٤)</sup> .

(١) كان الملتزم يتعهد بدفع المال الثابت السنوى على ثلاثة أقساط تسمى :

أ - مال شتوى يطلق عليه ثلث أول

ب - مال شتوى مدفوف إلى رمن صيفى ، ويطلق عليه ثلث ثان .

ج - مال صيفى ، ويطلق عليه ثلث ثالث .

المصدر : إبراهيم المولى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٦ .

(٢) ترد هذه اللفظة فى بعض المصادر والمراجع مكتوبة « الأوسية » وقد أكثرنا

استخدام اللفظة الأولى لسهولة وشيوع استخدامها .

Gibb Hamilton and Harold Bowen; op cit , vol, 1, (٣)  
Part 1, p. 261.

Il leur (moultezims) était d'autre part alloué des terres (٤) comprises dans les limites de leur *iltizam*, partie pour leur usage personnel, partie en vue de subvenir aux charges de leurs concessions, telles que les frais d'hôtellerie, l'entretien des mosquées et celui des écoles. Ces terres étaient dites *oussieh*. Les fellahs devaient les cultiver par voie de corvées au profit du moultezim qui trouvait parfois plus reumérateur de les leur affermer.

voir

Arminjon Pierre; op. cit , p. 679

### معاونو الملتزم في أرض الإلتزام :

كان الملتزم يفضل الإقامة في القاهرة ، ولذلك كان لا يذهب إلى منطقة الإلتزام إلا مرات معدودة وعلى فترات متباعدة على مدار السنة ولا يقيم في كل مرة أكثر من أيام قليلة . وكان يستهدف من الزيارة تحقيق مصلحته الشخصية ، فيشرف بنفسه على بيع محصول الوسيية . ولذلك كان الملتزم في حاجة إلى أعوان يقيمون ويعملون بصنفة مستديمة في دائرة الإلتزام . وكان من بين أعوان الملتزم :

#### شيخ البلد :

كان بمثابة وسيط — أو ضابط اتصال بالتعبير الحديث — بين الملتزم وأهل القرية ، يبلغهم أوامر الملتزم ويعرض عليه طلباتهم . وكان يقوم بالإشراف على الأراضي ويراقب تصرفات الأهالي وأبجاعاتهم وتحركاتهم إذا فكروا في ترك الأرض التي يعملون في فلاحتها أو فكروا في الهجرة كاية من القرية . وكانت الحكومة حريصة الحرص كله على منع هروبهم أو هجرتهم حتى لا تترك الأراضي الزراعية دون استغلال . وقد تضمن قانون نامه سليمان النص الآتي : « حين يبقى الحقل دون زراعة نتيجة خطأ الزراع ، فعليهم ( أى على الكشاف والمتشين ومن إليهم ) ألا يدخروا جهداً في ضبط وإحضار هؤلاء الزراع . وبعد أن تتم إعادة كل فلاح إلى قريته ، وبعد توقيع العقوبة عليه ، يقوم الكاشف أو المفتش بإجباره على بذر البذور في حقله »<sup>(١)</sup> . وكان على شيخ البلد في ضوء هذا النص وغيره من النصوص<sup>(٢)</sup> إبلاغ الملتزم اسماء الفلاحين المعصاة أو المشاغبيين .

---

Gibb Hamilton and Harlod Bowen; op. cit., vol. 1, (١)  
Part 1, p. 260.

(٢) « يجر الفلاحون القري فادروا قرايم بعد تاريخ الجمع ( المثنى ) على المودة إليها  
مها انتحلوا من أعتار » .  
المرجم السابق ، نفس الصفحة ، حاشية رقم ٦

وكان شيخ البلد يعين من أهل البلدة، ويختار من بين العائلات العريقة الثرية . وكان يعتبر رئيس الموظفين المحليين في القرية ، ويحل محل الملتزم في أثناء غيابه ، ولذلك كان يطلق عليه لقب « قاعقام » (١) . وكان يوفر الأمن للفلاحين الذين يزرعون الأرض في منطقة الإلتزام . ويرتب قوة يطلق على أفرادها الخفر يعمون السرقا ، ويقومون بتلقيه الأهالي عند اقتراب غارات العربان من القرية .

ولم يكن شيخ البلد يمارس سلطته على المزارعين فحسب ، بل على جميع سكان القرية . وكان يتميز بالغلظة والحشونة والفظاظة . ولكن كان الفضل يعود إليه في حفظ تماسك القرية ، ولذلك كان يوصف بأنه حجر الزاوية في مجتمع القرية ، وأصبحت كل قرية وحدة مكتفية بذاتها self contained unit تحكمها التقاليد والمادات والعرف ولا تتأثر بالأحداث الخارجية . وكادت علاقاتها بالحكومة تكاد تكون مقصورة على شيخ البلد والملتزم . وتؤدي الضرائب نقداً وحباً وعملاً . وكانت كل قرية تضم بجانب المزارعين وأعوان الملتزم إمام للسجدة ، والفجار ، والحداد ، والحلاق ، وكانوا يقنولون مرتبات عينية موسمية ، ويلتزمون بأداء الخدمات لسكان القرية .

وكان شيخ البلد يتمتع بعدة إمتيازات مادية : كانت له قطعة أرض معفاة من الضرائب تسمى « طين مسموح بالمال الحر من غير مصروف » (٢) ، وكان يطلق على هذه الأرض أيضاً « مسموح المشايخ » ، كما كان له خصصات مالية كان يدون مقدارها في كشوف المصروفات في نظير الخدمات التي يؤديها ، وفي مقابل استضافته أو استقبال الضيوف الذين يقدون إلى القرية — وم في المادة رجال

(١) قاعقام لقب اسطلاحى سلقى و. المادة على كل من يقوم مقام أحد في أثناء غيابه مثل قاعقام الصدر الأعظم أى الوزير الذى يحل محل الصدر الأعظم فى أثناء غياب الأخير في الحرب ، وقاعقام الباشا أى الشخص الذى يمارس اختصاصات الباشا العثمانى في مصر عندما يكون منصب الباشا شاغراً أو في أثناء الفترة التى تنقضى بين سفر الباشا المقلوب من مصر وحضور الباشا الجديد ، وقاعقام الملتزم أى وكيل الملتزم .  
(٢) حسين أفندي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠ .

الحكومة — وأخيراً يتعين على الملتزم أن يقدم إلى شيخ البلد ملابس تسمى الكساوى. وفي مقابل هذه الملابس كان على شيخ البلد أن يقدم للملتزم التقادم<sup>(١)</sup> على فترات متباعدة كل سنتين أو ثلاث سنوات . وكان من حق الملتزم أن يمين أكثر من شيخ بلد إذا كانت مساحة الأرض التابعة له كبيرة . وكان كل شيخ يختص بقرية أو عدة قرى من أرض الإلتزام . وكان أكبر المشايخ سناً يسمى « شيخ المشايخ »<sup>(٢)</sup> . وبعضى الزمن استعمل نفوذ مشايخ البلد ، فندوا في القرن الثامن عشر هم الحكام الحقيقيين والفعليين في الريف المصري بدلا من المواطنين العثمانيين<sup>(٣)</sup> .

### المباشر :

كان بمثابة وكيل القائم مقام ويباشر اختصاصاته وصلاحياته حين يسافر القائم مقام إلى القاهرة لمقابلة الملتزم . وكان من اختصاصه قيد كل ما يقدمه فلاحو الإلتزام بالتفصيل في سجل خاص به

### المشد :

ينفذ أوامر شيخ البلد أو شيخ المشايخ فيقوم بضبط وإحضار الفلاحين المتأخرين في سداد الضرائب المستحقة عليهم . وينفذ العقوبات التي يأمر الملتزم بتوقيفها على

---

(١) مقدمة جمها تقادم . والتقادم مصطلح قانونى ومصطلح تاريخى . والمصطلح القانونى نوعان: التقادم الماسقط والتقادم المكسب، وهو خارج عن موضوع هذه الدراسة . أما المصطلح التاريخى فمنه الهدايا التي تقدم في المناسبات السارة ، وهي عادة درج عليها المهتم في مصر في أثناء الحكم العثمانى بوجه خاص . ويكثر الحرثى من ترددها عند قدوم الباشا الثمانى إلى مصر ليتفقد مهام منصبه ، أو عودة أحد كبار الحجاج من الحجارة ، أو زواج ابنة شخصية كبيرة ، أو إجراء عملية خنث لإبن أحد كبار رجال المهتم في مصر ، أو عند زواجه .

(٢) دكتور محمد نهمى لمحة . مرجع سبق ذكره ، ص ١٨ .

(٣) Shaw Stanford J., The Financial etc., op. cit., pp. 22-25.

الفلاحين إذا توقفوا عن دفع الضرائب أو امتنعوا عن أداء الأعمال التي يطلب المتعزم أو شيخ البلد منهم أداءها في أرض الوصية بالجنان ، أو إذا أظهروا تراخياً في أدائها . وكان الجلد هو العقوبة الشائعة التي يتعرض لها الفلاحون . وكان المشد يحفظ عن ظهر قلب أسماء جميع فلاحى منطقة الإلتزام . وكان يقاضى أجره من المتعزم .

#### الشاهد :

يحتفظ بسجلات الأراضي ويدون فيها كافة البيانات التفصيلية عن مساحتها من حيث عدد الأندنة ، والأحواض ، وأسماء الفلاحين المستثمرين لها ، ومقدار الضرائب المقررة عليها . وكان الشاهد يختار من بين أهل البلدة ، ويعتمد في دخله على مصدرين : مخصصات يطلق عليها « عوائد من داخل الخرجات »<sup>(١)</sup> ، وعوائد يتعزم الفلاحون بأدائها إليه . وكان يطلق عليه في بعض الأحيان لقب « العادل »<sup>(٢)</sup> ، لإشاعة العلمأئينة في أبواب الفلاحين نظراً لأن اختصاصاته تمس

---

(١) الخرجات هي الأموال التي يجمعها المتعزمون ، ولسكنها لاندخل في حساب أموال السلطان .  
المطر :

حسين أفندي ، « رجم سبق ذكره » ، ص ٢٩ .

Faïève le Comte; Mémoire sur les finances de l'Égypte, (٢)  
depuis sa Conquête par le Sultan Selym 1er, jusqu' à celle du  
Général en chef Bonaparte.

dans:

Description de l'Égypte; ou Recueil des observations et  
des recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'expédition  
de l'armée française. Seconde édition, celle de Panchouche,  
Paris, de 1821 à 1829, 26 vols. de texte in 8 o et le même  
nombre de planches t. XII, pp. 41—248.

Voir particulièrement les deux sujets suivants :

a) de l'administration des villages. pp. ٥٦—68.

b) des perceptions. pp. 68—88.

أوضاع الفلاحين ، إذ كان في مقدوره — إذا لم يكن على مستوى خلق رفيع -  
تقليب مصالح فريق من الفلاحين على حساب مصالح فريق آخر منهم .

### الصراف :

مهمته جباية الضرائب من الفلاحين طبقاً — من الناحية النظرية —  
للتوزيع المدون في سجلات الشاهد . وهو شرط لم يكن يحترم في حالات كثيرة .  
وكان من مهام الصراف تسليم ما يجمعه من ضرائب — نقداً أو عيناً — للمتسلم .  
ومن المعروف أن الضرائب في أى بلد تؤدي نقداً أو عيناً أو عملاً . والمستوى  
الاجتماعى والاقتصادى في البلد هو الذى يحدد نوعية الوسيلة التى تؤدي بها  
الضرائب . وكان لسلك صراف ضامن كفيف في القاهرة يضمه لدى المتسلم . فإذا  
وقع منه أى تصرف غل بالشرف والأمانة فإن الضامن يكون ملزماً بأداء المبالغ  
التي استولى عليها بغير حق أو سند من القانون . والصراف يشبه الشاهد من  
حيث اعتماده في دخله على ذات المصدرين الماليين .

وكان المتسلم يختار الصراف عادة من الأقباط . وقد تأصل هذا التقليد أو العرف  
في الريف المصرى حتى أصبحت الغالبية الساحقة من الصيارفة أقباطاً<sup>(١)</sup> ، وذلك  
لأمانتهم . وحذقهم السائل الحسابية والمالية وعدم تحيزهم<sup>(٢)</sup> . ويؤيد هذا رأى  
أيضاً إستيف Estève مدير خزانة الحملة الفرنسية على مصر ثم مدير الشؤون  
المالية في أواخر عهد الحملة<sup>(٣)</sup> . ويمارسه في هذا الرأى جيرار Girard وهو من

---

1) Gibb Hamilton and Harold Bowen; op cit., vol. 1,  
Part 1, p. 262.

2) Loc. cit., p. 265.

3) Estève Le Comte.,  
dans;

Description de l'Egypte; t. XII, Des perceptions. pp. 68-88.



علماء الحملة ومتخصص في شئون الري ودرس ترع مصر<sup>(١)</sup> . وهذا رحالة فرنسي يسمى فولني Volney يؤيد رأى جيرار ، ويقول إن الصيارفة الأقباط قد استغلوا الأمية التي كانت فاشية بين الملاحين أسوأ استغلال ، إذ كانوا يقتاسون تقديم إيصالات للملاحين عن الضرائب التي دفعوها ، وكان يطلق على هذه الإيصالات « ورقة الفلاق » أي المستند الدال على السداد ، فيضطر الملاحون إلى أداء الضرائب مرتين<sup>(٢)</sup> . ويسمى أحد المصريين الذين عاشوا في العصر العثماني في القرن الحادى عشر الهجرى أى القرن السابع عشر الميلادى صورا قائمة عن خراب ذمة الصيارفة الأقباط وإسرافهم في ظلم الملاحين الذين كانت ترتعد فرائصهم عند ما يتراعى إلى أمباعهم نبأ وصول العراف إلى القرية . وكان الملاحون يطلقون على وصوله « نزلة الصراف » ويتسابقون إلى إكرامه وتقديم الأطعمة الفاخرة له ويقنأفسون في التقرب إليه حتى يكف أذاه عنهم<sup>(٣)</sup> . ومهما يكن من أمر ، فلم يكن هذا الحكم تاماً ، ولم يشمل جميع الصيارفة الأقباط ، بل

1) Girard P.S.; Mémoire sur l'agriculture, l'industrie et le commerce de l'Egypte.

dans

Description de l'Egypte; op. cit., t. XVII, pp. 1—436.

Voir spécialement les trois sections suivantes:

Section IV. De l'état des cultivateurs en Egypte. Quelques notions sur l'administration des villages. pp. 37—48

Section VII De l'aménagement des terres dans les différentes provinces de l'Egypte. pp. 133—148.

Section IX. Du droit de propriété et de la perception de l'impôt. pp. 189 - 197.

(٢) فولني ، مرجع سبق ذكره . ص ١٤٥ .

(٣) يوسف بن عبد بن عبد الجواد بن حضر العريبي : هو الفجوف في شرح قصيد أبي شادوف . القاهرة ، مطبعة بولاق . القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٠٨ هـ ( ١٨٩٠ ) وهو كتاب يصور بالفكاهة الساخرة والسكتة اللاذعة ما كان عليه الشعب وريف مصر زمان الحكم العثماني من فقر وجهل وتامع . وتوجد عدة نسخ من هذا الكتاب مودعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة . وقد رجعنا إلى النسخة المخطوطة بها تحت رقم ٢٧٦٣ ( أدب ) ، ج ١ ، ص ١٨ ، ج ٢ ، ص ١١٦ — ١١٧ .

كان كثير منهم مثلاً طيباً للإخلاص والنزاهة والتفاني في الخدمة . وتبوأ هذا الفريق من الأقباط مراكز اجتماعية مرموقة ، وجمعوا ثروات ضخمة مبيداً عن وسائل الكسب غير المشروع ، وتمتعوا بنفوذ كبير وبخاصة الذين عملوا مع كبار الملتزمين من الأمراء البكوات المحليك .

### المساح :

كان يقوم بمسح أرض الالتزام ، وتقدير المساحات البور فيها والمساحات الزراعية <sup>(١)</sup> .

### معاونو الملتزم في أرض الوسية :

لما كان من بين امتيازات الملتزم الانتفاع بأرض الوسية والتي تشكل - كما سبق أن ذكرنا - عشر مساحة دائرة الالتزام ، كان يعين لها معاونين للإشراف على زراعتها . وكانوا جميعاً يأخذون أجورهم منه . ومن هؤلاء :

الوكيل : يقوم بحفظ النخل وغيرها من المحاصيل التي تنتجها أرض الوسية ، ويحفظ بأدوات الزراعة مثل النوارج والمحاريث والمؤوس وغيرها من الأدوات التي تتعلق بأرض الوسية .

الخلوى : يختص بقياس الأرض الزراعية بعد ربيها وقبل الشروع في زراعتها ، ويفصل في المازعات التي قد تثار في هذا الشأن ، ويجمع الفلاحين الذين يسخرون في زراعة أرض الوسية .

السكراف : يعنى بالماشية على اختلاف أنواعها والخاصة بالوسية ويقوم بتطعيمها أي بعلاجها في ضوء مفاهيم الطب الببغارى في تلك الأزمنة القابرة إذا أجز لنا

---

(١) إبراهيم اللولوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٩ .

استخدام هذا المصطلح . كما يقوم بتطبيق ماشية الفلاحين التابعين لدائرة الالتزام خوفاً من انتقال المرض إليها واتخاذ شكل وباء .

السقا : عملاً أزيار الوسية بماء الشرب (١) .

### وضع الملتزم :

وقد أصبح الملتزم بفضل هذا العدد من الموظفين ، والإختصاصات الواسعة التي خولها له القانون والعرف ، يمارس سلطات واسعة على الفلاحين في القرية أو مجموعة القرى التي تقع في دائرة الالتزام . وحلَّ الملتزم محل السلطات العثمانية في مباشرة اختصاصات الحكومة . وأصبح من حيث الواقع الفعلي هو الشخصية الأولى في

---

(١) لم تكن المصطلحات التي ذكرناها خاصة بمعاوني الملتزم سواء في أراضي الالتزام أو أرض الوسية هي المصطلحات الوحيدة المتصلة بنظام التزام الأراضي . فقد كانت هناك مصطلحات أخرى لذكر منها على سبيل المثال « التذكرة جي » وهو الذي يجرر نقاسيط الالتزام ، و « التاريخي » وهو الذي يضع تاريخ كل مستند رسمي ، و « أمين الصندوق » وهو أمين محفوظات الروزنامة ، و « كافت أمين » وهو أمين الأوراق الرسمية ، و « المهر دار » وهو حامل أختام الروزنامة .

وقد يظن البعض أن المصريين في العصر العثماني قد امتلأت أذهانهم بمثل هذه المصطلحات الفنية والإدارية تنطلق بها ألسنتهم ، وأن هذه الظاهرة قد تسلمت إلى أعماق الريف المصري بوجه خاص مع نظام الالتزام . والحقي أن ظاهرة المصطلحات الجديدة لم تكن الأولى من نوعها في مصر إبان الحكم العثماني . فقد شهد - على سبيل المثال - حكم الدولة الأيوبية ودولتي المماليك البحرية والفرساكية - وهي الدول ذات الإقطاع العسكري - أمثال هذه المصطلحات التركية وغيرها فندم مع سلاطين هذه الدول وعلى سبيل المثال عرف المجتمع في مصر سواء في الريف أو الحضر في العصر الأيوبي مجموعة من المصطلحات كان بعضها غير مألوف تنطلق على الجهاز الإقطاعي في الريف المصري وعلى هائل المناسبات في الدواوين الحكومية التي تشرف على الإيرادات والمصروفات ، مثل الناظر ، شاد الدواوين ، المبتوف ، المعين ، الناسخ ، العامل ، الكاتب ، الجيهن ، الأمين ، الماسح ، العليل ، الحايض ، الخازن ، الهاشر ، للهارف ، الخائب إلى غير ذلك من مصطلحات .

القرية والشخصية الثانية في الكاشفية<sup>(١)</sup> . وظهر الملتزم في غضون القرن الثامن عشر كأنه المالك الحقيقي للأرض التي يمارس فيها حق الإلتزام . وغدا بأجهزته الإدارية والمالية والفنية عبارة عن حكومة داخل الحكومة *Imperium in Imperio*

(١) الكاشفية وجمعها كاشفيات هي وحدة إدارية صغيرة في مصر في أثناء الحكم العثماني وتقابل في الوقت الحاضر (١٩٧٦) «مركز» وجمعها «مراكز» في التقسيم الإداري للمحافظات . وقد اشتق منها لفظ كاشف وهو الذي يحكم الكاشفية ، أي كان بمثابة مأمور مركز . كما كان الكاشف يتوب عن الصنق الذي كان يحكمه الصنقية ، وهي إحدى الأقاليم الإدارية الكبرى في مصر وتقابل إحدى محافظات مصر بالتبعية الحديث . فكان الكاشف يعمل محل الصنق في أثناء تغييب الأخير عن مقر منصبه وتغيبه قضاء معظم شهور السنة في القاهرة . وكان هناك نوع ثان من الموظفين يعمل كل منهم لقب كاشف . وكان هؤلاء الكشاف هم وكلاء الباشا العثماني الذين يهرعون على قرى الكاشفيات التي كان دخلها مخصصاً للباشا في أقاليم معينة في مصر .

وبما هو جدير بالذكر أن كثرة من المراجع العربية والعراقية تذكر كلمة «كشوفية» *kouchoufsh* بدلا من كاشفية وجمعها كشوفيات بدلا من كاشفيات . وقد رأينا — أحذأ بالأحوط — أن نستخدم لفظ كاشفية وجمعها كاشفيات طالما أن معاليج الكاشفية مأخوذ منه ومنسوب إلى كلمة كاشف .

وكان الكشاف من العسكريين من ذوى الرتب الكبيرة ، وينتمون إلى إحدى فرق الحامية العثمانية السبع . وكان من عاداتهم في أثناء جولاتهم في مناطق عملهم أن يركب الواحد منهم حواده ، وحوله جنوده يقرعون الطبول اسفر الزعجة والزعج في لوب الملاحين ، فيسارعون إلى تقديم الهدايا إليه على الرغم من أن الأوامر كانت تصدر مشددة إلى الكشاف بضرورة رعاية الملاحين والمحافظة على أرواحهم وأموالهم . وبمضى الزمن تأصلت عادة في الريف المصري ، وهي أنه أصبح من حق الكاشف أن يأخذ من كل قرية كبيرة يمر بها الهدايا الآتية أو التقادم بلفظ ذلك الحصر :

عدد

- ٣ رهوس من المنم
- ٣ أرادب من الشمع
- ١ كيلة من السكك
- ١ كيلة من البرغل
- ٥ أرطال من السم
- ٥ دجاجات

==

## وضع الفلاح في ظل نظام الإلتزام :

وبمقتضى نظام الإلتزام كان الملتزم يوزع الأرض على الفلاحين ، كل على حسب قدرته على الزراعة . وكانت تقسم الأرض من حيث الجودة إلى ثلاثة أنواع : عال ، وسط ، دون . وكان على الفلاحين أن يؤدوا للملتزم القيمة الإيجارية التى يتفق عليها معهم . وقد آتونا استخدام عبارة « القيمة الإيجارية » لأنها كانت تصور الأمر الواقع بين الملتزم والفلاحين . وكانت القيمة الإيجارية أعلى بكثير من المال الذى يقرر على الأرض . والفلاح في ظل نظام الإلتزام كان لا يملك الأرض التى يزرعها بل يحوزها . وتبرعاً من هذه القاعدة كان الفلاح لا يملك حق بيع الأرض أو رهنها أو غير ذلك من أشكال التصرفات . فجميع أراضي مصر كانت تعتبر ملكاً للسلطان بحق الفتح طبقاً لمبادئ الشريعة الإسلامية . وكانت تدعى على أنه إذا فتحت بلد عنوة فإنها تكون ملكاً للفاتح . أما إذا فتحت صلحاً فتكون فيثاً للمسلمين ، أى يتفق الفاتحون مع أهل البلاد المفتوحة على مقدار الجزية

== ومن كل قرية صغيرة كان السكاهب يأخذ في صورة همام :

١ رأس من الفهم

٢ أردب من الشعير

٣ أرتال من السمن

١ كيلة كدك

١ كيلة برغل

وكانت تكاليف هذه الهدايا أو التناقص توزع على سكان القرية .

ابراهيم اللولوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤

وكان يستخدم فى العصر الثمالى مصطلحان آخران يلتبس فيهما الأمر على بعض الباحثين ، وهما مال السكاهبية ، وميرى مال السكاهبية . أما مال السكاهبية فعبارة عن نفقات الإدارة المحلية فى الأقاليم مثل مرتب الكاشف وترميم الجسور وتطهير الترع ومرتبات السكر المحليين . وكان أهالى القرى يدفعون هذه الرسوم للكاشف أما ميرى مال السكاهبية فهو ما يدفعه كل كاشف للحكومة .

والخراج الذى يدفع للفاتحين دون أن يمسوا الأرض أو يأخذوها منهم عنوة وقهر<sup>(١)</sup>.

### أرض الأئمة

وكان لبعض فلاحى الالتزام مساحات زراعية صغيرة يطلق عليها المصطلح التاديني «أرض الأثر» يقومون بزراعتها والحصول على محصولها، وفي بعض الحالات يحصون على جزء من هذا المحصول. ولكنهم لا يستطيعون التصرف فيها بالبيع أو الهبة أو التنازل أو الإيجار، ولا تورث لأبنائهم من حيث هي أرض، وإنما يتوارثون حق زراعتها والتصرف في المحاصيل التى تفلحها. وكان الفلاح يستمر في التمتع بحق الانتفاع بهذه الأرض طالما كان مواظباً على أداء التزاماته المالية نحو الملتزم، وطالما كان مستمراً في زراعتها. وكان الملتزم لا يستطيع طرده من أرضه، إلا إذا توقف عن دفع اللطونات المقررة عليه أو ثبت عجزه عن فلاحه الأرض<sup>(٢)</sup>.

والأصل في أرض الأئمة أنها كانت ملكاً لعائلات عاشت عليها وانصرفت إلى زراعتها أحقاباً وأجيالاً، ولكن لما تمت عملية مسح الأراضي الزراعية في مصر في أول الحكم العثماني لم تستطع هذه العائلات إثبات ملكيتها للأرض بأى مستند قانوني لطول العهد، ولكنها أثبتت ملكيتها بشهادة الشهود. ورات السلطات العثمانية ترك هذه العائلات تلتصق بتلك الأرض باعتبارها أثراً للملكية غير ثابتة بحجة شرعية. ويعلق أحد الباحثين المتخصصين في تاريخ مصر إبان الحكم العثماني بأن هذا التصرف من جانب السلطات العثمانية كان تصرفاً إنسانياً « ويمكن إضافته أيضاً إلى حساسات النظام العثماني في مصر قبل تشويهه، إذ كان في مقدور الحاكم العثماني نزع ملكية مثل هذه الأراضي. ومن حساساته أيضاً أنه منع الملتزم من طرد الفلاحين من أرضهم إن عجزوا عن دفع المال اليرى المربوط عليهم. ولكن الملتزم تجاهل هذا اللص أيضاً وراح يعاقب الفلاح الماثل بطرده من أرضه

(١) دكتوروة سيدة اسماعيل كاشف: مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية. القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٠. الناشر دار النهضة العربية، ص ٣٩.  
(٢) Shaw Stanford J., The Financial etc., op. cit., pp. 20-21.

عقاباً له « (١) وقد تدخلت السلطات العثمانية في مصر لوقف هذا التصرف الجائر الذي كان يصدر عن الملتزم. وأصدر الوالي العثماني مسيح باشا فرماناً في سنة ٩٨٥ هـ (١٥٧٨ م) يمنع الملتزم من طرد الفلاح من أرض الأثر إذا عجز عن الوفاء بالتزاماته المالية بسبب عدم استطاعته زراعة أثره، كما نص هذا فرمان على إرغام كل من الملتزم والكاشف على مساعدة الفلاح بعهه بالبذور اللازمة، على أن يقيد ثمن هذه البذور في سجلات الشاهد لتحصيلها من الفلاح بعد بيع محصوله (٢).

واكتسب الفلاح في القرن الثامن عشر حقاً جديداً - بعد الحق الذي كان قد تقرر له في القرن السابق بتوريث الفلاح حق الانتفاع بأرض الأثر بالشروط المعروفة - وبمقتضى الحق الجديد أصبح للفلاح الحق في أن يؤجر لمدة سنة أو أكثر من سنة أرض الأثر لأي شخص آخر يتفق معه لقاء ثمن معين في مقابل هذا الإيجار أو يرهن جزءاً من أرض الأثر رهناً كان يطلق عليه « الفاروقة » (٣). أما إذا مات الفلاح دون عقب أو كان ورثته ضعفاء لا يستطيع أحد منهم فلاحه الأرض أو الوفاء بالتزامات المفروضة عليها، فإن الأرض ترجع إلى الملتزم الذي يعطيها إلى مزارع آخر طبقاً لقانون « بيت المال » الذي يجعل زراعتها أمراً ضرورياً حتى لا يحرم من مالها الذي يفتق منه على صيانة البلاد (٤).

وقد أطلقت على الأرض التي يعطى للفلاح حق حيازتها والانتفاع بها في الوجه البحري عدة أسماء، مثل: أرض الأثر، أثر الفلاح، الأرض المؤثرة في

(١) إبراهيم الميمني، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) « الفاروقة » عقد يتسلم بمقتضاه الدائن أرض الفلاح المدين ويستقلها الدائن وينتفع بمحصولها نظير فائدة دينه حتى يسدد المدين هذا الدين.

(٤) دكتور أمين مصطفى عيسى عبد الله، مرجع سبق ذكره، ص ١٢١.

الفلاحين ، الأطنان الأثرية . وقد استهددت هذه التسميات التمييز بين أرض الفلاحين وهي الأثر ، وأرض الملتزمين وهي الوسية (١).

### أرض المساحة :

وقد لقي الفلاح في السميد الكثير من العنف والتعنت معاً بسبب الحالة المظفيرة لفيضان النيل كل سنة . إذ كان مقرراً من الناحية النظرية أن الأرض التي تصلها مياه الفيضان هي وحدها التي يدفع الفلاح عنها الضرائب . فإذا جاء الفيضان في إحدى السنوات شحيحاً وتمرضت الأرض الزراعية للشرق ، أو جاء الفيضان عالياً هادراً وتمرضت الأرض للفرق ، كانت هذه الأراضي وتلك تحدد مساحتها بإجراء قياس لها ، وتخصص نسبتها من المجموع السكلي للضرائب المربوطة على القرية ما عدا ضريبة الميرى التي تبقى دون أى تخفيض . ولذلك كان يطلق على الأرض التي يزرعها الفلاح في الوجه القبلي مصطلح آخر هو « أرض المساحة » . أما من الناحية العملية فإن هذه الرحمة بالفلاحين كانت رحمة ظاهرية ، لأنه إذا جاءت السنة التالية رعيمة بالنسبة للفيضان ، فإن التخفيض الضريبي عن السنة السابقة كان يضاف إلى ضرائب السنة الجديدة (٢) .

---

(١) حسين أفندي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥١ - ٥٢ ، حاشية رقم ١ ، وانظر إجابات حسين أفندي عن التطورات القانونية التي مرت بها أرض الأثر . الباب الحادي عشر ، الأسئلة والأجوبة ص رقم ٢ حق رقم ٥

واصر أيضاً :

دكتورة ليلى عبد العاطف أحد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩١ - ٣٩٢ حاشية رقم ٣ .

(٢) Laucrat Michel-Ange, Mémoire sur le système d'imposition territoriale et sur l'administration des provinces de l'Egypte dans les dernières années du gouvernement des Mamlouks.

dans

Description de l'Egypte, op. cit., tome XI, pp. 461-571.

Voir spécialement les trois sujets suivants :



### تطور المركز القانوني للملتزم :

وكان الإلتزام يعطى في البداية لمدة سنة واحدة ثم لعدد من السنين ، ثم أصبح يعطى مابقى الملتزم على قيد الحياة ، وتطور الوضع القانوني للملتزم بعد ذلك ، فتقرر أن يكون حق الإلتزام وراثياً في عقبه إذا كان للملتزم المتوفى ورثة قادرون على الوفاء بمسئوليات الإلتزام<sup>(١)</sup> . وكان يطلق على حصص الإلتزام التي يموت ملتزموها « بلاد الأموات » . وكان في استطاعة الورثة نقل هذه الحصص إليهم بشرطين ، أولها أن يتقدم أحدهم بطلب إلى ديوان الروزنامة بطلب صدور « تمكين » له أى تجديد تقسيط الإلتزام أو عقد الإلتزام . أما ثانياً الشرطين لكان يتمثل في دفع مبلغ من المال يسمى « الحلوان » أو « حلوان بلاد الأموات » وهو بمثابة رسم تسجيل . ويحدد مقدار هذا الحلوان بثلاثة أمثال فائض الملتزم أى ثلاثة أضعاف الدخل السنوي للملتزم المتوفى من عملية الإلتزام . أما إذا لم يسكن للملتزم المتوفى ورثة قادرون على زراعة الأرض ، فإن هذه الأرض ، وهى بلاد الأموات بمصطلح ذلك العصر<sup>(٢)</sup> ، تطرح في المزاود وتعطى للملتزم جديد . وتنازع من هذا العرض إلى أن حصص الإلتزام لم تكن تعود للحكومة ولا يسقط حق الملتزم فيها إلا في حالات قليلة ، منها : انقراض ذرية الملتزم أو عدم رغبة أحد من ورثته في الانتفاع بالحصصة أو مصادرة

a) Des différentes manières dont les terres sont possédées; des titres de propriété et des impositions principales. pp. 466—476.

b) De l'administration des terres. pp. 476—487.

c) De quelques usages particuliers à la Haute-Egypte. pp. 487—492.

(١) كان يمنع هذا الحق أيضاً لأماليك الملتزم البيض .

(٢) كان يطلق على مثل هذه الحصص مصطلح آخر هو الحلوان ، أو الحصصة المحلولة .

انظر كلامي :

دكتور أحمد أحمد الحنة . تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي الكبير ، القاهرة ،

التاشر دار المعارف بمصر ، ١٩٥٠ ، ص ص ٣٠ — ٣١

Shaw Stanford J. : Landholding etc, op. cit., p. 96.

الحصة نتيجة وقوع اضطرابات سياسية عنيفة وتغير ميزان القوى في البلاد، فيلجأ الأمراء المنتصرون إلى الانتقام من خصومهم بمصادرة حصص التزامهم .

### مزايا نظام الالتزام :

وارتاحت الحكومة العثمانية إلى نظام الالتزام فيما يختص بجمع الأموال الأميرية ، لأنه يوفر عليها متاعب الاتصال بالفلاحين وغيرهم لجباية الضرائب والرسوم ، وألقت هذا السبء على كاهل الملتزمين . كما أن نظام الالتزام كان يتمشى مع طبيعة الحكم العثماني للولايات التي خضعت لسيادة الدولة ، إذ كان من أهم خصائص الحكم العثماني قلة تدخل السلطات العثمانية في حياة الجماهير ، بحيث كان هذا التدخل في أضيق نطاق ممكن .

وذهب أحد الباحثين الأمريكيين إلى القول بأن نظام الالتزام كان مثالياً بالنسبة لمصر ، إبان الحكم العثماني في ظل الملاهيست التي كانت سائدة قبل القرن الثامن عشر ، وأضاف إلى ذلك قوله إن هذا النظام أتاح لخزانة الحكومة تدفقاً مستمراً من الإيرادات مع أقل قدر ممكن من النفقات أو التكاليف الإدارية ، وأعطى للملتزمين مصلحة دائمة ومستمرة في العمل على الحفاظ على خصوبة الأرض حتى لا يسرفوا في استغلالها أو إنهاك التربة الزراعية والحرص على عدم إخراج المزارعين منها ، كما أن نظام الالتزام أخضع المزارعين لنظام ضريبي منتظم وحال بينهم وبين القمع لإجراءات تصفية<sup>(١)</sup> .

والحق أن هذه المزايا كانت تتحقق للسلطان<sup>(٢)</sup> وللملتزم والفلاح طالما كان

1) Shaw Stanford J ; Landholding etc , op. cit., p. 102

(٢) كان « بدل الالتزام » - وهو المبلغ الذي يدفعه كل ملزم لخزانة الحكومة في مقابل شراء حق الالتزام - يذهب معظمه إلى السلطان كجزء من المال الميري ، وكان توجيه حصة بدل الالتزام إلى خزينة السلطان أمراً ذا مغزى سياسي وقانوني: فهو يؤكد السيادة المستمرة للسلطان على مصر ، ويؤكد ملكية السلطان التامة على الأرض .

انظر :

Shaw Stanford J.; Landholding etc., op. cit., p. 95

الباشا العثماني في مصر ومعاونوه قادرين على تحقيق تفوق نفوذ الدولة السيامي والحربي في البلاد . فنظام الإلتزام كان نظاماً ملائماً للفلاح الصغير بوجه خاص ويوفر له وسائل الزراعة والأمن والاستقرار . وكانت تلاقى مصلحة الفلاح مع مصلحة الملتزم في عدم إرهاب الفلاح في العمل في أرض الوسية طبقاً لنظام السخرة ، وعدم ابتزاز الأموال منه ، أو مصادرة المحاصيل ، وفرض ضرائب جزافية عليه ، وسرقة حالة فيضان النيل كل سنة .

### تدهور نظام الإلتزام :

تدهور نظام الإلتزام من الفاحية التطبيقية في مصر في أثناء القرن الثامن عشر وذلك بحكم اللباسات التي أحاطت بتطبيقه . فقد غدا الأمراء المالكين مراكز القوى السياسية والعسكرية والاقتصادية في مصر وبخاصة في الفترة من ١٧١١ حتى قدوم الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨<sup>(١)</sup> . وتركزت حصص الإلتزام ، في أيديهم وأبدى ممالكهم وزوجاتهم وأولادهم<sup>(٢)</sup> . وكانوا ينتهزون كل فرصة لدعم مركزهم الإلتزامي ، فإذا خلت حصة من حصص الإلتزام ، لسبب أو لآخر ، كانوا يمينون الملتزمين الجدد من بين أتباعهم . وكان ديوان الروزنامة والديوان القفري يرضخان لرغبة الأمير المملوكي ويتفانلان عن إجراء مزاد بين الراغبين في الإلتزام . وفي بعض الأحيان كان الأمراء المالكين — أصحاب السلطة الفعلية في مصر ، ومنهم الدفتردار

---

Holt P.M.; The Pattern of Egyptian Political History (١)  
from 1517 to 1798, pp. 86—90.

وهو أحد بحثين تقدم بهما هولت أستاذ تاريخ العالم العربي وحامدة لندن إلى المؤتمر الدولي الذي عقد في شهر أبريل ١٩٦٥ عن تاريخ مصر الحديثة من الفتح العثماني لمصر سنة ١٥١٧ إلى ما بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والذي سبقته الإشارة إليه . وكان موضوع بحثه الآخر « مصر العثمانية ١٥١٧ — ١٧٩٨ المصادر التاريخية العربية » . وقد نشر هذان البحثان في الكتاب الذي صم بمحوت المؤتمر وسبقت الإشارة إليه . وبعد الاستاذ هولت أحد كبار العلماء المتخصصين في تاريخ مصر إبان الحكم العثماني . وقد وضع عدة محوت تناولت هذا العصر بالدراسة التحليلية الموضوعية .

Shaw Stanford J.; The Financial etc., op. cit., p. 33. (٢)

والروزنامجى — يحاولون إضفاء نوع من الشرعية على هذا التمييز التمسقى ، فأطلقوا على هذا الأسلوب فى تعيين الملتزمين « المصالحة » ويدعون مبدئاً من المال يسمى « بدل المصالحة » وهو يقابل « الحلوان » <sup>(١)</sup> . وفى أحيان أخرى كانت تحدث مزادات سورية ، أى على الورق ، تسفر عن تعيين الأنباع والقرين إلى مراكر القوى ، وفى ذات الوقت كانوا يمنحون الإعفاء من دفع « الحلوان » وفى أحيان ثالثة كان الإلزام يصحول من شخص إلى آخر قسراً على الرغم من أن القانون يمنع هذه القسر منعاً باتاً .

انصكست هذه الأوضاع على حالة الفلاح المصرى ، وعانى الكثير من الاستبداد والجهور ، سواء من الملتزم وأعوانه ، أو من الأمراء المالك وأتباعهم ، إذ كانوا يقومون على قترات متقاربة بجولات فى الريف ينهبون فيها المحاصيل الزراعية والماشية ، كما كانوا يقتحمون بيوت الفلاحين بحثاً عن مدخراتهم ، والويل كل الويل لمن تعلق به مظنة الثراء ، وكان الفلاح يدفع للملتزم أكثر مما هو مقرر عليه رسمياً ، وانتشرت المجاعات والأوبئة مثل الطواعين . وكان أشدها فتكاً طاعون إسماعيل بك ، وتأخرت الزراعة وتناقص تعداد الفلاحين وعمدوا إلى ترك الأراضى ، بل والهجرة كلية من القرية والكاشمية . ويدكر فولى Volney أنه شاهد المصريين فى سوريا سنة ١٧٨٥ أفواجاً وجماعات . وقال إن أزقة صيدا وحيفا وسائر مدن وقرى فلسطين كانت تعج بالمصريين . وقد توغل فريق منهم فى أنجاء الشمال حتى حلب وديار بكر <sup>(٢)</sup> . وقد أقاض الجبرتنى فى وصف حالة الشقاء التى عاش فيها الفلاحون وغيرهم من الطوائف المنتجة .

(١) Shaw Stanford J., Landholding etc., op. cit., p. 100.

(٢) فولى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٧ .

### الجوارك ونظام الإلتزام .

وقد طبقت الدولة العثمانية نظام الإلتزام على الجوارك التي كانت قائمة في جميع موانئ الدولة<sup>(١)</sup>. وكان يطلق على هذه الموانئ كلمة أساكل<sup>(٢)</sup> des échelles

---

1) Combe Etienne; l'Egypte Ottomane de la conquête par Sélim (1517) à l'arrivée de Bonaparte (1798). p. 88

*dans*

Précis de l'Histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues. Tome troisième. Imprimé par l'Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire 1938,

(٢) أساكل ومعدما أسكلة ، انتبست من الكلمة الإيطالية سكالـا Scala

يعنى ميناء أو مقر . وهي تكتب في المصادر والمراجع العربية التاريخية وأشكال شئ :

في صيغة المزد : أسقالة — سقالة — سقالة — أسكلة .

في صيغة الجمع : أسقالات — سقالات — سقالات — أساكيل .

وترد أحياناً في بعض المصادر التاريخية العربية كلمة سكار ، وهي مقبسة من اللغة الإسبانية ، ومعناها ميناء للعابرين أو المارين .

انظر كلاماً من :

Recueil des textes du quatorzième congrès des Orientalistes.  
p. 441

Colin, Notes de dialectologie.

*pans*

Bulletin de l'Institut français, XX, pp. 51, 68, 73, et 202.

Brunot; Notes lexicologiques, sur le vocabulaire maritime de Rabat et Salé, Paris, 1920, p. 61.

Barbier de Meynard, op. cit., vol. 1, p. 55.

Bostjor, op cit, vol. 1, pp. 288 - 289.

Dozy; op. cit., t. 1, p. 23, 660 et 839.

الحقوقي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١١٢ ، ج ٤ ، ص ١٢ .

كما كان يطلق على إيرادات الجمارك « محصول أسكلة » . وكانت تباع رسوم كل جمرک<sup>(١)</sup> إلى الشخص الذى يرسو عليه المزداد مقابل مبلغ من المال يؤديه للحكومة، ويصبح لقبه الملتزم ، ثم يشرف هذا الملتزم على جباية الرسوم الجمركية . وكانت حصيلة الرسوم الجمركية تأتي في المرتبة الثانية بعد ضرائب الأراضي الزراعية بالنسبة لإيرادات الحكومة . وكان الملتزم لا يدير الجمرک ، بل كانت لديه هيئة من الموظفين يرأسهم ، وظف يسمى « كرك أميني » أى أمين جمرک . وكان يطلق عليه أحياناً جمرکی . وكان هذا الجمرکی في المادة رجلاً يهودياً ، وبخاصة في الجمارك التى تقوم في الموانئ الكبرى ذات النشاط التجارى الكثيف . وكان اسم الجمرکی في الولايات العربية يذكر مسبوqاً بسكامة « المعلم » .

وإذا أخذنا معبر مرة أخرى كشال لولاية عثمانية طبقت فيها الدولة نظام الإلتزام على جماركها في سائر الموانئ سواء كانت الموانئ البحرية أو النيلية نجد أنه كان في معبر إبان الحکم العثماني عدة جمارك ، وكان أهمها جمرک الإسكندرية ، وكان يتبعه جمرکان فرعيان في أبى نير ورشيد ، ثم جمرک دمياط ، ثم جمرک البرلس . وكان نشاط هذه الجمارك منصباً على التجارة الخارجية - استيراداً وتصديراً - مع الدول المتوسطية ، أى الدول التى تقع في حوض البحر المتوسط ، والدول التى تقع فيما وراء هذا البحر . وعلى الرغم من أن حركة التجارة الخارجية كانت في نطاق ضيق في معبر على عهد الحکم العثماني ، فقد كانت لها أهميتها في الحياة الاقتصادية في معبر في ذلك العصر . وكان هناك أيضاً جمرک البهار ، وهو يقع على الطريق المحراوى بين القاهرة والحديس ، وكانت تحصل فيه الرسوم الجمركية

(١) يذكر بعض المؤرخين أن كلمة جمرک أصلها تركيه ، وهى كلمة يونانية Koumerké ، ثم انتقلت إلى اللغة اللاتينية كومييركيوم Commerceium ، وحررت في اللغة العربية إلى جمرک ، وهى اللغة التركية إلى كرك .

انظر :

Gibb Hamilton and Harold Bowen; op. cit; vol I Part 2. p.12fa-5

على السلع الواردة من بلاد الحجاز والتي تشحن من ميناء جدة أو ميناء ينبع ، ثم البضائع الواردة من ميناء مخا في اليمن . وكان البن أهم السلع الواردة من اليمن ، ثم تجارة الهند التي كان جزء منها يرد إلى مصر في طريقه إلى أوروبا على الرغم من كشف طريق رأس الرجاء الصالح . وأخيراً كان هناك جمر ك وميناء بولاق النهري يقوم بتحصيل الرسوم الجمركية على البضائع التي تنقلها السفن القليلة من بلاد الوجه البحري . وكان لهذا الجمر ك جمر ك آخر يتبعه ويقع في مصر القديمة - عند ساحل أثر النبي - لاستقبال السفن الثيلية القادمة من أقاليم الوجه القبلي وتدفع فيه الرسوم الجمركية <sup>(١)</sup> .

وكانت حصيلة الرسوم الجمركية التي يتم تحصيلها من كل جمر ك تخصص لجهة مثل مرتب الباشا العثماني ، ضباط الحامية ، أى جيش الاحتلال ، الصرة وهى الأموال التي ترسل إلى الحجاز في كل سنة مع قافلة الحج المصري ، وجزية السلطان . وكان جمر ك البهار التزاماً للباشا العثماني <sup>(٢)</sup> . وكان أوجاق الإنكشارية <sup>(٣)</sup> في مصر يلتزم ببعض الجمارك مثل إسكندرية ودمياط وجمر ك بولاق وجمر ك مصر القديمة ، فيدفع مال الميرى المقرر على الجمر ك ويستولى الأوجاق على الأموال الباقية .

ونظراً للظروف السياسية التي مرت بمصر في العصر العثماني المملوكي لم يطبق نظام الالتزام على الجمارك تطبيقاً سليماً . فقد أسرف الملتزمون وأعوانهم في ابتزاز الأموال من المشتغلين في تجارة الاستيراد والتصدير . وكانت غالبيتهم من الأجانب مثل البنادقة واليوغانيين والفرنسيين وبعض الإنجليز .

Combe Etienne op cit., p. 88.

(١)

(٢) دكتور حسن عثمان : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٠ .

(٣) كان أوجاق الإنكشارية أهم الأوجاقات السبعة التي كانت تتألف منها الحامية العثمانية في مصر . وكان لقائد هذا الأوجاق وهو أغا الإنكشارية - الرئاسة العليا وحفظ النظام في مدينة القاهرة ويتنصب لهذا الأوجاق عدد من أكر أصحاب المناصب في مصر ، منهم وكيل الباشا - الكتبخا - وسردار الحج أى قائد القوة العسكرية التي ترافق قافلة الحج المصري ، وسردار الخزينة وهو قائد القوة المرافقة للخزينة المرسلة إلى السلطان . وكانت تنقل برّاً من القاهرة إلى إستانبول . وكان يطلق على أوجاق الإنكشارية أوجاق السلطان أحياناً ، وأحياناً أخرى أوجاق مستعظان أى رجال الحفظ .

ولما انفرد على بك الكبير بحكم مصر (١٧٦٨ - ١٧٧٣) حاول القضاء على بعض عيوب تطبيق نظام الإلزام على الجمارك<sup>(١)</sup>. فأبعد الملتزمين اليهود وأحل عنهم سوريين مسيحيين كانوا قد نزحوا من دمشق إلى القاهرة والإسكندرية في مطلع القرن الثامن عشر. وكانوا في أول الأمر قلة عديدة لم يتجاوزوا أفراد ثلاث عائلات. ولكن الأرباح التي حققوها من إلزام الجمارك بعد إبعاد اليهود ومن نشاطهم التجاري جذبت عائلات سورية مسيحية بلغ عددها خمسمائة أسرة حقق أفرادها أرباحاً وفيرة<sup>(٢)</sup>. وبعد وفاة على بك الكبير عادت تطل برأسها عيوب تطبيق نظام إلزام الجمارك.

ويذكر أحد الرحالة الفرنسيين وهو فولني - وقد زار مصر والشام وقضى فيهما سنوات ثلاث ١٧٨٣ - ١٧٨٥ - أنه في عهد الحكومة الثنائية التي كان يتولاها في مصر إبراهيم بك ومراد بك، كانت هناك ظاهرة تكررت، وهي أنه كلما احتاج هذان الأميران المملوكيان إلى أموال وفيرة تصل قيمتها في كل مرة إلى خمسمائة ألف ليرة، كانا يستدعيان ملتزم الجمارك لتقديم المبلغ، فلا يتردد الملتزم في أداء ما يطلبان. وارتاح الملتزم إلى أمثال هذه المطالبات، لأن الأميرين إبراهيم بك ومراد بك كانا يطلقان يد الملتزم في رفع الرسوم الجمركية بصورة غير رسمية تمويضاً له عن المبالغ التي دفعها. وهكذا كان الملتزم لا يتقيد بالتعريفات الجمركية. كان يفرض ما شاء له جشعه من رسوم إضافية لا تغطي المبالغ التي

---

(١) وما يذكر أن على بك أبقى نظام الإلزام على الأراضي والسابق لأمصره دون أي تغيير، واستثنى بأن أبعد عناصر الخامية عن ميدان إلزام الأراضي إلى حد بعيد ولم يسمح بذلك إلا لمن تأكد من إخلاصهم له. أنظر: دكتور محمد زهنت ومضات، مرجع سبق ذكره، ص ٨١.

(٢) تجمعت في أيدي هؤلاء السوريين المسيحيين ثروات ضخمة وراودتهم الآمال في جمع مزيد من الثروات. وأصبحت لهم مطاعم ينفق منها أن يصمروا إلى ما صار إليه اليهود - وقد اعتقد الناس أن ساعاتهم قد دنت وأكذت، حين حرب رئيسهم أطول فرعون إلى ليفر و Livourne في إيطاليا سنة ١٧٨١ خوفاً من أن ينتصح أسرهم، وفضل أن يقضى بقية حياته =



يُدفعها للأمرء المالك لخصب ، بل لتحقيق له مزيداً من الأرباح . وعلى هذا النحو ثلاثت أو التهمت مصالح ملتزمي الجمارك مع مصالح الأمرء المالك ، وقد شخصوا بأبصارهم إلى الرسوم الجركية كورد مالى لا ينضب معينه . وقد ارتفعت أصوات التجار بالشكوى من تصرفات ملتزمي الجمارك . ووقف فواصل الدول في مصر إلى جانب مواطنيهم التجار . وتظاهر مراد بك برغبته في القضاء على عيوب تطبيق نظام إلزام الجمارك ، وقرر أن يفرد هو دون سواء بالإشراف على الجمارك<sup>(١)</sup> . وازداد الموقف تدهوراً ، إذ لم يكن هدفه الإصلاح ، وإنما الاستيلاء على حصيلة الرسوم الجركية دون أن يشارك فيها زميله في الحكم الأمير المملوك الكبير إبراهيم بك . ومن المعروف أن هذه الحكومة الثنائية ظلت رابضة على قلوب المصريين حتى قدمت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ فصفت بها .

### الإقطاع الحربى والإلزام فى بلاد الشام :

وإذا انتقلنا من مصر إلى إقليم عثماني آخر هو بلاد الشام بتقسيماتها الإدارية المتعددة نجد أن الدولة العثمانية طبقت فيها نظام الإقطاع الحربى ونظام الإلزام . وكانت هناك الأراضي العامة ، ويطلق عليها ديوز ، وتعتبر ملكاً للحكومة ، وبعض إقطاعات عسكرية وفقاً لأنواع الثلاثة المروفة : قيار ، زعامت ، خاص ، لحكام الولايات والألوية والجنود الإقطاعيين ، على أن يقوم الإقطاعيون عند نشوب الحرب بإعداد وتجهيز عدد من الفرسان المحاربين بقناسب مع إيراد الإقطاع الحربى .

---

== فى جو آمن يستمتع بثروته الضخمة .  
انظر :

فولى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٥ .

وتميزت بلاد الشام بوجود عصبية إقطاعية محلية اختلفت قوة وعدداً وراثاً ونموذاً . وكانت هذه العصبية على نوعين : عصبية مذهبية كالإسماعيلية ، والنصيرية والدروز والوارنة ، وعصبية عرقية كالأكرد والتركان والعرب ، وبذلك وجد في بلاد الشام نوعان من الإقطاع : الإقطاع الحكوى والإقطاع الطائفي . وكان الإقطاع الطائفي أرسخ جذوراً من الإقطاع الحكوى ، ولا سيما في لبنان حيث كانت توجد عائلات أرستقراطية من الدروز والوارنة وغيرهم من بيوت العصبية الإقطاعية . ويعرف زعماء هذه البيوتات بالمشايخ ، ويدير الشيخ شئون مقاطعة ويتربع ( أمير الجبل ) فوق هذا البناء الإقطاعي والذي له الرياسة العليا على الأمراء والمشايخ والعامة .

وكان نظام الالتزام في بلاد الشام أشد قسوة على الفلاحين من مثيله في مصر . كان الملتزمون يلتزمون إلى كبار الإقطاعيين العسكريين أو العشائريين أو رؤساء العوائف الدينية . كان الملتزمون يجمعون الخراج والأموال السلطانية من الفلاحين ويسددون مقداراً معلوماً للباشا العثماني في دمشق أو الباشا في سيدها بواسطة حاكم الجبل .

وقد أدخلت الدولة على نظام الالتزام في بلاد الشام في أواخر القرن السابع عشر نظام المالكانة . ويعتقضى هذا النظام كانت الدولة تمنح الملتزمين حق الالتزام مدى الحياة حتى يستطيعوا تحقيق أرباح معقولة لهم على مدى الأيام . ولكن جاء هذا النظام بنتائج عكسية بالنسبة للفلاحين والدولة . فقد كان الملتزم — وقد استقر وضعه ورسخت أقدامه في دائرة الالتزام — يستبرئ نفسه مالكاً حقيقياً للأرض ومن عليها يستبد بالفلاحين ويسومهم سوء العذاب ضرباً أو سجناً أو مصادرة لأموالهم وحاصلاتهم . أما الدولة فقد أصبح من الصعب عليها مواجهة الزيادة في النفقات بموارد مالية ثابتة وقديمة غير قابلة للزيادة . ولذلك لم يكن في مقدورها زيادة الدخل الحكوى من مصادر الإرادة إلا عند

وفاة أحد الملتزمين فتطرح إلتزامه في مزاد من جديد وفقاً للأسعار السائدة<sup>(١)</sup> . ومن الخصائص التي تميز بها نظام الإلتزام في بلاد الشام أن السلطات العثمانية كانت تطلب من الملتزمين أن يعينوا مصرفين في العاصمة كي يتم دفع الأموال المطلوبة في المواعيد المحددة والمنصوص عليها في عقد الإلتزام . وكان المصرفيون من المسيحيين واليهود ويشكلون طبقة وراثية متميزة . وكان لابد لكل مصرف أن يحصل على رامة موقمة من السلطان بعد أن يدفع مبلغاً باهظاً للسلطان وبعد أن تتأكد الدولة أنه على حظ موفور من الثراء بحيث يستطيع أن يسدد للخرانة الأموال المطلوبة من الملتزم حالما يحل موعد سدادها<sup>(٢)</sup> . وكان الدافع للدولة العثمانية على إدخال نظام المصرفين هو أنها نيتت أن الملتزمين كانوا يسوفون في أداء إلتزاماتهم المالية أو يتهربون من الوفاء بها . ورضخ الفلاحون لسف الملتزمين ، وكان لا يحق للفلاح أن ينجأ بالشكوى أو يفاد قريبته وعاش الفلاح حياة الضنك والكفاف . وقرر بعض المعاصرين أنه لم يكن يأكل اللحم طوال السنة إلا في المناسبات كالأعياد وحفلات العرائس<sup>(٣)</sup>

وأسرف أصحاب الإقطاع الحربي والملتزمون في طغيانهم والاستهانة بالسلطات العثمانية . فسكانوا يتفقون مع بعض الولاة على القيام بمحركات تمرد ، ولا يؤدون الخدمات المقررة عليهم للدولة . واجهت الحكومة العثمانية هذه الانحرافات باتخاذ بعض التدابير للتخفيف من مساوئ كلا النظامين . كان السلطان سليم الثالث ( ١٧٨٩ — ١٨٠٧ ) يلتهز فرسة وفاة صاحب الإقطاع الحربي أو الملتزم ويستولى على أراضيه ، وكان يطلق على مثل هذه الأراضي التي يتوف عنها أصحابها اسم

(١) دكتور عبد العزيز محمد عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية ( ١٨٦٤ — ١٩١٤ ) ، دالر المعارف - القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٨٢ ، حاشية رقم ٢

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٢ ، حاشية رقم ٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

الأراضي المحولة — ويضمها إلى أراضي الأوقاف العامة ليلفق إيرادها على إنشاء الجيش الجديد الذى شرع فى تكوينه بعد إلغاء نظام الانكشارية . وسار على هذه السياسة السلطان محمود الثانى ( ١٨٠٨ — ١٨٣٩ )

وحدث تحول هام فى نظام الإقطاع ونظام الإلزام فى بلاد الشام فى أثناء العقد الرابع من القرن التاسع عشر ( ١٨٣١ — ١٨٣٩ ) خلال الحكم المصرى لهذه البلاد . فقد كان من الطبعى — بعد أن نجح محمد على فى إلغاء نظام الإلزام فى مصر ونجح فى فرض التجنيد المسمى الإجبارى — أن ينهج هذا النهج بشقيه فى بلاد الشام . فعمد إلى إلغاء الإقطاع الحربى وإلى حل القوات العسكرية الإقطاعية وإلى تجريد السكان من السلاح بالقوة دون تفرقة بين الأشراف والأعيان وبين عامة الشعب . وعمد محمد على أيضاً إلى إدخال نظام التجنيد المسمى الإجبارى وإلى إلغاء نظام الإقطاع ونظام الإلزام وإلى منح الفلاحين حق رفع الشكوى على الملتزمين ، وأعلن المساواة بين جميع الطوائف والمذاهب . ولكن لما انتهت فترة الحكم المصرى فى بلاد الشام عادت الأمور إلى أوضاعها السابقة على الرغم من أن الدولة أعلنت فى وثيقتين هامتين صدرتا فى سنة ١٨٣٩ ، ١٨٥٦ سبق أن أشرنا إليهما <sup>(١)</sup> وسعود إليهما بمدح ، إلغاء نظام الإلزام وتقرير التجنيد لجميع رعايا الدولة بدون تمييز بسبب الدين أو الجنس أو المذهب .

### الإقطاع الحربى والإلزام فى العراق :

إذا انتقلنا من بلاد الشام إلى إقليم عثماني آخر هو العراق نجد أن الدولة العثمانية طبقت فيه كلا النظامين : الإقطاع المسمى والإلزام . ولم يتجسدا النجاح المرتجى بسبب ضعف الحكم العثماني فى الولايات الأربع التى كان يتألف منها العراق بعد أن استكملت الدولة العثمانية فتحها للبلاد العراقية . وكانت هذه

---

(١) المجلد ٩٦ — ٩٨ فى هذا الدراسة .

الولايات على الموصل<sup>(١)</sup>، وشهر رور (کردستان)<sup>(٢)</sup>، وبغداد<sup>(٣)</sup>، والبصرة<sup>(٤)</sup>. وكان ظهور المصيبات المحلية في العراق من الأسباب التي أدت إلى عدم نجاح كلا النظامين، وكذلك الصدام الذي كان يحدث بين القوات الإقطاعية وقوات الإنكشارية. وكانت الدولة تحشد قوات كثيرة العدد من الإنكشارية في المدن الكبرى في العراق، وظهور المالك كمصيبة حاكمة في بغداد. وكان من نتائج هذه العوامل مجتمعة أن أصبح فرمان الإقطاعات العسكرية — تيار وزعامات — يهيرون من الخدمة العسكرية. وكان من بين الفرائع التي سبقت لتجبر مسلكتهم إلى ملأ كثرة الحروب المتعاقبة التي كانت تخوضها الدولة تباعاً سواء ضد فارس في جهات بين أو ضد دول أخرى في أوروبا، فكانت هذه الحروب تجبرهم على الابتعاد فترات طويلة عن إقطاعاتهم، وكانوا يخشون انخفاض دخلهم من هذه

---

(١) كانت ولاية الموصل تمتاز عن بقية الإيالات العراقية بتطبيق نظام الإقطاع العسكري فيها بكثرة لم يمهدها الإيالات الأخرى في العراق.

الطر.

دكتور عبد العزيز سليمان أوار : تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باها إلى نهاية حكم مدحت باها. القاهرة، ١٢٨٨ هـ - ١٩٦٨ م، ص ٧

(٢) كانت لالة شهر زور مليحة بالإمارات والمعار السكردية السنية. ولد شدت أوزر الدولة لمانية في أثناء الحروب العارسة الألمانية. وكان من بين هذه الإمارات : الإمارة الصورية، والبهمانية، والبالاية. وقد اعترفت الدولة الألمانية بحكم المصيبات المحلية، واتهم الأمر باحتداد هذه المصيبات بالسلطة ولم يعد للوالي العثماني سلطات فعلية يمارسها هناك.

(٣) كانت ولاية بغداد أهم الولايات العراقية حتى أن ولاية البصرة هبطت إلى مجرد مقاطعة تابعة لبغداد في أوائل القرن الثامن عشر، كما أصبحت ولاية شهر زور تحت إشراف وإلى بغداد.

(٤) لم تطبق الدولة نظام الإقطاعات العسكرية في ولاية البصرة، وطبق بها الأحراء. وسرعان ما أصبحت الأحراء تحت حكم العشائر. أما البصرة فقد تبادل حكمها الولاة العثمانيون وشيوخ المتنقي.

الإقطاعات التي كانوا يعتمدون عليها في معيشتهم . ويضاف إلى هذه الأسباب سبب آخر هو أن عدداً كبيراً من أصحاب الإقطاعات العسكرية كانوا من غير أهل العراق، إذ كانوا بصفة خاصة من العسكريين الأتراك، فكانوا يولون وجوهم شطر إستانبول، وكانت مشاعرهم مرتبطة بها أكثر من ارتباطها بولايات العراق، ولذلك كان دورهم في تاريخ العراق ضعيف الأثر أو دوراً هامشياً .

وتسل نظام الإلتزام في العراق - كما تسلسل في مصر - إلى مختلف نواحي الدخل الحكومي مثل الأراضي الزراعية أو الجمارك . وكانت المدن والقرى تتخلى بالإلتزام، كما كان شيخ العشيرة يلتزم بجميع الأموال الأميرية من أفراد عشيرته<sup>(١)</sup> . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر تعرض الاقتصاد العثماني لهزات عنيفة وتدهورت قيمة العملة العثمانية وارتفعت الأسعار . ولجأت الحكومة إلى زيادة الضرائب . لجأ الملتزمون بدورهم إلى نفس الوسيلة، وأرهقوا الفلاحين من أمرهم عسراً، وفرضوا مزيداً من الضرائب والرسوم الجزافية التعسفية . وتكدست الأموال في أيدي الملتزمين . وظهرت في المجتمع العراقي طبقة جديدة من كبار الملتزمين جمعوا بين الآراء العريضة والنفوذ الكبير وأطلق عليهم « أعيان مملكت »<sup>(٢)</sup> . ومارس أفراد هذه الطبقة شبه سيادة إدارية ومالية وقضائية على المناطق التي تولوا أمرها في الوقت الذي كانت في حاجة ماسة إلى مزيد من الأموال للإلتحاق بالعسكري .

### محاولات إنشاء نظام الإلتزام:

ذكرنا أن نظام الإلتزام قد اخفق من مصر كاية على يد محمد علي في سنة

(١) دكتور عبد العزيز سليمان نوار، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٣

(٢) أي أعيان البلاد كما يترجمها الأستاذ برنارد لويس .

انظر :

Lewis Bernard; The Emergence etc., op. cit., p. 38.

١٨١٤ . ولكن مثل هذا النظام ناعماً في سائر أو معظم ولايات الدولة ، ثم صدر في ٣ من نوفمبر ( تشرين ثان ) ١٨٣٩ « خطي جلخانة » ، وقد تقرر فيه إلغاء نظام الإلتزام . وقد حمل هذا فرمان السلطانى حملة عنيفة على نظام الإلتزام وأبرز بعض عيوبه ونمته بأنه أداة من أدوات الخراب لأنه عبارة عن تسليم المصالح السياسية والأمور المالية في منطقة ما لإدارة أحد الناس . وقد يسىء هذا الشخص استخدام سلطاته إذا كان رجلاً شريفاً ولا ينظر إلا لتحقيق مصالحه . وخلص الرسوم إلى أنه من الضروري أن يحمل محل نظام الإلتزام نظام جديد يتقرر بمقتضاة فرض ضريبة على كل مواطن في المجتمع الثماني ، وأن يحدد مقدار هذه الضريبة في ضوء ثراء المواطن وإمكانياته ، وبذلك يكون في حكم الاستحالة تحصيل مبالغ من المواطنين أكثر مما هو مقرر عليهم (١) .

وفي شهر ديسمبر ( كانون أول ) ١٨٣٩ صدر قانون تقرر فيه أن يجمع أحكام الولايات اعتباراً من أول مارس ( آذار ) ١٨٤٠ الضرائب القانونية فقط

---

(١) هذا هو النص المرحى لاجزاء الخامس بنظام الإلتزام وضرورة إلغائه كما ورد في الرسوم السلطانى خطي شريف جلخانة .

“A fatal custom still exists, although it can only have disastrous consequences; it is that of venal concessions, known under the name of *iltizam*.”

“Under that name the civil and financial administration of a locality is delivered over to the passions of a single man; that is to say, sometimes to the iron grasp of the most violent and avaricious passions, for if that contractor is not a good man, he will only look to his own advantage.”

“It is therefore necessary that henceforth each member of Ottoman Society should be taxed for a quota of a fixed tax according to his fortune and means, and that it should be impossible that anything more could be exacted from him...”

وأن يتولى جميعاً حياة مدنيون، وأن كل موظف سوف يتقاضى مرتباً معيناً ثابتاً، وأن الترقية في الوظائف الحكومية تقوم على أساس الجدارة والكفاءة<sup>(١)</sup>. وقد لقيت الإصلاحات التي يصممها خطى جلخانة وبمجموعة القوانين التي أعقبت صدوره معارضة عنيفة من مختلف طوائف الشعب - مسلمين ومسيحيين - وكان أن صدر في مستهل سنة ١٨٤٩ قرار بعزل مصطفى رشيد باشا رائد الإصلاح العثماني. وتوقف العمل بالنظم الجديدة وعادت الحكومة إلى نظام الالتزام وإلى المحاكم العسكرية وسحبت جباية الضرائب المدنية، واستعاد هؤلاء العسكريون مهمة جمع الضرائب في فبراير (شباط) ١٨٤٢. ولما عاد رشيد باشا إلى الصدرة العظمى سنة ١٨٤٦ استعادت حركة الإصلاح نشاطها السابق<sup>(٢)</sup>.

وسدر في ١٨ من فبراير (شباط) ١٨٥٦ مرسوم سلطاني يبرم باسم خطى هاپوني. وقد أكد المرسوم الجديد المبادئ التي وردت من قبل في خطى جلخانة ومنع منماً بأن تدخل الموظفين وأعضاء المجالس في أن يشركوا في أي إقترام كخطوة نحو القضاء على هذا النظام نهائياً.

وعلى الرغم من تلك المحاولات المكررة فقد ظل نظام الإقطاع الحربي والالتزام قائمين في عدد من الولايات العثمانية. ففي بلاد الشام باشرت الدولة بعد صدور خطى جلخانة بمحصيل الضرائب من الفلاحين واعتمدت على موظفين في خدمتها حلوا محل أصحاب الإقطاع الحربي والمليين. وكان هؤلاء الموظفون يتبعون دفتردارية الولاية وهي الإدارة المالية فيها. ولكن لم يقدر لهذا النظام أن يؤتي ثماره المرجوة لقلة عدد الموظفين ذوي الأمانة، فعاد نظام الالتزام مرة أخرى بعد الحد من مساوئه. وأصدرت الدولة في سنة ١٨٥٨ قانون الأراضي

(١) Lewis Bernard, The Emergence etc., op. cit., p. 385

(٢) هرل رشيد باشا من منصب الصدرة العظمى في سنة ١٨٥٢. وقد توفي سنة ١٨٥٨. انظر لحة سريعة عنه في المرجع السابق، ص ١٠٥ - ١٠٦.



العثماني وبمقتضاه قسمت الأراضي في الولايات العثمانية خمسة أقسام هي الأراضي المملوكة ، والأراضي الأميرية . وكانت تعتبر ملكاً لأصحاب الإقطاع الحربي ( التيمار — الزعامت ) وقد ألغيت وأصبح التصرف فيها للدولة فتبيع منها ما تريد لمن تريد ، والأراضي الموقوفة ، والأراضي المتروكة ، والأراضي الموات . وليست هذه الدراسة محالا لشرحها ، ولكن حسبنا أن نذكر أن إصدار هذا القانون الذي جاءت صياغته في ١٣٢ مادة وخاتمة كان محاولة جادة لسيطرة الدولة على أراضيها<sup>(١)</sup> . وفي سنة ١٨٦١ صدر قانون تسجيل الأراضي المعروف باسم الطابو .

أما في العراق فكانت الأراضي في مطلع القرن التاسع عشر تنقسم إلى عدة أنواع منها :

- ١ — أراض عشائرية .
- ٢ — أراض التيمار والزعامت وهي إقطاعات عسكرية .
- ٣ — أراض أميرية ملك الدولة وكانت تشكل معظم مساحة المراق المزروعة .
- ٤ — أراض ملك للأفراد .

وعد عشش نظام الإقطاع العسكري على نحو من الأنحاء في أراضي التيمار والزعامت ، بينما بقي نظام الالتزام مطبقاً في الأراضي المشارية والأميرية ، إذ كان الشيخ يسد إليه إلتزام ديرة عشيرته في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية . أما في الأراضي الزراعية مثل منطقة المنتفق فقد طرح إلتزام ديرة المنتفق في الزابغة منذ حوالي منتصف القرن التاسع عشر . وكان الشيخ الذي يقدم أكبر عرض مالي يحصل على التزام الديرة واستمر هذا الأسلوب متبعاً حتى جاء مدحت باشا إلى العراق ( ١٨٦٩ - ١٨٧٢ ) ووضع نظاماً جديداً . فقد قام بتوزيع الأراضي الأميرية على الأهالي بأسعار مخفضة تشجيعاً للملكية الفردية ولكن لم تسفر

(١) دكتور عبد العزيز محمد عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٠ — ٢٣٣ .

هذه المحاولات عن النجاح الذى كان يرجيه لها ، فقد كانت الأموال وفيرة لدى  
شيوخ العشائر وكبار الموظفين والعشائر والتجار فأقبلوا جميعاً على شراء  
الأراضى المخصبة ، وظل الفلاح العراقى يسيداً عن الملكية الزراعية . ومن  
ناحية أخرى خصصت ديرة لكل عشيرة يدفع شيخها عنها مبلغاً من المال كان  
يوضع فى المزايدة كل سنة . وظل هذا النظام المالى العشائرى معمولاً به حتى  
توقف فى أواخر القرن التاسع عشر . وفى خلال فترات التحول من نظام الإلتزام  
إلى نظام الملكية الفردية استطاعت إدارة البلاط السلطانى - الإدارة السنية  
- أن تستولى على مساحات واسعة من الأراضى الزراعية ، ولكنهم -  
أخضعت للقيود المالية التى فرضت على أراضى السلطان بسبب توقفه عن دفع  
الديون وبخاصة بعد مرسوم سنة ١٨٨١ ، ثم صدرى سنة ١٨٩٠ فرمان يحمل  
أراضى الدولة كلها ملكاً للسلطان . وقد ثبت أن هذا فرمان لم يطبق من  
الناحية الفعلية ، وإن ظل قائماً من الناحية النظرية . وظل الأمر على هذا النحو  
حتى قامت الحرب العالمية الأولى .

ونخلص من هذا العرض إلى أن السنة الإقطاعية كانت خصيصة بارزة من  
خصائص الدولة العثمانية وكانت لصيقة بها فى معظم مراحل حياتها عبر العصور ،  
والأدهار .

## الفصل السابع

### السياسة العليا للدولة العثمانية

#### في ضوء خصائصها العامة (١)

من تلك الخصائص العامة الست التي تميزت بها الدولة العثمانية ، كما وضعت في مجالات التطبيق العملي في أرجاء الدولة ، وهي الخصائص العسكرية ، والدينية ، والمالية ، والحكم المطلق ، والطبقية ، والإقطاعية ، يمكن أن نستخلص السياسة العليا للدولة في ضوء هذه الخصائص ومن معالم التاريخ العام للإمبراطورية العثمانية خلال المصور المتعاقبة التي عاشتها.

#### أولاً : أن تكون دولة الإسلام الكبرى :

جاءت الدولة العثمانية من نفسها دولة الإسلام الكبرى بمد أن عقدت لها زعامة العالم الإسلامي منذ أن خاضت بنجاح في أوائل القرن السادس عشر الصراع الحربي ضد الدولة الصفوية في فارس ، ثم نجاحها في القضاء على دولة الماليك الشراكسة في الشام أولاً ، وفي مصر ثانياً ، وبسط سيادتها على إقليم الحجاز ، فدخلت في حوزتها أهم الأماكن للقدسة الإسلامية على الإطلاق ، وهي : الكعبة الشريفة ، في مكة المكرمة ، والمسجد النبوي ، في المدينة المنورة ، والمسجد الأقصى ، في بيت المقدس ، ثم مضتها في سياسة التوسع الإقليمي في البلاد الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط وفي شمال إفريقيا حتى إقليم الجزائر . وقد سبق هذا التوسع في البلاد الإسلامية ثم صحبه ، ولحقه ، توغل الدولة في قلب أوروبا ، وضمها أقاليم أوروبية شاسعة ذات موارد طبيعية وبشرية هائلة إلى

دار الإسلام ونجاحها في انتزاع بعض الجزر في البحر المتوسط والتي كانت تعتبر قواعد عسكرية صليبية أو جيوباً صليبية تهدد أمن الدولة في هذا البحر مثل جزيرة رودس ، وقد طردت منها فرسان القديس يوحنا ، ومواجهتها بشكتلات دولية أوروبية صليبية كان بابا روما يرأس بعضها . وكان الحدود العثمانية يحملون السلاح في أيديهم ويحملون العقيدة الدينية في قلوبهم . ونظر العالم في ذلك الوقت إلى الحروب التي كانت تخوضها الدولة ضد الدول المسيحية في أوروبا على أنها حروب مقدسة <sup>(١)</sup> ، وأضفى هذا النشاط على الدولة الطابع الديني .

وتعددت صور هذا الطابع الديني في السياسة العليا للدولة من اتخاذ السلاطين لقب « حامى الحرمين الشريفين » تأكيداً للزعامة الدينية للدولة على العالم الإسلامي ، ثم اتخذهم لقب « خليفة » لنفس النرض ، ونجاح الدولة في إدخال تعديل على اتفاقية الآستانة ( ٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٨٨ ) الخاصة بحرية المرور في قناة السويس كان من شأنه إعفاء السفن الحربية العثمانية من القيود المفروضة على سفن الدول المتحاربة إذا كانت الدولة في صدد الدفاع عن ممتلكاتها الإسلامية في الحجاز واليمن . <sup>(٢)</sup> ومن بين هذه الصور أيضاً تيسير أداء فريضة الحج أمام الراغبين فيه ، وتنظيم أربع قوافل رئيسية كل سنة تبدأ مسيرتها من أنحاء الدولة وتنقل الحجاج تحت حراسة عسكرية مشددة ، ثم الدعوة إلى حركة الجامعة الإسلامية ، وإنشاء سكة حديد الحجاز . وقد ظل الطابع الديني الإسلامي غالباً على السياسة العليا للدولة حتى إبان الحرب العالمية الأولى . وهكذا جعلت الدولة العثمانية الدين

Lewis Bernard; The Emergence etc., op. cit., p. 26. (١)

(٢) دكتور عبد العزيز عبد الفتاوى :

الدبلوماسية الفرنسية تربط بين مسائل قناة السويس وإبريد الجديدة .

بحث منشور في حوليات كلية الآداب — جامعة القاهرة ، المجلد الثاني والمعرون .

العدد الأول . سنة ١٩٦٠ ومطبوع سنة ١٩٦٤ ص ٩٣ .

من دعائم الدولة ، وعبأت الشهور الديني الجارف في أفراد القوات المسلحة البرية والبحرية ، وعلت على إعلاء شأن الشريعة الإسلامية ، وأضمت على رجالها الكثير من الرعاية والنفوذ والامتيازات ، وأنشأت هيئة كانت من أقوى الهيئات في الدولة هي الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وشجعت التصوف وطوائف الدراويش .

وكان من مبادئ السياسة العليا للدولة في القطاع الديني أيضا منع تسال المذهب الشيعي إلى منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا . وقد جعل العثمانيون من أنفسهم حماة للمذهب السني في العالم الإسلامي .

### ثانياً : جعل البحر الأحمر بحراً إسلامياً مطلقاً :

جاءت الدولة البحر الأحمر بحراً إسلامياً مطلقاً في وجه السفن غير الإسلامية . فكان يحرم عليها تجاوز موقع ميناء غزا في اليمن . وكانت أمثال هذه السفن تفرغ حمولاتها في هذا البناء ، ويماد شحنها في سفن إسلامية تبخر بها إلى جدة أو يلبع أو السويس أو غيرها من موانئ البحر الأحمر . وبذلك أغلقت هذا البحر في وجه الزحف الاستعماري الأوروبي الذي حاول أن يتسلل من باب المندب إلى الأقاليم الإسلامية التي تعطل على هذا البحر من شاطئيه . وكان البحر الأحمر لا يزال مطلقاً في جزئه الشمالي ، لأن قناة السويس لم تكن قد أنشئت بعد . ولذلك انصرف اهتمام الدولة إلى مدخله الجنوبي عند باب المندب . وقد تناولنا هذا الموضوع بالشرح في الفصل الأول من هذه الدراسة .

### ثالثاً : نشاط حكومي محدود :

انصرف اهتمام الدولة إلى أربع مسائل : الحرب ، والدين ، والحكم على أساس النظام البيروقراطي ، والزراعة . ولم تباشر نشاطاً يذكر في مجالات

الصناعة والتجارة ، وترك هذين القطاعين لرعاياها غير المسلمين<sup>(١)</sup> . ولم تهتم بتحصين المواصلات مثل إنشاء الطرق البرية أو حفر القنوات الملاحية أو إصلاح الموانئ ، كما أنها لم تبد اهتماماً بالنهوض بالتعليم العام بصفة عامة بين رعايا ولاياتها ، ولم تضع لهم في راجعها رعاية الصحة العامة ، أو ما يسمى الطب الوقائي ، فضلاً عن الطب العلاجي ، وبعبارة أخرى أغفلت الدولة إقامة منشآت ومرافق عامة تسهر على تحسين أوضاع الرعايا العثمانيين من النواحي الاقتصادية والصحية والاجتماعية والثقافية وما إليها . وكانت الدولة العثمانية تسير في هذا الصدد على النهج الذي كانت تسير عليه الدول الأوروبية ودول الشرق بصفة عامة في تلك المصوّر قبل أن يشرق عصر النهضة في مطلع المصوّر الحديثة على دول أوروبا الغربية . ولكن يؤخذ على الدولة العثمانية أنها لم تواكب التطوّر الذي طرأ على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنّية السياسية والإدارية في الدول الأوروبية من حيث نوعية وحجم الخدمات التي تؤديها هذه الدول للجماهير . ولما حاولت الدولة العثمانية الأخذ بهذه الاتجاهات جاءت محاولاتها متأخرة وفي وقت كان الازمحلل قد دب في أوصالها وبات الملاج متعذراً .

مارست الدولة سلطانها في نطاق ضيق للغاية لم يتجاوز عدة قطاعات ، مثل المحافظة على الأمن الداخلي ، وجمع الضرائب بطريقة غير مباشرة مثل نظام الإلزام في الريف ، ونظام الطوائف في المدن ، ثم تنظيم القضاء . وقد جعلت إجراءاته وأحكامه متمشية مع مبادئ المذهب الحنفي الذي اتخذته الدولة مذهباً رسمياً لها . وكانت ولاية القضاء تشمل جميع أنواع القضايا الجنائية والمدنية والأحوال الشخصية ، كما كانت ولاية القضاء الجنائي والمدني تمتد إلى جميع المقيمين في الدولة لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، أو بين عثماني وأجنبي . واستمر

هذا النظام القضائي الشامل تدخل مفاصله جميع المقيمين في أنحاء الدولة حتى أخذت الدولة بنظام الامتيازات الأجنبية Capitulations ويسند هذا النظام إلى معاهدات عقدتها الدولة مع الدول الأوروبية واستهدفت تنظيم حياة رعايا هذه الدول المقيمين في أملاك الدولة بحيث جعلت لهم هذه المعاهدات كياناً شبه مستقل عن السلطات العثمانية الحاكمة .

هذا الاتفاق الضيق الذي مارست فيه الحكومة العثمانية سلطاتها على رعاياها جعل الحكم العثماني سطوحيّاً متحرّجاً من أن يتغلغل في حياة الجماهير من ناحية ، كما جعل الجماهير من ناحية أخرى لا تشعر بحاجتها إلى الاتصال اليومي المباشر بالسلطات العثمانية للتعامل معها . فكان كل فرد يلوذ بشيخ الطائفة التي ينتمي إليها ، وهو رئيس المهنة أو الحرفة التي يزاولها ، ويعرض عليه مشكلاته فيعمل على تسويتها ، سواء بنفسه أو بالاتصال بأولى الأمر . ولذلك قيل إن الفرد في الأقاليم التي دانت للحكم العثماني كان بولك ويسيش ويموت دون أن يشعر في يوم ما بالحاجة إلى مقابلة أحد من الحكام العثمانيين

ونجم عن ذلك أن الدولة لم تحاول في البلاد التي فتحتها أن تقيم نفوذها على أسس علمية من الاستعمار المنتج ، وهي الأسس التي أرساها الاستعمار الأوروبي بعد ذلك لصالحه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين قبل أن ينقشع من البلاد التي خضعت له سواء في العالم الإسلامي أو في غيره من البلاد الإفريقية والآسيوية . وتأسيساً على هذه الحقيقة كان الحكم العثماني بعيداً عن استقلال الشعوب أو اعتصار مواردها الاقتصادية . كانت إستانبول تستوفي نصيبها من الجزية السنوية المقررة على الولايات العثمانية ، وكانت كل ولاية تنفق الباقي من الموارد المسالمة الحكومية في داخل الولاية ذاتها . وإذا أخذنا مصر مثلاً لولاية عثمانية نجد أنها لم تكن إبان الحكم العثماني

مزرعة لإستانبول، كما كانت في أثناء الحكم الروماني مزرعة لروما تمدها بالحبوب، أو كما كانت إبان الاحتلال البريطاني مزرعة أقطان تمد المصانع الإنجليزية في مانشستر وليفربول وغيرها بالقطن لصناعة المنسوجات القطنية .

#### رابعاً : الاعتماد على العسكريين في الحكم كأهل ثقة :

استخدمت الدولة رجالها العسكريين كأهل ثقة تطمئن إلى ولائهم في تولد معظم المناصب المدنية في حكومات الأقاليم التي فتحتها . وقد سبق أن ذكرنا أنه كان للجيش العثماني وظيفتان : الحرب والحكم . وقيل في هذا الصدد إن الجيش العثماني كان بمثابة عملة معدنية نقشت على أحد وجهيها كلمة الحرب ، ونقشت على الوجه الآخر لفظة الحكم . وكان لهذه السياسة - وهي إظهار العسكريين بالمناصب المدنية القيادية والمتوسطة آثار سيئة . كان أولئك العسكريون على درجة كبيرة من الاستعلاء والغرور والجمل بالمسائل المدنية . وكان من نتائج هذه السياسة أن حدثت عزلة بين الحكام والمحكومين ، واندمت الثقة بين الطرفين . وانصرف معظم المدنيين من الأتراك العثمانيين عن الاشتغال بالسياسة والحكم ، فلم يكن لدى الدولة رصيد من الكفايات المدنية لاستخدامها في دفع مجة الإصلاح . ولم يدرك المصلحون إلا في وقت متأخر عواقب هذه السياسة غير الحكيمة .

#### خامساً : تجنب إدخال تعديلات جذرية تمس النظم القائمة :

لم تفرض الدولة على الأقاليم التي فتحتها تعديلات جوهرية تمس النظم الأساسية القائمة فيها إلا ما كان يتعارض منها مع سيادة الدولة ، فكانت في هذه الحالة تدخل تعديلات تكميلية أو تخدم أو تساعد « الوجود العثماني » ، وفيما عدا ذلك تركت رعاياها يمارسون حياتهم وفق الأسلوب الذي ألفوه من قبل محافظين على لغاتهم وثقافتهم ودياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، لا يضيرهم إلا الظلم التي كانت



تدهال عليهم من الحكام المحليين في عصر اضمحلال الدولة وتدهور نظمها .  
وأكثر من هذا، تركت لبعض العناصر الأصلية نصيباً في حكم البلاد مع وضع  
ضمانات تسهل لها الحفاظ على السيادة والسيطرة والحصول على الجزية المقررة .  
أما تحويل الشعوب المسيحية في الأقاليم الأوروبية التي فتحها الهانويون إلى  
الإسلام فقد تأرجحت السياسة العليا للدولة تجاه هذه المسألة . كانت تارة تحصل  
الرعايا المسيحيين على اعتناق الدين الإسلامي ، وتارة أخرى تكتفي بتشجيعهم على  
الدخول في الإسلام بمنحهم امتيازات مادية وأدبية ، وتارة ثالثة تقف موقفاً  
سلبياً أو حادياً . وسنقتاول هذه المسألة بشيء من التفصيل في الفصل التاسع  
لأنها أكثر التصاقاً بموضوع عثملة الشعوب التي دانت لحكم الهانويين .

#### سادساً : بسط السيادة العثمانية على المضائق والبحر الأسود :

مارست الدولة سيادتها على المضائق ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . وتقصّد  
بالمضائق The Straits في تاريخ الدولة العثمانية البوسفور وبحر صرمرة  
والدرنديل ، فهذه كلها في الواقع تشكل مضيقاً طبيعياً واحداً يوصل بين البحر  
الأصود وبحر إيجه الذي هو جزء من البحر المتوسط . وليس للبحر الأسود  
مخرج آخر غير تلك المضائق الطبيعية ، فالبحر الأسود يتصل بالبحار العامة  
والمحيطات عن طريق تلك المضائق .

وقامت السياسة العليا للدولة العثمانية على ممارسة سيادتها كاملة على المضائق .  
واستلذت في هذه الممارسة على القاعدة القانونية التي تقول إنه إذا كان المضيق  
واقفاً في أرض دولة واحدة ، وكان اتساعه لا يزيد على ستة أميال فإن مياهه  
تعتبر مياهاً إقليمية وتتبع هذه الدولة . وإذا زاد اتساعه على ستة أميال فإنه  
لا يدخل تحت سيطرة الدولة منه أكثر من ثلاثة أميال من كل ناحية من  
ناحيته ، على أنه يجوز اعتبار المضيق كله في هذه الحالة تاماً للدولة صاحبة

شاطئيه ، إذا كان العرف قد جرى بذلك<sup>(١)</sup> . ومارست أيضاً سيادتها على البحر الأسود استناداً إلى أن هذا البحر كان يعتبر جزءاً من أملاك الدولة .

وقد نجحت الدولة العثمانية في فرض سيادتها على البحر الأسود ما بقيت الدولة قوية شاذة ، فكان لها حرية التصرف كاملة بخصوص الملاحة في البحر الأسود والمرور منه وإليه . وكانت تفتحه لسفن بعض الدول باتفاقات خاصة استثنائية<sup>(٢)</sup> .

كانت مسألة المضائق - بوجه خاص - مشكلة دقيقة ، لى كانت صورة حساسة لمركز الدولة العثمانية من حيث القوة والشموخ ، أو الاضمحلال والضعف . ففي العصور التي كانت هذه الدولة خلالها قوية مهيبة الجانب امتطاعت فرض سيادتها على المضائق والبحر الأسود واحترمت الدول هذه السيادة إلى حد أنه إذا أراد الرعايا الروس ممارسة التجارة بين موانئ البحر الأسود كان عليهم أن يلقوا بضائهم على سفن عثمانية تحمل العلم العثماني . وفي العصور التي اضمحلت فيها الدولة ووضع ضعفها تعرضت لضغوط سياسية حثيئة وعسكرية أحياناً من الدول الأوروبية التي تسابقت فيما بينها للظفر - في معاهدات سلبية إليها - بحقوق لسفنها التجارية والحربية بالمرور في المضائق وبالملاحة في البحر الأسود في زمن السلم ووقت الحرب . وقد بلغ الموان بالذولة أنها اعترفت في إحدى المعاهدات بأن الدفاع العسكري عن المضائق إنما هو مسئولية مشتركة بينها وبين روسيا مما يعد انتهاكاً لسيادة الدولة العثمانية وعصفاً بسيادتها العليا . وكان هذا الانتهاك هو الدرك الأسفل من الضعف الذي هوت إليه . وكان مرده إلى

---

(١) الدكتور محمود سامي جنيته في : القانون الدولي العام . القاهرة ، ١٩٢٨ ، ص ٢٣٠ .

(٢) الدكتور عبد الله رشوان . المركز الدولي لفتاة السويس ونظائرها . القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ١٩٥٠ ، ص ٢٨١ .

المزائم العسكرية التي تماقت عليها والأخطار التي جثمت عليها وضعف شخصية سلاطين الفترة الثانية<sup>(١)</sup> ، وهكذا أصبحت مسألة المضائق بمثابة الترمومتر أو القياس الذى تقاس به قوة الدولة العثمانية أو ضعفها .

واختلطت مسألة المضائق بالسياسة الدولية ، وأصبحت هذه المسألة تشكل ركناً أساسياً فى علاقات الدولة العثمانية بالدول الأوروبية منذ السبعينات من القرن الثامن عشر ، بل غدت المضائق من أبرز مشكلات السياسة الدولية ، واحتلت مكان الصدارة فى خطط الدول وتفكير رجال القانون الدولى العام وفى مؤلفاتهم . وفى القرن التاسع عشر كان يضرب المثل بالمضائق على أنها أم المشكلات الدولية ، وأنها سبب اضطراب العلاقات الدولية وإزعاج الدول الأوروبية . ومما يذكر فى هذا الصدد أن لورد إلنبورج Ellenborough وهو يترشح على مشروع قناة السويس قال فى مجلس اللوردات بجملة ٦ من مايو ( إيار ) سنة ١٨٦١ « إن بوسفوراً واحداً — أى المضائق — كان مبعث متاعب كثيرة لنا . وإنى اعتقد أن هذا المشروع — قناة السويس — الذى نحن بصددده ، إنما هو محاولة لإنشاء بوسفور آخر ووضعه فى أيدي الفرنسيين » .<sup>(٢)</sup> وقد ردت الصحافة الإنجليزية هذا رأى ، وذهبت إلى أن قناة السويس ليست إلا بوسفوراً فرنسياً<sup>(٣)</sup> . وقد يقال إن مرور السفن الحربية والسفن التجارية مسموح به فى قناة السويس وفق مبرود محددة فى اتفاقية الآستانة ( ٢٩ من أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٨٨٨ ) ومع ذلك فليس فى مرور هذه السفن — أساس — بسيادة مصر على قناتها وأراضيها . ولكن حين يصل الأمر إلى أن تعترف الدولة العثمانية بأن الدفاع عن المضائق هو

(١) ستركام فى الفصل العاشر من فئتين أو طائفتين أو مجموعتين من سلاطين الدولة ، ٥٠ سلاطين الفترة الأولى وسلاطين الفترة الثانية .

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى . قناة السويس والتيارات السياسية التى أحاطت بإنشائها . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ، ١٩٧١ ص ١٤٢ .

(٣) المرجع السابق .

عبء يقع على عاتق هذه الدولة والروسيا معاً، فهذا هو الساس الصريح بسيادة الدولة على المضائق، وهو خروج على السياسة العليا للدولة. ومع ذلك فإن قناة السويس سبق أن تعرضت لمثل هذا الوضع المبهين في معاهدة غير متكافئة (٢٦ من أغسطس - آب - ١٩٣٦) تقرر فيها أن تتولى القوات البريطانية بالاشتراك مع الجيش المصري الدفاع عن القناة وكفالة حرية الملاحة فيها وسلامتها التامة، وأن ترابط القوات البريطانية في منطقة القناة ومناطق أخرى، وأن يظل هذا الوضع قائماً وما يستتبعه من استمرار الاحتلال البريطاني حتى تتفق بريطانيا ومصر على أن الجيش المصري أصبح في حالة يستطيع أن يكفل بمفرده الدفاع عن القناة وحماية أمنها.

\* \* \*

## الفصل الثامن

### السياسة العليا للدولة العثمانية

#### في ضوء خصائصها العامة ( ٢ )

#### سيادة الدولة على المضائق والبحر الأسود

#### بين المعاهدات الثنائية والجماعية والتطبيق العملي

تكلمنا في الفصل السابق عن حرص الدولة العثمانية على بسط سيادتها على منطقة المضائق والبحر الأسود ، واعتبار هذه السيادة عنصراً جوهرياً من عناصر السياسة العليا للدولة . ونرى في هذا الفصل مروراً سريعاً على أهم المعاهدات التي ورد فيها ذكر لهذا الموضوع ، والتي أبرمتها الدولة بحريتها واختيارها مع غيرها من الدول ، أو التي فرضت عليها فرضاً في أعقاب هزائم عسكرية فزلت بها <sup>(١)</sup> . وبمعنى آخر ، سواء كانت هذه المعاهدات التزاماً بسيادتها العليا أو خروجاً عليها ، وسواء كانت معاهدات ثنائية *traités bilatérales* أو معاهدات جماعية *traités collectifs* ونستقي المادة العلمية لهذه الدراسة الوثائقية من واقع نصوص هذه المعاهدات . كما نشير إشارة عابرة إلى بعض الأحداث العسكرية الهامة التي تعرضت لها منطقة المضائق من جانب بعض الدول الأوروبية الكبرى ، ومدى صلاية الأركان العثمانيين واستبسالهم في الحفاظ على سيادة دولتهم على هذه الجهات .

(١) تجايزت آراء فقهاء القانون الدولي العام فيما يقولون ببعض المعاهدات من عنصر الإكراه القوي هو أحد عيوب الرضا ، ومن الخطأ ، والتدليس ، والغبن ، والإكراه . وينصب غريب منهم إلى أن الإكراه يطل المعاهدة بطلاناً نسبياً .

(١) معاهدة بلجراد ١٧٣٩ :

لما بدت في الأفق السياسي نذر اضمحلال الدولة العثمانية حاولت روسيا في الثلاثينات من القرن الثامن عشر إقامة وجود عسكري بحري لها على الساحل الشمالي للبحر الأسود كقائمة خطوات تالية نحو بسط سيطرتها العسكرية على منطقة المضائق وتمكين سفنها الحربية والتجارية من عبور البوسفور والدرديل وقت السلم وضمن الحرب دون أية قيود أو شروط أو عراقق انطلاقاً إلى الوصول إلى البحار الفاتنة . وكانت الوسيلة لتحقيق أهدافها القريبة والبعيدة هي السيطرة على مصاب بعض الأنهار التي تصب في الساحل الشمالي للبحر الأسود مثل نهر دنيستر Dniester ، بيج Bug ، دنيبر Dnioper ، دن Don ، كوبان Kuban ، واشتملت في سنة ١٧٣٥ الحرب بين الدولتين . وأخفقت روسيا في تحقيق أهدافها ، وعقدت معاهدة بلجراد في اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر - أيلول - ١٧٣٩ ، وتقرر فيها الاحتفاظ بالحدود القديمة للدولتين كما حددتها المعاهدات الموقعة من قبل بينهما ( المادة ٢ ) ، كما تقرر هدم قلعة آزوف Azov ، وأن تترك الأرض القائمة عليها هذه القلعة في داخل الحدود التي رسمتها معاهدة سنة ١٧٠٠ ، وأن تستخدم كحاجز بين الدولتين . وسمحت المعاهدة كتمويض للروسيا بأن تبنى قلعة جديدة على مقربة من الجزيرة الواقعة في نهر دون بالقرب من آزوف ، وأن يسمح للدولة العثمانية بإقامة قلعة بالقرب من آزوف ، كما تقرر عدم السماح للروسيا ببناء أو إبقاء أساطيل لها أو سفن أخرى في البحر الأسود ( المادة ٣ ) ، كما قررت المعاهدة أن يمارس رعايا روسيا نشاطهم التجاري في البحر الأسود على سفن تركية ( المادة ٩ )<sup>(١)</sup> .

(١) تجد النص الرسمي والكامل لهذه المعاهدة و :

Hurewitz J.C. : op. cit., vol. I, pp 47-51

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إسطنبول في ٢٨ - ديسمبر - كانون أول - سنة ١٧٣٩

وقد استمرت معاهدة باجراد سارية المفعول مدة تزيد على دهم قرن . وكانت خلالها أساس العلاقات بين الدولة العثمانية والروسيا ، إلى أن عقدت بين الدولتين معاهدة خليفرة من كاشك كينارجى .

### (ب) معاهدة كاشك كينارجى ١٧٧٤ :

جاءت معاهدة كاشك كينارجى<sup>(١)</sup> Kuouk Kaynarca ضربة قاصمة لسياسة العليا للدولة العثمانية فيما يختص بسيادتها على البحر الأسود والمضائق . عقدت هذه المعاهدة في اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو - تموز - سنة ١٧٧٤ . بعد حرب دامية استطاعت ست سنوات بين الدولة العثمانية والروسيا مدت فيها القوات المسلحة العثمانية بهزائم اليمية . وبمقتضى هذه المعاهدة تحول البحر الأسود من بحيرة عثمانية بحثة إلى بحيرة عثمانية روسية بعد أن تقرر للروسيا الحق فى إنشاء عدة قواعد عسكرية بحرية وبرية على سواحل هذا البحر ، وبذلك أصبحت روسيا إحدى دول البحر الأسود المعترف بها ، كما تقرر لها الحق فى أن تستخدم سفنها التجارية المضائق للخروج من هذا البحر إلى البحار السامة والدخول منها إليه .

وتهمنا فى معاهدة كاشك كينارجى النصوص التى وردت بها خاصة بمسألتين : أولاها ، الحقوق الملاحية التى تقرر للروسيا فى البحر الأسود والمضائق . وثانيتهما ، الوجود العسكرية البحرى والبرى الذى تقرر لها فى البحر الأسود أما عن المسألة الأولى فقد تقرر أن تكون الملاحة فى هذا البحر حرة ومفتوحة وغير مقيدة بشروط للسفن الروسية التجارية ، والتى يصبح لها الحق فى حرية المرور فى المضائق بين البحر الأسود والبحر المتوسط وحرية دخول الثغور والموانئ .

---

(١) كاشك كينارجى اسم قرية صغيرة تقع على الضفة اليسرى لنهر الدانوب بالقرب من سيلستريا Silistra .

الواقعة على سواحل البحر الأسود . كما قررت المعاهدة أن تسمح الدولة العثمانية لرعايا الروس بممارسة التجارة في جميع ولايات الدولة في البر والبحر وفي نهر الدانوب ، وأن يطبق السلطان العثماني على هؤلاء الرعايا نظام الامتيازات الأجنبية Capitulations الذي سبق له أن منحه لرعايا الدول الأكثر رعاية مثل بريطانيا وفرنسا ، وأن يكون لرعايا الروس الحق في استيراد وتصدير جميع أنواع البضائع وتفريغ شحنات سفنهم في كل ثغور وموانئ البحر الأسود وفي سائر البحار الأخرى ، وأن تكون إستانبول من بين الثغور التي يسمح لسفنهم بدخولها والرابطة فيها لتفريغ شحناتها وشحن حمولات جديدة منها ، وذلك بعد دفع الرسوم المقررة ( المادة ١١ ) .

أما المسألة الثانية فقد قررت المعاهدة أن تكون تحت سيطرة روسيا بصورة كاملة وداعمة ولا تقبل نقاشاً عدة قواعد ومواقع ، نذكر منها :

( أ ) قلعة كيدرنب Kinburn التي تقع عند مصب نهر دنيبر Dniپر ، وأن يلحق بها القسم الواقع على طول الشاطئ الأيسر لهذا النهر والزاوية التي تشكل الإقليم المحرور المحصور بين نهر دنيبر ونهر بوج Bug ( المادة ١٨ ) .

( ب ) قلعة جنيكال Jenicale وقلعة كيرتش Kertach الواقعة في شبه جزيرة القرم ، وأن تمتد هذه السيطرة إلى جميع موانئها والمنشآت القائمة فيها ، فضلاً عن جميع أجزائها وأقسامها التي تحيط بها القلعة ، ويحدها خط يبدأ من البحر الأسود ويتبع الحدود القديمة لقلعة كيرتش إلى مكان يسمى بوجاك Bugak ، ومن بوجاك يتجه الخط مستقيماً نحو الشمال إلى بحر آزوف ( المادة ١٩ ) .

( ج ) مدينة آزوف Azov بمناطقها وحدودها التي وضعت سنة ١٧٠٠ ( المادة ٢٠ ) .

وقد فاقمت معاهدة كوتشك كيتارجي جميع المعاهدات السابقة التي عقدت بين



الدولتين ، كما شكلت هذه المعاهدة نموذج العلاقات الثنائية الروسية إلى قيام الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ . كما أن الشروط المهيمنة التي فرضت على الدولة الثنائية في تلك المعاهدة قد أثارت مزيداً من الأطماع القيصرية ، كما أنها أوجدت مشكلات استعصى حلها في العلاقات بين الدولتين وفرضت نفعها فرضاً في مجال السياسة الدولية حتى منتصف القرن العشرين<sup>(١)</sup> .

### (ج) تعهد عثماني للنمسا ١٧٨٤ :

وحصلت النمسا على حق الملاحة الحرة غير المقيدة بشروط لسنها التجارية في البحر الأسود وى عبور هذه السفن المضائق . وقد حصلت عليها في وثيقة يطلق عليها *Senet* بمعنى « تعهد » أصدرها حاكم باشا الصدر الأعظم في اليوم الرابع والعشرين من شهر فبراير - شباط - سنة ١٧٨٤<sup>(٢)</sup> .

### (د) معاهدة تحالف دفاعي بين الدولة الثنائية والروسيا (١٧٩٨) .

ولما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ عقدت الدولة الثنائية مع الروس معاهدة تحالف دفاعي في إستانبول في اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٧٩٨<sup>(٣)</sup> .

وكانت مدة هذا التحالف الدفاعي ثمانى سنوات . وفي مواد سرية متصلة

(١) تعهد النمسا الرسمي لهذه المعاهدة و :

Hurewitz J.C. : op. cit., vol. I, pp54-61

وقد استبعد الأستاذ هورويتز منها المادة (١٦) والفقرة الأولى من المادة (٢٢) بقوله أنهما تخصان البلاط .

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إستانبول في ٢٤ من يناير - كانون ثان - سنة ١٧٧٥

Noradounghian Gabriel; Recueil d'actes internationaux de (٢)

l'Empire Ottoman. 4 vols. Paris, 1897. Vol 1., pp. 379-386

(٣) تذكر بعض المراجع أن هذه المعاهدة قد عقدت في ٣ من يناير - كانون ثان - ١٧٩٩

تعهدت فيها روسيا بأن تعد الدولة العثمانية باثنتي عشرة قطعة حربية، وإذا تطلب تطور الحوادث الحربية تعزيز القوات العثمانية فإنها تعدها بقوات برية يتراوح عددها بين خمسة وسبعين ألفاً وبين ثمانين ألف جندي روسي . وفي مقابل هذه المساعدات العسكرية الروسية تعهدت الدولة العثمانية « هذه المرة فقط » بمنح روسيا الحق في أن تمر سفنها الحربية في المضائق مرووراً حراً<sup>(١)</sup> .

وقد عقدت هذه المعاهدة على عهد السلطان سليم الثالث ( ١٧٨٩ - ١٨٠٧ ) والقيصر بول الأول ( ١٧٩٦ - ١٨٠١ ) . ويقول أحد المؤرخين الأمريكيين تعليقاً على سماح الدولة العثمانية للسفن الحربية الروسية بعبور المضائق إن بول الأول قيصر روسيا استطاع أن يغمد الطرف الرفيع المذهب لسيده في باب السلطان بمقد معاهدة التحالف الدفاعي مع السلطان سليم الثالث . ويمضى متهمكاً فيقول إن الفضل في عقد هذه المعاهدة يرجع إلى نابليون وحملته على مصر<sup>(٢)</sup> . والحق أن تصرف السلطان سليم الثالث كان خروجاً على السياسة العليا التي سار عليها أسلافه . وكانت تعوزه رباطة الجأش ، إذ كان مترجعاً إلى أبعد حدود الاترجاج بسبب احتلال فرنسا لمصر . وكان أول احتلال عسكري أوروبي مسيحي لولاية عثمانية إسلامية في التاريخ الحديث .

### ( هـ ) « تحرير » عثماني لبريطانيا ( ١٧٩٩ ) :

ولم تكدم بضعة أشهر على عقد هذه المعاهدة حتى أصدر السلطان سليم الثالث مذكرة رسمية يطلق عليها « تحرير » ومؤرخة في اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر - تشرين أول - ١٧٩٩ منح فيها بريطانيا حرية الملاحة في البحر الأسود لسفنها التجارية وكذلك حق عبور هذه السفن المضائق<sup>(٣)</sup> .

(١) نصرت المواد المعنة في معاهدة التحالف العثماني الروسي و :

Neradounghian G. ; op. cit., Vol 2, pp. 24-27

والمواد السرية و Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. I, p. 65

Hurewitz J.C.; op. cit., vol. 1., p 72

(٢)

rialet E., Turkey Treaties-p. 270

(٣)

ويلاحظ أن هذا الإذن كان مقصوراً على السفن التجارية، ولم يشمل السفن الحربية على الرغم من أن بريطانيا كانت تعتبر الدولة البحرية الأولى في غربي أوروبا .

### ( و ) معاهدة سلام بين الدولة العثمانية وفرنسا ( ١٨٠٢ ) :

ولما عاد السلام إلى أوروبا مؤقتاً عقب عقد صلح Amiens بين فرنسا وبريطانيا في اليوم السابع والعشرين من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٠٢ استطاعت فرنسا أن تعيد علاقاتها الدبلوماسية والتجارية مع الدولة العثمانية ، فصدت معها معاهدة سلام Treaty of Peace في اليوم الخامس والعشرين من شهر يونيو - حزيران - سنة ١٨٠٢ ، وكان أهم ما جاء فيها خاصاً بموضوع المضائق أن الدولة العثمانية منحت فرنسا لأول مرة الحق في أن تمارس سفنها التجارية والتي تحمل العلم الفرنسي حق عبور المضائق والملاحة في البحر الأسود ودون أن تقام في وجهها عوائق ، وأن تعامل هذه السفن على قدم المساواة معاملة السفن التجارية التي تبصر في البحر الأسود والتي تنتمي للدول الأخرى ( المادة ٢ )<sup>(١)</sup>

### ( ز ) تجديد معاهدة التحالف الدفاعي بين الدولة العثمانية وروسيا ( ١٨٠٥ ) :

استطاعت روسيا في سنة ١٨٠٥ أن تجدد معاهدة التحالف الدفاعي مع الدولة العثمانية والتي كانت قد عقدت كإمبريا في سنة ١٧٩٨ . وقد تقرر تجديدها لمدة تسع سنوات بتأييد الحكومة البريطانية . وفي ظل هذا التجديد نجحت روسيا في أن تفتزع من الباب العالي امتيازات أشد خطراً من أية امتيازات سابقة منحها الباب العالي للروسيا . فقد اعترفت الدولة العثمانية في المعاهدة المجددة

(١) تجد النص الرسمي لهذه المعاهدة في :

Hurewitz J.C. : op. cit., vol. I, pp. 71-72

ولقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إستانبول في باريس في ٨ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٠٢ .

التي أبرمت في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر — أيلول — سنة ١٨٠٥، بأن  
الدفاع عن المضائق إنما هو مسئولية مشتركة تقع من حيث المبدأ على عاتق  
الدولة المئانية والروسية .

اشتملت المعاهدة على جزئين: جزء معلن في أربع عشرة مادة ، وجزء سري  
يقع في تسع مواد . والجزء الأخير هو الذى يدخل في نطاق هذه الدراسة . نصت  
المادة الأولى في فقرتها الأخيرة على أن يسمح السلطان المئاني للسفن الحربية  
الروسية وناقلات الجنود بعبور المضائق زمن الحرب . وجاء في المادة الرابعة  
أن قيصر روسيا قد قرر باسمه واسم خلفائه من بعده سلامة الجزر الأيونية  
والقود عنها من كل اعتداء خارجي . ولما كان الموقف السياسي في شبه  
الجزيرة الإيطالية يجعل من الضروري استمرار الاحتلال الروسى للجزر الأيونية ،  
فإن هذا الاحتلال يستمر طالما كانت الأسباب التي دعت إليه لأزال قائمة .  
وتعهدت الحكومة المئانية باتخاذ التدابير لتسهيل مرور السفن الحربية الروسية  
عبر المضائق من أجل خدمة وتموين القوات الروسية التي تحتل الجزر الأيونية ،  
ثم جاءت المادة السابعة في الملحق السرى أخطر المواد على الإطلاق إذ نصت على أن  
الدولتين المئانية والروسية ، وقد قررتا إغلاق البحر الأسود بحيث لا يسمح بأن  
تمر عبر المضائق السفن الحربية التابعة للدول الأخرى ، فإن كل محاولة من جانب  
دولة أخرى مهما كانت لانتهاك هذا القرار يعتبر عملاً عدائياً موجهاً للدولتين المئانية  
والروسية . وعلى ذلك فهما يتعهدان باستخدام كل قوتاهما البحرية في وجه كل  
سفينة حربية وكل سفينة تحمل مواداً حربية تحاول دخول البحر الأسود .

The Two Contracting Parties, having agreed on the closure  
of the Black Sea, declare that any attempt by any Power  
whatsoever to violate it shall be considered a hostile act  
against them. Consequently, they pledge to oppose with all

their naval forces the entrance into that sea of every vessel of war and every ship carrying military stores<sup>(١)</sup>.

ويلاحظ أن النسخة الروسية لهذه الماهدة حادت مختلفة عن النسخة التركية. وقد نشر الأستاذ هيورويتز Hurewitz باللغة الإنجليزية كلا النصين عن النسخة التركية والنسخة الروسية التي نشرها هنا مترجمة أولاً إلى اللغة العربية بصرف « إن الطرفين الساميين المتعاقدين يوافقان على أن يكون البحر الأسود بحراً مغلقاً ، ولا يسمحان بأن تظهر في مياهه أية سفينة حربية أو أية سفينة مسلحة لأية دولة مهما كانت . وإذا حاولت أية سفينة أن تظهر مسلحة في داخل هذا البحر ، فالطرفان الساميان المتعاقدان يعتبران مثل هذه المحاولة باعثاً عدائياً ، ويتمين عليهما مقاومتها بكل قواهما البحرية . ويعتبران هذه المقاومة هي الوسيلة الوحيدة التي تكفل أمنهما للتبادل والمشاركة ، ومن المفهوم أن المرور الحر في المضائق سوف يستمر بالنسبة للسفن الحربية الروسية والنقل الحربي الروسي . ويجب في كل الأحوال على الباب العالي أن يقدم إلى حضرة صاحب الجلالة إمبراطور جميع الروس كل المساعدات والتسهيلات التي قد يحتاج إليها » .

The Two High Contracting Parties agree to consider the Black Sea as closed and not to permit the appearance therein of any flag or armed vessel of any Power whatsoever, and if any should attempt to appear therein arms, the Two High Contracting Parties undertake to regard such an attempt as a *casus foederis* and to oppose it with their naval forces, as being the only means of assuring their mutual tranquillity ; it is understood that the free passage through the canal of Constantinople will continue in effect for the vessels of war and military transports of His Imperial Majesty of All the Russias, to which in each instance the Sublime Porte will furnish every assistance and grant every facility that may be required."<sup>(٢)</sup>

(١) تجد النص الرسمي لهذه الماهدة أعوادها المطبوعة وموادها السرية في :

Hurewitz, J. C , op. cit., vol. 1., pp 72-77

وقد تم تبادل الوثائق التصديق على هذه الماهدة في استانبول في ٢٩ من ديسمبر/كانون أول — سنة ١٨٠٥ .

Loc. cit., p. 76. f. 1

(٢)

### التطورات النولية ساعدت الدولة على إنهاء المعاهدة الجائرة :

كان تقرر هذا المبدأ - الدفاع المشترك عن المصالح - في مقدمة الأخطاء المصارخة التي سقط فيها السلطان سليم الثالث ودليلاً على حقته السياسي . فلم يحدث من قبل أن منع سلطان عثماني لروسيا هذا الحق الذي يشكل خروجاً تاماً على السياسة العليا للدولة . وقد خفف من خطورة هذه المعاهدة غير المتكافئة أن التغييرات السريعة التي طرأت على الموقف العسكري والسياسي في أوروبا في سنة ١٨٠٦ قد عجلت بإنهاء العمل بتلك المعاهدة، وأطاحت بهرى التحالف الثلاثى بين الدولة العثمانية وبريطانيا والروسيا ، كما أدت إلى تعرض الدردنيل والبوسفور للاحتكام من جانب الأسطول البريطانى .

### انتصارات نابليون العسكرية :

أحرز نابليون انتصارات عسكرية رائدة على النمسا في موقعة اولم ULM في ٢٠ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٥ ودخل فيينا في ١٣ من نوفمبر - تشرين ثان - ثم انتصر انتصاراً ساحقاً على القوات النمساوية والروسية في موقعة أسترلتز Austerlitz أو موقعة الأباطرة الثلاثة في ١٢ من ديسمبر - كانون أول . وقد تقهقر ليجر الروسيا إلى بلاده، وأكره إمبراطور النمسا على التوقيع على معاهدة برسبرج Pressberg في ٢٦ من ديسمبر - كانون أول - وتنازل فيها لفرنسا عن اقاليم أوروبية هامة<sup>(١)</sup>، كما كان لهذه المعاهدة نتائج بالغة الأهمية، وجاء في

---

(١) تكلف من شروط هذه المعاهدة تنازل النمسا لفرنسا عن البندرية ، وولاهيا ، وأوكرانيا ، والتمبول .

أعقابها أحداث خطيرة<sup>(١)</sup>، واتحضر نابليون أيضاً على بروسيا في موقفه بينا Jona في ١٤ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٦ ، ودخل برلين في ٢٧ من ذات الشهر . وأصدر مراسيم برلين في نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٦ وهي المراسيم التي اشتهرت باسم النظام القاري Le Blocus Continental وبها أعلن نابليون حصار الجزر البريطانية وحرم على جميع الدول الأوروبية المخاضمة أو الموالية له فتح موانئها للتجارة معها . وبمقتضى هذه المراسيم تكون السفن البريطانية التي تدخل موانئ فرنسا أو موانئ حليفتها عرضة للمصادرة . وكان لهذه الانتصارات الحربية من حيث حجمها ومن حيث أهمية المواقع الأقاليم التي استولى عليها نابليون ما جعل نفوذه يعلو علواً كبيراً عصف بمبدأ التوازن الدولي في القارة الأوروبية .

#### أصداء الانتصارات في إستانبول:

وكان لانتصارات نابليون العسكرية والسياسية أصداءها في إستانبول ذ غداً للنفوذ الفرنسي في دوائر الباب العالي الصدارة والخليفة على نفوذ سائر الدول الكبرى . وتضاءل نفوذ روسيا في العاصمة العثمانية إلى حد بعيد حتى لم يعد لاتصالات إيتاليانيسكي Taliznaky السفير الروسي وزن كبير في دوائر الباب العالي . وأخذت هذه الدوائر تداقش حق روسيا في صهرو قواتها في البوسفور والدرديل

(١) كان من بين نتائجها وأحداثها اللاحقة اعتراف النمسا في ١٢ من يوليو - تموز - سنة ١٨٠٦ بآعاد الراب Confederation du Rhin الذي تكون من بافاريا ، وورتمبرج Wurtemberg ، وبادن Baden ، وثمانى ولايات أخرى ، وكبير مستشارى الإمبراطورية الألمانية ( الأمير كارل فالرش ) ، ووضح هذا الاتحاد تحت حماية فرنسا . ومن نتائج الماهدة أيضاً إجبار إمبراطور النمسا في ٦ من أغسطس - آب - سنة ١٨٠٦ على التخلي عن لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وبذلك زال إلى غير رجعة شبح هذه الدولة الكبيرة .

انظر تفصيلات وافية من المواقف الدولي في أوروبا في سنتي ١٨٠٦ ، ١٨٠٧ من : دكتور محمد مؤاد عسكري : الصراع بين البورجوازية والإقطاع ( ١٧٨٩ - ١٨٤٨ ) ٣ مجلدات ، الباهر دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، المجلد الثاني ، الفصل الثالث ، ص ٦٨ - ٩٥ .

بعد أن بسطت فرنسا سيطرتها على إيطاليا وبعد أن أصبح نفوذ روسيا في الجزائر الأيوبيه مراباً . وقد ذهب الباب العالي في موقفه العدائي من روسيا إلى حد أنه ألغى في شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٠٦ جميع الامتيازات التي كانت ممنوحة أو مقروءة من قبل للبحارة الروس . وتدخل شارل أربوثوت Charles Arbuthnot السفير البريطاني لتأييد زميله السفير الروسي . ولكن كان النفوذ البريطاني في إستانبول قد تضاعف بل وصل إلى الحضيض ، وطلب السفير البريطاني من حكومته إرسال قوات بحرية إلى منطقة المضائق تساعد في اتصالاته مع دوائر الباب العالي . وكان الجنرال سباستياني Sebastiani السفير الفرنسي قد وصل في ١٠ من أغسطس - آب - عام ١٨٠٦ إلى إستانبول حيث ظهر باستقبال رسمي حافل غير مسبوق بمثال . واستبان للسفير البريطاني المكانة العالية التي يتبوأها سرياً السفير الفرنسي في دوائر الباب العالي ، فكتب إلى حكومته في ١٥ من سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٦ يقول إذا لم تتحرك بريطانيا بأساطيلها فإن الفرنسيين سيقومون بتعزيز الاستحكامات العسكرية في المضائق ، ويكون هذا العمل موجهاً ضد بريطانيا . وقد تحققت تلبؤات السفير البريطاني في الأيام القليلة التالية . فقد قدم السفير الفرنسي مذكرة في ١٦ من سبتمبر - أيلول - إلى الباب العالي طلب فيها إغلاق البوسفور والدردنيل في وجه السفن الحربية الروسية ، وقرر فيها أن عدم الاستجابة لهذا الطلب يكون عملاً عدائياً موجهاً ضد فرنسا . وفي هذه الحالة فإن القوات الفرنسية الزاحمة الجرافة ، والمراطة في إيطاليا ، سوف تجتاز الأقاليم الشامية لمهاجمة الروس . وقال إن كل تحالف جديد أو استمرار العمل بتحالف قديم بين الدولة الشامية وبين أعداء فرنسا مثل بريطانيا والروسيا لن يكون نقضاً صريحاً أبداً للحيد ، ولكنه يعد إسهماً إيجابياً واضحاً من جانب الدولة الشامية في الحرب التي تشنها بريطانيا والروسيا على فرنسا .



وأكد السفير الفرنسي في مذكرته أن الحكومة الفرنسية ستجد نفسها مضطرة إلى اتخاذ إجراءات تتمشى مع مصالحها ومع كرامتها ، وأن القوات الفرنسية الكثيفة الرابطة في فلادشيا سوف تقاتل مقصوداً أساساً الدفاع عن الإمبراطورية العثمانية ضد أطماع بريطانيا والروسيا — ستوجه إلى أغراض تصادم تمارساً جذوياً مع الغرض الأول الذى من أجله أرسلت إلى فلادشيا .

### الدولة تمسح معاهدتها مع روسيا وبريطانيا :

وصل النفوذ الفرنسي في إستانبول إلى الأوج حين أقدمت الحكومة العثمانية بإرادتها المفردة وفى يوم واحد هو ١٤ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٦ على فسخ معاهدة التحالف الدفاعى المبرمة بينها وبين روسيا فى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٥ ، فكانت هذه المعاهدة الجائرة ظلت نافذة بعد تجديددها ثلاثة عشر شهراً وواحداً وعشرين يوماً . كما أقدمت الدولة العثمانية فى ذات اليوم وإرادتها المفردة على فسخ معاهدة التحالف الدفاعى المبرمة بينها وبين بريطانيا فى الخامس من يناير - كانون ثان - سنة ١٧٩٩ .

ومن المبادئ المجمع عليها فى القانون الدولى العام أن فسخ المعاهدة بالإرادة الانفرادية لإحدى الدول الأطراف فيها أمر غير جائز طالما أن المعاهدة لا تخول أطرافها هذا التصرف تأسيساً على أنه يؤدى إلى زوال الاستقرار فى العلاقات الدولية ، ويجعل الدول فى حل من تنفيذ التزاماتها الدولية متى شاءت ، ويسلب المعاهدات قدسيته ، ويجعل بقاءها أو انقضاءها متوقفاً على السلطة التحكيمية الانفرادية للدول الأطراف فيها . ومن ناحية أخرى فإن الدولة التى تمسح المعاهدة بإرادتها الانفرادية تستند عادة إما إلى حق الضرورة ، وإما إلى خرق الطرف الآخر لأحكام المعاهدة ، والنتيجة العملية لفسخ المعاهدة تقتضى الإرادة الانفرادية من أن يقضى الأمر إلى الخروج من دائرة القانون إلى دائرة السياسة والأمر الواقع *le fait accompli* ويؤدى فى

غالبية الأحيان إلى تغلب الدولة التي تتوفر لها أسباب القوة المادية<sup>(١)</sup> . ويبدو من الملاحظات التي أحاطت بهذا الإجراء أن الدولة العثمانية قد أقدمت على نسخ مصادقتها مع روسيا وبريطانيا بتشجيع من فرنسا وشعوراً منها بأن أحكام هاتين المعاهدتين تتعارض مع سياستها العليا في بسط سيادتها كاملة على المضائق والبحر الأسود .

وكان هذا الإجراء الدبلوماسي المزدوج من جانب الدولة العثمانية مقدمة لقطع العلاقات بينها وبين كل من روسيا وبريطانيا وقيام الحرب . ونفساً لنتجت دبلوماسية نابليون في أن تخرج الدولة العثمانية إلى الحرب ضد روسيا في عام ١٨٠٦ وضد بريطانيا في عام ١٨٠٧ :

### بريطانيا ترسل أسطولاً يفتحم المضائق :

على أن الحكومة البريطانية أقدمت قبيل قطع العلاقات مع الدولة العثمانية وقبول مفادرة السفير البريطاني والحايا البريطانيين إستانبول على عدة إجراءات ردت بها على الدولة العثمانية وعلى نابليون . كانت الوزارة القائمة في الحكم هي وزارة جروفليل Greaville وقد جاءت إلى الحكم في شهر فبراير - شباط - عام ١٨٠٦ خلفاً لوزارة ولهم بت Pitt ، وواجهت الموقف الدولي المضطرب والشائك . وأصدر وندهام W. Windham وزير الحربية فيها مذكرة مؤرخة في ٢١ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٦ واعتبرها سرية للغاية إلى الجنرال فوكس Fox القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة صقلية ، وكان مما جاء فيها : « إن بعض التصرفات التي صدرت عن الباب العالي أخيراً جعلت اتخاذ إجراءات سرية وحاسمة تجاه الحكومة العثمانية أمراً ضرورياً لا غناء عنه . ولذلك فقد كلفت بإبلاغكم أن أوامر قد صدرت إلى لورد نائب الأدميرال كولنجود Vice-Admiral lord Collingwood لإرسال قوة كافية من سفن حاضرة صاحب الجلالة ، تحت قيادة ضباط ذوي مقدرة وتجارب ، وإعطائهم تعليمات بأن

(١) دكتور حامد سلطان : القانون الدولي العام في وقت السلم - العاجرة ، ١٩٦٢

يتقدموا دون إضاعة لحظة واحدة من الوقت إلى مضائق إستانبول حيث يتخذون موضعاً يتيح للأسطول ممارسة أعمال عدائية ضد إستانبول في حالة فشل السامح التي كافه مستر أرثوثوت Mr. Arbutnot (السفير البريطاني) القيام بها لدى الحكومة العثمانية<sup>(١)</sup>.

وقد وقع الاختيار على أحد كبار ضباط البحرية وهو نائب أمير البحر سير جون دكورت Vice - Admiral Sir John T. Duckworth لقيادة الأسطول للتوجه إلى الدردنيل والبوسفور . وعهد إليه أن يلتقي الأسطول حراسيه في مياه البوسفور تجاه المصممة في مظاهرة عسكرية بحرية تأييداً لموقف السفير البريطاني في إستانبول، وأن يقدم إلى الحكومة العثمانية مذكرة بمطالب الحكومة البريطانية ، ومن بينها أن يقطع الباب العالي علاقاته مع الحكومة الفرنسية ، وما يترتب على هذا القطع من مطالبة السفير الفرنسي بمغادرة إستانبول، وأن يتبع الباب العالي خطة سياسية جديدة تقوم على التعاون ودعم العلاقات بين الحكومتين البريطانية والعثمانية، أي أن الحكومة البريطانية أرادت إجراء ما يسمى «مفاوضات مسلحة» armed negotiations مع الباب العالي لفرض مطالبها عليه . فإذا رفض الباب العالي الأخذ بما جاء في المذكرة البريطانية ، اعتبر هذا الرفض دليلاً على أن الحكومة العثمانية ماضية في تعاونها مع باريس ومصممة على موقفها العدائي من بريطانيا . وفي هذه الحالة يقوم دكورت قائد الأسطول بإبلاغ هذا الرفض إلى الجنرال فوكس Fox القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة صقلية ، فيسارع الأخير إلى إرسال جزء من قواته إلى الإسكندرية لاحتلالها كي تتخذي بريطانيا من الإسكندرية نقطة ارتكاز لتحركات القوات البريطانية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ضد فرنسا وضد الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup> . وكانت بريطانيا تعتقد أن نابليون يعاود الكرة

---

Donia G. et Mme Fawtier E. G.; L'Angleterre et L'Egypte. (١)  
La Campagne de 1807, Le Caire, 1928; doc. No. 1, pp. 1-2

لتحقيق أحلامه في الشرق وتنفيذ أطماعه في تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة فرنسية، كما كانت تعتقد أنها ارتكبت خطأ عسكرياً وسياسياً فاحشاً حين وافقت على الجلاء عن مصر تنفيذاً لصلح أميان Amiens (٢٧ من مارس - آذار - سنة ١٨٠٢) وقد تم الجلاء في مارس ١٨٠٣ ثم استؤنفت الحرب بين بريطانيا وفرنسا بعد ذلك بشهرين. فكان ذلك الإجراء الحربى البريطانى ذو الشقين - اقتصاد المضايق لتقديم المطالب البريطانية كي يأخذ بها الباب العالي أو احتلال الإسكندرية، يقوم على استخدام الضغط ووسائل التخويف مع الحكومة العثمانية لحملها على نصم عرى «التحالف» مع فرنسا<sup>(١)</sup>. وقد عبرت وزارة الحرب البريطانية عن أهدافها من هذه الإجراءات العسكرية بأنها «أرادت إكراه الباب العالي على التناقص من نفوذ فرنسا وحله على إعادة علاقته مع بريطانيا العظمى والروسيا».

“... to compel the Porte to shake off the influence of France and to return to her connexion with Great Britain and Russia”.<sup>(٢)</sup>

### الأسطول البريطانى يقتحم المضايق:

تمكن دكوث من عبور الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور دون عناء، ورسا بأسطوله أمام إستانبول في ١٩ من فبراير - شباط - سنة ١٨٠٧ كما سبق أن ذكرنا. ويلاحظ أن هذه هي المرة الوحيدة التي دخل فيها الأسطول البريطانى منطقة المضايق

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى: مصر في مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ - ١٨١١ ثلاثة أجزاء، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٥٨، ج ٢، ص ٥٩٦.

(٢) Douin G. et Mme Fawtier-Jones E.C.: op. cit. وثيقة رقم ٥٤، ص ٦٦ - ٦٨، مذكرة سرية مؤرخة في ٢٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٠٧ من لورد كاتلرير وزير الحرب البريطانية إلى جنرال فوكس القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة صقلية.

وهو في حالة « غير سلم » ، وسنرى بعد قليل أنه عجز عن اقتحام مصيق الدردنيل سنة ١٩١٥ في أثناء الحرب العالمية الأولى ، بعد هذا الحادث بأكثر من قرن من الزمان . ولما بلغ الأسطول مياه العاصمة كان شارل أربثنوت Charles Arbutnot السفير البريطاني قد غادرها ومعه جميع الرعايا البريطانيين ، كما رحل عنها من قبله إيتالينسكي Italinsky السفير الروسي . وقدم قائد الأسطول البريطاني إلى الباب العالي مذكرة حكومته . وكان موقف الباب العالي ضيقاً حرجاً . ولم يكن حرج مركز الحكومة العثمانية راجعاً إلى أنها تفضل إحدى هاتين الدولتين العملاقتين على الأخرى . وهذا هو خطأ المراجع الفرنسية . وكانت تود لو تركها لشأنها الإنجليز والفرنسيون معاً . ولكن كان الطرفان يضغطان عليها مضطراً لا هواده فيه وكان عليها أن تفسر ملياً في تقدير الموقف السياسي والعسكري ، وهل خطر الإنجليز أكثر من خطر الفرنسيين أو العكس . ومهدت الحكومة العثمانية إلى أسلوبها الدبلوماسي المألوف وهو التسوية . ولم يكن في مقدورها طرد الجنرال سيباستياني Sebastiani السفير الفرنسي ، لأن شخصيته كانت قوية ، ولأن ناهليون في القارة الأوروبية كان طاعياً ، وبخاصة بعد أن مد السيطرة الفرنسية إلى أقاليم في شرق أوروبا على مقربة من الممتلكات العثمانية هناك . وانتهت الحكومة العثمانية رأياً إلى أن فرنسا أشد خطراً عليها من خطر بريطانيا

ورأى قائد الأسطول أن الحكومة العثمانية لا ترد على مطالبه ، وأدرك أن هذا السمتم هو رفض للمطالب البريطانية ، ثم كان ما هو أشد خطراً . إذ لاحظ أن أعمال التعصبات العسكرية على ضفاف البوسفور والدردنيل قائمة على قدم وساق ، وأن السفير الفرنسي يشرف عليها بشخصه ، ففكر دكوث في الخروج من منطقة المضائق والعودة من حيث أتى قبل أن يتحرج مركزه وينلق الطريق على الأسطول . وكان تقدير دكوث للموقف الحربي سليماً ، فما كاد يتحرك للخروج من منطقة المضائق في طريقه إلى البحر المتوسط حتى ألئت مدنيّة

السواحل قذائفها على الأسطول وأصبحت بعض وحداته بمطبخ ، ولكنها لم تنقرق <sup>(١)</sup> . وكان ذلك في اليوم الثاني من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ بعد أن استطلت مكته في منطقة المضائق نحواً من اثني عشر يوماً . وقد جاء في مذكرة سرية مؤرخة في ٢٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٠٧ وضعها وزير الحربية البريطانية أن دكورت وجد نفسه مضطراً إلى الانسحاب بأسطوله من مياه البوسفور دون أن يحقق شيئاً ضد إستانبول . وعندئذ شرع دكورت بلفظ الشطر الثاني من خطة الحكومة البريطانية وهي إبلاغ الجنرال فوكس القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة سقلية رفض الحكومة العثمانية الاستجابة للطلاب البريطانية فيبادر فوراً بإرسال حملة إلى مصر تحتل مدينة الإسكندرية . ويقع في خطأ المؤرخ الفرنسي الكبير إدوارد دريو Ed. Driault مدير معهد الدراسات النابليونية في باريس حين يذكر أن بريطانيا لم تحتل الإسكندرية إلا بعد أن عجزت عن احتلال إستانبول ، وأنها أرادت أن تعوض فشلها الحربي في مياه البوسفور بنجاح عسكري على ضفاف النيل <sup>(٢)</sup> .

وقد جرد القائد العام للقوات البريطانية في سقلية حملة قوامها زهاء خمسة آلاف جندي <sup>(٣)</sup> بقيادة فريزر Major-General Mackenzie Fraser ولم يكن جميع جنود الحملة من الإنجليز ، بل كان من بينهم عدد كبير من الجنود المرتزقة من الإيطاليين دخلوا خدمة الإنجليز <sup>(٤)</sup> . وكانت لدى قائد الحملة أوامر صريحة بأن هدف الحملة هو احتلال الإسكندرية دون غيرها من البلاد المصرية <sup>(٥)</sup>

(١) Douin G. et Mme Fawtier-Jones E.C; op. cit., doc. no. 24, 7th March.] 1807. Duckworth to Fox.

(٢) Driault Ed; La Politique Orientale de Napoléon. Paris

(٣) Douin G. et Mme Fawtier-Jones E.C; op. cit.,

وثيقة رقم ٧ ، ص ٦ .

(٤) الوثائق رقم ٩ ، ٦٧ ، ٢٠ في المرحم السابق .

(٥) الوثائق رقم ١ ، ٧ ، ٩ ، ٣٦ ، ٧٧ في المرحم السابق .

ولو كان الإنجليز يريدون احتلال مصر لما كان هذا العدد الصغير يكفي لاحتلال البلاد، لأنهم كانوا قد مروا بتجربتين خلال سنوات قليلة سابقة<sup>(١)</sup>، ولما بانست الحملة الإسكندرية<sup>(٢)</sup> في ٦ من مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ استولت على ثلاث قطع بحرية عثمانية كانت راسية في الميناء القربي<sup>(٣)</sup>. وقد سلم المدينة إلى الإنجليز حاكمها أمين أغا ويسمى أيضاً أمين قبطان السكرتلي<sup>(٤)</sup> بعد أن وقعت شروط التسليم<sup>(٥)</sup>. واحتل الإنجليز الميناء والمدينة وقلاعها وضواحيها<sup>(٦)</sup> وحققوا الهدف الأساسي للحملة.

(١) كانت التجربة الأولى عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ وكانت تتكون من ٣٥ ألف جندي ولم يكن هذا العدد كافياً لسطح السيطرة الفرنسية التامة على مصر. وكانت التجربة الثانية عندما قرر الإنجليز الإسهام في إخراج الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠١ وكان - هم ١٢ ألف جندي كما كان معهم جيش عثاني .

(٢) لم تكن الإسكندرية حتى سنة ١٨٠٧ تتبع إدارياً حكومة القاهرة ، بل كان يحكمها أحد العسكريين ويتم مباهرة قبوون باشا ، أى قائد عام الأسطول العثماني إلى إسطنبول . ومما يذكر أن أحمد حورشيد باشا - وهو آخر وال عثماني على مصر قبل فتحه على كان في أول أمره حاكماً على الإسكندرية ثم رقي والياً على مصر . وكان من نتائج احتلال الإنجليز للإسكندرية سنة ١٨٠٧ أن أصبحت الإسكندرية تابعة لحكومة القاهرة إدارياً ، وسكان أحمد علي هو الملقب الوحيد من حكمه فريزر .

(٣) وثيقة رقم ٣٩ مؤرخة في ٢٣ مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ في المرجع المذكور في الماشية رقم ١ في ص ٢١١ -

(٤) يلاحظ أن قائد البهارة البحرية العثمانية التي كانت راسية في الإسكندرية واسمها سلت للإنجليز كان يسمى صالح أغا قومندان البحرية .

(٥) نشر دوان باللغة الإيطالية شروط التسليم ، الوثيقة رقم ٢٧ ، مرس ٢٣ - ٢٤ من المرجع السابق ، ونشرها معربة الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شكرى ، ج ٢ ، مرس ٦٠٥ - ٦٠٦ ، ونشر الجبرتي صورة من شروط التسليم كما عرفت لأهل القاهرة في ذلك الوقت . ( الجبرتي ج ٤ ، مرس ٤٥ - ٤٦ حوادث عزم سنة ١٢٢٢ .

(٦) تضاربت الأقوال حول تاريخ تسليم الإسكندرية للإنجليز فنذكر هذه التواريخ ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ من مارس - آذار - ١٨٠٧ . لكن البلاغ الرسمي الذي أذاعته قيادة الحملة جاء فيه أن الاحتلال قد تم في يوم ١٦ مارس - آذار -

أظهر الوثيقة رقم ١٦ ، مرس ٢٢ - ٢٣ من :

ولست هذه الدراسة مجالا لبحث الأسباب التي حملت قائد الحملة على مد العمليات الحربية إلى رشيد . وكان يزمع بعدها بعد ذلك إلى دمياط أيضاً<sup>(١)</sup> .

(١) كان القنصل العام لبريطانيا في الإسكندرية - وهو الليجور ميسيت Major Misset رجلاً عسكرياً على درجة كبيرة من الحن والفور والجهالة بالمسائل العسكرية . وكان من أنصار صم مصر إلى بريطانيا . وتعددت رسائله إلى الحكومة البريطانية في المدة من سنة ١٨٠٣ إلى أوائل سنة ١٨٠٧ يطالبها باحتلال مصر . ولما بلغت الحملة الإسكندرية اعتقد لحقه أن هذه القوة البريطانية الضئيلة المدد تكفي لاحتلال مصر كلها . ولم يسكن يومان على احتلال الإسكندرية حتى أرسل القنصل العام إلى فرير وصف له خطورة الموقف بالتهديد والوعيد للعبة نظراً لقلّة المواد الغذائية في الإسكندرية ، يمس حياه الجنود للخطر ، وذكر له أنه استطاع بصحبة صديق كميّة من الاغصم تكفي تموين جنود الحملة يوماً واحداً ، كما مرّر في ذات المذكرة أنه استولى على جزء من القمح المخصص لاستهلاك سكان المدينة . وأوضح له أن علاج الوب يتطلب ضرورة احتلال رشيد وارجانية ودمياط وترك حاميات بريطانية فيها . ولما لم يقنع القنصل العام من جانب قائد الحملة تردداً في تنفيذ اقتراحه ، أتب القنصل وبعاً من أعيان الإسكندرية للقاء فرير وأوصوهوا له بالقبول الذي يساورهم من نقص المواد الغذائية في المدينة . وذكروا له أنها تحصل على حاجاتها من داخل البلاد عن طريق الرجانية ورشيد . واتهم فرير هذه الأسانيد ، وجرد لضرورة الحربية قوة برية من الحملة وجهها إلى رشيد ولقيت المريعة وفي مصره المبحور جنرال وشوب Major General Wauchope قائد القوة الإنكليزية ، كما قتل أربعمائة جندي بريطاني . ( ٣١ من مارس - آذار - ١٨٠٧ ) ووصف فرير هزيمة الإنجليز في رشيد بأنها صرية قاسية جداً وغير متوقعة a very heavy and unexpected stroke upon us وأرسل قوة ثانية استهدفت عدة أغراض - ما : الفرض التمويق ، التأثير في رشيد ، والحفاظ على سمعة بريطانيا العسكرية ، وعهد بتيادها إلى الجنرال ستيوارت Stewart ولقيت هزيمة منكرة في معركة الحناد ( ٢١ من أبريل - نيسان - ١٨٠٧ ) وتراوح عدد القتلى والجرحى بين ١٢٠٠ و ١٤٠٠ وخرج مركز الإنجليز ، والقوة المتبقية لديهم لا يتجاوز عددها ثلاثة آلاف ، وأولم يمد لهم في مصر مدد أو حليف وانذر على بريطانيا إرسال نهذات لهم . فاستقر رأى قائد الحملة على تركيز كل قواته في الإسكندرية . ولم يفكر بمدد على مهاجمة الإنجليز . وقد ألقى كل من قائد الحملة والقنصل العام مسئولية الهزيمة في رشيد والحناد على الآخر ، وبادلا الاتهامات . وفي سياق الدفاع عن نفسه قال القنصل العام إن العالم ستعجبه الفهفة حين يسمع أن مدينة مثل رشيد قد استعصت على جيش أوروي .

“... the world will be astonished to hear that such a town as Rosetta could not be taken by an European army.

وقد تم جلاء القوات البريطانية عن الإسكندرية في ١٩ من سبتمبر - أيلول - ١٨٠٧ وعادت إلى قواعدا في جزيرة صقلية .



### بريطانيا تصرف النظر عن إعادة افتتاح المضائق :

تولى وزارة الحربية البريطانية لورد كاسلريه Castlereagh في ٢٠ من مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ حالاً لوند هام Windham . وقد انتقد الوزير الجديد الأسلوب الذي اتبعه سلفه في تنفيذ عملية افتتاح الدوفيل والبوسفور وإرسال جيش لاحتلال الإسكندرية . وقد وضع مذكرة سرية مؤرخة في ٨ من مايو - أيار - سنة ١٨٠٧ بعث بها إلى جنرال فوكس القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة صقلية استلهاها بعرض الملايسات التي أحاطت بحملة دكورث إلى منطقة المضائق . وقال إنه من الواضح أن الأتراك العثمانيين قد قاموا بتعزيز الاستحكامات الدفاعية على سواحل منطقة المضائق منذ مدة طويلة سبقت إرسال حملة دكورث ، وقد قاموا بهذه التعزيزات العسكرية تحت إشراف الخبراء الفرنسيين ، كما أن العثمانيين استطاعوا حشد قوات كبيرة للدفاع عن إسطنبول مما يجعل أية عملية حربية أخرى عديمة الجدوى إلا إذا استطاعت بريطانيا حشد قوات تفوقها عدداً وعدة وبشرط ألا يؤثر حشدها على سلامة جزيرة صقلية . وذهب وزير الحربية إلى أن مثل هذه القوات المطلوبة من حيث حجمها تفوق الإمكانيات المتاحة لبريطانيا في البحر المتوسط حتى لو انضمت القوات الروسية المرابطة في جزيرة كورفو إلى القوات البريطانية . وتأسيساً على هذه الحقائق استقر رأى الحكومة البريطانية على صرف النظر عن إرسال حملة أخرى إلى المضائق ، وقررت تشديد الحصار على موانئ الإمبراطورية العثمانية وتضييق الخناق على تجارتها حتى تعود الحكومة العثمانية إلى صوابها وتستأنف علاقاتها الطيبة مع بريطانيا<sup>(١)</sup> .

(١) Douin G. et Mme Fawtier-Jones, E.C.; op. cit.

### رأى الخبراء العسكريين في حملة دكورث :

وفي تقرير نشر لأول مرة في سبتمبر ١٨٣٧ ، ١٨٣٨ (١) جاء فيه أن وجه الغرابة في حملة دكورث إلى منطقة المسابق أنها لم تكن مصحوبة بقوات برية . وأن الجيش البريطاني الذي أرسل إلى الإسكندرية لاحتلالها كان يجب توجيهه أصلاً وأساساً مع الأسطول البريطاني إلى منطقة المضائق وإستانبول بدلاً من الإسكندرية ، وأن هذا هو وجه الخطأ الذي وقع فيه المخططون لحملة دكورث . فإن وجود جيش مع الأسطول كان يسدى أجل الخدمات للحملة البريطانية ، لأن الجيش كان في استطاعته احتلال بعض النقاط أو المراكز الإستراتيجية في منطقة المضائق بحيث تؤمن هذه المراكز انسحاب الأسطول ، كما أن وجود جيش بريطاني كان يضفي مزيداً من الأهمية والتأثير حين ظهر الأسطول في مياه البوسفور تجاه إستانبول وبخاصة أن المفاوضات التي كان مزماً إجرائها كانت مفاوضات مسلحة . وجدير بالذكر أن هذا الرأي الذي ورد في ذلك التقرير قد سبق أن أفصح عنه لورد كاسلريه وزير الخارجية البريطانية في مذكرة سرية مؤرخة في ٢٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٠٧ والتي سبق أن أشرنا إليها .

### تقسيم منطقة المضائق يحبط مشروع اقتسام الدولة :

من المشروعات التي فكر فيها نابليون عقب انتصاره على قوات روسيا وبروسيا في موقعة فريدلاند ( Friedland ) ( ١٤ من شهر يونيو - حزيران -

(١) عنوان هذا التقرير :

Notes on an Expedition to Alexandria in the Year 1807.

وقد نشر في United Service Journal وتمتص من دراسة هذا التقرير أن واضعه ، الذي لم يكشف عن شخصيته واكتفى باسم عام هو مايلز Miles ، كان معاصراً لأحداث حملة دكورث وأنه كتب في موضوعه وجهة ودقة .

وقد أعاد نشر هذا التقرير الضافي المؤرخ الفرنسي دوان ورميلته مدام فوير جونس في كتابها

L'Angleterre et l'Egypte, op. cit., pp. 183-285.

١٨٠٧) إعداد حملة برية فرنسية روسية مشتركة لغزو الهند . وسواء كان هذا المشروع يستهدف حقيقة غزو الهند أو كان مشروعاً خيالياً أراد به نابليون إرهاب بريطانيا لإجبارها على قبول السلم في أوروبا وفق الأوضاع التي أراد فرضها ، فقد اقترن هذا المشروع بمشروع آخر يرمي إلى تقسيم أملاك الدولة الألمانية بين الدول الأوروبية الكبرى . وقد عرض فكرة هذا المشروع هاردنبرج Hardenbourg وزير خارجية بروسيا على كل من نابليون وقيصر روسيا إسكندر الأول . وكان الباعث له على تقديم هذا المشروع أن تقال بلاده — بروسيا — خطراً مضاعفاً من المكاسب والمزايا : فهي تستولى على نصيب من ممتلكات الدولة الألمانية <sup>(١)</sup> وفي ذات الوقت يشغل نابليون وقته وجهده في هذا المشروع فيبتعد عن مسرح الأحداث السياسية والعسكرية في غرب أوروبا بعامة وبروسيا بخاصة .

ولم يرفض نابليون مشروع اقتسام ولايات الدولة الألمانية لأول وهلة ، ولم يقبله لأول وهلة ، وهذا دائماً شأن الرجل السياسي الحصيف وشأن الرجل العسكري المتزن . وقد عهد إلى سفيره لدى قيصر روسيا بمناقشة موضوع اقتسام أملاك الدولة الألمانية في حالة موافقة القيصر على مشاركة فرنسا في تسيير حملة برية مشتركة ضد بريطانيا إلى الهند . وقد وافق القيصر على اقتراح نابليون بخصوص الحملة المشتركة ، وكان قد تلقى خطاباً في فبراير — شباط — ١٨٠٨ أوضح فيه نابليون أهداف الحملة ومسارها وفوائدها ، ثم انتقل القيصر والسفير الفرنسي لمناقشة الموضوع الثاني . ولكن لم تسكد تبدأ مناقشة التفاصيل حتى تعذر الاتفاق

---

(١) جاء مشروع تقسيم أملاك الدولة الألمانية عام ١٨٠٨ على النحو التالي :  
 روسيا : بلفاريا — ولاشيا — مولدافيا — إستاتبول مع البوسفور والدردنيل  
 فرنسا : بلاد اليونان وجرر الأرخبيل  
 النمسا : البوسنة والمهرسك وسائر أنحاء الصرب  
 بروسيا : سكسونيا  
 ملك سكسونيا : يستولى على بولندا بعد إهادة سكسونيا .

حول مسألة المضائق . فقد تمسك القيصر بأن تؤول إلى بلاده منطقة المسابق ، بينما أصر السفير الفرنسي على أن تكون منطقة المضائق من نصيب بلاده . ولما وصلت المناقشة إلى طريق مسدود اقترح السفير الفرنسي حلاً وسطاً من وجهة نظره ، وهو أن تستولى روسيا على مدينة إستانبول والبوسفور القى تطل مياهه على العاصمة ويعدى ذات الوقت المخرج من البحر الأسود وأن تستولى فرنسا على الدردنيل الذى يؤدى إلى البحر المتوسط . ومن المعروف أنه يقع على مقربة من الدردنيل فى هذا البحر مجموعة من الجزر ذات أهمية إستراتيجية بالغة تجعل منها قواعد عسكرية من الطراز الأول . وقد رفض هذا الاقتراح ووصفه بأنه غير عملى . وكان مما قاله إن أياً من البوسفور والدردنيل لا قيمة له بدون الآخر . وكانت مسألة ملكية المضائق هى الصخرة التى تحطم عليها مشروع اقتسام أملاك الدولة العثمانية فى عام ١٨٠٨<sup>(١)</sup> .

### ( ح ) معاهدة الدردنيل بين الدولة العثمانية وبريطانيا ( ١٨٠٩ ) :

كان صلح تيلست Tilsit الذى أمضيت شروطه فى السابع من يوليو - تموز - سنة ١٨٠٧ بين نابليون وإسكندر الأول قيصر روسيا قد أتاح بالتقارب البريطانى الروسى ، ومهد الطريق لقيام تقارب بين الدولة العثمانية وبريطانيا . ومن ثم عقدت بين هاتين الدولتين فى الخامس من شهر يناير - كانون ثان - سنة ١٨٠٩ معاهدة الدردنيل ، أطلق عليها أيضاً معاهدة السلام والتجارة والتحالف السرى Treaty of Peace, Commerce and Secret Alliance . وقد قررت هذه المعاهدة إعادة سريان المعاهدات والاتفاقيات التى سبق عقدها بين الدولتين فيما يختص بنظام الامتيازات الأجنبية والتجارة فى البحر الأسود ، واعتبار هذه المعاهدات والاتفاقيات سارية منذ إبرامها ، وكأنها لم تعرض لفترة

توقف أو تعطيل أو إلناء (المادة ٤) ، كما نصت هذه المعاهدة على منع السفن الحربية في وقت السلم وزمن الحرب من عبور المضائق والدخول في البحر الأسود . وبذلك أصبحت بريطانيا أول دولة أوروبية تعترف بحق الباب العالي في غلق المضائق في وجه السفن الحربية الأجنبية في جميع الأوقات « بشرط أن تراعى كل دولة في المستقبل هذا النظام القديم في الإمبراطورية العثمانية »<sup>(١)</sup> . وبذلك أكدت معاهدة الدردنيل ركناً رئيسياً من أركان السياسة العليا للدولة العثمانية كانت تتمسك به في عصور قوتها .

### ( ط ) معاهدة أدنة بين الدولة العثمانية والروسيا ١٨٢٩ :

وتطورت الثورة التي قام بها الشعب اليوناني طلباً للاستقلال تطوراً أدى إلى نشوب الحرب بين الدولة العثمانية والروسيا في السادس والعشرين من شهر أبريل - نيسان - سنة ١٨٢٨ وانتهت بإبرام معاهدة أدنة في الرابع عشر من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٢٩ ، ونصت على أن يكون للسفن الروسية التجارية من أى حجم الحق في المرور عبر المضائق وفي الملاحة في البحر الأسود وفي التمتع بحرية التجارة فيه ، كما تقرر هذا الحق بالنسبة للدول الأخرى التي تكون في حالة سلم مع الدولة العثمانية . ونصت المعاهدة أيضاً على أن تصبح ولاية الأفلاق والبندان - رومانيا حالياً - مستقلتين في إدارتهما الداخلية تحت حماية روسيا<sup>(٢)</sup> . وكان هذا النص تدعيماً لمركز روسيا في البحر الأسود

(١) تجدد النص الرسمي والكمال لهذه المعاهدة في :

Harewitz, J.C.; op. cit., t. I, pp, 81—84.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إستانبول في ٢٧ من يوليو - تموز - سنة ١٨٠٩ .

(٢) أصبحت الرابطة الوحيدة التي تربط هاتان الولايتان بالدولة العثمانية تنحصر في حق السلطان في تعيين أمراء الموسندار Hospodars الحاكمين ، وفي دفع الحزبة السنوية للباب العالي .

كلإحدى دول هذا البحر ، ونجم عن هذا النص أن تقلصت السيادة العثمانية عن جميع مصاب نهر الدانوب في البحر الأسود <sup>(١)</sup> مما يعد خروجاً على السياسة العليا للدولة .

(ى) معاهدة تجارة وملاحة بين الدولة العثمانية والولايات المتحدة الأمريكية ( ١٨٣٠ ) :

وفي غمار أطماع بعض الدول وتطلعات البعض الآخر عقدت الدولة العثمانية مع الولايات المتحدة الأمريكية معاهدة تجارة وملاحة Treaty of Commerce and Navigation في السابع من شهر مايو - آيار - سنة ١٨٣٠ تقرر فيها معاملة سفن الولايات المتحدة معاملة سفن الدول الأكثر رعاية وذلك بمنحها الحق في عبور المضائق والدخول إلى البحر الأسود والخروج منه سواء كانت هذه السفن عملة أو غير عملة <sup>(٢)</sup> .

(ك) معاهدة هنكار إسكلى بين الدولة العثمانية والروسيا ( ١٨٣٣ ) -

وعلى أثر الانتصارات التي حققها الجيش المصري على الجيش العثماني في حرب الشام الأولى عقدت الدولة العثمانية في الثامن من شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٣٣ مع روسيا معاهدة تحالف دفاعي هي معاهدة هنكار إسكلى Hunkar Iskelesi وكان النص الرسمي لهذه المعاهدة قد وضع باللغة الفرنسية وحاول كل فريق بعد ذلك في ترجمته مواد المعاهدة أن يسرها طبقاً لمصاحته ،

(١) Miller, W.; op. cit., pp. 180—181.

(٢) نجد النص الرسمي والكامل لهذه المعاهدة في:

Harewitz, J.C.; op. cit., t. I., pp. 102—106.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إستانبول في ٥ من أكتوبر - تشرين الأول - ١٨٣١ .

ونشأت عن ذلك ثلاثة تفسيرات مختلفة يطلق عليها ثلاث مدارس. ولن نخوض فيها في هذه الدراسة. وقد تقرو أن تكون مدة الذخائف الدفاعي ثمانى سنوات . وقد ألحقت بالمعاهدة مادة سرية نصت على أن يفتق السلطان المضايق في وجه أية سفينة حربية أجنبية ما عدا السفن الروسية الحربية التي يكون لها وحدها دون سواها من السفن الأجنبية حق عبور المضائق (١) . وقد أنشأت هذه المعاهدة للروسيا مركزاً ممتازاً في الدولة العثمانية وعصفت بالسياسة العليا للدولة . ودخلت وحدات من الأسطول الروسى إلى البوسفور في شهر فبراير - شباط - عام ١٨٣٣ ثم قدمت حملة روسية بحرية وبرية إلى البوسفور وأذنت حكومة السلطان للقوات البرية أن تمسك على الساحل الآسيوى بحجة حماية السلطان من واليه الشائر محمد على باشا . وكان عام ١٨٣٣ سنة مهمة لأن الروسيا سيطرت فيها للمرة الأولى والأخيرة على إستانبول وعلى المضائق العثمانية . وإذا كان خطر محمد على قد ذهب إلى حين ، فقد ظل خطر الروس قابلاً في منطقة المضائق عاصماً بالسياسة العليا للدولة .

وقد نظرت كل من بريطانيا وفرنسا إلى المعاهدة على أنها أداة تجعل من الدولة العثمانية دولة تسير في ركاب الروسيا ، ولذلك بادرتا في السادس والعشرين من شهر أغسطس - آب - سنة ١٨٢٣ إلى الاحتجاج رسمياً لدى الباب العالي على عقد هذه المعاهدة (٢) .

(١) تمهد النص الرسمي لهذه المعاهدة في

Hurewitz J.C., op. cit., vol. pp.105—106

وقد تم تبادل وثائق التصديق عليها في إستانبول في ٢٠ من أغسطس - آب - ١٨٢٣

Op. cit., p. 106.

(٢)

Miller W.: op. cit., pp. 147—148 .

## ( ل ) معاهدة لندن بين الدولة العثمانية وأربع دول أوروبية ( ١٨٤٠ ) :

ون معاهدة لندن التي أبرمت في الخامس عشر من شهر يوليو - عوز - سنة ١٨٤٠ بين الدولة العثمانية وبريطانيا والروسيا وبروسيا والنمسا لتسوية المسألة المصرية وإنهاء النزاع بين السلطان ومحمد علي - وقد انضمت فرنسا إلى هذه المعاهدة في الخامس عشر من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٤١ فأصبحت معاهدة جماعية سداسية - وردت في أكثر من موضع نصوص صريحة على أن الباب العالي يلتزم التزاماً دقيقاً بمنح السفن الحربية الأجنبية من المرور في المضائق . وجاء في هذه المعاهدة أنه إذا أقدم محمد علي وإلى مصر على توجيه قواته البرية والبحرية للزحف على إستانبول ، فإن الدول الأطراف في المعاهدة توافق - بناء على الطلب الصريح الذي يصدر عن السلطان - على الاستجابة لطلبه وتتخذ الإجراءات لحماية عرشه عن طريق التعاون الذي يتم بموافقة مشتركة من الدول الموقعة على المعاهدة ، وبذلك تصبح المضائق وكذلك باقي الأراضي العثمانية في مأمن من كل اعتداء . كما تقرر أن تظل قوات الدول المتعاقدة مرابطة في مواقعها طالما كان وجودها أمراً يطلبه السلطان العثماني . وحين يرى الأخير أن وجود تلك القوات أصبح أمراً غير ضروري ، فإنها تنسحب في وقت واحد وتعود إلى مواقعها الأصلية سواء في البحر الأسود أو البحر المتوسط ( مادة ٣ )

وورد في المعاهدة أيضاً أن التعاون المشترك بين الدول الموقعة عليها والمهادف إلى وضع المضائق وإستانبول ومأمن من العدوان المصري ، يعد إجراء عسكرياً استثنائياً اتخذ في هذه الحالة الوحيدة بناء على طلب صريح من السلطان للدفاع عنه . ومن المتفق عليه أن مثل هذا الإجراء لا يلتفتن بأية درجة وعلى أي نحو من النظم التي درج عليه الحكم في جميع الأوقات في الإمبراطورية العثمانية ، وبمقتضاها كانت تمنح السفن الحربية التابعة للدول الأجنبية من عبور المضائق . ونصت المعاهدة على أنه فيما يتعلق بالحالة المشار إليها وهي مرابطة قوات الدول الموقعة عليها ، في المضائق ،



فإن السلطان يملن قراره الثابت بأن يلتزم في المستقبل بهذا الببدأ الذي أرسيت قواعده إرساء لا يتخير كدظام قديم سار عليه الحكم في الإمبراطورية العثمانية . وطالما كان الباب العالي في حالة سلم ، فإنه لا يسمح لأية سفينة حربية أجنبية بدخول المضائق وعبورها . ومن ناحية أخرى فإن أباطرة وملوك الدول الموقفة على المعاهدة يتعهدون باحترام قرار السلطان والالتزام بهذا الببدأ (المادة الرابعة)

والحق بالمعاهدة بروتوكول جاء فيه أن السلطان مع التزامه بمنع جميع السفن الحربية الأجنبية من عبور المضائق في جميع الأوقات فإنه يحتفظ لنفسه بالحق في إصدار تصاريح بالمرور عبر الدردنيل والبوسفور للسفن الحربية الخفيفة الموضوعة في خدمة السفارات والقنصليات التابعة للدول الصديقة (١) .

ووقعت بريطانيا والنمسا والروسيا وروسيا في السابع عشر من سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٤٠ بروتوكولا أطلق عليه بروتوكول انتفاء النرض Self-Denying Protocol ألحق بماهدة لندن وقررت فيه هذه الدول الأربع - إذ لم تكن فرنسا قد انضمت بعد إلى المعاهدة - ألا يسمى أى منها للحصول على أراضي أو الاستئثار بنفوذ أو النظر بامتيازات تجارية لهاياها لم تحصل عليها كل دولة أخرى على قدم المساواة (٢) .

### ( م ) اتفاقية المضائق ( ١٨٤١ ) :

كان انضمام فرنسا في الخامس عشر من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٤١ إلى معاهدة لندن المبرمة في الخامس عشر من شهر يوليو - تموز - من السنة السابقة كفيلا

(١) عهد النص الرسمي لهذه المعاهدة في :

Hurewitz, J.C.; op. cit., vol. I, pp. 116-119.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في لندن في ١٧ - سبتمبر - أيلول - ١٨٤٠ .

(٢) Thomas Erskine Holland, The European Concert in the Eastern Question, Oxford, 1885, p. 97

بعودة وحدة الصف إلى الدول الأوروبية الكبرى فيما يختص بتسوية المسألة الشرقية. فلما انتهت الأزمة الثمانية المعربة توصلت الدول الكبرى الست - وهي الدولة الثانية وبريطانيا وفرنسا والروسيا والنمسا وبروسيا - إلى عقد اتفاقية جماعية في الثالث عشر من شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٤١ ومن ثم أطلق عليها إتفاقية لندن بخصوص المضائق *Convention of London regarding the Straits* وقد أurst هذه الاتفاقية نظاماً للمضائق ظل معمولاً به بدون إدخال تعديلات جوهرية عليه حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤. وتقع الاتفاقية في ثلاث مواد - نصت الأولى على أن السلطان، من ناحية، يعلن تصديمه الثابت على أن يلتزم في المستقبل بالهدأ الذي أرسيت قواعده من قبل ولم يتغير كنظام قديم في حكم الإمبراطورية، ويعتقضاء حرم في جميع الأوقات على كل السفن الحربية التابعة للدول الأجنبية دخول المضائق، وأنه طالما كان الباب العالي في حالة سلم، فإن السلطان لن يسمح لأية سفينة حربية أجنبية بدخول المضائق. ومن ناحية أخرى يعلن أباطرة وملوك الدول الموقعة على الاتفاقية أنهم يتعهدون باحترام تصميم السلطان وبإتزام هذا الهدأ. واحتفظ السلطان لنفسه في المادة الثانية بحق منح تراخيص بمرور السفن الحربية الخفيفة التي سوف تستخدم، وفقاً للعادة المتبعة، في خدمة السفارات والتفصليات التابعة للدول الأجنبية. والتزم السلطان في المادة الثالثة بتبليغ هذه الاتفاقية إلى جميع الدول التي تربطها علاقات صداقة يدعومهم إلى الموافقة عليها<sup>(١)</sup>. وكانت هذه الاتفاقية الدولية الجماعية تتمشى نصاً

(١) نهد النص الرسمي لهذه الاتفاقية و.

Hurewitz, J.C.; op. cit., p. ٤ I, p. 128

انظر أيضاً كلام :

Gorainow, S.; Le Bosphore, chap. 10.

Phillipson, C. and Buxton N.; The Bosphorus, part 2, chap 4.

Webster, C.; The Foreign Policy of Palmerston (1880—1841), vol 2, pp, 758—767.

Mischef, P.H.; La Mer Moire. chap. 5

Shotwell, J.T. and Desk F.; Turkey at the Straits. chap 4

وروحاً مع السياسة العليا للدولة العثمانية فيما يختص بسيادتها على المضائق .  
واكتسبت الدولة العثمانية قوة دولية بشتراك خمس دول أوروبية كبرى معها في  
تقرير حق الباب العالي في غلق المضائق في وجه السفن الحربية الأجنبية . وتعتبر  
هذه الاتفاقية نصراً للدبلوماسية البريطانية ، لأنها — أى الاتفاقية — قد ألنت  
ضمناً معاهدة هنكار أسكلسى التى كانت تمنح روسيا امتيازاً عسكرياً خطيراً  
انفردت به دون سائر الدول ، فوقفت هذه الاتفاقية الجماعية سداً مقيماً في وجه  
الأطماع الروسية التى كانت ترى إلى تحقيق نوع من السيطرة العسكرية على  
المضائق والاستيلاء على إستانبول في نهاية المطاف ، سواء بالاشتراك مع الدولة  
العثمانية في الدفاع عن المضائق أو بعبور أسطولها الحربي الهوسفور والدردنيل .

( ن ) معاهدة بين الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا لتقديم مساعدات

حربية دفاعاً عن المضائق ( ١٨٥٤ ) :

ولما اندلعت حرب القرم بين الدولة العثمانية والروسيا في سنة ١٨٥٣  
استطاع الأسطول الروسى في ٣٠ من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٨٥٣  
تدمير قوة بحرية عثمانية كانت راسية تجاه سينوب Sinope — وهي ميناء عثماني  
على الساحل الجنوبي لبحر الأسود — وأثارت هذه الكارثة عاصفة من السخط  
في أوساط الرأي العام في إنجلترا ضد روسيا ، وأطلق الشعب الإنجليزي على  
هذه الواقعة : مذبحة سينوب Massacre of Sinope ، وقامت مظاهرات  
في إستانبول تطالب بالتأثر من روسيا . وكانت الحكومتان البريطانية والفرنسية

قد أمرنا في ٤ من شهر أكتوبر - تشرين أول - عندما تدهور الموقف بين الدولة العثمانية والروسيا - الأسطولين البريطانى والفرنسى بالتحرك نحو خليج بيزيكا Bosika خارج الدردنيل ليكونا على مقربة من مسرح الأحداث . وأذنت الحكومة العثمانية للأسطولين فى اجتياز منطقة المضائق بصفتها قوات حليفة تقف إلى جانب الدولة ضد الروسيا والتي كانت قد قامت بعدوان على بعض ممتلكاتها واحتلت ولايتى الدانوب - الأفلاق والبغدان - وأظهر الشعب التركى العثمانى مظاهر الابتهاج بوصول وحدات من الأسطولين البريطانى والفرنسى واستقبلهما على ضفاف البوسفور استقبالا حماسيا . وترتب على معركة سينوب أن دخل الأسطولان البريطانى والفرنسى البحر الأسود فى ٤ من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٥٤ (١) واشتعلت الحرب فى شهر مارس - آذار - عام ١٨٥٤ بين الروسيا من ناحية والدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا ثم مملكة سردينيا أو 'بيدمنت' فيما بعد من ناحية أخرى (٢) .

وفى الثانى عشر من شهر مارس عام ١٨٥٤ عقدت معاهدة ثلاثية قامت على تحالف بين الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا أطلق عليها معاهدة من أجل المساعدة العسكرية للباب العالى Treaty of Military Aid to the Sublime Porte. جاء فيها أن ملكة بريطانيا وإمبراطور فرنسا قد استجابا لطلب السلطان

---

(١) تذكر بعض المراجع أن الأسطولين البريطانى والفرنسى دخلا البحر الأسود فى نهاية أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٥٣ .

(٢) انظر تفاصيل الاتصالات الدبلوماسية المكثفة بين الدول الكبرى ، ثم المذكرة المشهورة التى عرفت باسم القط الرابع ، وهى المذكرة التى وجهت دبلوماسية حرب القرم . وكان من بين هذه النقاط وأهمها النقطة الثالثة وهى إعادة النظر فى اتفاقية المضائق لعام ١٨٤١ من أجل حفظ وتحقيق توازن القوى فى أوروبا وللمحد من تفوق الروسيا البحرى فى البحر الأسود . ثم اجتماع مؤتمر فيينا فى ١٥ من مارس - آذار - عام ١٨٥٥ فى أثناء الحرب .  
انظر هذه التفصيلات وغيرها فى كل من :

Miller W. ; op. cit., pp. 199-242.

دكتور محمد مصطفى صفوت : المسألة الشرقية ومؤتمر باريس ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٤ - ٤٩ .

( م ١٥ - الدولة العثمانية - )

مساعدته لصعد العدوان الروسى الذى هدد سلامة الإمبراطورية العثمانية ،  
وأنها قد أمرا قواتهما البحرية بالتقدم نحو إستانبول ، وقواتهما البرية  
للدفاع عن الأراضى العثمانية فى أوروبا وفى آسيا ضد هذا العدوان ( المادة  
الأولى ) . وقررت المعاهدة أنه حالما يتحقق هدف المعاهدة بإزالة الخزيمة  
بالقوات الروسية وعقد الصلح ، فإن ملكة بريطانيا وإمبراطور فرنسا يتخذان  
التدابير للانسحاب الفورى ، لقواتهما البحرية والبرية التى اشتركت فى الحرب .  
وحددت المعاهدة لجلاء القوات البريطانية والفرنسية فترة أربعين يوماً أو  
أقل من ذلك إذا كان ممكناً من تاريخ التصديق على معاهدة الصلح مع  
الروسيا (١).

#### ( س ) معاهدة باريس ١٨٥٦ ومشكلة المضائق والبحر الأسود :

أسفرت حرب القرم بعد سقوط سيستبول فى ٨ من سبتمبر - أيلول -  
١٨٥٥ فى بيد الحلفاء ، وكانت مملكة سردينيا قد انضمت إليهم ، عن معاهدة  
باريس فى الثلاثين من شهر مارس - آذار - عام ١٨٥٦ . وبهنا فى هذه  
الدراسة المواد المتعلقة بالمضائق والبحر الأسود .

أكدت معاهدة باريس المبدأ التقليدى ، وهو منع السفن الحربية الأجنبية  
من المرور فى المضائق . وقالت إن السيادة العثمانية لا تحيد عن هذا المبدأ ،  
وإن اتفاقية المضائق التى عقدت فى ١٣ من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٤١  
والتي تؤكد هذا المبدأ تقرها الدول الموقعة على معاهدة باريس وتعتبرها  
من ملاحق هذه المعاهدة ، ولها نفس القوة والمشروعية ، ولأنها تشكل جزءاً  
لا ينفصل عن المعاهدة ( المادة العاشرة ) . وهكذا أكدت معاهدة باريس  
السياسة العليا للدولة العثمانية فيما يختص بالمضائق . وكانت المادة العاشرة من  
تلك المعاهدة نصراً للدولة .

---

( ١ ) تجد النص الرسمى لهذه المعاهدة فى :

Hurewitz J.C. ; op cit , vol 1 ; pp 144-145

وعد تم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة فى إستانبول فى الثامن من شهر مايو - آيار

- عام ١٨٥٤ .

وقررت المعاهدة أيضاً أن يكون البحر الأسود بحراً محايداً في مياهه وموانئه ومنزوحاً للدفن التجارية التابعة لجميع دول العالم ، ولكن تظل مياهه وموانئه رسمياً وإلى الأبد منطقة محرمة على الدفن الحربية سواء سفن الدول التي لها سواحل تطل عليه أو لا تطل عليه فيما عدا استثناءين وردا في المادتين رقم ١٤ ورقم ١٩ من معاهدة باريس (المادة الحادية عشرة) . ونصت المعاهدة على ألا تقام عوائق أمام التجارة في موانئ ومياه البحر الأسود وعلى ألا تُنْضَع هذه الموانئ والمياه إلا للوائح الصحية والعادات ونظم الشرطة التي توضع بروح تستهدف نمو المعاملات التجارية ، ولكن يتوفر الأمان المطالب أمام المصالح التجارية والبحرية لكل الدول ، تسمح الدولة العثمانية والروسيا بتعيين قناصل للدول الأجنبية في الموانئ الواقعة على سواحل البحر الأسود في النطاق الذي تجيزه قواعد القانون الدولي العام (المادة الثانية عشرة) . وقالت معاهدة باريس أيضاً إن إنشاء ترسانات بحرية حربية على سواحل البحر الأسود أو الإبقاء على الموجود منها يصحح أمراً لا مبرر له تأسيساً على حيطة البحر الأسود . وبناء على ذلك تتعهد الدولة العثمانية والروسيا بعدم إنشاء أو إبقاء أية ترسانات بحرية عسكرية على سواحل هذا البحر (المادة الثالثة عشرة)<sup>(١)</sup> وهكذا حافظت معاهدة باريس إلى حد كبير على السياسة العليا للدولة العثمانية حين جمعت البحر الأسود منطقة محرمة على السفن الحربية التابعة لجميع الدول بما فيها الروسيا.

### (ع) اتفاقية جماعية خاصة بالمضائق عام ١٨٥٦ :

وفي ذات اليوم الذي أبرمت فيه معاهدة باريس (٣٠ مارس - آذار - عام ١٨٥٦) عقدت اتفاقية خاصة بالمضائق وقعها جميع الدول الأطراف في معاهدة باريس ، وجاء فيها أن السلطان يعلن عن عزمه الثابت على التمسك في قابل الأيام بالأبدأ الذي أرسيت قواعده وهو مبدأ غير قابل للتغيير ، وهو مبدأ خاص بالنظام الذي جرى عليه العمل في حكم الإمبراطورية

(١) تجد النص الرسمي لهذه المعاهدة في :

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. 1, pp. 153—156

وقد تم تبادل ونائقي التصديق على المعاهدة في باريس في ٢٧ من أبريل - نيسان - ١٨٥٦

العثمانية ، وبمقتضاه منعت في جميع الأوقات السفن الحربية التابعة للدول الأجنبية من عبور المضائق ، وأنه طالما كان الباب العالي في حالة سلم فإنه لن يسمح لأية سفينة حربية أجنبية بدخول المضائق . ومن ناحية أخرى فإن جميع الدول الموقعة على معاهدة باريس تتعهد باحترام هذا القرار من جانب السلطان وبالاتزام بهذا المبدأ ( المادة الأولى ) . وقد استبقى السلطان في هذه الاتفاقية حقه الاستثنائي القديم في السماح بمرور المراكب الحربية الخفيفة الموضوعة في خدمة السفارات والقنصليات ( المادة الثانية ) . واستحدثت الاتفاقية استثناء آخر خاصاً بالسفن الحربية الأجنبية التابعة للدول الموقعة على معاهدة باريس والسماح لكل منها بالمرابطة في مصاب نهر الدانوب في البحر الأسود ضمناً لتنفيذ الواجبات الموضوعة لكفالة حرية الملاحة في هذا النهر بحيث لا يزيد عدد هذه السفن عن اثنين لكل دولة ( المادة الثالثة ) (١) وقد ألحقت هذه الاتفاقية بمعاهدة باريس .

(ف) اتفاقية ثنائية بين الدولة العثمانية والروسيا تحدد القوات البحرية لكل منهما في البحر الأسود ( ١٨٥٦ ) .

وعقدت في ذات اليوم أيضاً اتفاقية ثنائية بين الدولتين العثمانية والروسية تحدد القوات البحرية التي تحتفظ بها كل منهما في البحر الأسود لخدمة سواحلها المطلة عليه بحيث لا تتجاوز أية دولة منهما العدد المقرر للسفن الخفيفة وقوتها وحجمها وحمولتها وعدد أفرادها . وهي تفاصيل حددتها المادة الثانية من الاتفاقية (٢) . وقد تقرر إلحاق هذه الاتفاقية بمعاهدة باريس على أن تكون لهذه الاتفاقية نفس القوة ونفس المشرعية وتعتبر جزءاً لا يتجزأ من المعاهدة . وتأسيساً على هذا الوضع القانوني لهذه الاتفاقية الثنائية العثمانية الروسية ، تقرر عدم إلغائها أو تعديلها بدون موافقة الدول الأطراف في معاهدة باريس ( المادة الرابعة عشرة ) .

---

(١) تجد نص هذه الاتفاقية في :

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. I, p. 156

Loc. cit.

(٢)

### (ص) معاهدة جماعية لضمان تنفيذ أحكام معاهدة باريس ١٨٥٦

ورغبة في إضفاء مزيد من الضمانات لتنفيذ أحكام معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ، ورغبة في تبديد كل أمل قد راود روسيا في تعديل أو إلغاء أو تجاهل المواد الخاصة بالمضايق وتحميد البحر الأسود ، وقعت الدول الثلاث بريطانيا وفرنسا والنمسا معاهدة في الخامس عشر من شهر أبريل - نيسان - سنة ١٨٥٦ جاء فيها أن الدول الثلاث تضمن استقلال وسلامة الإمبراطورية العثمانية ، وأن كل إخلال بأية مادة من مواد معاهدة باريس يكون سبباً للحرب *Casus Belli* . وفي هذه الحال تتفق الدول الثلاث مع الدولة العثمانية على الإجراءات التي ترى هذه الدول الأربع أنها ضرورية لاستخدام قواتها البرية والبحرية (١) .

### (ق) معاهدة لندن (١٨٧١) لتعديل أحكام معاهدة باريس بخصوص المضايق والبحر الأسود .

وقد تمحقت مخاوف الدول الكبرى من نيات روسيا نحو مسألة المضايق والبحر الأسود . فقد انتهز إسكندر الثاني قيصر روسيا (١٨٥٥ - ١٨٨١) فرصة اندلاع الحرب السبعينية بين فرنسا وبروسيا ، وتحرك دبلوماسياً ، وطالب الدول الكبرى بتعديل النصوص التي وردت في معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ والخاصة بمسألة المضايق والبحر الأسود . وكان هذا القيصر يعتبر ماورد بشأن هذه المسألة في تلك المعاهدة وصمة عار في تاريخ بلاده . واختار لتحركه الدبلوماسي وقتاً عصيباً ، إذ كانت الأعصاب مشدودة لتطور الموقف العسكري والسياسي في أوروبا وعجز فرنسا الجريحة وقتذاك عن الانضمام إلى بريطانيا أو غيرها من الدول في وجه روسيا . فتقدم إلى الدول الكبرى الموقعة على معاهدة باريس بملكرة مؤرخة في ٣١ من أكتوبر

---

(١) تجد نص هذه المعاهدة في :

Hurewitz J.C. ; op. cit., t. I., p. 156

وقد تم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة في باريس في ٢٩ أبريل - نيسان - ١٨٥٦ .



تشرين أول — ١٨٧٠ وأردفها بأخرى مؤرخة في أول نوفمبر — تشرين ثان — ١٨٧٠ (١) قرر فيها أن معاهدة باريس قد وضعت روسيا في مركز سيء بالنسبة لبقية الدول الأطراف في هذه المعاهدة ، وهو المذاك يرى نفسه مضطراً لأن يجيز لنفسه أن يعلن أن الاتفاقية التي تمجد عدد وحجم ونوعية السفن الحربية التي يكون للدولة العثمانية وللروسيا الحق في الاحتفاظ بها في البحر الأسود — وهى الاتفاقية الملحقة بمعاهدة باريس والتي أشرنا إليها من قبل تحت بند ف — أصبحت غير ذات موضوع . وكان لهذا التصرف الروسى وقع سيء للغاية في الاوثر البريطانية التي اعتبرت تصرف القيصر إهداراً لمبدأ احترام المعاهدات الدولية وعملها انفرادياً من جانبه . وتدخل بسمارك المستشار الألماني ، واقترح عقد مؤتمر دولي لإعادة النظر في النصوص الخاصة بمسألة المضائق والبحر الأسود . وكان بسمارك يريد مكافأة روسيا لأنها التزمت الحيدة في أثناء الحرب السبعينية بين فرنسا وبروسيا . وانصاعت بريطانيا لرأى المستشار الألماني (٢) . وعقد مؤتمر في لندن في المدة من ١٧ يناير — كانون ثان — إلى ١٣ مارس — آذار — سنة ١٨٧١ أسفر عن عقد معاهدة جماعية من الدول الكبرى في الثالث عشر من شهر مارس — آذار ١٨٧١ عرفت باسم معاهدة لندن . رتقر فيها إلغاء النصوص الخاصة بحيدة البحر الأسود والمواد ١١ ، ١٣ ، ١٤ والتي سبق أن بسطنا مضمونها عند التعرض لمعاهدة باريس ، كما ألغيت الاتفاقية الخاصة بتحديد القوات البحرية للدولتين في البحر الأسود . وحلت النصوص الآتية محل المواد الملغاة والاتفاقية النهائية الملغاة .

تقرر في معاهدة لندن لسنة ١٨٧١ أن يظل نافذاً مبدأ غلق المضائق على النحو الذي كان مقررأ في الاتفاقية المنصلة والمعقودة في ٣٠ مارس — آذار — ١٨٥٦ ، وتخويل السلطان العثماني الحق في فتح المضائق في أوقات السلم أمام السفن الحربية التابعة للدول الصديقة والمحالفة في حالة إذا رأى الباب

Sir Edward Hertslet ; Map of Europe, vol. 3 pp. 1892—1897 (١)

Shotwell J.T. and Deak . ; Turkey at the Straits, chap. 6 (٢)

العالي أن مرور مثل هذه السفن في المضائق أمر يضمن تنفيذ أحكام معاهدة باريس (المادة ٢) ، كما نصت المعاهدة على أن يظل البحر الأسود بحراً مفتوحاً أمام التجارة البحرية لجميع الشعوب (المادة ٣) ، وقررت المعاهدة أن الدول الأطراف فيها تجدد وتؤكد كل الشروط الواردة في معاهدة باريس الموقعة في ٣٠ من مارس - آذار - ١٨٥٦ وكذلك ملاحقها التي لم يمسسها إلغاء أو تعديل في المعاهدة الجديدة ١ (المادة ) .

### ( ر ) معاهدة برلين ( ١٨٧٨ ) .

أيدت معاهدة برلين التي عقدت في الثالث عشر من شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٧٨ النصوص التي لم تتعرض للإلغاء أو التعديل في معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ وفي معاهدة لندن لسنة ١٨٧١ (٢) وعلى ذلك لم تأت معاهدة برلين بجديد على نظام عبور السفن التجارية والحربية والملاحة في البحر الأسود . وظلت أحكام معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ومعاهدة لندن لسنة ١٨٧١ تحكم نظام العبور والملاحة . وسارت الأمور سيراً عادياً حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، فلم تقع سوى مخالفات قليلة للنظم المقررة حين مرت في المضائق سفن روسية في أثناء الحرب الروسية اليابانية في سنة ١٩٠٤ ، وكانت في طريقها من البحر الأسود إلى البحر المتوسط لتجتاز قناة السويس . وكانت هذه السفن الروسية تحمل العلم التجارى الروسى على الرغم من أنها كانت تحمل قوات وذخائر وأسلحة (٣) . وحدث أيضاً أن قامت السلطات العثمانية ببث الألغام في مياه المضائق في أثناء الغزو الإيطالى لولايى برقة وطرابلس في سنة ١٩١١ فتعطل المرور في المضائق . وكان سندها في ممرسة

(١) تجد نص المعاهدة في :

Hurewitz J.C., op. cit. t.I. pp 173—174

وقد تم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة في لندن في ١٥ مايو - آيار - سنة

١٨٧١ .

(٢) دكتور محمود سالى جنيته ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٣) دكتور عبد الله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨٢ .

هذا الإجراء الحربى حق الدفاع عن النفس ورغبتها فى الحيلولة دون مرور السفن الحربية الإيطالية فى منطقة المضائق (١) .

### الروسيا تسعى إلى احتلال المضائق :

حاولت الروسيا قبل نشوب الحرب العالمية الأولى ببضعة أشهر خلق حالة دولية خطيرة تتيح لها احتلال البوسفور والدردنيل . وفى ٢١ من فبراير -شباط- سنة ١٩١٤ عقد اجتماع هام للغاية فى سان بطرسبرج برئاسة قيصر الروسيا حضره قادة الجيش والأسطول وكبار رجال السياسة لبحث مشكلة المضائق (٢) . وانتهوا فى هذا الاجتماع إلى أنه يجدر بالحكومة الروسية أن تتخذ الإجراءات لضمان سيطرتها العسكرية على البوسفور والدردنيل ، وألا يكون أسلوبها فى العمل لبلوغ هذه الغاية هو طريق الصراع الحربى المحلى المحصور بينها وبين الدولة العثمانية ، وإنما يتعين عليها إثارة أزمة سياسية مع الأتراك والسعى لتصعيد هذه الأزمة حتى تنقلب إلى حرب أوروبية تتخذها الروسيا ذريعة لإرسال قواتها المسلحة لاحتلال البوسفور والدردنيل فى وقت مبكر بحيث يكون فى يدها زمام المبادرة ووضع الأتراك والدول الأوروبية أمام الأمر الواقع . وكان هناك رأى يقول إنه يجب بصفة مؤقتة خلق جو سياسى موات للقيام بأى عمل يؤدى إلى احتلال المضائق .

وقد كتب السفير الفرنسى فى إستانبول إلى حكومته يقول إن قيصر الروسيا يرى أنه يجب إعادة فتح المضائق حتى لو أدى الأمر إلى استخدام القوة (٣) . وكان قيصر الروسيا يعلق أغذاب الآمال على فرنسا فى مساعدته على الوصول إلى اتفاق وثيق مع بريطانيا . ومن المعروف أن هذه الدول الثلاث : بريطانيا وفرنسا والروسيا كانت تولف فيما بينها

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨٢ .

Montgelas M., The Case for the Central Powers. 1925, (٢)  
pp. 94—95

Documents Diplomatiques Français. (1871—1914). (٣)  
3ème Serie ; vol. X, p. 200 .

الوفاق الثلاثي في مواجهة التحالف الثلاثي الذي كان قوامه ألمانيا والنمسا وإيطاليا .

وقد حال دون تنفيذ المخطط الروسي لاحتلال البوسفور والدردنيل سير إدوارد جراي Sir Edward Grey وزير الخارجية البريطانية الذي لم يكن يفكر في ذلك الوقت في استخدام القوة في أى مكان أو في عقد اتفاق جديد مع روسيا يزيد الموقف الدولي حساسية . وكان شديد الإيمان بفكرته في عقد مؤتمر أوروبي لتسوية المشكلات الدولية . فهذه الطريقة هي المثل في حل الأزمات ، واعتقد أنها هي التي أبعدت شبح الحرب عن أوروبا في سنة ١٩١٣ (١) .

#### بريطانيا توافق على استيلاء روسيا على إستانبول والمضائق :

في أثناء حملة الدردنيل في سنة ١٩١٥ ، وسنتكلم عنها في الفقرة التالية ، رأت بريطانيا أن تقدم وعداً لروسيا ، بصفتها حليفة لها في الحرب العالمية الأولى ، بالموافقة على استيلائها على مدينة إستانبول والباحل الأوروبي لمنطقة المضائق ومجموعات من الجزائر المتناثرة في هذه المنطقة . وجاء ذلك الوعد وهذه الموافقة في اتفاق عرف باسم اتفاق إستانبول بين روسيا وبريطانيا وفرنسا ( ٤ من مارس - آذار - أبريل - نيسان - ١٩١٥ ) ولم يأخذ هذا الاتفاق من الناحية الشكلية الصيغة المتعارف عليها للمعاهدة ، بل هو يندرج تحت النوع الذي يعرف في القانون الدولي العام باسم الاتفاقات الدولية في الشكل المبسط (٢) *Traité en forme simplifiée* وقد جاء هذا الاتفاق في صورة مذكرات متبادلة بين سان بطرسبرج ولندن

---

( ١ ) Grant A.J. and Harold Temperley ; op. cit., p. 382.

( ٢ ) يقصد بها الاتفاقات الدولية التي تنعقد بين دولتين أو أكثر في صورة تبادل مذكرات يسجل فيها ما تم الاتفاق عليه من غير حاجة إلى إجراء التصديق عليها أو للاستثناء من تدخل رئيس الدولة في إبرامها . وهذه الوسيلة فيها السرعة والتبسيط وتلجأ إليها مختلف الدول لإبرام الاتفاقات .

وباريس خلال فترة امتدت خمسة أسابيع . وقام ديمتريفتش سازونوف Dmitriyevich Sazonov وزير الخارجية الروسية بوضع الصياغة اللفظية للمذكرات المتبادلة ، واشترك معه السفيران البريطاني والفرنسي في سان بطرسبرج في المدة من ١٩ من فبراير - شباط - إلى ٤ من مارس - آذار - سنة ١٩١٥ ويحل فيها رغبات الحكومة القيصريّة . وكانت تنحصر في ضم إستانبول والمضائق عند انتهاء الحرب العالمية بانتصار بريطانيا وحليفتها وإبرام ما سمي اتفاق الانتصار Entente Victory وقد جاء في المذكرة الروسية ما يلي :

« إن مجرى الحوادث الأخيرة جعل حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور نقولا يعتقد أن مسألتى إستانبول والمضائق يجب أن تحلأ بصفة نهائية طبقاً للأمانى الروسية .

« وإن أية تدوية تكون ناقصة وقاصرة وغير مستقرة إذا لم تدمج في الإمبراطورية الروسية كل من مدينة إستانبول وال الساحل الغربي للبحر مرمرة والدرديل وكذلك تراقيا الجنوبية .

« وإن المصالح الخاصة بفرنسا وبريطانيا العظمى في الإقليم المذكور أعلاه ستحترم بدقة زائدة

« وإن الحكومة الإمبراطورية يملوها الأمل في أن الحكومتين الحليفتين سوف تتقبلان بعطف الاعتبارات السابقة » . ومضت المذكرة الروسية تؤكد لحكومتى فرنسا وبريطانيا قيام تفاهم مماثل من جانبها من أجل تحقيق خطط قد تضعها الحكومات الثلاث بالنسبة لأقاليم أخرى من أقاليم الإمبراطورية العثمانية أوأقاليم أخرى في جهات أخرى في العالم . وجاء الرد بموافقة الحكومتين الفرنسية والبريطانية على المذكرة الروسية (١) .

---

(١) بلغ عدد المذكرات التي تبودلت بين سان بطرسبرج وباريس ولندن تسع مذكرات وتجد نصها في

ويلاحظ أن بريطانيا بموافقتها على أن تأخذ روسيا كلا من إستانبول والمضائق عند تصفية الإمبراطورية العثمانية قد أقدمت على تغيير جلوسى فى سياستها الخارجية . فقد وقفت بريطانيا فى وجه روسيا أكثر من قرنين تحول دون استيلائها على إستانبول ومنطقة المضائق . وكان الدافع لبريطانيا على هذا التخير الجوى هو رغبتها فى شد أزر روسيا ورفع روحها المعنوية بعد الهزائم المذكورة التى أنزلتها بها القوات الألمانية فى تاننبرج Tannenberg ( ٢٥-٣١ من أغسطس-آب-سنة ١٩١٤ ) ثم عند البحيرات الماسورية Masurian Lakes ( ٨-١٥ سبتمبر-أيلول-سنة ١٩١٤ ) . وكانت هاتان الموقعتان من أعظم المعارك التى انتصرت فيها ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى وتجلت فيها العبقرية العسكرية الألمانية بفضل القائد الألماني الفذ العجوز هندنبرج Hindenburg ورئيس أركانه لودندورف Ludendorf . وهكذا كانت رغبة بريطانيا فى تشجيع روسيا على مواصلة الحرب وعدم إلقاء السلاح هى السبب الأول فى عقد اتفاق إستانبول . كما كانت هذه الرغبة ذاتها فى مقدمة أسباب حملة الدردنيل .

### حملة الدردنيل سنة ١٩١٥ :

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى فى مطلع شهر أغسطس - آب - سنة ١٩١٤ ودخلتها الدولة التركية ( العثمانية ) فى الخامس من شهر نوفمبر - تشرين ثان - فى ذات السنة إلى جانب دولى الوسط - ألمانيا والنمسا والمجر - قامت السلطات التركية ببث حقول خفية من الألغام البحرية فى مياه المضائق .

---

= وهذا الاتفاق غبر الامتاق المعروف باسم سايكس بيكو والمعقود بين بريطانيا وفرنسا والروسيا فى المدة من ٢٦ أبريل - نيسان - إلى ٢٣ أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩١٦ وأخضع أبصاً صورة مذكرات متنازلة بلغ عددها إحدى عشرة مذكروا وتحدد فيها مطالب الروسيا فى الإقليم المائبة الوادى فى المنطقة الشالية للشرق من الأناضول . وكان من بين الجهات التى نصت عليها أرضروم ، وطرابزون ، وفاد ، وبطليس إلى نقطة تحدد فيها بعد على ساحل البحر الأسود عربى طرابزون ، ثم معظم إقليم كردستان . واحتفظت الحكومة الروسية بحقوقها فيما يختص بالملاحة البحرية الكبرى فى البحر الأسود وأبدت رغبتها فى بحث هذا الموضوع بطريقة ودية فيما بعد بمعرفة حكومات الأطراف المختصة .

وكانت الشائعات قد استفاضت بقرب هجوم بريطانيا وحليفاتها على الدردنيل والبوسفور واحتلال إستانبول . ولم تلبث أن تحققت هذه الشائعات في ذات الشهر الذى دخلت فيه تركيا الحرب .

### بواعث حملة الدردنيل :

في الحرب العالمية الأولى وفي مستهل دورها الثاني (سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٤ - مارس - آذار - سنة ١٩١٨) (١)، وبينما كان موقف روسيا الحربى يزداد خطورة ، رأت بريطانيا لإرسال حملة تحتل الدردنيل والبوسفور لتفتح الطريق أمام الأساطيل البريطانية والفرنسية إلى البحر الأسود ، لأن منطقة المضائق كانت تفصل بريطانيا وفرنسا عن روسيا وتحول دون إمدادها بالذخائر والأسلحة التى كانت فى ميسس الحاجة إليها ، لأن روسيا كانت قد استنفدت احتياطياتها من الذخائر ، ولم يكن فى مقدورها أن تلبى سوى ثلث حاجياتها اليومية من الذخائر التى تنتجها مصانعها من الذخائر ، على الرغم من أنها كانت تملك قوات لا حصر لها من الرجال . وكانت بريطانيا تخشى أن تضطر روسيا إلى الخروج من الحرب لنقص الذخائر لديها . فإذا نجحت بريطانيا وحليفاتها فى بسط سيطرتها العسكرية على الدردنيل والبوسفور كان فى استطاعتها إرسال الذخائر والأسلحة والتمزات البحرية فى جميع فصول السنة إلى روسيا لشد أزر التمردات الروسية وهى تعاني أشد العناء من الحصار الألماني ، كما ترفع الروح المعنوية لدى الشعب الروسى ، وكانت بريطانيا قد وعدت روسيا بإستانبول عروس البوسفور هدية لها . ولذلك علقت

---

(١) اتفق العسكريون رأياً على تقسم هذه الحرب إلى ثلاثة أدوار :

الدور الأول : من أغسطس - آب - سنة ١٩١٤ إلى سبتمبر - أيلول - من ذات السنة ، ووقع فيه الهجوم الألمانى الذى أوقف عند حد نهر المارن ، وأعطى بريطانيا الفرصة لتنظيم المقاومة.  
الدور الثانى : من سبتمبر - أيلول - ١٩١٤ إلى مارس - آذار - ١٩١٨ ويسمى حرب الخنادق ، ولم يسفر عن نتيجة حاسمة .

الدور الثالث : وهو أحداث سنة ١٩١٨ وقد بدأ بهجوم ألمانيا وانتهى بارتدادها هى وحليفاتها فى كل الميادين .

الروسيا أعذب الآمال على حملة الدردنيل ، لأن أى كسب عسكري تحوزه قواتها يتضاءل أمام استيلائها على هذه العاصمة العتيقة . وكان استيلائها عليها يعد تعويضاً عن خسائرها الفادحة في البحيرات الماسورية وفي بولندا وفي غاليسيا . يضاف إلى هذه الاعتبارات أن نجاح حملة الدردنيل يجعل في متناول بريطانيا وحليفتها المحاصيل الوفيرة من القمح وغيره من مواد التموين التي تنتجها الأقاليم الجنوبية في روسيا . وكان رسو أسطول بريطاني في مياه الدردنيل والبوسفور كفيلاً بشطر الجيش التركي شطرين وفتح الطريق إلى نهر الدانوب . وكانت بريطانيا وحليفتها ترجو أيضاً أن تكون حملة الدردنيل حافزاً لليونان ورومانيا على الانضمام إلى المعسكر البريطاني وإلحاق الخربة ببلغاريا وتشجيع العرب على القيام بثورة ضد الأتراك مما يؤدي في النهاية إلى تعطيم الدولة العثمانية تحطيماً تاماً .

هذه بلنجاز شاید بواعث الحملة العسكرية التي أطلق عليها حملة الدردنيل وقد اختلطت فيها البواعث العسكرية والدياسية .

### فشل القحام مضيق الدردنيل بحرياً :

في أوائل شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٤ اقتربت بضع مدمرات بريطانية من مياه الدردنيل وألقت قنابلها على بعض الاستحكامات العسكرية الأمامية المقامة في هذه المنطقة . وقيل إن هذا الإجراء الحربي كان بمثابة جس النبض لمعرفة مدى استعداد الأتراك للدفاع عن منطقة المضائق . ومن المعروف أن مضيق الدردنيل هو أول مضيق تقابله السفن القادمة من البحر المتوسط والمتجهة إلى البحر الأسود ، فكان عليها أن تعبر الدردنيل ، ثم بحر مرمرة ، ثم البوسفور ، ثم تدلف إلى البحر الأسود . ومهما يكن من أمر ، فقد وقف الأتراك موقفاً سليماً من هذه الحركة الاستطلاعية التي قام بها الأسطول البريطاني . وقد تكون هذه العملية أمراً مقصوداً أريد به استدراج الأسطول إلى داخل مضيق الدردنيل حتى يسهل ضربه وتحطيمه من الضفتين . وقد عادت هذه الحركة الاستطلاعية بالضرر على بريطانيا بقدر ما عادت به من النفع على الدولة العثمانية . كانت مثل هذه الحملة تتطلب السرية التامة حتى



يتوفر لها عنصر المفاجأة . وهو عنصر هام في إحراز النصر . ولكن الأتراك علموا بما لا يدع مجالاً للشك أن بريطانيا وحليفاتها تعتزم اقتحام الدردنيل كققدمة لاحتلال بقية منطقة المضائق ، ومن ثم استعدوا استعداداً واسعاً لصدد هذا الغزو .

كانت نتيجة الحركة الاستطلاعية مشجعة لبريطانيا على المضي في إنفاذ الحملة البحرية . فوجهت قوات عظيمة من الأسطول إلى الدردنيل في يناير - كانون ثان - سنة ١٩١٥ منذ انقضاء شهرين أو أكثر من شهرين من الحركة الاستطلاعية . وكانت الحملة تتطلب أيضاً سرعة التنفيذ بجانب السرية التامة . وانضح أن هذين العنصرين لم يكونا متوفرين . واستؤنف الضرب مرة ثانية في أواخر فبراير - شباط - . وفي ١٨ من مارس - آذار - قام الأسطول البريطاني باقتحام مضيق الدردنيل ، ولكن أخفق الأسطول في اختراقاً فرياً ، إذ أصيب بأضرار جسيمة بسبب انفجار حقل خفي من الألغام في مياه الدردنيل . وكان لهذا الإخفاق أصداء واسعة وبعيدة في أرجاء العالم سواء في دوائر بريطانيا وحليفاتها أو في دوائر معادها . ولم تحاول بريطانيا اقتحام الدردنيل بحرباً مرة ثانية ، وهو أمر انتقده الخبراء البحريون بعد ذلك .

### إخفاق اقتحام منطقة الدردنيل برية :

وأمام هذا الفشل البحري المتلاحق الذي منى به الأسطول البريطاني في اقتحام مضيق الدردنيل ، رأت بريطانيا وحليفاتها تعزيز الهجوم البحري على الدردنيل بهجوم بري . على أن يكون دور القوات البرية هو الدور الأساسي ، وأن يكون دور الأسطول مقصوراً على إمداد القوات البرية بما تحتاج إليه من مواد تموينية وأسلحة وذخائر ومساعدتها في النزول إلى البر وحماية النقط أو المواقع البرية التي تنزل فيها . وكانت القوات البريطانية البرية يتألف معظمها من جنود استراليين ونيوزيلنديين ، وكان معروفاً عنهم أنهم محاربون ذوو بأس شديد . وكانت هذه القوات بقيادة سير إيان هاميلتون Sir Ian Hamilton ، كما عززت بقوة برية فرنسية يقودها الجنرال جورو G. Gouraud .

وصلت القوات البرية في شهر أبريل - نيسان - ١٩١٥ ، ووقع اختيارها

على بعض نقط قليلة في شبه جزيرة غاليبولى للزول فيها . ولما تكامل عددها بدأ نزولها تحت نار حاصدة في ٢٥ من ذات الشهر بعد أن أضاعت وقتاً طويلاً وثميناً . كان نزولها في شبه جزيرة غاليبولى سبباً في إطلاق بعض المراجع على هذه الحملة اسم حملة شبه جزيرة غاليبولى ولكن الاسم الغالب عليها هو حملة الدردنيل ، لأن الاسم الأخير يشمل هجوم القوات البرية والبحرية على منطقة المضائق . ويقرر الخبراء العسكريون أن القيادة البريطانية الفرنسية قد أخطأت في اختيار المناطق التي نزلت فيها ، لأن أرض هذه المناطق تنحدر تدريجياً نحو ساحل البحر مما كفل للأتراك المدافعين عنها مواقع صالحة لاصطياد المهاجمين البريطانيين والفرنسيين بمجرد محاولتهم التقدم من الساحل نحو الداخل . وكان الأتراك والألمان قد أكملوا استعداداتهم لمواجهة نزول البريطانيين والفرنسيين . وقد لقيت القوات البرية المهاجمة صلابة وشدة وبسالة من الأتراك .

وبينا كان القتال يدور في ضراوة بالغة أحرز الجنود المهاجمون نصراً محلياً في السادس من شهر أغسطس - آب - بعد أن وصلتهم إمدادات كبيرة ، ونجحوا في النزول في خليج سولفا Sulva حيث أخذوا الأتراك على غرة . وكان في مقبور ستوب فورد Stopford قائد الفرقة المهاجمة أن يتخذ من هذا الموقع نقطة انطلاق وينتشر في شبه جزيرة غاليبولى وينتزع تل أنافرتا Anafarta الذى كان مفتاح الموقف . ولكنه تباطأ في التحرك بقواته نحو ثمان وأربعين ساعة استطاع خلالها إنقاذ الموقف ضابط تركى شاب هو مصطفى كمال بك - كمال أتاتورك رئيس جمهورية تركيا فيما بعد ( ١٨٨١ - ١٩٣٨ ) فقد عين قائداً للكتيبة رقم ١٩ وكانت لا تزال في دور التكوين في تكيرداج Takirdag على الساحل الأوروبى لبحر مرمرة . وخف على رأس هذه الكتيبة إلى شبه جزيرة غاليبولى . واستطاع إجلاء المهاجمين عن هذا الموقع . وكان نجاح الجنود الأتراك البواسل في صد المهاجمين وإجلائهم عن موقعهم يعد أحد الانتصارات القليلة والرائعة التي أحرزها الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى (١) . وقد أنقذ هذا النجاح إستانبول من خطر الغزو

الأجنبي . وفي ذات الوقت كان فشل القوات البريطانية والفرنسية في الاحتفاظ بالموقع قمة المأساة بالنسبة لهم وكان نصرهم مؤقتاً .

ومما هو جدير بالذكر أن القيادة الألمانية العليا قررت اتيام بغزو الصرب والجبل الأسود وفتح الطريق إلى تركيا لإمدادها مباترة بالأسلحة والمخاطر والرجال والأموال . ونجحت ألمانيا في تنفيذ هذا المخطط في شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٥ .

ورأت بريطانيا وفرنسا سحب قواتهما من شبه الجزيرة بعد أن فقدتا الأمل في الاستيلاء على منطقة المضائق . وبدأت عمليات الانسحاب في ١٨ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٥ حتى ٨ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩١٦ بعد أن كلفت الحملة بريطانيا وحليفتها مائة وعشرين ألفاً من القتلى والجرحى ، وأخفقت حملة الدردنيل في تحقيق هدفها الرئيسي وهو الاستيلاء على المضائق . وكان الفشل مزدوجاً : في الهجوم البحري على الدردنيل وفي الهجوم البري على شبه جزيرة غاليبولي لتتقدم منها قوات بريطانيا وحليفتها لاحتلال المضائق والاستيلاء على إسطنبول .

وهكذا حققت الدولة العثمانية نصراً باهراً في الدفاع عن منطقة المضائق والحفاظ على سيادة الدولة على هذه المنطقة الحساسة . وكان في مقدمة أسباب هذا الانتصار الرائع الأساليب التي اتبعها الأتراك في استدراج وحدات الأسطول البريطاني إلى مياه مضيق الدردنيل واصطيادها بسهولة وسط حقل خفي من الألغام البحرية ، ثم الصلابة التي أبدتها الجنود الأتراك في دفاعهم عن الدمار . وهي بسالة أذهلت الأعداء كما أذهلت الأصدقاء ، واستعادت الدولة العثمانية سمعتها الحربية القديمة كدولة حربية من الطراز الأول ، ووقفت شاحخة في وجه أكبر وأقوى دول العالم في ذلك الوقت .

لقد أرادت بريطانيا وفرنسا والروسيا أن تكون حملة الدردنيل الضربة الكبرى التي توجهها هذه الدول الثلاث إلى الإمبراطورية العثمانية لتقصم ظهرها عقاباً لها على انضمامها إلى ألمانيا . فلم تكدمر أيام ذات عدد على دخولها الحرب .

في الخامس من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٤ حتى أرسلت بريطانيا بعض المدرعات إلى مياه الدردنيل في حركة إستطلاعية لكشف قدرة الاستحكامات التركية على المقاومة ومقدمة لإرسال الحملة البحرية الكبرى والتي باءت بالفشل واقرنت بخسائر فادحة في القتلى والجرحى . وما زاد في فداحة الهزيمة وسدة وقعها في الدوائر البريطانية بوجه خاص أن انسحاب الحملة تم في وقت كان شديد الإحلام بالنسبة لبريطانيا وحليفاتها . كانت سنة ١٩١٥ تلفظ أنفاسها الأخيرة وكانت الهزائم والكوارث تحيط بهذه الدول : أيدت الصرب والجبل الأسود ، وانضمت بلغاريا إلى النمسا ، وهاقت بالروسيا هزائم تبدد كل أمل لها بعدها في الانتصار ، وعجزت إيطاليا عن إحراز أى نجاح حقيقى ، وهوت إلى الحضيض سمعة الأسطول البريطانى بعد فشله في حملة الدردنيل وإخفاقه في الوصول إلى إستانبول . ولانتهت الحرب العالمية الأولى دون أن تنجح في اقتحام المضائق قوات عدائية سواء كانت بريطانية أو فرنسية أو روسية . أو أية جنسية أخرى .



## الفصل التاسع

### السياسة العليا للدولة العثمانية في ضوء خصائصها العامة (٣)

هزيمتها في الحرب العالمية الأولى  
أطاحت بسيادتها على المضائق والبحر الأسود  
هدلة مدروس واحتلال المضائق وإستانبول :  
عرض وتحليل ونقد :

جاز إلى ربه السلطان محمد الخامس في الثالث من شهر يوليو - تموز - سنة ١٩١٨ على أثر إصابته بإنفلونزا لم تمهله سوى أيام ذات عدد ، فكانت وفاته شبه فجائية . وتولى العرش بعده أخوه وحيد الدين أفندي باسم السلطان محمد السادس ، وهو في الثامنة والخمسين من عمره . وكان الموقف الحربي عصيباً للغاية بالنسبة لألمانيا والنمسا والمجر وتركيا وبلغاريا . كان الأتراك قد فقدوا الولايات العربية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية في الشرق العربي الآسيوي : الحجاز ، العراق ، شرق الأردن ، فلسطين ، الشام ، فضلاً عن الهزائم والخسائر التي نزلت بهم في الميادين الأخرى . وفي شهر أكتوبر - تشرين أول - استقال جميع وزراء جماعة الاتحاد والترقي نتيجة فشل سياستهم الداخلية والخارجية والحربية ، ثم فر كبارهم إلى خارج البلاد حيث لقوا حلفهم تبعاً . وكان الرأي السائد في الدوائر العالمية وقتذاك أن ألمانيا وحليفاتها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من طلب الصلح . ورأى السلطان الجديد إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، ووقع اختياره على رجل عسكري هو الجنرال أحمد عزت باشا وعينه صديقاً أعظم وعهد إليه الاتصال ببريطانيا ابتغاء عقد هدنة . وسرعان ما شكلت الحكومة وفداً برئاسة رفوف بك وزير البحرية لعقد

الهدنة . وهكذا كانت تركيا أسبق من ألمانيا في عقد هدنة مع أعدائها بأحد عشر يوماً (١) . فقد أبرمت هدنة منفصلة مع تركيا في اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٨ سميت هدنة مدروس Mudros ندية إلى ميناء يحمل هذا الاسم في جزيرة لنوس (٢) Lemnos حيث كانت ترسو في هذا الميناء باخرة إنجليزية اسمها أجاممنون Agamemnon ، وقد دارت على ظهرها مناوشات الهدنة . ولم يستغرق إجراؤها أكثر من أسبوع . وقد وقعت عليها بريطانيا عن نصها ونيابة عن حليفتها . وقد نصت هدنة مدروس على المبادئ العامة الآتية فيما يختص بمسألة المضائق :

أولاً : فتح الدردنيل والبوسفور وتأمين الدخول إلى البحر الأسود والخروج منه .

ثانياً : قيام بريطانيا وحليفتها باحتلال القلاع والاستحكامات المقامة في منطقتي الدردنيل والبوسفور .

ثالثاً : تعهد السلطات التركية بالكشف عن مواقع الألغام وغيرها من المتفجرات في المياه التركية بما فيها مياه الدردنيل والبوسفور والبحر الأسود - للسلطات البريطانية وسلطات الدول الحليفة لها (٣) .

وبعد أن تم التوقيع على الهدنة قدم أحمد عزت باشا الصدر الأعظم استقالته من منصبه على أساس أنه أنجز المهمة التي عهد بها إليه السلطان . وخلفه أحمد توفيق باشا . وكان هناك إعتباران ملحوظان في إختياره لمنصب الصدارة العظمى . أولها أنه كان سفيراً لبلاده في لندن ، واكتسب تقدير

---

(١) طلب لودندورف القائد الألماني للبدان التركي الهدنة رسمياً في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادى عشر من الشهر الحادى عشر من عام ١٩١٨ على أساس الأربعة عشر شرطاً التي أعلنها ولبن رئيس الولايات المتحدة الأمريكى كستور لتسوية .

(٢) جزيرة لنوس إحدى جزر بحر الأرخبيل .

(٣) نجد النص الرسمى الكامل لهدنة مدروس في :

الدوائر العليا في بلاط سان جيمس في هذه العاصمة . وكان الأمل معقوداً عليه أن يكون موضع ثقة بريطانيا في هذه المرحلة الدقيقة التي كانت تتطلع فيها تركيا إلى إعادة علاقاتها مع بريطانيا إلى سيرتها الأولى ، ولأنها أن أحد توفيق باشا سبق له أن تولى منصب الصدارة العظمى .

وأهم ما يلاحظ على هدنة مدروس أن بريطانيا حققت فيها ما عجزت عن تحقيقه في ساحات القتال في أثناء الحرب العالمية الأولى . فقد أملت شروطها على تركيا . وكان من بينها فتح الدردنيل والبوسفور وتأمين دخول البحر الأسود والخروج منه ، كما قررت لنفسها حق احتلال المواقع ذات الأهمية الإستراتيجية في منطقة المضائق إلى غير ذلك . وكانت هذه الشروط الخاصة بالدردنيل والبوسفور والبحر الأسود نذيراً بمبادئ وقواعد جائزة تستند إلى مبدأ القوة وتتضمنها معاهدة الصلح التي سوف تضعها بريطانيا وحليفتها وتفرضها على تركيا . وقد جاء في أعقاب هدنة مدروس تنفيذ عمل لما تضمنته من مبادئ واتجاهات . فقبل أن ينقضى أسبوعان على إبرام الهدنة حتى كانت الأساطيل الحربية لبريطانيا وحليفتها تتخذ طريقها إلى منطقة المضائق من البحر المتوسط . واجتازت ستون قطعة حربية مضيق الدردنيل ثم بحر مرمرة ثم البوسفور . والتزمت مدفعية السواحل التركية الصمت العميق إزاء هذه المظاهرة البحرية العدائية . وفي ١٣ من نوفمبر — تشرين ثان — ألقت بعض هذه القطع الحربية مراسيها في ميناء إستانبول . وفي ٨ من ديسمبر — كانون أول — كان قد استكمل في إستانبول إنشاء إدارة عسكرية دولية من بريطانيا وحليفتها ، واحتلت القوات الأجنبية المتحالفة شتى أحياء العاصمة ، وفرضت رقابة عسكرية صارمة على الميناء ، وأخضعت لهذه الرقابة أيضاً قوات الشرطة وقوات الأمن الداخلي — الحنדרمة — وكذلك المرافق العامة حتى على خطوط الترام وعرباتها .

#### إستانبول تشهد مسرحية هزلية :

وتعرضت إستانبول لمسرحية هزلية كشفت عن شماتة السكان اليونانيين في العاصمة بهزيمة الأتراك من ناحية ، وتفاهة بعض العسكريين من ناحية

أخرى . ففي الثامن من فبراير - شباط - سنة ١٩١٩ دخل إستانبول القائد الفرنسي الجنرال فرانسيه دسبري General Franchet d'Espérey ممتطيًا صهوة جواد أبيض أهدها إليه السكان اليونانيون في إستانبول . وكانت حجتهم في تقديم هذا النوع من الهدية أن السلطان محمد الفاتح حين فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وأطلق عليها إستانبول أى دار الإسلام دخلها لأول مرة راكباً حصاناً أبيض اللون (١) ، فأراد هؤلاء اليونانيون أن يكون احتفالهم بدخول قوات بريطانيا وحليفتها عاصمة الأتراك وإعلان ابتهاجهم بهذه المناسبة التاريخية على غرار ما حدث من أربعمائة وست وستين سنة خلت . ولم يلبث أن أعلن البطريرك اليوناني في إستانبول استقلال «الرايا» اليونانيين عن الحكومة التركية ، وقطع في ٩ من مايو - آيار - ١٩١٩ علاقاته مع الباب العالي . وتناسى البطريرك والرايا اليونانيون ما كانوا يظفرون به من معاملة كريهة وممتازة في ظل الحكم العثماني .

وفي ذات الوقت تقريباً كانت القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية قد احتلت عدة مواقع في منطقة المضائق . وكان الأسطول البريطاني يربط في بحر مرمره وفي مياه البوسفور تجاه العاصمة . فكان احتلال بريطانيا وحليفتها لمنطقة المضائق احتلالاً بحرياً وبرياً .

والحق أن هدنة مدروس وما ترتب عليها من أحداث مباشرة ومريعة كانت عصفاً بالسياسة العليا للدولة العثمانية ، وإنها كآ لسيادتها على منطقة المضائق ، وإنقاصاً من استقلالها ، ونذيراً بشروط قاسية تمليها بريطانيا وحليفتها في معاهدة الصلح التي سوف تفرضها على الدولة ، وهى معاهدة سيفر .

معاهدة سيفر :

عرض وتحليل ونقد :

كانت بريطانيا وفرنسا قد فرغتا في ٢٦ (٢) من شهر أبريل - نيسان -

---

(١) Lewis Bernard; The Emergence etc, op. cit., p. 240.

(١) كانت هاتان الدولتان قد فرغتا في اليوم السابق - ٢٥ من أبريل نيسان - من تسوية مسألة الانتداب على الأقاليم العربية التي كانت عاصمة للدولة العثمانية في الشرق العربي الأسيرى .



١٩٢٠ من إقرار معاهدة الصلح مع تركيا في إجتماع المجلس الأعلى في سان ريمو San Remo ، وهى بلدة إيطالية على ساحل الريفييرا . واتضح أن الهدف من هذه المعاهدة هو تصفية الإمبراطورية العثمانية أو كما يقول ذوو البراعة في النكتة دفن رجل أوروبا المريض الذى طال مرضه وطال احتضاره أكثر من اللازم وقد سلمت هذه المعاهدة للوفد التركى في باريس في ١١ من مايو - آيار - وكان هذا الوفد يمثل السلطان العثمانى محمد السادس ووزرائه ، ولكنه لم يوقع عليها إلا مكرهاً في ١٠ من أغسطس - آب - ١٩٢٠ أى بعد إنقضاء ثلاثة أشهر . وقد تم التوقيع في مدينة سيفر Sèvres وهى مدينة فرنسية على نهر السين تشتهر بوجود مصنع فرنسى للأواني الخزفية المتناهية في جمالها ودقتها . وقد رفضت الولايات المتحدة ويوغوسلافيا والمملكة الحبيبية بن على في الحجاز التوقيع عليها . ومما هو جدير بالذكر أنه بعد أن تم توقيع معاهدة سيفر تملى إلى مصنع الخزف الضابط مصطفى كمال ونسقه .

ويلاحظ ، أن معاهدة سيفر قد عقدت مع الدولة التركية The Turkish State ، ونفهم من بين ثنايا الدستور على أنها امتداد للدولة العثمانية مصغرة . ولذلك جاء في بعض موادها ذكر السلطان على أنه رأس الدولة ، وجاء ذكر إستانبول ( القسطنطينية ) على أنها العاصمة ، ونص فيها على أن حقوق الحكومة التركية على إستانبول لا تمتد ، وأن مقر السلطان والحكومة التركية هو إستانبول بصفتها عاصمة الدولة التركية .

وقد تعرضت معاهدة سيفر لأتالة المضايق في المواد من ٣٧ إلى ٤٠ فنصت المادة (٣٧) على أن الملاحة في المضائق ، وتشمل على سبيل التحديد الدردنيل ، وبحر مرمرة ، والبوسفور ، تكون في المستقبل مفتوحة في وقت السلم وزمن الحرب لكل سفينة تجارية أو حربية ، وللملاحة الجوية العسكرية وللتجارية دون أى تمييز بين الدول . ولا تكون مياه هذه المضائق عرضة للحصار ولا يباشر فيها أى حق حربى أو أى عمل عدائى إلا تنفيذاً لقرار يصدر عن مجلس عصبة الأمم .

ونصت المادة (٣٨) على أن الحكومة التركية تقرر أنه بات من الضرورى

اتخاذ مزيد من الاجراءات لضمان حرية الملاحة المنصوص عليها في المادة اللاحقة . وبناء على ذلك ، فهي تعهد إلى لجنة تسمى لجنة المضايق بمراقبة حركة الملاحة في مياه المضايق . وتعهد الحكومة اليونانية أيضاً إلى هذه اللجنة بذات التفضيظ وتعهد بأن تقدم لها في جميع الأحوال نفس التسهيلات ، على أن تمارس هذه المراقبة باسم الحكومتين التركية واليونانية ووفقاً للطريقة المنصوص عليها في المادتين التاليتين .

وقررت المادة (٣٩) أن سلطة لجنة المضايق تمتد على كافة المياه المحصورة بين مصب البحر المتوسط في الدردنيل وبين مصب البحر الأسود في البوسفور ، كما تمتد إلى مسافة ثلاثة أميال فيا وراء كل من هذين المصبين ، ويجوز أن تمارس هذه السلطة على الاحل إلى الحد الذي يكون ضرورياً لتنفيذ الشروط الواردة في هذا القسم من المعاهدة الخاص بمسألة المضايق .

وتعرضت المادة (٤٠) لطريقة تشكيل لجنة المضايق وطريقة التصويت . فقررت أنها تتنظم عشرة أعضاء يمثل كل عضو دولة واحدة . وهذه الدول هي الولايات المتحدة الأمريكية ، بريطانيا ، فرنسا ، إيطاليا ، اليابان ، روسيا ، اليونان ، رومانيا ، بلغاريا ، تركيا . وشملت المادة تحفظات على عضوية بعض هذه الدول ، فقالت إن روسيا ، وبلغاريا ، وتركيا لا يسمح لها بالانضمام إلى لجنة المضايق إلا إذا دخلت في عصبة الأمم . أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد ترك أمر عضويتها إلى رغبة حكومة واشنطن ، فقالت « إذا أرادت ومتى أرادت هذه الحكومة أن تسهم في أعمال لجنة المضايق » . ونصت نفس المادة على أن يكون لمثل كل من أمريكا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، واليابان ، والروسيا صوتين . أما ممثلو اليونان ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وتركيا فيكون لكل منهم صوت واحد . وأخيراً نصت المادة على أن يمثل كل دولة غير قابل للعزل إلا بمعرفة حكومته (١) .

---

(١) تجد النص الرسمي الكامل لمعاهدة سيفر في .

وقد جاءت معاهدة سيفر بمجموعة من المبادئ والقواعد العامة يمكن إدراجها تحت ثلاثة أنواع ، النوع الأول كان معروفاً ومعمولاً به من قبل ومعترفاً به في الأسرة الدولية بحيث غدا من المبادئ العامة في القانون الدولي العام ، النوع الثاني فينتلوى على شلوذ وخروج على قواعد القانون الدولي العام ، النوع الثالث فيتمثل في مبادئ العمل على إشفاء الأحقاد بدلا من العمل على إزالتها ، وإثبات مبادئ الاستعمار على مبادئ العدالة والحرية .

أما النوع الأول فيتمثل في تقرير حرية المرور في الدردنيل والبوسفور لجميع السفن التجارية والحرية في جميع الأوقات دون تمييز بين جنسية السفن مع تحريم فرض الحصار على المضائق أو ممارسة أى حق حربي أو عمل عدائي إلا إذا كان الإتيان بمثل هذا العمل تنفيذاً لقرار صادر عن مجلس عصبة الأمم . وهذا المبدأ العام مقرر في إتفاقية الأستانة المعقودة في ٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٨٨ والخاصة بتنظيم حرية مرور السفن في قناة السويس . كما أنه مقرر في كل من معاهدة هاى - پونسفوت (١) Hay Pauncefote - في المادة الثالثة البند الأول والمبرمة في ١٨ من نوفمبر - تشرين ثان - ١٩٠١ والخاصة بقناة بناما التي كان مزعماً حفرها - وقد افتتحت هذه القناة للملاحة في ١٥ من أغسطس - آب - سنة ١٩١٤ - وفي معاهدة هاى - بونو فاريللا (٢) Hay Bunau Varilla - في المادة الثامنة عشرة والمبرمة في ١٨ من نوفمبر - تشرين ثان - ١٩٠٣ والخاصة بقناة بناما أيضاً . فهذا المبدأ العام كان معمولاً به في قناة السويس ومقررأ للتطبيق عند افتتاح قناة بناما . غير أن معاهدة سيفر أجازت ممارسة الأعمال العدائية في منطقة المضائق إذا كانت هذه الأعمال تنفيذاً لقرار صادر عن مجلس عصبة الأمم . ومثل هذه الإباحة غير موجودة في إتفاقيات قناتى السويس وبناما . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن عصبة الأمم لم تكن قد رأت النور في سنة ١٨٨٨ أو سنة ١٩٠١ أو

---

(١) كان هاى وزير الخارجية الأمريكية ، وبولسفوت جوليان هو السفير البريطانى في واشنطن .

(٢) بونو فاريللا هو مثل بناما في واشنطن .

سنة ١٩٠٣ ، كما يلاحظ أيضاً أن معاهدة سيفر قد أجازت الملاحة الجوية التجارية والعسكرية لجميع الدول فوق منطقة المضائق بينما جاءت اتفاقيات قناتي السويس وبناما خالية من مثل هذه الإباحة . وقد تداركت بريطانيا هذا الأمر بعد ذلك ، فنصت عليه في معاهدة ٢٦ من أغسطس ١٩٣٦ بالنسبة للطيران البريطاني . أما قناة بناما فإن الولايات المتحدة الأمريكية تستأجر بالنفوذ عليها استناداً إلى اتفاقيات عقدها مع الدولة صاحبة الإقليم وهي بناما التي سمحت لها بهذا المركز الانفرادي المتميز وقنعت بالاحتفاظ بسيادة اسمية وأعطت الولايات المتحدة حق ممارسة جميع المظاهر العملية لهذه السيادة الفعلية .

أما النوع الثاني الذي جاءت به معاهدة سيفر فينتطوي على مبدأ جانر وشاذ ، إذ جعلت في الدولة العثمانية سيادة مزدوجة لإحداها للحكومة التركية والأخرى للحكومة اليونانية . وجعلت المعاهدة هاتين الحكومتين هما مصدر التفويض للرقابة الدولية على تنظيم حرية مرور السفن في الدردنيل والبوسفور . وكانت هذه الرقابة الدولية ممثلة في لجنة المضائق . فأصبحت هذه اللجنة تستمد وجودها وكيانها وسلطانها واختصاصاتها من الحكومتين معاً . وجعلت المعاهدة الحكومة اليونانية شريكة لصاحب الإقليم الأصلي في إصدار تفويض لهذه اللجنة في قيامها ومباشرة عملها . وهذا هو وجه الشلوذ في معاهدة سيفر ، ولا يجد الباحث تفسيراً أو تبريراً لهذا الشلوذ سوى رغبة بريطانيا في إذلال الشعب التركي عقب هزيمته عقاباً له على انضمامه إلى ألمانيا . وقد تجلت روح الانتقام في كافة المعاهدات التي فرضتها بريطانيا وحليفاتها على الدول المهزومة مثل معاهدة فرساي Versailles مع ألمانيا في ٢٨ من يونيو - حزيران - سنة ١٩١٩ ، ومعاهدة سان جرمان (١)

---

(١) توجد في فرنسا عدة أماكن تحمل اسم سان جرمان ، ولذلك يذكر بهذا اسم آخر يحدد المكان المقصود . ويقصد بسان جرمان في هذه الدراسة Saint-Germain-en-Laye وهي مدينة وعاصمة مقاطعة سين وإواز Seine-et-Ois وعلى مقربة من فرساي ضاحية باريس .

St. Germain مع النمسا في ١٠ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٩ ،  
ومعاهدة نويلى<sup>(١)</sup> Neuilly في ٢٧ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٩  
مع بلغاريا ، ومعاهدة تريانو<sup>(٢)</sup> Trianon في ٤ من يونيو - حزيران - سنة  
١٩٢٠ مع المجر .

وهناك تبرير آخر هو أن اليونان كانت قد احتلت أزمير في ١٥ من  
مايو - آيار - سنة ١٩١٩ وسعت منذ ذلك الوقت نحو توسيع منطقة احتلالها .  
واعتمدت بريطانيا أن الاحتلال اليوناني لأزمير سيطول أمده وسيستع  
مداه . وتناست بريطانيا أن الأتراك وهم من أشد المحاربين صلابة وبسالة  
واسترخاءاً للموت لن يقبلوا هذه الأوضاع ، ومن ثم أقبلت بريطانيا على  
معاملة اليونانيين . ولا ننسى أنهم كانوا حلفاءها في الحرب العالمية الأولى .  
ومن ثم جاء هذا الشذوذ في المبادئ التي انطوت عليها معاهدة سيفر .

والمبدأ الثالث الذي جاءت به معاهدة سيفر فيما يختص بمسألة الدردنيل  
والبوسفور هو فرض رقابة دولية لضمان حرية مرور السفن في منطقة  
المضائق . وقد أخذت هذه الرقابة الدولية شكل لجنة أطلق عليها لجنة  
المضائق The Straits Commission وقوامها عشرة أعضاء يمثلون عشر دول  
أوروبية وآسيوية وأمريكية ، ولم تكن إفريقية ممثلة بأية دولة في اللجنة .  
ويلاحظ أن تمثيل الدول لم يكن على قدم المساواة ، فبعض الدول كان  
لممثلها صوتان ، وللبعض الآخر صوت واحد ، كما أن عضوية بعض الدول  
في لجنة المضائق كانت مقيدة بشرط حتمى هو قبول هذا الفريق من الدول  
في عصبة الأمم .

---

(١) توجد في فرنسا عدة أماكن تحمل اسم نويلى ، ولذلك يذكر بعدها اسم آخر يحدد  
المكان المقصود . ويقصد بكلمة نويلى في هذه الدراسة Neuilly sur Seine وهو اسم مدينة  
هي عاصمة مقاطعة السين وتقع على نهر السين ، وعلى مقربة من غابة بولون Bois de Boulogne  
وخلف سان دنى Saint Denis

(٢) تريانو اسم يطلق على قصرين صغيرين في متزهات فرساي ، يطلق على القصر الأول  
تريانو الكبير Le Grand Trianon وقد شيده الملك لويس الرابع عشر ، ويطلق على القصر  
الثاني تريانو الصغير Le Petit Trianon وقد بناه الملك لويس الخامس عشر .

وكانت لجنة المضايق تشبه إلى حد ما لجنة القناصل التي نصت عليها المادة الثامنة من اتفاقية ٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٨٨ الخاصة بقناة السويس مع فروق هامة هي أن اتفاقية القناة قد حددت تحديداً دقيقاً اختصاصات لجنة القناصل وميزت بين الاجتماعات الطارئة والاجتماعات الدورية التي تعقدتها مرة كل سنة ، وطريقة مواجهة الأحداث التي تهدد سلامة القناة أو حرية المرور بها ، ورياسة اللجنة في كل نوع من نوعي اجتماعاتها . أما لجنة المضايق فإن معاهدة سيفر لم تعرض لمثل هذه التفصيلات الهامة والضرورية . ولذلك كان الغموض يحيط باللجنة من يمين وشمال .

ومما هو جدير بالذكر أن بريطانيا سبق لها أن عارضت معارضة عنيفة للغاية فرض رقابة دولية على حرية مرور السفن في قناة السويس ، وذلك في أثناء الجدل الذي عقدته لجنة باريس الدولية في الفترة من ٣٠ من مارس - آذار - إلى ١٣ من يونيو - حزيران - سنة ١٨٨٥ لوضع مشروع اتفاقية قناة السويس . ووقفت بريطانيا في وجه الدول الأوروبية الكبرى وهي فرنسا ، روسيا ، ألمانيا ، والنمسا والمجر ، الدولة العثمانية . وقد شكلت هذه الدول تكتلاً دولياً في اللجنة ضد بريطانيا نكابة فيها لاحتلالها مصر . وتأرجح موقف إيطاليا بين الطرفين المتصارعين . ولما وجدت بريطانيا إصراراً من الدول الكبرى على قيام الرقابة الدولية على قناة السويس عملت بكل ثقلها على التخفيف من قيود هذه الرقابة . ومع ذلك فلما تقرر الرقابة الدولية في شكل لجنة تتكون من وكلاء الدول الموقعة على الاتفاقية والمعتمدين في مصر استغلت بريطانيا نفوذها المتفوق الانفرادي في مصر بسبب احتلالها مصر وعملت على منع اجتماعات لجنة القناصل سواء الاجتماعات الطارئة أو الاجتماعات الدورية منعاً باتاً سواء على عهد الاحتلال أو الحماية أو الاستقلال الشكلي فضلاً عن الجهود اللاحقة (١) وهكذا فإن بريطانيا ، لمصلحتها الخاصة ، عارضت

---

(١) أنظر بخصوص هذا الموضوع :

في سنة ١٨٨٥ قيام رقابة دولية على قناة السويس : وفرضت في سنة ١٩٢٠ رقابة دولية على منطقة المضائق نكاية في تركيا ، ورغبة في دعم موقفها الاستعماري في منطقة الشرق الأدنى .

لم تكن الحكومة التركية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وعقد هدنة مدروس في وضع عسكري أو سياسي يسمح لها بالاعتراض على ما جاء في معاهدة سيفر سواء فيما يختص بمسألة اللردنيل والبوسفور أو بالمسائل الأخرى التي تعرضت لها المعاهدة ، فالمتنصر وهو في قمة الانتصار ونشوة الابهاج يشتط ويملي شروطه ويفرض إرادته على اللولة المهزومة . وقد قيل في هذا الصدد « ويل للمغلوب » وهي عبارة تصديق على الحاضر كما صدقت على الماضي . ويعلق أحد كبار المؤرخين الإنجليز على معاهدة سيفر بقوله إنها كانت في مواردها وأحكامها وشروطها أكثر قسوة على تركيا من شروط معاهدة فرساي التي فرضت على ألمانيا<sup>(١)</sup>، مع أن الدولتين - ألمانيا وتركيا - كانتا حليفيتين وهزمتا في حرب واحدة على يد دول واحدة . وقد قضت معاهدة سيفر على تركيا كدولة أوروبية من الناحية العملية<sup>(٢)</sup>.

### تجميد معاهدة سيفر :

كان السلطان محمد السادس ووزراؤه يعيشون في إستانبول تحت تهديد الأسطول البريطاني ، وقد أُلقي مراسيه في مياه البوسفور ، بينما كانت قوات

---

= دكتور عبد الميز عبد الشاوي : تكتل الدول لتحويل قناة السويس ، نكاية في بريطانيا .

بحث منشور في جزمين في حوليات كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

الجزء الأول ، المجلد الثالث والمترون - الجزء الأول - مايو ١٩٦١ ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ ، صص ١١ - ١٥٤ .

الجزء الثاني ، المجلد الثالث والمترون - الجزء الثاني - ديسمبر ١٩٦١ مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ ، صص ١ - ٤٧ .

(١) Lewis Bernard ; The Emergence etc., op. cit., p. 247.

(٢) Miller W. ; op. cit., p. 451.

بريطانيا وحليفاتها تحتل إستانبول وكانت قد أقيمت فيها - كما سبق أن ذكرنا - إدارة عسكرية تمثل دول المعسكر الغربى التى أقامت رقابة صارمة على شتى مرافق العاصمة . وفى جو الهزيمة الكئيب أرغم السلطان ووزرائه على التوقيع على معاهدة سيفر ، ووقفت الغالبية الساحقة من الشعب التركى ضد المعاهدة الجائرة ، واعتبرت يوم التوقيع عليها يوم حداد عام فى أرجاء تركيا .

وقد اعتقد البعض أن موافقة السلطان على المعاهدة هى بادرة طيبة لتنفيذها . ولكن سرعان ماتكشفت عدة عوامل جعلت تنفيذ شروطها أمراً متعللاً إن لم يكن مستحيلاً . لقد رفضت الولايات المتحدة ويوغوسلافيا وحسين بن على ملك الحجاز هذه المعاهدة كما ذكرنا . وكانت اليونان قد خرجت بمكاسب إقليمية وسياسية هائلة ، ولكنها لم تقنع بها ، وأرادت مزيداً من مكاسب أخرى على حساب تركيا لتكوين دولة تضم - فيما تشمل عليه - النصف الغربى من الأناضول ، ثم تصاعدت بطلباتها فعرضت على بريطانيا وحليفاتها أن تسمح لها باحتلال إستانبول مما زاد الموقف فى تركيا اشتعالاً . غير أن العامل الحاسم فى تدهور الموقف بالنسبة لبريطانيا وحليفاتها كان الشعب التركى . فقد أبى الاستسلام وهاله أن تتمزق بلاده على هذا النحو المزمى تحتلها القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية والفرنسية والإيطالية واليونانية ، وهو الذى خاض أشد الحروب هولا وكون إمبراطورية امتدت فى ثلاث قارات . فثار على الأوضاع التى جاءت بها معاهدة سيفر . وقاد مصطفى كمال حركة ثورية واتخذ من الأناضول ، وهى منطقة منيعة محصنة بالهضاب الوعرة الجرداء ، مركزاً لحركته الثورية وألب الجيش للتمرد والمقاومة ، وتحدى الدول التى خرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى وفرضت معاهدة سيفر على بلاده فرضاً .

رأى مصطفى كمال فى الموقف بعد هزيمة بلاده :

نعم مصطفى كمال على رجال الاتحاد والترقى سياستهم التى جعلت تركيا تواكب ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى وتعرض للانحيار السريع . وقد أرجع



التدهور الذى أصاب الدولة قبل الحرب إلى عوامل عديدة ومتشابكة : زجت بنفسها فى حبال الدول الأوروبية الكبرى ، وخضعت لتهديداتها ، وظلت متخلفة فلم تباير ركب الحضارة ، وبددت جهودها فى حكم شعوب غير تركية . وإذا كانت بريطانيا وحليفتها قد استلت فى تلك الحرب العراق وفلسطين وسوريا ، ومن قبل الحرب تونس ومصر وليبيا وغيرها فإنه يقبل سلخ هذه الولايات وغيرها من الإقليم غير التركية التى كانت خاضعة للدولة . ولكن لابد فى مقابل هذه التضحيات من الاحتفاظ بالأناضول بصفته الموطن الأصيلى للأتراك وإقليم تراقيا الشرقية وإستانبول ، والحفاظ على الاستقلال التام للشعب التركى وسلامة أراضيه ، وسيادة الدولة على جميع بناع الوطن التركى بما فيه منطقة المضائق . وكان شعاره تركيا للأتراك<sup>(١)</sup> Turkey for the Turks وتطلب تنفيذ هذه المبادئ التحرر من الحكم الأجنبى فى جميع صوره وأشكاله ومظاهره .

ولن نتعرض لتاريخ تركيا فى الفترة من توقيع هدنة منروس ( سنة ١٩١٨ ) إلى إبرام معاهدة لوزان ( سنة ١٩٢٣ ) إلا بالقدر الذى يتصل بموضوع المضائق والبحر الأسود وبالقدر الذى جعل بريطانيا وحليفتها تغير سياستها تغييراً جذرياً تجاه تركيا المنهزمة ، فتقرر إلغاء معاهدة سيفر ووضع معاهدة جديدة هى معاهدة لوزان تتبعها منها معظم الشروط الجائرة التى جاءت بها المعاهدة الأولى . وعلى سبيل المثال تقرر إبعاد اليونان من الاشتراك مع تركيا فى عمل من صميم سيادة الدولة على منطقة المضائق ، كما تقرر إعادة لإقليم تراقيا الشرقية إلى تركيا . وكانت اليونان قد ظفرت بهذا الإقليم فى معاهدة سيفر . مما يدل على أن لبريطانيا مصالح دائمة ولكن ليس لها أصدقاء دائمون .

### تزام ثلاث مشكلات :

واجه مصطفى كمال موقفاً مظلماً كثيف الإغلام . كان جيش يونانى قد نزل فى أزمير فى ١٥ من مايو - آيار - سنة ١٩١٩ تحت حماية ثلاثة

أساطيل هي الأساطيل البريطانية والفرنسية والأمريكية . واحتل اليونانيون الميناء والمدينة والمنطقة المحيطة بها واتخذوها موقعا إستراتيجيا للتوسع في داخل الأناضول في اتجاه الشرق . وقيل في تفسير أو تبرير اشتراك أساطيل ثلاث دول كبرى في إنزال القوات اليونانية إن بريطانيا وحليفاتها أرادت قطع خط الرجعة على إيطاليا التي طالبت بتنفيذ ادعاءاتها في منطقة الأناضول بما فيها أزمير وجزر الدوديكانيز وجهات أخرى في الحوض الشرق للبحر المتوسط . وكانت هذه الادعاءات موضوع اتفاقات عقدت في أثناء الحرب العالمية الأولى : منها اتفاق لندن السري الملقود بين دول الوفاق الثلاثي وإيطاليا في ٢٦ من أبريل - نيسان - ١٩١٥<sup>(١)</sup>، وكان إبرام هذا الاتفاق هو ثمن بخروج إيطاليا على حليفاتها دولتي الوسط وإعلانها الحرب على النمسا في ٢٣ من مايو - آيار - سنة ١٩١٥<sup>(١)</sup> ، ثم الاتفاقية الثلاثية المعروفة باسم سان جان دي مورين Saint-Jean de Maurienne المبرمة بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا من أجل تقسيم الإمبراطورية العثمانية ( ١٩ أبريل - نيسان - ٢٦ من سبتمبر - أيلول - ١٩١٧ ) وقد اجتمع رؤساء الوزارات البريطانية والفرنسية والإيطالية في عربة قطار وقف بهم في محطة سان جان دي مورين ، وهي قرية جبلية صغيرة على الحدود الفرنسية الإيطالية<sup>(٢)</sup> . وقد اقترف اليونانيون في نزولهم أزمير الكثير من ضروب

---

(١) تجد نص هذه الاتفاقية في :

Great Britain, Parliamentary Papers, 1920, Misc. No. 7. Cmd, 671.

تحت عنوان :

Secret (London) Agreement : The Entente  
Powers and Italy. 26 April, 1915.

(٢) تجد نص هذه الاتفاقية في :

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. II, pp 23—25

تحت عنوان :

Tripartite Saint-Jean de Maurienne  
Agreement for the Partition of the  
Ottoman Empire : Britain, France, and  
Italy. (19 April-26 September 1917).

الوحشية وجرائم الحرب . وقد ألهب الاحتلال اليوناني لأزمير مشاعر الأتراك ، واعتبروه إذلالاً لهم ، وأزكى في نفوسهم تصميماً على طردهم ، إذ كانوا يحرقون اليونانيين على أساس أنهم شعب خضع للأتراك أعصراً وأدهاراً وأحقاباً . ويقول أحد المؤرخين الإنجليز لو أن الإيطاليين قد احتلوا أزمير ما أثار احتلالهم هذه الموجدة العارمة التي أثارها الاحتلال اليوناني في نفوس الأتراك (١) . ويضيف إلى ذلك قوله إن منظر الراية اليونانية المزحزاة وهي تخفق فوق أصقاع من الأناضول كان يعد من جانب كل تركي وطني إهانة لا تغتفر . وكان مما أثار سخط الأتراك التصريحات المكرورة التي كان يعلنها اليونانيون من وقت لآخر ، وهي أن احتلالهم أزمير ومنطقتها ليس احتلالاً مؤقتاً ينحسر بعد فترة ، إنما هو عملية ضم نهائي ، وسياتبع مداه ليشمل الأناضول لتكوين إمبراطورية هيلينية كبرى ، برية وبحرية ، وتمتد في آسيا وفي أوروبا ، وتشمل السواحل الشرقية والغربية لبحر إيجه فضلاً عن منطقة المضائق . وكان اليونانيون يعتمدون في تحقيق هذه المشروعات على تأييد بريطانيا . وكان لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ضالماً معهم ، ويشعر بكرهية شديدة نحو الأتراك ، ويتمنى لو استطاع اليونانيون سحقهم نهائياً وأن يتموا العمل الذي قام به الجنرال مود Maudo في العراق والجنرال الذي Allenbey في فلسطين عند مناجحا في طرد الأتراك وإنهاء الحكم التركي في هذين الإقليمين . ولذلك كانت اليونان الدولة البلقانية المدللة لدى بريطانيا وقفت إلى جانبها تؤيد الوجود العسكري اليوناني في منطقة أزمير . كانت اليونان قد ظفرت من بلغاريا - بمقتضى معاهدة نوبلي Nelly ( ٢٧ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٩ ) - بإقليم تراقيا الغربية ، وظفرت من تركيا - بمقتضى معاهدة سيفر ( ١٠ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢٠ ) بإقليم تراقيا الشرقية ، فأصبحت اليونان على مسافة بضعة أميال من إسطنبول ، وراودتها أعذب الآمال في الاستيلاء على العاصمة التركية العتيقة . وكانت تركيا قد نخلت لليونان بمقتضى معاهدة

سيفر أيضاً عن كل حقوقها على إمبروس Imbros وهى جزيرة فى بحر إيجه على مقربة من الدردنيل ، وعلى تينيدوس Tenedos وهى جزيرة فى نفس المنطقة على ساحل الأناضول . وكان الوجود العسكرى اليونانى فى هاتين الجزيرتين يمثل خطراً مزدوجاً ، فهو ، من ناحية ، يدعم مركز اليونان فى لجنة المضايق وفى مباشرة سلطاتها على تنظيم حرية مرور السفن فى الدردنيل والبوسفور ، وبالتالي التحكم فى الإشراف على حركة الملاحة فى البحر الأسود باعتبار اليونان إحدى الدولتين اللتين تستمد منهما لجنة المضايق شرعيتها ووجودها واختصاصاتها ، ومن ناحية أخرى فإن وجود اليونان فى تلك الجزيرتين وعلى مقربة من أزمير مما يدعم السيطرة العسكرية لليونان على الساحل الغربى للأناضول . ويلاحظ أنه كان لليونانيين نشاط واسع فى الأناضول حيث انتشروا فى هضابها ومدن ساحلها الغربى المطل على بحر إيجه وكانوا يبلغون فى تقدير البعض مايوناً ، وفى تقدير البعض الآخر نصف مليون . وكان من بينهم التجار وزراع التبغ والكروم وصناع الطنافس إلى جانب رجال المال وأصحاب المصارف المالية .

وكان فنزيلوس Venizelos رئيس الوزارة اليونانية ، والزعيم السياسى الكبير ، والكريشى المولد ، قد وضع مشروع إنشاء إمبراطورية شاسعة الأرجاء على أنقاض الدولة العثمانية التى تداعت ، ونحل الإمبراطورية الهيلينية المرتجاة محل هذه الدولة فى الإشراف على مرور السفن فى منطقة المضايق وتكون لها الكلمة المسموعة فى تنظيم حركة وحرية الملاحة فى البحر الأسود . وأخذ فنزيلوس على عاتقه تنفيذ معاهدة سيفر بمساعدة قرض من بريطانيا .

فلاحتلال اليونانى كان يمثل إحدى المشكلات التى واجهها مصطفى كمال . وكانت هناك مشكلة الاحتلال الدولى لإستانبول ومنطقة المضايق . وتمثل هذا الاحتلال ، كما سبق أن ذكرنا ، فى قوات بريطانية وفرنسية وإيطالية . وتنبثق عن هذه المشكلة مشكلة إشراك اليونان مع تركيا كدولتين تستمد لجنة المضايق منهما أساس وجودها ، ثم الإشراف الدولى على تنظيم حرية ( م ١٧ - الدولة العثمانية )

لرور في المضايق على النحو الذي جاءت به معاهدة سيفر . وكانت هناك مشكلة ثالثة تطل برأسها وتفرض نفسها فرضاً على قيادة الثورة الكمالية ، وهي مشكلة السلطان محمد السادس وأعضاء حكومته في إستانبول . وكانوا يشكلون في مجموعهم أداة طيعة لينة في يد بريطانيا يأتمرون بأوامرها وتستغلهم أداة لضرب الثورة . وقد تطلبت المشكلة الثالثة يقظة دائمة ودبلوماسية مرنة وقدرة على التحرك السريع لمواجهة أى إجراء يتخذه السلطان وحكومته لوأد الثورة الكمالية وهي في مهاتها الأولى أو العصف بها حين يكتمل نموها ويشتد ساعدها .

### مؤتمر أرضروم :

كانت المجموعات الأولى للمقاومة الشعبية قد تكونت في ديسمبر - كانون أول - ١٩١٨ عقب التوقيع على هدنة مدروس . وأطلق عليها جمعيات الدفاع عن الحقوق - مدافعي حقوق - وقد ظهرت طلائع هذه الجمعيات في تراقيا وأزمير وبعض جهات في الأناضول . ووجهت نشاطها ضد اليونانيين بوجه خاص . ثم تكونت في مدينة أرضروم (١) في ٣ من مارس - آذار - سنة ١٩١٩ جمعية الدفاع عن حقوق شرقي الأناضول . ودعت إلى عقد مؤتمر اجتماع في ذات المدينة في ٢٣ من يوليو - تموز - سنة ١٩١٩ وحضره مندوبون عن الأقاليم في شرقي الأناضول، وانتخب مصطفى كمال رئيساً للمؤتمر في اليوم الأول الذي اجتمع فيه ، وقد استمرت اجتماعاته حتى ١٧ من أغسطس - آب - سنة ١٩١٩ ، وكان أهم إنجاز قام به المؤتمر هو وضع مشروع التصريح الذي عرف فيما بعد باسم الميثاق الوطني أو ملي ميثاق .

---

(١) يطلق على هذه المدينة أيضاً اسم أرزن الروم - يمتح الألب وسكون الراء وضع الزاي - وهي قسبة ولاية أرمنية التركية . وكانت هذه المدينة من أهم الحصون الواقعة على الحدود الشرقية للدولة . وكان الفرس ينتزعون هذه المدينة من الأتراك ، ولكن كان الأنغبريون ينجسون دائماً في استعادتها . وتشغل المدينة حيزاً كبيراً في تاريخ الدولة العثمانية .

### مؤتمر سيواس :

وفي ٤ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٩ عقد المؤتمر الثاني في مدينة سيواس<sup>(١)</sup> وكان يفوق مؤتمر أرضروم من حيث الأهمية ، وحضره مندوبون من جميع أنحاء البلاد . وانتخب مرة أخرى مصطفى كمال رئيساً له ، وأيد المؤتمر قرارات مؤتمر أرضروم ، وكان من بينها المحافظة على سلامة أراضي الدولة ، والاستمساك باستقلال الشعب ، ومباشرة العمل المسلح عند الضرورة ضد الدول التي تحتل البلاد . وكان اهتمام المؤتمر موجهاً بوجه خاص إلى إتاحة جو إعلامي مناسب لإذاعة قرارات مؤتمر أرضروم وكسب التأييد الشعبي لها في جميع أنحاء تركيا . وفي هذا المؤتمر تغير اسم جمعية الدفاع عن حقوق شرق الأناضول إلى اسم أكثر شمولاً هو « جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والرومل » « أناضولو وروميلي مدافعى حقوق جمعيتى » مع تشكيل لجنة دائمة من بعض أعضاء المؤتمر يرأسها مصطفى كمال . وأصبحت هذه اللجنة هي رائدة الكفاح الوطني وأداته .

### إثارة الأكراد على الكمالين :

وقد ردت حكومة إستانبول بتشجيع من بريطانيا على نشاط الكمالين ، فأثارت قبائل الأكراد الضاربة في شرق الأناضول ضد حركة مصطفى كمال . ولم تسفر هذه المحاولة عن نتائج ذات بال ، بل جاءت بنتيجة عكسية ، إذ كانت من العوامل التي أدت إلى سرعة قطع العلاقات بين حكومة إستانبول والكمالين . ويلاحظ أن مصطفى كمال ظل حريصاً معظم الوقت على ألا يبدو بمظهر الثائر على الحكومة الشرعية في إستانبول . ولما أصدر السلطان « إرادة » بزملة من منصبه كفتش عام للجيش الثالث - وكان مقر قيادته في سامسون على ساحل البحر الأسود شمالي الأناضول - امتثل لهذه « الإرادة » وكف عن لبس الزى العسكري وارتدى الملابس المدنية .

---

(٢) سيواس مدينة تقع في شمال الأناضول .

## برلمان إستانبول يتعاطف مع الكمالين :

اكتسبت حركة مصطفى كمال أنصاراً لها في طول البلاد وعرضها :  
وتحمس لها الكثيرون من سكان إستانبول مقر حكومة المظالم .  
ولما أجريت انتخابات جديدة في ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٩  
للبرلمان العثماني الذي اجتمع في إستانبول في ١٢ من يناير - كانون ثان -  
سنة ١٩٢٠ فاز بالأغلبية فيه أنصار مصطفى كمال والمتعاطفون مع حركته .  
ولم يلبث أن أقر البرلمان الجديد - بعد مضي أسبوعين - صياغة الميثاق  
الوطني في ضوء قرارات مؤتمري أرضروم وسيواس (١) . وقد جاء في صياغة  
هذا الميثاق موافقة البرلمان على أن تدلج من جسم الدولة العثمانية الولايات غير  
التركية التي كانت خاضعة لها . ولكن تمسك المجلس في مقابل هذه «التضحيات»  
بعدة مطالب منها : الحفاظ على الأناضول متحرراً من كل نفوذ أجنبي  
بصفة هذا الإقليم هو الموطن الأصلي للأتراك العثمانيين ، وعلى إقليم تراقيا  
الشرقية ، وعلى بقاء إستانبول في نطاق الدولة التركية تأسيساً على أن هذه  
المدينة هي « مركز خلافة الإسلام وعاصمة المظلمة ، ومقر الحكومة »  
وأن يكون بحر مرمرية بمنأى عن كل خطر أجنبي . ومعنى هذه الفقرة  
تحرير منطقة المضائق من الوجود العسكري لدول المعسكر الغربي . وجاء  
في الميثاق أيضاً أن تركيا تقبل فتح البوسفور والدردنيل لمرور التجارة  
العالمية مع ضرورة إسهامها في النظام الذي يوضع لمرور التجارة العالمية (٢) .  
ويلاحظ أنه لم يرد نص في الميثاق لمرور السفن الحربية سواء للدول

---

(١) لم تطل الحياة هذا البرلمان ، فقد عقد آخر جلسة له في ١٨ من مارس - آذار - سنة  
١٩٢٠ حيث أصدر قراراً بالإجماع بالاحتجاج على القبض على بعض أعضائه ، ثم قرر تأجيل  
اجتماعاته إلى أجل غير مسمى .

ويبدو أن السلطان ساء إقرار البرلمان صياغة الميثاق الوطني ، فأصدر في ١١ من أبريل  
- نيسان - ١٩٢٠ قراراً بحل البرلمان وقد وُضع هذا القرار نهاية الحياة النيابية في إستانبول

(٢) Toynbee Arnold J. ; The Western Question in Greece

and Turkey. London., 1922, pp. 209—210.

الصديقة أو الدول العداوة أو في وقت السلم أو زمن الحرب . وقال الميثاق إن هذه المبادئ هي التي تكفل قيام سلام عادل ودائم .

### تعزير الاحتلال الأجنبي لإستانبول سنة ١٩٢٠ :

نشط أنصار مصطفى كمال في إستانبول وساعدوا الحركة الثورية قولاً وعملًا ، فأخلوا يهاجمون مستودعات الأسلحة والذخائر التابعة لقوات بريطانيا وحليفاتها ، ويرسلون مايسئلون عليه إلى الأناضول كغنائم حرب . وانخذت بريطانيا وحليفاتها لإجراءات مضادة وسريعة . حامت شكوكها حول على رضا باشا الصدر الأعظم واتهمته بأنه ضالع مع الكمالين ، وطلبت سلطات الاحتلال من السلطان إقالته من منصبه . والحق أن على رضا باشا لم يكن مؤيداً للكمالين قلباً وقالباً ، ولكنه كان متعاطفاً معهم . واستجاب السلطان لطلب سلطات الاحتلال بصورة أو أخرى . فاستقال الصدر الأعظم في ٣ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ وكان خروجه من رئاسة الوزارة أقرب إلى الإقالة منها إلى الاستقالة ؛ وعين مكانه صالح باشا وزير البحرية في ٨ من ذات الشهر . وقرر المجلس الأعلى للقوات المتحالفة في ذات اليوم تعزير قوات الاحتلال في إستانبول . ودخلت في ١٦ من مارس - آذار - قوات بريطانية رابطة في شتى أحياء العاصمة إلى جانب القوات السابقة . وأمر الجنرال ولسن Wilson القائد العام للقوات المتحالفة بالقبض على المشتبه في أنهم من أنصار الكمالين ، ثم أمر بنفيهم إلى مالطة . وبلغ عددهم ١٥٠ كان من بينهم عدد من النواب . ولم يطلق سراحهم إلا في سنة ١٩٢١ في مقابل الإفراج عن ضباط بريطانيين اختطفهم الكماليون في الأناضول واحتفظوا بهم كرهائن حتى تفرج الحكومة البريطانية عن الوطنيين المعتقلين في مالطة .

### المجلس الوطني الكبير :

دعا مصطفى كمال في ١٩ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ ، وهو اليوم التالي لتأجيل اجتماعات برلمان إستانبول ، إلى إجراء انتخابات تيمجري في مدة وجيزة لعقد مؤتمر طوارئ يجتمع في أنقرة حيث كانت اللجنة الدائمة قد



اتخذتها مقراً لها منذ ٢٧ ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٩ . وقد قدر لهذه المدينة الجبلية الصغيرة في الأناضول أن تصبح مقراً لحركة المقاومة الوطنية ثم تغدو عاصمة لجمهورية تركيا . واجتمع في ٢٣ من إبريل - نيسان - سنة ١٩٢٠ في أنقرة ماعرف باسم المجلس الوطني الكبير . وكان مؤلفاً من ٢٧٠ عضواً أصيب إليهم ثمانون كانوا قد غادروا إستانبول في يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢٠ وحاول أعضاء المجلس إلى ذلك الوقت الوقت الإبقاء على علاقات ودية مع السلطان وألا يتدخلوا مظهر الثوار . وفي ضوء هذه المحاولة أعلن الأعضاء ولاءهم لحمد وحيد الدين بصفته سلطاناً للإمبراطورية وخليفة للإسلام وأعربوا عن رغبتهم في « إنفاذه من أيدي الأعداء » .

### الصراع السافر بين السلطان والكماليين :

جاءت هذه المحاولة بنتيجة عكسية ، إذ ظن السلطان أنها دليل الضعف ، فخاض صراعاً عنيفاً سافراً ضد الكماليين ، كان من مظاهر هذا الصراع :

(١) عين السلطان في ٥ من إبريل - نيسان - سنة ١٩٢٠ داماد (١) فريد باشا صدرأ أعظم . وكان معروفاً بعدايته الشديد للكماليين .

(ب) استصدر السلطان من شيخ الإسلام - مفتي إستانبول سابقاً - واسمه دري زاده عبد الله أفندي - فتوى تبيح قتل العصاة بناء على أوامر الخليفة . ويعتبر دري زاده عبد الله أفندي قتلهم فرض عين على كل مسلم بالغ قادر .

(ج) أصدر الصدر الأعظم إعلاناً دمج فيه بالبطالان الانتخابات التي دعا إليها مصطفى كمال ، واتهم الأعضاء بأنهم منافقون مخادعون ، وأنهم لا يمثلون الشعب التركي .

(د) أنشأت الحكومة في ١٧ من إبريل - نيسان - قوات عسكرية أطلقت عليها قوات نظامية - قوة انضباطية - لمحاربة الكماليين .

(١) كلمة تركية . ماها صهو

(هـ) صدرت في ١١ من مايو - آيار - أحكام غيايية من محاكم عسكرية في إستانبول بإعدام مصطفى كمال ورفاقه .

وهكذا استخدم السلطان وأعضاء حكومته جميع ما في جعبتهم من أسلحة دينية وعسكرية وقضائية وسياسية للقضاء على القوة الجديدة التي ظهرت ونمت سريعاً في الأناضول .

وقد رد الكاليون على السلطان وحكومته رداً عملياً بنفس الأسلحة وكان من بينها :

(أ) في ليلة ٣ - ٤ مايو - آيار - سنة ١٩٢٠ عين المجلس الوطني الكبير مجلس وزراء في أنقرة .

(ب) في ٥ من مايو - آيار - أصدر مفتي أنقرة واسمه بوركشى زاده محمد رفعت أفندى فتوى وقع عليها ١٥٢ مفتياً في الأناضول جاء فيها أن الفتوى الصادرة من شيخ الإسلام فتوى باطلة تأسيساً على أنها صدرت تحت الضغط الأجنبي . ودعت الفتوى المسلمين « لتحرير خليفهم من الأسر » .

(ج) أعلن المجلس الوطني الكبير أن داماد فريد باشا خائن<sup>(١)</sup>.

ويلاحظ أن قرارات الكاليين جاءت ماسة بثلاث شخصيات كانت أكبر الشخصيات على الإطلاق التي عرفتها الإمبراطورية العثمانية عبر تاريخها الطويل ، وكانت محل التبجيل العميق من الجماهير التركية ورعايا الدولة المسلمين ، ونعني بهذه الشخصيات : السلطان ، وشيخ الإسلام ، والصدر الأعظم . ولذلك لم يكن استقبال الشعب لهذه القرارات فاتراً فحسب ، بل قامت مظاهرات احتجاجاً عليها . وكانت حكومة إستانبول تشجع هذه المظاهرات.

#### معاهدة سيفر تخضع الكاليين في وقت عصيب :

اكثف الجور السياسي أمام الكاليين ، ولكنها كانت أزمة عابرة ، وبدأ الموقف يتحول لصالحهم . كان الوفد التركي الذي يمثل حكومة السلطان لدى

موتمر الصلح قد وقع في ١٠ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢٠ على معاهدة سيفر. وقد أثار هذا الحادث موجة عارمة من السخط على المعاهدة وعلى الموقعين عليها. ونظرت الجماهير إلى السلطان وحكومته على أنهم رمز للهزيمة والتفريط في حقوق البلاد. وسمت مكانة الكماليين. وكان نجاحهم في محاربة اليونانيين قد ربط بين الكماليين والقضية الوطنية، وجعل معارضة الحركة الكمالية - بدلا من تأييدها - بمثابة خيانة للوطن.

### حكومتان في تركيا :

ونجم عن ثورة مصطفى كمال أن وجدت في تركيا حكومتان في وقت واحد : حكومة في إستانبول لا حول لها ولا قوة ، يرأسها السلطان محمد السادس وهو حاكم شرعي<sup>(١)</sup> de jure يستمد وجوده من حق توارث العرش العثماني ، وحكومة في أنقرة ذات سلطات واسعة متعددة يرأسها مصطفى كمال وهو حاكم فعلي<sup>(٢)</sup> de facto أي حاكم يستند في ممارسة سلطاته إلى الأمر

---

(١) مصطلح قانوني معناه يستند إلى القانون والحق Le droit

(٢) مصطلح قانوني معناه يستند إلى الأمر الواقع Le fait

وفي الدلائل الدولة يستخدم هذان المصطلحان عند التفرقة بين نوعين من اعتراف الدول بدولة جديدة ناشئة أو بحكومة جديدة قامت بانقلاب في دولة قديمة قائمة وأدى إلى قيام نظام جديد nouveau régime للحكم فيها ، فيقال الاعتراف القانوني de jure أو Reconnaissance de droit وهو الاعتراف الصريح المباشر ، والاعتراف بالواقع de facto أو Reconnaissance de fait ويكون هذا الاعتراف عن طريق إنشاء علاقات مع الدولة الجديدة دون التعرض بصفة رسمية لموضوع وجودها القانوني. وهذا ماحدث فعلا لحكومة أنقرة فقد اعترف بها بعض الدول مثل الاتحاد السوفيتي وفرنسا وفارمس وأفغانستان في الوقت الذي كانت لاتزال حكومة إستانبول قائمة برئاسة السلطان محمد السادس ومع أجهزة الحكم مثل الصدر الأعظم وملقى إستانبول والوزراء. ومرد التفرقة في الاعتراف إلى حيلة الدبلوماسيين حتى لا يؤخذ عليهم التسرع في الاعتراف نهائياً بدولة ناشئة إذا كانت ظروف قيامها تتطلب التريث في الاعتراف بها من ناحية ، وحتى لا تتأخر ممارستها لنشاطها الخارجي حين استقرار وضعها تماماً من ناحية أخرى ، فتعتمد الدول إلى الاعتراف بواقع وجودها أولاً حتى يستقر لها الأمر =

الواقع . وكانت توجد إلى سنوات ذات عدد في التاريخ المعاصر حالة مماثلة للحكومة المزدوجة في دولة واحدة هي الصين (١).

= فنصدر لها اعترافها القانوني . وللتفرقة بين الاعتراف بالواقع والاعتراف القانوني وزن في المجال الدبلوماسي ، ولكن لا أثر لهذه التفرقة في المحيط القانوني ، فلاعتراف ، سواء كان اعترافاً قانونياً أو اعترافاً بالواقع ، ترتب عليه ذات الآثار بالنسبة للدولة الصادر منها والدولة الصادر إليها . وجدير بالذكر أن فقهاء القانون الدولي العام يفرقون بين الاعتراف بالدولة ، ومحل صلوره ظهور دولة جديدة ، والاعتراف بحكومة جديدة أقامت نظام حكم جديد في دولة قديمة قائمة ، مع مراعاة هذا المبدأ الأساسى الذى لا يقبل نقاشاً ، وهو أن لكل دولة مطلق الحرية في أن تتخذ نظام الحكم الذى يراها ، دون أن يكون للدول الأخرى سلطان عليها في هذا الأمر ، وإلا كان ذلك تدخلاً في شئونها الخاصة . ويكفى من أجل الاعتراف بالحكومة الجديدة أن يثبت أنها تمارس شئون الحكم فعلاً داخل الدولة ، وأن في استطاعتها ونى نيّتها الوفاء بالتزاماتها الدولية .

دكتور على صادق أبوهيف : القانون الدولي العام . الناصر منشأة المعارف بالإسكندرية ، الطبعة الرابعة ، ١٩٥٩ ، صص ١٥٩ - ١٧٢ .

(١) بدأت المشكلة في سنة ١٩٤٩ على أثر انتصار قوات ماوتسى تونج الشيوعية على قوات حكومة تشانج كاي شيك الوطنية ، واستيلاء الأول على مقاليد الحكم في الصين وتطبيق النظام الاشتراكي في أرجاء البلاد ، والتجاء الثانية إلى جزيرة فرموزا وإقامة الحكم فيها باسم الصين الوطنية . وبذلك أصبح في الصين حكومتان في وقت واحد : حكومة جديدة يرأسها ماوتسى تونج هي حكومة الصين الشعبية ونسيطر على كل أقاليم الصين في آسيا بمساحاتها الشاسعة وما يزيد على ٧٥٠ مليون نسمة . والحكومة القديمة برئاسة تشانج كاي شيك ، واقتصر سلطانها على جزيرة فرموزا والجزر الصغيرة المجاورة لها ، وتعدادها لا يزيد كثيراً على ستة ملايين نسمة . واعترفت بعض الدول بحكومة بكين ، بينما رفضت الدول الأخرى الاعتراف بها . وتجسد الوضع على هذا النحو زهاء ٢٢ سنة . وزاده حدة مشكلة عضوية الصين في الأمم المتحدة ، لأن الصين إحدى الدول الخمس التي تتمتع بالمصوية الدائمة في مجلس الأمن . وكان مقتضى المنطق القانوني لهذا التطور أن تحمل الصين الشعبية محل الصين الوطنية في عضوية الأمم المتحدة ، وما يترتب على ذلك من حق المصوية الدائمة في مجلس الأمن ، لأن الفقرة الأولى من المادة ٢٣ من الميثاق عند ما أشارت إلى الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن ذكرت الصين مجردة من كل وصف . وبلا حظ أن منظمة الأمم المتحدة قد نشأت قبل قيام الثورة الاشتراكية في الصين . وقد وقفت دول الغرب وتكملت لمنع الصين الشعبية من عضوية الأمم المتحدة . وانتهى هذا الصراع في الدورة السادسة والعشرين للجمعية العامة للأمم المتحدة ، إذ وافقت بمجلس ٢٥ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٧١ على إحلال الصين الشعبية محل الصين الوطنية .

## من أسباب نجاح الثورة الكمالية :

كانت محاربة اليونانيين هي المشكلة الأولى التي فرضت نفسها على الكماليين ، واحتلت مكان الصدارة في خططهم اعتقاداً منهم أن إجلاء اليونانيين عن أزمير وطردهم من الأناضول هما مفتاح جميع المشكلات التي سوف تتوارى أو تخف حداثها تلقائياً ، الأمر الذي يؤدي في نهاية الكفاح إلى إلغاء معاهدة سيفر .

كان اليونانيون عند نزولهم أزمير سنة ١٩١٩ أكثر عدداً وعدة، وأنزلوا بالأتراك هزائم متتالية واستولوا على بروسه وتوغاوا في الأناضول . ولكن بدأ الموقف مع بداية سنة ١٩٢١ يتطور تطوراً سريعاً لصالح الكماليين . وكان هناك عاملان حاسمان في هذا التطور : أولهما شجاعة الأتراك كشعب محارب من الطراز الأول عقد العزم على إزال الرأية اليونانية المزدهرة في عينه والتي كانت تخفق عالية فوق أزمير وبقاع أخرى في الأناضول وتراقية وغيرها . وثانيهما تصدع الجبهة الداخلية في اليونان ، فقد انتزع الموت فجأة إسكندر ملك اليونان الشاب على أثر عضه قرد أليف . وفي أعقاب هذا الحادث جرت انتخابات عامة أسفرت عن تنحية فنزيائوس عن رئاسة الوزارة في ١٤ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٠ ومغادرته البلاد (١) . وتعرض

= انظر تفصيلات عن هذا الموضوع في :

دكتور عبد العزيز محمد سرحان : التنظيم الدول . الناشر مكتبة النهضة العربية ، القاهرة

١٩٧٢ ، ص ص ٣٥٢ - ٣٥٤ .

وما هو جدير بالذكر أن الزعيم ماركس توتنج وإفاه الأجل في الساعة الواحدة والنقطة العاشرة من صباح الخميس ٩ من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٩٧٦ بتوقيت بكين ( في الساعة الثامنة والنقطة العاشرة من مساء الأربعاء ٨ من شهر سبتمبر - أيلول - بتوقيت القاهرة ) عن ٨٢ عاماً ، وكان آخر عملاقة مصر الذي قاد مسيرة الصين الطويلة من عالم التخلف والفقر لتصبح واحدة من قوى العالم الأساسية في التاريخ المعاصر .

(١) انظر أسباب صدوف الشعب اليوناني عن فنزيلوس في

العرش اليونانى لحزات عنيفة فى تلك الفترة. حين أحد كبار ضباط البحرية اليونانية وصياً على العرش (١) ثم حلت مكانه بعد شهر وبعض شهور الملكة والدة أولجا (٢) Olga ، ثم أجرى استفتاء عام جادت نتيجته لمصلحة قسطنطين الملك الأسبق، وكان قد أقضى عن العرش سنة ١٩١٧ لميوله الصارخة تجاه ألمانيا ، فعاد إلى العرش فى ٥ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٠ ومعه حاشيته الألمانية، وامتنعت دول المعسكر الغربى فترة طويلة عن الاعتراف به. والحق أن إقصاء فنزيلوبس عن الحكم قد حرم اليونان من حلف بريطانيا وبعض قطاعات الرأى العام بها ، كما ضيع عليها فرصة الاستيلاء على الأناضول أو نصفه الغربى على الأقل نظراً لما كان يتمتع به هذا الزعيم السياسى من تقدير عميق من رجال السياسة فى أوروبا للخدمات الجليلة التى أسداها للمعسكر الغربى، وما كان يتحلى به من عقلية رحبية الآفاق ودهاء وبهد نظار وقيادة حكيمة .

كان الملك قسطنطين مغامراً متهوراً ، بينما كان فنزياوس حذراً يتجنب التوغل داخل الأناضول بعيداً عن الساحل لمهاجرة الكالين . وقد صمم الملك على أن يزحف على أنقرة وينطاق فى المضارب الصحيرية الجرداء المحيطة بهذه المدينة أملاً فى فرض شروطه على الكالين من مرفعتات الأناضول . وكان الدافع له على هذه الخطوة الحرية حرصه على عرشه وتحقيق مصلحة أسرته . وكان يأمل فى أن يجد من لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية عوناً مادياً وتأييداً أدبياً يكفلان له النجاح . وتوقع الخبراء العسكريون فى أوروبا

---

(١) كان هذا الضابط البحرى هو الأدميرال كونتوريوتس Admiral Kountouriotis وقد ظل وصياً على العرش فى الفترة من ٢ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٠ حتى ١٦ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٠ ، ثم عين وصياً على العرش مرة أخرى فى الفترة من ٢٠ ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٣ حتى ٢٥ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٤ تاريخ إعلان قيام الجمهورية الهلينية ، وانتخب رئيساً للجمهورية فى ١٤ من أبريل - نيسان - سنة ١٩٢٤ وأعيد انتخابه فى ٢٤ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢٦ .

(٢) ظلت الملكة والدة وصية على العرش فى الفترة من ١٧ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٠ حتى ٤ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٠ .

وقتل ذلك فشاخ في الوصول إلى ميثاق أنقره . وكان من تصرفاته التي اتسمت بالحماقة وجعلت عليه أنه طرد من الخدمة عدداً لا يستهان به من ضباط الجيش بحجة أنهم من أنصار فريزولوس مما أدى إلى حرمان الجيش من كفايات عالية في وقت عصيب كان يتطلب حشد جميع الجهود والارتفاع بالمستوى القتالي .  
ليستطيع الجيش الصمود أمام الكاليين .<sup>١</sup>

### الانتصارات الأولى للثورة على اليونانيين :

أتاح هذا التصديع في الجبهة الداخلية اليونانية فرصة مواتية أمام الكاليين لإزالة ضربات موجعة باليونانيين . ففي ١٠ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢١ تصدت قوة تركية بقيادة عصمت لليونانيين في واد قريب من لينونو . ودارت معركة استمرت يومى ٣١ مارس - آذار - وأول أبريل - نيسان - وردت اليونانيين على أعقابهم خاسرين . ولقى عصمت تقديراً عميقاً . أطلق عليه عصمت لينونو تمجيذاً لبطولته في إيقاع الهزيمة باليونانيين ، كما رقي إلى رتبة عيّد . ولم يلبث أن قام اليونانيون بزحف جديد بدأ في يوليو - تموز - سنة ١٩٢١ والتقوا بالكاليين عند نهر سقارية حيث نشبت معركة كبرى . وكان مصطفى كمال يقود القوات التركية ، وأحرزت انتصاراً رائعاً وانسحب اليونانيون مرة أخرى في اتجاه الغرب . وفي غمرة الابتهاج بهذا الانتصار أصدر المجلس الوطني الكبير قراراً بمنح مصطفى كمال لقب « غازى » ومعناه في اللغة التركية « الظافر في حرب مقدسة » . وكان لانتصار الكاليين في سقارية أصداء بعيدة : اعترف بهم دولياً كقوة عسكرية وسياسية لها وزنها في تركيا ، بينما اعترف البعض بهم كحكومة قائمة على أساس من الأمر الواقع *de facto* في تركيا .

### اليونانيون يسعون لانتصار رحيص :

وقد سعى اليونانيون وسط هذه الهزائم التي نزلت بهم إلى إحراز نصر رحيص . ففضلت الوزارة اليونانية الائتلافية بذكره في يونيو - حزيران - سنة ١٩٢٢ إلى بريطانيا وحليفاتها طالبت فيها بأن تسمح هذه الدول الحليفة

للقوات اليونانية باحتلال إستانبول . وجاء في المذكرة أن احتلالها والاستيلاء عليها هو الذى يؤدى - فى نظر الوزارة اليونانية - إلى استتباب السلام فى المنطقة . ومن المعروف - كما ذكرنا - أن القوات التابعة لبريطانيا وحليفتها كانت تحتل إستانبول . ومعنى المذكرة اليونانية أن تتخلى القوات المتحالفة عن مواضعها وتغادر العاصمة التركية لاحتلالها القوات اليونانية دون أن تطلق طلقة رصاص واحدة . وقد رفضت المذكرة جميع الدول عدا بريطانيا التى تأرجحت فى موقفها . وهددت تلك الدول بأنها سوف تستخدم القوة إذا حاولت اليونان تنفيذ مشروعها . وكان مرد هذا الرفض إلى أن دول المعسكر الغربى كانت تعلم علماً يقينياً أن الاحتلال اليونانى لإستانبول سيؤدى إلى تصعيد الموقف فى المنطقة تصعيداً خطيراً . وإذا كان الكماليون قد نظروا إلى احتلال اليونانيين لأزمير على أنه إهانة لاتطاق ، فإنهم سينظرون إلى احتلال اليونانيين لإستانبول عاصمة الإمبراطورية على أنه كارثة وطنية تضاعف أمامها جميع الكوارث . وسيجتاحون الملاح فى وجه اليونانيين فى إستانبول الأمر الذى يؤدى إلى إشعال حرب فى العاصمة ومنطقتها مما يعرض المدن فى عبورها البوسفور لشقى الأخطار .

### الكماليون يتفقون مع الروس على مستقبل البحر الأسود والمضائق :

وكما كانت سنة ١٩٢١ هى سنة الانتصارات العسكرية التى حققها الكماليون ، فقد كانت أيضاً سنة انتصارات دبلوماسية حققتها فى المجالات الدولية . فقد رأوا دعماً للحركة الكمالية لإنشاء علاقات صداقة مع عدد من الدول . وسرعان ما حدث لقاء سياسى ودبلوماسى مع حكومة موسكو . استغلت الحكومة الأنشيرة الصعوبات التى كانت تواجهها الحركة الكمالية ، إذ كانت بريطانيا تؤيد قلباً وقالباً اليونانيين واحتلالهم أزمير ، وتساند استمرار الاحتلال الفرنسى والإيطالى لمناطق هامة فى الأناضول ، ومن ثم سعى النظام السياسى الجديد فى روسيا ليكتب تأييداً شعبياً واسعاً ضد بريطانيا وحليفتها التى خرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى ، أملاً فى احتضان الشعوب المقهورة ، والتظاهر بمساعدتها ضد قاهريها من الدول



الأوروبية . عملت الحكومة الاشتراكية في موسكو على إنشاء علاقات دبلوماسية مع أنقرة منذ ٢٤ من أغسطس — آب — سنة ١٩٢٠ . وقد وصل إلى موسكو في ٨ من نوفمبر — تشرين ثان — أول مبعوث دبلوماسي تركي يمثل الحركة الكمالية ليشتغل منصبه . وتوصلت الحكومتان إلى عقد معاهدة في موسكو في ١٦ من مارس — آذار — سنة ١٩٢١ أطلق عليها معاهدة الصداقة بين تركيا والروسيا . وأطلق على تركيا في هذه المعاهدة اسم حكومة المجلس الوطني الكبير في تركيا ، كما أطلق على روسيا اسم الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية (١) R. S. F. S. R. .

وقد جاء في مقدمة المعاهدة أو الديباجة Le Préambule — وفقاً للمصطلح القانوني — أن هاتين الحكومتين تشاركان في دعم مبادئ حرية الشعوب وفي تأييد حق كل أمة في تقرير مصيرها ، وتضعان في اعتبارهما الكفاح المشترك الذي تخوضه كل منهما ضد الاستعمار ، وتدركان أن الصعاب التي تواجهها إحدى الحكومتين تنعكس على الحكومة الأخرى مما يجعل مركزها أكثر سوءاً . وجاء أيضاً في مقدمة المعاهدة أن تلكا الحكومتين تحلوهما رغبة في إنشاء علاقات صداقة دائمة تقوم على المصالح المشتركة ، وأنهما قررتا عقد اتفاق يؤكد علاقات المودة والصداقة بين البلدين .

اشتملت أحكام المعاهدة Le Dispositif على ست عشرة مادة . وقد جاءت المادة الأولى من المعاهدة بعدة مبادئ هامة استهدفت دعم مركز الثورة الكمالية في مواجهة بريطانيا وحليفتها وفي مواجهة حكومة السلطان في إستانبول . ومن بين هذه المبادئ رفض حكومة موسكو الاعتراف بمعاهدة سيفر التي فرضت على تركيا في السنة السابقة (١٠) من أغسطس — آب — عام ١٩٢٠ ، وفي ذات الوقت وفي نفس المادة اعترفت

---

(١) تمثل هذه الحروف ، الاسم الرسمي للروسيا في ذلك الوقت (سنة ١٩٢١)

Russian Socialist Federal Soviet Republic

ويرمز إلى اسمها حالياً (سنة ١٩٧٧) بالحروف التالية U.S.S.R. أي اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وتختصر هذه الحروف عادة إلى حرفين هما : Soviet Union S.U. أي الاتحاد السوفيتي .

موسكو بالميثاق الوطني التركي ، وأعادت تخطيط الحدود الشمالية الشرقية لتركيا . نصت هذه المادة على أن الطرفين المتعاقدين قد اتفقا على رفض الاعتراف بأية معاهدة سلام أو أى اتفاق دولى آخر يفرض على الطرف الآخر ضد رغبته . وخلصت من هذا المبدأ العام إلى القول بأن الحكومة الجمهورية الروسية الاشتراكية توافق على عدم الاعتراف بأى اتفاق دولى يخص تركيا ولم توافق عليه الحكومة الوطنية فى تركيا والتي تتمثل فى ذلك الوقت فى المجلس الوطنى الكبير . ومضت المادة الأولى من المعاهدة تقرر أن تعبر تركيا فى هذه المعاهدة يعنى الأقاليم التى حدها الميثاق الوطنى المؤرخ فى ٢٨ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢٠ والذى صدر عن مجلس النواب العثمانى فى إستانبول وأبلغ فى ذلك الوقت إلى الصحافة وإلى جميع الحكومات الأجنبية . وأخيراً تناولت المادة الأولى تخطيط الحدود الشمالية الشرقية لتركيا .

ونصت المادة الثانية على أن تتنازل تركيا لجورجيا عن حق السيادة على مدينة وثغر باطوم على البحر الأسود وأن يمارس سكانها قسماً وافراً من الحكم الذاتى يضمن لكل طائفة حقوقها الثقافية والدينية، ويسمح لهم بوضع القوانين الزراعية طبقاً لرغبات هؤلاء السكان . ولكن تقرر منح تركيا حق المرور الخافى لجميع الصادرات والواردات التركية فى ثغر باطوم بدون دفع ضرائب أو رسوم جمركية وبدون معوقات أو تأخير ، كما تقرر حق تركيا فى استخدام ثغر باطوم بدون مصاريف خصوصية .

وتعرضت المادة الخامسة لموضوع مرور السفن عبر المضائق والوضع السياسى للبحر الأسود ، فجاءت صياغتها على النحو التالى :

« من أجل ضمان فتح المضائق لتجارة جميع الشعوب، يوافق الطرفان المتعاقدان على أن يعهدا بوضع الصياغة النهائية لاتفاق دولى خاص بالبحر الأسود إلى مؤتمر يتكون من مندوبين يمثلون الدول الساحلية ( لهذا البحر ) بشرط ألا يكون من طبيعة قرارات هذا المؤتمر المساس بالسيادة الكاملة لتركيا وبسلامة إستانبول عاصمتها » .

In order to assure the opening of the Straits to the commerce of all nations, the Contracting Parties agree to entrust the final elaboration of an international agreement concerning the Black Sea to a conference composed of delegates of the littoral States, on condition that the decisions of the abovementioned conference shall not be of such a nature as to diminish the full sovereignty of Turkey or the security of Constantinople, her capital.

ويلاحظ على هذه المادة أنها جاءت مترتبة وانطوت على مبادئ عامة ، دون أن تتعرض لأية تفصيلات ، فهي تقرر حرية المرور لجميع السفن التجارية في الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور ، وأعففت ذكر السفن الحربية سواء السفن التابعة لتركيا أو روسيا ، وسواء السفن التابعة للدول الأخرى . وكان هذا الإغفال متعمداً . كما سجلت تلك المادة عزم الحكومتين على عقد مؤتمر يمثل تركيا وروسيا وبلغاريا ورومانيا بصفتها دولاً تطل على الأسود لتقرير الوضع السياسي لهذا البحر فيما عدا ثغر باطوم على النحو الذى أشارت إليه المادة الثانية كما سبق أن ذكرنا . واحتاطت المادة الخامسة بالنص على عدم المداس بالسيادة الكاملة لتركيا ، وعلى بقاء إستانبول عاصمة لتركيا وعلى المحافظة على سلامتها أى تحريرها وتحرير مياهها الإقليمية من القوات الأجنبية .

وجاء فى المادة السادسة أن الطرفين المتعاقدين يوافقان على أن المعاهدات التى أبرمت إلى ذلك الوقت بين الحكومتين لا يتمشى مع مصالحهما المشتركة . وعلى ذلك فقد اتفقا على اعتبار هذه المعاهدات ملغاة . كما نصت ذات المادة على موافقة حكومة موسكو على إعفاء ذمة الحكومة التركية من جميع ديونها والتزاماتها المالية التى تقررت فى معاهدات سبق أن عقدت بين تركيا والحكومة القيصرية السابقة .

وجاء فى المادة السابعة أن الحكومة الاشتراكية فى موسكو توافق على إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية فى تركيا<sup>(١)</sup> نأسيداً على أن هذا النظام لا يتمشى

---

(١) كانت معاهدة سيفر قد أعادت هذا النظام إلى تركيا ، على الرغم من أن الحكومة الألمانية كانت قد أرسلت منشوراً إلى الدول الأجنبية مؤرخاً فى ٩ من شهر سبتمبر - أيلول - ١٩١٤ تحظرها بإلغاء هذا النظام اعتباراً من أول أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٤ .

مع الممارسة الكاملة لحقوق السيادة ومع التقدم الوطنى فى أى بلد . وقد تناولت المواد من ٨ إلى ١٦ فى تلك المعاهدة مسائل لا تتدخل فى نطاق هذه الدراسة (١) .

### مزيد من الانتصارات العسكرية والدبلوماسية :

حققت الحركة الكمالية مزيداً من الانتصارات العسكرية والدبلوماسية. كانت القوات الإيطالية والفرنسية تحتل مناطق هامة فى جنوبى الأناضول مما يجعل نفوذ تركيا فى شمالي الخوض الشرق للبحر المتوسط سراباً . مضت قوات الاحتلال الإيطالية والفرنسية توطد مواقعها ولا تبغى الجلاء عنها . وخاض الكماليون حرب استنزاف ضارية. ورأت إيطاليا بحسب قواتها من الأناضول، وتم جلاؤها فى ٥ من شهر يوليو - تموز - سنة ١٩٢١ فكانت إيطاليا أول دولة تجلو عن الأناضول . ولكنها احتفظت بجزر الدوديكانيز ، أما فرنسا فقد استمرت تحتل مناطق هامة فى جنوبى الأناضول ، وشدد الكماليون ضغطهم على القوات الفرنسية وولأوا إلى حرب العصابات وأنزلوا خسائر فادحة متعاقبة بالقوات الفرنسية وبخاصة فى كيليكيا Cilicie - وهى منطقة جبلية تقع فى إقليم طوروس ، فى جنوب شرق الأناضول وشمالي سوريا - وعلى الرغم من الهدنة المؤقتة التى عقدت فى ٣٠ من شهر

---

( ١ ) تجد النص الرسمى والكامل لهذه المعاهدة فى كل من :

British and Foreign State Papers, Vol. 118, pp 990—996.

Survey of International Affairs, 1920—1923, pp 361—376.

وانظر أيضاً كلا من :

Dennis A.L.P.; Foreign Policies of Soviet Russia, chaps. 9,10.

Fischer L., Soviets in World Affairs, Vol I, Chap. 12.

وانظر كذلك مقالا بعنوان :

Les Relations Russo—Turques depuis l'avènement du Bolchevisme

فى مجلة

Revue du Monde Musulman, No. 25 (Decembre, 1922) pp. 181—206.

وقد تم تبادل وتائق التصديق على هذه المعاهدة فى مدينة قارس فى ١٣ من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٢١ .

( م ١٨ - الدولة العثمانية )

مايو — آيار — سنة ١٩٢٠ فقد استمرت العمليات الحربية بين الكمالين والفرنسيين تلور في عنف بالغ . ورجحت كثرة الكمالين ، واضطرت فرنسا إلى إعادة تقدير الموقف الحربى والسياسى فى منطقة الشرق الأدنى كلها ، ومن ثم قررت فى مارس — آذار — سنة ١٩٢١ الاعتراف بالحكومة الكمالية *de facto* ، ولم تمض ستة أشهر حتى قررت الجلاء عن منطقة كيليكيا كى تتفرغ لتركيز جهودها على سوريا ولبنان . وقد عقد اتفاق *accord* فى مدينة أنقرة فى ٢٠ من شهر أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٩٢١ عرف باسم اتفاق فرانكلين بويو *Henri Franklin - Bouillon* وهو المطلوب الفرنسى الذى وقع على الاتفاق<sup>(١)</sup>. وعلى الرغم من أن هذا الاتفاق لم يتعرض لمشكلة مرور السفن التجارية والحربية فى المضائق ولا لتقرير السيادة التركية على منطقة المضائق إلا أنه تناول مسائل بالغة الأهمية . فقد قرر لإنهاء حالة الحرب بين الكمالين والفرنسيين، وجلاء القوات الفرنسية كلية عن منطقة كيليكيا ، وأعاد تخطيط الحدود بين تركيا وسوريا على نحو أفضل من الحدود التى. قررتها معاهدة سيفر من وجهة المصالح التركية ، واستولى الكماليون على كميات وفيرة من الذخائر والأسلحة كانت فى مستودعات الجيش الفرنسى فى كيليكيا ، واستعادوا الأسرى الذين كانوا فى أيدي الفرنسيين<sup>(٢)</sup>. واستطاع الكماليون تعزيز قواتهم التى كانت تحارب فرنسا وتوجيهها إلى تصفية الاحتلال اليونانى وطرد اليونانيين كلية من

---

(١) كان المطلوب التركى هو يوسف كمال بك وزير خارجية الحكومة الوطنية فى أنقرة .

(٢) تجد النص الرسمى الكامل لهذا الاتفاق فى :

*League of Nations. Treaty Series, No 1284, Vol. 54 (1926—27), pp. 178—193.*

وانظر أيضاً كلا من :

*Temperley H.W.V., History of the Paris Peace Conference, Vol. VI pp. 33—35.*

*Cumming H.H., Franco British Rivalry in the Post—War Near East, chapter XII.*

*Vere—Hodge E.R., Turkish Foreign Policy, 1918—1948, pp. 33—37.*

وقد أقرت الحكومة الفرنسية هذا الاتفاق ودخل فى دور التنفيذ ابتداء من ٢٨ من شهر أكتوبر — تشرين أول — سنة ١٩٢١ .

الأناضول . وبعد هذا الاتفاق أول اتفاق يعقد بين الحكومة الكمالية في أنقرة وبين دولة أوروبية غربية . وقد كشف هذا الاتفاق عن عمق الاختلاف بين السياسة الفرنسية والسياسة البريطانية تجاه المشكلات الخاصة بتصفية ممتلكات الدولة العثمانية في منطقة الشرق الأدنى .

كان من نتائج المعاهدة التركية الروسية والاتفاق التركي الفرنسي (١) وانسحاب القوات الإيطالية والفرنسية من الأناضول أن تدعم مركز الكماليين سواء في الداخل تجاه حكومة السلطان ، أو في الخارج تجاه اليونان وبريطانيا . وحصل الكماليون على كميات وفيرة إضافية من الأسلحة . وكان على اليونانيين أن يواجهوا بمفردهم الموقف الحربي أمام الكماليين دون الاعتماد على مساعدات أجنبية .

**الكماليون يحرزون انتصاراً حاسماً على اليونانيين بطردهم من الأناضول :**

في ٢٦ من شهر أغسطس - آب - سنة ١٩٢٢ كان اللقاء الحاسم في حرب التحرير التي خاضها الكماليون ضد اليونانيين في الأناضول ، فقد أحرزوا انتصاراً ساحقاً على اليونانيين في حملتينار Dumlupinar وساقوا اليونانيين أمامهم حتى دخلوا أزمير في ٩ من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٢٢ وأشعلوا النيران في جميع الأحياء اليونانية في المدينة وذبحوا جميع من صادفهم من الجيش اليوناني . وأنقلدت سفن بريطانيا وحليفاتها جموحاً كثيفة العدد من المسيحيين هاموا على وجوههم فراراً من الكماليين . ولم يضع هذا الانتصار الساحق نهاية للحكم اليوناني في الأناضول فحسب ، بل كان من نتائجه أنه وضع نهاية لمقام اليونانيين في هذا الإقليم ، لأن مصطفى كمال لم يقنع بطرد أو ذبح جميع الجنود اليونانيين فقط ، بل طرد كل يوناني كان يقطن الأناضول ، خشية أن يقوم بقايا اليونانيين في الأناضول بتكوين طابور خامس أو تشكيل جيوب يونانية قد تنقلب على الكماليين في قابل الأيام . وطارأت أحلام اليونانيين في إنشاء دولة لهم في الأناضول . واشتد ضغط

---

(١) نجحت حكومة أنقرة أيضاً في عقد معاهدات صداقة مع جمهورية القوقاز وفارس وأفغانستان . وكان إبرام هذه المعاهدات دعماً سياسياً وأديباً كبيراً للحركة الكمالية .

اليونانيين على مليكهم قسطنطين ، واعتبروه المستول الأول عن هذه الكارثة التي أرجعوها إلى سوء تدبيره واندفاعه في توغله في هضاب الأناضول بعيداً عن الساحل ، واستقروا رأياً على أن « وجوده على العرش قد حرم أصدقاء اليونان الأقوياء من مساعدتها » (١). وفي ذات الشهر أكره على التنازل عن العرش ، وكتب وثيقة التنازل عن العرش بالقلم الرصاص في ٢٧ من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٢٢ وغادر البلاد إلى بالرمو Palermo في جزيرة صقلية. ولم تغل به الحياة فقد وافاه الأجل في ١١ من شهر يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢٣ .

### أثر تغيير وزارى فى بريطانيا على الكماليين :

استعد مصطلقى كمال لمواصلة الصراع الحربى فى تركيا الأوروبية لطرد اليونانيين من تراقيا الشرقية . وكان عليه فى هذه المرحلة أن يعبر الدردنيل ، وكانت تحتله قوات تابعة لبريطانيا وظل البريطانيون فى مواقعهم لا يبخون عنها حولاً. ولاح أن صداماً مسلحاً وشيك الوقوع بين الكماليين والبريطانيين أمر لامفر منه . فريس الوزارة البريطانية لويد جورج ، متعاطف مع اليونانيين كما ذكرنا ، وقد صرح بأنه سيدافع عن « حرية المضائق » وأنه سيقف فى وجه هجوم الكماليين ويمنعهم من العبور إلى أوروبا . وهو تهديد سافر أزعج أقطاب حزب المحافظين وخشوا اندلاع حرب جديدة فى منطقة الشرق الأدنى The Near East كما كانت تسمى فى ذلك الوقت . وخشوا أن يمتد لبيب هذه الحرب إلى أوروبا ، ففقدوا اجتماعاً فى مقر حزبهم فى أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٢ وقرروا الانسحاب من الوزارة الائتلافية ، واضطر لويد جورج إلى تقديم استقالة الوزارة . وجاءت إلى الحكم وزارة المحافظين برئاسة ستانلى بلوين Stanley Baldwin . عقب انتخابات عامة وتخلص الكماليون من خصم قوى عنيد كان يضمر الكراهية للأتراك بصفة عامة .

## الفصل العاشر

### السياسة العليا للدولة العثمانية

#### في ضوء خصائصها العامة (٤)

الكماليون يحسون عار سيئر

تراجع بريطانيا وحليفاتها :

لم تجد معاهدة سيئر من ينقذها ، أو كما يقول أحد قدامى المؤرخين الإنجليز المتخصصين في تاريخ الدولة العثمانية إن إكراه تركيا على تنفيذ معاهدة سيئر لم يكن أمراً سهلاً<sup>(١)</sup>. وقد أدركت الدوائر السياسية في دول المعسكر الغربي أن الموقف في تركيا يزداد تفاقماً يوماً بعد يوم بسبب إصرار الكماليين على التخلص من الوجود العسكري اليوناني في الأراضي التركية ، وعلى تحريد اليونان من حقوقها في السيادة على المضائق ، وهي الحقوق التي جاءت بها معاهدة سيئر ، وعلى إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية الذي أعادته هذه المعاهدة وغير ذلك من مآخذ . وانتهت تلك الدوائر رأياً إلى أن إلغاء معاهدة سيئر أمر لا مفر منه لاستقرار الأمور في المنطقة ، وأنه يتعين في ضوء هذا الرأي وضع معاهدة سلم جديدة . ثم جاء انتصار الكماليين على اليونانيين ودخولهم أزمير في ٩ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٢٢ معززاً هذا الرأي لدى بريطانيا وحليفاتها . وتتابع الأحداث سراعاً ، ففي ١١ من أكتوبر - تشرين أول - عقدت هدنة في مودانيا Mudanya تقرر فيها موافقة بريطانيا وحليفاتها على أن تسترد تركيا سيادتها على إستانبول والمضائق وتراقيا الشرقية (٢) . وقد احتلت الإقليم الأخير فوراً قوة من الجندرمة

Miller W: op. cit., p. 542.

(١)

Lewis Bernard; op. cit., p. 254.

(٢)



التركية قوامها ثمانية آلاف جندي . وعلق تسلم تركيا بقية الأقاليم حتى يتم التوقيع على معاهدة سلام جديدة. وإذا كانت دول المعسكر الغربي قد ارتضت عقد الهدنة، فقد اتفق اليونانيون سياسة أسيادهم، فأبرموا هدنة مع الكمالين في ١٤ من أكتوبر - تشرين أول - أي بعد مضي يومين من الهدنة الأولى . ثم اجتاز رفعت باشا البوسفور ودخل لإستانبول في رفقة لجنة تمثل المجلس الوطني الكبير ، وكان ذلك في ١٩ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٢ .

وكورقة أخيرة في يد الاستعمار حاولت بريطانيا وحليفاتها أن تستغل وجود حكومتين في تركيا لتضرب وقت الحاجة لإحداها بالأخرى، أو تتخذ من إحداها أداة للضغط على الأخرى . فوجهت دول المعسكر الغربي في ٢٧ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٢ الدعوة إلى كل من الحكومة السلطانية في إستانبول والحكومة الكمالية في أنقرة لحضور مؤتمر يعقد في لوزان ، وهي مدينة في سويسرا تقع شمالي بحيرة جنيف ، لوضع معاهدة جديدة لإقرار السلام بدلا من معاهدة سيفر التي انفضح استحالة تنفيذها . وقد أجابت الحكومة الكمالية بأنها وحدها ودون سواها الحكومة الشرعية التي تمثل تركيا . وكان توجيه دعوة مزدوجة إلى الحكومتين في تركيا دافعا لمصطفى كمال على اتخاذ إجراء سريع لحسم هذا الموضوع الخطير ، وهو ازدواج الحكومة في تركيا . ولكي يضع مصطفى كمال العالم كله أمام الأمر الواقع، استصدر في أول نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٢ من المجلس الوطني الكبير في أنقرة قراراً بإلغاء نظام السلطنة ، ونص في القرار على أن يكون هذا الإلغاء بأثر رجعي يرجع إلى ١٦ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ أي قبل تاريخ صدور القرار بستين ونصف سنة . وكان الهدف من إرجاع إلغاء السلطنة إلى هذا التاريخ (١) هو بطلان جميع المعاهدات والاتفاقات والتعهدات التي ارتبطت بها السلطان وحكومته واعتبار معاهدة سيفر باطلة ، ويذهب الوفد الكمالي إلى لوزان وهو مطلق اليدين غير مقيد

---

(١) يرجع اختيار هذا التاريخ وهو ١٦ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ إلى أنه في هذا اليوم دخلت قوات بريطانية جديدة الأسهاء التركية في إستانبول لتعزيز قوات الاحتلال فيها .

بأية قيود جاءت بها معاهدة سيفر . واستصدر مصطفى كمال من المجلس الوطنى الكبير فى ذات اليوم قراراً بالإبقاء على نظام الخلافة وأن تظل قائمة فى البيت العثمانى بشرط أن تستند كنظام إلى الدولة التركية ، وأن يختار المجلس الوطنى من بين أعضاء البيت العثمانى خليفة يكون فى عمله وفى خلقه أكثرهم جدارة بهذا المنصب وأكثرهم ملائمة له . وبعد ثلاثة أيام أعلن المؤتمر أن حكومة السلطان فى إستانبول قد فقدت أسباب وجودها *raison d'être* وأصبح لا وجود لها . وهرب السلطان محمد السادس فى ١٧ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٢ على ظهر طراد إنجليزى أبحر به إلى مالطة . وعلى هذا النحو المزمى كانت نهاية آخر سلاطين الدولة العثمانية الذين حكموا إمبراطورية كانت من أعظم الإمبراطوريات العالمية . وباختفاء محمد السادس من الحياة السياسية كان الطريق ممهداً أمام المجلس الوطنى الكبير ، فانتخب فى ١٩ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٢ أميراً عثمانياً هو عبد الحميد خليفة للمسلمين لا سلطاناً . ولم يقدر له أن يظل فى منصب الخلافة أكثر من عام وبعض عام ، ثم أخرج لإخراجاً غير كريم مع جميع أفراد أسرته من الأراضى التركية فى فجر اليوم الرابع من شهر مارس - آذار - سنة ١٩٢٤ ، فعجأت نهاية آخر خليفة عثمان على غرار نهاية آخر سلطان عثمان (١) .

### مؤتمر لوزان ( ١٩٢٢ - ١٩٢٣ ) :

ذهب الوفد التركى إلى لوزان يمثل حكومة واحدة . وكانت الشروط أو ورقة العمل التى حملها معه هى التى كانت قد تمحّدت فى الميثاق الوطنى قبل

---

(١) أصدر المجلس الوطنى الكبير فى ٣ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٤ قراراً بزل الخليفة عبد الحميد ، وإلغاء نظام الخلافة ، ونفى جميع أعضاء البيت العثمانى من الأراضى التركية . واتخذت الحكومة إجراءات أمن متعددة خشية أن تقوم مظاهرات احتجاجاً على طرد الخليفة . وتم نقله - فى فجر اليوم التالى لصور القرار - فى عربيه أقلته إلى محطة سكة حديد صغيرة تقوم خارج إستانبول ، وتم وضعه فى قطار الشرق السريع . ويلاحظ أنه لم يستقل القطار من المحطة الحديدية الرئيسية وهى محطة شرکس . ولما استيقظ الشعب فى الصباح وجد أن جميع إجراءات ترحيل الخليفة وأسرته قد تمت دون أن تتاح له الفرصة لإلقاء نظرة أخيرة على خليفة المسلمين ( السابق ) .

ذلك بنحو ثلاث سنوات . وتمسك الوفد التركي بالمحافظة على إستانبول وضرورة لإسهام تركيا فى النظام الذى يوضع لتنظيم مرور السفن فى المضائق وللملاحة فى البحر الأسود وإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية إلى غير ذلك

### مقترحات أمريكية تتعارض مع السياسة العليا للدولة العثمانية :

حين استفاضت الأنباء بعزم بريطانيا وحليفتها على إجراء مفاوضات فى لوزان لوضع تسوية جديدة مع تركيا فى صورة معاهدة تحل محل معاهدة سيفر أدلت بدلوها الدوائر المعنية فى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية . وقد وضعت هذه الهيئات ثلاث مذكرات تناولت فيها عدداً من المسائل السياسية والاقتصادية فى منطقة الشرق الأدنى ، وطالبت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا بمراعاة المصالح الأمريكية عند بحث هذه المسائل وعند وضع الصياغة النهائية لأحكام المعاهدة الجديدة مع تركيا . وأوضحت أن الولايات المتحدة حريصة على حماية المصالح الأمريكية فى هذه المنطقة .

وكان من بين هذه الموضوعات موضوع مرور السفن فى المضائق التركية وتحديد المركز القانونى للبحر الأسود . وأوضحت رغبةا فى تقرير مبدأ حرية مرور السفن التجارية والحربية فى الدردنيل وبمرمرية والبوسفور . وقت السلم وزمن الحرب بلون أدنى تمييز بين جنسية السفن . وشرحت الوسائل التى تراها كفيلة بتقرير هذا المبدأ من ناحية ، وضمان تنفيذه تنفيذاً سليماً من ناحية ثانية . وفيما يتصل بموضوع البحر الأسود أرادت أن تجرده من صفته القديمة التى لازمتها حين كانت الدولة العثمانية فى أوج قوتها وهى أنه كان بحيرة عثمانية تخص الدولة العثمانية بمفردها أو تخص الدولة العثمانية والروسيا معاً . وأضفت على هذا البحر طابع البحر العام ووصفته بأنه جزء من طريق تجارى هام من الطرق البحرية العالمية ، وتعتمد عليه فى حياتها الاقتصادية الدول المطلة عليه ودول وسط أوروبا والتى يجرى فى أراضيها نهر الدانوب الذى يصب فى البحر الأسود . وخلصت الحكومة الأمريكية من هذا رأى إلى أن البحر الأسود والمضائق تعتبر المنفذ البحرى أو عنق

الزجاجة الذى تمر منه تجارة روسيا ، والنمسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، والمجر ،  
ويوغوسلافيا ، ورومانيا ، وبلغاريا . .

ونعرض موجزاً لهذه المذكرات الثلاث .

### أولاً : مذكرة الحكومة الأمريكية :

أرسلت الحكومة الأمريكية مذكرة مؤرخة في ٣٠ من شهر أكتوبر -  
تشرين أول - عام ١٩٢٢ إلى كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا تبدي فيها  
رغبتها في أن تشارك كمرقب في أعمال المؤتمر المقترح عقده . وجاء في هذه  
المذكرة أن الولايات المتحدة لم تكن في حالة حرب ضد تركيا ، ولم تكن  
أحد الأطراف في هدنة ملبروس Mudros التى وقعت في ٣٠ من شهر  
أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٨ مع تركيا ، وهى لا ترغب في أن  
تسهم في مفاوضات السلام النهائية ، ولا أن تأخذ على عاتقها مسئولية  
التعديلات السياسية والإقليمية التى سوف تتقرر . ومضت الحكومة الأمريكية  
تقول لأنها بينما هى تصر على هذا التحفظ فى صدد مراحل معينة فى تسوية  
مشكلات الشرق الأدنى ، فإنها لا ترغب فى أن يستقر فى الأذهان أنها تنظر  
إلى مصالحها نظرة تقل عن نظرة الدول الأخرى إلى مصالحها ، أو أنها  
لا تتمسك بالحقوق المشتركة التى تتمتع بها دول أخرى ، أو أنها لا تكثر  
بالفرص التجارية المناسبة ، أو أن المشروعات الإنسانية القائمة فى منطقة  
الشرق الأدنى أمر لا يعنها .

واستعرضت الحكومة الأمريكية فى مذكرتها ما أسمته شروط المساهمة  
الأمريكية فى مؤتمر لوزان Conditions of American Participation  
in the Lausanne Conference وأوضحت طبيعة المصالح الأمريكية التى  
ترغب فى حمايتها وبالتالى فى أن تكون موضع اعتبار المؤتمر . وكان عدد هذه  
المصالح سبعة (١) ، كان من بينها وضع ضمانات لممارسة حرية مرور السفن

---

(١) كانت هذه المصالح حسب ترتيب ورودها فى مذكرة الحكومة الأمريكية :

١ - الإبقاء على نظام الامتيازات الأجنبية فى تركيا على أساس ضرورته لحماية المصالح غير  
الإسلامية .

في المضايق . واستطردت المذكورة فقررت أن هذا الموجز يصلح لتوضيح المصالح الأمريكية . ومن أجل حماية هذه المصالح ، ومن أجل تبادل وجهات النظر بسهولة ، ومنعاً لأى سوء فهم ، فإن حكومة الولايات المتحدة على استعداد لإيفاد مراقبين إلى المؤتمر المقترح ههنا إذا رأت الدول المعنية أن هذا الإجراء مناسب لها . وأضافت المذكورة إلى ذلك أن المراقبين الأمريكيين لن يشتركوا في مفاوضات معاهدة السلام ، بل ستكون مهمتهم مقصورة على شرح وجهات نظر الحكومة الأمريكية بطريقة أكثر فاعلية من وضع مذكرات ، ويكون في استطاعتهم تزويد الحكومة بموقف الدول الأخرى من المسائل ذات المصالح المشتركة والتي سوف تعرض على بساط البحث .

وحملت الحكومة الأمريكية في مذكرتها على المعاهدات والاتفاقيات السرية ، وقالت إنها لا تقر هذا الأسلوب في العلاقات الدولية . وإن الاتفاقات التي سبق أن عقدت لتقسيم الأقاليم العثمانية إلى مناطق نفوذ تجارى واقتصادى تتعارض مع مبدأ تكافؤ الفرص . وأعربت عن رغبتها في أن تكف الدول المتحالفة عن تنفيذ مثل هذه الاتفاقيات السابقة . وختمت مذكرتها بقولها إن الولايات المتحدة الأمريكية لا ترغب في أن تنصرف تصرفاً يعرقل الجهود التي تبذلها الدول المتحالفة للوصول إلى السلام ، وليست لها مطالب تؤدي إلى صدام مع مصالح الدول الأخرى ، وهي لا تريد أن تميز نفسها أوعاياها بامتيازات لا تتمتع بها الدول الأخرى . ولكنها تريد توفير الحماية لمواطنيها الذين يرغبون في المضى في عملهم الإنساني الذي حملوه على عاتقهم جيلاً بعد

---

- (ب) حماية المؤسسات الخيرية والتعليمية والدولية وذلك بقرار ضمانات مناسبة .

(ج) تكافؤ الفرص أمام الجميع فيما يصل بالمشروعات التجارية بعدم منح امتيازات خاصة أو تمييز البعض على البعض .

(د) تعويض الخسائر التي وقعت على الأمريكيين في تركيا نتيجة أعمال تصفية وغير قانونية .

(هـ) وضع شروط مناسبة لحماية الأقليات .

(و) وضع ضمانات لكفالة حرية المرور في المضايق .

(ز) إتاحة فرص معقولة للبحث عن الآثار وإجراء الدراسات .

جيل في الشرق الأدنى وأصبح في ذلك الوقت أكثر ضرورة عن ذي قبل . وكان هذا العمل الإنساني يشمل البحث عن الآثار ، وإجراء الدراسات ، واستئناف المؤسسات التعليمية والتنصيرية والخيرية نشاطها السابق (١) .

### ثانيا : مذكرة وزير الخارجية الأمريكية :

وفي مذكرة سرية ومنفصلة عن المذكرة السابقة ومؤرخة في ذات اليوم ( ٣٠ من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢٢ ) بعث بها شارل ليفانز هيوز Charles Evans Hughes وزير الخارجية الأمريكية إلى سفراء الولايات المتحدة في لندن وباريس وروما ، قال إن الحكومة الأمريكية إن توقع على معاهدة السلام المزمع عقدها مع تركيا ، ولن تشترك في المؤتمر المقترح اجتماعه لإجراء مفاوضات لإبرام هذه المعاهدة ، وإن هذا الامتناع المزدوج مرده إلى أن الولايات المتحدة لم تكن في حالة حرب ضد تركيا ، ومع ذلك فإنه في حكم الاستحالة من الناحية العملية أن يمضى « الحلفاء » في إجراء مفاوضات بدون أن يتناولوا مسائل هم الحكومة الأمريكية . وإذا تركت الحكومة الحلفاء يقومون بإجراء المفاوضات وإبرام المعاهدة مع الأتراك بدون أية محاولة منها لعرض وجهات نظرها أو الحصول على ضمانات لحماية المصالح الأمريكية ، فإن مثل هذا الموقف السلبي يضع الحكومة الأمريكية أمام الأمر الواقع في موضوع العلاقات بين الحلفاء والأتراك . وخلص وزير الخارجية إلى القول بأن رأى وزارة الخارجية قد استقر على وضع مذكرة توضح طبيعة ومجال ومدى المصالح الأمريكية في منطقة الشرق الأدنى كي يسترشد بها المفاوضون عند تناول الموضوعات التي لها علاقة بهذه المصالح ، ثم استعرض المصالح التي ترغب الحكومة في حمايتها ، وهي : (١) نظام الامتيازات الأجنبية في تركيا وانتهى رأياً إلى ضرورة الإبقاء عليه . وسرد الأسباب التي تحمل الحكومة الأمريكية على المطالبة باستمرار هذا النظام .

(١) انظر نص المذكرة بعنوان :

U.S. Aide Mémoire to Britain, France and Italy, 30 October, 1922.

in

Hurewitz J.C.; op. cit., Vol:2, pp. 114-115.

(٢) حماية المؤسسات الأمريكية في تركيا سواء المؤسسات التعليمية أو الخيرية أو الدينية ، وإعادة فتح المؤسسات الأمريكية التي أغلقتها حكومة تركيا منذ عام ١٩١٤ ، وإنشاء مدارس جديدة ، واستخدام اللغة الإنجليزية فيها ، ومنح المؤسسات الأمريكية الاعفاءات الضريبية والجمركية وغيرها من الامتيازات الممنوحة لمثيلاتها المؤسسات التركية (٣) حماية المصالح الأمريكية التجارية وإلغاء نظام مناطق النفوذ ، وانتهاج سياسة الباب المفتوح ، ومبدأ تكافؤ الفرص ، واتباع نظام ضريبي موحد (٤) التعويض عن الخسائر التي نزلت بالأمريكيين منذ عام ١٩١٤ (٥) حماية الأقليات . واهتمت المذكورة بالأقليات المسيحية دون غيرها وبخاصة بالمسيحيين في إستانبول وبالمسيحيين المبعثرين في آسيا الصغرى وبالأرمن (٦) حرية المرور في المضائق، وقالت وزارة الخارجية إن هذه المسألة لها شطران ، يتمثل الشطر الأول في حرية المرور وقت السلم ، والشطر الثاني في حرية المرور زمن الحرب . ولا تميل الحكومة الأمريكية إلى أن تزج بنفسها في الشطر الثاني حتى لا تلزم باتخاذ سياسة معينة تجاه مرور السفن زمن الحرب ، وبخاصة إذا كانت تركيا أو الدول الكبرى في أوروبا دولاً متحاربة . أما بخصوص تنظيم مرور السفن وقت السلم « فإن المصلحة الجلية للولايات المتحدة أن تحصل على تأكيدات فعالة وقوية بأن تظل المضائق مفتوحة في وقت السلم للسفن التجارية والحرية لتعبير المضائق وتمضي إلى إستانبول والبحر الأسود ، فهذا البحر هو طريق للتجارة ويجب ألا يكون تحت الرقابة الانفرادية لتركيا والروميا . . »

وانتقلت مذكرة وزير الخارجية الأمريكية في فقرتها السابقة إلى موضوع لجنة الرقابة الدولية على الدين العثماني العام، وطالبت بمزيد من الاهتمام بالمسائل المالية والتجارية . وفي الفقرة الثامنة والأخيرة أشارت إلى موضوع المؤسسات الأمريكية التي تقوم بالتنقيب عن الآثار في الأراضي التركية وضرورة توفير الجلو المناسب لها كي تمضي في أعمالها الكشفية وفي إجراء الدراسات .

وفي نهاية المذكرة قال وزير الخارجية إنه ليس من الطبيعي ولا من المرغوب فيه أن تسهم حكومة الولايات المتحدة في مؤتمر السلام أو تقحم

نفسها في مفاوضات تناول مسائل سياسية لم تشارك في وضعها أو التخطيط لها ، إلا أنه من الضروري أن تكون وزارة الخارجية على علم تام بالموضوعات التي تناولها المفاوضات وكيفية معالجتها ، والوزارة حريصة على حماية المصالح الأمريكية ، وهي على استعداد لأن تلتى بكل ثقلها ونفوذها للحصول على ضمانات خاصة بحرية الملاحة في المضائق وحماية الأقليات . وإن الولايات المتحدة كدولة مستقلة تحافظ على سلامة موقفها ، وهي لم تزج بنفسها في غمار المنافسات الدولية التي جعلت من الشرق الأدنى في معظم الأحيان مسرحاً للحروب<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً : مذكرة البحرية الأمريكية :

ولم يقف الأمر بالسياسة الأمريكية تجاه موضوع المضائق عند هاتين المذكرتين ، بل تدخل أيضاً مجلس البحرية الأمريكية العام ، ووضع مذكرة . في ١٠ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٢٢ تناول فيها توصيات سياسية بخصوص البحر الأسود والمضائق التركية . وجاء في هذه المذكرة أن الدردنيل طريق عام ذو أهمية عظمى أوجدته الطبيعة ، وهو يؤدي من ناحيته الشمالية إلى البحر الأسود الذي تطل عليه تركيا والروسيا ، ورومانيا وبلغاريا ، وبعض دول صغرى أخرى ، وتصب فيه مياه خمسة أنهار كبرى . وتأسيساً على هذه الحقائق فإن هذا البحر لا يخص دولة واحدة كما كان الأمر من قبل . وكان واضحاً المذكرة يقصدون تركيا بهذه الدولة الواحدة . ثم مضت المذكرة تقول إن البحر الأسود يخضع العالم كله كجزء من طريق تجارى . فأية محاولة لخلق هذا البحر أو إعاقه وصول التجارة المنقولة بحراً إلى البحر الأسود هي عمل تخريبى يتعارض مع المصالح العالمية ويمهد اضطراباً في العلاقات الدولية يؤدي إلى تجديد الحرب .

---

(١) انظر نص المذكرة بعنوان :

Secretary Hughes' Instructions to U.S. Ambassadors at  
London, Paris and Rome, 30 October, 1922.

in

Hurewitz J.C., op. cit., Vo/. 2., pp. 115-117 .



وقالت المذكورة إن روسيا - وهى من أكبر دول العالم - تصدر فى الأوقات العادية نصف محاصيلها عن طريق البحر الأسود . وليس أمام روسيا مخرج بحرى آخر يمكن أن يقارن فى أهميته بطريق الدردنيل، وسوف تزداد أهمية هذا المخرج البحرى زيادة كبيرة بالنسبة لروسيا تبعاً لزيادة الكثافة السكانية فيها ، وتبعاً لتحسين وسائل النقل الداخلى فى المناطق الروسية . فإذا حيل بين دولة كبرى مثل روسيا وبين استخدام البحر الأسود بمنع سفنها من عبور الدردنيل ومنعها من الانطلاق إلى المحيطات والبحار ، فإن هذا العمل ، وهو حجز الأسطول التجارى فى مياه البحر الأسود ، لا يحمل فى طياته عناصر الاستقرار والدوام لأية تسوية تتناول مشكلة المضائق التركية .

ومضت مذكرة البحرية الأمريكية تقول إن شرطاً كبيراً من تجارة النمسا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ويوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا ينقل عن طريق نهر الدانوب إلى البحر الأسود حيث يعاد شحنها فى سفن كبرى تعبر الدردنيل إلى البحار العامة . فهذه التجارة تحتاج ببلورها إلى حرية المرور عبر المضائق ، وعلى ذلك فإن تقرير مبدأ حرية مرور السفن فى كلا الاتجاهين عبر الدردنيل ضرورة لاجدال فيها . وقد وافقت الدول ومن بينها تركيا على مبدأ حرية المرور عبر الدردنيل للسفن التجارية التابعة لجميع الشعوب .

واستدركت المذكورة فقالت إن التجارب فى بقاع كثيرة فى العالم قد دلت على أن قبول مبدأ ما لا يكون دائماً كافياً لضمان تطبيقه تطبيقاً عادلاً ، ولا يكفى أن تعلن الدول موافقتها على قبول مبدأ عام ، بل يجب أن تكون هذه الموافقة مقرونة بتنفيذ أو تطبيق هذا المبدأ . فالموافقة على مبدأ معين وتنفيذ هذا المبدأ عمليتان مرتبطتان ببعضهما البعض بعروة وثقى لا انفصام لها . وكل عملية منهما لا تقل أهمية عن الأخرى. وإلى أن تستقر الأمور فى منطقة الشرق الأدنى ، فإن خير وسيلة لضمان تكافؤ الفرص هى لإسهام الدول المعنية لإسهاماً يقوم على قدم المساواة فى الرقابة على حرية المرور فى المضائق .

وانتقلت مذكرة مجلس البحرية العام إلى موضوع المصالح الأمريكية

في المضايق فقالت إن تقرير حرية مرور السفن في الدردنيل لا يعد في حد ذاته عملاً كافياً كي يضمن للسفن الأمريكية نفس الفرص التي تتمتع بها السفن التجارية التابعة لدول أخرى. فلا بد أن تضمن الحكومة الأمريكية ، عن طريق اتفاقات ، المساواة في الحقوق وفي الامتيازات التي تتمتع بها الدول الأجنبية في كل ما يتصل بالعمليات التجارية والبحرية . وذكرت المذكرة على سبيل المثال لا الحصر بعض هذه الحقوق والامتيازات ، فقالت إن السفن التجارية في حاجة إلى استخدام أجهزة ترديد الصوت ، والأسلاك البحرية الغليظة « الكابلات » ، والانتفاع بالأرصقة في موانئ المضايق ، والصنادل ، وخدومات الإرشاد ، والرسو ، والسحب ، والقطر ، وتسهيلات التفتيش على السفن . ولما لم تكن هناك معاملة واحدة لجميع السفن في مثل هذه المسائل وغيرها ، فإن السفن الأمريكية تجد في أثناء عبورها وتواجدها في منطقة المضايق إعاقة تجعلها في مركز أقل من مركز السفن التابعة لدول أخرى .

ووجهت المذكرة النظر إلى حقيقة كانت تعلق عليها حكومة الولايات المتحدة آمالاً كباراً ، وهي حالة ازدهار التجارة بزيادة حجمها تزايداً جديداً وكبيراً في جميع الأقاليم المطلة على البحر الأسود والأقاليم التي تجرى في أراضيها أنهار تصب في هذا البحر . وقد جاء هذا الازدهار التجاري نتيجة للأحوال السياسية والاقتصادية التي سادت في تلك الأقاليم في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وقد تولدت عن هذا النشاط الاقتصادي الضخم المكثف مجالات واسعة للمشروعات التجارية الدارة . وقالت المذكرة إن الخطوات التي تتخذ والترتيبات التي توضع في ذلك الوقت قد تؤثر تأثيراً عميقاً على الحياة التجارية للولايات المتحدة في قابل الأيام . وخلصت البحرية الأمريكية إلى القول بأنها لا تطالب بحقوق خاصة بها ، ولكنها تطالب ، بل تصر على أن تكون لها حقوق مساوية لحقوق الدول الأخرى . وهو مطلب ينبثق عن رغبة الولايات المتحدة في تحقيق عدالة مطلقة وكاملة في محيط العلاقات الدولية .

وحاولت مذكرة البحرية الأمريكية أن تعالج مشكلة حرية مرور السفن الحربية في المضائق ، فقالت إن هذه المشكلة أكثر تعقيداً من مسألة عبور السفن التجارية ، وهى لا تتيح فرصاً لوضع تسوية دائمة لها مثل القروض التى تتيحها مسألة السفن التجارية . وقالت إن هناك مبدأ عاماً يجب أن يوضع فى الاعتبار ، وهو أن أية حقوق للملاحة فى المضائق تمنح لدول بعيدة عن البحر الأسود يجب أن يمنح مثلها للدول المطلة على هذا البحر .

وخلصت البحرية الأمريكية إلى أن الحل الطبيعى هو تقرير الحرية التامة للملاحة عبر المضائق للسفن الحربية أيضاً ، وسأقت عديد الأمثلة الافتراضية التى تساند هذا رأى ، كما أنها انتهت رأياً إلى أن هذا الحل يعد الحل الأمثل للمصالح الأمريكية وللنفوذ الأمريكى فى شئون العالم .

واستطردت مذكرة البحرية الأمريكية فقالت إنه ليس هناك مجال للمقارنة بين مركز كل من المضائق التركية ، وقناة بناما ، ولذلك يجب الفصل بينهما . فالأثنتان تختلفان بعضهما عن بعض اختلافاً جليوياً ومن عدة وجوه . فتاريخ المضائق التركية ملئ بعدم الاستقرار والمصالح المتضاربة ومعاملة السفن معاملة تقوم على التمييز بينها ، وجعل حق مرور السفن فى الدردنيل مقصوراً على سفن دولة واحدة ، بالإضافة إلى أن المضائق التركية طريق مائى طبيعى بينا قناة بناما ممر مائى صناعى . وتقضى العدالة ألا تكون هذه المضائق تحت سيطرة دولة واحدة تنصرف فيها كما نشاء ، بل يجب أن تكون طريقاً عالمياً . وفضلا عن ذلك فإن كل حل تم الوصول إليه واستهدف فرض رقابة على هذه المضائق لمصلحة دولة واحدة ضد دول أخرى كان بمثابة تسوية تقوم على الاستفزاز والتحرش وإثارة الحقد، وأدى إلى الاضطراب فى العلاقات الدولية. ولذلك لم تتم إطلاقاً تسوية مسألة المضائق ، لأن جميع التسويات التى تمت كانت تتسم بطابع التحيز للدولة التى كانت تتمتع بالقسط الأوفى من السيطرة والقوة فى ذلك الوقت .

وخاضت مذكرة البحرية الأمريكية فى مجموعة من التنبؤات والافتراضات تم فى مجموعها عن اتجاه السياسة الأمريكية تجاه مشكلة المضائق ، فقالت إذا

فرضت رقابة على حرية مرور السفن في المضائق وأزيلت الاستحكامات القائمة في منطقتها فإن تلك الرقابة سوف تقع على عاتق الأسطول البريطاني بسبب شدة بأسه وبطشه . وإذا جردت من السلاح والتحصينات كل من ميتلين Mitylene و لمتوس Lemnos ، ولمبروس Imbros وساموتراكي Samothraki فإن هذا التجريد يتمشى مع الرقابة المستقبلية على المضائق ، وتمارسها القوات البحرية بدلاً من الاستحكامات الثابتة . وراحت المذكرة تؤكد مرة أخرى قيام رقابة بريطانية على المضائق تأسيساً على أن الأسطول البريطاني في ذلك الوقت—سنة ١٩٢٢—بقواعده المتناثرة هو أقوى الأساطيل . وذهبت المذكرة إلى القول بأنه ليس هناك على الأرجح معاهدة أو قانون يمنع الحصر البحري في زمن الحرب إذا كانت الدولة التي تمارس هذا الحصر ذات بأس شديد في البحر .

وناقشت المذكرة كيفية قيام الرقابة على المضائق ، وناقشت ثلاثة آراء : رقابة انفرادية من جانب تركيا ، ورقابة انفرادية تختص بها دولة أجنبية واحدة ، ورقابة دولية جماعية . فقالت عن الرأي الأول إن التجارب قد دلت على أن قيام تركيا بممارسة الرقابة على المضائق لم يتسم بسياسة محايدة ولا ثابتة ، وإن تركيا كانت لا محالة تتأثر بالضغط الخارجي . وإذا وضعت الرقابة في يد دولة أجنبية واحدة فمن المتوقع ألا تفعل هذه الدولة أكثر من حماية سفنها وتجارها بغير وجه حق على حساب سفن وتجارة الدول الأخرى . بقي الرأي الثالث فقالت إن فرض رقابة دولية جماعية على المضائق في الظروف القائمة وقتذاك لن يكون محل اعتراض من جانب الأسرة الدولية على عكس إذا ما تقرر قيام رقابة انفرادية من جانب تركيا .

وأخيراً لخص المجلس العام للبحرية الأمريكية هذه المذكرة الإضافية بقوله إن المصالح الأمريكية في منطقة المضائق تتطلب إدراج المبادئ التالية في المعاهدة المقترحة عقدها مع تركيا .

أولاً : إذا أنشئت لجنة دولية للرقابة على المضائق فيجب أن تكون

الولايات المتحدة ممثلة في هذه اللجنة وفي جميع المواقع والمراكز التابعة لهذه اللجنة ، وتكون على قدم المساواة مع أية دولة أجنبية أخرى .

ثانياً : إن المضائق - وهي تشمل الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور - يجب أن تكون مفتوحة للملاحة الحرة أمام السفن التجارية التابعة لجميع الدول بدون تمييز أو تفضيل .

ثالثاً : يكون للولايات المتحدة ومواطنيها ذات الحقوق والامتيازات في مياه المضائق والمياه المتاخمة كما هي ممنوحة في الماضي والحاضر أو تمنح مستقبلاً لأية دولة أجنبية أخرى أو لمواطنيها . وجاء ذكر تلك الحقوق وهذه الامتيازات على النحو الذي ورد في سياق المذكرة وأشرنا إليه .

رابعاً : إن المضائق بأجزائها الثلاثة المعروفة - يجب أن تكون مفتوحة للملاحة الحرة أمام السفن الحربية التابعة لجميع الدول .

خامساً : عدم مباشرة أى حق حربي وأى عمل عدائي في داخل المضائق التي تشمل الدردنيل ، وبحر مرمرة ، والبوسفور .

سادساً : لإزالة جميع التحصينات التي تسيطر على مياه المضائق ، ولا يسمح بإقامة تحصينات جديدة (١) .

### تحليل الموقف الأمريكي من مشكلة المضائق والبحر الأسود :

من هذه المذكرات الأمريكية الثلاث يتضح موقف الولايات المتحدة بوجه عام من مشكلة المضائق والبحر الأسود . ويمكن إيجاز هذا الموقف في عدة نقاط ، منها : أن المضائق طريق عالمي للتجارة فلا تخضع للسيطرة

---

(١) أنظر نص المذكرة بعنوان :

Policy Recommendations on the Turkish Straits by the General Board of the U.S. Navy, 10 November 1922.

in

Hurewitz J.C; op. cit, volz, pp. 117-119.

الانفرادية لتركيا ، تقرير حرية الملاحة عبر المضائق في وقت السلم وزمن الحرب للسفن التجارية والحرية التابعة لجميع الدول دون تمييز لجنسيتها ، تجريد منطقة المضائق وعدد من الجزر في بحر إيجه من الاستحكامات العسكرية وعدم السماح بإقامة منشآت عسكرية جديدة بها تمشياً مع حرية المرور عبر المضائق ، إنشاء رقابة جماعية في شكل لجنة دولية لضمان تنفيذ مبدأ حرية مرور السفن بكافة أنواعها في جميع الأوقات . أما البحر الأسود فهو - في نظر الولايات المتحدة - لا يخص تركيا وحدها أو روسيا بمفردها ، بل هو بحر عالمي مفتوح لجميع الدول والشعوب ، يمر منه شطر لا يستهان به من تجارة روسيا ودول وسط أوروبا - وتستحسن تجريده من القواعد البحرية العسكرية وتعد محاولة لإغلقه عملاً تخريبياً .

هذه المبادئ تعصف بالسياسة العليا للدولة للعثمانية وتسلب حقها في ضمان تنفيذ مبدأ حرية المرور عبر المضائق التي هي جزء من الإقليم التركي ، وتخويل هذا الحق للجنة دولية . فالولايات المتحدة تضع مصالحها التجارية في منطقة الشرق الأدنى فوق كل اعتبار ، وهي لا تبدي مثل هذا الاهتمام بمصالحها الإستراتيجية في تلك المنطقة ، إذ لم تكن قد تكونت لها في ذلك الوقت مصالح من هذا النوع ، ولم تكن قد احتضنت الحركة الصهيونية الاحتضان السافر الذي ظهرت به فيما بعد . ولم تكن قد وقفت موقفاً غير ودي من حكومة موسكو السوفيتية R.S.F.S.R. بل على العكس أظهرت مذكرة المجلس العام للبحرية الأمريكية تحمساً لرعاية المصالح الروسية الاقتصادية بتوفير السبل لنقل محاصيلها عبر البحر الأسود والمضائق. وإن كان وزير الخارجية الأمريكية قد أشار في مذكرته لإشارة لها مدلولها في هذا الوقت المبكر من تاريخ العلاقات الأمريكية السوفيتية إذ قال ، وهو يتناول موضوع الأقليات المسيحية في تركيا ، إنه من الممكن عند عودة الأوضاع الأكثر استقراراً في روسيا أن توافق الحكومة الروسية على منح أكراد تركيا ملجأ في القوقاز يقيمون فيه .

تلك هي المقترحات الأمريكية وضعت قبل أن يعقد مؤتمر لوزان جلساته بأيام قلائل . وهي مقترحات لها أهميتها من النواحي الأكاديمية والعلمية والتاريخية.

## جلسات عمل مؤتمر لوزان :

عقد مؤتمر لوزان جلساته على فترتين . بدأت الفترة الأولى في ٢٠ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٢٢ ، وقسمت أعماله بين ثلاث لجان :  
 اختصت اللجنة الأولى بمشكلة نظام المرور في المضائق والملاحة في البحر الأسود والقضايا العسكرية ومشكلة الأقليات والمشكلات الإقليمية. واختصت اللجنة الثانية بقضايا الأجانب في تركيا. واختصت الثالثة بالقضايا الاقتصادية والمالية . وقد استمرت اجتماعات المؤتمر حتى ٤ من فبراير - شباط - ١٩٢٣ حين انفض بسبب رفض الحكومة التركية قبول مشروع معاهدة الصلح . ورفض المجلس الوطني الكبير في ٦ مارس - آذار - ١٩٢٣ مشروع معاهدة الصالح لخالفته الميثاق الوطني ، ولكنه حول الحكومة التركية لإعادة فتح باب المفاوضات مع بريطانيا وحليفتها . وفي ٨ مارس - آذار - ١٩٢٣ أرسل عصمت باشا وزير الخارجية التركية ورئيس الوفد التركي إلى المؤتمر رسالة ومعها اقتراحات تركية إلى الدول الأعضاء في المؤتمر . وقد وافقت هذه الدول على بحث المقترحات التركية . وفي ٢٣ أبريل - نيسان - ١٩٢٣ استأنف مؤتمر لوزان عقد جلساته ، وبذلك بدأت الفترة الثانية واستمرت حتى ٢٤ من يوليو - تموز - سنة ١٩٢٣ حيث تم في هذا اليوم التوقيع على المعاهدة التي حملت اسم معاهدة لوزان لعام ١٩٢٣ . وتتميز من بين جميع معاهدات الصلح التي أبرمت لتسوية مشكلات ما بعد الحرب العالمية الأولى بأنها المعاهدة الوحيدة التي عقدت نتيجة مفاوضات مضنية للغاية اشترك فيها الأطراف المعنيون لتحل محل معاهدة جائزة وضعها المنتصرون ، واستطاع المهزوم بالدبلوماسية المنة حيناً ، والدبلوماسية ذات العصا الغليظة حيناً آخر أن يحمل المنتصرين على إلغائها . وقد وقع على معاهدة لوزان ثمانى دول ، هي : بريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، واليابان ، واليونان ، وبلغاريا ، ورومانيا ، وتركيا .

## معاهدة لوزان لفرد اتفاقية خاصة بالمضائق :

لم تتعرض معاهدة لوزان لمسألة مرور السفن في المضائق ، ولكن

مجلت تنازل تركيا عن حقوقها في مصر والسودان وجزيرة قبرص لبريطانيا ، وتنازلها لإيطاليا عن حقوقها في ليبيا وفي ثلاث عشرة جزيرة كانت تحتلها إيطاليا وقتذاك ، كما مجلت المعاهدة إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية وتقرر إخلاء إستانبول من القوات الأجنبية وإعادة تراقيا الشرقية بما فيها أدرنة إلى تركيا ، وكذلك منطقة كراجاتش Karagatch في تراقيا الغربية . واستردت تركيا جزءاً لا يستهان به من أملاكها في أوروبا ، كما تقرر إعادة الجزء الغربي من الأناضول وسائر المراكز التي كانت تحتلها اليونان في هذا الإقليم إلى تركيا . وقد تناولت المعاهدة العديد من المسائل التي لا تدخل في نطاق دراستنا .

وتقدراً من الدول الأطراف في معاهدة لوزان لموضوع المضائق أقررت اتفاقية خاصة بهذه المسألة وأرفقتها بالمعاهدة ، وأصبحت جزءاً منها وأطلقت عليها اتفاقية نظام المضائق Convention on the regime of the Straits وتقع في ثمان عشرة مادة وجاءت بعدة مبادئ ، نذكر منها :

### أولاً : مرور السفن في المضائق :

نصت المعاهدة في مادتها الأولى على تقرير مبدأ حرية المرور وحرية الملاحة بحراً وجواً في منطقة المضائق . وقالت إن المضائق اسم عام يشمل على وجه التحديد مضيق الدردنيل ، وبحر مرمرة ، ومضيق البوسفور ، ونصت المادة الثانية على أن حرية المرور وحرية الملاحة تشمل السفن التجارية والحرية والطائرات التجارية والحرية في زمن السلم ووقت الحرب . ثم وضعت تفاصيل حرية المرور أدعجتها في ملحق يتبع المادة الثانية وأطلقت عليه قواعد مرور السفن التجارية والطائرات التجارية والسفن التجارية والطائرات الحربية . وتناولت في القسم الأول من هذا الملحق السفن التجارية وقالت إنها تشمل أيضاً سفن المستشفيات واليخوت<sup>(١)</sup> ومراكب الصيد والطران غير الحربي . وقالت إن هناك ثلاث حالات يتم فيها مرور هذا النوع من السفن والطائرات .

---

(١) يخوت جمع يخت yacht ، وهي سفينة السياحة الخاصة .



**الحالة الأولى:** وقت السلم فتتقرر حرية تامة للملاحة والمرور نهائياً وليلا لجميع السفن بدون تمييز بين جنسياتها . ويصرف النظر عن نوعية الشحنات التي تحملها وبدون دفع رسوم سوى الرسوم المقررة للإرشاد والإضاءة والجمر والقطر وما إليها ، وذلك بدون الإضرار بالحقوق التي تمارسها في هذا الصدد الشركات التي تعمل في وقت إبرام المعاهدة بموجب امتيازات منحتها لها الحكومة التركية .

**الحالة الثانية :** زمن الحرب إذا كانت تركيا دولة محايدة : فتتقرر الحرية التامة للملاحة والمرور على النحو الذي جاء في الحالة الأولى ، مع مراعاة أن حقوق وواجبات تركيا كدولة محايدة لا تميز لها أن تتخذ أية إجراءات من شأنها تعتبر تدخلا في الملاحة عبر المضائق التي تكون مياهها وأجواؤها حرة تماماً وقت الحرب التي تتخذ فيها تركيا مواقف الحياد .

**الحالة الثالثة:** زمن الحرب إذا كانت تركيا إحدى الدول المتحاربة فيها : فتتقرر حرية الملاحة للسفن المحايدة وللطيران غير الحربي التابع للدول المحايدة بشرط ألا تقدم أمثال هذه السفن والطائرات مساعدات للعدو ، وبوجه خاص لا تنقل قوات أو بضائع ممنوعة أو رعايا الدول المتحاربة . ويكون لتركيا الحق في زيارة وتفتيش أمثال هذه السفن والطائرات . ولهذا الغرض يجب على الطائرات أن تهبط على الأرض أو على البحر في مساحات تحددها وتعدها تركيا لهذا الغرض . ومن المتفق عليه أيضاً ألا تمس حقوق تركيا في تطبيق الإجراءات المقررة في القانون الدولي العام على سفن الأعداء . ولتركيا السلطة التامة في اتخاذ أمثال هذه الإجراءات حين ترى أنه من الضروري منع سفن الأعداء من استخدام المضائق ، على ألا يكون من طبيعة هذه الإجراءات منع سفن الدول المحايدة من المرور في المضائق ، وتوافق تركيا على أن تمد أمثال هذه السفن بالتعليقات الضرورية أو تزودها بالمرشدين لعبور المضائق .

وتناولت اتفاقية المرور في القسم الثاني من الملحق موضوع السفن الحربية . وقالت إنها تشمل أيضاً السفن المعاونة للأساطيل والسفن الناقلة للجنود والطائرات الحربية والطائرات الحاملة ذخائر أو أسلحة أو قوات . وعلى

غرار القسم الأول قالت إن هناك ثلاث حالات يتم فيها مرور هذا النوع من السفن والطائرات .

**الحالة الأولى :** وقت السلم. فتقرر حرية كاملة لمرورها نهاراً وليلاً بدون تمييز بين جنسياتها ، ولكنها تخضع للقيود التالية بالنسبة لقوتها الكلية . فيكون الحد الأعلى للقوة التي تستطيع أية دولة أن تمررها عبر المضائق للدخول البحر الأسود لانتجاوز أقوى أسطول للدول الداخلية الواقعة على البحر الأسود والتي تكون موجودة في هذا البحر في وقت مرور هذه القوة . وتقرر أيضاً أن تحتفظ الدول لنفسها دائماً بالحق في أن ترسل إلى البحر الأسود في جميع الأوقات وفي كل الظروف قوة لانتجاوز ثلاث سفن لا تزيد حمولة الواحدة منها عن عشرة الآف طن . وجاءت فقرة أخيرة تقرر عدم مسئولية تركيا فيما يختص بعدد السفن الحربية التي تعبر المضائق .

**الحالة الثانية :** زمن الحرب إذا كانت تركيا دولة محايدة . فتقرر الحرية الكاملة للمرور نهاراً وليلاً بدون تمييز بين جنسياتها مع مراعاة القيود المذكورة في الحالة السابقة ، ومع ذلك فإن هذه القيود لا تطبق على أية دولة متحاربة تطبيقاً يضر بحقوقها الحربية في البحر الأسود ، كما أن حقوق تركيا وواجباتها كدولة محايدة لا تجبر لها اتخاذ أية إجراءات من شأنها تعتبر تدخلاً في الملاحة عبر المضائق التي تظل جميع مياهها وأجوائها حرة تماماً في زمن الحرب طالما كانت تركيا دولة محايدة كما يحدث تماماً وقت السلم . وتقرر أيضاً منع السفن الحربية والطيران الحربي التابع للدول المتحاربة من مباشرة أية عملية من عمليات الأسر أو مباشرة حق الزيارة والتفتيش أو القيام بأى عمل عدائى آخر في المضائق .

**الحالة الثالثة :** زمن الحرب إذا كانت تركيا إحدى الدول المتحاربة فيها . فتقرر الحرية الكاملة لمرور السفن الحربية المحايدة مع مراعاة تطبيق القيود المنصوص عليها في الحالة الأولى في هذا القسم ( القسم الثانى ) . ونص على أن الإجراءات التي تتخذها تركيا لمنع سفن وطائرات الأعداء من استخدام

المضايق لا يكون من شأنها منع المرور الحر للسفن المحايدة والطيران المحايد . وعلى تركيا أن تزود أمثال هذه السفن والطائرات بالتعليقات الضرورية أو بالمرشدين لغرض المذكور . ويقوم الطيران الحربى التابع للدول المحايدة بالمرور الجوى فوق المضايق على مسئوليته وينحصر لتفتيش عن طابعه . ولهذا الغرض فإن على أمثال هذه الطائرات أن تهبط على الأرض أو فى البحر فى المساحات التى تحددها وتعددها تركيا لهذا الغرض .

وقد تعرضت الاتفاقية فى ذات الملحق التابع للمادة الثانية لغواصات الدول التى فى حالة سلم مع تركيا، فنصت على أن يكون عبورها المضايق وهى فوق سطح الماء . كما تناولت مسائل تنظيمية خاصة بمرور السفن الحربية وضرورة إخطار الحكومة التركية بوصولها وعددها ، وضرورة مرورها فى أقصر وقت ، وتحريم مرابطتها داخل المضايق إلا فى حالتين : هما إصابة السفينة بعطب أو اضطراب البحر واشتداد عواصفه .

والملاحظة التى نخرج بها من الدراسة التحليلية لهذا الجزء من الاتفاقية هى أنه لم يشمل التفاصيل الدقيقة عن تنظيم مرور السفن بنوعها التجارية والحربية فى المضايق على عكس ما جاء فى اتفاقية الآستانة ( ٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٨٨ ) الخاصة بتنظيم مرور السفن فى قناة السويس . فقد تضمنت هذه الاتفاقية أدق التفاصيل عن هذا الموضوع . ونذكر على سبيل المثال تقييد تمرير السفن الحربية التابعة للدول المتحاربة ( المادة الرابعة فقرة ٢ من اتفاقية الآستانة ) ، منع السفن الحربية المتحاربة من إزال <sup>عن</sup> شحن القوات والمهمات الحربية ( المادة الخامسة ) ، مرور الغنائم (١) (المادة السادسة) .

### ثانيا : لجنة المضايق :

نصت اتفاقية المضايق على إنشاء لجنة دولية يطلق عليها لجنة المضايق

---

(١) يقصد بالغنائم Les Prises السفن الحربية أو التجارية المنقومة التى تمر فى المضايق وهى بهذه الصفة ، أى تكون فى حوزة السفينة القابضة عليها ، على أن يكون اختتامها قد تم خارج منطقة المضايق ، إذ لا يجوز داخل هذه المنطقة القبض على السفن المعادية واختتامها ، لأن حق الاختتام من الحقوق الحربية التى حرمت الاتفاقية مباشرتها فى هذه المنطقة .

تختص بالإشراف على حرية المرور في المضائق ، ويكون مقرها إستانبول ، وتكون لتركيا دون سواها من الدول رئاسة هذه اللجنة ، بمعنى أن تكون رياستها ذات صفة دائمة . وأن تشمل عضوية اللجنة : فرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، واليابان ، بلغاريا ، واليونان ، ورومانيا ، والاتحاد السوفيتي ، ويوغوسلافيا<sup>(١)</sup> وقد روعي في اختيار هذه الدول لعضوية اللجنة أنها الدول الأطراف في معاهدة لوزان . ونص على ألا تبدأ أى منها في مباشرة عملها في لجنة المضائق إلا من تاريخ تصديقها على المعاهدة . وورد في ذات المادة أنه إذا انضمت الولايات المتحدة الأمريكية إلى المعاهدة فيكون لها الحق في عضوية اللجنة . وبنفس هذه الشروط تقرر أن أية دولة مستقلة تطل على البحر الأسود ولم يرد ذكرها في الاتفاقية وتنضم إليها يكون لها نفس الحق ( المادة ١٢ ) .

وتباشر لجنة المضائق عملها تحت رعاية عصبة الأمم ، وتكون مسئولة أمامها ، وعليها أن ترفع إلى العصبة تقريراً سنوياً تعرض فيه نشاطها وتذكر كل المعلومات التي تكون ذات قيمة ونفع لصالح التجارة والملاحة . وعلى اللجنة - تمكيناً لها من تحقيق هذا الهدف - أن تكون على اتصال بمصالح الحكومة التركية المختصة بالملاحة عبر المضائق ( المادة ١٥ ) .

#### لجنة المضائق ولجنة الدناوب :

ومما هو جدير بالذكر أن لجنة المضائق الدولية لم تكن شيئاً جديداً على المجتمع الدولي في ذلك الوقت . فقد سبق لهذا المجتمع أن عرف هيئات ذات

---

(١) جاءت الصياغة الفنية في المعاهدة لاسم يوغوسلافيا على هذا النحو :

The Serb - Croat - Slovene State

أي الدولة الصربية الكرواتية السللافية .

ويطلق عليها حالياً (سنة ١٩٧٧) اسم اتحاد الجمهوريات اليوغوسلافية . وتتكون من ست جمهوريات ومن خمس قوميات هي الصرب - كرواتيا - سلوفينيا - الجبل الأسود - مقدونيا . وفيها ثلاث لغات : الصربية ، والكرواتية ، والسلوفينية . وفيها أربع ديانات : الإسلام ، والمسيحية الأرثوذكسية ، والمسيحية الكاثوليكية ، واليهودية . وهي جارة لسبع دول .

طابع دولى واختصاصات واسعة مثل لجنة الدانوب الأوروبية التى تكونت لتنظيم حرية الملاحة فى نهر الدانوب والإشراف عليها والقيام بأعمال الصيانة والتحسين وتطهير قاع النهر من العوائق لمواجهة الاحتياجات الدولية للملاحة الحرة (١). وتقرر أن يكون لهذه اللجنة شخصية متميزة ذات طبيعة دولية . وأن تتمتع بالحصانة ، ولا تستطيع دولة محاربة أن تحمد من نفوذ هذه اللجنة ، وأن يكون جميع موظفيها ومكاتبها والأشغال التى تقوم بها على طول النهر بمنأى عن العمليات الحربية ، وأن يكون للجنة علمها ، وكأنها دولة ، ولها الحق فى رفعه على سفنها ومكاتبها ومبانيها الرسمية ، ويكون لها ميزانية تتألف من حصيلة رسوم المرور ، وتنفق منها على شتى أوجه نشاطها . وقد أقيمت الملاحة البرية فى نهر الدانوب لسفن المتحاربين . ونص على حياد هذا النهر مع تحريم إقامة تحصينات أو منشآت عسكرية على ضفتيه . ومع ذلك فإن المضائق التركية لا يمكن أن يقام بينها وبين نهر الدانوب الذى يجرى فى أراضي عدة دول . ولا يعد إنشاء لجنة الدانوب مبرراً لإنشاء لجنة المضائق

---

(١) أنشئت هذه اللجنة بمقتضى معاهدة أبرمت فى عام ١٨١٦ فى ضوء القواعد التى كان قد قررها مؤتمر فينا فى سنة ١٨١٥ بشأن الملاحة فى الأنهار الدولية . ثم تعرضت هذه اللجنة لتعديل من حيث تشكيلها واختصاصاتها فى معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ، ثم فى معاهدة جالاتز Galatz فى ٢ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٦٥ ، وفى مؤتمر برلين لسنة ١٨٧٨ أدخلت تعديلات جديدة على اختصاصات اللجنة ، ثم أبرم اتفاق لندن فى ١٠ من مارس - آذار - عام ١٨٨٣ منحت اللجنة بمقتضاها اختصاصات قضائية ، وجعل منطقة نفوذها ممتداً من « جالاتز » إلى « برايا » Braila . وفى معاهدات الصلح عقب الحرب العالمية الأولى وضعت نصوص استهدفت توسيع اختصاصات لجنة الدانوب وزادت من سلطتها .

أنظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشاوى : تشكل الدول لتحويل قناة السويس نكابة فى بريطانيا ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، صص ٦٨ - ١١٤ وبين فى هذه الصفحات من المناقشات الإضافية التى خاضها أعضاء لجنة باريس الدولية عام ١٨٨٥ أوضاع لجنة الدانوب .

وانظر أيضا :

دكتور مصطفى الحفناوى : قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة . ج ٣ ، القاهرة ، سنة

الدولية . وإذا كان القانون الدولي العام يعترف بحرية الملاحة في المضائق ، إلا أنه لا يخضعها لإشراف لجنة دولية تقيم في إقليم الدولة التي تخترق المضائق أراضيها .

### مقارنة بين لجنة المضائق ولجنة القناصل في مصر :

وسمع المجتمع الدولي بعد ذلك عن تكوين لجنة دولية في مصر هي لجنة قناصل الدول لمراقبة تنفيذ اتفاقية الآستانة المبرمة في ٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٨٨ الخاصة بتنظيم حرية المرور في قناة السويس . والرقابة نوع من الضمان لتنفيذ المعاهدات . وفي اتفاقية المضائق وفي اتفاقية قناة السويس استقر رأى الدول على أن تكون الرقابة على تنفيذها ذات طابع دولي . ومن ثم جاءت اتفاقية قناة السويس بلجنة القناصل وجاءت اتفاقية المضائق بلجنة المضائق . ولما كانت لجنة القناصل تتعلق بقناة السويس التي هي ممر مائي يمر في مصر التي كانت تحت السيادة العثمانية في ذلك الوقت طبقاً لقواعد القانون الدولي العام ، فسنعرض مقارنة سريعة جداً بين هاتين اللجنتين حتى تتضح في الأذهان صورة عن هذه الهيئات التي صنعها الاستعمار ثم فرضها على الدولة العثمانية وعلى بعض أقاليمها في عصر الاضمحلال ضارباً عرض الحائط بالسياسة الديبلوماسية العليا للدولة العثمانية واحترام سيادتها على أراضيها .

كانت لجنة القناصل تتكون من تسعة أعضاء يمثلون فرنسا ، وألمانيا ، والنمسا والمجر ، وإسبانيا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، وهولندا ، والروسيا ، وتركيا . وكان هؤلاء الأعضاء جميعاً باستثناء تركيا ، هم قناصل الدول الأطراف في اتفاقية الآستانة أو طبقاً للنص الوارد فيها « وكلاء الدول الموقعة على الاتفاقية والمعتملون بمصر » ولذلك لم يكونوا متفرغين لعملهم في اللجنة .

أما لجنة المضائق فكانت - وفقاً للتعديل الذي جاءت به معاهدة لوزان - تتكون من عشرة أعضاء يمثلون تركيا ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، واليابان ، وبلغاريا ، واليونان ، ورومانيا ، والروسيا ، ويوغوسلافيا .

وتركت الاتفاقية الباب مفتوحاً لانضمام الولايات المتحدة الأمريكية إليها ، وكذلك أية دول مستقلة تطل على البحر الأسود لم يرد ذكرها من بين اسماء الدول الأعضاء .

وقد نص في اتفاقية القناة على أن تعقد لجنة القناصل نوعين من الاجتماعات : اجتماعات طارئة في كل حالة تهدد فيها سلامة القناة أو حرية المرور بها . وتعقد هذه الاجتماعات بناء على دعوته ثلاثة من أولئك القناصل ، وتكون تحت رئاسة عيدهم على أن يكون بطبيعة الحال من ممثلي الدول الأطراف في الاتفاقية ، وإلا كانت الرئاسة لأعلام درجة أو أقدمهم في المنصب أو أكبرهم سنّاً طبقاً للعرف البائد في تعيين عميد السلك السياسي أو القنصل في عاصمة كل دولة . ويكون الهدف من الاجتماعات الطارئة هو إجراء التحقيقات اللازمة ، ثم قيامهم بإبلاغ الحكومة المصرية بالخطر الذي يتبينونه حتى تتخذ هذه الحكومة الاجراءات التي تكفل حماية القناة وحرية استخدامها .

أما النوع الثاني من الاجتماعات فهو الاجتماعات التي تعقد مرة كل سنة للتحقق من سلامة تنفيذ الاتفاقية . وأضاف النص أنه يجوز أن يشترك في الاجتماعات السنوية مندوب يمثل الحكومة المصرية . وتعقد الاجتماعات السنوية برئاسة مندوب خاص تعينه الحكومة العثمانية لهذا الغرض . وفي حالة غيابيه يحل محله في الرئاسة مندوب الحكومة المصرية . أما لجنة المضايقات فجعلت رئاسة اجتماعاتها لمندوب تركيا بصفة دائمة . ويكون الهدف من الاجتماعات السنوية للجنة القناصل هو التحقق من سلامة تنفيذ الاتفاقية في السنة السابقة على الاجتماع . وعلى اللجنة أن تطلب إلغاء كل عمل أو تفريق كل حشد ، على أحد جانبي القناة ، يمكن أن يكون الغرض منه أو يؤدي إلى المساس بحرية الملاحة وسلامتها التامة . ويرى أحد أساتذة القانون أن الهدف من الاجتماعات السنوية هو المحافظة على ديمومة مهمة لجنة القناصل والتنبيه إلى قيامها حتى لا يأتي عليها مرور الزمان ويطوئها في زوايا النسيان . فقد تسبب الأمور بشكل طبيعي لسنوات كثيرة مما لا يتطلب عقد اجتماعات

طارئة ، فيكون في الاجتماعات السنوية ما ينبه إلى وجود رقابة ، ولو شكلية ، على تنفيذ الاتفاقية يتولاها ممثلو الدول الموقعة عليها<sup>(١)</sup> . وعلى مبلغ علمنا لم تعقد لجنة القناصل أى اجتماع طارئ أو دورى ، لأن بريطانيا كانت تعارض إنشاء هذه اللجنة من حيث المبدأ خشية أن تعصف اللجنة بالنفوذ البريطانى الانفرادى المتفوق فى منطقة القناة المستند إلى الاحتلال العسكرى ، فبقيت لجنة القناصل مجرد نص قانونى ميت لم يقدر له أن يوضع موضع التنفيذ الفعلى . أما لجنة المضايق فقد ظلت تمارس اختصاصاتها إلى أن استطاعت الحكومة التركية التخلص من أحكام اتفاقية المضايق ، وعقدت اتفاقية مونترية فى ٢٠ من يوليو - تموز - عام ١٩٣٦ وتسلمت اختصاصات اللجنة وأعادت منحصر المضايق وتولت بنفسها مهام الدفاع عنها .

### ثالثاً : تجريد منطقة المضايق من السلاح :

ونصت الاتفاقية على تجريد الساحل الأوروبى والساحل الآسيوى لمنطقة المضايق من السلاح ، وأن يمتد هذا التجريد ليشمل جميع الجزر الموجودة فى بحر مرمرة وعدة جزر فى بحر إيجه . واستثنيت من نزع السلاح بعض جزر صغيرة تركية ويونانية . وقد حددت المادة الرابعة من الاتفاقية تحديداً دقيقة المناطق التى ينزع سلاحها<sup>(٢)</sup> . كما جاء فى الاتفاقية أن هذه المناطق تجرد من السلاح والتحصينات العسكرية تجريداً تاماً ، فينقل من جميع أرجائها سلاح المدفعية والسلاح الجوى الحربى والقواعد البحرية وألا ترابط فيها قوات مسلحة ، ويسمح فقط بوجود قوات الشرطة ولجنדרمة للمحافظة على الأمن العام . وذهبت الاتفاقية إلى أبعد من ذلك فحددت الأسلحة التى

---

(١) دكتور عبد الله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٦ .

(٢) بالإضافة إلى الساحل الأوروبى والساحل الآسيوى لمنطقة المضايق وكذلك الجزر ، جردت من السلاح منطقة برية شاسعة تشمل الجزء الشرقى من إقليم تراقيا الشرقية وقد استردت تركيا هذا الإقليم بمقتضى معاهدة لوزان . وشمل التجريد من السلاح أيضاً جزءاً من الأراضى اليونانية .



تزود بها هذه القوات ، فقالت إنها المسدسات والسيوف والبنادق وأربعة مدافع من طراز لويس . ولا تحتفظ هذه القوات بأى سلاح أو عتاد أو أدوات حرية من سلاح المدفعية فى الجيش التركى . أما المياه الإقليمية للمناطق والجزر المزروعة السلاح فيسمح بوجود غواصات فيها بهد أن تنزع منها الآلات وأدوات الحرب بحيث تغدو هذه الغواصات فى وضعها الحديد مجرد سفن عادية ( المادة ٨ ) .

### نتائج نزع السلاح من منطقة المضائق :

كان تجريد المضائق والجزر من السلاح وما ترتب عليه من آثار سجلت فى صلب المعاهدة هو أسوأ ما جاءت به معاهدة لوزان بخصوص موضوع المضائق ، فقد كانت عصفاً بالسياسة العليا للدولة ، وانتهاكاً لسيادتها وانتزاعاً لحق مقدس لها هو الدفاع عن أراضيها . ولم يكن فى مقدور الوفد التركى وهو يمثل دولة هزمت فى الحرب العالمية الأولى ويتفاوض مع دول أوروبية كبرى خرجت منها منتصرة أن يتخلص لبلاده أكثر مما حصل عليه . وقد اتبع الوفد التركى فى مفاوضات لوزان ما يسمى «الدبلوماسية المرنة» . فقد حصل على مكاسب كثيرة وضخمة لا شك فيها . وحسبه أن معاهدة لوزان قد محت عار معاهدة سيفر . وكان لإصرار الدول الأطراف فى معاهدة لوزان على ضمان حرية المرور فى المضائق هو الذى اتخذ ذريعة لنزع سلاح هذه المنطقة . ومع ذلك فقد حاولت هذه الدول استرضاء تركيا أو تعويضها عن تجريد هذه المنطقة من السلاح ، فتعهدت الدول الكبرى منها بضممان سلامة المضائق والمناطق المحاورة لها من كل اعتداء ، وما قد يتطلبه هذا الضمان من التدخل الحربى لأربع دول كبرى دفاعاً عن الأراضى التركية ، مما يجعل المضائق منطقة مشمولة بحماية دولية . وقد جاءت المادة (١٨) من اتفاقية المضائق على النحو التالى :

« إن الدول السامية المتعاقدة ، وهى ترغب فى أن تؤكد أن نزع سلاح المضائق والمناطق المحاورة لها لن يشكل خطراً

خادراً (١) على الأمن الحربى لتركيا ، وأن أى عمل حربى لن يعرض للخطر حرية المضايق أو سلامة المناطق المحررة من السلاح ، فقد اتفقت على الآتى :

« إذا تعرضت للخطر حرية الملاحة فى المضايق أو سلامة المناطق المزروعة السلاح نتيجة الإخلال بتنفيذ المواد الخاصة بحرية المرور ، أو نتيجة هجوم مفاجئ ، أو بعض أعمال حرية ، أو تهديد بالحرب ، فإن الدول السامية المتعاقدة ، وبخاصة فرنسا وبريطانيا وإيطاليا واليابان ، تعمل معاً ، لمواجهة مثل هذا الإخلال ، أو الهجوم ، أو أى عمل حربى آخر ، أو التهديد بالحرب بجميع الوسائل التى يقررها مجلس عصبة الأمم لهذا الغرض .

« وحالما ينهى الظرف الذى تتطلب اتخاذ الإجراء المنصوص عليه فى الفقرة السابقة ، ينفذ تنفيذاً دقيقاً النظام الموضوع للمضايق وفقاً لنصوص هذه الاتفاقية » (٢) .

### تقييم معاهدة لوزان وملحقها اتفاقية المضايق :

كان لإلغاء معاهدة سيفر وإبرام معاهدة بديلة لها هى معاهدة لوزان انتصاراً للقومية التركية . فقد استطاع مصطفى كمال أن يتحدى بريطانيا

un danger injustifiable

(١) غير قابل للتبرير أو العذر

(٢) تمهد النص الرسمى الكامل لمعاهدة لوزان فى :

Great Britain, Parliamentary Papers, 1923, Treaty Series No.16, Cmd. 1929.

Great Britain, Parliamentary Papers, 1923, Turkey No. 1. Cmd, 1814, "Lusanne Conference on Near Eastern Affairs, 1922-1923" ( Proceedings ) .

وقد دخلت المعاهدة دور التنفيذ اعتباراً من اليوم السادس من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٤ بعد أن أودع فى ياديس العهد المطلوب من تصديقات الدول الأطراف فى المعاهدة .  
وبما هو جدير بالذكر أن حكومة موسكو وقعت على اتفاقية المضايق فى الرابع عشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ ، ثم امتنعت عن التصديق عليها .

وحليفاتها ، وأن يحملها على إلغاء معاهدة فرضتها على بلاده وهي في حالة الهزيمة والانكسار . والمعنى الهام الذي انطوى عليه عقد معاهدة لوزان هو إعادة إنشاء سيادة تركية كاملة على معظم الأقاليم التي تتكون منها في الوقت الحاضر جمهورية تركيا (١) ، كما قررت المعاهدة إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية الذي كان يعد انتقاصاً لسيادة الدولة في المجالات التشريعية والقضائية والتنفيذية والاقتصادية . ولذلك كان إلغاء الامتيازات الأجنبية استكمالاً لسيادة الدولة .

ومن بين جميع الدول التي لقيت الهزيمة في الحرب العالمية الأولى كانت تركيا هي الدولة الوحيدة التي نجحت ، بصلاصة أبنائها واستبسالهم في الكفاح وتمسكهم باستقلال بلادهم ، في أن تستبدل معاهدة جديدة بمعاهدة ظالمة غير متكافئة . وتعهد معاهدة لوزان في مجموعها اعترافاً دولياً بالمطالب التركية القومية كما وردت في الميثاق الوطني . ويرى بعض المؤرخين العرب أن معاهدة لوزان تعد من وجوه عديدة خاتمة فصول المألة الشرقية ، لأنه كان واضحاً أن بريطانيا وحليفاتها المنتصرة الاستعمارية حاولت في معاهدة سيفر تصفية الإمبراطورية العثمانية تصفية نهائية وتصفية المسألة الشرقية معها ، لولا نهضة تركيا الحديثة الكمالية وقيامها من أنقاض الموت والدمار . فاضطرت الدول الحليفة - وقد انشقت فيما بينها في سياستها نحو تركيا - إلى عقد مؤتمر لوزان ، وفيه نالت تركيا الحديثة امتيازات كثيرة واعترف بكيانها دولة مستقلة واستطاعت فيما بعد التخلص من قيود معاهدة لوزان (٢) .

وإذا كانت اتفاقية المضايق قد قررت تجريد منطقة المضايق من السلاح ، إلا أنها حافظت على إبقاء هذه المنطقة جزءاً لا يتجزأ من الوطن التركي ، وعلى إبقاء إستانبول داخل نطاق الوطن التركي . وكانت اليونان حريصة

---

Lewis Bernard; op. cit, p. 254.

(١)

(٢) دكتور فاضل حسين : مؤتمر لوزان وآثاره في البلاد العربية . من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٦٦

الحرص كله على ضم هذه العاصمة إليها . وكانت اتفاقية المضائق خطوة نحو استكمال سيادة الدولة عليها بإقامة التحصينات العسكرية فيها وبقيام القوات المسلحة التركية بالدفاع عنها ، وهو ما تقرر في اتفاقية مونتره *Mostreux* المبرمة في ٢٠ من شهر يوليو - تموز - عام ١٩٣٦ ، واشتركت في التوقيع عليها عشر دول كما سنشير إليها إشارة سريعة في موطن قريب في نهاية هذا الفصل . ويمكن تشبيه معاهدة لوزان وملحقها اتفاقية المضائق بالمعاهدة البريطانية المصرية التي عقدت في ٢٦ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٣٦ فقد كانت هذه المعاهدة خطوة نحو الاستقلال التام الذي تحقق بعقد اتفاقية الجلاء في ١٩ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٥٤ واستعادت مصر سيادتها التامة على منطقة القناة وحققها الكامل في إقامة الاستحكامات العسكرية على ضفتي قناة السويس وانفرادها بالدفاع عنها وحماية أمنها .

ولإذا كانت اتفاقية المضائق قد قررت حرية المرور في المضائق للسفن الحربية والتجارية في وقت السلم وضمن الحرب ، إلا أنها جاءت بأحكام كانت تقتضيها المصلحة العليا لتركيا ، وهي تحريم مرور السفن الحربية والتجارية التابعة للدولة أو دول في حالة حرب مع تركيا .

لقد جاءت معاهدة لوزان بما سبق أن جاءت به معاهدة سيفر فيما يتصل بالرقابة على المضائق . ولكنها جاءت بهذه الرقابة مخففة بأن جعلت تركيا الرئاسة الدائمة للجنة المضائق ، وهبطت باليونان عضواً حادياً في لجنة المضائق فأقصتها عن مركزها المميز كمصدر - مع تركيا - لسلطات واختصاصات لجنة المضائق ، كما سبق أن ذكرنا ، وقضت على التباين بين أعضاء اللجنة فجعلت لكل عضو صوتاً واحداً بصرف النظر عما إذا كان العضو يمثل دولة كبرى أو وسطى أو صغيرة . وقد حاول باحثان اشتركا في مؤلف واحد إعطاء صورة عامة عن معاهدة لوزان وما جاءت به من مبادئ ، فقالا إن هذه المعاهدة قد أنشأت نظاماً لمرور السفن في المضائق والرقابة الدولية على هذا المرور . وهذا النظام عبارة عن موادة بين مصالح الدول المطلة على البحر الأسود وبخاصة مصالح الروميا التي ( م ٢٠ - الدولة العثمانية )

كانت تتطلع إلى معاملة تميزها عن غيرها من الدول وبين دول المعسكر الغربي وبخاصة بريطانيا التي كانت تطمح في تقرير حرية تامة للسفن في عبورها المضائق (١).

ونخلص من هذا التقييم لمعاهدة لوزان أنها كانت عصفاً بالسياسة العليا للدولة وانتقاصاً لسيادتها على جزء من أراضيها على الرغم من أنها كانت تفضل من عدة وجوه معاهدة سيفر .

وقد أصدر مجلس النواب التركي (٢) قراراً في ٢٣ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ بالموافقة على معاهدة لوزان . وكان هذا المجلس قد أصدر قبل ذلك بعدة أيام قراراً بانتخاب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية . (٣) وفي ٢ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢٣ تم جلاء آخر قوات الاحتلال من إستانبول ، وقد دخلتها في اليوم السادس من ذات الشهر القوات التركية تحت قيادة شكرى نايلي . ومن المصادفات العجيبة أنه في هذا اليوم كان الداماد فريد باشا الصدر الأعظم السابق والخصم اللدود لمصطفى كمال ورفاقه وأحد أقطاب حكومة السلطان محمد السادس يلفظ أنفاسه الأخيرة في مدينة نيس بجنوبي فرنسا .

---

(١) Shotwell J. T. and Deak F. : Turkey at the Straits. p. 117.

(٢) كان المجلس الوطني الكبير قد حل نفسه في ١٦ من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٢٢ استعداداً لإجراء انتخابات جديدة جاءت بمجلس نواب يتكون من ٢٨٦ عضواً . وبدأ المجلس جلساته في ١١ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ .

(٣) لما كانت جمية الدفاع عن حقوق الأناضول والروميل قد نجحت في تحقيق أهدافها في أثناء الكفاح من أجل تحرير الوطن التركي ، رأى مصطفى كمال تحويل هذه الجمعية إلى حزب سياسي حقيق يخضع للتنظيمات الحزبية . وقد أصدر مصطفى كمال في ٦ من شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٢ أول بيان للصحافة عن تأسيس حزب جديد يسمى حزب الشعب . وطلب من المثقفين في تركيا موافقته بأرائهم بالكتابة إليه شخصياً . وقد اجتمع حزب الشعب في ٩ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ - أي قبل اجتماع مجلس النواب بيومين - واتخذ قراراً بانتخاب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية وقد اتخذ هذا الحزب في نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٢٤ اسماً آخر هو حزب الشعب الجمهوري تأكيداً في أذهان الشعب للنظام الجمهوري . وتشير الراجع الأجنبية إلى اسم الحزب مختصراً حل هذا النحو The R.P.P. أي The Republican People's Party.

### إستانبول تفقد مركزها كعاصمة :

غدت إستانبول ، بعد تجريدتها من السلاح طبقاً لاتفاقية المضايق ، مدينة مكشوفة معرضة للهجوم عليها براً وبحراً . ورأى مصطفى كمال نقل العاصمة إلى أنقرة وهى المدينة التى تقع فى قلب الأناضول ، الوطن التركى الأصيل ، وتتمتع بحصانة طبيعية تجعلها بمنأى عن هجوم الأعداء ، ومقبرة لهم إذا حاولوا اجتياز الجبال والمضارب المحيطة بها للوصول إليها أو الاقتراب منها . وقد اتخذ مجلس النواب التركى فى ١٣ من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٣ قراره بنقل العاصمة من إستانبول إلى أنقرة (١) . وكان نقل العاصمة ضربة عنيفة لإستانبول ، فقد حرمت من مركز ظلت تشغله أربعائة وسبعين سنة كعاصمة لإمبراطورية إسلامية وعاصمة من أكبر عواصم العالم وكبرى عواصم الشرق على الإطلاق .

ويرى أحد كبار المؤرخين الإنجليز أن هذا الإجراء كان بمثابة عملية قطع أو فصل لماضى الدولة العثمانية عن حاضر تركيا . ويبرر نقل العاصمة بأنه كان نتيجة منطقية لإلغاء نظام السلطنة ، فقد ذهب السلطان ، ولم تعد إستانبول فى ظل الأوضاع الجديدة مكاناً صحياً لتكون مقراً لحكومة الثوار الذين أطاحوا بالسلطان العثمانى . ويمضى هذا المؤرخ قيقول إن الماضى الحافل بالأنجاد عالق بالأذهان : القصور الرائعة والمساجد الفخمة والمباني العظيمة التى تزخر بها إستانبول ، وضاحتها بيرا Pera موطن السفارات الدبلوماسية وموئل الجاليات الأجنبية والتجارة من مختلف الجنسيات ، كل أولئك كان مرتبطاً أشد الارتباط بالماضى فى الواقع الملموس ومستقراً فى أذهان الشعب التركى . فلم تكن إستانبول صالحة لتكون مركزاً لتركيا الحديثة التى أراد مصطفى كمال أن يقيمها ، ومن ثم اختيرت مدينة أخرى لتكون عاصمة جديدة كى تكون رمزاً يجسد التغييرات التى أراد إدخالها . فالنولة الجديدة

---

(١) كان حزب الشعب قد وافق فى ٩ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢٣ ، بناء على اقتراح عصمت باشا ، باتخاذ أنقرة عاصمة للدولة الجديدة بدلاً من إستانبول . وبعد أربعة أيام وافق مجلس النواب على هذا التعديل .

لم تستند إلى أسرة حاكمة ، ولم تقم على إمبراطورية ، ولا على عقيدة Faith ، وإنما قامت على الشعب التركي ، ومن ثم كانت عاصمة هذه الدولة في قلب الوطن التركي (١) . وهذا الرأي يحمل في معظم عناصره طابع التبرير أكثر مما يحمل من طابع التفسير ، لأن التصرفات الأولى لمصطفى كمال كانت ثم عن اتجاهه إلى الأناضول بصفته الوطن التركي الأصيل يتخذ منها مهاداً لحركته الثورية . ففي الأناضول تكونت في شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٩١٨ المجموعات الأولى للمقاومة . وفي الأناضول اجتمع مؤتمر أرضروم ثم مؤتمر سيواس في ٢٣ من شهر يوليو - تموز - وفي ٤ من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٩١٩ على التوالي : ووقع اختيار مصطفى كمال في وقت مبكر على أنقرة ، وكانت وقتذاك قرية جبلية صغيرة ، واتخذ منها منذ اليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٩١٩ مقراً للجنة الدائمة المنتهقة عن «جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والروميلي» وهي اللجنة التي كانت بمثابة مركز قيادة الثورة ، وكان مصطفى كمال رئيساً للجمعية واللجنة معاً . وفي أنقرة اجتمع المجلس الوطني الكبير في ٢٣ من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٢٠ واتخذها مقراً رسمياً دائماً للمجلس . وفي أنقرة تكون أول مجلس وزراء شكلته قيادة الثورة في ليلة ٣ - ٤ من شهر مايو - آيار - عام ١٩٢٠ . وكانت حكومة أنقرة هي التي عقدت اتفاقيات دولية مع كل من الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية R.S.F.S.R وجمهورية فرنسا ومعهادات صداقة مع كل من جورجيا وفارس وأفغانستان . وأصبحت أنقرة مقرونة في أذهان الرأي العام التركي والرأي العام العالمي باسم الثورة الكمالية التي نجحت في تحرير الوطن من دنس الاحتلال البريطاني والفرنسي والإيطالي واليوناني . كما أن رجال حكومة أنقرة هم الذين قاموا بإجراء مفاوضات لوزان التي انتهت بعقد المعاهدة . فكل هذه شواهد أو دلائل تم عن اتجاه مصطفى كمال لتقل العاصمة من إستانبول إلى أنقرة . أما الرأي

الذى يلذهب إليه الأستاذ لويس برنارد بأن جمهوريه تركيا لم تقم على أساس أسرة حاكمة ، فإن إستانبول لم تكن مسقط رموس السلاطين الأوائل ولم تكن مرتعاً لصباهم . وإذا كانت إستانبول تزخر بالقصور والمساجد وغيرها من المنشآت التى تعد من روائع الفن المعمارى ومظهراً مجسداً للحضارة العثمانية ، فإن جمهورية تركيا هى امتداد للدولة العثمانية ، وهى دولة ذات ماض حافل بالأجداد . والاثنان - السلطنة والجمهورية - تطاولان الزمان وجوداً .

والواقع أنه كانت هناك ثلاثة بواعث أملت على مصطفى كمال نقل العاصمة من إستانبول .

أولاً : كانت إستانبول فى متناول قذائف الأساطيل البحرية للأعداء ، كما كان يسهل حصارها برياً ومهاجمتها على عكس أنقرة .

ثانياً : كانت إستانبول تعج بالجاليات الأجنبية وبخاصة الجالية اليونانية ، وكانت كثيفة العدد يقيم أفرادها فى حى الفنار . وكان هذا الحى لايزال مقراً للبطريك اليونانى ومقراً للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية . ومما هو جدير بالذكر أن أعضاء الوفد التركى فى مفاوضات لوزان طلبوا نقل مقر البطريك والكنيسة خارج إستانبول . ولم يجدوا استجابة لطلبهم (١) .

ثالثاً : كانت إستانبول فى نظر مصطفى كمال مقراً لعلماء الدين وأنصار السلطنة . وكان يخشى أن يقوموا بحركات مضادة تهدد النظام الجمهورى الوليد . أما أنقرة فكانت مدينة ثورية لحماً ودماً .

ومع ذلك فعلى الرغم من انقضاء أكثر من نصف قرن على حرمان إستانبول من مركزها كعاصمة للدولة ، فإنها لا تزال أكبر مدن تركيا من حيث الكثافة السكانية ، فطبقاً لتعداد سنة ١٩٧٥ بلغ عدد سكان جمهورية تركيا زهاء ١٠,٥٠٠,٠٠٠ نسمة موزعة على ٦٧ مقاطعة . وبلغ عدد سكان



إستانبول أربعة ملايين نسمة ، بينما بلغ تعداد العاصمة الجديدة ، أنقرة ، زهاء مليون ونصف مليون نسمة ، تليها مدن أزمير ، وأضنا ، وإسكي شهر ، وبورصة ( بروسة ) ، وسمسون ، وقيسرى ، وغازى عنتات ، وسيواس ، وديار بكر . فضلا عن كنوزها وثراوتها الفنية التى تتمثل فى قصورها التاريخية ومساجدها ومبانيها ومتاحفها .

### مقارنة بين معاهدتى سيفر ولوزان فيما يختص بالمضايق :

يلاحظ أن هاتين المعاهدتين قد قررتا إنشاء لجنة المضايق . وقد قامت هذه اللجنة فى المعاهدتين على تأكيد مبدأ الإشراف الدولى على تنظيم مرور السفن والطائرات فى منطقة المضايق . ولكن جاءت معاهدة لوزان بعدة مبادئ كانت فى مصلحة تركيا . كان أول هذه المبادئ أنها استبعدت اليونان كدولة تشارك تركيا فى السيادة على منطقة المضايق التى هى جزء من الوطن التركى ، وهو مبدأ خطير كانت قد استحدثته معاهدة سيفر حين نصت على أن لجنة المضايق تستمد من تركيا ومن اليونان مصدر وجودها وسلطانها واختصاصاتها ، وبعبارة أخرى كانت تركيا واليونان شريكتين فى مصدر السيادة . ثم جاءت معاهدة لوزان فجعلت تركيا الدولة الوحيدة التى تستند إليها لجنة المضايق فى وجودها ، وأصبحت اليونان عضواً عادياً فى لجنة المضايق . كما قررت معاهدة لوزان انفراد تركيا بالرياسة الدائمة للجنة المضايق ، وشجبت لوزان التمايز بين أعضاء اللجنة الذى جاءت به معاهدة سيفر التى جعلت لبعض أعضاء اللجنة صوتين لكل منهم وجعلت للبعض الآخر صوتاً واحداً . وكانت تركيا من الفريق الثانى ذى الصوت الواحد . فساوت معاهدة لوزان بين مندوبى جميع الدول الكبرى والصغرى بأن جعلت لكل مندوب دولة صوتاً واحداً . ولم يرد فى معاهدة لوزان الشرط الختمى الذى جاءت به معاهدة سيفر وهو أن تكون الدول الممتلة فى لجنة المضايق أعضاء فى عصبة الأمم بحيث لا تباشر عملها فى اللجنة إلا بعد قبولها فى عصبة الأمم . وكان المقصود بهذه الدول وقتئذك روسيا وتركيا وبلغاريا . أما معاهدة لوزان فقد قررت أن يكون تصديق كل دولة على المعاهدة هو

شرط ممارستها لعضويتها في نشاط اللجنة ، وهو شرط أدنى إلى العدالة والاعتدال. لأنه قد تقوم عقبات تحول دون انضمام الدولة إلى عصبة الأمم ، بينما التصديق على المعاهدة هو عمل تمارسه الدولة بمحض رغبته وإرادتها ولا يتطلب إصداره موافقة دول أو هيئات أجنبية (١) .

(١) التصديق La Ratification هو قبول المعاهدة رسمياً من السلطة التي تملك عقد المعاهدات نيابة عن الدولة . وهذه السلطة هي إما رئيس الدولة منفرداً ، وإما رئيس الدولة مشتركاً مع السلطة التشريعية ، وذلك تبعاً للنظام الدستوري المعمول به في كل دولة من الدول الأطراف في المعاهدة من حيث السلطات التي تمنحها للسلطات لرؤساء الدول في شأن إبرام المعاهدات والتصديق إجراء واجب لنفاذ المعاهدة في الدائرة الدولية يؤدي ضروره القانون الدولي الوضعي وكذلك العرف المتواتر بين الدول .

وقد اعتمد فقهاء القانون الدولي العام في ضرورة التصديق على المعاهدات على عدة أسانيد ، منها غطورة الالتزامات الدولية المنصوص عليها في المعاهدات ، وإتاحة الفرصة لحكومة كل دولة من الدول الأطراف فيها والهيئات النيابية فيها لإعادة النظر في المعاهدة قبل أن تصبح ملزمة لها بصفة نهائية ، فقد ترى فيما اتفق عليه مندوبوها تعارضاً مع مصالحها أو انتقاصاً من حقوقها أو قد تطرأ ظروف تدعوها إلى المنول مما كانت تراء من قبل فتستع عن التصديق . وهذا الامتناع تسقط المعاهدة تلقائياً بالنسبة لها . وأخيراً فإن من بين أسانيد التصديق الرغبة في تفادي مايجمل التعلل به من أضرار بعد التوقيع بمقولة تجاوز المفاوضين لسلطاتهم .

ويلاحظ أنه لا يترتب على رفض الدولة التصديق على المعاهدة أية مسؤولية دولية، ولكن لا يلحق المعاهدة في هذه الحال وصف النفاذ . فالتصديق لا يعتبر مجرد إجازة للمعاهدة ، بل هو الإعلان الحقيقي لإرادة الدولة في الالتزام بأحكام المعاهدة، وهو الذي يحدد السلطة التي تصح فيها المعاهدة ملزمة .

وهناك إجراء شكل يستكمل به إجراء التصديق ، ويسمى تبادل وثائق التصديق أو إيداعها . فلكي ينتج التصديق آثاره القانونية في الدائرة الدولية يجب أن تعلم به الدول الأخرى الأطراف في المعاهدة . ويحقق هذا العلم ، في حالة المعاهدات الثنائية ، عن طريق تبادل الوثائق التي تعيد التصديق . أما في حالة المعاهدات الجاهية فيتم عن طريق إيداعها لدى حكومة دولة معينة ، هي في المادة صاحبة الدولة التي تم التوقيع في إقليمها . وتبادل وثائق التصديق أو إيداعها هو الإجراء الذي تدخل به المعاهدة في دور التنفيذ الدولي .

أنظر كلا من :

دكتور حامد سلطان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٤ - ٢٢٠

دكتور محمد حافظ غانم : مبادئ القانون الدولي العام . دراسة لمؤابطة الأصولية ولاحكامه العامة . القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٢٦ .

### فضل الثورة الكمالية في تحسين وضع المضايق :

كان إلغاء معاهدة سيفر وإبرام معاهدة لوزان وما نجم عنها من تحسين الوضع السياسي نسبياً لمنطقة المضايق ثمرة من ثمار الثورة الكمالية. ولا جدال في أن نجاح هذه الثورة كان مرده إلى القيادة الحكيمة التي اتسم بها مصطفى كمال ، فلم يلجأ إلى إجراءات تعسفية من اعتقال المواطنين بالآلاف وتعذيبهم وإهدار كرامتهم بل وآدميتهم ومصادرة أموالهم وتقديمهم إلى محاكمات صورية تصدر فيها أحكام بالإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة بناء على أوامر مسبقة . وكان حريصاً منذ بدء الثورة على إنشاء مجلس نيابي وفر له الاستقرار الزمني والحماية الدستورية ، فاستطاع أن يقدم للجمعية التركية الكثير من الخدمات . وكان رفاق مصطفى كمال مثالا حياً في النزاهة والأخلاق والبعد عن استغلال النفوذ والإثراء غير المشروع وهتك الأعراض وما إلى ذلك . ولم يشكل هؤلاء الرفاق والأعوان ، كما فعل غيرهم في دول أخرى ، مراكز قوى حتى أصبح كل منهم بمضى الأيام حكومة داخل الحكومة *imperium in imperio* . وتحضرنا في هذه المناسبة جملة معبرة حكيمة ذكرها نيقولا مكيا فيلى وهو يتكلم عن الأمير . وكان يقصد بالأمير في هذه الجملة الحاكم أياً كان لقبه : إمبراطوراً أو ملكاً ، أو أميراً . وقد جاء فيها أن رجحان عقل الأمير وكفايته يقاسان بصفات الأفراد الذين يحيطون به والذين اختارهم لمعاونته في شئون الحكم . فإذا كانوا على حظ موفور من الأمانة والكفاية والخلق كان ذلك دليلاً ساطعاً على حكمة الأمير ، وإلا كان الرأي في الأمير على عكس ما تقدم (١) .

موقف موحد لبريطانيا وحليفاتها من تركيا وألمانيا فيما يختص بالممرات المائية :

من المواقف السياسية والعسكرية الجديرة بالملاحظة أن بريطانيا

---

(١) انظر عرضاً لحياة مكيا فيلى وآرائه السياسية في كتابنا :

أوروبا في مطلع المصور الحديثة . الطبعة الثالثة ١٩٧٧ ، الفصل الثاني وعنوانه :

ثلاثة من أعلام الفكر الأوروبي الحديث في مطلع عصر النهضة . الجزء الخاص بمكيا فيلى ،

وحليفاتها وقفت موقفاً موحداً من تركيا وألمانيا فيما يختص بالممرات المائية التي في أراضي كل منها . ولذلك كان موقف هذه الدول من المضائق التركية مشابهاً إلى حد كبير لموقفها من قناة كييل La Canal de Kiel وهذه القناة تصل بحر الشمال ببحر البلطيق عبر الأراضي الألمانية<sup>(١)</sup> . وقامت ألمانيا بحفرها دون أى تدخل أجنبي وافتتحت الملاحة سنة ١٨٩٦ ، وكانت تسمى أيضاً قناة غليوم نسبة إلى غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا وقتذاك ( ١٨٨٨ - ١٩١٩ ) . وكان الهدف من إنشائها حربياً أكثر منه تجارياً ، واعتبرت طريقاً ألمانياً بحتاً في صميم الأراضي الألمانية . وكانت ألمانيا تمارس على هذه القناة جميع حقوق الملكية والسيادة والإدارة والاستغلال . ولم توضع اتفاقية دولية تقيد سلطة ألمانيا عليها ، فكان لها مطلق الحرية في تكييف مركز هذه القناة ، وفي أن تمنع مرور أية سفينة إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى ولقيت فيها ألمانيا الهزيمة . وكان من الطبيعي أن يكون لقناة كييل نصيب ملحوظ في أحكام معاهدة فرساي التي فرضت على ألمانيا . فقد نصت على تجريد هذه القناة ومدخلها من الملاح وتخطيم التحصينات العسكرية التي كانت موجودة فيها وتحريم إقامة تحصينات جديدة ( المادة ١٩٥ ) ، وهذه المادة تشبه ما تقرر في اتفاقية المضائق من نزع سلاح منطقة المضائق ، كما أدرجت في ذات المعاهدة أحكاماً تضي على قناة كييل صبغة دولية نسبية . وجاءت هذه الأحكام في سبع مواد ( من ٣٨٠ إلى ٣٨٦ ) . وهما في هذه الدراسة بوجه خاص المادة ٣٨٠ فقد نصت على أن « تكون قناة كييل ومنافذها حرة ومفتوحة دائماً على قدم المساواة التامة للسفن الحربية والتجارية لجميع الشعوب التي في حالة سلم مع ألمانيا » . ويتفق هذا النص مع ماورد في اتفاقية المضائق حين نصت على أنه في زمن الحرب وإذا كانت تركيا إحدى الدول المتحاربة فبكون المرور عبر المضائق مقصوراً على سفن الدول المحايدة ، بمعنى تحريم مرور السفن الحربية والتجارية التابعة لدولة أو دول في حالة حرب مع تركيا .

---

(١) تبدأ القناة من ميناء كييل الحرب على بحر البلطيق إلى مصب نهر الإلب Elbe على بحر الشمال .

وقررت معاهدة فرساي في المادة ٣٨١ تطبيق مبدأ المساواة على السفن التي تستخدم قناة كييل تطبيقاً دقيقاً بالنص على أن حق المرور بالشكل الذي تقرر لجميع الدول التي في حالة سلم مع ألمانيا يجب أن تتمتع به هذه الدول وكل ما يتبعها من أشخاص وأموال وسفن ومراكب على قدم المساواة التامة دون تمييز بينها وبين رعايا وأموال وسفن ومراكب ألمانيا أو الدولة الأولى بالرعاية . « وألا تعوق مرور الأشخاص والسفن والمراكب عوائق أخرى إلا ما كان نتيجة النصوص الخاصة بالشرطة أو الرسوم أو التدابير الصحية أو الهجرة أو المهاجرة ، وكذلك النصوص الخاصة باستيراد أو تصدير البضائع الممنوعة ، ويجب أن تكون هذه القيود مناسبة وتطبق على وجه التساوي وألا تعوق الحركة دون مبرر » . وفي اتفاقية المضائق نصوص مشابهة إلى حد كبير وتستهدف عدم التمييز بين جنسيات السفن على النحو الذي مربنا وعدم السماح لتركيا - كدولة محايدة أو محاربة - باتخاذ أية إجراءات تعتبر تلخلاً في الملاحة عبر المضائق أمام سفن الدول المحايدة .

وجاءت المادة ٣٨٢ خاصة بتنظيم الرسوم وتحديد أنواعها ، فقررت ألا يفرض على السفن سوى الرسوم التي تغطي على وجه عادل نفقات صيانة وتنظيم الملاحة أو تحسين القناة أو مداخلها ، وأن يكون تقدير الرسوم على نحو لا يحتم فحص حولة السفينة بالتفصيل حتى لا يتعطل مرور السفن . ونظمت المادة ٣٨٣ مسألة البضائع المارة Transit وجعلت لإنزال وشحن البضائع وركوب المسافرين ونزولهم بالقناة مقصوراً على الموانئ التي تحددها ألمانيا . وعادت المادة ٣٨٤ إلى موضوع الرسوم فقررت عدم جواز جباية أى رسم في القناة وفي مداخلها غير ماورد ذكره في هذه النصوص .

وقررت المادة ٣٨٥ أنه « يتعين على ألمانيا أن تتخذ الاجراءات المناسبة لإزالة العوائق والأخطار التي تهدد الملاحة ، وأن تكفل توافر شروط صلاحية الملاحة . ولا يجوز لها إقامة أشغال من طبيعتها عرقلة الملاحة بالقناة أو مداخلها » . ويفسر أحد اساتذة القانون المصريين الفقرة الأولى من هذه

المادة بأنها تعطى ألمانيا مهمة الدفاع عن قناتها واتخاذ سائر التدابير اللازمة لسلامة الملاحة بها وطمأنينتها على الدوام<sup>(١)</sup>. والواقع أن نص هذه الفقرة يكتنفه الغموض فهو لا يشير صراحة إلى تحويل ألمانيا حق الدفاع عن القناة لأن عبارة «إزالة العوائق والأخطار التي تهدد الملاحة» عبارة عامة.

وحددت المادة ٣٨٦ جهات الاختصاص للفصل في المنازعات التي تنشأ نتيجة مخالفة أحكام المواد التي قررتها معاهدة فرساي فيما يختص بقناة كييل أو نتيجة الخلاف على تفسير هذه المواد ، فأجازت للدولة صاحبة الشأن أن تلجأ إلى «جهة القضاء التي تقيمها لهذا الغرض عصبة الأمم» وجهة القضاء هذه ليست إلا محكمة العدل الدولية الدائمة . كما نصت ذات المادة على أنه «لضادى عرض المسائل القليلة الأهمية على عصبة الأمم تقيم ألمانيا في كييل سلطة محلية تحاط بالمنازعات في مرحلتها الأولى ، ولها حق إعطاء الرضوية الممكنة للشكاوى التي يقدمها المندوبون القنصليون للدول المختصة» أي تقيم ألمانيا في ميناء كييل محكمة محلية أو لجنة قضائية أو ماأشبه كدرجة أولى من درجات التقاضى تنظر في المخالفات البسيطة وتقدم عنها الرضوية الممكنة لقناصل الدول التي تقع المخالفات في مواجهة ما يتبناها من سفن أو رعايا أو ممتلكات<sup>(٢)</sup> .

ومن مجموعة هذه المواد التي جاءت بها معاهدة فرساي يتضح أن قناة كييل خرجت من النطاق الوطنى البحت بعد أن كانت تعتبر في ظله قناة داخلية تحت السلطان الكامل لألمانيا ، فأصبحت لها صفة دولية وتقررت حرية مرور جميع السفن التجارية والحربية على قدم المساواة لجميع الشعوب التي في حالة سلم مع ألمانيا . وهذا الوضع السابق والوضع اللاحق لقناة كييل عقب معاهدة فرساي يشبهان الوضع الذى آلت إليه المضائق التركية عقب معاهدة لوزان .

(١) دكتور عبد الله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٠ .

استمرت نصوص معاهدة فرساي نافذة إلى أن أعلنت ألمانيا في ١٤ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٣٦ إلغاء هذه المعاهدة وتحللها من أحكامها ومنها ما يتعلق بقناة كييل . ولم يحتج على هذا الإلغاء من الدول الأطراف في المعاهدة سوى فرنسا وتشيكوسلوفاكيا (١) . واستردت ألمانيا سلطاتها المطلقة على القناة وأخضعها لإخضاعاً تاماً لمصالحها .

ومرة أخرى يجيء التوقيت واحداً بالنسبة للمضايق التركية وقناة كييل . فقد استطاعت الحكومة التركية بالطرق القانونية الشرعية التي تتمثل في الدبلوماسية المرنة والمصاهرة واستغلال تطور الظروف الدولية - إلغاء النصوص الجائرة التي جاءت في اتفاقية المضايق وعقدت معاهدة جديدة هي معاهدة مونريه في ٢٠ من يوليو - تموز - عام ١٩٣٦ وسنعرض لها بعد قليل .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ منعت ألمانيا أعداءها من المرور في قناة كييل . ولما خرجت من هذه الحرب منهزمة واحتلت الدول المتحالفة الأربع الكبرى الأراضي الألمانية كان نصيب بريطانيا احتلال المنطقة التي تقع فيها قناة كييل فعادت الملاحاة في القناة حرة للجميع دون أن تنتظر بريطانيا إبرام معاهدة دولية لتوضيح المركز القانوني لقناة كييل ، وبذلك كانت حرية المرور في قناة كييل تستند إلى الأمر الواقع ، بعد أن طويت معاهدة فرساي . ومرة أخرى طلبت حكومة موسكو في عام ١٩٤٥ - بعد الحرب العالمية الثانية - وضع نظام جديد للمضايق التركية .

#### اتفاقية مونريه سنة ١٩٣٦ :

اشتد ساعد الجمهورية التركية في المجال الدولي . وكانت قد ضاقت ذرعاً بالأحكام الجائرة المتصلة بموضوع المضايق والتي جاءت بها معاهدة لوزان ، وبخاصة تجريد منطقة المضايق وجزرها من السلاح وقيام اللجنة الدولية -

لجنة المضايق - بالإشراف على حرية المرور في المضايق . وأرادت أن تتخلص من هذه القيود لتتولى الدفاع بنفسها عن المضايق وإلغاء لجنة المضايق تأكيداً لسيادة الدولة على هذه المناطق التي هي جزء من الوطن التركي . ومنذ سنة ١٩٣٣ قامت الحكومة التركية بالصلات دبلوماسية مع الدول ابتغاء تعديل أحكام معاهدة لوزان فيما يختص بموضوع المضايق . وجاء اضطراب العلاقات الدولية في سنتي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ عاملاً ساعداً على تحقيق مطالبها . فقد جاء الغزو الإيطالي الحبشة في هاتين السنتين نذيراً بزيادة الخطر الفاشستي في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وأحدث بدوره تقارباً بين تركيا وبريطانيا . وعقد مؤتمر في مونتريه Montreux بسويسرا في الفترة من ٢٢ يونيو - حزيران - إلى ٢٠ يوليو - تموز - سنة ١٩٣٦ اشتركت فيه عشر دول ، هي : أستراليا وبلغاريا وفرنسا واليونان واليابان ورومانيا والاتحاد السوفيتي ويوغوسلافيا فضلاً عن بريطانيا وتركيا . وقد أسفر هذا المؤتمر عن عقد اتفاقية مونتريه في ٢٠ من يوليو - تموز - سنة ١٩٣٦ .

وقد استردت تركيا بمقتضى الاتفاقية الجديدة حقها في تخصيص منطقة المضايق . ولم تتوان في مباشرة هذا الحق استكمالاً لسيادتها على هذه المنطقة والتي كانت قد سلبت جزءاً منها بمعاهدة لوزان . كما استردت حقها في الدفاع عن هذه المنطقة التي غدا شأنها شأن سائر أجزاء الوطن التركي .

كما حولتها اتفاقية مونتريه اختصاصات اللجنة الدولية ، وعدأت لصالح الحكومة التركية شروط مرور السفن التجارية والحربية سواء في وقت السلم أو زمن الحرب . ولن نتعرض لتفاصيل هذه الاتفاقية لأنها تتصل بتاريخ جمهورية تركيا ، ولا نريد التوسع في تاريخ هذه الفترة .

---

(١) نجد نص هذه الاتفاقية في كل من :

Actes de la Conférence de Montreux concernant le régime de détroits. Liège, 1936.

Survey of International Affairs, 1936, pp. 584-651.



### المذكرة السوفيتية سنة ١٩٤٦ :

ولنفس السبب لن نتعرض لتفاصيل المذكرة السوفيتية التي قدمتها حكومة الاتحاد السوفيتي في ٧ من أغسطس - آب - سنة ١٩٤٦ إلى حكومات تركيا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وطلبت فيها تعديل أحكام اتفاقية مونترية تأسيساً على أن اتفاقية مونترية لم تحقق سلامة دول البحر الأسود، ولم تضمن عدم استخدام المضائق لأغراض معادية لهذه الدول ، إذ دخلت ، في خلال الحرب العالمية الثانية ، بعض السفن المعادية التابعة لدول المحور ، البحر الأسود ، عبر المضائق وباشرت نشاطاً معادياً للاتحاد السوفيتي ، وتأسيساً على أن الدول الكبرى كانت قد وافقت في مؤتمر بوتسدام - ضاحية برلين - والذي عقد في الفترة من ١٧ من يوليو - تموز إلى ٢ من أغسطس - آب - سنة ١٩٤٥ عقب تسليم ألمانيا على ما رآته الحكومة السوفيتية من ضرورة وضع نظام جديد للمضائق يتناسب مع مركزها الجديد بعد أن خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية . وكانت المذكرة السوفيتية قد طالبت بخمسة مبادئ تكون أساساً لتعديل اتفاقية مونترية (١) . وكانت هذه المبادئ هي :

١ - تظل المضائق مفتوحة دائماً لمرور السفن التجارية التابعة لجميع الدول .

٢ - تظل المضائق مفتوحة دائماً لمرور السفن الحربية التابعة لدول البحر الأسود .

٣ - عدم السماح بمرور السفن الحربية التابعة لدول من غير دول البحر الأسود إلا في أحوال خاصة محددة .

٤ - تقع مسؤولية تحديد نظام للمضائق - وهي الطريق الوحيد للبحر الأسود - على عاتق تركيا وبقية دول البحر الأسود .

---

(١) دكتور عبد الله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٨٦ - ٣٨٧

• - تتعاون تركيا والاتحاد السوفيتي - باعتبارهما أكثر الدول مصلحة وأقدرها على ضمان حرية الملاحة وسلامة المضائق في تنظيم الدفاع عن المضائق ومنع الدول الأخرى من استخدامها في أغراض معادية لدول البحر الأسود (١).

وقد أظهرت تركيا والولايات المتحدة وبريطانيا ميلا إلى قبول المطالب أو المبادئ الثلاثة الأولى . ولكنها عارضت المبدأين الرابع والخامس . ورأت تركيا في المبدأ الخامس مساساً بسيادتها لأنه يؤدي إلى إشراك الاتحاد السوفيتي معها في الدفاع عن منطقة المضائق ، وهي جزء من الوطن التركي ، وتعتبر هذه المشاركة مساساً بالسياسة العليا للدولة . واقترحت الولايات المتحدة أن تتولى هيئة الأمم المتحدة الإشراف على الملاحة عبر المضائق (٢) .



من هذا العرض لتاريخ البحر الأسود ومنطقة المضائق ولسلسلة الاتفاقات والمعاهدات التي أبرمتها الدولة العثمانية أو فرضت عليها نجد أن الدولة كانت تمارس سيادتها على الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور والبحر الأسود في معظم عصور تاريخها ما بقيت الدولة قوية مهيبة الجانب . وكانت هذه الممارسة الفعلية إحدى الدعام الأساسية التي قامت عليها سياستها العليا . كان البحر الأسود بحيرة عثمانية داخلية . وكانت منطقة المضائق بوجه خاص ذات صبغة عثمانية بحتة ، فلم تكن الدولة بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ تسمح لأية سفينة حربية أجنبية بعبور المضائق في أوقات السلم فضلا عن زمن الحرب . أما السفن التجارية فكان اجتيازها المضائق متوقفاً على إرادة السلطان العثماني وحده . ثم أخذت تفقد تدريجياً هذه الصبغة العثمانية البحتة وتوجه نحو الدولية نتيجة عدة عوامل ، منها نجاح روسيا في غزو شبه جزيرة القرم في القرن الثامن عشر ، دخول الدولة في دور الاضمحلال ، وأطماع الدول

(١) دكتور مصطفى الخفناوي ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٦٢٨ - ٦٣٩ .

(٢) المرجعان السابقان . وانظر نصوص المذكرات المتبادلة بين حكومات موسكو وأتقرة

وواشنطن في كتاب الدكتور الخفناوي ص ٦٢٨-٦٤٥ .

الأوروبية الكبرى فيها ، وكانت روسيا ثم الهندا في مقدمة هذه الدول ثم تبعهما كل من بريطانيا وفرنسا ، وازدياد حدة التنافس الاستعماري الأوروبي ورغبة الدول في الاستئثار بالمناطق الحساسة في الدولة ، وكان من بينها منطقة المضائق ، وازدياد أهمية الملاحة البحرية العالمية ، والنمو المطرد في حجم وعدد الأساطيل التجارية والحربية للدول العالم ، والتحسين المستمر في بناء واستخدام هذين النوعين من الأساطيل ، وتشعب مصالح الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية . وكانت الدولة العثمانية في أدوار اضمحلالها تواجه حيناً ضغوطاً من دولة واحدة مثل روسيا ، وأحياناً تواجه تكتلاً من الدول الأوروبية الكبرى لفرض أنظمة معينة على منطقة المضائق كان فيها مساوٍ بسيادة الدولة وتجرّد لها من سلطانها على المضائق .



## الفصل الحادي عشر

### السياسة العليا للدولة العثمانية

#### في ضوء خصائصها العامة (٥)

علم صبغ الشعوب بالصبغة العثمانية :

لم تحاول الدولة عثمينة الشعوب التي دانت لحكمها سواء الشعوب الأوروبية أو الشعوب الإسلامية. ونقصد بالعثمينة L'Ottomanisation صبغ هذه الشعوب بالصبغة العثمانية أو ربطها برباط الحضارة العثمانية ، وهي حضارة ، مهما تهجم عليها بعض الباحثين ، فكانت حضارة قائمة فعلا واستقت مقوماتها وعناصرها من منابع متعددة كما سنوضح ذلك في كتاب قادم نفرده للنظم العثمانية . والحق أن السياسة العليا للدولة العثمانية اتسمت بالسلبية حيال عثمينة شعوبها . وكان مرد هذه السلبية إلى عاملين . كان العامل الأول هو سطحية الحكم العثماني بحيث مارست الدولة نفوذها في نطاق ضيق للغاية . وقد سبق أن شرحنا هذا العامل في فصل سابق . أما العامل الثاني فكان الاستعلاء الذي كان من السمات البارزة في الخلق العثماني . وقد اشترك في هذا الاستعلاء السلاطين والأتراك العثمانيون على السواء .

وقد بلغ الاستعلاء بالسلاطين حداً جعلهم يرفعون عن مخاطبة أباطرة أوروبا وملوكها بألقابهم المتعارفة في محيط العلاقات الدولية . كانوا يعتبرون الدول الأوروبية في عداد الإمارات أو الولايات ، ويعتبرون الأباطرة والملوك غير نظراء لهم . كانت صياغة الاتفاقات التي يعقدها السلاطين مع ملوك الدول الأوروبية تم عن استعلاء بالغ على هؤلاء الملوك . وفي اتفاقيات الهدنة بين الدولة العثمانية والنمسا ترد هذه الديباجة «منحت هذه الهدنة عن تفضل من السلطان أبدي الانتصار إلى ملك النمسا المغلوب دوماً» . كان

السلطان العثماني إذا ما وعد أحد ملوك أوروبا بالمساعدة يأتي تسجيل هذا الوعد كتابة ، بل يكتبني به مجردا . وقد ظل سلاطين الدولة العثمانية أمداً طويلاً يرفضون تعيين سفراء للدولة لدى الدول الأوروبية اعتقاداً منهم أنهم في غنى عن سائر العالم ، وأن على رجال الدول التي تحتاج إليهم أن يحضروا إلى إستانبول باعتبارها عاصمة العالم كله . كان على سفراء الدول أن يقدموا كل سنة هدايا ثمينة على سبيل الجزية . أما البعثات السياسية التي يوفدها ملوك أوروبا إلى السلاطين من وقت إلى آخر فكان على أعضاء البعثات أن يرفعوا إلى القصر هدايا ثمينة رمزاً لعلو مركز السلطان بالنسبة لأولئك الملوك<sup>(١)</sup>. واستمر هذا التقليد المسمى « التقدمة » معمولاً به حتى ألغاه السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) . كانت مقابلة السفراء والمبعوثين السياسيين للسلاطين تتم وسط مراسيم وتقاليد مزرية بكرامة أولئك السفراء . وقد قضت على معظم هذه التقاليد معاهدة ستيفاتوروك، ويطلق عليها البعض من قبيل الاختصار معاهدة توروك Torok (١١ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٦٠٦) التي عقدت بين الدولة العثمانية والنمسا ووضعت نهاية رسمية وشكلية لحرب استطالت ثلاث عشرة سنة تحت حكم ثلاثة سلاطين تعاقبوا على عرش الدولة<sup>(٢)</sup>.

واستعلاء السلاطين كان نزعة أصيلة في نفوسهم اشترك معهم فيها الأتراك العثمانيون كشعب نظر إلى الحرب على أنها مهمته الأولى ، ونظر إلى أصوله الجنسية الأولى على أنها أنقى وأرقى من الأصول الجنسية للشعوب الأخرى ، فكان حفيظاً على هذه الأصول ، ضيقاً بالزواج من غير التركيبات العثمانية . ونظر إلى الشعوب الأوروبية المسيحية نظرة ازدراء ، ونظر إلى الشعوب الإسلامية نظرة استعلاء .

---

(١) محمد جميل بيم . فلسفة التاريخ العثماني . كيف نشأت وارتقت السلطة العثمانية وإلى أي حد بلغت عظمتها . بيروت ، ١٩٢٥ ، انظر فيه : مظاهر المنظمة في التقاليد والمعاملات ص ص ٢٩١ - ٢٩٥ .

(٢) كان من بين أحكام هذه المعاهدة إلغاء السيادة العثمانية على إقليم ترانسلفانيا ، وقيام العلاقات بين الدولة العثمانية والنمسا على قدم المساواة .

### سياسة الدولة تجاه الولايات الأوروبية المسيحية :

وقد أدى هذا الاستعلاء في خلق العثمانيين إلى نتيجة طبيعية هي عزلة اجتماعية عاش فيها العثمانيون بعيدين عن الشعوب الأوروبية التي خضعت لهم. وكان العثمانيون أقلية عددية بالنسبة للسكان أصحاب البلاد الأصليين . وقد أدت هذه العزلة الاجتماعية بدورها إلى نتيجة أخرى هي عدم التزاوج بين الأتراك العثمانيين وبين سكان البلاد الأوروبية المفتوحة. ويلاحظ أن الإسلام يبيح زواج المسلمين من الكنائيات ، ولكن الأتراك أو الغالبية الساحقة جداً منهم لم يقبلوا على الزواج منهم . وكان موقفهم من المسيحيات شبيهاً بموقفهم من المسلمات في الولايات الإسلامية . وقد أصبحت هذه الظاهرة وهي عدم الاتصال الجنسي الشرعى بين الفريقين تقليداً حرص عليه العثمانيون وارتاحوا إليه ارضاء للزعة الاستعمارية التي كانت تغمر نفوسهم ، وبالتالي لم يحدث ما يمكن أن نطلق عليه « تبرك جنسى » للشعوب الأوروبية التي دانت لهم . وكان عدم نشر اللغة التركية بين هذه الشعوب هو الحصيلة النهائية للاستعلاء والازدراء والعزلة الاجتماعية وعدم التزاوج وعدم الانصهار وعدم الامتزاج بين الفريقين ، لأن الدولة لم تعمل على توفير الجو الصحى لانتشار اللغة التركية ، فظلت الشعوب الأوروبية التي خضعت للعثمانيين محافظة على لغاتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها وديانها في الأعم الأغلب وغير ذلك من مقومات حضارتها . ومن هنا كان الأثر الحضارى للعثمانيين في تلك الشعوب الأوروبية قليلاً للغاية ، ومن هنا أيضاً كانت الشعوب الأوروبية لا تدرك لهم ثقافياً أو حضارياً. يقول المؤرخ الإنجليزي فيشر Fisher H. A . « إن العثمانيين لم يقيموا للحضارة الأوروبية وزناً ، ولم يدركوا قيمتها يوماً من الأيام ، ولذا عاش العثماني غريباً أجنبياً في أوروبا ، لانصيب له في تقاليدها ، ولا يتعدى تفكيره في لزوميات الحكم الإمبراطورى مبادئ الأوليجاركية - أى حكومة الأقلية - الاستثنائية ، وهي المبادئ التي

تعتمد على الرقيق ، وتنظر إلى البشرية المحيطة بها كأنها لا تصلح إلا للاسترقاق والعبودية والتبعية » (١) .

وللى جانب انعدام وحدة اللغة ووحدة الفكر ووحدة الثقافة بين الحاكمين والمحكومين لم تكن هناك وحدة في الطقوس أو الأعياد أو التقاليد أو المثل أو غير ذلك من مظاهر الوحدة الاجتماعية ، وبعبارة أخرى لم تكن هناك عناصر حضارية واحدة تربط بين العثمانيين وبين تلك الشعوب الأوروبية . وكانت نتيجة ذلك أن الشعوب الأوروبية التي خضعت للعثمانيين لم تتجاوب بشعور واحد مشترك بالولاء للسلطان العثماني .

والحق أن « الوجود » العثماني في أوروبا قد عجز عن أن يثبت جنوراً تمده بالعناصر التي تحفظ عليه حياته حين بدأ الضعف يتسلل إلى الدولة . فلما زال هذا « الوجود » العثماني من أوروبا لم يخلف من بعده أثراً ذا بال سوى بصمات باهتة في بعض الأقاليم البلقانية . ومضت الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في البلاد الأوروبية التي دانت لحكم العثمانيين في مسارها العادي دون أن تشعر الجماهير أن زوال هذا السيد التركي المسلم الوافد عليها ، قد أعاق استئناف مسيرتها ، أو أن اختفائه قد أدى إلى تغييرات جلية في حياتها ، سوى تخلصها من حكم إسلامي كانت تنظر إليه شلراً ويضيق صدرها به .

#### سياسة الدولة تجاه الولايات الإسلامية :

كانت سلبية العثمانيين في البلاد الإسلامية التي استولوا عليها تضارع سلبيتهم في الأقاليم الأوروبية التي دانت لهم . فلم يحاولوا صيغ الولايات الإسلامية بالصيغة العثمانية . وكانت تلك السلبية ترجع إلى ذات السببين أو العاملين اللذين تكلمنا عنها ونحن نعرض السياسة العليا للدولة تجاه ممتلكاتها الأوروبية ، وهما سطحية الحكم العثماني والاستعلاء . وقد حال هذا

(١) فيشر هيررت : تاريخ أوروبا في المصور الوسطى . ترجمة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة وزميله . قسطنطين . دار المعارف . القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع ، القسم الثاني .

الاستعلاء الذى تعددت مظاهره دون قيام تقارب بين الحكام والمحكومين وجعل العثمانيين يعيشون بمنأى عن الشعوب الإسلامية ، ولولا الوشيجة الدينية التى كانت تربط بين الفريقين بعروة وثقى ، ولولا المذهب السنى الذى كان يوحد بينهما لكان التباعد بينهما تاماً . ولكن المجتمعات فى ذلك الوقت كانت مجتمعات دينية إسلامية . وكان الدين عاملاً هاماً فى تكوين عواطف الجماهير ، وبالتالي فى التخفيف من حدة هذا التباعد بين العرب والأتراك العثمانيين .

ومما هو جدير بالذكر أن السلطان سليم الأول فى أثناء إقامته فى القاهرة والى امتدت زهاء ثمانية أشهر بعد دخوله العاصمة فى اليوم الثالث من شهر محرم سنة ٩٢٣ حتى مغادرته لها فى اليوم الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة ٩٢٣ (٢٦ يناير - كانون ثان) إلى ١٠ سبتمبر - أيلول - ١٥١٧ - فى طريقه براً إلى إستانبول - قد ترامت إلى مسامعه أن الأتراك العثمانيين قد أقبلوا على الزواج من أرامل المماليك الذين لقوا حتفهم فى المعارك الرهيبة التى دارت بين الأتراك العثمانيين والقوات المملوكية . فأصدر أمراً إلى العثمانيين بالكف عن الزواج منهم ، كما أصدر أمراً عاماً إلى جميع قضاة مصر - ولم يكن النظام العثمانى قد نفذ بعد فى مرفق القضاء - بأن يمتنعوا عن عقد مثل هذه الزيجات (١) . فانصرف الأتراك العثمانيون إلى الزواج من المصريات . واثارت ثائرة السلطان سليم الأول ، وأصدر أمراً توعده فيه بالنشت كل عثمانى تسول له نفسه الزواج من مصرية . يقول ابن إياس - وكان لا يزال معاصراً لهذه الأحداث . « وفى يوم الأربعاء الرابع من هذا الشهر (جمادى الآخرة سنة ٩٢٣ ) ( ٢٤ يونيو - حزيران - ١٥١٧ ) ونادى السلطان فى عسكره أن كل من كان متزوجاً بأمرأة من نساء أهل مصر يطلقها ، وإلا يشنق من غير معاودة ، فمنهم من طلق زوجته ، ومنهم من أبقاها فى عصمته (٢) . ومنذ ذلك الوقت غدا عدم زواج الأتراك العثمانيين بالمصريات وغيرهن من سيدات الشعوب الإسلامية التى خضعت لهم تقليداً حرص عليه

(١) ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، تحقيق ونشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى ج ، ص ١٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .



العثمانيون وارتاحوا له بمضى الزمن لإرضاء للنزعة الاستعمالية التي كانت تغمر نفوسهم .

وعلى غرار ما حدث في الولايات العثمانية في أوروبا انتهجت الدولة العثمانية نفس السياسة في الولايات الإسلامية من حيث عدم الاندماج وعدم الانصهار بين الأتراك العثمانيين وأهالي الولايات الإسلامية. ولم يحدث ترك تركي جنسي لهذه الشعوب الإسلامية . وانكششت اللغة التركية على نفسها في مصر وفي غيرها من الولايات الإسلامية. فلم تكن تستخدم إلا في دواوين الحكومة — وكانت قليلة العدد — ولا يتحدث بها إلا الأتراك العثمانيون فيما بينهم ، وكانوا قلة بالنسبة لتعداد السكان . وكانت السلطات العثمانية تعتمد إلى ترجمة فرمانات الهامة والأوامر الحكومية إلى اللغة العربية ، وتتل في المساجد الكبرى وفي الأسواق والقياسر وغيرها من أماكن التجمعات الجماهيرية، أو يطوف بها المشاعلية كرجال إعلام<sup>(١)</sup>. وهكذا تعددت مظاهر العزلة الاجتماعية بين الفريقين . وقنعت الدولة بالجزية السنوية ترسل إليها من كل ولاية ماعدا لإقليم الحجاز<sup>(٢)</sup> وبذكر اسم السلطان مقروناً بالدعاء له على منابر المساجد في

(١) المشاعلية مصطلح تاريخي له عدة مدلولات في العصر العثماني :

أولاً : للرجال الذين يطوفون الشوارع والحدائق يذيمون الأوامر والأنباء الحكومية الهامة. وكان يطوف في معظم الأحيان أربعة من المشاعلية ممّا ينادي اثنان منهم باللغة التركية واثنان باللغة العربية ، وفي بعض الأحيان كان يطوف اثنان فقط من المشاعلية ممّا أحدهما ينادي باللغة التركية ، والآخر باللغة العربية . وكان المشاعلية يسرون في العادة لبلا يحملون المشاعل. ومن هنا جاءت تسميتهم للمشاعلية . وكانوا يسمون أيضاً الشوية نسبة إلى الضوء .

ثانياً : السيفاء والجلادون وهم الذين يتغلون أحكام الشق والجلد. وجرى العادة على أن يكون المشاعل الذي يقوم بهذه المهمة يهودياً عثمانيّاً أو مسيحياً عثمانيّاً .

ثالثاً : المشغلون بالحرف الذهبية مثل زح الآبار والخمائم والنجارى

ابن لباس ، مصدر سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ١٤٠ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٩ ، ٣٢٩ ،

٣٦٢ — ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٣٨٨ .

(١) كان من بين الامتيازات المقررة لهذه الولاية إعفاؤها من أداء الجزية ، وأن ترسل إليها كل عام الإيرادات المالية والتمنية التي تغلها الأوقات المرسودة على الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة والأشراف والقائمين على خدمة الأماكن المقدسة هناك وعلى الفقراء المقيمين في هذه البقاع . ولما جاء السلطان سليم الأول إلى مصر أمر بالإبقاء على هذا الامتياز بشقيه : الإعفاء من أداء الجزية وتقديم إيرادات الأوقاف مع تميزها .

خطب أيام الجمعة والأعياد ، وبالعملة تضرب باسمه ، وبوال عثمانى نائباً عن السلطان في كل ولاية وهو يحمل رتبة الباشوية أو البكوية ، ويحمل ثلاثة أطواخ أو طوخين<sup>(١)</sup>، وبقوة عسكرية عثمانية ترابط في البلاد ويطلق عليها أهل الولاية اسم « الحامية العثمانية » . وكان حصاد هذه السياسة أن احتضمت الشعوب الإسلامية وهي في ظل الحكم العثماني بلغتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها وغيرها من عناصر حضارتها . وكانت من أهم المقومات التي استندت إليها حركة القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر .

ومن الملاحظات ذات المغزى العميق والتي ذكرها نابليون الأول في مذكراته التي أملاها وهو في منفاه بجزيرة سانت هيلانة على الجنرال برتران Bertrand قوله إنه لما جاء إلى مصر قائداً عاماً للحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ وجد أن المصريين لا يتكلمون اللغة التركية ، وأنهم يجهلون ، وأن هذه اللغة كانت غريبة عليهم كما كانت اللغة الفرنسية غريبة عليهم سواء بسواء<sup>(٢)</sup> .

### دراسة مقارنة بين الفتوح العثمانية والفتوح الإسلامية العربية :

يجرنا هذا الموضوع إلى عقد دراسة مقارنة بين حركة الفتوح العثمانية وحركة الفتوح الإسلامية العربية التي قامت بها حكومة الخلفاء الراشدين في المدينة المنورة ، ثم حكومة الأمويين في دمشق ، ثم حكومة العباسيين في بغداد . فإلى جانب السلبية المطلقة التي اتسمت بها سياسة الدولة العثمانية من حيث عدم محاولة عثمنة الشعوب الأوروبية والإسلامية التي دانت لها ، نجد السياسة الإيجابية النشيطة في السياسة العليا للدولة الإسلامية — تخطيطاً وتنفيذاً ومتابعة — لتعريب الشعوب التي فتحت بلادها في العراق والشام

(١) سنعرض لشرح هذا اللفظ في ص ٣٦٤-٣٦٦ في الفصل الثاني عشر عند الكلام على الوزراء .

(٢) Napoléon Ier, Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie (1798- 1799.) Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui-même à Sainte Hélène et publiés par Général Bertrand. Paris, 1847 2 vols. t II. 151.

ومصر وشمال إفريقيا وإسبانيا وغيرها<sup>(١)</sup>، ثم اتخذ الوسائل السلمية لنشر الإسلام نشرًا هادئًا بعيداً في معظم الحالات عن العنف أو الإكراه .

### الفروق بين الفتوح العثمانية والفتوح الإسلامية العربية :

أولاً : إن الفتوح الإسلامية العربية والفتوح العثمانية قامت بها دولتان إسلاميتان ابتغت كل منهما على نحو من الأنحاء نشر الإسلام في الاتجاهات التي رسمتها ظروف كل منهما . وقد كان واضحاً وملحوظاً وبارزاً أن نشر الإسلام كان هدفاً رئيسياً من فتوحاتهما . وفي حالة الدولة العثمانية نجد أن فتوحاتها في الأقاليم المسيحية قد تمت باسم الإسلام . وكانت الدولة العثمانية عقب نجاحها في فتح إقليم مسيحي هام أو مدينة مسيحية ذات أهمية كبرى تبعث الرسل إلى حكام العالم الإسلامي وإلى الشعوب الإسلامية تزف إليهم وإليها أنباء الانتصارات الحربية في تلك الأقاليم . ونذكر على سبيل المثال ما فعله في هذا الصدد السلطان محمد الثاني حين فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية عام ١٤٥٣ وحول اسم العاصمة إلى إستانبول ومعناها دار الإسلام . وجاء إلى القاهرة مبعوث من لدن السلطان العثماني<sup>(٢)</sup> في تلك السنة<sup>(٣)</sup> لإبلاغ إبنال سلطان دولة المماليك الشراكسة الحاكم وقتذاك ( ١٤٥٣ - ١٤٦٠ ) أنباء هذا الانتصار الإسلامي الحربي الخطير . فأمر السلطان إبنال

---

(١) يستثنى من هذه القاعدة من قواعد الحكم الإسلامي خارج الجزيرة العربية : بلاد فارس التي قبلت الإسلام ديناً ، ولكنها احتفظت بصيغتها الفارسية لأسباب ليست هذه الدراسة مجالاً لشرحها .

(٢) يطلق ابن إياس عليه المصطلح التاريخي ، فيقول « وصل قاصد ملك الروم محمد بن عثمان » ويطلق على القسطنطينية اسم القسطنطينية العظمى .

ابن إياس : نشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى بعنوان صفحات لم تشر من بدائع الزهور في وقائع الدهور من سنة ٨٥٧ إلى ٨٧٢ ( ١٤٥٣ - ١٤٦٨ ) ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٥ .

(٣) بلغ القاهرة في يوم السبت ٢٣ من شوال ٨٥٧ ( ٢٧ من أكتوبر - تشرين أول - ١٤٥٣ ) ، وأقام في القاهرة شهراً وغادرها يوم السبت ٢٢ من ذي القعدة ٨٥٧ ( ٢٤ من شهر نوفمبر - تشرين ثانياً - ١٤٥٣ ) .

بإقامة الزينات في الأسواق والطرق وإيقاد الشموع في الشوارع وعلى المآذن، ودق البشائر السلطانية في القلعة عدة أيام (١).

ثانياً : إن القوات الإسلامية العربية فتحت أقاليم لم يكن سكانها يتكلمون اللغة العربية . وفتحت القوات العثمانية بلاداً لم يكن أهلها يتحدثون اللغة التركية . فوقف كل من الدولة الإسلامية العربية والدولة العثمانية كان متشابهاً من هذه الناحية .

ثالثاً : إن القوات الإسلامية العربية كانت تمارس عملياتها الحربية في بلاد لم يكن أهلها يدينون بالإسلام . أما القوات العثمانية فارست نشاطها الحربي في ميدانين متباينين أشد التباين : الأقاليم المسيحية في الأناضول والأقاليم الأوروبية في البلقان وشرقي أوروبا ووسطها . وكان سكانها لا يعتقدون بطبيعة الحال الدين الإسلامي . وفي ذات الوقت غزت بلاداً إسلامية كان أهلها يدينون بالإسلام . وكانوا يعتقدون المذهب السني فيما عدا بلاد الدولة الصفوية في فارس . وكان العثمانيون قد أقاموا من أنفسهم حاة للمذهب السني في العالم الإسلامي . وفي الميدان الأخير كانت الدولة العثمانية تحارب في جو صهي ، وفي يدها ورقة رابحة . ومع ذلك فلم تقم — أو لم تحاول — التغلغل في حياة الشعوب الإسلامية ابتغاء صبغها بالمصبغة العثمانية . أما الفاتحون المسلمون العرب فقد واجهوا في صدر الإسلام الموقف الشائك الصعب بسياسة مرسومة لتعريب الشعوب التي دانت لهم وتشجيعها على اعتناق الإسلام طوعاً عملاً بالآية القرآنية الكريمة « لا إكراه في الدين » وتابعوا في إصرار تنفيذ هذه السياسة العليا المزدوجة .

اندفع المسلمون العرب في موجات بشرية متلاحقة من قلب الجزيرة

---

(١) أبو الحسن : جمال الدين بن يوسف بن تغري يردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ص ص ٤٣٦ - ٤٣٨ .

الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر . مرجع سبق ذكره ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية . المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو - آيار - ١٩٥١ ، ص ص ١٩٧ - ٢٢٨ .

العربية إلى خارجها في أعقاب الفتوح الإسلامية لينتسروا فوق الرقعة الفسيحة الممتدة من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي ثم استداروا مهاجرين حتى مصب نهر السنغال في الوقت الذي عبرت فيه بعض البطون العربية إلى إسبانيا واستقرت فيها وصبغت بالصبغة الإسلامية العربية التي ظلت تلازمها أحقاباً وأدهاراً وأعصراً .

وطبقاً للمخطط الإسلامي العربي وضعت الدولة الإسلامية العربية أول الأمر قيوداً على اختلاط الجنود بأهالي البلاد الأصليين ، فأقامت لهم مهاجر ، كانت عبارة عن مدن جديدة أو معسكرات في البصرة والكوفة في العراق ، وفي بعض الأجناد في بلاد الشام ، وفي القسطنطينية في مصر ، وفي القيروان في تونس ، وفي بعض المراكز العسكرية في بلاد المغرب الأقصى . وكانت السياسة العليا للدولة الإسلامية في أول عهدها هي الاعتماد على العنصر العربي وحده في الفتوح الإسلامية ، فالعرب هم عدة الحرب ، وهم وقود الجهاد . ولذلك كان من الأهمية بمكان أن يظل العنصر العربي محتفظاً بامتيازاته العسكرية كاملة ، وأن تظل شعلة الحماسة فيه متقدة لا تنجو . ولذلك حيل بين الأجناد العرب وبين الاشتغال بالزراعة . وكانت الدولة لا تجند في الجيش إلا العرب وتعين لهم الأرزاق والأعطيات للإنفاق على عائلاتهم . ولكن بمضي الوقت لم تستطع الدولة المضي في هذه السياسة بسبب زيادة الأعباء المالية على بيت المال ، ولأن الأوضاع الإسلامية العربية في البلاد المفتوحة كانت قد استقرت إلى حد بعيد . فبدأت الدولة الإسلامية في العصر الأموي ترفع تدريجياً هذه القيود عن الجنود العرب المدونين ، فانطلقوا إلى حيازة الأرض والاشتغال بالزراعة إلى جانب حصولهم على العطاء من بيت المال . وعلى ذلك غادر هذا الفريق من الجنود العرب مراكز تجمعاتهم في المعسكرات والمدن الكبرى وأقاموا في المناطق الزراعية وبعثوا إلى ذويهم في الجزيرة العربية يطلبون منهم القدوم إلى موطنهم الجديد<sup>(١)</sup>.

(١) دكتور حسن أحمد محمود : المجتمع العربي . القاهرة ، ١٩٦٠ ، الباب الثاني.

تكوين المجتمع العربي . ص ١٥ - ٤٣ .

فحدث نوع من الاقتراب بين العرب والمهاجرين وبين أهالى البلاد المقيمين فى تلك المنطقة . واشتد هذا الاقتراب فى القرن الثانى الهجرى ومطلع القرن الثالث ( الثامن الميلادى وبعض التاسع ) حين ألغت الدولة الامتيازات التى كانت تعطى للعسكريين وفرضت عليهم الضرائب أسوة بغيرهم . وقد أدت هذه الإجراءات فى النهاية إلى انسياح العرب فى المناطق الزراعية واشتغالهم بالزراعة واختلاطهم بالسكان الأصليين والتزاوج معهم مما أدى إلى نتائج خطيرة من حيث التكوين الإثنوجرافى للدرارى هؤلاء السكان ونتائج أخرى خطيرة دينية ولغوية ، كان لها آثارها البعيدة فى الأقاليم التى فتحها العرب .

### الارتباع :

غير أن المسلمين العرب لم يتقبلوا تماماً أول الأمر بهذا المخطط الذى كان أحد أركان السياسة العليا للدولة الإسلامية ، فقد بدأت طلائع الاقتراب بينهم وبين أهالى البلاد فى زمن مبكر جداً يرجع إلى أول عهد الفتوح الإسلامية الكبرى . وكان الارتباع هو أحد المسارب الأولى التى لجأ إليها الجنود العرب فى البلاد التى فتحوها . فى مصر على سبيل المثال كان الولى يأذن لهم عند حلول فصل الربيع بمغادرة تجمعاتهم فى مدينة الفسطاط والتحرك داخل البلاد للإصابة من خيراتها ، فينطلقون بصطادون ، ويشربون اللبن الذى يقدمه المصريون إليهم ، ويأكلون الخراف التى يحصلون عليها منهم ، ويطلقون خيولهم ترعى فى حقول البرسيم لتسمن وتقوى ، وليس بخاف أن سلاح الفرسان كان يشكل القوة الرئيسية فى الجيش الإسلامى العربى . وأطلق على هذه العملية نظام الارتباع ، لأنها تم إذا أقبل فصل الربيع وتستمر طيلة شهور الربيع الثلاثة ، حتى إذا جاء الصيف عادت القبائل العربية إلى الفسطاط . وكان الارتباع نوعاً من العطلة والاستجمام من مشاق القتال . ولكنه لم يكن يتم كيفما اتفق ، بل وضع له منذ اللحظة الأولى نظام مرسوم ، فكان يراعى أن ترتبع كل قبيلة فى مكان مخصص لها يسمى المرتبع لا يتغير كل سنة . ويلاحظ أن الجيش الإسلامى العربى كان منظماً على أساس قبلى ، بمعنى أنه كان يراعى فى تكوين الكتيبة أن تكون من أفراد

قبيلة واحدة ، فإذا لم يتوافر العدد المطلوب كان يتمتكل عددها من أفراد قبيلة أخرى متقاربة . وعلى الرغم من أنه كان يترك للكتيبة اختيار المنطقة التي تفضل الارتباع فيها ، سواء في الدلتا أو في الصعيد ، فإن الوالى كان يصدر أمراً كتابياً يحدد فيه القرية التي تذهب إليها الكتيبة وكميات اللب التي يسمح لها بالحصول عليها من المصريين . وكان عمرو بن العاص والى مصر يوصى جنوده عند حلول موسم الارتباع بأن يحسنوا معاملة الأقباط عند ما يتصلون بهم في فترة الارتباع . وكان يصدر أوامر صريحة ومشددة بأن يكفوا أيديهم عن أموال الأقباط . وكانت من أهم مناطق الارتباع — أو المرتبعات كما تسمى — منف ، الحوف الشرقى ، منف ، الفيوم ، البنسا ، أناسيا ، وهى مناطق تتمتع بخصوبة أرضها إلى جانب متاخمتها للصحراء حيث كان يتهاى للجنود العرب عديد الفرص للصيد وتدريب الخيول مع الإقامة في جو قريب من جو البادية . ويلاحظ أيضاً أن المرتبعات كانت تركز حول القسطنطين أو على مقربة منها (١).

وكان نظام الارتباع بمثابة هجرة داخلية تتجدد كل سنة وتتحرك من التجمعات العسكرية الإسلامية العربية وتتغلغل في أعماق الريف المصرى وتتهيء عديد الفرص للاتصال المباشر بين العرب الفاتحين وأهالى البلاد . وكان الارتباع هو أقدم أشكال الاتصال بين العرب وسكان البلاد، وبعد اللبنة الأولى في تعريب المصريين . وليس أدل على ذلك من أن قبائل بعينها انتهى بها الأمر إلى اتخاذ مرتبعاتها أماكن للإقامة الدائمة بعد أن تركت القسطنطين نهائياً .

#### الرباط :

لم يكن الارتباع هو الوسيلة الوحيدة التي اقترب بها الجنود المسلمون العرب من سكان البلاد واختلطوا بهم . فقد كانت هناك وسيلة ثانية هى

(١) دكتور عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة. الناشر : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ ، صص ٤٥-٤٩ .

الرباط (١). ونعني بهذا المصطلح العسكري العربي مرابطة جزء من القوات الإسلامية العربية في الثغور والسواحل بصفة دائمة . فقد تطلبت المحافظة على وضع مصر كجزء من دولة الإسلام توزيع قوات الجيش الإسلامي العربي بين القسطاط والإسكندرية وسائر الثغور والسواحل المصرية مثل رشيد والبرلس ودمياط وأشتوم والعريش وغيرها . وكان يطلق على هذه المناطق العسكرية اسم المواخير (٢). ولم تكن هذه القوات تقيم في معسكرات خاصة بها أو في مدن مقفولة ومخصصة لها مثل القسطاط ، ولكنها كانت تقيم في مساكن الأهلين العادية .

وكان عمرو بن العاص هو الذى وضع التنظيم الأساسى للرباط بعد أن فرغ من العمليات التى انتهت بفتح مصر ، فخصص ربع قواته للمرابطة في الإسكندرية وحدها، والربع الآخر للمرابطة في سائر السواحل المصرية ، أما النصف الباقى فقد استبقاه في القسطاط . وبمضى السنين تزايد عدد القوات الإسلامية في مصر نبغت القوة المرابطة في الإسكندرية وحدها سنة ٤٤ هـ ( ٦٦٤ م ) على عهد الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان اثني عشر ألفا ، أى ما يساوى عدد الجيش الذى فتح مصر كلها سنة ٢٠ هـ ( ٦٤٠ م ) . وكانت القوات المرابطة يستبدل بها غيرها مرة كل ستة شهور صيفاً وشتاء (٣). ولا ريب أن إقامة أفراد هذه القوات بين أهالى البلاد أدت إلى اقترابهم منهم ثم اختلاطهم معهم . وإذا كانت حركة الارتباج لم تعتمد إلى ثغور مصر لبعدها من جهة ، ولعدم صلاحيتها لأنها ليست ريفاً من جهة أخرى، إلا أن

---

( ١ ) الرباط تجمع ربط يضم كل من الرءاء والباء .

( ٢ ) المواخير جمع ماحوذ ، وهو الموضع الذى يكون بين القوم وبين علوهم ، وهو مصطلح يستعمله أهل الشام ومعناه الحدود .  
أنظر :

دكتورة سيدة إسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية ، الطبعة الثانية ، الناشر دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٧١ ، حاشية رقم ٣ .

( ٣ ) دكتور عبد الله خورشيد البرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩ - ٥٠ .



مرابطة هذه الأعداد الهائلة من القوات العربية في الثغور منذ الأيام الأولى للفتح وأسلوب استيطانها كانا لها أثرهما في تعريب هذه الثغور ، فالرباط قام تقريباً بديات الدور الذي أداه الارتباع .

### الليوانات :

كانت اتفاقيات الصلح تنص على تحويل العرب الفاتحين حق الضيافة على سكان البلاد الأصليين إذا نزلوا قراهم وأحياءهم . وتستمر هذه الضيافة ثلاثة أيام كان على المصريين خلالها القيام بجميع واجبات الضيافة نحو العرب<sup>(١)</sup>. وقد نظمت مسألة الضيافة ، فكان أهالى كل قرية يخرجون من زمامها الذى سيقدر الخراج على أساسه عدداً من الأفدنة ينفق ريعها على المرافق العامة مثل الكنائس والحمامات والمعديات ولضيافة المسلمين<sup>(٢)</sup> والعبارة الأخيرة تشمل موظفى الولاية وأفراد الجيش العربى . وكان المسلمون ينزلون فى الليوان أو الإيوان ، وهو المضيقة أو قاعة الاجتماعات التى لاتزال تحيط بالكنيسة فى كثير من قرى الصعيد والدلتا<sup>(٣)</sup>. ويلاحظ أن رصد اعتمادات مالية للإتفاق على الضيوف المسلمين دليل على أن هذه الضيافة كانت ظاهرة عامة مألوفة فى المجتمع المصرى فى ذلك الوقت. وسواء كان العربى ينزل ضيفاً على المصرى فى بيته الخاص أو فى المضيقة العامة فقد كانت هذه الضيافة نوعاً من أنواع الاتصال كان لها أثرها فى حلوث التقارب ثم الاختلاط بين العرب والمصريين<sup>(٤)</sup>.

وعلى ذلك لم يكن اختلاط العرب بالمصريين مقصوداً على الممدن وحدها وإنما امتد إلى جوف الريف . ويقول أحد الباحثين الفرنسيين إن العرب هم

---

(١) ابن عبد الحكم : عبدالرحمن بن عبادته : قرح مصر وأخبارها ، ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(٣) دكتور عبد الله خورشيد البرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٠ - ٥١ .

(٤) نفس المرجع السابق ونفس الصفحتين .

الذين اختلطوا بالمصريين أكثر من اختلاط المصريين بالعرب<sup>(١)</sup>. والحق أن عمليات الاختلاط قامت من الجانبين : العرب الوافدين والمصريين المقيمين في بلادهم . فكانت هذه العمليات في واقع الأمر قوة استقطاب ضخمة ذات محورين : فالعرب استقطبوا المصريين جنسياً ولغوياً ودينياً وثقافياً . والمصريون استقطبوا العرب اجتماعياً ثم حضارياً أول الأمر . وكانت المحصلة النهائية تعريب مصر وتجديد دماء المصريين دون أن يتعرضوا للفناء أو التلاشي<sup>(٢)</sup> . وظاهرة تعريب مصر ظاهرة نادرة نادرة خارقة ، فصر القرونية التي سيطرت على مناطق كثيرة في الشرق الأوسط ونجحت في تصدير حضارتها المادية لم تستطع أن تمتد لغتها خارج حدودها ، في حين أن العرب الذين جاءت سيطرتهم الحربية فجأة ولم يكن لهم في ذلك الوقت رصيد من الحضارة المادية خارج نطاق الدين واللغة استطاعوا أن يفرضوا لغتهم حيناً ذهبوا . أما الأتراك العثمانيون فقد أخفقوا في نشر اللغة التركية حتى على الشعوب التي خضعت لهم عسكرياً وسياسياً<sup>(٣)</sup> . وما ينطبق على مصر ينطبق على سائر الأقاليم التي فتحتها المسلمون العرب باستثناء فارس ، كما سبق أن ذكرنا ، فقد نجح العرب في فارس دينياً وأخفقوا لغوياً .

ومع ذلك فهناك اتجاه بن فريق من المؤرخين المحدثين لا يخلو من رأى شديد، يقول إنه بجانب الأجناد العرب الذين وقع عليهم عبء الفتوح الإسلامية والاشتغال بالسياسة والإدارة ، وفدت قبائل عربية في خلال الخمسين سنة الأولى من تاريخ الإسلام إلى العراق وفارس والشام ومصر والمغرب والأندلس وغيرها من أجزاء الدولة الإسلامية حيث انتشر عشرات الألوف

---

Chantre B., Recherches Anthropologiques dans l'Afrique  
Orientale, Egypte, 1904, pp. 302 - 303

(١)

(٢) محمد المزب موسى : رحلة تاريخ مصر الباشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،  
بيروت آذار (مارس) ١٩٧٢ ، ص ١٨٨ .

(٣) دكتور جمال حداد : شخصية مصر . دراسة في عبقرية المكان . الناشر دار الهلال ،  
القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٢ .

من أفراد هذه القبائل . وكانت الأرض واسعة وفي رحابها متسع لأولئك العرب المهاجرين . وإذا كان عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين قد حرم على جند العرب الملون الاشتغال بالزراعة أو الانصراف إلى مطلب آخر من مطالب الحياة ، إلا أن هذا المنع لم يمتد إلى العرب عامة ، لأنه من غير الطبيعي ومن غير المعقول أن يحرم عمر العمل على عربي عادى هاجر بنفسه وأهله إلى بلد كصر ليرتزق ويعيش . والعرب الذين انتشروا في أجزاء دولة الإسلام لم يكونوا جميعاً جنوداً مدونين . وكانت النتيجة أن وجدت في مصر والعراق والشام وغيرها من بقاع دولة الإسلام جماعات عربية مدنية هي التي اشتغلت بالزراعة والضرع وشئون المعاش دون أن يكون في ذلك مخالفة لأمر عمر . وهذه الجماعات هي <sup>١</sup> انبثت من أول الأمر بين الأهليين في كل ناحية واختلطت بهم ، وهي صاحبة الفضل الأكبر في عمليتي التعريب ونشر الإسلام . وجدير بالذكر أن هؤلاء العرب سواء الذين اشتغلوا بالعلم أو بطلب المعاش والزراعة لم يتخلوا عن عربيتهم أو اعتزازهم بها ، بل خالطوا الناس محفظين بشعورهم العربي ، وتزاجوا معهم ، وأورثوا أولادهم أرومتهم العربية . فأولاد العرب خرجوا إلى الحياة عرباً مدابحين تكلموا العربية ، وكل منهم كان لا يزال في المهد صبيّاً ، ومن ثم زاد تعدادهم . وكانت لهم امتيازات مادية ومعنوية بحكم الدين والأصل واللغة ، وكانت هذه الامتيازات مما حبيب إلى الناس الانتداب إليهم ودخول الإسلام واتخاذ اسماء عربية ، بل اصطناع ألقاب عربية (١) .

وكانت أمام العرب المدنيين الذين وفدوا من الجزيرة العربية إلى أجزاء دولة الإسلام عديد الفرص للاتصال بأهالي البلاد اتصالاً مباشراً ، إذ كان هؤلاء العرب ، ومعظمهم من العرب اليمنية ، ذوي خبرة بالأعمال الزراعية وصناعة المنسوجات وبناء السفن وغير ذلك من ضروب النشاط الصناعي

(١) انظر بحثاً عميقاً وشاملاً للأستاذ الدكتور حسين مؤنس بعنوان « تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون » في المجلد الثاني من تاريخ الحضارة المصرية. نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي ( بدون تاريخ الطبع ) ٤ ص ص ٣٢٣ - ٤١٧ .

الإمبراطورية يستغل نفوذه لمصلحته الشخصية أسوأ استغلال معتمداً على مصاهرته للأسرة السلطانية .

### منصب الصدارة العظمى بين الأحرار والعبيد :

وحتى فتح القسطنطينية كان منصب الوزير الأول يشغله مسلمون أحرار (١). فقد عين السلطان أورخان بن عثمان الأول (١٣٢٦ - ١٣٦٠) أخاه الأمير علاء الدين فى هذا المنصب ، واكتسب علاء الدين شهرة واسعة . كما اشتهرت فى تاريخ الدولة العثمانية أسرة إسلامية هى أسرة چاندارلى (٢) Gandarli تولى أفراد منها من وقت لآخر لمدة أربعة أجيال ذلك المنصب (٣). وكان رابع أفراد هذه الأسرة ، ويسمى خليل باشا-يشغل ذلك المنصب وقت فتح القسطنطينية . وكان تعيين مسلم حراً فى منصب رئيسى فى نظام الحكم أمراً شاذاً . ويقال إن السلطان محمد الفاتح قد ساورته المخاوف من النفوذ الواسع الذى بلغته أسرة چاندارلى ، وشك فى قيام تواطؤ بين خليل باشا والبلاط البيزنطى ، واتهمه بالخيانة العظمى وأعدمه فى ذات السنة التى تم فيها فتح القسطنطينية . واتجه تفكيره إلى إلغاء منصب الوزير الأول كلية والاستغناء نهائياً عن خدماته اتقاء للشبهات التى تحوم حول شاغل المنصب . وظل على رأيه ثمانية أشهر ، ثم رأى أن يجعل التعيين فى هذا

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part 1, p 109.

(٢) يرد اسم هذه الأسرة فى المراجع الإنجليزية والفرنسية فى صيغ مختلفة منها :

Gendereli, Genderli, Gandarli.

(٣) كان الوزراء الأربعة هم :

أ - قره خليل ، وقد عين حل عهد السلطان مراد الأول ( ١٣٦٠ - ١٣٨٨ ) .  
ب - ابنه حل ، وقد عين حل عهد السلطان أبى يزيد الأول ( ١٣٨٨ - ١٤٠٣ ) .  
ج - ابنه إبراهيم ، وقد عين حل عهد السلطان محمد الأول ( ١٤١٣ - ١٤٢١ ) .  
والسلطان مراد الثانى ( ١٤٢١-١٤٥١ )  
د - ابنه خليل ، وقد عين حل عهد السلطان مراد الثانى والسلطان محمد الثانى ( ١٤٥١ - ١٤٨١ )

١ ( م - ٢٤ الدولة العثمانية )

المنصب مقصوراً على القولاى أى طبقة العبيد . وفلا عين فى منصب الوزىر الأول رجلا من هذه الطبقة . هو محمود باشا عدنى (١) . ومنذ مطلع سنة ١٤٥٤ أصبح الصلور العظام والوزراء يعينون من الموظفين العبيد (٢) .

### وزراء القبة :

استحدث السلطان محمد الثانى نظام وزراء القبة ، وهم وزراء يخضعون للصدر الأعظم ، ويجلسون إلى جانبه تحت سقف واحد أو قبة واحدة . ولذلك أطلق عليهم «قبة وزيرلى» ، أى وزراء القبة . وكان كل منهم يحمل لقب وزير وثلاثة أطواخ ، ورتبة الباشوية . وكان عددهم أول الأمر أربعة ثم ارتفع إلى ستة ثم زاد عددهم تباعاً فى القرن السادس عشر . وكانت أقدميتهم هى التى تحدد وضعهم فى البروتوكول العثمانى ، فىسمى أحدهم الوزير الثانى ، والآخر الوزير الثالث ، وهكذا .

وكان الاختيار يقع على أحد وزراء القبة - هو الوزير الثانى عادة - ليحل محل الصدر الأعظم فى أثناء تغيبه فى ميدان الحرب . وكان وزير القبة يسمى فى هذه الحال «قائمقام» ، ويتمتع بسلطات الصدر الأعظم . ويكون تعيينه قائمقاماً بمثابة ترشيحه للترقية إلى منصب الصدارة العظمى فى قابل الأيام . كما كان يعهد إلى وزراء القبة بقيادة الحملات العسكرية الصغيرة نسبياً . وكان يسمى فى هذه الحال «السرदार» . ويسير إلى الحرب ومعه قوات من سلاح المشاة من الإنكشارية وقوات من سلاح الفرسان من الخيالة الثابتة ، وينضم إليه فى الطريق الحكام المحليون مع قواتهم الإقطاعية وقوات خدمتهم الخاصة .

وكان الهدف من إنشاء نظام وزراء القبة ، كما خطط له السلطان محمد

---

(١) D'Ohsson, Ignatius Mouradjea, ; op. cit., t. vii, p. 152 .

(٢) خروجاً على هذه القاعدة العامة للدولة العثمانية وجدت حالة استثنائية واحدة حين أصدر السلطان أبو يزيد الثانى ( ١٤٨١-١٥١٢ ) ابن السلطان محمد الفاتح فرماناً بتعيين أحد أفراد أسرة چاندارلى ، وهو إبراهيم بن خليل ، فى منصب وزير أول ، وظل متقلداً هذا المنصب زهاء ثلاث سنوات ( ١٤٩٧-١٤٩٩ ) .

الفاتح ، هو الحد من سلطات الصدر الأعظم . ولكن لم يتحقق شيء مما كان يهدف إليه هذا السلطان . فقد أصبح وزراء القبة بمضى الزمن عنصراً قوياً من عناصر المؤامرات . وقد حاولوا أول الأمر أن يزيدوا من سلطاتهم ، ولكن كانت صلاحياتهم تقف حجر عثرة في سبيل تحقيق مطامعهم ، ومن ثم اتجهوا إلى المؤامرات والفساد التي لم تنقطع يوماً عن زعزعة سلطة الصدر الأعظم وتهديد الدولة بأعظم الأخطار . وقد ألغى نظام وزراء القبة كلية في أوائل القرن الثامن عشر .

### الباب العالى :

كانت المسائل الكبرى للدولة تبحث في القصر السلطاني . وفي ذات الوقت كان الصدر الأعظم يسكن منزلاً صغيراً أو متوسطاً خارج القصر . ورأى السلطان محمد الرابع (١) (١٦٤٨ - ١٦٨٧) أن ينحصر مبنى شاسعاً فخماً يقيم الصدر الأعظم وأسرته وخدمه وحرسه في أحد أجنحته ، وتخصص باقي الأجنحة لاجتماعات كبار موظفي الدولة يقومون فيها بتصريف مهامهم . وتم إنشاء هذا المبنى في سنة ١٦٥٤ فكان مسكناً رسمياً للصدر الأعظم ومقرّاً لديوان عام تبحث فيه مسائل الدولة باستثناء المسائل المالية التي كان لها مبنى خاص يسمى «دفتر دار قابيسى» أى «بوابة الدفتر دار» وكانت تضم جميع أقسام الإدارة المالية كما سترى في موطن قادم . وكان درويش محمد باشا الصدر الأعظم للسلطان محمد الرابع أول من سكن مبنى الباب العالى من الصدور العظام . وغدا اسم هذا المبنى «باشى قابيسى» ، أى بوابة الباشا ، «وبابى على» ، أى بوابة عليا ، ثم اكتسب اسم الشهرة في التاريخ وهو الباب العالى (٢)

---

(١) يقرر بعض الباحثين أن السلطان سليمان المشرع هو الذى أمر بتشييد المبنى ، وأنه أطلق على مجلس الوزراء الباب العالى، وأنه ضاعف مرتبات أعضائه ، وأنه أطلق على رئيسه لقب الصدر الأعظم .

أنظر :

محمد جميل يحم : فلسفة التاريخ العثماني ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٣ .  
(٢) يرى هامر أنه من المحتمل أن مصطلح بابى عالى كان يطلق من قبل على قصر السلطان ، ثم أصبح يستخدم للإشارة إلى المسكن الرسمي للصدر الأعظم ومقر السلطة الفعلية .

La Porte Sublime، ويرى بعض المؤرخين أن إنشاء الباب العالى كان دليلاً على أنه أصبح مركز الثقل السياسى فى الدولة (١) ، لأنه قبل إنشاء هذا الصرح كانت تبحث كل الشؤون العامة للدولة فى القصر السلطانى ، فعند الباب العالى هو مناط السلطة والمرجع الأعلى فى جميع شئون الدولة ، الداخلية والخارجية ، المدنية والعسكرية .

### المابين :

ظل الباب العالى على وضعه القيادى السياسى المتفوق حتى المبعينات من القرن التاسع عشر . ولما أصدر السلطان عبد الحميد الثانى فى اليوم الرابع عشر من شهر فبراير - شباط - ١٨٧٨ قراره المشهور بتعطيل الدستور وفض مجلسى المبعوثان والأعيان وتأجيل اجتماعاتها إلى أجل غير مسمى ، انفرد هذا السلطان بحكم الدولة حكماً مطلقاً . وأصبح ديوانه الخاص فى قصر يلدز المؤلف من مستشاريه هو المرجع الأول فى شئون الحكم دون الباب العالى . وقد عرف هذا الديوان باسم « المابين » وهى لفظة مأخوذة من اللغة العربية ، لأن هذا الديوان كان أداة الاتصال بين السلطان والباب العالى ، فهو ما بين الفريقين (٢) .

---

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, Part (١)  
1, p. 113.

(٢) يبدو أن هذا المصطلح « المابين » قد اقتبس من مصطلح يحمل نفس الاسم لنظام الخدمة الداخلية فى القصور السلطانية . فقد أطلق مصطلح « المابين » على مجموعة الغرف التى كانت تقع بين جناح الحريم والبلاط الداخلى . وكان لا يسمح لأحد بدخول جناح الحريم إلا للسلطان والحشيان والنساء . وفى هذه الغرف الواقعة بين الجناحين كان الرجال من أفراد الحاشية يقومون على خدمة السلطان لقص شعره وتقليم أظفاره وإلباسه ولف العمامة ووضعها على رأسه . وكان لكل مهمة من هذه المهام موظف خاص يحمل اسماً خاصاً ويرأسهم جليماً الباش جوقة دار ، أى رئيس الخدم الخصوصيين . وكان يطلق عليهم المابينجية . وعلى ذلك فالفارق بين « مابين » قصر يلدز ومابين سائر القصور أن الأول كان خاصاً بالمستشارين السياسيين والقانونيين وعلماء الدين ومن إليهم الذين استعان بهم السلطان عبد الحميد الثانى ، بينما كان « مابين » القصور السلطانية الأخرى يزدهم بالخدم الخصوصيين للسلطين .

## الفصل الثالث عشر

### الهيئات الحاكمة في الدولة (٢)

#### الديوان الإمبراطوري ( الهمايوني )

كان الديوان بمثابة مجلس وزراء موسع . كان سلاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته . وكان يطلق عليه الديوان الهمايوني (١) Le Divan Houmaïoun واستمر هذا التقليد متبعاً حتى عهد السلطان سليمان المشرع الذي تخلف عن حضور جلساته وتخلّى عن رئاسة الديوان للصبر الأعظم . فأصبح الديوان في وضعه الجديد يتكون — فضلاً عن رئيسه الصبر الأعظم — من الوزراء وعدد من كبار موظفي الدولة كان يطلق عليهم باللغة التركية « أركان دولت » أى أركان الدولة يمارسون عضوية الديوان بحكم وظائفهم *ex officio* .

ولكى نقف على تشكيل الديوان واختصاصاته وأسلوبه في تسيير دفة أمور الدولة نلّم أولاً إلماًماً سريعاً بشاغل المناصب الكبرى في الإدارة المركزية في الدولة والمصطلح التاريخي الذي كان يطلق على كل منهم . وهم : الرئيس أفندي ، النشانيجي باشي ، الجاوش باشي ، كاخيا بك ، الباش دفتردار ، الدفتر أميني .

#### الرئيس أفندي :

يلاحظ أولاً أن كلمة أفندي في تاريخ الدولة العثمانية تطلق على أرباب القلم ، بينما تطلق لفظة آغا على أصحاب السيف . وكان الرئيس أفندي في العصر

---

(١) هـايرن كلمة فارسية معناها الحرفى مبارك ، مقدس ، حسن الخط. وتستخدم بمعنى ملكى أو سلاطنى أو إمبراطورى . وتاسيساً على ذلك فإن عبارة الديوان الهمايوني معناها الديوان السلطانى أو الديوان الإمبراطورى .



الأول ذا مركز متواضع نسبياً بالنسبة للنشأى باشى أو الكاخيا بك أو الجاوش باشى أو الدفتر دار ، أو غيرهم من كبار موظفى الإدارة المركزية . وبوصفه أكبر الكتاب مركزاً فى سكرتارية الصدر الأعظم كان يطلق عليه رئيس الكتاب . وما نظن فى تاريخ الدولة منصباً كهذا المنصب بدأ بداية متواضعة ثم مر بتطورات متعاقبة قفزاً إلى أعلى حتى أصبح منصب الرئيس أفندى مرادفاً لمنصب وزير الخارجية العثمانية .

وتتلخص اختصاصاته وتطوراتها فى المجالات التالية :

أولاً : كان يشرف على السكرتارية. الخاصة بالصدر الأعظم ، فكان يعتبر نائباً عن الصدر الأعظم فى شئون السكرتارية. وامتدت اختصاصاته إلى خارج السكرتارية ، فكان يشرف على كبار الكتاب فى الخزانة العامة و خزينة عامرة .

ثانياً : كان يتولى حفظ القوانين عدا القوانين الخاصة بالشئون المالية وحيازة الإقطاعات ، كما كان يقوم بإعداد جميع الأوامر غير الخاصة بالشئون المالية .

ثالثاً : كان يقوم بإصدار براءات السلطة التى كانت تعطى لحكام الولايات وأصحاب الإقطاعات العسكرية وشاغلى الوظائف من أهل السلم والقابجى باشية والسكرتيرين الذين يعملون فى الإدارة والذين يتلقون إعانات من الأوقاف الدينية .

ويلاحظ أن هذا الاختصاص الأخير المتعدد الصور والأشكال كان ذا طابع وثائقى . ولذلك كان يعمل تحت إمرته ومتعاوناً معه موظف يسمى بيليكجى Beylikçi يرأس قسماً يختص بحفظ القوانين وإعداد الأوامر السلطانية يسمى ببليك قلمى Beylik Kalemى أى قلم الوثائق ، لأن كلمة ببليك تحريف لكلمة « بتك » Bitik بمعنى وثيقة .

واستحدثت الدولة قسمين آخرين — غير ببليك قلمى — لإصدار البراءات . كان أحدهما يسمى «نحويل» وهو اسم يطلق على البراءات التى تصدر إلى موظفى

الطبقتين الأوليين من أهل العلم . وكان الآخر يسمى « رعوس » وهو تعبير يطلق على البراءات التي تصدر إلى أهل العلم ممن هم دون الطبقة الثانية وسكرتيرى الإدارة . وكان اصطلاح « براءات » يطلق على تلك التي تعطى لحكام الولايات . أما أصحاب الإقطاعات الحربية فكان يطلق على البراءات الصادرة إليهم اسم « ضبط فرمانى » . وكانت تصدر من مكتب التحويل أيضاً . وأخيراً فلإن اصطلاح « براءات » كان يطلق كذلك على التصاريح بصرف معاشات من خزانة الأوقاف الدينية ، ولكنها كانت تصدر عن قسم الرعوس . وكان يعمل فى السكرتارية حشد من الموظفين بلغ عددهم فى القرن الثامن عشر قرابة مائة وستين كاتباً من ثلاث فئات ( سكرتيرون ، وشاكردات ، وشرهلوات ) . وكان يشرف عليهم ستة من رؤساء الموظفين هم :

١ - القانونى وكانت مهمته البحث فى مجموعة قوانين الدولة عن نص قانونى ينطبق على مشكلة ما قد تثار أو تطرأ .

٢ - الإعلامى ويختص بوضع مذكرة عن مثل هذه المشكلات التى قد تطرأ والنص القانونى الذى عاجلها . والكلمة مقتبسة من اللفظة العربية : أعلم بمعنى أخبر أو أبلغ .

٣ - المميز ومعناها فى هذا المجال المحقق . وكان يقوم بفحص وتصحيح الوثائق التى يعدها الكتبة . والكلمة مأخوذة من اللغة العربية : ميز .

٤ - ثلاثة موظفين يطلق على كل منهم لقب « كيسه دار » أى حامل الكيس . وكلمة الكيس مأخوذة من اللغة العربية معنى كيس النقود . وكان للرئيس أفندى « كيسه دار » مستقل وخاص به (١) وهؤلاء الرؤساء الستة كانوا يتبعون البيايىكجى .

رابعاً : كان الرئيس أفندى مسئولاً عن الصياغة اللفظية وعن محتوى التقارير والمذكرات التى يضعها الصدر الأعظم ويرفعها للسلطان . وكانت

هذه المهررات تسمى « تلخيص » . وكان يساعد الرئيس أفندى فى هذه المهمة موظف آخر يسمى « آمىجى » ، وهى كلمة فارسية مشتقة من آمى بمعنى حضر أو أتى . وكان الأمىجى بمثابة مساعد للرئيس أفندى .

خامساً : تطور اختصاص الرئيس أفندى فأصبح الموظف المختص بشئون السياسة الخارجية للدولة ، وبعبارة أخرى غدا وزير الخارجية العثمانية . وظهر هذا الاختصاص فى عصر متأخر ، لأن العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية كانت فى أول الأمر فى نطاق ضيق للغاية . كان السلطان أول الأمر يميلى رغباته ، فلذا لم تلق استجابة من الدول الأجنبية كان يعلن الحرب . ثم بدأت الدولة العثمانية تعقد معاهدات ثنائية أو جماعية مع تلك الدول ، ووافقت على إنشاء تمثيل دبلوماسى وقنصلى بينها وبين الدول غير الإسلامية بعامة والدول الأوروبية بخاصة . وشهدت دار السعادة - إستانبول - قيام سفارات وقنصليات عامة لهذه الدول . وكان الصدر الأعظم أول الأمر هو الذى يقوم بإجراء المفاوضات واستقبال أعضاء البعثات الدبلوماسية . ولم يكن الرئيس أفندى وقتذاك يفعل أكثر من تسجيل المعاهدات . كما كان يفعل عند تسجيل أى أمر سلطانى أو قرار وزارى .

ولما تزايدت أعباء الصدر الأعظم ، وكان ازواء سلاطين الفترة الثانية عن الحياة العامة من بين أسباب تزايد هذه الأعباء ، ولما ازدادت العلاقات الخارجية للدولة بالدول الأجنبية عمقاً واتساعاً ، أحيلت مسائل السياسة الخارجية تبعاً إلى الرئيس أفندى ، واستعان الأخير بجهاز من الخبراء والمترجمين . كان الخبراء يقومون بزيوده بكافة المعلومات السياسية والتاريخية والاجتماعية والدينية عن الدول الأجنبية . وكان المترجمون يتولون ترجمة المذكرات التى تبعث بها السفارات الأجنبية فى إستانبول إلى اللغة التركية وبالعكس . وكان هؤلاء المترجمون حتى أواسط القرن السابع عشر الميلادى من أصل أوروبى اعتنقوا الإسلام . ومنذ أوائل القرن الثامن عشر استعانت الدولة بمترجمين من عائلات يونانية تسكن حى الفنار فى إستانبول ويعرفون باسم « الفناريون » Les Phanariotes وكانوا على حظ موفور من العلم والثقافة وسعة الأفق العقلى

والثراء وتمتعوا بعراقه الأصيل وكرم المحتد . وقد سبق أن التقينا بهم في هذه الدراسة (١) . وكانت الدولة تؤثرهم بالتعيين في المناصب الكبرى التي تحتاج إلى خبرات خاصة في الباب العالي وتختار من بينهم الأميرين اللذين كانا يحكما ولايتي الدانوب تحت السيادة العثمانية (٢) . وكان هؤلاء المترجمون ينقسمون إلى مجموعات تختص كل مجموعة بدولة أجنبية أو ببعض دول . فكان مترجمو كل مجموعة يعدون المذكرات السياسية التي تتناول النقاط الرئيسية عن الموضوعات التي يتناولها الرئيس أفندي سواء في مقابلاته مع سفراء الدول أو في مفاوضاته مع البعثات الأجنبية . وكان رئيس المترجمين — ويطلق عليه ديوان ترجماني أى مترجم الديوان — يحضر مقابلات السلطان أو الصدر الأعظم أو الرئيس أفندي للسفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات الأجنبية التي كانت تمر بإستانبول . والباحث المتعمق في تاريخ العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن التاسع عشر تلفت نظره هذه الظاهرة : وهي سعى السفير في إستانبول أو الشخصية الأجنبية الوافدة إلى العاصمة لمقابلة ترجمان الرئيس أفندي لبحث معه المشكلات العاجلة والمعلقة بين الدولة العثمانية والدولة التي يمثلها السفير مما جعل لهذا الترجمان مركزاً مرموقاً في نظر أعضاء البعثات الدبلوماسية في العاصمة . وقد استمد هذا المركز من اتصاله الوثيق بالرئيس أفندي . ويلاحظ أن المؤرخين الأوروبيين يشيرون في مؤلفاتهم إلى وزير الخارجية العثمانية بأنه الرئيس أفندي el Reis effendi وكان هذا الرئيس أفندي في نظر الدبلوماسيين الأوروبيين في ذلك الوقت هو الشخص الثالث في الدولة بعد السلطان والصدر الأعظم . أما الغالبية الساحقة من الأتراك العثمانيين فلم يدركوا أهميته أو أهمية منصبه .

#### النشائي باشي :

اشتقت هذه الكلمة من اللفظة الفارسية « نشان » بمعنى شارة . وكان النشائي يضع ختم الطغراء على الوثائق والمراسيم وسائر الأوراق الرسمية .

(١) انظر ص ٦٨ في هذه الدراسة

Miller W. ; op. cit., p. 16, pp 25—27.

(٢)

والطغراء هي شارة السلطان العثماني ، وهي نقش متداخل معقد يحمل اسم السلطان . وكان كل سلطان يتولى العرش يأمر بعمل طغراء خاصة به ، كما كانت تنقش هذه الطغراء على أحد وجهي العملات الذهبية أو الفضية التي تسك على عهده في الضربخانه ، أي دار سك العملة . وقد أخذ الأتراك العثمانيون استخدام الطغراء عن السلاجقة منذ حكم السلطان أورخان بن عثمان ، ولكن لم يتم إنشاء منصب النشائي إلا على عهد السلطان محمد الفاتح وبعد فتح القسطنطينية .

وكان يذكر اسم النشائي مقروناً بكلمة الباشي فيقال النشائي باشي ، ولكن غلبت عليه التسمية بدون ذكر كلمة باشي (١). وكان للنشائي مقعد في الديوان منذ البداية مما يدل على أهمية المنصب الذي يشغله وبدليل أن شاغلي بعض المناصب القيادية في الإدارة المركزية مثل الرئيس أفندي ، وكاخيا بك لم يحصل أى منها على مقعد في الديوان (٢) .

وعلى الرغم من أن الاختصاص الأساسي للنشائي كان ختم الوثائق والمراسيم بالطغراء ، فقد كانت له عدة اختصاصات علمية وفنية على درجة كبيرة من الأهمية بل والخطورة . كان له حق اختيار الوثائق التي يختتمها بالطغراء وتصحيحها والتأكد من مسيرتها للقوانين المعمول بها ، وتفرع عن الاختصاص الأخير حق هام هو إجراء تعديلات على الوثائق منعاً لقيام تعارض مع القوانين واللوائح حديثة الصدور (٣) . وفي ضوء هذا الحق أصبح النشائي يشبه إلى حد ما « المفتي » الذي كان من اختصاصاته أن يقرر أن الإجراء المزمع اتخاذه يتماشى مع قواعد الشريعة الإسلامية . ومن هنا كان النشائي يعتبر « مفتياً للقوانين » . ومع ذلك كان النشائي لا يستطيع تعديل النصوص إلا إذا تلقى أمراً بهذا المعنى يسمى « تصحيح فرماني » ويختمه الصدر الأعظم بنفسه

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 182.

(١)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. 1,

(٢)

Part 1., p. 118.

Loc. cit., p. 125.

(٣)

بالطغراء منعاً لإساءة استخدام الحق الخول للنشائج في هذا الصدد. وبعد إدخال التعديل المطلوب وحفظ القانون المعدل في « الدفترخانة » أى دار السجلات كان النشائج يحتفظ بالأمر الصادر له ، وهو « تصحيح فرمانى » كسند لديه يدافع به عن نفسه إذا أثير موضوع التعديل في قابل الأيام . واستمر شاغلو هذا المنصب - النشائية - يمارسون حق مراجعة وتصحيح الوثائق التى تقدم لهم لكي يخدموها بالطغراء حتى ألغى هذا الحق رسمياً على عهد السلطان أحمد الثالث (١) (١٧٠٣ - ١٧٣٠) . وكان من اختصاص النشائج أيضاً ترتيب مجموعات القوانين المعروفة باسم « القانون نامات » وإعدادها للنشر .

هذه الاختصاصات الدقيقة والهامة التى أعطيت للنشائج تطلبت أن يكون هذا الموظف على حظ موفور من العلم . وكان يتم اختياره على عهد السلطان محمد الفاتح من هيئة العلماء ، ثم عدلت الحكومة عن اختياره من هذه الهيئة واعتمدت على طبقة القولا - العبيد - فى شغل منصب النشائج . ويقول ليبير الأمريكى تعليقاً على هذا الاتجاه إن الأسباب العامة التى جعلت السلاطين يؤثرون العبيد بوظائف الهيئة الحاكمة هى التى جعلتهم يختارون منهم من يصلح لشغل منصب النشائج (٢) .

وكان النشائج يتمتع أول الأمر ببعض السلطة على الرئيس أفندى . وتمتد هذه السلطة بالتبعية إلى السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم ، كما كان له نفوذ على دار السجلات وعلى رئيسها « الدفتر أمينى » ، أى أمين السجل . وكانت تحفظ فى تلك الدار جميع الوثائق الخاصة بالسجلات .

وكان النشائج يعتبر فى السلم الوظيفى نداءً لمدير الإدارة المسالية - الدفتردار - ويظل فى هذه الوظيفة إلى أن يرقى النشائج إلى الوزارة أو إلى الرتبة التى تليها مباشرة وهى رتبة حاكم بلاد الروم - البلقان - بكلربكى الروملى . وقد أخذ مركز النشائج فى الأفلو فى الوقت الذى ارتفع فيه مركز

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part I, (١)  
p. 126.

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 186.

الريس أفندى . ومرد هذا الأقول إلى سببين : أولها انزواء السلطان في أجنحة الحرم . فأضعف احتجاجه الصلة التي كانت تربط السلطان بالنشأى . وثانيها التوسع في إنشاء علاقات دبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية مما جعل الحاجة ماسة إلى شخصية تتفرغ للعلاقات الخارجية السياسية . وكان الصدر الأعظم يضطلع بمسائل السياسة الخارجية أول الأمر ، ثم تخلى عنها للريس أفندى الذى قام باختصاصات تماثل الاختصاصات التي يمارسها وزراء الخارجية في الدول الأوروبية وغير الأوروبية في الوقت الحاضر . وتعددت مقابلات أعضاء السلك الدبلوماسى الأجنبي له ، وارتفع شأنه وسلطته عليه الأضواء ، وقفز إلى القمة بينما هبط مركز النشأى هبوطاً شديداً .

#### الجاوش باشى :

الجاوش معناها في اللغة التركية رسول . وكان الجاوش باشى يتولى قيادة فرقة الجاوشية . وكانت تنقسم هذه الفرقة إلى خمس عشرة فصيلة يقود كلا منها ضابط . وكان قوام كل فصيلة ٤٢ رجلاً وكان أفراد هذه الفرقة يشهدون الاجتماعات التي يعقدها السلطان مع كبار الموظفين ، كما كانوا يشهدون مقابلاته مع السفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات ، ويحضرون الجلسات التي تعقدها محكمة السلطان أو الصدر الأعظم وكانوا يشتركون في مواكب السلطان العامة بصفتهم جزءاً من الحرس السلطانى ، ويصبحونه حين يخرج إلى ساحات الحرب .

ولما تزايدت اختصاصات الصدر الأعظم نتيجة قيامه بمعظم مهام السلطان ، ألحق الجاوش باشى وأفراد فرقته بخدمة الصدر الأعظم . ولذلك غلبت على الجاوش باشى صفة أحد كبار موظفى الإدارة المركزية أكثر من صفته كضابط في البلاط السلطانى . وقد ذهب دوسون المؤرخ الفرنسى إلى أنه رقى إلى رتبة وزير رسمياً على يد إبراهيم باشا الصدر الأعظم في أثناء حكم السلطان أحمد الثالث (١) (١٧٠٣-١٧٣٠) . وسواء كانت هذه الترقية قد

---

(١) D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., vol. VII., p. 159  
et suiv.

حدثت فعلاً أو لم تحدث على الإطلاق ، كما يقول هارولد بون (١) ، فإن الجاوش باشى كان أعلى مرتبة من الرئيس أفندى ، كما كان يعتبر أحد نواب الصدر الأعظم والموظف الثانى فى محكمة الصدر الأعظم ويتولى تقديم الدفء له (٢) .

وفى ظل الوضع الجديد للهيكل العام للإدارة المركزية فى الدولة تحولت رئاسة محكمة السلطان إلى الصدر الأعظم ، فأصبح الجاوش باشى تابعاً له ، بمعنى أن اتصالاته بالصدر الأعظم كانت أكثر من اتصالاته بالسلطان . وكان له دور كبير فى إجراءات المحكمة حتى وصل به الأمر إلى أنه غدا فى القرن الثامن عشر نائباً لرئيسها . وبهذه الصفة الجديدة التى أضيفت إليه كان الجاوش باشى يرأس الجلسات التحضيرية فى المحكمة توفيراً لوقت الصدر الأعظم ، فيعد ملخصاً للقضايا التى على الصدر الأعظم أن يفصل فيها ، كما كان الجاوش باشى يحيل باقى القضايا إلى المحاكم التى هى أقل درجة من محكمة الصدر الأعظم .

وكان من المهام الرئيسية للجاوش باشى تنفيذ الأحكام القضائية ، وتمكيناً له من أداء هذه المهمة على الوجه الأكمل ، وضعت الإدارة المركزية تحت تصرفه عدداً من ضباط الإنكشارية كان يطلق عليهم محضر آغا ، حرس باشى ، صوباشى . وكانوا يتلقون الأوامر من الجاوش باشى مباشرة . وكان هؤلاء الضباط يعهد إليهم ، بالإضافة إلى هذه المهمة ، بأعمال الشرطة بوجه عام . وعلى ذلك فلم يكن الجاوش باشى مختصاً بمنع الجرائم أو المراقبة على الأمن فى العاصمة والمناطق المحيطة بها . وكانت مهمة الجاوشية الخاضعين لقيادته هى لإدخال المتهمين والمدعين وأصحاب الشكاوى إلى محكمة الصدر الأعظم ، وتنفيذ الأحكام ، ونقل ملفات القضايا التى كان الصدر الأعظم يرسلها إلى المحاكم الأقل درجة للفصل فيها ، والتحفظ على الأشخاص ذوى

---

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I., Part I. (١)  
p. 118, fn. no.2.

Lybyer A.H. ; op. cit, p. 183.

(٢)



المراكز الكبيرة وبخاصة أهل العلم وحجزهم في مكاتبهم حتى ينظر في التهمة الموجهة إليهم . وكان يقوم بمهمة التحفظ عليهم أحد أفراد فرقة الجاوشية يسمى جاوشلر كاتبى .

وكان الجاوش باشى ، فى النطاق القضائى الذى كان يمارسه ، يشرف على أعمال اثنين من الموظفين يسميان التذكرجية . ويقصد بالتذكرة هنا عرائض الدعاوى المقدمة . وكان يطلق على أحد هذين الموظفين «بيوك تذكرجى» أى التذكرجى الكبير ، بينما كان يطلق على الآخر «كچوك تذكرجى» أى التذكرجى الصغير . وكانا يتناوبان مهمة قراءة الشكاوى المقدمة للصدر الأعظم ثم كتابة القرار الذى يتخذه الأخير فى كل منها . وكان على هذين الموظفين أيضاً وضع الصياغة اللفظية للأوامر التى كان يصدرها الصدر الأعظم إلى الإدارات الحكومية المختلفة . وبالنسبة للمركز الوظيفى لهذين الموظفين ، جاء فى القانون نامه الذى صدر على عهد السلطان محمد الفاتح أنها يتمتعان بالأسبقية على كتبة الرئيس أفندى .

وهكذا نرى أن الجاوش باشى قد تنوعت اختصاصاته تنوعاً مذهلاً . فجمعت هذه الاختصاصات بين الطابع العسكرى والطابع القضائى . وأشرف على فئات شتى من الموظفين العسكريين والمدنيين ، ومارس نفوذاً واسعاً فى شتى مجالات الإدارة المركزية .

### كاخيا بك :

كان يعتبر نائباً عاماً عن الصدر الأعظم فى المسائل الداخلية والخيرية ، ويعمل تحت إمرته عدد من الموظفين كانوا بمثابة حلقة اتصال بين الصدر الأعظم والموظفين القولار - أى عبيد السلطان - سواء فى خدمة القصور أو فى الجيش (١) . وكان كاخيا بك الصدر الأعظم فى الأصل أحد الخدم الخصوصيين للصدر الأعظم ، ولم تكن له اتصالات بالإدارة المركزية . ولكن لما تزايدت أهمية الصدر الأعظم اكتسب كاخيا بك أهمية ونفوذاً ووجاهة . وأصبح

لا يشغل هذا المنصب إلا كبار موظفي الدولة . وكان يطلق عليه عدة أسماء ، منها : « وزير كاخيا بكى » تميزاً له عن ضابط إنكشارى يحمل لقب كاخيا . وكان يطلق عليه أيضاً « أغا أفندمز » أى أفندينا الأغا ، فكان يجمع بين لقبى رجال القلم ورجال السيف . ونظراً للأهمية البالغة التى كانت لاختصاصاته فى المسائل الداخلية والحربية كان لا يسمح له بأجازة فى أيام الأعياد ، بينما كان موظفو الباب العالى يقومون بالأجازة ، حتى يستطيع اتخاذ قرارات فورية بالنيابة عن الصدر الأعظم إذا وقعت أحداث هامة أو ظهرت أزمات فجائية . وكان الكاخيا بك يشرف على المكتوبجى وهو السكرتير الخاص للصدر الأعظم (١) ، كما كان يشرف على التشرىفاتجى وهو مدير المراسم . وكان لهذا الأخير عدد وافر من المساعدين يحتفظون بسجلات مراسم البلاط السلطاني وتدون فيها الامتيازات التى يتمتع بها كبار موظفي الدولة . وأخيراً كان للكاخيا بك سكرتيران يسمى أحدهما « كاخيا كاتجى » ، أى كاتب الكاخيا ، ويشرف على المراسلات العامة وتجميع حصيلة الرسوم الخاصة به وبالصدر الأعظم . ويسمى الآخر « قره قولاق » أى الأذن السوداء . وانحصرت مهمة هذا السكرتير فى القيام على المراسلات المتبادلة بين الصدر الأعظم وكاخيا بك .

ويتخذ أحد المؤرخين من نظام تناول الكاخيا بك الطعام دليلاً على خضوعه للصدر الأعظم ، فيقول إنه - أى الكاخيا بك - والمكتوبجى والتشرىفاتجى كانوا يتناولون الطعام يومياً معاً وبمفردهم ، وأن هذا النظام ظل معمولاً به حتى أواخر القرن الثامن عشر فى حين كان الجاوش باشى والريس أفندى يأكلان على مائدة الصدر الأعظم . ومع ذلك فقد كان هؤلاء الموظفون الخمسة من كبار الموظفين (٢) .

---

(١) يصفه ليبير بأنه السكرتير الخاص للصدر الأعظم . المرجع السابق ص ١٨٤ ، بينما يقول عنه هرون إنه السكرتير العام للصدر الأعظم .  
انظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part I, p. 120.

Loc. cit., p. 121.

(٢)

وكان الكاخيا بك والمكتوبجي والتشريفنا نجى يعتمدون في دخلهم على النصيب الذى يتقاضاه كل منهم من الهدايا التى يقدمها إلى الصدر الأعظم أصحاب المناصب الحكومية عند تعيينهم فيها (١) . كما أن هؤلاء الموظفين الثلاثة كانوا يتناولون وجبات الطعام يومياً من مطابخ الصدر الأعظم . وكان الكاخيا بك يعتبر من أصحاب الدخول الكبيرة . وحاول كثيرون ممن شغلوا هذا المنصب فى الأوقات المتأخرة تجميع ثروات ضخمة فى أثناء توليهم هذا المنصب .

### الباش دفتردار :

سبق أن تكلمنا عن الدفتردار واختصاصاته التى كان يمارسها فى النطاق المحلى كرئيس للإدارة المالية فى مصر إبان الحكم العثمانى عندما تقررنا لنظام الالتزام (٢) . وقلنا إنه كان رئيس الديوان الدفترى فى مصر . وقد أنشأت الدولة أول الأمر وظيفتين شغل إحداهما دفتردار اختص بالشئون المالية للائناضول ويسمى « دفتردار أناضولى » ، وشغل الأخرى دفتردار شمل اختصاصه بلاد البلقان وبقية الأقاليم الأوروبية التى خضعت للسيادة العثمانية ويسمى « دفتردار الروملى » . وكان أعلى مركزاً من سابقه . وأطلق عليه الباش دفتردار . وعلى عهد الفتوح العثمانية الكبرى فى القرن السادس عشر أنشئت على عهد السلطان سليم الأول وظيفة ثالثة يشغلها دفتردار امتدت اختصاصاته فشملت سوريا ومصر وديار بكر . ثم أنشئت على عهد السلطان سليمان المشرع وظيفة رابعة لدفتردار شملت اختصاصاته ولاية المجر ومنطقة الدانوب (٣) . ولما فقدت الدولة لإقليم المجر فى أواخر القرن السابع عشر ألغيت الدفتردار لى الخاصة بالمجر ، ومع ذلك أصبح دفتردار الروملى . وهو الباش دفتردار - يتولى المسئولية عن السياسة المالية للدولة كلها .

Loc. cit.

(١)

(٢) انظر من ١٤٨ ، حاشية رقم ٢ فى هذه الدراسة .

D'Ohsson Ignatius Mouradega; op. cit.; t. VII, p. 261.

(٣)

Lybyer A. H. ; op. cit., p. 168.

في شمالي العراق والشام . فإن هذه الحركات لم تستهدف الانفصال عن الدولة والاستقلال بحكم بعض الأقاليم الإسلامية ، وإنما كانت في لحمتها وسداها تهدف إلى الأفراد بحكم الولاية مع بقائها داخل نطاق الدولة العثمانية . وإذا أخذنا حركة على بك الكبير في مصر كثال لهذا النوع من الحركات ، نجد أنه شل نفوذ « بيوك ديوان » أى الديوان الكبير وهو ديوان مصر أو « ديوان محروس مصر » كما تسميه الوثائق ، كما شل نفوذ الفرق العسكرية العثمانية ، ثم تخلص من الباشا العثماني في سنة ١٧٦٨ (١) كما امتنع في ذات السنة عن إرسال الجزية إلى السلطان (٢) .

وإذا كان على بك الكبير قد التمس مساعدات عسكرية من كاترين الثانية قيصرية روسيا دعماً لحركته فإنه لم يجرؤ على إعلان استقلاله بمصر استقلالاً تاماً . لقد سلك على بك بعد انفراذه بحكم مصر عملة فضية ثم أخرى ذهبية تحمل كل منهما على أحد وجهيها اسم مصطفى الثالث سلطان الدولة العثمانية وقتذاك ( ١٧٥٧ - ١٧٧٤ ) ، وتحمل على الوجه الآخر اسمه بطريقة ملتوية (٣) ، كما أمر بضرب إمام مسجد الداودية في القاهرة لأنه دعا في خطبته في أحد أيام الجمعة في أوائل شهر رمضان ١١٨٣ هـ (وكان يقع في الفترة من ٢٩ ديسمبر - كانون أول - ١٧٦٩ حتى ٢٧ يناير - كانون ثان - ١٧٧٠) للسلطان ثم دعا لعلي بك الكبير . فأظهر الأخير امتعاضاً من تصرف الخطيب ، وكان يريد أن يكون دعاء الخطيب مقصوداً على السلطان وحده ، على الرغم مما كان بين الاثنين من نفور ووحشة (٤) .

(١) الجبرقي ج ١ ، ص ٣٠٨ ، ص ٣٣٤ .

(٢) الجبرقي ج ٣ ، ٢١٨ ، وهو يترجم للأمير قاسم بك أبي سيف في وفيات

١٢١٧ هـ .

(٣) دكتور محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، مرجع سبق ذكره ص ٦٢-٦٤ .

(٤) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : صور لمن دور الأزهر في مقاومة الاحتلال

الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر . مرجع سبق ذكره ، ص ٦١ - ٦٣ وحاشية

رقم ١ ، ص ٦٢ .

وبلاحظ أيضا أنه لم يكن هناك أى تجاوب بين زعماء مثل هذه الحركات وبين الجماهير أى القاعدة الشعبية العريضة التى بقيت على ولائها للسلطان . وهكذا شدت العاطفة الدينية للرعايا المسلمين إلى السلطان وأوجدت نوعاً من التماسك بين الدولة وولاياتها الإسلامية . وكان هذا التماسك يزداد قوة وصلابة كلما أوغلت الدول الأوروبية فى أطماعها الاستعمارية . كانت رواسب الحروب الصليبية لازال عالقة فى أذهان المسلمين . وكان المسلمون لا يعرفون عن أوروبا إلا وجهها القبيح الذى يتمثل فى الحروب الصليبية وفى أطماعها الاستعمارية . ورأى الرعايا المسلمون فى السلطان الرمز الحى المحسد لمجد الإسلام والذى يقف على رأس دولة عسكرية دينية مترامية الأطراف فى أوروبا وآسيا وإفريقية بحيث غدت بحق دولة الإسلام الكبرى . ورأى المسلمون فى السلطان أيضاً السياج القوى الذى يحمى بلادهم من الزحف الأوروبى الاستعمارى . ومن ثم أخذت الشعوب الإسلامية التى امتدت إليها الفتوحات العثمانية تتقبل السيادة العثمانية على بلادها . ونجحت الدولة فى حماية الشرق الإسلامى من هذا الزحف ما بقيت الدولة قوية مهيبة الجانب . وارتاح السلطان لوضعه السياسى والدينى فى الدولة ، وعمل على دعمه فى أذهان المسلمين وفى أوروبا على السواء ، وكان أن بعث سلاطين الدولة لقب « خليفة » ليظهروا أن للسلطان نفوذاً روحياً على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

#### (ب) نفوذ السلطان على الطوائف غير الإسلامية :

لم ينعم السلطان العثمانى بطبيعة الحال بمثل هذا النفوذ الروحى سواء على الأقليات المسيحية واليهودية فى العالم الإسلامى الخاضع له أو بين سكان القسم الأوروبى المسيحى . من أملاك الدولة ، على الرغم من التدابير التى كان يتخذها السلطان عند تعيين الرؤساء الروحيين للطوائف غير الإسلامية . كان البطريرك اليونانى يتلقى من السلطان فرمان تعيينه فى منصبه . وكان هذا البطريرك يعتبر أكبر رئيس روحى غير مسلم فى الدولة . وكان يتبعه الروم المسيحيون الأرثوذكس ، وله مكانة مرموقة فى نفوسهم وتهفو إليه أفئدتهم . ومع ذلك

كان هذا البطريرك في خدمة الدولة نظرياً . وكان يرد في فرمان تعيينه نص يوجب على الأساقفة ومن إليهم من رجال الإكليروس التابعين للكنيسة الشرقية وكذلك أتباعها طاعة البطريرك طاعة تامة في نطاق الاختصاصات المخولة له . وكان السلطان يصدر فرمانات أخرى بتعيين الرؤساء الدينيين لرعايا الدولة المسيحيين الذين يدينون بمذاهب أخرى ، وكذلك لخاصامات اليهود . وكانت تدرج في جميع تلك الترمانات نصوص توجب طاعة كل طائفة لرئيسها الروحي في المسائل الدينية دون غيرها ، وأخيراً فالامتيازات التي كان يتمتع بها الأجانب في الدولة العثمانية اعتمدت على منح صدرت عن السلطان أو تطبيقاً للمعاهدات التي أبرمتها الدول الأجنبية مع السلطان .

ومع ذلك فقد كان تاريخ الدولة العثمانية يموج بحركات انفصالية في عهد اضمحلالها وتدهورها ، أي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين في الولايات الأوروبية المسيحية مثل اليونان والصرب وولابى الأناضول والبغدان ، ويطلق عليهما أيضاً مولداقيا وولاشيا ، وهما — رومانيا حالياً — وبلغاريا والبوسنة والهرسك — يوغوسلافيا حالياً — وغيرها . كان الرعايا المسيحيون في أوروبا بوجه خاص ينظرون شئراً إلى تبعيتهم لحاكم مسلم هو سلطان الدولة العثمانية . واستهدفت حركاتهم استقلال بلادهم عن الدولة . وكان مرد هذه الحركات إلى نمو الروح القومية وتأصل الزعة الدينية بينهم ، وكانت بعض الدول الأوروبية الكبرى مثل روسيا والنمسا أول الأمر تغنى هذه الحركات الانفصالية بين الشعوب المسيحية الخاضعة للدولة وتوقع لها شتى اللرائع سواء اختلاف الدين ، فلا يجوز في تقدير هذه الدول أو الشعوب أن تخضع شعوب مسيحية لحاكم مسلم ، أو أن هذه الشعوب ذات ماض حضارى مجيد يفوق حضارة العثمانيين . ولذلك ينطبق على حركات القسم الأوروبي صفة الثورات أو الحركات الاستقلالية أو الحركات التحررية أو الحركات الانفصالية (١) .

نخلص من هذا العرض إلى أن نفوذ السلطان العثماني في الولايات الإسلامية كان قوياً ، وأن مركزه كان مدعماً بسبب العاطفة الدينية الإسلامية أولاً وبسبب

المصالح المشتركة بين الطرفين ثانياً ، والمذلك لم تر الشعوب الإسلامية في الاحتلال العثماني لبلادها نوعاً من الاستعمار الأجنبي بالمعنى المعروف في العصر الحديث . وقد أطلقت هذه الشعوب اسم الحماية العثمانية على جيش الاحتلال العثماني الماربط في بلادها ، بينما رأت الشعوب المسيحية في الاحتلال العثماني لبلادها استعماراً كريهاً بسبب اختلاف الجنس والدين واللغة وما إلى ذلك ، ورأت أنه يتعين عليها السعى لإنهاء هذا الاحتلال والتحرر من التبعية لحاكم مسلم . ويقرر أستاذان لإنجليزيان كبيران أن الدين كان عاملاً قوياً من العوامل التي أثارت الاضطرابات في وجه السلطان من جانب الصربيين وأهالي الجبل الأسود والبلغار والألبان المسيحيين والمقلونين . وعلى الرغم من أن هذه الشعوب كانت تضم أعداداً كبيرة من المسلمين ، فإن المسيحية كانت هي الغالبة بمذهبي الأرثوذكس بين أكثرية هذه الشعوب . وكان قيصر روسيا هو الرئيس الرسمي للكنيسة الأرثوذكسية . ومابرح الدين يتخذ في شبه جزيرة البلقان طابعاً سياسياً عنيفاً (١) وبمعنى آخر كان نفوذ السلطان في الولايات الإسلامية يستند في المقام الأول إلى الوشيجة الدينية والمصلحة السياسية ، بينما كان نفوذ السلطان في الولايات الأوروبية المسيحية يستند فيما يستند إليه إلى القوة العسكرية والنقل السياسي في مجال السياسة الدولية ، ثم في عصور الاضمحلال إلى قرارات المؤتمرات الدولية التي توالى عقدها في العواصم الأوروبية لبحث ما عرف باسم « المسألة الشرقية » دعماً لمركز الدولة أو تقسيماً لممتلكاتها أسلاباً فيما بين الدول الأوروبية . وكان من بين هذه المؤتمرات مؤتمر لندن ( ١٨٣١ ) ، ومؤتمر باريس ( ١٨٥٦ ) ، ومؤتمر برلين ( ١٨٧٨ ) ، ومؤتمر لندن ( ١٩١٣ ) .

## ٢ - القولار

القولار هم طبقة العبيد رفعتهم الدولة مكاناً عالياً ، فشغلوا شتى المناصب الحكومية من أدناها إلى أعلاها حتى منصب الصدارة العظمى أي رئاسة الوزارة ، ولم تستثنى الدولة من هذه المناصب سوى وظائف القطاع الديني أو ما عرف باسم « الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة » . وقد جاء هؤلاء العبيد إلى الحياة أطفالاً

(١) Grant and Temperley ; op. cit., p. 211.

مسيحيين من آباء مسيحيين وأمهات مسيحيات ، ثم انتزعتهم الدولة ، وهم في سن غضة من عائلاتهم وأبعدتهم عن الجو العائلي وحوّلهم إلى الإسلام وأعدت لفريق منهم دراسات دينية ومدنية ، كما نظمت لفريق آخر دراسات دينية وعسكرية لتتخلّصهم في نهاية المطاف أدوات للحكم والحرب ، وأضفت عليهم الدولة الكثير من الرعاية المادية والأدبية وأغدقت عليهم الامتيازات في شتى صورها وأشكالها بحيث أصبحوا طبقة متميزة في المجتمع العثماني . وقد تكلمنا في موطن سابق في هذه الدراسة عن دور الدولة في تنشئة هذا الفريق من العبيد في القطاع المدني (١) . ونشير هنا إلى بعض المناصب القيادية المدنية التي تولّاها القولاّر فأصبحوا يشكلون إحدى الهيئات الحاكمة في الدولة .

### الصدر الأعظم ووزراء القبة ( صدر أعظمي وقبة وزير لوى )

#### الإسلام ونظام الوزارة :

عرف العالم الإسلامي نظام الوزارة قبل قيام الدولة العثمانية . ولكن لم تأخذ وظيفة الوزير مكانها ضمن وظائف الدولة الإسلامية على عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه أو الخلفاء الراشدين أو الأمويين . ولكنها أنشئت أيام الدولة العباسية . وقد نقلها الخلفاء العباسيون عن الفرس ، ورسخ نظام الوزير كأساس للإدارة العباسية . ويلاحظ أنه ورد في القرآن الكريم ذكر الوزير مرتين : المرة الأولى على لسان موسى عليه السلام « واجعل لى وزيراً من أهلى ، هرون أخى ، أشد به أزرى ، وأشركه فى أمرى » (٢) . والمرة الثانية « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً » (٣) .

#### البرفانجى :

وكان لمنصب الوزير عند أول عهد الدولة العثمانية بهذا المنصب أهميته

(١) انظر ص ص ١٢٠-١٢٨ في هذه الدراسة .

(٢) سورة طه ، الآيات من ٢٩ إلى ٣٢ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية رقم ٣٥ .



وخطورته . فقد كان بمثابة المستشار الأول للسلطان . وفي عهد الدلاطين العثمانيين الأوائل لم يكن يطلق على صاحب هذا المنصب لقب وزير ، بل كان يسمى **پيرفان** (١) **Perwane** أو **پيرفانجی** **Pervaneci** وهو مصطلح فارسي اقتبسه العثمانيون من سلاجقة قونية (٢) ، ومدلول هذا المصطلح قائد ، أو مفتش ، أو صاحب رتبة صدرت بها براءة ملكية أو براءة سلطانية . وكان للپيرفان حق التصرف في نطاق المملكات الواسعة المخولة له من لدن الدلاطان . ولذلك كان يعتبر الپيرفان وزير تفويض ولم يكن وزير تنفيذ (٣) . ويرجع السبب في ذلك إلى أن الدلاطين العثمانيين الأوائل كانوا منصرفين إلى العمليات الحربية التي لم تكن تتوقف أو تبدأ ابتغاء توسيع رقعة الدولة فتركوا للپيرفان سلطات متعددة وواسعة مارسها نيابة عن السلطان . ويستثنى من هذا الحكم العام وزراء ثلاثة سلاطين هم محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١) ، وسليم الأول وهو ياوز سليم (١٥١٢-١٥٢٠) ، وسليمان المشرع (١٥٢٠-١٥٦٦) . فقد كانوا على خط موفور من الحيوية والنشاط والقدرات العقلية واستطاعوا أن يجمعوا بين القيام بأعباء الحكم وقيادة الجيوش . ومن ثم كان الوزراء الأول والوزراء على عهدهم وزراء تنفيذ . وظلوا على هذه الصفة حتى السنوات الأخيرة من حكم الدلاطان سليمان حين تزوج روكسلانة **Roxelana** الروسية وأحبها حباً بلغ

(١) Gibb Hamilton & Bowen Harold; op. cit., Vol. I. Part 1, p. 108.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية . مادة وزير .

(٣) اتفق فقهاء المسلمين على تقسيم الوزراء إلى نوعين . فالنوع الأول هم وزراء تنفيذ حين يكون ولي الأمر - خليفة كان أو سلطاناً أو ملكاً - منصرفاً إلى تصريف أمور الدولة بنفسه مستعيناً بالوزراء لتنفيذ أوامره . أما النوع الثاني فهم وزراء التفويض حين يكون ولي الأمر منصرفاً إلى حرب خارجية ، أو متلبساً عن الدولة يؤدي فريضة الحج مثلاً ، أو كان ضعيفاً أو مشغولاً بملأاته ، أو لغبر ذلك من الأسباب العامة أو الشخصية فيترك أمور الدولة يتصرف فيها الوزير كما يريد ، أو لحل أحسن الفروض يتصرف في التناقل الذي يضمه له ولي الأمر . أنظر :

المالودي ( حل بن محمد بن حبيب المصري الهنأدي ) ، أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك ١٩٢٩ . وهذا الكتاب من كتب النظم تناول المؤلف فيه نظام الوزارة من النواحي التنظيمية وأرسى قواعدها . واستقى مادته العلمية من الأحداث التاريخية ، وحدد الشروط التي يجب توافرها في كل من يشغل كل نوع من نوصى الوزارة وواجباته وحقوقه .

شغاف قلبه ، وأصبح لا يطيق عنها بعداً ، فانزوى عن الحياة العامة وغدا وزيره الأول وزير تفويض . ومنذ ذلك الوقت وطوال حكم خلفائه سلاطين الفترة الثانية إلا في حالات نادرة كان الوزراء على اختلاف درجاتهم وزراء تفويض .

### إنشاء منصب الوزير الأول (الصدر الأعظم)

ولما اتدعت الدولة اتساعاً إقليمياً سريعاً وملها ، ازدادت أهمية مركز الوزير ، وتضاعفت اختصاصاته ، وسيطر على إدارات الحكومة ، وأثنى منصب الوزير الأول .

ولما جمعت قوانين الدولة على عهد السلطان محمد الفاتح وأدخلت عليها تعديلات وإضافات شتى أصبح مجموعها يشكل القانون الأساسى للدولة والمعروف باسم قانون نامه . وقد حددت في هذا القانون نامه مراكز موظفى الدولة المختلفة واختصاصاتهم تحديداً دقيقاً ، فأشير إلى الوزير الأول على أنه « الوكيل المطلق » وهو مصطلح مقتبس من اللغة العربية بمعنى « الوكيل المطلق » أو الممثل المطلق للسلطان The Sultan's absolute representative . وأبطل استخدام لفظة پیرخان أو پیرخانجی ، ثم استبدلت النولة بهذا اللفظ مصطلحاً جديداً هو « أولو وزیر » Ulu Vezir أى الوزير الأول أو « وزیرى أعظم » Veziri A'zam أى الوزير الأعظم . وبذلك عادت الدولة العثمانية إلى التقليد الإسلامى باستخدام لفظة الوزير ، ولكنها أضافت كلمة أعظم تمييزاً له عن اللقب الذى كانت الدولة قد منحته بالفعل لعدد من الأفراد على أساس أن لقب وزير كان شعاراً لرتبة . وكان هؤلاء الأفراد الآخرون الذين يحملون لقب وزير هم فى العادة حكام الولايات الكبرى مثل مصر . فكان السلطان يمنحهم اللقب ويخولهم سلطات واسعة يستطيعون بمقتضاها إصدار فرمانات « حماية » لها قوة القانون دون الحاجة إلى الرجوع إلى إستانبول لاستصدار فرمانات سلطانية إلا فى المسائل التى تقتضى طبيعتها عرضها على السلطان أو الوزير الأول الذى أصبح لقبه فى عهد سلاطين الفترة الثانية الصدر الأعظم ، ومعنى هذا المصطلح التاريخى أعظم كبار الموظفين ،

### الصدر الأعظم في قانون نامه :

وقد رفع السلطان محمد الفاتح الوزير الأول — أو الصدر الأعظم كما لقب فيما بعد — مقاماً علياً في الدولة . فقد جاء في القانون الأساسي للدولة العثمانية والمسمى قانون نامه مانصه : « لتعلم أولاً أن الصدر الأعظم هو رئيس الوزراء والأمراء . إنه أعظمهم جميعاً ، وصاحب الصلاحية المطلقة في إدارة شئون الدولة . أما التقسيم على أملاكه فهو الدفتردار . غير أن الصدر الأعظم هو رئيسه . وللصدر الأعظم في حركاته وسكناته ، وفي قيامه وقعوده ، حق التقدم على جميع موظفي الدولة » (١) فكان هذا القانون قد وضع الصدر الأعظم في المكان الثاني بعد السلطان مباشرة ، أو كما يقول المؤرخ الفرنسي رامبو غدا الصدر الأعظم نائب السلطان أو نائب الإمبراطور (٢) . أما المستشرق الألماني بروكلمان فيقول إن قانون نامه قد جعل الصدر الأعظم وصياً فعلياً على الإمبراطورية ، مطلق الصلاحية ، يسيطر على فروع الإدارة كلها ، ويفصل في جميع شئون الدولة ، وفي مسائل الموت والحياة أيضاً ، منفرداً مطلق السلطة (٣) .

### الصدر الأعظم والخاتم السلطاني :

على أن أعظم امتياز ظفر به الصدر الأعظم كان في الواقع الحق الذي خوله له سلاطين الدولة في حمل الخاتم السلطاني رمزاً لثقتهم العميقة فيه ، إذ كان الصدر الأعظم يوقع بهذا الخاتم على فرمانات السلطانية ، كما كانت تختتم به المخازن الهامة وهي : مخزن السجلات المالية ( مالية دفترخانة سي ) ، والخزانة الخارجية للسراي ( ديش خزينة ) ، والمخزن العام للمحفوظات ( الدفترخانة ) ، والحقبة اليومية ( روزنامه كيديه سي ) (٤) . وكان المؤرخون العثمانيون في تعاليفهم

(١) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم . مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ،

ص ٩٤ ، حاشية رقم ١٦

Lavisse et Rambaud : Histoire Générale. t IV. L'Empire (٢)

Ottoman. L'Apogée ( 1481 — 1566 ), p. 753.

(٣) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ،

ص ٩٤ — ٩٥ .

Gibb Hamilton and Bowen, Harold op. cit., Vol. 1, Part (٤)

1, p. 112, fn. no.3.

على تسلم الصدر الأعظم الخاتم السلطاني يقولون إنه حصل على شعار عاهل العالم « نائل مهر شهر يارى جهان أولشرى » (١) . وكان الصدر الأعظم في العهد الأول يضع خاتم التوقيع السلطاني في أصبعه ، أما في العهد اللاحق فكان يضعه في جيبه في حافظة من القماش المذهب . وكان السلطان في العهد الأول يعث بخاتمه إلى الصدر الأعظم في مسكنه يحمله إليه أحد موظفي البلاط ، ثم تغير هذا التقليد منذ عهد السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) ، إذ كان السلطان يتولى شخصياً تقديم خاتمه إلى الصدر الأعظم . وكان سبب الخاتم من الصدر الأعظم بمثابة أمر سلطاني بإقالته من منصبه . وكان السلطان يوفد أحد موظفي البلاط لسحب الخاتم منه . وكان يتعين على الصدر الأعظم في هذه الحالة مغادرة العاصمة فوراً .

### سلطات أخرى للصدر الأعظم :

امتدت سلطات الصدر الأعظم إلى الإدارة المركزية في الدولة وإلى إدارة الولايات . كان الصدر الأعظم هو رئيس الديوان ، وسنذكر في الفصل التالي عن هذا الديوان من حيث تشكيله واختصاصاته ودوره البارز في حكم الإمبراطورية - وكان الصدر الأعظم يهيمن أيضاً على شئون الجيش ، وكان يقود المعارك الحربية حين تدعو الضرورة . وفي هذه الحالة كان له الحق في حمل البيرق النبوي - راية النبي صلوات الله وسلامه عليه - إلى ساحة القتال . وهو حق كان ينفرد به السلطان دون سواه (٢) . وكان يرأس المحكمة العليا ويشترك معه قضاة الشريعة الإسلامية . وكان الصدر الأعظم يقوم بجولات في العاصمة ويتفقد أسواقها ويرافقه في هذه الجولات قاضى القضاة ، والمشرف على الأسواق ، وكان يسمى « احتساب أغاسى » بمعنى الرقيب ويقابل هذا المصطلح العثماني المصطلح العربي « المحتسب » ، ورئيس الفياق الإنكشارية ، ورئيس شرطة المدينة (٣) .

Loc. cit., fn ; no. 2.

(١)

Loc. cit., p. 112.

(٢)

Lybyer A. H. ; op. cit., p. 166.

(٣)

وكان بعض البلاطين يزوجون الصدور العظام - لتنتهم العميقة فيهم وتقديرهم الكبير لهم - من بناتهم أو شقيقاتهم أو أخواتهم . وفي هذه الحالة يلحق باسم الصدر الأعظم لقب داماد ، وهى كلمة تركية بمعنى صهر . ويذكر هذا اللقب قبل اسم الصدر الأعظم مباشرة ، فكان يقال : داماد صوقاو محمد باشا .

### فيض من مظاهر العظمة على الصدر الأعظم :

وقد أضفت الدولة على الصدر الأعظم الكثير من مظاهر العظمة والأبهة . كان يتقبل الصدر الأعظم في أيام محددة بعضها كل أسبوع والبعض الآخر كل شهر ولاء موظفى البلاط والدولة على غرار ما كان يفعل السلطان . فكان على كل من رئيس الإنكشارية والقضاة والبكوات الصناجق وقادة الجيش ومن إليهم من شاغلى المناصب القيادية زيارة الصدر الأعظم زيارة رسمية (١) . وكانت تتكرر هذه الزيارات في عيد الفطر وعيد الأضحى . وكان على جميع الموظفين المدنيين وأعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة - عدا شيخ الإسلام أن يقبلوا طرف رداء الصدر الأعظم حين يدخلون مجلسه . وكان يذهب إلى صلاة الجمعة في موكب رسمى تترك فيه فرقة من حرس السلطان وفرقة المتفرقة بملابس التشرية - الملابس العسكرية الرسمية - وكان الجاوش باشى (٢) وقوة من رجاله يصحبون الصدر الأعظم كل يوم في ذهابه من مسكنه إلى مقر الديوان وفي عودته إلى داره . وكان فريق من رجال الخلعة في القصور السلطانية يقومون على خلعة الصدر الأعظم مرة كل أسبوع . وكان سماح السلطان بهذه الخلعة يعد تشريفاً كبيراً للصدر الأعظم .

### رجال الخلعة الداخية للصدر الأعظم :

وكان يقوم على حراسة حريم الصدر الأعظم جماعة من الحصيان يتراوح عددهم بين أربعة وخمسة ، وكان له خلعة داخلية وخلعة خارجية . ويرأس الخلعة الداخلية أربعة وعشرون غلاماً ، كان أكبرهم ساجدار أغا - حامل

(١) ذكر المؤرخ لبيد أيام الأسبوع التى كانت تم فيها هذه الزيارات الرسمية :

انظر : Lybyer A.H. ; op. cit., p. 166.

(٢) شرحنا اختصاصات هذا الموظف في الفصل الثالث عشر في هذه الدراسة .

السيف وحارمه - وكان من بينهم القهوة جى باشى ، وكانت مهمته أن يمد القهوة ويقدمها للصدر الأعظم ولضيوفه ، وأبر يقدر باشى ، وكانت مهمته أن يحمل لإبريق الماء ويصب الماء منه على يدى الصدر الأعظم حين يرغب فى غسلها ، وبشكير آغا وهو حامل البشكير « المنشفة » يسمح الصدر الأعظم به يديه بعد غسلها ، وصاريق جى باشى ، وهو الذى يلف العمامة ويضعها على رأس الصدر الأعظم ، وبربر باشى وهو الذى يقص شعر الصدر الأعظم ، وجوقه دار آغا أى رئيس الخدم المخصوصين ، وهم جميعاً يطابقون رجال الخدمة الداخلية فى القصر السلطاني - الخاص أوطه ليه - ممن يحملون نفس الألقاب . كما كان للصدر الأعظم مفتاح آغا ، يطابق الانتخاب آغا الخاص بالسلطان (١) . وكان للصدر الأعظم أيضاً ذهبية خاصة يقوم عليها طاقم من البحارة ، ويقود الأوطه باشى هذه الذهبية ، فيملك بالذمة بينما يحمل الآخرون .

#### متاعب وأخطار الصدر الأعظم :

وعلى الرغم من هذه المظهرية البراقة وذلك النفوذ الواسع العريض ، فقد كان الصدر الأعظم تحت رحمة مؤامرات ودسائس الحريم السلطاني والحشيان فى القصور السلطانية ، وسنعرض لهما عند كلامنا على مراكز القوى فى الدولة ، وحينما أن نذكر هنا إبراهيم باشا الذى وقع عليه اختيار السلطان سليمان المشرع ليشغل منصب الصدر الأعظم سنة ١٥٢٤ . وكان والده يونانياً من بترغره . وقد ظفر بتقدير السلطان سليمان إلى حد بعيد حتى أنه زوجه من أخته . ولم تكن مصاهرته للسلطان بعاصمة له من الدسائس التى تعرض لها . فقد نشطت دوائر الحريم السلطاني للإيقاع به ، وروجت شائعات تهمة بأنه طامع فى عرش الحجر . ولما أخفقت هذه الدسيدة ، وجهت إليه تهمة أخرى أشد خطراً ، هى أنه ينو ببعده لاعتلاء عرش الدولة اعتماداً على المصاهرة

(١) الانتخاب لفظة تركية معناها مفتاح . والانتخاب آغاسى ضابط يقوم بأعمال الشرطة ثم أدخلت تعديلات حل اختصاصاته .

التي تربطه بالأميرة العثمانية الحاكمة . وعلى الرغم من أن التهمتين لم يفهم عليهما أى دليل مادى ، فقد اغتيل بأمر السلطان فى مساء ٥ مارس - آذار - سنة ١٥٣٦ وطويت صفحته بعد أن لبث زهاء اثنى عشرة سنة كان خلالها المرجع فى كافة شئون الدولة . ونضيف إلى ذلك أنه لم يكن للصدر الأعظم أية سلطة مباشرة على الهيئة الإسلامية ولا على خدم القصور . وكان الصدر الأعظم يتداوى فى هذا الصدد مع الوزراء سواء بسواء . وكثيراً ما كانت والدته السلطان وزوجاته الأربع تصدرن الأوامر إلى الصدر الأعظم ينقلها إليه شفويّاً كبير الخصيان فيصدع بما يؤمر به .

وكان هناك خطر آخر دام يهدد حياة الصدر الأعظم بحكم أنه كان ينتمى إلى طبقة القولار - عبيد المملوك - فكانت حياته مرتبطة برضاء السلطان عنه . فإذا غضب عليه لم يكن السلطان ليقنع بعزله من منصبه ، بل كان فى غالب الأحوال يقرن عزله بإنهاء حياته . ويذكر ليبر المؤرخ الأمريكى أن حوالى المائتين تولوا منصب الصدارة العظمى فى خمسة قرون أعدم السلاطين عشرين صدرّاً أعظم منهم (١) . والحق أن المفارقات كانت عجيبة بين هذه النهاية المفجعة وبين السلطات الواسعة والحياة الرغيدة والمظهرية المتألقة التى عاشها كل منهم . لقد كانت الدولة تحرص على ألا يظهر الصدر الأعظم أمام الجماهير إلا فى مواكب رسمية تضم حاشية تجمع صفوة العسكريين ونخبة المدنيين يحيطون به من يمين ويسار ، ومن أمام وخلف ، وتتقدمه سارية تحمل خمسة أطواخ .

#### الوزراء وعدد الأطواخ :

كان لكل وزير ثلاثة أطواخ - جمع طوخ وتكتب فى بعض المراجع العربية بحرف الغين على هذا النحو : طوغ وأطواغ ، وتكتب فى بعض المراجع غير العربية أحياناً Tugh وأحياناً أخرى Tug - والطوخ هو ذيل حصان معلق فى سارية وفى أعلاها كرة من النحاس المطل بالذهب .

وكان كبار موظفى الدولة يتميزون بعدد الأطواخ التى ترفع أمامهم فى

المواكب والحفلات الرسمية ، حيث كانت تتقدمهم سارية تحمل الطوخ أو الأطواخ المقررة بحكم القانون لكل منهم . وعدد الأطواخ هو الذى يحدد مراكز كبار رجال الدولة (١) . فالسلطان له تسعة أطواخ ، وللصدر الأعظم خمسة أطواخ . أما الوزير فترفع أمامه ثلاثة أطواخ وكذلك الذين يحملون رتبة الباشوية . وكان البك يحمل طوخاً واحداً أو طوخين تبعاً للمركز الذى يشغله ، فإذا كان يحكم وحدة إدارية هى الصنحية فإنه يحمل طوخاً واحداً ، وإذا كان حاكماً لولاية صغيرة أو متوسطة فإنه يحمل طوخين . وإذا صدر فرمان سلطاني بمنح أحد البكوات رتبة الباشوية فإنه يحمل بقوة القانون ثلاثة أطواخ بصرف النظر عن المنصب الذى يشغله . وكان يحدث أن تسند ولاية دمشق أو حلب أو بغداد أو مصر إلى ولاية سبق لهم تقلد منصب الصدر الأعظم أو كانوا وزراء ، فى مثل هذه الحالات كان يسمح لهؤلاء الولاة بالاحتفاظ بحقهم المقرر لهم من قبل فى عدد الأطواخ على الرغم من أن منصب الوالى كان يقل عن منصب الصدر الأعظم (٢).

ويدل استخدام الأطواخ على أن العثمانيين كانوا متمسكين بالحفاظ على التقاليد التى تتمثل فى بعض الرموز أو الشعارات المستمدة من أصول قبلية تركية قديمة . ويرى بعض المؤرخين أنه من المحتمل أن يكون هذا التقليد مستمداً من أصل طوطمى (٣) Totemic origin وكانت الأطواخ تؤخذ أول الأمر من ذبول الياكات Yaks . ثم رأت الدولة أن تستبدل ذبول الخيل بذبول الياكات .

### مجموعتان من الصدور العظام :

يلاحظ أولاً أن المدنيين والعسكريين تعاقبوا على منصب الصدرة العظمى .

Hourani Albert H., The Ottoman Background etc., op. (١)

cit., p. 7.

(٢) دكتور عبد الكريم غرايبة ، سوريا فى القرن التاسع عشر ، مرجع سبق ذكره ،

ص ٤١ ، ص ٤٣ .

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op.. cit., Vol. I, Part (٣)

1, p 139.



فلم يكن هذا المنصب وقفاً على فريق دون فريق . ولكن كانت الحاجة ماسة في عهد سلاطين الفترة الثانية إلى شغل هذا المنصب بالعسكريين ، لأن الصدر الأعظم كان يقود المعارك الحربية بدلا من السلطان الذي كان يؤثر الالامة والعزلة عن الجماهير وتلمس أسباب المتعة بشرب الخمر أو الإقامة في أجنحة الحرم (١) .

وقد حفل تاريخ الدولة بعدد من الصدور العظام كانوا على حظ موفور من الكفاية والإخلاص والزهادة . نهض بعضهم بالدولة بينما أنقذها البعض الآخر من الانهيار في أواخر القرن السابع عشر مثل كوبرلي . وقد تولى خمسة من أفراد هذه الأسرة - وهي أسرة ألبانية - منصب الصدارة العظمى (٢) ، وأسدى أربعة منهم على الأقل خدمات جليلة للدولة وسنلتقى ببعض أفراد أسرة كوبرلي في هذه الدراسة .

(١) من بين العسكريين الذين تولوا منصب الصدارة العظمى ، نذكر منهم :

- ١- هازي حسن باشا ( ١٠٢٣-١٠٢٤هـ / ١٦١٤-١٦١٥ م ) .
  - ٢- ساحدار محمد بانا ( ١١٤١-١١٤٣هـ / ١٧٢٨-١٧٣٠ م ) .
  - ٣- سلحدار سيد محمد باشا ( ١١٤٨-١١٥٠هـ / ١٧٣٥-١٧٣٧ م ) .
  - ٤- سلحدار ماهر حزه باشا ( ١١٨٢-١١٨٣هـ / ١٧٦٨-١٧٦٩ م ) .
  - ٥- سلحدار محمد بانا ( ١١٨٤-١١٨٥هـ / ١٧٧٠-١٧٧١ م ) .
  - ٦- حلمي إبراهيم بانا أغا الإنكشارية ( ١٢٢١-١٢٢٢هـ / ١٨٠٦-١٨٠٧ م ) .
  - ٧- سلحدار مصطفى باشا ( ١٢٢٣-١٢٢٤هـ / ١٨٠٨ م ) .
  - ٨- سلحدار علي باشا ( ١٢٣٩-١٢٤٠هـ / ١٨٢٣-١٨٢٤ م ) .
- ويلاحظ أن هؤلاء الصدور العظام قد تولوا هذا المنصب إبان عهد سلاطين الفترة الثانية .

انظر

- محمد جبل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٣٤-٣٥ .
- (٢) محمد كوبرلي بانا تولى الصدارة العظمى من سنة ١٦٥٦ إلى وفاته سنة ١٦٦١ .
- (ب) ابنه فاضل أحمد باشا وغد عين صدرأ أعظم بعد وفاة والده مباشرة في سنة ١٦٦١ وظل في منصبه حتى جاز إلى رده سنة ١٦٧٦ .
- (ج) فاضل مصطفى بانا ابن محمد بانا عين صدرأ أعظم سنة ١٦٨٩ إلى أن قتل في حربه سنة ١٦٩١ .
- (د) حسين بانا ابن أخ محمد باشا عين صدرأ أعظم سنة ١٦٩٧ إلى أن احتزل الخليفة سنة ١٧٠٢ .

ولئن حفل تاريخ الدولة بهذا الطراز الطيب من الصدور العظام فقد اثنى تاريخها أيضاً بعدد آخر يصلق عليهم وصف المتسلقين . فقد كانوا إما جهلة وإما وصلوا إلى منصب الصدارة العظمى بطرق غير شريفة أو غير كريمة . وقد وضع أحد الباحثين ثبناً بأسماء ثلاثة وعشرين شخصاً بدأوا حياتهم خدماً في القصور السلطانية ، ثم دارت الأيام دورتها ، فإذا هم يتولون منصب الصدارة العظمى الذى كان المنصب الثانى فى الدولة بعد السلطان . وفى هذا الثبوت ذكر الباحث نوع الحرفة أو العمل الذى مارسه كل منهم قبل أن يشغل ذلك المنصب الخليلي ، كما ذكر اللمنة التى تولى فيها منصب الصدر الأعظم وسنة وفاته أو عزله أو إعدامه . ومن هذا الثبوت نقف على حقائق مذهلة : كان من بينهم من كان مربياً للسلطان ، أو خادماً ، أو بيتانياً ، أو خطاباً فى القصور السلطانية (١) . وحادث الشبهات حول عدد منهم من حيث عدم الزاهة ، استغلوا نفوذ المنصب الكبير الذى سما إليه كل منهم وتغنوا فى ابتداع وسائل الكسب غير المشروع لإغناء أنعام ثرواتهم . ومن الأمثلة التى تساق فى هذا الصدد الصدر الأعظم صوقلو محمد باشا . وكان صقلياً من مواليد قرية صوقل فى إقليم البوسنة . وكان اسم صوقلو الذى اشتهر به هو تترك اسم الأصل صوقوليشيتش (٢) Sokolevich وقد تزوج إسمات الأميرة ابنة السلطان سليم الثانى فاكتسب لقب داماد ، وغدا اسمه داماد صوقلو محمد باشا . وظل متربعاً فى منصب الصدر الأعظم مدة تراوحت بين خمسة عشر عاماً وثلاث عشرة سنة (٣) .

(٥) نعمان باشا هو أين مصطفى باشا . وقد شغل منصب الصدر الأعظم من سنة ١٧٠٢ إلى سنة ١٧١٠ وقد تزوج من عائشة سلطان أخت السلطان مصطفى الثانى فأصبح اسمه داماد نعمان باشا .  
أنظر

Gibb Hamilton & Bowen Harold op. cit., vol. I. Part 1, p. 110, fn. 3

(١) محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٤-٣٥

Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part I. (٢)

p. 110, fn. No. 3.

(٣) يقول البعض إنه تولى منصب الصدر الأعظم فى سنة ١٥٦٥ فى أواخر حكم السلطان سليمان المشرع ، وإنه خدم هذا السلطان فى منصب كصدر أعظم خمسة عشر شهراً ، بينما يقرر البعض الآخر أنه شغل منصبه سنة ١٥٦٨ بعد ستين من وفاة السلطان سليمان وفى أثناء حكمه

زين له جشعه وخلقه السيء أن يفرض على حكام الولايات العثمانية أن يعيدوا شراء مناصبهم كل سنة ، بعد أن كانت عملية الشراء تتم مرة واحدة عند التعيين لأول مرة في المنصب . وكانت عمليات تجديد الشراء السنوية تقترن بأن يقدم كبار الموظفين إلى صوقلو باشا هدايا نقدية وعينية تتناسب مع المركز القيادي الذي يشغله كل منهم والموارد المالية التي يديرها هذا المركز القيادي . وما يذكر في هذا الصدد أن الباشا العثماني في مصر كان يدفع ما يزيد على مائة ألف بندقى (١) كل سنة إلى محمد صوقلو باشا لقاء تجديد شراء منصبه أو بعبارة أخرى تجديد تعيينه وإبقائه والياً على مصر لمدة سنة أخرى (٢) . أما إذا توفي أحد شاغلي المناصب فكان صوقلو باشا يعين خلفاً له من يدفع أعلى ثمن للوظيفة التي كان يشغلها المتوفى . وامتدت أطماعه إلى العلاقات الخارجية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية . وحسبنا أن نذكر مثالا واحدا لهذا النوع من التصرفات ، فقد نجحت جمهورية البندقية في أن تشتري من صوقلو باشا صلحا في سنة ١٥٧٣ لقاء خمس عشرة ألف دوكة (٣) . ولقي هذا الصلح الأعظم مصرعه في سنة ١٥٧٩ جزاء وفاقاً لما فعله من شرور في حق دولة آوته ورفعته مكاناً عالياً في حياته الوظيفية . كان صوقلو محمد باشا قدوة سيئة أمام موظفي الدولة في شتى فروع الإدارة سواء الإدارة المركزية أو حكومات الولايات وبخاصة أنه استمر سنوات طوالاً في موقعه ، ويذكر الرجل الثاني في

---

أبيه سليم الثاني ، ويتفق الجميع على أنه ظل يشغل منصبه حتى قتل سنة ١٥٧٩ على عهد السلطان مراد الثالث . وعلى ذلك فإن داماد صوقلو محمد باشا عاصر وهو يشغل هذا المنصب ثلاثة سلاطين ( سليمان المشرع ، وسليم الثاني ، ومراد الثالث ) في رواية ، وعاصر سلاطين اثنين ( سليم ومراد ) في رواية أخرى .

(١) محمد جميل بهيم : فلسفة التاريخ العثماني ج ٢ مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٤-٣٥  
(٢) البندق حلة ذهبية تلصق إلى جمهورية البندقية .

(٣) كارل بروكلمان ، الكتاب الثالث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦ ويضرب هذا المستشرق الأماني أمثلة أخرى على الوسائل غير المشروعة التي كان يلجأ إليها صوقلو باشا في استغلال منصبه وإغناء ثروته .

(٤) الدوكة وجمعها دوكات وهي حلة ذهبية ، وهي على أنواع منها الدوكات النمساوية ، وقد أطلق العثمانيون عليها اسم حجر آلتين أي الذهب المجرى ، ومنها الدوكات البندقية ، وقد أطلق العثمانيون عليها اسم فلورى أو بالديز آلتين

الإمبراطورية يستغل نفوذه لمصلحته الشخصية أسوأ استغلال معتمداً على مصاهرته للأسرة السلطانية .

### منصب الصدارة العظمى بين الأحرار والعبيد :

وحق فتح القسطنطينية كان منصب الوزير الأول يشغله مسلمون أحرار (١) . فقد عين السلطان أورخان بن عثمان الأول (١٣٢٦ - ١٣٦٠) أخاه الأمير علاء الدين في هذا المنصب ، واكتسب علاء الدين شهرة واسعة . كما اشتهرت في تاريخ الدولة العثمانية أسرة إسلامية هي أسرة چاندارلى (٢) Gandarli تولى أفراد منها من وقت لآخر لمدة أربعة أجيال ذلك المنصب (٣) . وكان رابع أفراد هذه الأسرة ، ويسمى خليل باشا-يشغل ذلك المنصب وقت فتح القسطنطينية . وكان تعيين مسلم حر في منصب رئيسي في نظام الحكم أمراً شاذاً . ويقال إن السلطان محمد الفاتح قد ساورته المخاوف من النفوذ الواسع الذى بلغته أسرة چاندارلى ، وشك في قيام تواطؤ بين خليل باشا والبلط البزنطى ، واتهمه بالخيانة العظمى وأعدمه في ذات السنة التى تم فيها فتح القسطنطينية . واتجه تفكيره إلى إلغاء منصب الوزير الأول كلية والاستغناء نهائياً عن خدماته اتقاء للشبهات التى تحوم حول شاغل المنصب . وظل على رأيه ثمانية أشهر ، ثم رأى أن يجعل التعيين في هذا

---

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part 1, p 109.

(٢) برد اسم هذه الأسرة في المراجع الإنجليزية والفرنسية في صيغ مختلفة منها : Gendereli, Genderli, Gandarli.

(٣) كان الوزراء الأربعة هم :

أ - قره خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الأول ( ١٣٦٠ - ١٣٨٨ ) .  
ب - ابنه على ، وقد عين على عهد السلطان أبي يزيد الأول ( ١٣٨٨ - ١٤٠٣ ) .  
ج - ابنه إبراهيم ، وقد عين على عهد السلطان محمد الأول ( ١٤١٣ - ١٤٢١ ) .  
والسلطان مراد الثاني ( ١٤٢١ - ١٤٥١ )  
د - ابنه خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الثاني والسلطان محمد الثاني ( ١٤٥١ - ١٤٨١ )

( م - ٢٤ الدولة العثمانية )

المنصب مقصوراً على القولا ر أى طبقة العبيد . وفلا عين فى منصب الوزىر الأول رجلا من هذه الطبقة . هو محمود باشا عدنى (١) . ومنذ مطلع سنة ١٤٥٤ أصبح الصلور العظام والوزراء يعىنون من الماوظفىن العبيد(٢) .

### وزراء القبة :

استحدث السلطان محمد الثانى نظام وزراء القبة ، وهم وزراء يخضعون للصدر الأعظم ، ويجلسون إلى جانبىه تحت سقف واحد أو قبة واحدة . ولذلك أطلق عليهم «قبة وزىرلى» ، أى وزراء القبة . وكان كل منهم يحمل لقب وزىر وثلاثة أطواخ ، ورتبة الباشوية . وكان عددهم أول الأمر أربعة ثم ارتفع إلى ستة ثم زاد عددهم تبعاً فى القرن السادس عشر . وكانت أقدميتهم هى التى تحدد وضعهم فى البروتوكول العثمانى ، فىسمى أحدهم الوزىر الثانى ، والآخر الوزىر الثالث ، وهكذا .

وكان الاختيار يقع على أحد وزراء القبة — هو الوزىر الثانى عادة — ليحل محل الصدر الأعظم فى أثناء تغيبه فى ميدان الحرب . وكان وزىر القبة يسمى فى هذه الحال «قائمقام» ، ويتمتع بسلطات الصدر الأعظم . ويكون تعيينه قائمقاماً بمثابة ترشيحه للترقية إلى منصب الصدارة العظمى فى قابل الأيام . كما كان يعهد إلى وزراء القبة بقيادة الحملات العسكرية الصغيرة نسبياً . وكان يسمى فى هذه الحال «السر دار» . ويسير إلى الحرب ومعه قوات من سلاح المشاة من الإنكشارية وقوات من سلاح الفرسان من الخيالة الثابتة ، وينضم إليه فى الطريق الحكام المحليون مع قواتهم الإقطاعية وقوات خدمتهم الخاصة .

وكان الهدف من إنشاء نظام وزراء القبة ، كما خطط له السلطان محمد

(١) D'Ohsson, Ignatius Mouradgea, ; op. cit., t. vii, p. 152 .

(٢) خروجاً على هذه القاعدة العامة للنولة الثمانية وجدت حالة استثنائية واحدة حين أصدر السلطان أبو يزيد الثانى ( ١٤٨١-١٥١٢ ) ابن السلطان محمد الفاتح فرماناً بتعيين أحد أفراد أسرة چالدارلى ، وهو إبراهيم بن خليل ، فى منصب وزىر أول ، وظل متقلداً هذا المنصب زهاء ثلاث سنوات ( ١٤٩٧-١٤٩٩ ) .

الفتاح ، هو الحد من سلطات الصدر الأعظم . ولكن لم يتحقق شيء مما كان يهدف إليه هذا السلطان . فقد أصبح وزراء القبة بمعنى الزمن عنصراً قوياً من عناصر المؤامرات . وقد حاولوا أول الأمر أن يزيدوا من سلطاتهم ، ولكن كانت صلاحياتهم تقف حجرة عثرة في سبيل تحقيق مطامعهم ، ومن ثم انجهوا إلى المؤامرات والدسائس التي لم تنقطع يوماً عن زعزعة سلطة الصدر الأعظم وتهديد الدولة بأعظم الأخطار . وقد ألغى نظام وزراء القبة كلية في أوائل القرن الثامن عشر .

### الباب العالي :

كانت المسائل الكبرى للدولة تبحث في القصر السلطاني . وفي ذات الوقت كان الصدر الأعظم يسكن منزلاً صغيراً أو متوسطاً خارج القصر . ورأى السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) أن ينحصر مبنى شاسعاً فخماً يتيم الصدر الأعظم وأسرته وخلبته وحرسه في أحد أجنحته ، وتخصص باقي الأجنحة لاجتماعات كبار موظفي الدولة يقومون فيها بتصريف مهامهم . وتم إنشاء هذا المبنى في سنة ١٦٥٤ فكان مسكناً رسمياً للصدر الأعظم ومقرّاً لديوان عام تبحث فيه مسائل الدولة باستثناء المسائل المالية التي كان لها مبنى خاص يسمى « دفتر دار قابسي » أي « بوابة الدفتر دار » وكانت تضم جميع أقسام الإدارة المالية كما سترى في موطن قادم . وكان درويش محمد باشا الصدر الأعظم للسلطان محمد الرابع أول من سكن مبنى الباب العالي من الصدور العظام . وغدا اسم هذا المبنى « باشي قابسي » ، أي بوابة الباشا ، « وباني عالي » ، أي بوابة عليا ، ثم اكتسب اسم الشهرة في التاريخ وهو الباب العالي (٢)

(١) يقرر بعض الباحثين أن السلطان سليمان المشرع هو الذي أمر بتشييد المبنى ، وأنه أطلق على مجلس الوزراء الباب العالي ، وأنه ضاعف مرتبات أعضائه ، وأنه أطلق على رئيسه لقب الصدر الأعظم .  
أنظر :

محمد جميل بيم : فلسفة التاريخ الثماني ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٣ .  
(٢) يرى هاتر أنه من المحتمل أن مصطلح « بابي عالي » كان يطلق من قبل على قصر السلطان ، ثم أصبح يستخدم للإشارة إلى المسكن الرسمي للصدر الأعظم ومقر السلطة الفعلية .

La Porte Sublime ، ويرى بعض المؤرخين أن إنشاء الباب العالى كان دليلاً على أنه أصبح مركز الثقل السياسى فى الدولة (١) ، لأنه قبل إنشاء هذا الصرح كانت تبحث كل الشؤون العامة للدولة فى القصر السلطانى ، فغدا الباب العالى هو مناط السلطة والمرجع الأعلى فى جميع شئون الدولة ، الداخلى والخارجى ، المدنية والعسكرية .

### المابين :

ظل الباب العالى على وضعه القيادى السياسى المتفوق حتى السبعينات من القرن التاسع عشر . ولما أصدر السلطان عبد الحميد الثانى فى اليوم الرابع عشر من شهر فبراير - شباط - ١٨٧٨ قراره المشهور بتعطيل الدستور وفض مجلسى المبعوثان والأعيان وأجلى اجتماعاتها إلى أجل غير مسمى ، انفرد هذا السلطان بحكم الدولة حكماً مطلقاً . وأصبح ديوانه الخاص فى قصر يلدز المؤلف من مستشاريه هو المرجع الأول فى شئون الحكم دون الباب العالى . وقد عرف هذا الديوان باسم « المابين » وهى لفظة مأخوذة من اللغة العربية ، لأن هذا الديوان كان أداة الاتصال بين السلطان والباب العالى ، فهو ما بين الفريقين (٢) .

---

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, Part (١)  
1, p. 113.

(٢) يبدو أن هذا المصطلح « المابين » قد اقتبس من مصطلح يحمل نفس الاسم لنظام الخدمة الداخلية فى القصور السلطانية . فقد أطلق مصطلح « المابين » على مجموعة الغرف التى كانت تقع بين جناح الحريم والباط الداخلى . وكان لا يسمح لأحد بدخول جناح الحريم إلا للسلطان والخصيان والنساء . وفى هذه الغرف الواقعة بين الجناحين كان الرجال من أفراد الخاشية يقومون على خدمة السلطان لقصر شعره وتقليم أظفاره وإلباسه ولفى العمامة ووضعها على رأسه . وكان لكل مهمة من هذه المهام موظف خاص يحمل اسماً خاصاً ويرأسهم جليماً الباشى جوقة دار ، أى رئيس الخدم الخصوصيين . وكان يطلق عليهم المابينجية . وعلى ذلك فالفارق بين « مابين » قصر يلدز وما بين سائر القصور أن الأول كان خاصاً بالمستشارين السياسيين والقانونيين وعلماء الدين ومن إليهم الذين استعان بهم السلطان عبد الحميد الثانى ، بينما كان « مابين » القصور السلطانية الأخرى يزدهم بالخدم الخصوصيين للسلطين .

## الفصل الثالث عشر

### الهيئات الحاكمة في الدولة (٢)

الديوان الإمبراطوري ( الهمايوني ) .

كان الديوان بمثابة مجلس وزراء موسع . كان سلاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته . وكان يطلق عليه الديوان الهمايوني (١) Le Divan Houmaïoun واستمر هذا التقليد متبعاً حتى عهد السلطان سليمان المشرع الذي تخلف عن حضور جلساته وتمخّل عن رئاسة الديوان للصبر الأعظم . فأصبح الديوان في وضعه الجديد يتكون — فضلاً عن رئيسه الصبر الأعظم — من الوزراء وعدد من كبار موظفي الدولة كان يطلق عليهم باللغة التركية « أركان دولت » أى أركان الدولة يمارسون عضوية الديوان بحكم وظائفهم *ex officio* .

ولكى نقف على تشكيل الديوان واختصاصاته وأسلوبه في تدبير دفة أمور الدولة نلّم أولاً إلماماً سريعاً بشاغلي المناصب الكبرى في الإدارة المركزية في الدولة والمصطلح التاريخي الذي كان يطلق على كل منهم . وهم : الرئيس أفندي ، النشائجي باشي ، الجاوش باشي ، كاخيا بك ، الباش دفتردار ، الدفتر أمينى .

الرئيس أفندي :

يلاحظ أولاً أن كلمة أفندي في تاريخ الدولة العثمانية تطلق على أرباب القلم ، بينما تطلق لفظة أغا على أصحاب السيف . وكان « الرئيس أفندي » في العصر

---

( ١ ) هـايرن كلمة فارسية معناها الحرق مبارك ، مقس ، حسن الحظ . وتستخدم بمعنى ملكي أو سلاطاني أو إمبراطوري . وتأسساً على ذلك فإن عبارة الديوان الهمايوني معناها الديوان السلطاني أو الديوان الإمبراطوري .



الأول ذا مركز متواضع نسبياً بالنسبة للنشأى باشى أو الكاخيا بك أو الجاوش باشى أو الدفردار ، أو غيرهم من كبار موظفى الإدارة المركزية . وبوصفه أكبر الكتاب مركزاً فى سكرتارية الصدر الأعظم كان يطلق عليه رئيس الكتاب . وما نفلن فى تاريخ الدولة منصباً كهذا المنصب بدأ بداية متواضعة ثم مر بتطورات متعاقبة قفزاً إلى أعلى حتى أصبح منصب الرئيس أفندى مرادفاً لمنصب وزير الخارجية العثمانية .

وتتلخص اختصاصاته وتطوراتها فى المجالات التالية :

أولاً : كان يشرف على السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم ، فكان يعتبر نائباً عن الصدر الأعظم فى شئون السكرتارية . وامتدت اختصاصاته إلى خارج السكرتارية ، فكان يشرف على كبار الكتاب فى الخزانة العامة و خزينة عامرة .

ثانياً : كان يتولى حفظ القوانين عدا القوانين الخاصة بالشئون المالية وحيازة الإقطاعات ، كما كان يقوم بإعداد جميع الأوامر غير الخاصة بالشئون المالية .

ثالثاً : كان يقوم بإصدار براءات السلطة التى كانت تعطى لحكام الولايات وأصحاب الإقطاعات العسكرية وشاغلى الوظائف من أهل العلم والقابضى باشية والسكرتيرين الذين يعملون فى الإدارة والذين يتلقون إهانات من الأوقاف الدينية .

ويلاحظ أن هذا الاختصاص الأخير المتعدد الصور والأشكال كان ذا طابع وثائقى . ولذلك كان يعمل تحت إمرته ومتعاوناً معه موظف يسمى بيليكجى Beylikji يرأس قسماً يختص بحفظ القوانين وإعداد الأوامر السلطانية يسمى ببليك قلمى Beylik Kalemى أى قلم الوثائق ، لأن كلمة ببليك تحريف لكلمة « بتك » Bitik بمعنى وثيقة .

واستحدثت الدولة قسمين آخرين - غير ببليك قلمى - لإصدار البراءات . كان أحدهما يسمى «نحويل» وهو اسم يطلق على البراءات التى تصدر إلى موظفى

الطبقتين الأوليين من أهل العلم . وكان الآخر يسمى «رعوس» وهو تعبير يطلق على البراءات التي تصدر إلى أهل العلم من هم دون الطبقة الثانية وسكرتيرى الإدارة . وكان اصطلاح «براءات» يطلق على تلك التي تعطى لحكام الولايات . أما أصحاب الإقطاعات الحربية فكان يطلق على البراءات الصادرة إليهم اسم «ضبط فرمانى» . وكانت تصدر من مكتب التحويل أيضاً . وأخيراً فإن اصطلاح «براءات» كان يطلق كذلك على التصاريح بصرف معاشات من خزانة الأوقاف الدينية ، ولكنها كانت تصدر عن قسم الرعوس . وكان يعمل فى السكرتارية حشد من الموظفين بلغ عددهم فى القرن الثامن عشر قرابة مائة وستين كاتباً من ثلاث فئات (سكرتيرون ، وشاكردات ، وشرهلوات) . وكان يشرف عليهم ستة من رؤساء الموظفين هم :

١ - القانونى وكانت مهمته البحث فى مجموعة قوانين الدولة عن نص قانونى ينطبق على مشكلة ما قد تثار أو تطرأ .

٢ - الإعلامى ويختص بوضع مذكرة عن مثل هذه المشكلات التى قد تطرأ والنص القانونى الذى عاجلها . والكلمة مقتبسة من اللفظة العربية : أعلم بمعنى أخبر أو أبلغ .

٣ - المميز ومعناها فى هذا المجال المحقق . وكان يقوم بفحص وتصحيح الوثائق التى يعدها الكتبة . والكلمة مأخوذة من اللغة العربية : ميز .

٤-٦ ثلاثة موظفين يطلق على كل منهم لقب «كبسه دار» أى حامل الكيس . وكلمة الكبسة مأخوذة من اللغة العربية بمعنى كيس النقود . وكان الرئيس أفندى «كبسه دار» مستقل وخاص به<sup>(١)</sup> وهؤلاء الرؤساء الستة كانوا يتبعون البيليكجى .

رابعاً : كان الرئيس أفندى مسئولاً عن الصياغة اللفظية وعن محتوى التقارير والمذكرات التى يضعها الصدر الأعظم ويرفعها للسلطان . وكانت

هذه المحررات تسمى « تلخيص » . وكان يساعد الرئيس أفندى فى هذه المهمة موظف آخر يسمى « آمدجى » ، وهى كلمة فارسية مشتقة من آمد بمعنى حضر أو أتى . وكان الآمدجى بمثابة مساعد للرئيس أفندى .

خامساً : تطور اختصاص الرئيس أفندى فأصبح الموظف المختص بشئون السياسة الخارجية للدولة ، وبعبارة أخرى غدا وزير الخارجية العثمانية . وظهر هذا الاختصاص فى عصر متأخر ، لأن العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية كانت فى أول الأمر فى نطاق ضيق للغاية . كان السلطان أول الأمر يملئ رغباته ، فلذا لم تلق استجابة من الدول الأجنبية كان يعلن الحرب . ثم بدأت الدولة العثمانية تعقد معاهدات ثنائية أو جماعية مع تلك الدول ، ووافقت على إنشاء تمثيل دبلوماسى وقنصلى بينها وبين الدول غير الإسلامية بعامة والدول الأوروبية بخاصة . وشهدت دار السعادة - إستانبول - قيام سفارات وقنصليات عامة لهذه الدول . وكان الصدر الأعظم أول الأمر هو الذى يقوم بإجراء المفاوضات واستقبال أعضاء البعثات الدبلوماسية . ولم يكن الرئيس أفندى وقتذاك يفعل أكثر من تسجيل المعاهدات . كما كان يفعل عند تسجيل أى أمر سلطانى أو قرار وزارى .

ولما تزايدت أعباء الصدر الأعظم ، وكان انزواء سلاطين الفترة الثانية عن الحياة العامة من بين أسباب تزايد هذه الأعباء ، ولما ازدادت العلاقات الخارجية للدولة بالدول الأجنبية عمقاً واتساعاً ، أحيلت مسائل السياسة الخارجية تباعاً إلى الرئيس أفندى ، واستعان الأخير بمجهاز من الخبراء والمترجمين . كان الخبراء يقومون بتزويده بكافة المعلومات السياسية والتاريخية والاجتماعية والدينية عن الدول الأجنبية . وكان المترجمون يتولون ترجمة المذكرات التى تبعث بها السفارات الأجنبية فى إستانبول إلى اللغة التركية وبالعكس . وكان هؤلاء المترجمون حتى أواسط القرون السابع عشر الميلادى من أصل أوروبى اعتنقوا الإسلام . ومنذ أوائل القرن الثامن عشر استعانت الدولة بمترجمين من عائلات يونانية تسكن حى الفنار فى إستانبول ويعرفون باسم « الفناريون » Les Phanariotes وكانوا على حفظ موفور من العلم والثقافة وسعة الأفق العقلى

والثراء وتمتعوا بعراقة الأصل وكرم المحتد . وقد سبق أن التقينا بهم في هذه الدراسة (١) . وكانت الدولة تؤثرهم بالتعيين في المناصب الكبرى التي تحتاج إلى خبرات خاصة في الباب العالي وتختار من بينهم الأميرين اللذين كانا يحكان ولايتي الدانوب تحت السيادة العثمانية (٢) . وكان هؤلاء المترجمون ينقسمون إلى مجموعات تختص كل مجموعة بلولة أجنبية أو ببعض دول . فكان مترجمو كل مجموعة يعملون المذكرات السياسية التي تتناول النقاط الرئيسية عن الموضوعات التي يتناولها الرئيس أفندي سواء في مقابلاته مع سفراء الدول أو في مفاوضاته مع البعثات الأجنبية . وكان رئيس المترجمين - ويطلق عليه ديوان ترجماني أى مترجم الديوان - يحضر مقابلات السلطان أو الصدر الأعظم أو الرئيس أفندي للسفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات الأجنبية التي كانت تمر بإستانبول . والباحث المتمتع في تاريخ العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن التاسع عشر تلفت نظره هذه الظاهرة : وهي سعى السفير في إستانبول أو الشخصية الأجنبية الوافدة إلى العاصمة لمقابلة ترجمان الرئيس أفندي لبحث معه المشكلات العاجلة والمعلقة بين الدولة العثمانية والدولة التي يمثلها السفير مما جعل لهذا الترجمان مركزاً مرموقاً في نظر أعضاء البعثات الدبلوماسية في العاصمة . وقد استمد هذا المركز من اتصاله الوثيق بالرئيس أفندي . ويلاحظ أن المؤرخين الأوروبيين يشيرون في مؤلفاتهم إلى وزير الخارجية العثمانية بأنه الرئيس أفندي el Reis offendi وكان هذا الرئيس أفندي في نظر الدبلوماسيين الأوروبيين في ذلك الوقت هو الشخص الثالث في الدولة بعد السلطان والصدر الأعظم . أما الغالبية الساحقة من الأتراك العثمانيين فلم يدركوا أهميته أو أهمية منصبه .

### النشائي باشي :

اشتقت هذه الكلمة من اللفظة الفارسية « نشان » بمعنى شارة . وكان النشائي يضع ختم الطغراء على الوثائق والمراسيم وسائر الأوراق الرسمية .

(١) انظر ص ٦٨ في هذه الدراسة

Miller W. ; op. cit., p. 16, pp 25—27.

(٢)

والطغراء هي شارة السلطان العثماني ، وهي نقش متداخل معتد يحمل اسم السلطان . وكان كل سلطان يتولى العرش يأمر بعمل طغراء خاصة به ، كما كانت تنقش هذه الطغراء على أحد وجهي العملات الذهبية أو الفضية التي تسك على عهده في الضربخانه ، أي دار سك العملة . وقد أخذ الأتراك العثمانيون استخدام الطغراء عن السلاجقة منذ حكم السلطان أورخان بن عثمان ، ولكن لم يتم إنشاء منصب النشائي إلا على عهد السلطان محمد الفاتح وبعد فتح القسطنطينية .

وكان يذكر اسم النشائي مقروناً بكلمة الباشي فيقال النشائي باشي ، ولكن غلبت عليه التسمية بدون ذكر كلمة باشي (١). وكان للنشائي مقعد في الديوان منذ البداية مما يدل على أهمية المنصب الذي يشغله وبدليل أن شاغل بعض المناصب القيادية في الإدارة المركزية مثل الرئيس أفندي ، وكاخيا بك لم يحصل أى منها على مقعد في الديوان (٢) .

وعلى الرغم من أن الاختصاص الأساسي للنشائي كان ختم الوثائق والمراسم بالطغراء ، فقد كانت له عدة اختصاصات علمية وفنية على درجة كبيرة من الأهمية بل والخطورة . كان له حق اختيار الوثائق التي يختتمها بالطغراء وتصحيحها والتأكد من مسيرتها للقوانين المعمول بها ، وتفرع عن الاختصاص الأخير حق هام هو إجراء تعديلات على الوثائق منعاً لقيام تعارض مع القوانين واللوائح حديثة الصدور (٣) . وفي ضوء هذا الحق أصبح النشائي يشبه إلى حد ما « المفتي » الذي كان من اختصاصاته أن يقرر أن الإجراء المزمع اتخاذه يتماشى مع قواعد الشريعة الإسلامية . ومن هنا كان النشائي يعتبر « مفتياً للقوانين » . ومع ذلك كان النشائي لا يستطيع تعديل النصوص إلا إذا تلقى أمراً بهذا المعنى يسمى « تصحيح فرمانى » ويختتمه الصدر الأعظم بنفسه

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 182.

(١)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. 1,

(٢)

Part 1., p. 118.

Loc. cit., p. 125.

(٣)

بالطغراء منعاً لإساءة استخدام الحق المخول للنشائجى فى هذا الصدد. وبعد إدخال التعديل المطلوب وحفظ القانون المعدل فى « الدفترخانه » أى دار السجلات كان النشائجى يحتفظ بالأمر الصادر له ، وهو « تصحيح فرمانى » كسند لديه يدافع به عن نفسه إذا أثير موضوع التعديل فى قابل الأيام . واستمر شاغلو هذا المنصب - النشائجية - يمارسون حق مراجعة وتصحيح الوثائق التى تقدم لهم لكى يخدموها بالطغراء حتى ألقى هذا الحق رسمياً على عهد السلطان أحمد الثالث (١) (١٧٠٣ - ١٧٣٠) . وكان من اختصاص النشائجى أيضاً ترتيب مجموعات القوانين المعروفة باسم « القانون نامات » وإعدادها للنشر .

هذه الاختصاصات الدقيقة والمهمة التى أعطيت للنشائجى تطلبت أن يكون هذا الموظف على حظ موفور من العلم . وكان يتم اختياره على عهد السلطان محمد القانع من هيئة العلماء ، ثم عدلت الحكومة عن اختياره من هذه الهيئة واعتمدت على طبقة القولار - العبيد - فى شغل منصب النشائجى . ويقول ليبير الأمريكى تعليقاً على هذا الاتجاه إن الأسباب العامة التى جعلت السلاطين يؤثرون العبيد بوظائف الهيئة الحاكمة هى التى جعلتهم يختارون منهم من يصلح لشغل منصب النشائجى (٢) .

وكان النشائجى يتمتع أول الأمر ببعض السلطة على الرئيس أئندى . وتمتد هذه السلطة بالتبعية إلى السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم ، كما كان له نفوذ على دار السجلات وعلى رئيسها « الدفتر أمينى » ، أى أمين السجل . وكانت تحفظ فى تلك الدار جميع الوثائق الخاصة بالسجلات .

وكان النشائجى يعتبر فى السلم الوظيفى ناداً لمدير الإدارة المالية - الدفتردار - ويظل فى هذه الوظيفة إلى أن يرقى النشائجى إلى الوزارة أو إلى الرتبة التى تليها مباشرة وهى رتبة حاكم بلاد الروم - البلقان - بكربكى الروملى . وقد أخذ مركز النشائجى فى الأفلو فى الوقت الذى ارتفع فيه مركز

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part I, (١)  
p. 126.

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 186.

(٢)

الرئيس أفندى . ومرد هذا الأقول إلى سبين : أولها انزواء السلطان في أجنحة الحرم. فأضعف احتجاجه الصلة التي كانت تربط السلطان بالنشائي. وثانيها التوسع في إنشاء علاقات دبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية مما جعل الحاجة ماسة إلى شخصية تتفرغ للعلاقات الخارجية السياسية . وكان الصدر الأعظم يضطلع بمسائل السياسة الخارجية أول الأمر ، ثم نحل عنها للرئيس أفندى الذي قام باختصاصات تماثل الاختصاصات التي يمارسها وزراء الخارجية في الدول الأوروبية وغير الأوروبية في الوقت الحاضر . وتعددت مقابلات أعضاء السلك الدبلوماسي الأجنبي له ، وارتفع شأنه وسلطت عليه الأضواء ، وقفز إلى القمة بينما هبط مركز النشائي هبوطاً شديداً .

### الجاوش باشى :

الجاوش معناها في اللغة التركية رسول . وكان الجاوش باشى يتولى قيادة فرقة الجاوشية . وكانت تنقسم هذه الفرقة إلى خمس عشرة فصيلة يقود كلا منها ضابط . وكان قوام كل فصيلة ٤٢ رجلاً وكان أفراد هذه الفرقة يشهدون الاجتماعات التي يعقدها السلطان مع كبار الموظفين ، كما كانوا يشهدون مقابلاته مع السفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات، ويحضرون الجلسات التي تعقدها محكمة السلطان أو الصدر الأعظم وكانوا يشتركون في مواكب السلطان العامة بصفتهم جزءاً من الحرس السلطاني ، ويصحبونه حين يخرج إلى ساحات الحرب .

ولما تزايدت اختصاصات الصدر الأعظم نتيجة قيامه بمعظم مهام السلطان ، ألحق الجاوش باشى وأفراد فرقته بخدمة الصدر الأعظم . ولذلك غلبت على الجاوش باشى صفة أحد كبار موظفي الإدارة المركزية أكثر من صفته كضابط في البلاط السلطاني . وقد ذهب دوسون المؤرخ الفرنسي إلى أنه رقي إلى رتبة وزير رسمياً على يد إبراهيم باشا الصدر الأعظم في أثناء حكم السلطان أحمد الثالث (١) ( ١٧٠٣-١٧٣٠ ) . وسواء كانت هذه الترقية قد

---

( ١ ) D'Ohsson Ignatius Mouradgaa ; op. cit., vol. VII., p. 159  
et suiv.

حدثت فعلاً أو لم تحدث على الإطلاق ، كما يقول هارولد برون (١) ، فإن الجاوش باشى كان أعلى مرتبة من الرئيس أفندى ، كما كان يعتبر أحد نواب الصدر الأعظم والموظف الثانى فى محكمة الصدر الأعظم ويتولى تقديم السفراء له (٢) .

وفى ظل الوضع الجديد للهيكل العام للإدارة المركزية فى الدولة تحولت رئاسة محكمة السلطان إلى الصدر الأعظم ، فأصبح الجاوش باشى تابعاً له ، بمعنى أن اتصالاته بالصدر الأعظم كانت أكثر من اتصالاته بالسلطان . وكان له دور كبير فى إجراءات المحكمة حتى وصل به الأمر إلى أنه غدا فى القرن الثامن عشر نائباً لرئيسها . وبهذه الصفة الجديدة التى أضيفت إليه كان الجاوش باشى يرأس الجلسات التحضيرية فى المحكمة توفيراً لوقت الصدر الأعظم ، فبعد ملخصاً للقضايا التى على الصدر الأعظم أن يفصل فيها ، كما كان الجاوش باشى يحيل باقى القضايا إلى المحاكم التى هى أقل درجة من محكمة الصدر الأعظم .

وكان من المهام الرئيسية للجاوش باشى تنفيذ الأحكام القضائية ، وتمكيناً له من أداء هذه المهمة على الوجه الأكمل ، وضعت الإدارة المركزية تحت تصرفه عدداً من ضباط الإنكشارية كان يطلق عليهم محضر أغا ، عسس باشى ، صوباشى . وكانوا يتلقون الأوامر من الجاوش باشى مباشرة . وكان هؤلاء الضباط يعهد إليهم ، بالإضافة إلى هذه المهمة ، بأعمال الشرطة بوجه عام . وعلى ذلك فلم يكن الجاوش باشى مختصاً بمنع الجرائم أو المحافظة على الأمن فى العاصمة والمناطق المحيطة بها . وكانت مهمة الجاوشية الخاضعين لقيادته هى إدخال المتهمين والمدعين وأصحاب الشكاوى إلى محكمة الصدر الأعظم ، وتنفيذ الأحكام ، ونقل ملفات القضايا التى كان الصدر الأعظم يرسلها إلى المحاكم الأقل درجة للفصل فيها ، والتحفظ على الأشخاص ذوى

---

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. L, Part I. (١)  
p. 118, fn. no.2.

Lybyer A.H. ; Op. cit, p. 183.

(٢)



المراكز الكبيرة وبخاصة أهل العلم وحجزهم في مكاتبتهم حتى ينظر في التهمة الموجهة إليهم . وكان يقوم بمهمة التحفظ عليهم أحد أفراد فرقة الجاوشية يسمى جاوشلر كاتبي .

وكان الجاوش باشي ، في النطاق القضائي الذي كان يمارسه ، يشرف على أعمال اثنين من الموظفين يسميان التذكرجية . ويقصد بالتذكرة هنا عرائض الدعاوى المقدمة . وكان يطلق على أحد هذين الموظفين «بيوك تذكرجي» أي التذكرجي الكبير ، بينما كان يطلق على الآخر «كچوك تذكرجي» أي التذكرجي الصغير . وكانا يتناوبان مهمة قراءة الشكاوى المقدمة للصدر الأعظم ثم كتابة القرار الذي يتخذه الأخير في كل منها . وكان على هذين الموظفين أيضاً وضع الصياغة اللفظية للأوامر التي كان يصدرها الصدر الأعظم إلى الإدارات الحكومية المختلفة . وبالنسبة للمركز الوظيفي لهذين الموظفين ، جاء في القانون نامة الذي صدر على عهد السلطان محمد الفاتح أنها يتمتعان بالأسبقية على كتبة الرئيس أفندى .

وهكذا نرى أن الجاوش باشي قد تنوعت اختصاصاته تنوعاً مذهلاً . فجمعت هذه الاختصاصات بين الطابع العسكري والطابع القضائي . وأشرف على فئات شتى من الموظفين العسكريين والمدنيين ، ومارس نفوذاً واسعاً في شتى مجالات الإدارة المركزية .

### كاخيا بك :

كان يعتبر نائباً عاماً عن الصدر الأعظم في المسائل الداخلية والحربية ، ويعمل تحت إمرته عدد من الموظفين كانوا بمثابة حلقة اتصال بين الصدر الأعظم والموظفين القولار - أي عبيد السلطان - سواء في خدمة القصور أو في الجيش (١) . وكان كاخيا بك الصدر الأعظم في الأصل أحد الخدم المخصوصين للصدر الأعظم ، ولم تكن له اتصالات بالإدارة المركزية . ولكن لما تزايدت أهمية الصدر الأعظم اكتسب كاخيا بك أهمية ونفوذاً ووجاهة . وأصبح

لا يشغل هذا المنصب إلا كبار موظفي الدولة . وكان يطلق عليه عدة أسماء ، منها : « وزير كاخيا بكى » تمييزاً له عن ضابط إنكشارى يحمل لقب كاخيا . وكان يطلق عليه أيضاً « آغا أفندمز » أى أفندينا الأغا ، فكان يجمع بين لقبى رجال القلم ورجال السيف . ونظراً للأهمية البالغة التى كانت لاختصاصاته فى المسائل الساخية والحربية كان لا يسمح له بأجازة فى أيام الأعياد ، بينما كان موظفو الباب العالى ينومون بالأجازة ، حتى يستطيع اتخاذ قرارات ضرورية بالنيابة عن الصدر الأعظم إذا وقعت أحداث هامة أو ظهرت أزمات خطيرة . وكان الكاخيا بك يشرف على المكتوبى وهو السكرتير الخاص بالصدر الأعظم (١) ، كما كان يشرف على التشرىفات وهو مدير المراسم . وكان لهذا الأخير عدد وافر من المساعدين يحتفظون بسجلات مراسم البلاط السلطانى وتدون فيها الامتيازات التى يتمتع بها كبار موظفي الدولة . وأخيراً كان للكاخيا بك سكرتيران يسمى أحدهما « كاخيا كاتى » أى كاتب الكاخيا ، ويشرف على المراسلات العامة وتجميع حصيلة الرسوم الخاصة به . وبالصدر الأعظم . ويسمى الآخر « قره قولا » أى الأذن السوداء . وانعصرت مهمة هذا السكرتير فى القيام على المراسلات المتبادلة بين الصدر الأعظم وكاخيا بك .

ويتخذ أحد المؤرخين من نظام تناول الكاخيا بك الطعام دليلاً على خضوعه للصدر الأعظم ، فيقول إنه - أى الكاخيا بك - والمكتوبى والتشرية أنجى كانوا يتناولون الطعام يومياً معاً وبمفردهم ، وأن هذا النظام ظل معمولاً به حتى أواخر القرن الثامن عشر فى حين كان الجاوش باشى والريس أفندى يأكلان على مائدة الصدر الأعظم . ومع ذلك فقد كان هؤلاء الموظفون الخمسة من كبار الموظفين (٢) .

( ١ ) يصفه نير به سكرتير الخاص للصدر الأعظم . المرجع السابق ص ١٨٤ ، بينما يصفه بوب به سكرتير أمام الصدر الأعظم .

أمر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part I, p. 120.

Loc. cit., p. 121.

( ٢ )

وكان الكاخيا بك والمكتوبجي والتشريفاتجي يعتمدون في دخلهم على النصيب الذى يتقاضاه كل منهم من الهدايا التى يقدمها إلى الصدر الأعظم أصحاب المناصب الحكومية عند تعيينهم فيها (١) . كما أن هؤلاء الموظفين الثلاثة كانوا يتناولون وجبات الطعام يومياً من مطابخ الصدر الأعظم . وكان الكاخيا بك يعتبر من أصحاب الدخول الكبيرة . وحاول كثيرون ممن شغلوا هذا المنصب فى الأوقات المتأخرة تجميع ثروات ضخمة فى أثناء توليهم هذا المنصب .

### الباش دفتردار :

سبق أن تكلمنا عن الدفتردار واختصاصاته التى كان يمارسها فى النطاق المحلى كرئيس للإدارة المالية فى مصر إبان الحكم العثمانى عندما تعرضنا لنظام الالتزام (٢) . وقلنا إنه كان رئيس الديوان الدفترى فى مصر . وقد أنشأت الدولة أول الأمر وظيفتين شغل إحداهما دفتردار اختص بالشئون المالية للأناضول ويسمى « دفتردار أناضولى » ، وشغل الأخرى دفتردار شمل اختصاصه بلاد البلقان وبقية الأقاليم الأوروبية التى خضعت للسيادة العثمانية ويسمى « دفتردار الروملى » . وكان أعلى مركزاً من سابقه . وأطلق عليه الباش دفتردار . وعلى عهد الفتوح العثمانية الكبرى فى القرن السادس عشر أنشئت على عهد السلطان سليم الأول وظيفة ثالثة يشغلها دفتردار امتدت اختصاصاته فشملت سوريا ومصر وديار بكر . ثم أنشئت على عهد السلطان سليمان المشرع وظيفة رابعة لدفتردار شملت اختصاصاته ولاية المجر ومنطقة الدانوب (٣) . ولما فقدت الدولة لإقليم المجر فى أواخر القرن السابع عشر ألغيت الدفتردارلقى الخاصة بالمجر ، ومع ذلك أصبح دفتردار الروملى . وهو الباش دفتردار — يتولى المسئولية عن السياسة المالية للدولة كلها .

Loc. cit.

(١)

(٢) انظر ص ١٤٨ ، حاشية رقم ٢ فى هذه الدراسة .

D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit.; t. VII, p. 261.

(٣)

Lybyer A. H. ; op. cit., p. 168.

وكان الدفتردار يحفظ بالدفاتر أو السجلات التي تبين الموارد المالية للدولة سواء كانت هذه الموارد أموالاً سائلة أو عينية ، ومقدار الأموال المتحصلة والمتنظر لإنفاقها ، والقائض والاحتياطي ، وكيفية الحصول على موارد مالية أخرى حين يطرأ عجز على موازنة الحكومة . وكان للدفتردار سكرتارية فنية خاصة به تسمى « مالية قلمي » . كما كان يعمل تحت إدارته عدد كبير من الموظفين المتخصصين في الشؤون المالية . وكانت تتبعه محكمة تفصل في المنازعات التي تقوم بين الحكومة والأفراد فيما يتعلق بالمسائل المالية .

وكانت رتبة الدفتردار باشا تعادل رتبة النشائي باشا . وكان يلي الصدر الأعظم باستثناء وزراء القبة وكبار رجال الهيئة الإسلامية . وكان الدفتردار هو الموظف الوحيد في الإدارة الذي يتمتع بحق تقديم العرائض بنفسه إلى السلطان . وكان لا يشاركه في هذه الميزة سوى « قضاة العسكر » أي روساء القضاة ورؤساء الحصيان .

وقد جاء في مقدمة قانون نامه الذي أصدره السلطان محمد الفاتح أن الدفتردار هو القيم على أملاك السلطان . وكان له الحق في حمل الطغراء واستخدامها في فرمانات - أي المراسيم - المتعلقة بالشؤون المالية . وكان هذا الحق أساساً للنشائي ، ثم منحه هذا الحق بصورة جزئية للدفتردار في الشؤون المالية ، ومنحه أيضاً لرؤساء القضاة في القرارات المبنية على قواعد الشريعة الإسلامية .

وهناك تشبيه للدولة العثمانية مستمد من البيئة الرعوية - الإستبس - التي كانت المهاد الأولى للأتراك العثمانيين . فيقال إن الدولة العثمانية كانت بمثابة خيمة نصبت على الأرض ، وشدت بحبال مربوطة بأربعة أوتاد مثبتة في الأرض . وكانت هذه الأوتاد الأربعة في حالة الدولة العثمانية هي الدعائم التي استندت إليها : الصدر الأعظم والوزراء ، قضاة العسكر ، مجموعة الدفتردارين ، ( ن ٢٥ - الدولة العثمانية )

والنشانجى (١) .

### الدفتر أمينى :

كان يشرف على الدفترخانة ، وهى دار السجلات . وكانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام . ويطلق على القسم الأول « إجمال » وتحفظ فيه الوثائق التى توضح توضيحاً دقيقاً حدود كل ولاية من ولايات الدولة وأقسامها ، وكذلك حدود كل الإقطاعات . ويسمى القسم الثانى « مفصل » أى السجل المفصل وتحفظ فيه وثائق ومستندات مشابهة ، ولكن تتعلق بالملكيات الخاصة Private Property ، وهى تقابل فى الوقت الحاضر فى مصر سجلات مصلحة الشهر العقارى . أما القسم الثالث فيسمى « روزنامة » . وقد سبق أن شرحنا مدلول هذه الكلمة عندما تعرضنا لنظام الالتزام (٢) . وكانت الروزنامة فى هذا المقام العام تختص بتسجيل التغييرات التى تطرأ على عمليات نقل الإقطاعات من شخص إلى آخر .

وكانت الفرص مهيأة أمام الدفتر أمينى للترقية إلى منصب الدفتردار الذى كان الطريق أمامه ممهداً للترقية إلى مرتبة وزير .

### تشكيل الديوان :

كان يتكون الديوان من :

١ - الصدر الأعظم رئيساً .

٢ - الوزراء وكان يختلف عددهم بالزيادة من عصر إلى آخر .

٣ - قاضى عسكر الأناضول . وقاضى عسكر معناها كبير القضاة أو قاضى القضاة .

٤ - قاضى عسكر الروم إلى أى بلاد البلقان وأوروبا .

---

Lavisse et Rambaud; op cit., t. IV, p. 753.

( ١ )

( ٢ ) انظر ص ١٤٧ حاشية رقم ٣ فى هذه الدراسة .

٥ - قاضى عسكر عن إفريقية . وقد ظفر هذا القاضى بعضوية الديوان بعد الفتوح العثمانية فى إفريقية فى القرن السادس عشر .

٦ - دفتر دار الروم إلى وهو الباشا دفتر دار .

٧ - دفتر دار الأناضول .

٨ - دفتر دار ثالث أضيف إلى عضوية الديوان بعد الفتوح العثمانية فى العالم الإسلامى .

٩ - قائد فى القى الإنكشارية بصفته ممثلاً للجيش .

١٠ - قبودان باشا - قائد الأسطول البحرى - بصفته ممثلاً للسلاح البحرى بالتعبير العسكرى الحديث .

١١ - النشائجى باشا .

وكان يحضر جلسات الديوان عدد من المساعدين من ذوى الخبرة فى شئى المسائل . كان بعضهم يجلس على الأرض فى قاعة الاجتماع ، والبعض الثانى يظل واقفاً ، والبعض الثالث يجلس فى غرف مجاورة لقاعة الاجتماع للدخول إلى قاعة الاجتماع إذا استدعاهم رئيس الديوان للاستماع إلى رأيهم الفنى فى مسألة مطروحة على الديوان .

ويتضح من هذا التشكيل أن عضوية الديوان لم تكن مقصورة على كبار موظفى الهيئة العامة من طبقة القولا - عبيد السلطان - بل كانت الهيئة الإسلامية ممثلة فى الديوان عن طريق رؤساء القضاة الذين كان يطلق عليهم قضاة العسكر . ويتضح أيضاً من هذا التشكيل الخطأ الذى يقع فيه بعض الباحثين حين يقررون أن الديوان فى الدولة العثمانية كان هو مجلس الوزراء بمعناه المتعارف عليه فى التاريخ المعاصر ، وهو خطأ مادى لا يتحمل اختلافاً فى وجهات النظر .

جلسات الديوان زمن السلم :

وكان الديوان زمن السلم يعقد جلسات مطولة أربعة أيام من كل أسبوع

هى السبت والأحد والإثنين والثلاثاء . وفى خلال شهر رمضان كان يتوقف عقد الجلسات . وكان الديوان يعقد جلساته مند الضحوة حتى وقت الأصيل ، فكان الاجتماع يستغرق وقتاً يتراوح بين سبع ساعات وثمانى ساعات . ويتخلل الاجتماع فترة وتعقبها فترة أخرى عند نهاية الاجتماع . وتخصص الفترتان لتناول الطعام الذى كانت تقدمه الدولة لأعضاء الديوان وغيرهم من الموظفين الذين تقتضى طبيعة عملهم أن يظلوا على مقربة من الأعضاء لتقديم البيانات أو الإيضاحات وما إلى ذلك . وكانت الدولة تستقطع نسبة معينة من مرتبات جميع أعضاء الديوان وموظفيه والحرس ومن لإيهم قيمة جزء من تكاليف الطعام الذى تقدمه لهم على مدار السنة ، وكان يتكون من اللحم والخبز والأرز والفاكهة (١) .

#### اجتماعات الديوان أيام الحرب :

وفى زمن الحرب كان الديوان يعقد اجتماعاته فى خيمة الصدر الأعظم التى تقام على مقربة من مخيم السلطان . ولما كان كبار الموظفين فى الدولة يصبحون السلطان إلى ساحات القتال ، فإن إجراءات عقد الديوان تكون مماثلة تقريباً للنظام المتبع فى إستانبول . أما إذا كان السلطان متغيياً عن العاصمة فى رحلة ومعه الصدر الأعظم ، فإن الديوان يعقد اجتماعاته يومى السبت والأحد فقط . ويحضر هذه الاجتماعات العدد القليل من كبار الموظفين أو أركان الدولة الذين يظلون فى العاصمة . وفى حالة الضرورة فى زمن الحرب أو فى حالة طوارئ خطيرة كان أعضاء الديوان يجتمعون وهم على ظهور الخيل ، وهى عادة قديمة درجت عليها الدولة العثمانية حيناً من الدهر وهى لا تزال فى مرحلة الإمارة ، وكانت تعتمد فى تصريف شئونها على النظم القبلية . فكان يعقد وقتذاك مجلس عام يضم جميع رؤساء البوادر فى الإمارة أو الدولة الوليدة ، ويجتمعون وهم على ظهور الخيل ، ويبحثون الموضوعات الهامة مثل خوض الحرب أو تقرير السلم . ويرى بعض المؤرخين أن هذا

المجلس كان نواة نظام الديوان ، أى أن الديوان هو نظام متطور بتطور الدولة نتيجة نموها السريع واتساعها الإقليمي وتشعب مصالحها .

### لماذا تخطى السلاطين عن رئاسة الديوان ؟

قلنا إن السلاطين كانوا يحرصون أول الأمر على حضور جلسات الديوان ثم أوقف السلطان سليمان المشرع هذا التقليد (١) . وأتاب عنه الصدر الأعظم واكتفى بالاستماع إلى المناقشات التى تدور فى الاجتماع ، وذلك من وراء ستار أو من نافذة تطل على قاعة الاجتماع . وقد حمل بعض المؤرخين ، وكان من بينهم كوشى بك Koshi الفيلسوف التركى ، على السلطان سليمان تخلفه عن حضور اجتماعات الديوان . وبخاصة بعد أن اتخذ خلفاؤه سلاطين الفترة الثانية هذا التغيب عن جلسات الديوان تقليداً التزموا به بعد أن اعتزل معظمهم الحياة العامة واحتجبوا فى أجنحة الحريم بالقصور السلطانية واستنابوا إلى حياة الدعة أو لإشباع شهواتهم مع النساء أو تعاطى الخمر حتى أطلق على بعضهم اسم السكير وما إلى ذلك من صور المتعة التى انغمسوا فيها ، فلم يرتفعوا إلى مستوى سلاطين الفترة الأولى . ويعزو هذا الفريق من المؤرخين اضمحلال الدولة إلى ذلك التقليد ، بينما يرى فريق آخر من المؤرخين مثل ليبير الأمريكى أنه كان لامناص أمام السلطان سليمان المشرع من التخلف عن حضور جلسات الديوان الذى كان يعقد أربع جلسات أسبوعية تستغرق كل جلسة اليوم بطوله مما كان يصرفه عن التفرغ لمهام أخرى كانت تراكم أمامه . وكان حكمه حافلاً بمجالات الأعمال الحربية والإنجازات التشريعية والإدارية وغيرها . ويقول ذلك المؤرخ الأمريكى دفاعاً عن السلطان سليمان أو تبريراً لتصرفه إن أعضاء الديوان كانوا يتناقشون ويتصرون وكان السلطان سليمان ماثلاً أمامهم . وقد حدث فى إحدى المرات أن أمر هذا السلطان

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 188.

(١)

ويقرر بون أن السلطان الذى استن هذا التقليد هو السلطان محمد الفاتح حين تقدم له أحد الرعايا بشكوى وكان نائراً ، ولم يظهر الاحترام نحو السلطان

انظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vo. 1, Part I, p. 116.



بإعدام حشمت باشا الصدر الأعظم بعد أن استمع بطريقته الخاصة إلى مناقشاته في الديوان . واستعاض السلطان سليمان عن حضور جلسات الديوان باستقبال أعضائه عند انتهاء الاجتماع ويعرض عليه الصدر الأعظم القرارات التي اتخذها الديوان في ذلك اليوم فيوافق عليها أو يطلب إدخال تعديلات عليها . وكان في أحيان أخرى يملئ بنفسه رداً على رسالة بعث بها أحد السفراء الأجانب .

### نظام الحضور والدخول والجلوس في الديوان :

وكان حضور أعضاء الديوان إلى مقر الاجتماع ودخولهم إليه وجلوسهم وانصرافهم كل أولئك يخضع لنظام دقيق . كانوا يصلون مبكرين إلى مقر الديوان ليكونوا في استقبال الصدر الأعظم الذي يصل محاطاً بحاشيته . ويقفون في صفين متقابلين لاستقباله . ويمر الصدر الأعظم بين الصفين ، ثم يسير خلفه الأعضاء وفقاً لترتيب ونظام موضوعين . وكان الصدر الأعظم يجلس - طبقاً للطريقة التركية العثمانية - وسط أريكة طويلة تمتد حول ثلاثة جوانب من قاعة الاجتماع . وتأخذ الأريكة شكل حرف U فلذا استوى على الأريكة جالس إلى يمينه الوزراء ثم كل من باشا الأناضول وباشا البلقان ثم رئيس الإنكشارية ثم قبودان باشا ، وفي نهاية طرف الأريكة يجلس النشائي باشا ويجلس إلى يسار الصدر الأعظم وقضاة العسكر الثلاثة ثم الدفتردارون الثلاثة وكبير المترجمين . ويجلس على الأرض الرئيس أفندي ، كما يحضر اجتماع الديوان كل من التدكرجي ويتولى قراءة الشكاوى المقدمة إلى الديوان ، وقاچيجيلر كخياسى Kapujilar kiayasi وينعته المؤرخ بون بأنه مفتش حراس البوابات (١) بينما يقول عنه ليبير إنه كبير الياوران (٢) . أما الموظفون الذين

---

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part (١)  
I, p. 83.

Lybyer A.H; op. cit., p. 190. (٢)

وبلاحظ أن الياوران جمع ياور . وفي الله التركية إذا أضيف حرفا الألف والون إلى نهاية الاسم اكتسب هذا الاسم صيغة الجمع، مثل المستحفظان أى رجال الحفظ، والمجتهدان أى المجتهدين .

قد يحتاج إليهم أعضاء الديوان فينتظرون في غرف مجاورة ، بينما يقف الحرس وأفراد الحاشية على مسافات متقاربة خارج ودخل الردهة. وقد يحتاج الديوان في أثناء الجلسة إلى الاستئذاة بآراء بعض المختصين . فكان يستدعى بعض قادة الجيش أو كبار موظفي الدولة المدنيين للاستماع إلى آرائهم . ولهذا الغرض كانت توجد في غرفة مجاورة لقاعة الاجتماع مجموعة من العسكريين على أهبة الاستعداد للتحرك السريع لاستدعاء من يرى الديوان حاجة إلى حضورهم . وعند ما يبدأ الديوان النظر في المسائل القضائية كان بيوك تذكرجى ، أى التذكرجى الكبير ، يقف أمام الصلر الأعظم ويتولى قراءة الشكاوى والعرائض المقدمة للديوان للفصل فيها ، ثم يكتب القرار الذى يتخذة الديوان فى شأن كل عريضة أو شكوى .

وكان فى مقدور أى فرد من رعايا الدولة أن يتقدم بشخصه إلى الديوان عارضاً مظلمته فينظرها الصلر الأعظم مستعيناً بقضاة العسكر وبعض الموظفين المختصين . وكان فى بعض الأحيان يحيلها إلى الجهة المختصة للتراسها ولكن أدى طول الوقت الذى كانت تستغرقه الاجتماعات الأربعة التى كان يعقدها الديوان أسبوعياً ، وازدحام جدول أعماله بالعديد من المسائل المتنوعة إلى استبعاد المسائل الفردية وتخصيص وقته لبحث المسائل العامة (١) .

#### اختصاصات الديوان ودوره فى حكم الدولة :

انقلت إلى الديوان اختصاصات المحكمة العليا التى كان يرأسها السلطان من قبل ، لأن الصلر الأعظم كان قد حصل على تفويض عام من السلطان بحكم بقلد الأخير وظيفة الإمامة . وتأسيساً على هذا التفويض كان الصلر الأعظم يتولى القضاء بالمحكمة العليا بمساعدة قضاة الشريعة بعد أن تم تقليم الديوان بأكبر العناصر القضائية التى تمثل الشريعة الإسلامية . وكانت الكلمة العليا فى هذا المجال لهؤلاء القضاة الكبار بحكم ثقافتهم وتعقدهم فى مسائل الشريعة ، أو وفقاً للمصطلح الحديث لأنهم كانوا من أهل الخبرة . ولكن لما

(١) انظر تفصيلات وافية عن الديوان فى :

D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., vol, vii, pp. 211—232

كان الصدر الأعظم أعلى من القضاة في السلم الوظيفي بحكم منصبه ، كانت الأحكام والتصرف في القضايا تصدر عنه من الناحية الشكلية . وهكذا أصبح من اختصاصات الديوان النظر في المسائل القضائية ، أى تطبيق القانون من ناحية ، والنظر في المسائل الإدارية من ناحية أخرى . ويرر المؤرخ الأمريكي ليبير اختصاصات الديوان فيقول إنه طالما كان القانون في الدولة العثمانية موضوعاً ومحدداً ، وطالما كان أى تشريع يصدر عن الدولة يتركز حول شخص واحد هو السلطان ، فإن مجال المناقشات وتبادل الآراء يكون مقصوراً على المسائل الإدارية والقضائية (١) . وهذا التبرير لا يصور الحقيقة كلها فيما يتصل باختصاصات الديوان ودوره في حكم الدولة . وسرى أنه عاد بعد ذلك فأعطى للديوان أبعاده الحقيقية سواء من ناحية اختصاصاته أو دوره الفعال في إيجاد رقابة دقيقة ومحكمة على أعمال الحكومة سواء في الإدارة المركزية أو في الولايات العثمانية .

لم يكن الديوان هيئة تشريعية تضع التشريعات للدولة ، ولكنه كان هيئة تجمع بين سمات الوزارة Cabinet ومحكمة عليا Court Suprême ويقول أحد رجال القانون - وهو هايدبورن - في تقييمه لذلك الديوان إنه كان نوعاً من مجلس الدولة نوقشت فيه المسائل السياسية الهامة ، وفي ذات الوقت كان بمثابة محكمة عليا خولت الحق في أن تنقل أمامها كل قضية وأن تنظر في القضايا بين العثمانيين والأجانب والتي تزيد قيمة المبالغ المتنازع عليها على ثلاثة آلاف أسبر .

Le divan était à la fois une sorte de Conseil d'Etat, où se discutaient les affaires politiques importantes, et une Cour suprême autorisée à évoquer tout litige devant elle et à connaître notamment des procès entre Ottomans et étrangers qui dépassaient la valeur de 3000 aspres. (٢)

أما المؤرخ الأمريكي ليبير فيعلق على اختصاصات الديوان وعلى الدور

Lybyer A.H.; op. cit., p. 187.

(١)

Haideborn A.; Manuel de Droit Public et Administratif de l'Empire Ottoman. Vienne, 1909, p. 141.

(٢)

الذى قام به فى إدارة شئون الإمبراطورية العثمانية تعليقاً قال فيه إنه على الرغم من أن هذا الديوان يجمع بين اختصاصات الوزارة والمحكمة العليا إلا إنه لم تكن هناك أوجه للشبه بين الديوان وهاتين الهيئتين . كان رئيس الديوان هو الصدر الأعظم ، وهو معين بفرمان سلطانى . وكانت موافقة السلطان على قرارات الديوان أمراً ضرورياً حتى تكتسب القرارات الصبغة القانونية وتأخذ طريقها إلى التنفيذ . ولا يحضر السلطان جلسات الديوان . وكل عضو فيه مسئول أمام السلطان . ولم تكن هذه المسئولية محصورة فى تصرفات العضو فحسب ، بل فى حسن سلوكه وإلا كان جزاؤه الإعدام (١) . وفى ذات الوقت كان الديوان أعلى محكمة فى الإمبراطورية كلها ، وهى محكمة من طراز فريد . فليست لها اختصاصات محكمة الاستئناف أو حتى محكمة أول درجة ، أى المحاكم الابتدائية . وكان لا يدخل فى اختصاصات محكمة الديوان مناقشة شرعية القوانين ، ومع ذلك فإن الديوان كمحكمة تشمل ولايته القضائية جميع القضايا المدنية والجنائية التى ترفع إليه من أى جزء من أجزاء الإمبراطورية ، ونجم عن ذلك أن سلطته القضائية لم تكن مقيدة . ولكن من ناحية أخرى لا تصبح أحكامه القضائية نهائية إلا بعد موافقة السلطان عليها . ويمضى ذلك المؤرخ الأمريكى فى تعليقه فيقول إنه على الرغم من أوجه القصور التى تؤخذ على نظامه واختصاصاته ، فقد كان الديوان ذا فائدة كبرى للحكومة العثمانية . كان الديوان أدنى درجة من السلطان ، ولكنه كان يعلو جميع الهيئات فى الدولة . سواء الهيئة الحاكمة من طبقة العبيد - القولاى - أو الهيئة الإسلامية . وكان يربط بينها بحكم وجود أعضاء فيه يمثلون هاتين الهيئتين . ويلتقى بهما فى شخص السلطان الذى هو رأس الهيئتين . وكان الديوان بمثابة المحور الذى تدور حوله كل الوحدات المتنوعة فى الحكومة العثمانية ، وهى حكومة ذات حكم مطلق . وفى رحاب الديوان كان يجتمع أكثر رجال الدولة كفاية ومقدرة وخبرة .

(١) كان هذا الجزء لايسرى حل قضية السكر الأصحاء فى الديوان بحكم أنهم كانوا أحراراً ولم يكونوا من طبقة القولاى - عبيد السلطان - وكان الأخير يملك إعدامهم بدون مسالة .

ويقع الاختيار على كل عضو فيه بعد عملية دقيقة تمر في عدة مراحل . وأعطت الدولة كلا منهم مسئوليات ضخمة ومنحتهم سلطات واسعة كي ينفذوا بدون إبطاء ، في النطاق المحدد لكل منهم ، القرارات التي تصدر عن الديوان ويوافق عليها السلطان . فالديوان كان يسير ويدعم بطريقة بارعة وممتازة النظام العثماني العام للإدارة المركزية في الدولة . وبفضل الديوان كان في استطاعة الحاكم بأقل جهد ممكن أن تكون رغبته على كل جزء في الإمبراطورية رقابة دقيقة ومحكمة عن طريق حكام على قدر كبير من الذكاء والمقدرة ، وكانت تربطهم بالسلطان روابط وثيقة هي مزيج من المشاعر التي تمثل في العرفان بالجميل والمصلحة الذاتية والتطلع إلى مزيد من الترقيات والخوف من بطشه . وفضلا عن ذلك كان الديوان بمثابة مدرسة تدرب فيها القضاة ورجال الإدارة ورجال الحكم ، كما كان مجالا لتنمية معلوماتهم وزيادة تجاربهم . وكلما كانت حصيلتهم من هذه وتلك كبيرة أتاحت لهم عديد الفرص للترقية إلى وظائف أعلى . فالصدر الأعظم بصفته رئيس الديوان يتصل بهم اتصالا مباشرا ومستمرأ أربع مرات في الأسبوع . والسلطان على مقربة منهم يتابع نواحي نشاطهم . وفي يد الإثنين : السلطان والصدر الأعظم سلطة ترقيتهم . وفوق هذا كله ، لم يكن الديوان مجرداً من أى نفوذ على التشريع . فالقوانين كانت تصدر بإسم السلطان وبعد موافقته النهائية عليها . ولكن المادة القانونية التي تضمنتها هذه القوانين قد اشترك في إعدادها أعضاء الديوان ، وهم الذين قاموا بمعاونة مساعديهم بوضع الصياغة القانونية لهذه القوانين . ولكل هذه الاختصاصات والأسباب وغيرها كان الديوان ، برئاسة الصدر الأعظم ، وهو يراقب الإدارة ويفصل في القضايا الهامة ويترك بصماته في مجال التشريع ، يحكم الدولة العثمانية نيابة عن السلطان ومن أجله ولمصلحته (١) .

نخلص من هذه الآراء السياسية والقانونية التي بسطناها لباحثين أحدهما نمساوى والآخر أمريكي إلى أنه إذا كانت السلطات السياسية والعسكرية

والإدارية في الدولة قد تركزت في يد السلطان ، فلإن إنشاء الديوان المايوي أو الإمبراطوري لايعنى أن هذا الجهاز قد سلب اختصاصات السلطان أو جزءاً منها ، إذ لم يكن للديوان سلطة قطعية في المسائل التي تعرض عليه أو في القرارات التي تصدر عنه ، لأن موافقة السلطان عليها كانت شرطاً أساسياً *Sine quanon* لتنفيذها . ولم يكن أعضاء الديوان سوى موظفين اقتصرتهم مهمتهم على بحث المسائل أولاً ، ثم تحضير القرارات ثانياً ، ثم تنفيذها ثالثاً إذا أقرها السلطان . وكان إنشاء الديوان ضرورة أملاها اتساع الدولة ، وتزاحم المشكلات بشئ أنواعها، والتوسع في إزتباء مناصب جديدة وعدد من أجهزة الحكم، سواء في العاصمة أو في الأقاليم التي فتحت، وما استتبع ذلك من زيادة عدد الهيئات الحكومية وإردياد عدد الموظفين .



## افصل الرابع عشر

### الهيئات الحاكمة في الدولة (٣)

الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة

الهيئة الإسلامية والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة :

كانت الدولة العثمانية تضم بين رعاياها فريقين من المسلمين . ويطلق على الفريق الأول القولار . كانوا في نشأتهم الأولى مسيحيين انتزعهم الدولة وهم في سن غضة من آباؤهم وأمهاتهم وحولتهم إلى الإسلام، وهيأت لهم تعليماً عسكرياً ومدنياً، وجعلت منهم أدوات للحرب والحكم ، ولكنهم كانوا عبيداً للسلطان ، ومن ثم أصبح وضعهم الديني والقانوني والاجتماعي : من حيث لأمر الواقع مسلمين عبيداً. ويطلق على الفريق الثاني ، وهو خارج عن نطاق الفريق الأول ، الهيئة الإسلامية . وكانت هذه الهيئة تضم جميع رعايا الدولة المسلمين الأحرار بما انضم إليهم من مسيحيين اعتنقوا الإسلام طوعاً فأصبحوا بدورهم مسلمين أحراراً . وكان هؤلاء الأخيرون قلة عددية نسبياً، ولكنهم كانوا مع أقربانهم أفراد الطائفة الأولى الذين جاءوا من عائلات إسلامية يشكلون نسبة عددية كبيرة جداً بالنسبة لفريق القولار . وبذلك كان رعايا الدولة المسلمون طائفتين :

١ - المسلمين العبيد ويطلق عليهم القولار .

٢ - المسلمين الأحرار ويطلق عليهم الهيئة الإسلامية .

وأفراد الهيئة الإسلامية متساوون جميعاً ، وهيأت لهم الدولة مبدأ تكافؤ الفرص ، بمعنى أن الذين حصلوا منهم على قسط وافر من التعليم في علوم الشريعة وأصول الدين وما يتصل بها من دراسات كانوا يشغلون شتى المناصب في سلك القضاء والإفتاء والتدريس وما إلى ذلك . وكانوا يتدرجون

في هذه المناصب حتى يصلوا إلى أعلاما ، وكان من بينها منصب المفتي الذي أطلق على شاغله فيما بعد شيخ الإسلام . وكانت أمنية كل والد ينتمى إلى الهيئة الإسلامية أن يرى ابنه يتدرج في سلك تلك المناصب حتى يصل إلى أعلى درجاتها . أما أفراد الهيئة الإسلامية الذين لم يصلوا في تعليمهم إلى نهاية الشوط ، فكانوا يشغلون المناصب الصغرى في القطاع الدينى وفى وظائفه الإدارية التى تنفق مع حجم التعليم الذى حصلوا عليه . فكان الباب مفتوحاً أمام الجميع ولا يشترط سوى معيار الكفاية والذى يتمثل في حجم حصيلته من العلم . فالفكرة قامت على أساس ديمقراطى : المساواة وتكافؤ الفرص . وقد أطلق على أفراد الهيئة الإسلامية الذين تلقوا تعليماً دينياً أياً كان حجمه وشغلوا مناصب القطاع الدينى : الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أو The Religious Islamic Ruling Institution كما اصطلح على تسميتهم المؤرخون والباحثون . وهذه الهيئة هى موضوع دراستنا في هذا الفصل .

### الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والمنظمات المسيحية :

وتختلف الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة في الدولة العثمانية في طبيعتها وتكوينها عن جميع المنظمات الدينية المسيحية في أوروبا . فالدين الإسلامى لا يعترف بوجود طبقة دينية. مما يطلق عليها في الغرب الكهنوت وما إلى ذلك من مسميات . والإسلام يتميز بالبساطة ويبتعد عن التعقيدات ، ولا يقيم وسيطاً بين العبد وخالقه . ويقول سبحانه وتعالى « وإذا سألك عبادى عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون » (١) . وقد اختلط الأمر على البعض فأصبحوا يتكلمون عن وجود طبقة في الإسلام أطلقوا عليها اسم طبقة رجال الدين . والحق أنه لا توجد مثل هذه الطبقة في الإسلام ، بل يوجد أفراد تفقهوا في الدين أى تتقنوا ثقافة دينية عميقة واسعة سواء في علوم أصول الدين أو علوم الشريعة وما يتصل بها . والاسم الصحيح لهم هو علماء الدين ، ولكنهم لا يشكلون طبقة خاصة بهم . والإسلام لا يعترف بالارستقراطية الدينية ، أو الرهبانية ، أو الطبقة الدينية

(١) سورة الغرة ، آية رقم ١٨٦ .



مثل الكرادلة ، والأساقفة ، والقسيسين ومن إليهم . وفي ظل هذه النظرة الإسلامية السمة يستطيع أى مسلم بالغ ملم بأصول الدين أن يؤذن للصلاة ، أو يلقي خطب الجمعة والعيد ، أو يؤم المصلين ، أو يصلى على ميت أو غير ذلك من الأعمال التى تتصل بإقامة الشعائر الدينية . ولا يشترط الإسلام مكاناً معيناً لأداء مثل هذه الشعائر ، ولا يشترط شخصاً معيناً يقوم بها بحيث يكون أدائها باطلاً إذا قام بها شخص عادى .

### تشكيل الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة :

إذا كان السلطان هو رئيس الهيئة الإسلامية بمداوليها العام والخاص ، فإن شيخ الإسلام كان الرئيس الفعلى للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والمهيمن عليها . وكانت هذه الهيئة تضم أربعة عناصر :

١ - شيخ الإسلام .

٢ - القضاة بمختلف فئاتهم ودرجاتهم .

٣ - المفتون .

٤ - أساتذة الشريعة وأصول الدين .

٥ - هيئات التدريس فى المدارس الإسلامية .

٦ - ويلحق بالهيئة الدينية الإسلامية الإداريون فى القطاع الدينى . وكان مستواهم العلمى لا يرقى إلى مستوى أفراد هيئة العلماء ، كما أن نفوذهم لم يكن كبيراً .

### شيخ الإسلام

كان يطلق على شيخ الإسلام أول الأمر مفتى العاصمة ، وأحياناً المفتى الأكبر . وكان يتمتع بمركز مرموق للغاية . كان الصلبر الأعظم والوزراء ، وفى بعض الأحيان السلطان نفسه ، يلتمسون رأيه فى بعض المسائل الهامة ، كما كانوا يعرضون عليه مشروعات القوانين الوضعية قبل إقرارها بصفة نهائية . ويطلبون منه الرأى فى مدى مطابقتها لمبادئ الشريعة الإسلامية . وكان يحال

إلى شيخ الإسلام القضايا الجنائية التي يرى القاضي الحكم فيها بإعدام المتهم أو المتهمين فيها قبل إصدار الحكم بإعدامهم . وهو إجراء كان يستهدف الإطمئنان إلى سلامة إجراءات التحقيق والمحاكمة وتوفير الأدلة على ثبوت التهمة . وكان هناك نوع ثالث من الاختصاصات على درجة قصوى من الأهمية بل والخطورة يباشرها شيخ الإسلام بإصدار فتاوى ذات طابع سياسي ، وتتناول موضوعات تتصل بالسياسة العليا للدولة . كان السلطان لا يقدم على حرب دون أن يستصدر من شيخ الإسلام فتوى يقرر فيها أن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين ، بل إن هذه الحرب لها أسبابها القوية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية . وكان شيخ الإسلام يوفد الوعاظ إلى سائر أنحاء الدولة يعلنون أن الحرب المقدمة عليها الدولة هي حرب دينية ، وأن الجماهير يجب أن تقف صفاً واحداً تؤيد قلباً وقالباً الجيش وهو يخوض الحرب ، ومنها أيضاً الفتاوى التي تجيز تنازل الدولة عن أقاليم عثمانية لصالح دولة أجنبية انتصرت عليها ، وكذلك الفتاوى التي تجيز عزل السلطان الحاكم لسبب أو لآخر . وكانت الحالة الأخيرة هي قمة الاختصاصات التي كان يباشرها شيخ الإسلام . وقد ذكرنا من قبل أمثلة لبعض أنواع هذه الفتاوى وسنشير إلى أمثلة لاختصاصاته الأخيرة سواء في مجال السياسة العليا أو في عزل للسلطين بعد أن نشرح الملابس التي أحاطت بتغيير لقبه من المفتي إلى شيخ الإسلام ، ثم مركزه في البروتوكول العثماني .

### إطلاق لقب شيخ الإسلام على مفتي العاصمة :

وتقدراً للمسؤوليات الجسام التي كان يضطلع بها مفتي العاصمة أو المفتي الأكبر، رأت الدولة أن نميزه عن سائر زملائه رجال الإفتاء الذين كانوا يعملون في معظم الأقاليم والمدن الكبرى في أنحاء الإمبراطورية ، وكان عددهم يصل إلى قرابة مائتي مفتياً ، فأطلقت على مفتي العاصمة لقب « شيخ الإسلام » فأصبح هو الرئيس الفعلي للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة *de facto* وإن ظل السلطان هو الرئيس لهذه الهيئة من الناحية النظرية *de juri*

وقد وقع خلاف كبير بين المؤرخين والباحثين حول تحديد الوقت الذي

أطلق فيه على مفتى العاصمة هذا اللقب . فيرى أحدهم وهو قانوني نمساوي يسمى هايدبورن (١) Heidborn أن السلطان مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١) هو أول من أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتى أدرنة التي كانت عاصمة الدولة وقتذاك، وأن خلفه السلطان محمد الثاني أمر بنقل مقر شيخ الإسلام إلى القسطنطينية بعد فتحها وبعد أن اتخذها عاصمة جديدة للدولة ، وأنه أطلق عليه لقباً جديداً هو رئيس العلماء (٢) . ويرى فريق من المؤرخين على رأسهم دوسون D'Oshson الفرنسي (٣) وليبير Lybyer الأمريكي (٤) أن السلطان محمد الثاني (١٤٥١-١٤٨١) هو الذي أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتى القسطنطينية بعد أن فتحها . ويرى فريق ثالث منهم جب وبوون Gibb and Bowen الإنجليزيان (٥) أن السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠-١٥٦٦) هو صاحب التسمية ، وأخيراً ذهب أحد الباحثين المحدثين ، وهو محمد جميل بيهم ، إلى أن إطلاق لقب شيخ الإسلام على مفتى إستانبول قد حدث في عصر متأخر يرجع إلى منتصف القرن الثامن عشر . ويضيف إلى ذلك قوله إن السلطان محمود الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤) هو الذي أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتى إستانبول . وكان ذلك في سنة ١٧٤١ م الموافقة لسنة ١١٥٤ هـ (٦) .

Heidborn, A. ; op. cit., p. 215.

(١)

(٢) في قانون نامه الذي صدر على عهد السلطان محمد الثاني أخير إلى شيخ الإسلام بأنه

رئيس العلماء .

D'Oshson Ignatius Mouradgee ; op. cit., t. IV, p. 500. (٣)

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 208.

(٤)

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, (٥)

part II, p. 84.

(٦) أنظر كتابه :

أ- فلسفة التاريخ العثماني . كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية وإلى أي حد بلغت عظمتها .

بيروت ، فبراير ( شباط ) ١٩٢٥ ، ص ٢٩٨ .

وهو رأى ضعيف لا تؤيده الشواهد التاريخية ، وكذلك رأى القائل بأن السلطان مراد الثاني هو أول من أطلق ذلك اللقب على مفتى العاصمة . بقي بعد ذلك الرأيان الآخران المنسوبان إلى السلطان محمد الثاني، وإلى السلطان سليمان المشرع . والرأى الأدنى إلى الحقيقة منهما هو أن السلطان محمد الثاني هو الذى استحدث لقب شيخ الإسلام فى تاريخ الدولة العثمانية ، فإنه بعد أن فتح هذا السلطان القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، وبعد أن نقل عاصمة دولته إليها ، وبعد أن حول كاتدرائية القديسة صوفيا فى القسطنطينية إلى مسجد ، وبعد أن أطلق على العاصمة الجديدة اسماً إسلامياً عثمانياً هو إستانبول أى دار الإسلام ، نقول إنه بعد أن أتم هذه الإنجازات أطلق لقب شيخ الإسلام على المفتى فى دار الإسلام متمشياً مع الجو الدينى والسياسى العابق للدولة وهى تعيش أجمل أيامها وفى قمة أفراحها بفتح القسطنطينية وسقوط الدولة البيزنطية . أما القول بأن هذا السلطان قد أطلق لقب « رئيس العلماء » على المفتى فهو من قبيل التزيد ، لأن شيخ الإسلام بحكم منصبه هو أكبر شخصية دينية إسلامية فى الدولة العثمانية ، فإذا أضيف إلى منصبه ذى الاختصاصات العديدة المتشعبة-والتي يتصل بعضها بالسياسة العليا للدولة - هذا اللقب الجديد الذى حصل عليه وهو شيخ الإسلام فإنه يعتبر رئيساً للعلماء ، ويشملون القضاة ورجال الإفتاء وأسئلة الشريعة وأصول الدين ومن إليهم من أصحاب المناصب الرفيعة وغيرها فى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، فهو يجتهد على بكرة أبيهم جيداً . أما السلطان سليمان المشرع فقد ازداد على عهده مركز شيخ الإسلام تألقاً (١) ، وارتفع مكاناً علياً حتى خذا من الناحية الافتراضية أو التقديرية نداءً للصدر الأعظم (٢) . وكان الجانب

---

ب - العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٤ ، حاشية رقم ١ .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة شيخ الإسلام .

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part (٢)

II, p. 86.

الحضارى المتعدد الألوان والصور من أبرز الجوانب فى شخصية السلطان سليمان إلى جانب الإنجازات الحربية التى تمت إبان حكمه الطويل والذى استطال زهاء ستة وأربعين عاما . وستظل التشريعات التى تم وضعها من مفاخر حكمه ومن مفاخر الدولة فى تاريخها الحضارى . ومن هنا كان دور شيخ الإسلام على عهد سليمان دوراً بناءً خلافاً . ويلاحظ أن الفترة التى حكم فيها كل من السلطان محمد الثانى والسلطان سليمان المشرع بنوع خاص قد شهدت نشاطاً ملحوظاً وغير عادى فى وضع التشريعات العثمانية . وكان يطلق على هذه التشريعات التى تصدر فى حكم كل سلطان قانون نامه . وكان لشيخ الإسلام دور رئيسى فى وضع وصياغة هذه التشريعات ، يدل على ذلك أن جزءاً كبيراً منها كان عبارة عن مجموعات فتاوى فى صورة أسئلة وجهتها السلطات الحاكمة فى الدولة وإجابات شيخ الإسلام عليها . ومن المحتمل أن يكون اللبس الذى حدث فى تحديد اسم السلطان الذى أمر بتغيير لقب مفتى إستانبول إلى شيخ الإسلام إنما مرده إلى الأضواء التى سلطت على شيخ الإسلام إبان حكم السلطان سليمان المشرع وكثرة ما كتب عن إنجازاته التشريعية مما جعل البعض يعتقدون أن سليماناً هو الذى أطلق اللقب على مفتى العاصمة ، مع أن جميع القرائن تدل على أن السلطان محمد الثانى هو الذى أحدث هذا التغيير بعد أن فتح القسطنطينية وأطلق عليها إستانبول أى دار الإسلام .

ويلاحظ أن فريقاً من الباحثين ، وبعضهم من الأوروبيين والأمريكيين لا يلتزمون بالفاصل التاريخى الخاص بهذا اللقب بين المفتى وشيخ الإسلام ، ويخلطون بين اللقبين ، فيذكرون فى بحوثهم كلمة المفتى فى الوقت الذى غدا لقبه الرسمى شيخ الإسلام . وكان يحدث هذا الخلط عادة عند كلامهم عن الفتاوى التى كان يستصدرها السلاطين من شيخ الإسلام ، فكانوا يربطون بين كلمتى المفتى والفتوى لتشابه كل منهما لغوياً ولفظياً .

### سببان لإطلاق لقب شيخ الإسلام على المفدى :

تبقى مسألة لها أهميتها لأنها تتصل اتصالاً وثيقاً ومباشراً بموضوع لقب شيخ الإسلام ، وهى خاصة بمعرفة الأسباب التى حملت الدولة العثمانية على إحداث هذا التغيير . لقد قيلت فى هذا الصدد عدة أسباب . كان أولاً رغبة الدولة فى إضفاء مزيد من الأهمية والتبجيل على مفدى العاصمة فى مواجهة رؤساء الطوائف الدينية غير الإسلامية ، نذكر منهم على سبيل المثال البطريرك اليونانى والبطريرك الأرمنى وحاخام اليهود . كان شيخ الإسلام وهؤلاء الرؤساء يباشرون اختصاصاتهم الدينية من مدينة واحدة هى إستانبول . وكان السلاطين بوجه عام حريصين على احترام مشاعر رعايا الدولة غير المسلمين . ولم تكد تمر ثلاثة أيام على فتح القسطنطينية حتى أمر السلطان محمد الفاتح باتخاذ الإجراءات الفورية لانتخاب بطريرك للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية يعلى كرمى البطريركية الشاغر . وأمر أيضاً بأن تتبع فى إجراءات تنصيبه نفس المراسم التى كانت تنفذ أيام أباطرة الدولة البيزنطية فى هذه المناسبة مع تعديل طفيف هو استبعاد الإجراءات التى تتعارض مع العقيدة الإسلامية . وأقام له السلطان مأدبة فخمة وألقى كلمة أكد فيها أن البطريرك سيتمتع بكافة الحقوق والامتيازات التى كان يمارسها أسلافه . وسار البطريرك فى موكب رائع ممتطياً صهوة أحد خيول السلطان المطهمة يحيط به كبار الموظفين العثمانيين حتى بلغ دار البطريركية .

ومضى السلطان محمد الثانى فى سياسة التسامح الدينى ، فاستدعى إلى إستانبول أسقف بروسه الأرمنى . وأقامه بطريركاً للأرمن ، ومنحه نفس الحقوق والاختصاصات التى خولها للبطريرك اليونانى ، كما أذن هذا السلطان لليهود فى الإقامة فى إستانبول وعين حاخاماً لهم أطلق عليه «حاخام باشى» ومنحه سلطات على رعايا الدولة اليهود مماثلة للسلطات الممنوحة لكل من البطريرك اليونانى والبطريرك الأرمنى .

فإذا كان السلطان محمد الثانى قد أبى بعد فتح القسطنطينية على النفوذ

الدينى لرؤساء الطوائف غير الإسلامية وعلى المظاهر التى كانت تحيط بهم من يمين وشمال داخل النطاق المذهبى ، فكان من الطبيعى أن يحرص هذا السلطان فى ذات الوقت على ألا تكون شخصية المفتى فى العاصمة ، وهو كبير موظف دينى مسلم فى الدولة ، بأقل فى مظهرها ومخبرها ، وفى ظاهرها وباطنها ، من شخصية أولئك الرؤساء جميعاً وبخاصة شخصية بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية . وكانت هذه الكنيسة برياستها وأتباعها الكثيفى العدد مركز قوة فى الدولة ، ولكنها كانت تحت أعين رجال الحكومة ما بقيت الدولة العثمانية قوية ، وفى استطاعتها سحق أية ثورة أو حركة تمرد قد يفكر أتباع هذه الكنيسة فى القيام بها . ولانتمى أن الدولة العثمانية كانت دولة تيوقراطية un état théocratique أى دينية ، فجاءت سياستها وتشريعاتها ومعظم تصرفاتها تتسم بالطبع الدينى الإسلامى الذى كان من أبرز خصائص هذه الدولة . وقد سبق أن تعرضنا فى شيء من التفصيل لهذه الخصيصية فى هذه الدراسة (١) . فإضافة لقب شيخ الإسلام على مفتى العاصمة كان فى لحمته وسداه متمشياً مع السياسة العليا للدولة وتطبيقاً عملياً لتلك الخصيصية الدينية القوية من خصائص الدولة .

أما السبب الثانى الذى حمل الدولة على تغيير لقب المفتى إلى شيخ الإسلام فيرجع إلى رغبته فى إيجاد نوع من التوازن بين الوظائف القيادية فى تلكا الهيئتين الحاكمتين الرئيسيتين فى الدولة وهما طبقة القولاار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . فإذا كان الصدر الأعظم باختصاصاته العديدة وسلطاته الواسعة يعد أكبر موظف فى طبقة القولاار الحاكمة ، فقد رأت الدولة أن تطلق على شخصية دينية إسلامية لقباً دينياً وأديباً يجعل هذه للشخصية نداءً للصدر الأعظم ، وأضفت عليه الكثير من الامتيازات سواء فى حياته الخاصة أو فى حياته العامة، وسواء فى كثرة اختصاصاته وتعدددها، أو فى عدد الإدارات الفنية التابعة لمكتبه، وفى حشد كثيف العدد من القضاة ومن إليهم من كبار العلماء الذين كانوا يعملون فى شتى الأجهزة التابعة له .

ويلاحظ أنه لم يكن عضواً في الديوان الإمبراطورى الذى يرأسه الصدر الأعظم . والحكمة فى عدم تقرير عضويته فى هذا الديوان ترجع إلى حرص الدولة على ألا يكون شيخ الإسلام ، وهو أكبر شخصية دينية إسلامية فى الدولة كما ذكرنا ، مرموساً للصدر الأعظم الذى ينتمى إلى طبقة القولاى الحاكمة . واكتفت الدولة بأن تكون الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ممثلة فى الديوان بعناصر أخرى من هذه الهيئة أقل درجة من شيخ الإسلام .

ويرى البعض أن السلطان محمد الثانى كان متأثراً بوجود الخلفاء العباسيين فى القاهرة بجوار سلاطين دولتى المماليك البحرية والشرابية منذ أن نجح الظاهر بيبرس فى إحياء الخلافة العباسية وجعل مقرها القاهرة سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . وكان هؤلاء السلاطين يستندون إلى الخلفاء فى تأييد سلطتهم . فحذا السلطان محمد الثانى حذواً ماثلاً إلى حد ما ، ومن ثم عمل على أن تكون بجانبه شخصية دينية إسلامية تحمل لقباً دينياً براقاً له وزنه وتقديره فى نظر الجماهير . ويستطيع أن يستند إلى شيخ الإسلام فى دعم مركزه وتثبيت عرشه وتأييد تصرفاته السياسية والحربية والعائلية وغيرها . ومن المتعذر - إن لم يكن فى حكم الاستحالة - الأخذ بهذا التفسير لعدة أسباب ، نذكر منها :

أولاً : إن العرش فى دولة المماليك الشراكسة لم يكن وراثياً فى معظم الأحوال . وإنما كان يتربع عليه الأمير الأعز نفراً والأكثر أنصاراً والأوفر ثراء ، ومدى ما كان يتصف به من صفات المكر والخديعة والغدر والنفاق والمقدرة على تدبير المؤامرات إلى جانب الكفاية الحربية والمهارة الدبلوماسية . فظل عرش تلك الدولة مشاعاً بين القادرين من أمراء المماليك (١) ، بينما كان عرش الدولة العثمانية وراثياً ، كان يتقلده أفراد أسرة واحدة عبر الأعصار

---

(١) كان مبدأ وراثية العرش محترماً فى حالات كثيرة أيام دولة المماليك البحرية ولا سيما فى أسرة قلاوون .

النظر :

دكتور إبراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الشراكسة ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٠-١١ .



والأدهار . ولم يكن يشترط فيمن يتولاه سوى شرط واحد هو أن يكون من أصلاّب الأسرة ، أى من أولاد الذكور ولا يكون من أولاد البنات . فالدولة العثمانية كانت تتميز - فيما كانت تتميز به - بالاستقرار : فلا يجرى غريب أو طارئ أو من كان فى مرتع شبابه عبداً مملوكاً ثم يتولى العرش .

ثانياً : كان السلطان محمد الثانى يعلم علماً يقينياً الحقائق المتصلة بالخلافة العباسية فى القاهرة ، ومن بينها أنها كانت خلافة صورية تتمثل فى أن يصدر الخليفة تفويضاً يسمى « التقليد » لكل سلطان مملوكى يتربع على عرش دولة المماليك حتى يكون لهذا السلطان حق شرعى فى الحكم شعوراً من سلاطين دولتى المماليك - البحرية والشرابية - بخرج مركزهم لأصلهم غير الحر ، ولأنهم اغتصبوا السلطة فى مصر اغتصاباً مزيئاً من حكامها السابقين ، فأرادوا أن يضيفوا على حكمهم شرعية وعلى أنفسهم مهابة وعلى مركزهم دعامة يستندون بها عرشهم . وإذا كان اسم الخليفة يذكر قبل اسم السلطان فى خطب صلاة الجمعة والعيدين ، فقد كان هذا السبق أيضاً مسألة شكلية ، لأن الخليفة كان محجوراً عليه . ولم يكن يغادر داره فى أوقات السلم إلا مرة واحدة فى أول كل شهر هجرى وفى أول يوم من أيام العيدين إلى القلعة لتهنئة السلطان . فكان عدد المرات التى يخرج فيها من دارة ثلاث عشرة مرة فى السنة (١) ، ولم يكن فى مكتبة أى شخص أن يتصل بالخليفة إلا بإذن من السلطان (٢) . أما فى زمن الحرب فكان الخليفة يصحب الجيش من قبيل التبرك . وبذلك تلاشت شخصية الخليفة أمام السلطان المملوكى موثلاً السلطة الفعلية فى الدولة (٣) . وعلى حد قول المقرئى كانت الخلافة العباسية

---

(١) من المعروف أن غرة شهر شوال هو أول أيام عيد الفطر فكان يؤذن للخليفة فى الخروج فى هذا اليوم الذى تجتمع فيه هاتان المناسبتان لتهنئة السلطان ، وبذلك يصبح عدد المرات ثلاث عشرة مرة .

(٢) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المملوكى الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٤٢-٣٤٧

(٣) حدث استثناء لهذا المبدأ العام الذى ألزم به السلاطين المماليك تجاه الخلفاء العباسيين . قبل عهد دولة المماليك الشراكسة تنافس على العرش أميران ، هما : نوروز ، وشيخ . ورأى الأمير -

في القاهرة « ليس لها أمر ولا نهى ، وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين » (١) . فلم يكن من المعقول أن يستهوى السلطان محمد الثانى مثل هذا المركز الهابط الذى كان يشغله الخليفة العباسى في القاهرة ، فيعمل على إنشاء منصب دينى مقارب له في إستابول . وقد ذكرنا من قبل أن السلاطين العثمانيين قد اهتموا باضافة لقب « حامي الحرمين الشريفين » إلى ألقابهم العديدة عقب دخول الحجاز تحت السيادة العثمانية . ولكنهم لم يتخذوا وقتذاك لقب خليفة ، لأنهم كانوا يدركون أن هذا اللقب قد هوى بصاحبه في القاهرة إلى الخضيض . ولكنهم بحثوا لقب خليفة في القرن الثامن عشر لأسباب سياسية . أما ما ذكره بعض المؤرخين من أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يلتمسون تفويضاً من الخليفة العباسى في القاهرة عند اعتلائهم العرش (٢) ، فأمر مشكوك فيه ، لأن الاستعلاء الذى كان من أبرز صفات السلاطين العثمانيين كان بمنعهم من أن يستمدوا سلطتهم من قوة خارجية يعلمون جيداً مبلغ هوانها في نظر السلاطين المالك والشعوب الإسلامية في مصر والشام وغيرها . فالتماس التفويض كان أمراً يتنافى مع طبائع السلاطين العثمانيين ومع أخلاقهم .

### باب مشيخت ، شيخ الإسلام قايمى :

كان يطلق أحياناً على منصب شيخ الإسلام والمكاتب والأجهزة الملحقة به « باب مشيخت » أى باب المشيخة ، كما كان يطلق أحياناً أخرى مصطلح

= شيخ في غلطه للقضاء على منافسه أن يضع مؤقتاً الخليفة العباسى ، المستعين ، على العرش ( سنة ٨١٥ هـ - ١٤١٢ م ) . ولما اتجه الموقف استطاع الأمير شيخ عزل الخليفة من العرش بعد أقل من ستة شهور بنفس السهولة التى وضعه عليه ، ثم عزله من الخلافة أيضاً وسجته في القلعة .

انظر :

دكتور إبراهيم على طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة . مرجع سبق ذكره ، ص ٦٣-٦٥ .

(١) المقرئى : المواعظ والاحتبار بذكر الخطط والآثار . الطبعة الأهلية . أربعة أجزاء . القاهرة ، ١٩٠٧ ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ .

(٢) الجوىلى جلال الدين : حسن الحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . القاهرة ١٣٢٧ هـ ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

آخر هو «شيخ الإسلام قابيسى» أى باب شيخ الإسلام (١) ، تأسيساً على أن لفظة «باب» جرى العرف على إطلاقها على قصر أو مقر أى حاكم أو بلاطه أو حكومته .

ولما قضى السلطان محمود الثانى ( ١٨٠٨ - ١٨٣٩ ) على نظام الإنكشارية سنة ١٢٤١ هـ ( ١٨٢٦ م ) خصص الدار التى كان يشغلها قائد فيالق الإنكشارية فى إستانبول لشيخ الإسلام . فأصبحت مقراً له يمارس فيها اختصاصاته . وكانت هذه الدار تقع على مقربة من مسجد السليمانية .

#### باب فتوى ، فتوى خانه :

أنشأ السلطان سليمان المشرع مكتباً فنياً ألحقه بشيخ الإسلام وأطلق عليه المصطلح التاريخى «باب فتوى» أو «فتوى خانه» بمعنى دار الإفتاء . وكان يعمل بها جماعة من كبار العلماء يبحثون بصفة تمهيدية المسائل الشرعية التى يطلب إلى شيخ الإسلام إصدار فتاوى بشأنها . وكان يرأس دار الإفتاء أحد كبار العلماء المرموقين ويطلق عليه «فتوى أمين» أى أمين الإفتاء أو أمين الفتاوى (٢) .

وإذا أرادت الحكومة المركزية الوقوف على رأى شيخ الإسلام فى مسألة معينة ، وطلبت منه إصدار فتوى بشأنها ، كان عليها أن تتقدم بطلب رسمى إليه . ولكن كان يسبق تقديم هذا الطلب اتصالات غير رسمية بين الوزراء المختصين من ناحية ، وبين أمين الإفتاء من ناحية أخرى ، فيسحبها بصفة تمهيدية أو يحيلها إلى أحد معاونيه فى «الفتوى خانه» .

#### التلخيصى :

وقد استندت كثرة عدد الفتاوى التى كانت تطلب من شيخ الإسلام تعيين موظف كان يسمى «تلخيصى» - وهذا المصطلح مأخوذ من

( ١ ) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة : باب مشيخت .

Gibb Hamilton and Bowen Harold op. cit., vol.I. Part II, p. 86. ( ٢ )

اللفظة العربية لخص والاسم منها - تليخيص - فيقوم بإعداد موجز للعناصر التي تتألف منها المسألة المراد استصدار فتوى بشأنها (١). وكان من بين موظفي مكتب شيخ الإسلام موظف يختص بإدارة المؤسسات الخيرية التي كان يعهد إليه بالإشراف عليها ، وكان هذا الموظف يسمى « كخيا » . ومن اختصاصه أيضاً الإشراف على الشئون الخاصة بشيخ الإسلام ، فكان يساعده في هذا الصدد ، شأنه شأن باشوات الدولة . وكان هؤلاء الموظفون الملحقون بمكتب شيخ الإسلام والذين يعتبرون مساعدين له يؤخرون من رجال القضاء من فئة « مولا » أو من رجال الإفتاء .

### مقارنة بين مركز كل من الصدر الأعظم وشيخ الإسلام :

كان الصدر الأعظم وشيخ الإسلام هما الموظفان الوحيدان في الدولة اللذين يتسلمان فرمان تعيين كل منهما في منصبه من يد السلطان . وكان من التقاليد المتبعة في الاحتفالات الرسمية ألا يتقدم أحدهما على الآخر ، بل كانا يسيران جنباً إلى جنب ، وإن قام أحدهما بزيارة رسمية للآخر ، تتبع في استقباله وتوديعه مراسم التكريم والتشريف التي تتبع في استقبال وتوديع الآخر . فكان كل منهما يعتبر نداءً للآخر ، كما سبق أن ذكرنا .

وإذا كان الصدر الأعظم يتمتع بسلطات أكثر ، فإن شيخ الإسلام كان يظفر بتقدير أكبر . وكان من أسباب هذا التقدير العميق أن شيخ الإسلام كان يمارس سلطاته في مجالات دينية لها وزنها وتقديرها في نظر الجميع ، فضلاً عن اختصاصات لا تسمو إليها اختصاصات الصدر الأعظم وتتصل اتصالاً مباشراً بالسياسة العليا للدولة ، فله وحده ودون سواء ، الحق في إصدار فتاوى تميز الحرب التي تخوضها الدولة ، أو فتاوى

---

(١) يلاحظ أنه كان بين حاشية الصدر الأعظم ضابطان يحمل كل منهما نفس اللقب وهو تليفجي ، يقومان بتسليم رئيس الحصيان السود وهو أبا البنات المسمى فيزير أغاسي - المذكرات التي كان الصدر الأعظم يرسلها إلى السلطان . وكان رئيس الحصيان السود ، في معظم الأوقات ، هو الوحيد الذي يمكنه أن يرفع هذه المذكرات إلى السلطان .

بتقرير الصلح ، أو إبرام المعاهدات ، أو عزل السلطان الحاكم . كما لم يكن لشيخ الإسلام شأن مباشر بالخدمة الداخلية أو الخدمة الخارجية للسلطان . واعتاد السلطان أبو يزيد الثاني ( ١٤٨١ - ١٥١٢ ) أن يقف لاستقبال شيخ الإسلام ويمنحه مقعداً أعلى من مقعده (١).

وكان على الصدر الأعظم أن يكون على اتصال مستمر بشيخ الإسلام لبحث المسائل الخاصة بشئون الدولة والتي تتطلب أخذ رأيه فيها من حيث مطابقتها لمبادئ الشريعة الإسلامية . ولذلك كان الصدر الأعظم هو الذى يقوم بزيارات عديدة لشيخ الإسلام فى مقر منصبه على فترات متقاربة . وكانت هذه الزيارات لكثرتها تم فى بعض الأحيان بطريقة غير رسمية لتجنب إقامة المراسم التى تتبع عند زيارته لشيخ الإسلام .

### مركز شيخ الإسلام فى البروتوكول العثمانى :

حدد السلطان سليمان المشرع تحديداً نهائياً وقاطعاً المركز الوظيفى والقانونى لشيخ الإسلام ، فجعله رئيس هيئة العلماء وأكبر شخصية عاملة فى الهيئة الإسلامية . كما أضفى على شاغل هذا المنصب الكثير من مظاهر التكريم والنفوذ . كان شيخ الإسلام يتقدم على جميع موظفى الدولة . ثم غدا يتمتع فى البروتوكول العثمانى بمركز يمتاز عن مركز الصدر الأعظم أى رئيس الوزراء وعن الوزراء . فعند ذهاب شيخ الإسلام لمقابلة السلطان كان يحف هذا لاستقباله متقدماً سبع خطوات ، بينما لم يكن السلطان يتقدم لاستقبال الوزراء أكثر من ثلاث خطوات . وكان يسمح لشيخ الإسلام بتقبيل كتف السلطان ، بينما كان لايسمح للصدر الأعظم إلا بلثم ذيل ثوبه (٢).

وقد قيل فى مستهل حكم السلطان سليمان المشرع إن الشعب كان يظهر لشيخ الإسلام احتراماً لم يظهره قط لرجل آخر فى الدولة . وقد بنى الشعب تقديره العميق له تأسيساً على أنه يمثل الإسلام والشريعة الإسلامية وأنه

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 209.

(١)

(٢) محمد جميل بيهم : العرب والترك الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٢٤-١٢٥.

المفسر لها . وكان السلطان لا يستطيع المساس بها من قريب أو من بعيد ، ولا تعرض للعزل والقتل ، فالشريعة فوق السلطان نفسه . وكان السلطان هو الذى يتولى اختيار شيخ الإسلام ، ويصدر فرماناً أى مرسوماً سلطانياً بتعيينه فى هذا المنصب . وكان السلطان يختاره أول الأمر من بين المفتين الذين يعملون فى أنحاء الدولة . ولما تغير لقب مفتى إستانبول إلى شيخ الإسلام كان السلطان يختاره من بين كبار رجال القضاء .

وكانت الدولة تخصص أحد كبار ضباط القصر السلطانى لمساعدة شيخ الإسلام فى ارتداء ملابس التشرية . ويطلق على هذا الضابط اسم « الخاص أوطه باشى » وكان فى أول الأمر وعلى عهد سلاطين الفترة الأولى رجلاً كامل الرجولة ، ثم رأت الدولة — بعد انتهاء حكم السلطان سليمان المشرع — أن يكون هذا الضابط خصياً ومن طائفة الحصيان البيض (١) .

#### فتاوى تجيز تنازل الدولة عن أقاليم عثمانية :

ومن الأمثلة على الفتاوى التى كان يصدرها شيخ الإسلام تجيز فيها للدولة أن تتنازل عن بعض أقاليم خاضعة لها ، نذكر الفتوى التى صدرت عنه فى سنة ١٨٢٩ . كانت الدولة قد اضطرت إلى قبول الصلح عقب الحرب الخاسرة التى خاضتها ضد روسيا فى أبريل — نيسان — سنة ١٨٢٨ ، وعقدت معاهدة أدرنة فى سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٢٩ ، واعترفت الدولة فى هذه المعاهدة باستقلال اليونان استقلالاً داخلياً ، وباستقلال ولايتى الأفلاق والبغدان ( رومانيا حالياً ) فى إدارتهما تحت حماية روسيا . ورأى السلطان محمود الثانى أن يتجه إلى شيخ الإسلام ، وحصل منه على فتوى تجيز هذا التصرف . وبناء على هذه الفتوى أصدر السلطان تصديقاً La Ratification على معاهدة أدرنة .

#### فتوى توجب محاربة محمد على وفتوى تجيز العفو عنه :

وعند ما اندلعت حرب الشام الأولى سنة ١٨٣١ بين السلطان محمود الثانى ومحمد على والى مصر استصدر السلطان من شيخ الإسلام فتوى تجيز

له محاربة محمد على . ولما توقفت العمليات الحربية وأبرمت اتفاقية كوتاهية في اليوم السادس من شهر مايو - آيار - سنة ١٨٣٣ استصدر ذلك السلطان من شيخ الإسلام فتوى أخرى تجيز العلول عن محاربة محمد على . ونذكر النص الحرفي للسطر الأول من الفتوى ، وهو في صورة سؤال موجه إلى شيخ الإسلام « إذا كانت طائفة من المسلمين جمعت العباكر وهجمت على طائفة أخرى أيضاً من المسلمين . ولكنها - بعد ذلك - عرضت الطاعة إلى إمام المسلمين وخايفة الأرضين ، خلد الله ملكه إلى يوم الدين ، ورجعت عن تعدياتها ، هل يكون من المشروع أن تقبل طاعتها ، وترك قتالها ؟ » (١) . وصدرت الفتوى تقرر أن قبول طاعتهم والكف عن قتالهم أمر مشروع .

### فتاوى عزل السلاطين :

كان أقوى مظهر يوضح مدى سلطة ونفوذ شيخ الإسلام أنه كان له وحده ودون سواه الحق في إصدار فتوى بعزل السلطان القائم بالحكم تأسيساً على أنه انحرف عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية تطبيقاً سليماً ، أو استناداً إلى أنه مصاب بمرض عقلي لا يرجى شفاؤه ، أو غير ذلك من ذرائع أو أسباب . وكانت فتاوى العزل تختلف اختلافاً جديراً عن الفتاوى التي تتناول مسائل السياسة أو الحرب ، فبينما الفتاوى الأخيرة يستصدرها السلطان القائم بالحكم لأنه صاحب المصلحة الأولى في صلاحها ، كانت فتاوى العزل تستصدرها إحدى جهتين : أحد المنافسين للسلطان على العرش من أعضاء الأسرة السلطانية ، أو من العسكريين أو من أحد مراكز القوى السياسية في الدولة . كما كان هناك فارق جوهري آخر هو أن فتاوى العزل لا تنتهي بعزل السلطان الحاكم ، ولكن كان لها نتائج أخرى ترتب عليها ، هي قتل السلطان المعزول أو اعتقاله في أحد القصور مع حرمانه وقطع كل صلة بينه وبين العالم الخارجي بحيث يصبح السلطان مع أسرته من أموات الأحياء حتى يدرك الموت السلطان المعزول ويفترق ذروه .

---

(١) ساطع المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٤ .

وسنمر مروراً سريعاً على أربع فتاوى صدرت في أوقات مختلفة، ونشرح الملاحظات التي أحاطت بصدر كل فتوى. كانت الفتوى الأولى قد صدرت بعزل السلطان سليم الثالث ( ١٧٨٩ - ١٨٠٧ ) لأنه أعاد تنظيم الجيش وفق الأساليب الأوروبية ، فصدرت الفتوى تقول « إن كل سلطان يدخل أنظمة الفرنجة وعوائدهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك » . وتم عزله وقتله (١) على يد الإنكشارية الذين وقفوا بدافع المصلحة الشخصية في وجه كل محاولة لإصلاح الجيش وتطوير نظامه وأساحته . وصدرت الفتوى الثانية في ٢٩ من مايو - آيار - ١٨٧٦ بوجوب عزل السلطان عبد العزيز ( ١٨٦١ - ١٨٧٦ ) تأسيساً على إسراره والتجائه إلى عقد قروض أجنبية من البيوت المالية في باريس ولندن ، وعجزه عن تصريف شئون الدولة . وأيد العسكريون هذه الفتوى وطالبوا بتنفيذها . وكان أن عزل السلطان عبد العزيز رسمياً في اليوم التالي لصلورها (٢) ، وعن مكانه ابن أخيه مراد باسم السلطان مراد الخامس . ولم يكن هذا السلطان أوفر حظاً من سابقه . فقد صحت عزيمة مدحت باشا وزملائه على عزله ، واستصبروا فتوى من شيخ الإسلام توجب إعفائه من الحكم . ولم يعدموا سبباً يستندون إليه في استصدار الفتوى . وكان هذا السبب هو اختلال قواه العقلية. وتدل الملاحظات السياسية التي أحاطت برجال الحكم في ذلك الوقت على أن هذا السبب كان مختلفاً . وتم عزل السلطان التعس بعد حكم قصير لم يتجاوز ثلاثة أشهر وثلاثة أيام (٣) . وعين أخوه الأصغر عبد الحميد في ٣١ من أغسطس -

- (١) محمد جميل بهيم : العرب والترك في الصراع الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٧  
(٢) ولم تمس أيام ذات عدد حل عزل السلطان عبد العزيز حتى قضى نحبه . واختلفت الآراء حول وفاته ، فمن قائل إنه مات متحرراً ، ومن قائل إنه قتل شيلة . ويقول مبلر Miller المؤرخ الإنجليزي إنه تحدث مع الطبيب ديكسون Dickson وهو الذي فحص جثمان السلطان ، وعلم منه أن السلطان عبد العزيز مات متحرراً بعد أن قطع شرايينه بمقص . ومع ذلك فبعد خمس سنوات من وفاته وجهت التهمة إلى مدحت باشا وبعض رفاقه بقتل هذا السلطان ، وقسموا لحاكة سورية وأدينوا وأعدموا .  
انظر :

Miller W. ; op. cit., p. 368

- (٣) حددت إقامة السلطان مراد الخامس في أحد القصور المطلة على البوسفور وظل معتقلاً فيه زهاء تسعة وعشرين عاماً حتى جاز إلى ربه في سنة ١٩٠٤ وغلت زوجاته معتقلات في هذا القصر حتى قام انقلاب سنة ١٩٠٨ فأذن رجال الحكم الجديد لحريه بمغادرته القصر بعد إقامة جبرية فيه استطلات أكثر من ثلاثين عاماً .



آب - سنة ١٨٧٦ ، واتخذ لنفسه اسم عبد الحميد الثاني . ويقال إن نامق كمال - وهو من أبرز زعماء رجال تركيا الفتاة - توسل إلى مدحت باشا والدموع ترقوق في عينيه كي يؤجل عزل مراد . ولكن أصر مدحت باشا على رأيه . وسارع السلطان الجديد عبد الحميد الثاني بتعيين مدحت باشا صليفاً عظيماً . وقد قدر للسلطان عبد الحميد أن يستوى على عرش الدولة العثمانية فترة قاربت أربعة وثلاثين عاماً تزامنت خلالها الأحداث الجسام على الدولة ، ثم يعزل عن العرش في سنة ١٩٠٩ بناء على فتوى أصدرها شيخ الإسلام نزولاً على رغبة العسكريين ، وجاء في الفتوى أن السلطان عبد الحميد يكيد لنظام الدستوري في الدولة .

### طرازان من شيوخ الإسلام :

وقد يبدو من هذه الفتاوى على اختلاف أنواعها والتي صدرت عن شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية أنهم كانوا أداة طيعة لينة في يد السلطان الحاكم أو في أيدي أصحاب مراكز القوى في الدولة يطلبون من شيخ الإسلام إصدار فتوى لتبرير أو لتضيق إجراءات معين . وكان شيخ الإسلام يصدر بما يؤمر به . ونحن لا ننكر أن بعضهم كان من هذا الطراز من الرجال ، ولكن من ناحية أخرى كان بعض شيوخ الإسلام ذوي شخصية قوية ، جاهروا السلاطين برأيهم في تصرفاتهم . ولم تصدر عنهم فتاوى إلا ما كان منها متمشياً مع مبادئ الشريعة الإسلامية . ونعرض في هذه الدراسة مثالا لهذا الطراز من شيوخ الإسلام .

### شيخ الإسلام يتحدى السلطان :

كان عدد من رعايا الدولة في الأناضول بوجه خاص قد اعتنقوا في أوائل القرن السادس عشر المذهب الشيعي الذي تسلم إلى أراضي الدولة العثمانية من الدولة الصفوية في فارس . وكان هذا المذهب خليطاً من مبادئ الشيعة ومبادئ أخرى فوضوية يقول عنها أصحابها إنها تحريرية . وأطلق على هذا المذهب قول باشا أي الرأس الأحمر . ونجح السلطان سليم الأول في أن يحصل

من شيخ الإسلام على فتوى توجب قتل معتنقى هذا المذهب. وتمت مذابح عامة قتل فيها معظمهم، وبذلك تخلص سليم منهم. والتفت إلى الدولة الصفوية في فارس واستصدر من شيخ الإسلام فتوى توجب قتال هذه الدولة ، ومن ثم زحف عليها بقوات جرارة وخاض حرباً خاطفة وأحرز انتصارات كبيرة ، ودخل تبريز عاصمة الدولة الصفوية . ولكنه لم ينجح في سحق الشيعة سحقاً كلياً ، وعاد إلى إستانبول . وفي أثناء هذه العمليات صدرت عن الرعايا المسيحيين في الدولة تصرفات مريبة جعلت السلطان يتوجس منهم خيفة . ورأى أنهم يشكلون تجمعات بشرية كثيفة العدد داخل الدولة، وقد ينتهزون فرصة انشغال الحكومة في حرب ويكون الجيش العثماني منصرفاً إلى العمليات الحربية فيقومون بحركة تهدد الدولة تهديداً خطيراً في مثل هذا الوقت العصيب ، وانتهى تفكيره إلى ضرورة تسوية هذه المشكلة، فيعرض على رعاياه المسيحيين أحد أمرين لا ثالث لهما ، وهما : إما اعتناق الإسلام وإما القتل . ويقول أحد المؤرخين الأجانب إن السلطان سليم في اتخاذ هذا القرار كان متأثراً بالمذابح الدينية التي أقامت عليها السلطات الإسبانية حين رفض مسلمو الأندلس اعتناق الدين المسيحي<sup>(١)</sup>. فلم يكن هذا القرار هو الأول من نوعه ، بل كان له نظير في الطرف الغربي من أوروبا وفي ذات الوقت تقريباً .

عرض السلطان سليم الأول هذه المسألة بصورة مختلفة على الشيخ جمالي شيخ الإسلام، وطلب منه إصدار فتوى توجب إكراه رعايا الدولة المسيحيين على اعتناق الإسلام وقتل من يرفض منهم هذا الأمر . وصدرت الفتوى على النحو الذي كان السلطان يبتغيه ، ثم استبان لشيخ الإسلام أن السلطان سليم قد عرض عليه الموضوع عرضاً غير سليم ، وأنه أخفى بعض عناصر الموضوع عنه؛ وبعبارة أخرى أدرك شيخ الإسلام أن السلطان قد خدعه . فما كان منه إلا أن أصدر فتوى لاحقة سحب فيها الفتوى السابق لإصدارها بخصوص هذا الموضوع . وقرر في الفتوى الجديدة أن الشريعة الإسلامية تسمح للمسيحيين وغيرهم من أهل الكتاب الذين خضعوا للحكم الإسلامي

بالبقاء على دينهم طالما كانوا يدفعون جزية الرأس كبذل نقدي بعضهم من التجنيد وبأن يمارسوا بملء حريتهم شعائرهم الدينية ، وأن تتكفل الدولة بالحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم وطالما كان سلوكهم العام لا تشوبه شائبة ، وولاءهم للدولة ملحوظاً ونصرفاتهم سليمة . وقد أبلغت هذه الفتوى إلى البطريرك اليوناني في إستانبول بصفته رئيس أكبر ملة غير إسلامية في الدولة . واعتبر البطريرك هذه الفتوى ميثاقاً أو مستنداً يندأ عن رعاية الدولة غير المسلمين أى اضطهاد ديني قد يتعرضون له . وقد أذعن السلطان سليم لرأى شيخ الإسلام الذي سجلته تلك الفتوى .

ويقول المؤرخ الأمريكي ليبير ، تعليقاً على موقف كل من السلطان وشيخ الإسلام ، لو أن السلطان سليم قد نفذ قراره بإكراه جميع رعايا الدولة غير المسلمين على اعتناق الإسلام لنجم عن ذلك مزايا كبرى بالنسبة للدولة العثمانية . وكان من بينها زوال الكنائس المسيحية التي كانت قائمة في أرجاء الدولة . وكانت تشكل مجموعة من الهياكل الدينية القوية والمنافسة للهياكل الإسلامية . وكانت آمال الرعايا المسيحيين متعلقة بهذه المنشآت الدينية التي تتميز بالحياة . ومنها أيضاً أن الدولة كانت تنعم بوحدة العقيدة الدينية بين رعاياها ، إذ يحدث في المدى البعيد اختلاط وانصهار بين الرعايا المسلمين والرعايا المسيحيين الذين يتحولون إلى الإسلام . ولكن ما حدث كان مخالفاً تماماً لهذه التوقعات ، لأن الإبقاء على رعايا الدولة المسيحيين محافظين على ديانتهم كان معناه في المجال السياسي الإبقاء على الروح القومية والروح الانفصالية تتأججان في صدور الرعايا المسيحيين . كما كانت هناك نتيجة أخرى لو أن السلطان سليم الأول قد نفذ قراره بإكراه جميع المسيحيين على اعتناق الإسلام ، فيقول إن وجه التاريخ في منطقة الشرق الأدنى كان يتغير تغيراً جذرياً . ويطرى هذا المؤرخ الأمريكي موقف شيخ الإسلام ، ويصف قراره بأنه قرار سليم يتمشى مع قواعد الشريعة الإسلامية ، وكانت لدى شيخ الإسلام الشجاعة الأدبية حين أصدر هذه الفتوى بصفته حارساً للشريعة الإسلامية . ويختتم ذلك المؤرخ تعليقه على هذه الفتوى قائلاً إن الإسلام

الذى جاء به قبل أن يأتى السلطان سليم الأول إلى الحياة بتسعة قرون قد جعل قيام وحدة دينية من رعايا الدولة العثمانية أمراً مستحيلاً (١). ونرى أنه استند إلى أن الإسلام بساحته كان يجيز لأهل الكتاب الإبقاء على دياناتهم بشرط أداء جزية الرأس. وقد قال الله تعالى « لا إكراه فى الدين ».

أما رأينا فى هذه المسألة فقد سبق أن ذكرناه من قبل وفى أكثر مؤلف لنا ، وهو أن التاريخ لا يتحدث عن المستقبل ، والتاريخ ليس رجباً بالغيب ، وهو لا يبنى أحكامه على احتمالات قد تحدث فى قابل الأيام وقد لا تحدث . والتاريخ الموضوعى المحايد لا يفترض أحداثاً ، ويتابع المؤرخ تنفيذها فى عالم الخيال . ويرتب على هذه الأحداث الخيالية والتنفيذ الخيالى نتائج تتمشى مع عقيدته الدينية أو اتجاهه السياسى ، فيقف منها مكتئباً حزناً أو مبتهجاً متلهلاً حسب وجدانه الدينى ونزعة القومية وتحرره من التعصب . فهذه أمور نخرج بالمؤرخ عن اختصاصه ونطاق دراسته كباحث يتميز بالموضوعية والحيادة ، والحق أن رأى شيخ الإسلام الذى صبر عنه فى الفتوى يعتبر تحدياً للسلطان ، ورجوعاً إلى الحق ، وتمسكاً بمبادئ الشريعة الإسلامية ، ودليلاً على شجاعته الأدبية .

### نظرة أوروبا إلى شيخ الإسلام فى إستانبول :

وقد طاب للمراقبين السياسيين فى دول غربى أوروبا فى القرن السادس عشر أن يقولوا عن شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية إنه يشبه « كاردينالا عظيماً جداً » . وقالوا عنه بعد ذلك إن مركزه يفوق مركز البابا فى روما (٢) . والحق أن هؤلاء المراقبين والمعلقين الأوروبيين قد ربطوا فى أذهانهم بين مركز شيخ الإسلام فى إستانبول وبين المركز الدولى للإمبراطورية العثمانية وهى تقف فى ذلك الوقت فى الصف الأول بين أكبر دول العالم مهية

Lybyer A. H., op. cit., pp. 210—212.

(١)

Lybyer A. H. op., cit., p. 209.

(٢)

الجانِب مرفوعة الرأس ذات قوات مسلحة ضاربة رهية . وبعبارة أخرى رأى أولئك المراقبون والمعلقون السياسيون المسيحيون في تحليلهم السياسى للمركز المرموق الذى سما إليه شيخ الإسلام فى إستانبول أنه لا يستمد هذا المركز السامى من الشريعة الإسلامية التى كان يمثلها فحسب ، بل من مركز الدولة الريادى والقيادى سواء فى العالم الإسلامى أو فى الأمرة الدولية . ونظروا إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى ، وأنها تضم الأراضى المقدسة فى الحجاز ، وكذلك المسجد الأقصى فى القدس ، وأن ممتلكاتها الإقليمية امتدت فى ثلاث قارات . ومن ثم كانت نظرهم إلى شيخ الإسلام فى إستانبول على أنه أكبر شخصية دينية إسلامية فى العالم . ومما ساعد على تأكيد هذه النظرة إلى شيخ الإسلام أن لقب خليفة لم يكن قد التصق بعد باسم سلطان الدولة العثمانية . وسيحدث هذا الالتصاق فيما بعد فى خلال القرن الثامن عشر وما تلاه .

ومن خلال هذه النظرة ، ومن حيث الواقع التاريخى أيضاً ، وفى أثناء القرن السادس عشر بالذات ، كانت دولة المماليك الشراكسة فى مصر قد ذهبت إلى مغيب ، وفقدت مصر استقلالها وخسرت زعامتها للعالم الإسلامى ، وهبطت من دولة كاملة السيادة إلى ولاية عثمانية ، واحتجبت إلى حين مكانة الأزهر ومكانة علمائه ، وغدا الميدان أمام شيخ الإسلام العثمانى فسيحاً رحباً خالياً من المنافسين الأقوياء .

ونرجع هنا إلى باحث إنجليزى أقام فى إستانبول فى القرن السابع عشر ، وامتدت إقامته سنين عدداً ، وأصدر كتاباً تناول فيه بالشرح الأوضاع السائدة فى الإمبراطورية العثمانية (١). وقد ذكر فيه أنه استقى مادته العلمية من السجلات العثمانية المحفوظة لدى كبار الموظفين ، ومن أعضاء هيئة العلماء المسلمين ، ومن رجل من أصل بولندى أتت به ضريبة الغلمان إلى إستانبول وعاش فى البلاط العثمانى تسع عشرة سنة . ونال كتاب هذا الباحث الإنجليزى شهرة علمية عريضة ، إذ كان مرجعاً للذين كتبوا فى تاريخ الدولة العثمانية منذ

القرن السابع عشر . وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات . وإلى سنة ١٦٨٦ كان الكتاب قد طبع ست طبعات باللغة الإنجليزية . وقد منحته الحكومة الإنجليزية لقب سير Sir . أفرد هذا الباحث حيزاً كبيراً من كتابه للحديث عن شيخ الإسلام في الدولة العثمانية وعلو شأنه واتساع اختصاصاته واهتمام السلطان العثماني باسترضائه وتنفيذ ما يشير به شيخ الإسلام على السلطان . فقال إن شيخ الإسلام كان هو الرئيس الفعلي للهيئة الإسلامية ، وهو المرجع الذي ترفع إليه كافة المسائل المختلف عليها من ناحية مدى مطابقتها لأحكام الشريعة الإسلامية ، وهو يتمتع باحترام وتقدير عميقين من لدن جميع العثمانيين . والسلطان دون سواه هو الذي يقوم بتعيينه ، ويختاره رجلاً ضليعاً في علوم الشريعة وأصول الدين ، معروفاً بفضائله ، مشهوراً باستقامة سلوكه . وإذا أصدر شيخ الإسلام رأياً أو بياناً فلا يستطيع السلطان بأية حال أن يعترض على ما جاء في ثنايا هذا الرأي أو ما تضمنه هذا البيان . والسلطان يطلب دائماً رأى شيخ الإسلام سواء عند إعلان الحرب أو عقد الصلح أو عند مواجهة كافة المسائل الأخرى ذات الخطر على الإمبراطورية . والسلطان يحتج دائماً بشيخ الإسلام إذا كان في صدد عزل أحد الباشوات من منصبه . أو إعداد وزير ، أو كان على وشك اتخاذ إجراءات جديدة وهامة تتناول تغييراً في سياسة الدولة ، ففي كل هذه الحالات وأمثالها كان السلطان يسلم نفسه باستصدار فتوى من شيخ الإسلام تجيز له اتخاذ الإجراءات التي يقدم عليها السلطان ويقرر شيخ الإسلام أنها متمشية مع مبادئ الشريعة (١) .

### إلغاء منصب شيخ الإسلام :

وعندما آلت السلطة في الدولة إلى جماعة الاتحاد والترقي عقب إنقلاب سنة ١٩٠٩ ، وكان التفوذ الأول في دوائر هذا الحزب لضباط الجيش ، حرص النظام الجديد على الانتقاص من سلطة شيخ الإسلام وسائر علماء الدين وتجهيدهم تبعاً من اختصاصاتهم وامتيازاتهم . وكان قد انتزع منهم الإشراف على التعليم والقضاء .

وأُلغيت وظيفة شيخ الإسلام مع إلغاء نظام المملطنة سنة ١٩٢٢ . ولما أُلغيت الخلافة سنة ١٩٢٤ أنشأت الجمهورية بدلا من وظيفة شيخ الإسلام إدارة جديدة للشئون الدينية ألحقت بمكتب رئيس الوزراء في أنقرة . وكان رئيس هذه الإدارة يطلق عليه « ديات إيشلى رئيسى » ويعتد رئيس الموظفين الدينيين في جمهورية تركيا ، ويعين بقرار من رئيس الوزراء . وكان من اختصاصاته الإشراف على المساجد والتكايا وتعيين الأئمة والوعاظ والمؤذنين وسائر موظفى المساجد ، وله أيضاً الإشراف على أعمال المفتين ، كما أنشأت حكومة الجمهورية إدارة عامة للمؤسسات الخيرية يرأسها مدير عام يطلق عليه « أوقاف عموم مدير ليشى » يختص بالإشراف على الأوقاف التى استولت عليها الحكومة والعمل على صيانة المباني الموقوفة (١) .



## الفصل الثامن عشر

### الهيئات الحاكمة في الدولة (٤)

#### الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة

##### القضاة :

ينتمي القضاة إلى الهيئة الإسلامية . وكانوا يمرون بطريق دراسي طويل قبل أن يتبوأوا مناصب القضاء . ونظرت الدولة إلى مرفق القضاء نظرة موضوعية ، ولم تسمح لغير المؤهلين علمياً بتقلد مناصبه . ووضعت نظاماً دقيقاً لتعيين القضاة وترقياتهم وثنقلاتهم ومتابعة أعمالهم . وكانت ولاية القضاء تشمل جميع أنحاء الدولة في القارات الثلاث : آسيا وأوروبا وإفريقية ، والأمر الجدير بالذكر أن الولاية القضائية ظلت تمتد إلى الأقاليم التي ضعف فيها النفوذ العثماني سياسياً أو عسكرياً أو إدارياً مثل بلاد القرم وشمال إفريقيا . وعلى ذلك فالقضاء العثماني كان أكثر نفاذاً وبقاء واستقراراً في الولايات العثمانية من النفوذ العسكري أو السياسي أو الإداري للدولة في تلك الأقاليم وأمثالها .

كانت المحاكم الإسلامية تنظر جميع أنواع القضايا سواء كانت قضايا مدنية أو جنائية . وسواء كانت من اختصاص الشريعة أو القوانين الوضعية أو العرف أو غير ذلك . وكان القضاء على بكرة أبيهم مسلمين ، ويفصلون في القضايا في ضوء مذهب الإمام أبي حنيفة وهو المذهب الرسمي للدولة . وقد أهتم السلاطين بتقرير هذا المذهب مذهباً رسمياً في الأقاليم الإسلامية التي فتحتها القوات العثمانية . وكان هذا التغيير المذهبي هو أحد التغييرات الرئيسية والقليلة التي أدخلتها الدولة في أقاليم العالم الإسلامي التي فتحتها . وعلى سبيل المثال كان مذهب الإمام الشافعي هو المذهب الرسمي في مصر قبل الفتح العثماني ،



فلما تم الفتح استبدلت الدولة العثمانية المذهب الحنفي بالمذهب الشافعي . وكان لا بد أن يكون حنفياً كبير القضاة الذى توفده الحكومة العثمانية إلى مصر ليشغل هذا المنصب القضائى الكبير . وكان يطلق على شاغله أيضاً قاضى القضاة أو قاضى عسكر أفندى . ولكن لم تكن الولاية القضائية لتلك المحاكم تمتد إلى جميع الأشخاص فى الدولة ، إذ كانت فى الدولة هيئات معترف بها وكانت لها محاكمها الخاصة تنظر فى قضايا أفرادها مثل القولاى ، وهم العبيد أعضاء الهيئة الحاكمة ، ومثل الأشراف الذين هم من سلالة أسرة النبى صلوات الله وسلامه عليه . أما رعايا الدولة المسيحيون فكانت قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بهم خارجة عن اختصاص المحاكم العادية ، وكانت تنظرها محاكم كنسية خاصة بهؤلاء المسيحيين يرأسها رئيس « الملة » ، وله أن يستعين ببعض رجال الدين المسيحي . وكانت هناك قضايا خاصة بإدارة أراض معينة من أراضى الأوقاف فكانت تنظر أمام محاكم خاصة يرأسها عضو من الهيئة القضائية الإسلامية العادية . وعلى العموم فإن قضاة الهيئة الإسلامية كانوا ينظرون جميع القضايا التى تتعلق بالشريعة الإسلامية فى جميع أنحاء الدولة سواء بين المسلمين بعضهم وبعض ، أو بين المسلمين والمسيحيين ، إلا إذا كان المسلم ينتهى إلى طائفة لها نظام قضائى يختص بها مثل القولاى والأشراف كما سبق أن ذكرنا . وكان يشمل اختصاص القضاة نسبة كبيرة من القضايا التى تمس موضوعات خارجة عن نطاق الشريعة الإسلامية .

وكان القضاة بوجه عام يحصلون على جزء كبير من دخلهم من مصدرين : الرسوم القضائية ، والغرامات التى يحكمون بها ، وكلا المصدرين يدر إيراداً وفيراً . كانوا يتقاضون جزءاً من الرسوم المقررة على معاينة التركات وتقسيمها والمبايعات وعلى الأوراق الرسمية التى تصدر عن المحاكم ويطلق عليها الحجج الشرعية . وتسجل فى كل حجة التصرفات العقارية ، ورسوم الزواج المقررة على زواج البنت البكر وزواج الثيب . وكان رسم زواج الآتسة ٣٢ أسيراً Asper أو أمجة وهى عملة فضية ، بينما كان رسم زواج الثيب ١٥ أسيراً (١) .

(١) انظر الرسوم التى حدها السلطان محمد الثانى لفق المناسبات والتصرفات القالونية فى :

### فئات القضاة :

كان القضاة بندرجون تحت درجات أو فئات شتى :

قاضي القضاة أو رئيس القضاة أو قاضي عسكر .

هيئات التدريس في المعاهد والمدارس التي تعد العلماء والباحثين والمتخصصين في الثقافة الإسلامية العليا واللغة التركية والأدب التركي وشتى التخصصات في نواحي المعرفة .

المولا (١) الكبير ويطلق عليه المصطلح التركي « مولا بيوك » .

المولا الصغير ويطلق عليه المصطلح التركي « مولا كوچوك » .

المفتش .

القاضي .

النائب .

وكان الاسم العام للقاضي بصرف النظر عن درجته هو القاضي . ولكن

كان التعبير الشعبي الذي يطلق على كل منهم من قبيل الاحترام والتقدير هو المولا .

### قاضي عسكر :

أنشأت الدولة على رأس النظام القضائي منصب قاضي القضاة أو رئيس

---

(١) المولا Molla تحريف للكلمة العربية مولى - بفتح الميم أو وضها وسكون الواو وفتح اللام - بمعنى سيد أو رئيس أو زعيم أو قيم - وقد حرفت هذه اللفظة بدورها في أقاليم شمال إفريقيا فأصبحت مولاي . ومن بين الطرق الصوفية المشهورة توجد الطريقة المولوية التي أسسها جلال الدين الرومي . وقد اشتقت اسمها من كلمة « مولانا » بمعنى سيدنا .

ويطلق الأكراد إلى الوقت الحاضر ( ١٩٧٨ ) لفظة المولا على السيد الوقور كبير السن ذي المركز المرموق سواء من الناحية الدينية أو السياسية أو الاجتماعية . وهي تقابل في المجتمعات القبلية كلمة شيخ . وأكثر الأكراد استخداماً لهذه الكلمة هم أكراد العراق ، فيذكرون اسم الشخص مسبقاً بكلمة مولا . وعلى سبيل المثال ، المولا مصطفى البرزاني زعيم الأكراد المعاصر . وتكتب الكلمة أحياناً الملا بعد إسقاط حرف الواو منها . وتنطق في اللغة التركية وفي اللغة العربية بضم حرف الميم . وفي اللغة الكردية بفتح الميم . كما أنها تنطق في هذه اللغات الثلاث بدون شدة .

القضاة . وكان يطلق على شاغل هذا المنصب اسم قاضى عسكر . وكان مقره العاصمة . ويشرف على أعمال القضاة فى سائر أنحاء الدولة . ويقوم بترشيح من يقع اختياره عليهم لشغل وظائف القضاة على اختلاف فئاتهم ، ويراقب أعمالهم ، ويعد حركات تنقلاتهم وترقياتهم ، وتعرض عليه التقارير والمذكرات التى يبعث بها إليه قضاة الأقاليم . وكانت تقوم بجانب قاضى عسكر أجهزة فنية وإدارية يعمل فيها موظفون بمثابة مساعدين له ، وأطلقت عليهم شتى المصطلحات ، نذكر منها على سبيل المثال المطلبجى ، والتطبيقجى والمكتوبجى . وكان يحتفظ بعضهم بسجلات تحوى أسماء القضاة وفئاتهم ، وكان يختص بعضهم بإعداد كشوف مرتبات القضاة ومن إليهم ، بينما كان يحتفظ فريق آخر بصور من أختام القضاة للتحقق من صحة الأختام على المذكرات والتقارير التى ترفع إلى قاضى عسكر .

وكان قاضى القضاة بجانب اختصاصاته القضائية يتمتع بنفوذ أدنى كبير لم يظفر به من قبل قاضى القضاة فى أى بلد إسلامى . وقد خشي أحد الصلوات العظام ، ويسمى قرمان محمد باشا ، أن يتضاءل نفوذه بجانب نفوذ قاضى القضاة ، فاقترح على السلطان محمد الثانى أن ينشئ منصباً ثانياً لوظيفة قاضى عسكر - ويسمى قاضى عسكر ليك - وأن يطلق على شاغله قاضى عسكر الأناضول ، وأن يطلق على شاغل الوظيفة الأولى قاضى عسكر الروملى ، وأن يتقاسم الاثنان الاختصاصات التى كان يمارسها قاضى عسكر ، فيختص أحدهما بقضاء الأناضول بينما يختص الآخر بقضاء بلاد البلقان وبقية الأقاليم العثمانية فى أوروبا . وكان الدافع الحقيقى للصلوات الأعظم - محمد قرمان باشا - على هذا الاقتراح هو كسر النفوذ الواسع العريض الذى كان يتمتع به قاضى عسكر حين كان هو الرئيس المباشر لقضاة الدولة . وقد أخذ السلطان محمد الثانى بهذا الاقتراح ، وتم إنشاء المنصب الجديد فى سنة ١٤٨٠ قبل وفاة السلطان بستة وواحدة (١) . وعلى هذا النحو وجد فى الدولة منصبان يحمل شاغل كل منهما لقب قاضى عسكر مع إضافة الإسم الجغرافى الذى

يحدد مناطق ولايته القضائية إلى اسمه . ولكن كان قاضى عسكر الرومل أعلى مركزاً من زميله قاضى عسكر الأناضول . وكان الأول يصحب الجيش العثماني حين كان يتوغل في أوروبا ويخوض المعارك . وكان من اختصاصاته تعيين جميع القضاة الذين يعملون في أوروبا ، وكذلك العاملين في المساجد التي أقيمت في الولايات العثمانية الأوروبية ، وكان قاضى عسكر الأناضول يمارس مثل هذه الاختصاصات فيما يخص بالأقاليم العثمانية في آسيا . وكان هذان القاضيان الكبيران يلبان شيخ الإسلام في المرتبة . ولكي تواجه الدولة زيادة الأعباء التي نجمت عن التوسع الإقليمي العثماني في العالم الإسلامي منذ حكم السلطان سليم الأول ومن بعده ابنه السلطان سليمان المشرع أنشأت منصباً ثالثاً لقاضى عسكر شملت ولايته القضائية معظم الأقاليم الإفريقية التي دانت لحكم العثمانيين .

كان قضاة العسكر أعضاء في الديوان الإمبراطورى . وكانوا يشتركون اشتراكاً فعلياً مع رئيسه الصدر الأعظم في نظر القضايا التي تعرض على محكمة الديوان ، كما كان يشارك في هذا العمل في بعض الأحيان بعض القضاة من فئة مولا الكبير ، وسنعرض لم في موطن قادم في هذا الفصل ، ونقف هنا لترد على رأى أبداه أحد كبار المستشرقين الإنجليز حين قرر أن عضوية الديوان الإمبراطورى كانت ميزة لقضاة العسكر لم يشاركهم فيها شيخ الإسلام (١) والواقع كان عكس ذلك تماماً ، لأن علم تقرير عضوية شيخ الإسلام في الديوان الإمبراطورى كان نوعاً من التكريم لشيخ الإسلام تفادياً لوجوده في موقع يكون فيه تحت رئاسة الصدر الأعظم الذي كان يرأس بحكم منصبه الديوان الإمبراطورى . وكانت البولة تخرص على تجنب شيخ الإسلام مثل هذه المواقف التي قد تنال من هيبة شاغل أكبر منصب ديني إسلامي في الدولة .

### امتيازات قاضي العسكر :

من بين الامتيازات التي تقرر لقاضى عسكر الدولة أن يقام حفل رسمى لكل منهما عند تعيينه فى منصبه . وكان على الصدر الأعظم أن يحضر هذا الحفل من باب التقدير والتكريم ، وكان لايجوز للصدر الأعظم أن ينيب أحداً عنه فى حضور الحفل . وكان الصدر الأعظم يقدم لقاضى عسكر رداء الكشيفة ، وهو فرو سموز ، ويساعده على ارتدائه فى أثناء الحفل (١) . وكانت تخصص لكل قاضى عسكر عربية يستقلها فى تنقلاته . وإذا قامت الحرب فى آسيا مصعب قاضى عسكر الأناضول الجيش العثمانى إلى ساحة الحرب . أما إذا كانت الحرب فى أوروبا فإن قاضى عسكر الروملى هو الذى يرافق الجيش . وفى كلتا الحالتين كانت تقدم لكل منهما أطواخ (٢) تنصب أمام خيمته التى تكون مجاورة لخيمة السلطان وخيمة الصدر الأعظم .

### قضاة التخت :

كان يلى قضاة العسكر فى الدرجة والمركز قاضى إستانبول ويطلق عليه إستانبول أفنديسى (٣) والقضاة الثلاثة لضواحيها الثلاث : وكانت هذه الضواحي

(١) D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., Vol., IV p. 552. (١)

(٢) انظر ص ص ٣٦٤ - ٣٦٥ فى هذه الدراسة .

(٣) أفندى لفظه عثمانية شاع استخدامها فى جميع البلاد التى خضعت للدولة العثمانية . وهى لقب يمنح للأشخاص المدنيين المثقفين ثقافة واسعة . وقد اشتقت من كلمة أفندى عدة مصطلحات تاريخية ، نذكر منها :

أفندىز ومعناها مولانا . وكان السلطان العثمانى يتأذى أحياناً بهذا اللقب .

أفندينا ومعناها مولانا . وكان ولاية مصر من أسرة محمد على يطلق عليهم هذا اللقب سواء من كان يحمل منهم لقب خديو اعتباراً من سنة ١٨٦٧ أو من لم يكن يحمله قبل هذا التاريخ .

أفندىم لقب معناه السيد أو السيدة .

أفنديسى : إستانبول أفنديسى أى قاضى إستانبول .

ديوان أفنديسى أى سكرتير ديوان القاهرة الكبير ديوان بهوك .

الريس أفندى لقب يطلق على وزير الخارجية العثمانية .

هى : سكوتارى Scutari وهو اسم يرجع إلى العهد البيزنطى ، ولذلك يطلق على هذه الضاحية أيضاً الاسم التركى أسكودار (١) Uskudar ، ثم ضاحية جالاطه Galata ، ثم ضاحية أيوب ، وكان يطلق على هذه الضواحي الثلاث اسم « بلاد ثلاثة » أى البلاد الثلاثة . وهذا المصطلح له مدلول قضائى ومدلول إدارى . فقضاة هذه الضواحي يتمتعون باستقلال قضائى عن قاضى إستانبول . كما كان لهذه الضواحي بعض الاستقلال فى شئون الشرطة . (٢) وكان هؤلاء القضاة الأربعة يجلسون جلسة الديوان الإمبراطورى يوماً واحداً فى الأسبوع ، ويحلون محل قاضى العسكر ،

---

(١) استخدم اسم سكوتارى فى أواخر عهد الدولة البيزنطية . ويحصل أن يكون هذا الاسم قد اشتق من اسم كتيبة حامل الدروع التى رابطت فى تلك البقعة حل عهد الإمبراطور فالنس Valens . ويوجد احتمال أقوى من الاحتمال السابق ، هو أن هذه المنطقة قد اكتسبت اسمها من قصر كان مشيداً فيها يسمى سكوتاريون Scutarion منذ عهد الأباطرة الكومننوى Comnenoi .

أما كلمة أسكودار ، أو ، أسكودار ، أو إسكىدار ، فهى كلمة تركية معناها محطة البريد ، إذ كانت بحكم موقعها الجغرافى القاعدة الهامة للحملات الكبيرة والصغيرة التى تخرج من العاصمة إلى أطراف الإمبراطورية المنيية فى آسيا وإفريقية . إذ تقع هذه الضاحية - وهى أقدم حى فى إستانبول - فى منطقتها الواقعة على الجانب الآسيوى من البوسفور عند سفح تل بولغورلى حيث يمتد الشاطئ الآسيوى أقصى امتداد نحو الغرب مقابل برج لياندر Leander أو قيز بقوله

وفى العهد المنيى ازدادت كثافة السكان فى أسكودار ، وبخاصة منذ عهد السلطان سليمان المشرع . وكان من أسباب زيادة تمددها أنها أصبحت موقلاً لتجمعات الدرايش ومقراً للتكايا وبركراً هاماً لحياة التصوف فى العاصمة . وأشهر التكايا القائمة بها تكية الطريقة الخلقوية . كما شيد فيها عدد كبير من المساجد أنشأت أكبرها سيدات فى البلاط المنيى . ومن أشهرها :

- مهرياه جامى أو إسكله جامى شيد سنة ٩٥٤ هـ / ١٥٤٧ م أمام المرمى الكبير إسكى والده جامى ، ويقع فى الجنوب ، وتم بناؤه سنة ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م .
- جامع چنبل ، فى الجنوب الشرقى ، وكل بناؤه سنة ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ م .
- يكنى والده جامى تم بناؤه سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م .
- جامع السليمية وقد شيدته سليم الثالث لجوشه الجليل الذى سى « نظام جديد » .

(٢) لم تكن هذه الضواحي الثلاث تخضع فى شئون الشرطة لسلطة رئيس الإنكشارية ، شأن إستانبول نفسها ، وإنما كانت تخضع لفساط آخرين .

ويساعدون الصدر الأعظم رئيس الديوان في نظر القضايا . وكان يطلق على هؤلاء القضاة الأربعة — قاضى إستانبول وقضاة الضواحي . اسم معبر هو « تحت قاضيسى » ، أى قضاة التخت ، لأنهم يقيمون بصفة دائمة في العاصمة وعلى مقربة من العرش السلطاني الذى كان يطلق عليه التخت . وكان الصدر الأعظم عقب انتهاء جلسة المحكمة يذهب في مصبة قاضى إستانبول في جولاته التفتيشية الميدانية في العاصمة . وبما هو جدير بالذكر أن قضاة التخت الأربعة كانوا ينتمون إلى طائفة القضاة من فئة المولا الكبير .

### القضاة من فئة مولا الكبير :

كان عدد القضاة من فئة مولا الكبير يختلف من عصر إلى عصر (١) وفي القرن الثامن عشر بلغ عددهم سبعة عشر قاضياً (٢) تضمهم عدة مجموعات .

قاضى عسكر الروملى ، وقاضى عسكر الأناضول .  
قضاة التخت .

قاضيا مكة المكرمة والمدينة المنورة .

قضاة بروسه ، وأدرنة ، ودمشق ، والقاهرة . ويلاحظ أن بروسه وأدرنة كانت كل منهما في وقت ما عاصمة للدولة العثمانية .

قضاة بيت المقدس ، وأزمير ، وحلب ، ولاريسا (٣) ، وسالونيك .

وكان شيخ الإسلام هو الذى يعين هؤلاء القضاة السبعة عشر ، ويوافق الصدر الأعظم على تعيينهم ، ويصدر السلطان فرماناً بتعيينهم في مناصبهم . وكانوا يشغلون المناصب القضائية مدى الحياة . ولكن كانت تصدر من وقت إلى آخر حركة ترقيات أو تنقلات تشمل أولئك القضاة الكبار . وكان لكل

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part II, p. 89.

(٢) Lybyer A.H.; op. cit., p. 217.

(٣) لاريس Larisse مدينة في بلاد اليونان وتقع في إقليم تساليا .

منهم جهاز إدارى يتكون من مراقبي الحسابات وأمناء الخزانة والكتبة ومن إليهم من المساعدين . وكان القضاة من فئة الملا الكبير يعقدون الجلسات أحيانا في بيوتهم ، بينما كان سائر القضاة ينظرون القضايا في المحاكم .

وإلى جانب أولئك القضاة من فئة مولا الكبير كان يوجد ستة علماء ينتمون إلى هذه الفئة ، وهم : خوجة السلطان ، الإمامان ، حكيم باشى ، وجراح باشى ، ومنجم باشى .

### المفتشون :

كان المفتشون من رجال القضاء ، وإن كان اسمهم لا ينفك عن مهمتهم القضائية . وكان عددهم قليلا يصل إلى خمسة مفتشين ، وكانوا جميعا قضاة من درجة « مولا بيوك » ، أى مولا الكبير ، ويختصون بالإشراف على الأوقاف السلطانية ، فينفقون من إيراداتها على المؤسسات الدينية والخيرية . وكان بعضها تحت إشراف شيخ الإسلام ، والبعض الآخر تحت إشراف الصدر الأعظم ، والبعض الثالث والأخير تحت إشراف رئيس الحصيان البيض الذى يقوم على الخلعة الداخلية فى أجنحة الحرمين السلطاني . وكان يطلق عليه أحيانا « باب السعادات أغاسى » أى أغا باب السعادة ، وأحيانا أخرى « قاني أغاسى » . أى أغا البوابة . وكان مقر ثلاثة من أولئك المفتشين فى إستانبول ، يختص كل منهم بقسم من الأقسام الثلاثة لهذه الأوقاف . كان أحدهم يعمل مع شيخ الإسلام ويسمى « شيخ الإسلام مفتشى » ، وكان الثانى يعمل مع الصدر الأعظم ويسمى « وزيرى أعظم مفتشى » ، وكان الثالث يسمى « حرمين مفتشى (١) » لأنه كان يشرف على الأوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة . ويلاحظ أن الأخير كان حتى قرب نهاية القرن السادس عشر رئيس الحصيان البيض . وفى القرن السابع عشر تقاسم مع زميله رئيس الحصيان السود ، والذى كان



يطلق عليه « قيزلر أغاسى » أى أغا البنات ، الإشراف على أوقاف الحرمين الشريفين ، ثم انفرد رئيس الحصيان السود بالإشراف على هذه الأوقاف فى القرن الثامن عشر . أما المفتشان الآخران فكان أحدهما يباشر عمله فى مدينة أدرنة ، والآخر فى مدينة بروسة ، وكانا يتبعان رئيس الحصيان (١) . وكان لكل من هؤلاء المفتشين الخمسة جهاز يضم عدداً كبيراً من الموظفين المساعدين يتجولون فى مناطق الأوقاف (٢) .

### امتيازات رجال القضاة من فئة مولا الكبير :

كان القضاة من فئة مولا الكبير يتمتعون بعدة امتيازات . كان لكل منهم الحق فى ارتداء عباءة من الفرو السمور فى الاحتفالات الرسمية من قبيل التكريم والتشريف . وكان هذا النوع من العباة يرتديه الباشوات وحكام الولايات ومن إليهم من كبار موظفى الدولة . وكان من تقاليد الدولة العثمانية أن يقام حفل رسمى كبير - سواء فى عاصمة الدولة أو فى عواصم الولايات - لتقديم هذا الرداء للشخص أو للأفراد الذين يتم به عليهم . ويحضر هذا الحفل كبار موظفى الدولة المدنيين والعسكريين . ويتولى رئيس الحفل مساعدة القاضى فى ارتداء الفرو السمور .

وكان من امتيازات القضاة من فئة المولا الكبير أن يتبعهم فى غلواتهم وروحاتهم عدد من الرجال يسمى كل منهم المحضر . وتكتب فى اللغة التركية المحذر . وكان يرأس هؤلاء الرجال ويتولى توزيعهم على القضاة رئيس يسمى محذر باشى . وكان يؤخذ من حراس بوابات القصر - القابچية . وكانت توجه الدعوة إلى أولئك القضاة وإلى كبار أساتذة مدرسة الشريعة والقانون بإستانبول لحضور الاحتفالات التى تقام عند اعتلاء سلطان جديد العرش العثمانى ، ويقدم فيها كبار الموظفين الولاء له . وكانت هذه الدعوة تتكرر بعد ذلك مرتين على مدار السنة . كانت المرة الأولى عند حلول «كوجوك پيرامى»

D'Ohsson Mouradgea Ignatius, op. cit., t. IV, p.568. (١)

Lybyer A.H.,; op.ict., p.201. (٢)

الصغير ، ويسمى أيضاً « سكر بيرامى » أى عيد الحلوى وهو عيد الفطر ،  
والمرة الثانية عند حلول « بيوك بيرامى » أى العيد الكبير ، ويسمى أيضاً  
« قربان بيرامى » أى عيد الأضحى . فكان يقام فى كل عيد من هذين  
العيدين حفل استقبال رسمى « ركاب همايون » فى القصر السلطانى . وكان  
القضاة من فئة الملا الكبير يشهدون هذين الحفلين كما يشهدهما شيخ الإسلام  
وقاضيا العسكر .

### القضاة من فئة مولا الصغير :

كان القضاة من فئة مولا الصغير يعملون فى عشر مدن من مدن الصف  
الثانى ، وهى : مرعش ، بغداد ، بوسنا سراى (١) ، صوفيا (٢) ، بلغراد ،  
عتاب (٣) ، كوتاهية ، قوتيه ، فيلوبو بوليس (٤) ، ديار بكر .

### القضاة العاديون :

كان القضاة العاديون يشكلون الغالبية العظمى من عدد قضاة الهيئة  
الإسلامية . وكان عددهم فى أواخر القرن الثامن عشر قد بلغ زهاء أربعائة  
وخمسين قاضياً يباشرون القضاء فى المدن الصغيرة فى أوروبا وآسيا وإفريقية .  
وكان عددهم فى أوروبا يبلغ مائتين . وكان القضاة الذين يعملون فى بلاد  
القرم وفى شمالي إفريقيا يتبعون قضائياً كبير القضاة فى الرومل . وكان  
قضاة مصر يتبعون فى بعض الفترات كبير القضاة فى الأناضول والذى يسمى  
قاضى عسكر الأناضول ، كما كانوا يتبعون فى بعض الفترات قاضى القضاة  
فى إستانبول .

---

(١) بوسنا سراى Bosna Serraz هى عاصمة ولاية البوسنة ، وتقع حالياً فى  
يوغوسلافيا .

(٢) صوفيا وتكتب أحياناً Sophia وأحياناً أخرى Sofia ، عاصم بلغاريا .

(٣) عتاب مدينة فى سوريا .

(٤) تكشف بالفرنسية والإنجليزية Philippopolis مدينة فى بلغاريا ، وتقع على نهر  
مارتيزا La Martiza الذى يصب فى بحر إيجه . وكانت إبان الحكم الثمان عاصمة لإقليم  
الرومل . وهذه المدينة شهرة واسعة فى صناعة الروائع العطرية ، وبخاصة روح الورد .

### النواب :

وكانت وظائف النواب تمثل أدنى درجات السلم الوظيفي القضائي . وكانوا يباشرون اختصاصاتهم القضائية في المدن الصغيرة أو في القرى الكبيرة ، كما كانوا محلون محل القضاة في أثناء تغييبهم عن عملهم عند قيامهم بالأجازة أو في أثناء مرضهم . وكان النائب يشتري منصبه ولا يتقاضى مرتباً من الحكومة ، ولكنه كان يحصل على إيرادات ضخمة من حصيلة الغرامات المالية التي كان يحكم بها على المخالفين والذين يرتكبون أعمالاً مخلة بالآداب العامة وما إلى ذلك .

### المفتون :

كان المفتون يشكلون قطاعاً هاماً للغاية في الهيئة الإسلامية إلى جانب القضاة . وكان المفتون يعينون في المدن الهامة ويقومون بمهام مناصبهم بجانب القضاة ، ولكن كان مركزهم يأتي بعد مركز القضاة ، ويظلون في مناصب الإفتاء مدى الحياة ، أي دون التقييد ببلوغهم سنّاً معينة يحالون عندها إلى التقاعد . وكانت مهمتهم إصدار الرأي القانوني في المسائل التي يطلب منهم بحثها ، فيعكف الواحد منهم على دراستها في ضوء مذهب الإمام أبي حنيفة ، ثم يسجل رأيه كتابة على ورقة معدة ومختومة من قبل ، وتشبه الاسمارة . وكان الرأي الذي ينتهي إليه المفتي يسمى فتوى .

وكان عدد المفتين في أنحاء الإمبراطورية يصل إلى ما يقرب من المائتين . كانت غالبيتهم تعمل في المدن الهامة بجانب القضاة كما ذكرنا ، بينما عمل البعض الآخر بجانب كبار رجال الحكم في الولايات يملونهم بالرأي الصحيح في المسائل العامة من حيث عدم تعارضها مع مبادئ الشريعة الإسلامية . فكان كل منهم يشغل ما يمكن أن نطلق عليه المصطلح الحديث منصب المستشار الديني . فكان هناك مفتيان : أحدهما يعمل مستشاراً دينياً للحاكم العام لمقاطعات الأناضول أو إلى أناضولى ، وثانيهما للحاكم العام لمقاطعات الروملى التي يطلق عليها إلى روملى ، كما عينت الحكومة مفتين لحكام المديريات الذين يطلق عليهم الصناجق البكوات . وكان إذا طلب حاكم الولاية أو الصنجنق البك من المفتي

أن يوضح له رأى الشريعة فى مسألة عامة أو فى قضية قانونية معقدة ، فإن مثل هذه الفتوى التى تصدر عن المفتى يؤخذ بها جملة وتفصيلا ، ونحسم الموقف سواء فى المسألة العامة أو فى القضية المطروحة .

وكانت مجالات العمل أمام المفتين محدودة وبالتالي ضيقة ، فقلما لجأ إليهم القضاة أو رجال الحكم المحلى لإصدار فتاوى لهم ، ولذلك نعتهم بعض الباحثين بأن نشاطهم الوظيفى كان يشوبه الخمول أو الركود ، ثم اتسعت أمامهم آفاق العمل حين سمح للأفراد بالالتجاء إلى المفتين لإصدار الرأى القانونى فى القضايا المطروحة أمام المحاكم . فكان المفتى يصدر رأيه كتابة ومسجلا على ورقة رسمية على غرار الفتاوى التى يصدرها للجهات الحكومية . وبأخذ المواطن هذه الفتوى ويقدمها للمحكمة كدعم موقفه فى القضية . وكانت مثل هذه الفتوى تحسم القضية فى العادة لصالحه . ويلاحظ أنه لم يكن فى تلك العصور محامون محترفون يتولون المرافعة أمام المحاكم ، ولذلك كان المفتون عنصراً ضرورياً وهاماً ونافعاً فى النظام القضائى . وقد رحب المفتون بالفتاوى التى تصدر عنهم للأفراد ، لأنها جاءت بمورد مالى جديد تمثل فى الرسوم التى يدفعها طالب الفتوى . وكان للمفتين نصيب من هذه الرسوم . فكان يأتيهم رزقهم رغداً من كل مكان .

أما المفتون الذين كانوا يعملون فى سائر المدن فلم يشغلوا المركز الكبير الذى تتمتع به مفتى العاصمة . كان المفتون فى الأقاليم أقل درجة ومرتباً من القضاة ومن إليهم من موظفى الحكومة . وكانت وظائف المفتين لا تحاط بأى نوع من أنواع المظهرية التى كانت تحاط بها المناصب الأخرى فى نفس المدينة أو الإقليم أو الولاية .

وقد أسدى المفتون للدولة أجل الخدمات ، فقدموا لها بصفتهم حراس الشريعة قوة الإسلام ، وهى أعظم قوة روحية عملت فى هلهو ومثابرة واستمرار على تماسك الدولة ومجتمعاتها الإسلامية دون أن تتعرض هذه ( م ٢٨ - الدولة العثمانية )

القوة الروحية لهزات أو تغييرات ، بل مضت في طريقها تطبع العثمانيين وحياتهم الخاصة والعامة بالطابع الإسلامى العميق .

وقام نفوذ المفتين على عدة عوامل ، منها : أن جميع الرعايا المسلمين يعتقدون اعتقاداً راسخاً في التفوق المطلق للشرعة الإسلامية الغراء ، لأنها جزء لا يتجزأ من عقيدتهم الدينية . والعثمانيون معروفون باحترامهم مبادئ الدين وبتعصبهم الشديد للإسلام . ولا يمكن أن يدانى قانون من القوانين الوضعية الشريعة الإسلامية . كما أن الرعايا المسلمين كانوا يعرفون أن أولئك المفتين قد درسوا الشريعة الإسلامية سنوات طوالاً وتحملوا في تعلمها وتحصيلها مجهوداً عقلياً مضنياً ، ولكنهم لم يهجروا العلم بمجرد انتهاء دراستهم ، بل مضوا يمارسون مذاكرة العلم والاستزادة منه ، ثم تطبيقه عملياً في المجالات التي يعملون فيها وفي المواقف التي يطلب منهم الإدلاء برأى الشريعة فيها . يضاف إلى تلك العوامل التي كانت دعامة نفوذ المفتين أن العثمانيين كانوا يدركون أن الفضل في بقاء الدولة العثمانية وتفوقها إنما يرجع إلى المفتين لأنهم أسهموا إلى حد كبير في بقاء الدولة العثمانية سليمة متماسكة ، واستطاعت أن تقف في وجه الهزات العنيفة والنكسات الالزمة والخسائر الفادحة التي تعرضت لها ، وأن يستمر بقاؤها أحقاباً وأعصرراً وأدهاراً استطالت أكثر بكثير مما كان يتوقعه العالم كله لسقوطها . وكان دور المفتين بارزاً وقوياً في بقاء بنيان الدولة شامخاً قوياً ضد أعداء كانوا يتربصون بها الدوائر في الداخل والخارج .



كان عدد من كبار الموظفين ينتمون إلى هيئة العلماء ، ويعملون على مقربة من السلطان ، وكانوا يمثلون الهيئة الإسلامية داخل القصور السلطانية . كان في مقدمتهم :

خوجة السلطان :

والمعنى الحرفي لهذا المصطلح معلم السلطان . كان بمثابة مستشار السلطان في المسائل الدينية وغيرها . ولذلك كان يظفر بتقدير عميق ومركز مرموق بين أفراد

حاشية السلطان وفي دوائر الحكومة . وكان خوجة السلطان في درجة المولا الكبير أى قاض من الدرجة الأولى . ولذلك كان يرقى من هذا المنصب المرموق إلى الوظائف العليا في الدولة ، وإذا امتد به الأجل يصل إلى أعلاها .

### الإمامان :

وكان هناك إمامان للسلطان ، يؤم كل منهما السلطان بالتناوب في صلاته سواء في داخل القصر أو في المساجد السلطانية التي يقع اختيار السلطان عايتها لأداء صلاة الجمعة فيها . ويلحق بالإمامين عدد من المؤذنين يؤذنون للصلاة سواء في مساجد القصور أو في المساجد التي يؤدى فيها السلطان صلاة الجمعة . وكان للمؤذنين رئيس خاص بهم يسمى « المؤذن باشى » أى كبير المؤذنين . وكان المؤذنون يؤخذون من الجاوشية الذين يتميزون برخامة الصوت ، وكانوا من جاوشية الأقسام الدنيا . وكان يختارهم موظف إلى المؤذن باشى في الرتبة ، ويطلق عليه الناس مؤذن أو « سرى محفل » أى رئيس المقصورة الخاصة التي كان السلطان يؤدى فيها الصلاة من وراء ستار في المساجد السلطانية . وكان « سرى محفل » يلرب الجاوشية ، فإذا أظهروا كفاية أدرجت أسماءهم في كشوف لتعيينهم حين تخلو وظائف لهم .

وكان خوجة السلطان والإمامان من الهيئة الإسلامية ، وتمتعوا بنفوذ كبير جداً في الدولة ، لأن طبيعة وظائفهم كانت تتطلب أن يكونوا على اتصال مستمر بالسلطان . وكان لهم من ثقافتهم ومن الثقة الكبيرة التي أولاها إياهم السلطان ما جعل الأضواء تسلط عليهم . وكان السلطان يقدر آراءهم على أساس أنها منزهة عن الأغراض والأهواء الشخصية ، ولذلك أطلق على هؤلاء الثلاثة : أذن السلطان *L'oreille du Sultan* .

### تخصصات علمية أخرى ينتمى أصحابها هيئة العلماء :

لم يكن علماء الدين وحدهم الذين ينتمون إلى هيئة العلماء ، بل كانت هذه الهيئة تتسع لتشمل الأطباء والجراحين والمنجمين<sup>(١)</sup> ومن إليهم من أصحاب التخصصات

العلمية . ولعل مرد هذا الشمول إلى أن فريقاً من الأطباء كانوا يجمعون بين دراسة الطب والفقه وأصول الدين وعلوم البلاغة وغيرها . وكانت لكل منهم في معظم هذه المجالات قدم راسخة . ونذكر منهم على سبيل المثال بهجت مصطفى أفندي (١١٨٨-١٢٤٩ هـ / ١٧٧٤-١٨٣٤ م) ، تقلد المناصب الطبية حتى وصل سنة ١٨٠٣ إلى منصب كبير أطباء السلطان ، ثم انتقل إلى المناصب الدينية والقانونية المرموقة ، كان من بينها منصب قاضي أزير من طبقة مولا ثم قاضي مصر سنة ١٨٢٠ ثم توج حياته الوظيفية بشغله وطيفة قاضي عسكر الأناضول سنة ١٨٢٢ ، ثم قاضي عسكر الروملی ( البلقان وبقية الولايات العثمانية في أوروبا ) سنة ١٨٣٢ . وكانت هذه الشخصية تعتبر أحد رواد الطب الحديث على النمط الأوروبي . أنشئت تحت إشرافه مدرسة طب جديدة استقدمت الدولة لها مدرسين أوروبيين ، كما أنشئ تحت إشرافه أيضاً مستشفى جديد . وعكف على دراسة لغات أوروبية على يد كبير الترجمة في الباب العالي . وقام بترجمة عدد لا يستهان به من الكتب العلمية والطبية ، منها : كتاب ينر Jenner عن التطعيم ، وكتاب بوفون Buffon عن التاريخ الطبيعي ، ومصنفات أخرى عن الكوليرا والزهرى وقوباء الغنم (١) . وتولى ترجمة كتاب المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » إلى اللغة التركية . وقصر ترجمته على الجزء الخاص بالحملة الفرنسية على مصر ، وأطلق عليه « تاريخ مصر » وقد طبعه في إستانبول سنة ١٢٨٢ هـ ( ١٨٦٦-٦٥ م ) .

وتوجد شخصيات عثمانية أخرى من هذا الطراز كانت أسبق من بهجت مصطفى أفندي ، نذكر منها على سبيل المثال آيدينلي (٢) حاجي باشا وهو ، خضر

(١) انظر ترجمة حياته في دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة « بهجت مصطفى أفندي » .

(٢) آيدينلي نسبة إلى آيدین وهي مدينة في آسيا الصغرى . وقد احتلها السلاجقة الروم في العصور الوسطى ، ثم أصبحت بعد ذلك عاصمة إمارة أسسها الأمير آيدین وخلق عليها اسمه . وقد ضم حفيده الأمير عيسى هذه الإمارة إلى السلطان العثماني أبي يزيد الأول ، واستولى السلطان مراد الثاني عليها نهائياً سنة ٨٣٠ هـ ( ١٤٢٦ م ) عند وفاة أميرها جنيد . ولكن ظل حكم هذه الإمارة وراثياً في أسرة قره عثمان أوغل عدة قرون حتى نجح السلطان محمود الثاني في إنهاء حكمهم لها سنة ١٢٤٩ هـ ( ١٨٣٣ م ) .

ابن علي بن خطاب ، وكان معاصراً للسلطان أبي يزيد الأول -يلدریم- (١٣٨٨-١٤٠٣) ، جمع بين دراسة الفقه الإسلامي وعلوم البلاغة وبين دراسة الطب ، فقد ارتحل إلى القاهرة وجاور بالأزهر ودرس علوم الدين واللغة على أشياخ عصره ، وانصرف بعد ذلك إلى دراسة الطب . وألف في تلك التخصصات عدة رسائل وكتب ومراجع . ويلاحظ أن مؤلفاته الطبية فاقت ، من حيث عددها وأهميتها ، رسائله في الفقه والتفسير والمنطق . وقيل إن كتابيه « الشفاء » و « تسهيل الطب » قد نقلتا إلى اللغة اللاتينية (١) .

### علماء التنجيم :

أما علم التنجيم ، فعلى الرغم من أن جبهة العلماء والفلاسفة المسلمين يجمعون على إنكار التنجيم ، إلا أنه يوجد عدد قليل من علماء المسلمين مثل الكندي وإخوان الصفا وفخر الدين الرازي يخالفون هذه الجبهة ، ويعتبرون التنجيم فرعاً من علم النجوم ، وأطلقوا عليه علم أحكام النجوم (٢) . وفي

(١) من رسائله في الفقه والتفسير والمنطق :

« تفسير في مجمع الأنوار في جميع الأسرار » . ويقع في مجلدين .  
« طوابع الأنوار في الكلام » وهو شرح على تفسير البيضاوي للقرآن الكريم .  
« حواشي على شرح فخر الدين الرازي لكتاب « مطالع الأنوار في المنطق » .  
ومن مؤلفاته الطبية :

« الشفاء » وضعه باللغة التركية وبحث في أنواع العلاج . وقسمه ثلاثة أقسام ، تناول في القسم الأول علم وظائف الأعضاء وعلم التنظية ، وفي الثاني الأظعمة والأدوية ، وفي الثالث أسباب الأمراض وتشخيصها وعلاجها .

« تسهيل الطب » وهو عبارة عن رسالة بسط فيها كتابه السابق .

« شفاء الأسقام ودواء الآلام » .

« الفريدة في ذكر الأغذية المفيدة » .

« التماثيل » .

« الكیمی الجلال » .

(٢) يقوم التنجيم على أساس أن جميع ما يقع من أحداث جسم وغير جسم في العالم إنما يتصل اتصالاً وثيقاً بحركات الأجرام السماوية ، وأن الإنسان خاضع لتأثيرات النجوم . وينحصر عمل المنجم في معرفة هذه التأثيرات . وكانت المسائل التنجيمية تعالج من حيث أنها مسائل فلكية ورياضية من هندسة وحساب وحساب مثلثات . وقد ظهر هذا الاتجاه في المصنفات الخاصة بالفلك وفي الجداول التي وضعت للأغراض الخاصة بالتنجيم . وكان اليونانيون والهنود =



رأيهم أن علم الفلك وعلم أحكام النجوم يؤديان إلى علم التنجيم . وأطلقوا على المشتغل به « الأحكامى » أو « المنجم » ، وإن كان لفظ المنجم يطلق على الفلكى أيضاً . ولم يفرق بدقة بين المنجم والفلكى إلا فى القرن التاسع عشر . وكانت مهمة المنجم تعيين « الطالع » سواء بالنسبة للفرد أو الشعب أو المدينة أو الدولة وما يتبع ذلك من وقوع حوادث سعيدة أو أحداث دامية مثل نشوب حرب ، أو انتشار أوبئة ، أو حدوث فيضانات خطيرة تهدد البلاد بالغرق ، أو وقوع كوارث أخرى مثل الزلازل والبراكين . وعلى الرغم من إنكار جمهرة علماء المسلمين لعلم التنجيم إلا أنه استهوى أفئدة الجماهير ، وكان له شأن كبير فى قصور السلاطين العثمانيين (١) .

### حكيم باشى ، جراح باشى ، منجم باشى :

وكان للسلطان ثلاثة من كبار الموظفين ينتمون إلى هيئة العلماء ، هم طبيبه

---

= هم أساتذة المنجمين الإسلاميين . ولكن تفوق الأخيرون على من سبهم من المنجمين الذين كانوا يقومون بحسابات مبسطة . وجدير بالذكر أن دور الطباعة فى أوروبا تولت طبع الكتب والجدول التى وضعها المسلمون فى علم التنجيم . وعلى سبيل المثال طبع فى البندقية الكتاب الجامع الذى وضعه أبو الحسن على بن أبى الرجال ، وهو فى ثمانية مجلدات فى السنوات ١٤٨٥ - ١٥٠٣ ، ١٥٢٣ ، كما طبع فى مدينة بال فى سويسرا سنة ١٥٥١ ثم فى سنة ١٥٧١ .

افظر دائرة المعارف الإسلامية : مادة التنجيم .

(١) كدليل على تأصل علم التنجيم فى بعض الدول الإسلامية قبل قيام الدولة العثمانية بقرون طويلة مارواه المقرئى من أن جوهر الصقل لما أراد تأسيس مدينة القاهرة أحضر المنجمين ، وأمرهم باختيار طالع سيد لوضع الأساس ، فعملوا بدائرة السور قوائم من خشب ، ووصلوا بين كل قائمتين بحبل ملتقى فيه أجراساً ، وقالوا للمال : إذا تحركت الأجراس فألقوا ما فى أيديكم من طين وحجارة . وبينما كان المال يترقبون ، وقف غراب على أحد تلك الجبال ، فصرخت الأجراس جميعاً ، فظن المال أن المنجمين قد حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وصرعوا فوراً فى البناء . فصاح المنجمون : القاهر فى الطالع . ففى ذلك وقتهم ما قصده ، ويقال إن الماربع كان فى الطالع فى تلك اللحظات عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك ، فسموها القاهرة .

وعلى الرغم من أن معظم المؤرخين رفضوا الأشعة بهذه الرواية فإن ذيوها بين الجماهير دليل على أن الكثيرين كانوا يعتقدون فى علم التنجيم المؤسس على الفلك والحسابات الفلكية . ويذكر ابن القلائس أبو حل حمزة (٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) ، فى كتابه « ذيل تاريخ دمشق » ( طبعة =

الخاص ، ويطلق عليه « حكيم باشى » أى كبير الأطباء ، ويعمل تحت رياسته عدد من المساعدين ، ثم « جراح باشى » أى كبير الجراحين (١) ، ويعمل معه عشرة من الجراحين بمخابرة مساعدين له . (٢) ثم منجم يطلق عليه « منجم باشى » (٣) أى كبير المنجمين . وكان لعلم التنجيم مكانة فى البلاط السلطاني تنعكس على المنجم باشى . وكان يعد تقويمياً يتنبأ فيه بالأوقات السعيدة التى على السلطان أن يفتقد فيها ما يعتزمه من مشروعات . وكان السلطان يسترشد بما جاء فى التقويم عند تعيين الوزراء ومن كبار موظفى الدولة (٤) . ولذلك كان السلطان يؤجل البدء فى تنفيذ مشروع هام حتى يبين الوقت المناسب فى ضوء ما جاء فى تقويم المنجم باشى (٥) .

### الأشراف :

وكانت الهيئة الإسلامية فى الدولة تضم أيضاً الأشراف ، وهم الذين ينحدرون من أسرة النبي صلوات الله وسلامه عليه . وكان الأشراف يمثلون أحد نظامين وراثيين وحيدتين فى الدولة . والنظام الوراثى الآخر هو وراثة العرش السلطاني . وكانت هذه الوراثة فى أسرة آل عثمان .

وكان يطلق على الأشراف اسماً آخر هو الأسياد ، فيذكر اسم الشريف مسبقاً بكلمة سيد . ولكنهم كانوا لا يعلنون أعضاء فى هيئة العلماء إلا إذا تلقوا فى المؤسسات التعليمية دراسات فى مستوى الدراسات التى يتعلمها العلماء . وكان بعض الأشراف يقنعون بانتسابهم إلى أسرة النبي صلوات الله عليه ولا يجهدون أنفسهم فى تثقيف أنفسهم . وكان عدد الأشراف بوجه

= بيروت سنة ١٩٠٨) أن الخليفة الفاطمى المزمز لدين الله كان يعتقد فى علم النجوم ، ويستشير منجميه فى كل ما يتعلق بحياته الخاصة وبالشئون العامة للدولة الفاطمية . ( ص ١٤ ) .

(١) ترد كلمة الجراح فى الكتب العربية القديمة ، وعلى قلة ، فى صور أخرى ، مثل : الجراحى بكسر الجيم ، والجراحى يفتح الجيم ، والآسى بمعنى الجراح وهى تدل أيضاً على الطبيب .

(٢) D'Ohasson Mouradgaa Ignatius ; op. cit., t. iv, p. 548.

(٣) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 129.

(٤) Gibb Hamilton & Bowen Harold ; op. cit., vol.I Part II, p.90.

(٥) D'Ohasson Mouradgaa Ignatius ; op. cit., t.iv pp 551—555.

عام كبيراً ، وتسلسل إلى صفوفهم عدد من المدعين ، ولذلك لم تكن تصرفات هؤلاء المدعين فوق مستوى الشبهات .

وكان الأشراف يتميزون بلباس خاص ، فكان لهم دون سواهم الحق في ارتداء العمامة الخضراء ، كما كانت لهم امتيازات شخصية ، فلم تكن توقع عليهم عقوبة الضرب ، وكانت لهم محاكم خاصة بهم ، وقضاتها من الأشراف .

وفي نطاق الأشراف كانت تسلط الأضواء على شريطين : أحدهما يحمل علم السلطان ويسير به في المواكب الرسمية والعسكرية ، وكان يتقدم على جميع ضباط الجيش ويطلق عليه أمير العلم . أما الشريف الآخر فكان رئيس الأشراف ويطلق عليه نقيب الأشراف ، وكان يحتل المكانة الثانية في الهيئة الإسلامية . وفي الاحتفالات التي تقام خلال شهر رمضان كان نقيب الأشراف يتقدم على مفتي الإسلام ، وكان يعين في منصبه مدى الحياة ، وكان السلطان هو الذي يصدر فرماناً بتعيينه في منصبه . وكان مقره في العاصمة ، وهو يرأس الهيئة القضائية الخاصة بالأشراف ، وله سلطة مطلقة عليهم ويتولى تنفيذ العقوبات عليهم . وكان له جهاز فني وإداري يعمل تحت إدارته . ويوفد بعضاً منهم إلى الولايات العثمانية الإسلامية لتقصي الحقائق عن الأشراف وأوضاعهم وما إلى ذلك . وتجرت هذه المهمة - وهي تقصي الحقائق عن وضع الأشراف في ولايات الدولة إلى الإشارة إلى مركز الأشراف في مصر كثال يمكن تصوره لوضعهم في سائر ولايات الدولة .

كان للأشراف في مصر نقيب يصدر بتعيينه فرمان من السلطان في إستانبول . وكان النقيب يشغل هذا المنصب مدى الحياة ، ولو أن هذا المبدأ لم يحترم تماماً وبخاصة عند ما ضعفت قبضة الدولة على مصر التي اجتازت فترة سياسية دامية أطلق عليها عهد الانقلابات السياسية أو عهد الاضطراب السياسي ( ١٨٠١-١٨٠٥ ) ، فقد استطاع أفاق تركي أن يستصدر من السلطان فرماناً في نوفمبر - تشرين ثان - ١٨٠١ بتعيينه نقيباً للأشراف في مصر بدلا من السيد عمر مكرم . ولم يستطع الباشا العثماني في ذلك الوقت ، وهو محمد

خسرو باشا ، أن يتجاهل فرمان السلطان ، فقلد هذا الباشا نقابة الأشراف في ٢ من فبراير - شباط - ١٨٠٢ للأفاق التركي واسمه يوسف أفندى ، ولكن أعيدت نقابة الأشراف إلى السيد عمر مكرم في ١٨ من أبريل ١٨٠٢ بعد مساع بدلت لدى السلطان في إستانبول (١) . وكان للمركز المرموق الذى تبوأه نقيب الأشراف في إستانبول أصداء على مركز نقيب الأشراف في مصر ، إذ كان الأخير أيضاً يشغل مكاناً علياً . فهو بحكم منصبه عضو في ديوان القاهرة ، وكان الباشا العثماني يرجع إليه في كثير من المسائل . وكان يقدم للنقيب فراوى سمور في شتى المناسبات وفي فترات متقاربة على مدار السنة . وكان أشراف مصر يدينون لنقيبهم بالطاعة ، وكان يقدم لهم كل ثلاثة شهور مرتبات يطلق عليها جيكية . وكانت هذه المرتبات محددة قيمتها ومدونة في سجلات النقابة . ومما هو جدير بالذكر أن السلطان سليم الأول لما فتح مصر سنة ١٥١٧ أبقي على الموارد المالية التي كان يعتمد عليها نقيب الأشراف في صرف المستحقات والمرتبات ، والمذكور بلاد أعطاها له السلطان ، ومكنه فيها لأجل معاشه وإعانتة على ذلك (٢) .

### الدراويش :

وتلحق بالهيئة الإسلامية أيضاً طوائف الدراويش ، وكانوا كثرة عديدة كبيرة ، ولكنهم لم يكونوا أعضاء في هيئة العلماء لأنهم لم يتلقوا دراسات علمية منتظمة أو محترمة . وكان الدراويش ينتمون إلى طرق كثيرة ، وقد قرر المراقبون في القرن السادس عشر أن عدد هذه الطرق كان يتراوح بين ثمان وعشر طرق ، وإن كان أهمها أربعاً فقط . وقد ازداد عدد هذه الطوائف زيادة مطردة وضخمة فبلغت ستاً وثلاثين في أواخر القرن الثامن عشر . وإن كان البعض الآخر يرى أن عددها تجاوز ضعف هذا العدد ، بينما يرى فريق آخر من المؤرخين أن عددها قفز إلى أربعة أمثال هذا

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : عمر مكرم . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر . دار الكتاب العرب للطباعة والنشر . القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ص ٩٢-٩٧ .  
(٢) حسين أفندى ، مرجع سبق ذكره .

العدد (١). وانتشرت هذه الطوائف في أرجاء الدولة وشملت جميع الطبقات والأقاليم العثمانية (٢). ومما هو جدير بالذكر أن عددها بلغ في مصر إبان الحكم العثماني زهاء ثمانين طريقة (٣). والمعروف عن العثمانيين أنهم يحبون التصوف والدروشة . وقد سجل الجبرتي عليهم ميلم إلى الدراويش وهو يعرض لحوادث حملة حسن باشا الجزائرلى على مصر (٤) . ويشبه بعض الباحثين (٥) الدراويش بطوائف الإخوان الفرنسيسكان واليومينكان الذين كان يطلق عليهم الشحاذون (٦) . وعن طريق الدراويش انتشرت الحزبيلات بين الرعايا المسلمين في الدولة ودبرت الفتن . وكانوا يشكلون بجمعهم وتأثيرهم في الجماهير الإسلامية خطورة على سلطة الحكومة . وكانوا يتناحون إلى إثارة الحروب الدينية . وقد مر بنا أن الدراويش قاموا في ٣١ من مارس - آذار - ١٩٠٩ بدور فعال في تحريك ثورة ضد الحكومة القائمة في إستانبول عقب إعادة الدستور وتنادوا إلى إلغاء النظم النيابية وإعلان الشريعة المحمدية . واستطاع الدراويش التأثير في جنود حامية العاصمة وسار الجنود في مظاهرات صاخبة في شوارع إستانبول يتقدمهم الدراويش حاملين أعلامهم المختلفة الألوان ، ويهتفون هتافاً منغماً « باشا سون شريعة محمدية » أى لتجيا الشريعة المحمدية : وأريق في هذه الحركة دماء بريئة بن كبار وصغار ضباط الجيش على السواء (٧). وتقتضى الدراسة الموضوعية أن نذكر أنه كان يوجد بين طوائف الدراويش عدد من العناصر الصالحة ضربوا المثل الأعلى في الأمانة وخشية

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; vol. I, Part II, p. 196.

Loc. cit. (٢)

(٣) دكتور توفيق الطويل : التصوف في مصر إبان الحكم العثماني . القاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ٧٥ .

(٤) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

(٥) Lybyer A.H.; op. cit., p. 207 (٦)

(٦) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع المصور الحديثة . الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ص ٥٤٧-٥٥٢ ، حاشية رقم ٥ .  
(٧) النظر ص ص ١١٦-١١٧ في هذه الدراسة .

الله ، بينما كان عدد منهم لصوصاً متجولين بارعين يتميزون بقوة الحركة والمقدرة على اختيار الشخص الثرى الملىء مع تظاهرهم بالتقوى والصلاح .

### الهيئة الإسلامية ونظارة الأوقاف :

كان يشرف على معظم الأوقاف الخيرية مجموعة من الموظفين ينتمون إلى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . وكان اختيار السلاطين يقع على شيخ الإسلام وعلى غيره من كبار رجال هذه الهيئة نظراً على الأوقاف المرصودة على مساجدهم وغيرها من الأوقاف الخيرية ، بينما كان البعض الآخر من السلاطين يختارون الصلبر الأعظم للتنظر على هذه الأوقاف . أما أوقاف الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة فقد تبادل التنظر عليها بمعاونة أو باشتراك رجال الهيئة الدينية كل من رئيس الحصيان البيض - باب السعادات أغاسى - ورئيس الحصيان السود - قيزلر أغاسى - وفى القرن الثامن عشر كان الأخير يشرف على الأوقاف المرصودة على خمسمائة مسجد . وكان يساعده عدد من رجال القضاء يطلق عليهم « حرمين مفتشى » أى مفتشى الحرمين وإثنان من القضاة من فئة نائب يقيم أحدهما فى بروسة والآخر فى أدرنة .

ومن الحصيلة الضخمة التى كانت تغلها الأوقاف الخيرية تنوعت أوجه الإنفاق تنوعاً مذهلاً . فالأراضى الزراعية الموقوفة على الهيئة الإسلامية كانت تشكل إيراداتها المنبع المالى الذى تؤخذ منه الاعتمادات المالية للإنفاق على جميع أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة ، كما شملت أوجه الإنفاق المنشآت الدينية والتعليمية والاجتماعية ، ووضع فى أوجه الإنفاق التكافل الاجتماعى الإسلامى فى أروع صوره ، وتمثل فيها أيضاً حرص الواقفين على تأمين الدفاع عن أراضى الدولة بصفقتها دار الإسلام تقف فى مواجهة دار الحرب ، وما تطلبه هذا التأمين من الإسهام المالى فى تحصين البلاد وإقامة التحصينات العسكرية والنهوض بالأسطول البحرى الحربى العثمانى . وكان الواقفون يذكرون فى صلب الوقفية أوجه الإنفاق التى يريدون توجيه إيرادات الأوقاف إليها .

وكان المشرفون على هذه الأوقاف يلزمون إلزاماً دقيقاً بتوجيه الإنفاق إلى المصارف التي يحددها الواقعون .

كان يصرف من إيرادات الأوقاف الخيرية على المساجد والزوايا والتكايا والأسبلة والخانقاوات والمستشفيات والملاجئ وبيوت النساء الأرمال والمطابخ والمغاسل والحمامات العامة ، فضلاً عن المؤسسات التعليمية مثل المدارس والمكاتب والمكتبات ، وتنظيم رحلات لتلاميذ وطلاب المدارس يقومون بها في فصل الربيع ، وكذلك كانت توجه من حصيلة إيرادات الأوقاف اعتمادات مالية لتقديم المال إلى المعوزين ومساعدة البنات اليتامى عند زواجهن ، ودفع الديون عن المدينين المسجونين ، وتقديم مساعدات مالية لسكان بعض القرى وأحياء بعض المدن لدفع الضرائب العرفية (١) ، وتقديم المال لتجهيز ودفن الفقراء . وكانت إيرادات الأوقاف الخيرية يوجه شطرها منها لتقديم مساعدات عينية في شكل ملابس لتلاميذ وطلبة المدارس والفقراء الطاعنين في السن ، وشراء كميات من الأرز أو الحبوب لإلقائها للطيور في مواسم الجليد نظراً لشدة البرد ، وشراء طعام للحيوانات . وكان بعض إيرادات الأوقاف يوجه للإنفاق على القوات المسلحة في الدولة وتمويل عمليات إنشاء الحصون وصيانتها وإقامة تحصينات عسكرية والإنفاق على السفن الحربية . وكانت بعض الإيرادات توجه أيضاً إلى الأشغال العامة Public works التي تستهدف الخير العام ويعود نفعها على المجتمع كله ، مثل إنشاء الطرق ، وإقامة الكبارى ، وحفر القنوات الصغيرة التي تمد القرى بالمياه العذبة ، وبناء المنائر لتحقيق الأمن للسفن عند اقترابها ليلاً من الثغور .

### الدولاب وأوجه استغلاله :

كانت إيرادات الأعيان الموقوفة تزيد أحياناً على المصروفات المخصصة

---

(١) أطلق على نوع من الضرائب في الدولة العثمانية اسم الضرائب العرفية تمييزاً لها عن الضرائب الشرعية التي تستق أسسها وجلوهرها من مبادئ الشريعة الإسلامية . أما الضرائب العرفية فتستمد سندها القانوني من السلطات المخولة للسultan العثماني بصفته الرئيس الأعلى للدولة يفرضها لمواجهة النفقات غير المنظورة .

للإنفاق على المؤسسات الدينية أو الخيرية المحددة في نصوص الوقفية . وكانت تحدث هذه الزيادة في الأوقاف السلطانية بوجه خاص . وكانت هذه الزيادة أو الفائض تشكل مالا احتياطياً يطلق عليه « الدولاب » ، وهي كلمة فارسية معناها أسطوانة تدور حول نفسها توضع في فتحة في حائط مؤسسة خيرية مثل دار اليتامى أو دار النساء الأرمال ، ويضع فيها الخيرون التبرعات أو الصدقات زلنى إلى الله . ومن هذا الدولاب أو الفائض كانت إدارة الوقف تشتري أعياناً جديدة سواء كانت أراض زراعية بموافقة السلطان أو عقارات مبنية مثل الحوانيت والحواصل والطواحين وما إلى ذلك مما يمتلكه الأهالى ، ثم تحبس هذه وتلك على المؤسسات الدينية أو الخيرية أو غيرها . وكانت تتم عمليات الشراء وإجراءات تسجيل الوقفية في المحكمة وفى المكاتب المتخصصة بسرعة ومرونة ملحوظتين بحيث لا تتعثر أمام التعقيدات المكتبية ، أو ما يسمى « الروتين » وحتى يعم الخير المرتجى قطاعات دينية وخيرية واجتماعية جديدة . فهذا وجه من وجوه استغلال الدولاب أو الفائض . وهو استغلال يحمل الطابع الدينى الخيرى .

وكان هناك وجه آخر من وجوه استغلال الدولاب حين كانت الحكومة المركزية تلجأ إلى الاقتراض من « الحرمين دولابى » أى الفائض من إيرادات أوقاف الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة . وكان الهدف من الاقتراض هو مواجهة أزمة مالية ، أو عند شروع الحكومة فى تنفيذ مشروعات عامة عاجلة ، أو خوض حرب . وهذا الوجه الثانى من أوجه استغلال الدولاب يحمل الطابع القومى ويستهدف المصلحة العامة . وبصفتهم منتظرين على الأوقاف الخيرية أتبع لرجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة عديد الفروض للتغلغل فى القطاعات الحكومية وفى شتى نواحي الحياة ، وجعلتهم على اتصال وثيق ومستمر بالقاعدة الجماهيرية الشعبية وارتفعت مكانتهم فى هذه الأوساط .

---

( ١ ) يسه الدولاب إلى حد ما فى الوقت الحاضر صناديق النور التى توضع فى عدد من المساجد بجوار الأضرحة ، مع فارق هام هو أن حصيله صناديق النور لا توجه إلى شراء عقارات وحبسها على مؤسسات دينية أو تعليمية ، بل يوزع جزء منها فى حدود نسبة معينة على موظفى المسجد وخدمه ، ويرسل الباقي إلى وزارة الأوقاف .



### الهيئة الإسلامية والمساجد :

ولم تكن وظيفة المساجد الكبرى في مفهوم الدولة مقصورة على إقامة الصلاة فحسب ، بل كانت تلحق بهذه المساجد منشآت خيرية تضم مدرسة ومكتبة تحفل بكتوز من التراث الفكري الإسلامى سواء باللغة العربية أو التركية أو الفارسية ، وكانت المدرسة أو المعهد الملحق بالمسجد يتسع لسكنى الأساتذة والطلاب ، كما كانت تضم هذه المباني حماماً ومطبخاً وداراً للعجزة وللشيخوخة ومستشفى وفندقاً صغيراً ينزل فيه الغرباء ويطلق عليه الخان ، وكان المسجد الكبير وما يلحق به من هذه المؤسسات يبدو كأنه مدينة مستقلة للأعمال الخيرية العامة . ومن المساجد التي طبق فيها هذا النظام مساجد محمد الفاتح وسليمان المشرع وأحمد الأول في إستانبول وبيلديرم وبايزيد وجلبى محمد في بروسه ، وجامع أدرنه (١) . وكان السلاطين ووزراؤهم يتنافسون في إقامة هذه المنشآت الخيرية . وإلى دمشق امتد هذا النظام على عهد السلطان سليمان المشرع ، فقد أقام مكان قصر الأبلق الذى كان قد شيده السلطان بيبرس البندقدارى مدرسة وتكية إلى جانب المسجد (٢) . وكان يتفق على المسجد وتوابعه والموظفين الذين يعماون في هذه المنشآت من إيراد الأراضى الزراعية الموقوفة على الهيئة الإسلامية كما سبق أن ذكرنا .

### الهيئة الإسلامية ومدارسها :

كان للهيئة الإسلامية نظام تعليمى دقيق . كان لابد أن يمر في جميع مراحل المتطلعون إلى الوظائف الكبرى في هذه الهيئة . كانت المدارس تلحق بالمساجد وتنقسم إلى ثلاث مراحل :

١ - المدارس الابتدائية ويطلق عليها المكاتب ، وعرفت في القرن

(١) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ،

ج ٣ ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) محمد جميل بيهم : العرب والترك في الصراع النع ، مرجع سبق ذكره ، ص ص

السادس عشر باسم « أوكوماك برلبرى » ومعناها أماكن القراءة . وكانت تعلم القراءة والكتابة باللغة التركية واللغة العربية وبعض سور من القرآن الكريم .

٢ - المدارس المتوسطة وكان يدرس فيها عدة مقررات فى النحو والبلاغة والمنطق والهندسة وعلم الفلك وفقه اللغة . وكان المتخرجون فى هذه المدارس يعينون مدرسين فى المدارس الابتدائية أو يعملون وعازا وأئمة فى المساجد .

٣ - المدارس العالية وتدرس فيها الشريعة والقانون . ويتعمق الطلبة فى دراسة العلوم القرآنية والشريعة الإسلامية كالحديث والفقه وأصول الدين ، كما كانوا يدرسون القوانين الوضعية . وكان يعين على المتعلمين لوظائف القضاء والإفتاء أن يواصلوا دراساتهم العليا . ويشترك شيخ الإسلام اشتراكاً فعلياً فى امتحاناتهم . وكان الطالب الناجح يمنح لقب ملازم . ولم تكن هناك سنوات محددة لمراحل الدراسة . وكان المعيار فى تحديد سنوات الدراسة هو الاستعداد العقلى للطالب وقابليته للدراسة . ولكن كانت الدراسات العليا تنتهى فى سن يتراوح عادة بين الثلاثين والأربعين .

ولم يكن التعليم إجبارياً ، كما أن المدارس التى تشرف عليها الهيئة لم تكن تتسع لجميع الأطفال المسلمين على الرغم من وفرة عددها ، وكان عدد المدارس الملحقة بمسجد السلطان محمد الفاتح ثمانية ، وعدد المدارس الملحقة بمسجد سليمان خمس مدارس .

وكان من المفروض أن الأب المسلم الذى يسكن مدينة ويريد أن يلحق ابنه فى مدرسة كان لا يحال بينه وبين إلحاق ابنه بمدرسة المدينة . وكان التعليم بالهجان فى المدارس الابتدائية . وفضلا عن ذلك كانت تقدم لبعض تلاميذها الطعام وتأوى بعضهم فى مبانيها . أما المدارس المتوسطة فكانت تقدم مثل هذه الخدمات لبعض تلاميذها . وفى المدارس العالية كان الطلاب يتقاضون مرتبات شهرية . ويقرر المؤرخ الأمريكى ليبير أن النظام التعليمى فى مدارس الهيئة الإسلامية كان يفوق أى نظام تعليمى آخر فى دول أوروبا فى ذلك الوقت .

وكان العثمانيون يؤمنون بمفائدة التعليم وضرورته . ولكن مما أفند التعليم روح المحافظة على القديم . وهى روح متأصلة فى نفوسهم جعلت هذا النظام التعليمى العثمانى ينقلب من نعمة إلى نقمة ، إذ ظلت نظم التعليم وبرامجه جامدة لم تتطور . وتعاقبت القرون دون إدخال أى تطوير عليها . ونجم عن هذا النظام التعليمى فى مدارس الهيئة الإسلامية والذي كان فى بدايته مزدهراً وأخرج نخبة من العلماء أن تجرد فى ذات الوقت الذى كانت فيه الدول الأوروبية تنمى قدماً فى تطوير نظمها التعليمية

### الهيئة الإسلامية وموظفو الجوامع والمساجد :

كان يتبع الهيئة الإسلامية موظفو الجوامع والمساجد ، وهم : الإمام ، وخطيب الجامع ، والواعظ ، والمؤذن ، والقائم . وكان المستوى العلمى لهؤلاء الموظفين لا يرقى إلى مستوى أفراد هيئة العلماء ، كما أن نفوذهم لم يكن كبيراً فى دوائر الحكومة ، وإن كانوا موضع التقدير والإجلال من الجماهير .

كان الإمام يؤم المصلين يومياً . وكان خطيب الجامع يلتقى بخطب صلاة الجمعة وعيد الفطر وعيد الأضحى ، ويؤم المصلين فى صلاة الجمعة والعيدين . وكان الخطيب أعلى مركزاً من إمام المسجد ، لأن طبيعة عمله تتطلب أن يكون ذا مستوى علمى يفوق المستوى العلمى للإمام ، فهو يتناول فى خطبه المسائل الدينية وقضايا الساعة وموقف الشريعة الإسلامية منها ، وكان يدعو فى خطبه للسلطان العثمانى الحاكم بالتوفيق فى حكم الدولة وبالانصر على أعدائها . وكان الدعاء للسلطان فى خطب الجمعة والعيدين مظهراً من مظاهر السيادة السياسية للسلطان ، ويتعد الدعاء قريناً لسك العملة باسم هذا السلطان . أما الواعظ فكان يلتقى دروساً دينية فى رحاب المسجد ويبصر المسلمين بشئون دينهم ودنياهم عقب صلاة الجمعة أو بعد صلاة العصر أو فى الفترة التى تتخلل صلاة المغرب وصلاة العشاء . أما المؤذن فكان يختار لرخامة صوته . وقد اهتم العثمانيون اهتماماً كبيراً بالآذان . وفى المساجد الجامعة والكبرى كان يشترك عدد من المؤذنين فى أداء الآذان فى وقت واحد وصوت واحد

عذب يخلق جواً روحانياً يشد المسلمين إلى الصلاة . وكان يسبق تعيين المؤذنين فترة تدريب يقضيها كل منهم على أداء شتى أنواع الآذان . وكان عليهم - بجانب الآذان - أن يرتلوا بعض الابتهالات . ويتخصص بعضهم في ترتيل آيات القرآن الكريم . أما القيم فكان يشرف على موظفي الجامع أو المسجد ويراقب حضورهم في الوقت المناسب ، أى قبل حلول موعد الصلاة بوقت كاف ، ويراقب أداء أعمالهم على الوجه الأكمل .

ولم تكن المساجد الجامعة تحصل على عدد متساو من الموظفين ، بل كان عددهم يزيد وينقص تبعاً لأهمية الجامع أو المسجد ، وبخاصة المساجد الجامعة السلطانية ، وتبعاً للموارد المالية الموقوفة على الجامع . ففي بعض المساجد الجامعة كان يوجد في كل منها اثنا عشر مؤذنًا . أما مسجد السلطان أحمد الأول ( ١٦٠٣ - ١٦١٧ ) والذي شيد في مطلع القرن السابع عشر فكان يضم ستة وثلاثين مؤذنًا . وقد خد هذا المسجد في فترة من الفترات أعظم المساجد السلطانية في الدولة . أما في المساجد الصغيرة فكان لا يوجد سوى إمام يقوم أيضاً بوظائف الخطيب والمؤذن والقيم .

وكان التعيين في تلك الوظائف يتم بمعرفة المشرفين على المؤسسات الخيرية التي تدفع مرتبات موظفي المساجد . وكان وعاظ الجوامع السلطانية في إستانبول هم الذين لا يخضعون لهذا النظام في التعيين ، إذ كان شيخ الإسلام هو الذى يتولى تعيينهم . فكانوا يشكلون فئة قائمة بذاتها . وكانوا يبدأون حياتهم الوظيفية في المساجد المشيدة حديثاً ، فإذا رقوا انتقلوا إلى المساجد الأقدم . وإذا امتد بهم الأجل وصلوا في ترقياتهم إلى مسجد السلطان محمد الثانى الذى كان من قبل كاتدرائية القديسة صوفيا وأصبح قبة المساجد السلطانية . ومن أجل هذا السبب كان وعاظ هذه المساجد في مرتبة أعلى من مرتبة خطبائها ، بينما كان الخطباء في المساجد أعلى مركزاً من الوعاظ . وكان تعيين موظفي سائر المساجد القائمة في إستانبول يتطلب صدور تصديق أو موافقة شيخ الإسلام . أما موظفو المساجد القائمة خارج العاصمة والمنتشرة

في أنحاء البلاد ، فكان الأمر يتطلب صدور قرار باعتماد تعيينهم من أحد قاضي العسكر تبعاً لموقع المسجد إذا كان في أوروبا أو في آسيا .

### الهيئة الإسلامية والحكومة العثمانية :

كانت الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وهي تباشر اختصاصاتها في شتى مجالات عملها تحرص حرصاً بالغاً على أن تكون مبادئ الشريعة الإسلامية موضع التنفيذ الدقيق والاحترام العميق من جانب الحكام والحكومين على السواء . والدولة العثمانية دولة دينية ، واتسمت سياستها العليا ومعظم تصرفاتها بالطابع الديني الإسلامي الذي كان من أبرز خصائصها . والأتراك العثمانيون شعب مطوع لحكومته ، غيور على دينه ، محافظ على تقاليده ، يعتقد أن التمسك بأهداب الشريعة الإسلامية أسلوباً ومنهجاً وسلوكاً في الحياة يكفل للإنسان السعادة والنجاح في الحياة الدنيا والنعيم في الحياة الآخرة . فكانت الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وعلى رأسها شيخ الإسلام ، تؤدى رسالتها الإسلامية نشرًا وتعليمًا وقضاء وإفتاء . ويتبوأ أفرادها مكاناً عالياً وهم يشغلون تلك المناصب المرموقة . فكانت الهيئة الدينية هي صمام الأمان للشعب والحكومة معاً . وكان نفوذ الهيئة يغطي جميع أرجاء الدولة ويمتد إلى خارج حدودها السياسية .

وكانت الوشيجة الدينية والولاء للدولة يربطان المسلمين رعايا الدولة والذين جاؤوا من عائلات إسلامية بعروة وثقى . حقيقة لم يكن هذا النقط من التفكير الديني والسياسي يغلب على جميع الرعايا المسلمين ، كما لم يكونوا جميعاً من أتباع المذهب الحنفي وهو المذهب الرسمي للدولة ، ولكنهم كانوا جميعاً مسلمين فخورين بدينهم ، محتويهم إخلاص غامر للإسلام ، ورغبة دافقة للعمل من أجل تحقيق تفوق الإسلام في أرجاء العالم . وإذا كان بعض المسلمين نظروا إلى نظام الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة على أنه نظام غير مثالي ، لأن الدولة أوجدت بجانبها طبقة العبيد - القولار - واصطنعتهم أدوات للحكم والحرب وأغدقت عليهم الامتيازات إغداقاً ، فإن نظام الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كان على كل حال ، وفي رأيهم أيضاً ، نظام يلوذ

به المسلمون ، ويعين على صمود الإسلام كدين عالمي أمام البابوية في روما وأمام الدول الأوروبية المسيحية . وكانت هاتان القوتان المسيحيتان قد أظهرتا لنداً في العداء للدولة العثمانية .

وباستثناء طائفة الأشراف الذين كانوا ينحدرون من نسل النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وباستثناء طوائف الدراويش الذين كانوا يمارسون ألواناً من النشاط الديني ، فإن جميع وظائف الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كانت متاحة لكل أفراد الهيئة الإسلامية أى المسلمين الأحرار طالما كانوا مؤهلين علمياً لتولى مناصبها ذات النفوذ الواسع والأهمية البالغة . كانت هيئة العلماء وهي تضم ثلاث فئات ، هم : الأساتذة والقضاة والمفتين قد تلقى أفرادها العلم وفقاً لنظام تعليمي واحد ، واستقوا المادة العلمية من نفس المصادر والمراجع ، والتحقوا بمدارس وكرليات مفتوحة للجميع من أفراد الهيئة الإسلامية يمتدحى الطالب في رحابها سنوات طويلاً يتلقى الدراسات إلى نهاية الشوط إذا كانت استعداداته العقلية تؤهله لاستكمال دراساته العليا ، ولا يتكبد ذووه نفقات تعليمه ، لأن الموارد المالية التي تدرها الأوقاف الدينية الإسلامية كان يوجه جزء منها للإنفاق عليه . وانتشرت المدارس في أرجاء الدولة في القارات الثلاث تقدم العلم للراغبين فيه على يد العلماء . ولم يكن مستوى التعليم يقل في مستواه عن مثيله الذي سبق أن تلقاه هؤلاء العلماء حين كانوا يطلبون العلم . كانوا يتولون التدريس لنوعيات مختلفة من الدارسين : الطلاب شباباً وشيبة ، أفراد طبقة القولار الحاكمة ، الأمراء ، والسلطان الحاكم نفسه ، إذ كان يعمل على مقربة منه خوجة السلطان ، أى معلم السلطان ، وكان بمثابة مستشاره . وكان السلطان يمكن له احتراماً عميقاً وتقديراً بالغاً . وكلما مضت الحياة بهؤلاء العلماء تشعبت أمامهم المسالك إلى وظائف القضاء والإفتاء بل إلى منصب شيخ الإسلام . وبذلك لم يظل أثر العلماء مقصوراً على الأفراد في مجالات التعليم ، بل امتد إلى مستقبل الدولة نفسها . كان فريق منهم يعملون في المحاكم قضاة ومفتين ، وفريق آخر يعملون في المساجد والمؤسسات الدينية في شئون الدعوة

والإرشاد والتوجيه . وفوق هذا كله كان بجانب كل موظف كبير في الإدارة المركزية وفي حكومة كل ولاية قاض أو مفت يسدى إليه الرأى فى المسائل التى يستغلّق فهمها على ذلك الموظف الكبير ، فيتولى شرحها له فى ضوء مبادئ الشريعة الإسلامية .

### امتيازات علماء الدين :

وأصفت الدولة على العلماء بعض الامتيازات الهامة مثل الإعفاء الضريبى . وكانت ممتلكاتهم لا تخضع للمصادرة ، ولا تؤول ملكيتها على الإطلاق للسلطان . فكانت ممتلكاتهم تورث لأولادهم وذرائعهم حسب قواعد الشريعة الإسلامية . وقد زادت هذه الامتيازات من مكانة العلماء فى نظر الجماهير (١) . ومنذ أوائل القرن السادس عشر كان أصحاب المناصب الدينية الكبرى ، وعلى رأسهم شيخ الإسلام وقضاة العسكر وخوذة السلطان والقضاة من فئة المولا الكبير والمفتون ومن إليهم من العلماء ، يتقاضون مرتباً إضافياً أطلق عليه « أربعة لى » أى مال الشعير (٢) . وكان هذا المرتب فى أصله عبارة عن علاوة تمنح لأولئك الذين يحتفظون بقوات من الفرسان المعروفين باسم السباهى أو يناط بهم العناية بالتحليل سواء فى الجيش أو فى الإسطبلات السلطانية ، ثم توسعت الدولة فى تطبيق هذا المرتب على رجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة بعد أقصى لأصحاب المناصب الدينية الإسلامية سبعة آلاف أسير (٣) . ومنذ القرن الثامن عشر أصبح منح هذا المرتب الإضافى مقصوراً على شاغل المناصب الدينية الكبرى .

ويلخص الأستاذ ألبرت حوراني الخطوط الرئيسية الدالة على اهتمام الدولة العميق بالهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وذلك فى شتى المجالات التى امتد إليها نشاط هذه الهيئة فيقول . . « كانت السلطنة دولة تحكم فى نطاق

Lybyer A. H.; op. cit., p. 203.

(١)

(٢) أربعة فى اللغة التركية معناها الشعير .

(٣) درج الكتاب الأورويون على استخدام كلمة أسير أو أسيرة Asper أو Aepre

على المسلة التركية أفجة « بضمضم الهززة وفتحها » . وهى كلمة تركية معناها مائل إلى البياض . وهى تستعمل للدلالة على المسكوكات الفضية وبخاصة الصغيرة منها .

الشريعة الإسلامية وتعكف على تحقيق أغراض الإسلام الكبرى . وكانت سنية المذهب عن شعور زاده حدة طول الصدام مع الدولة الصفوية التي كانت شيعية . وبفضل ما كان للعثمانيين من قربة وحب للترتيب والوضوح قامت الدولة العثمانية بتنظيم هيئة العلماء على شكل سلسلة من الرتب المحددة والتعيينات الرسمية والمرتبات التي تجرى عليهم بصفة رتيبة ومنظمة . وكان رؤساء هذه الهيئة الدينية وهم شيخ الإسلام ، وكبار رجال القضاء والإفتاء يستشارون في الشؤون العليا للدولة . وكان القضاء في الأقاليم هم السبيل الرئيسى الذى يتم عن طريقه الاتصال بين الحكومة المركزية والرأى العام الإسلامى فى المدن الكبرى . وبسطة الحكومة رعايتها وحمايتها على المدارس الإسلامية فى المدن العربية ، وقامت هى من ناحيتها بإنشاء مدارس جديدة فى إستانبول لتعليم أولئك الذين سيشغلون أعلى المناصب فى الهيئة الإسلامية فى قابل الأيام (١) .

وقد عمد المؤرخ الأمريكى ليبر Lybyer إلى تشبيه الهيئة الإسلامية بيد الإنسان ، وتشبيه الحكومة العثمانية بالقفاز الذى يضعه الإنسان فى يده . ومهد لهذا التشبيه بقوله إن الهيئة الإسلامية كانت تشمل جميع الرعايا المسلمين الأحرار الذين جاءوا من عائلات إسلامية ، وهؤلاء يشكلون القاعدة الجاهيرية العريضة . والقفاز لا بد أن يكون مناسباً لليد ملائماً لها ، كذلك كانت الحكومة العثمانية مناسبة وملائمة للهيئة الإسلامية ، واستطرد ذلك المؤرخ فقال إن التشبيه يذهب إلى أبعد من هذا الحد . فاليد تؤدى وظيفتها بنفس الكفاية سواء بالقفاز أو بدون قفاز ، بينما يكون القفاز عديم الفائدة بدون يد الإنسان . وفضلاً عن ذلك فإن اليد تعيش مع الإنسان وتلازمه فى شتى مراحل حياته . واليد ترتدى عدداً كبيراً من القفازات ، وكلما بلى قفاز استخدمت اليد قفازاً جديداً ، وتستمر اليد تؤدى وظيفتها ما بقيت تنبض بالحياة (٢) .

---

Hourani Albert ; The Ottoman Background etc, op. cit., (١)  
p. 8.

Lybyer A.H. ; op. cit., pp. 225—226.



## الفصل السادس عشر

### دراسة مقارنة بين الهيئتين الحاكميتين

المنابع الأولى لنظام الهيئتين :

حاول بعض المؤرخين والباحثين تقصى المنابع الأولى التى استقى منها الأتراك العثمانيون الفكرة الأساسية التى قام عليها نظام كل من طبقة القولار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . وقد أرجع فريق منهم المنابع أو الأصول التى قام عليها نظام طبقة القولار إلى الصين وفارس القديمة بحكم مجاورة هاتين الدولتين للمهاد الأولى التى نشأ فيها الأتراك العثمانيون فى مناطق الإستبس فى أواسط آسيا . وقرر فريق آخر أن أسلاف سلاجقة الروم هم الذين تولوا نقل الآراء التى قام عليها نظام طبقة القولار إلى الأتراك العثمانيين الذين تأثروا بدورهم بعد ذلك بالموثرات البيزنطية ، كما أنهم تأثروا بموثرات الصليبيين الذين وفدوا من أوروبا ومروا بمنطقة آسيا الصغرى وهم فى طريقهم إلى الشرق الآسيوى الإسلامى حيث استقروا حينئذ من الدهر وتركوا بصماتهم فى هذه البقاع . ويضيف هذا الفريق من المؤرخين والباحثين إلى ذلك أنه نجم عن هذه الموثرات فى مجموعها أن الأتراك العثمانيين لم يكتفوا بالأخذ بنظام طبقة القولار كما نقل إليهم فحسب ، بل عملوا إلى تطعيمه بآراء جديدة فرضتها عليهم الملابس التى أحاطت بهم منذ إنشاء دولتهم ، وأتهم مضوا فى تحوير هذا النظام سواء فى آسيا الصغرى أو فى الأقاليم التى دانت لحكمهم فى الجنوب الشرقى من أوروبا إلى عصر السلطان سليمان المشرع . أما فيما يختص بالهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، فقد ذهب فريق من المؤرخين والباحثين إلى أن الأتراك العثمانيين قد استمدوا الهيكل العام لهذه الهيئة من النظم التى كانت سائدة فى الدولة السامانية .

ومن الصعب تقيل هذه الآراء التي تبدو أنها آراء اجتهادية أو افتراضية تتطلب منا أن نخوض في دراسة النظم التي كانت قائمة في تلك الدول القديمة لنقبن وجه الحقيقة . وهذا الأمر يخرجنا بعيداً وبعيداً جداً عن نطاق الدراسة التي نقوم بها ، ومثل هذه الدراسة لا تسمح لنا بالتعرض لتاريخ نظم قامت في دول موعلة في القدم . ولهذا نرى أن نكتفي بذكر أوجه الشبه وأوجه الاختلاف وأوجه التداخل بين هاتين الهيئتين اللتين كانتا من المعالم البارزة في تاريخ الدولة العثمانية ، وقام على أكفاف أفرادها كل الإنجازات الحربية والإدارية والتشريعية والدينية والاجتماعية .

#### أوجه الشبه بين الهيئتين :

كان من أوجه الشبه بين طبقة القولاار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أنها اتخذتا من التعليم وسيلة للبقاء والاستمرار والأخذ بأسباب القوة والنفاء . فكان لكل منهما نظام تعليمي خاص بأفرادها يتمشى مع رسالتها ويحقق أهدافها . كانت طبقة القولاار الحاكمة تقدم إلى أبنائها تعليماً تناول التربية العسكرية وتناول أيضاً النواحي التنقيقية العلمية المختصة ، بينما كان اهتمام الهيئة الإسلامية مقصوراً على الدراسات العقلية ، وفي مقدمتها علوم الشريعة وأصول الدين ، وأهملت إهمالاً تاماً التربية الرياضية .

وحرصت كلتا الهيئتين على تزويد القاعدة العريضة بتلاميذ جدد تقدم لهم التعليم وفقاً للمناهج الموضوعة لكل هيئة . وكان الصف الأول في كل من هاتين الهيئتين يجد دواماً رصيداً لا ينفد من رجال الصف الثاني ليشغلوا منه المناصب العليا أو القيادية التي تخلو بمضى الأيام . وبالمثل كان الصف الثاني يجد معيناً لا ينضب من رجال الصف الثالث يملأ منه الوظائف الشاغرة . وهكذا مضت عملية ملء الصفوف في كل هيئة وفق خطة مرسومة ونظام رتيب .

وانتشر أفراد الهيئتين في شتى القطاعات المدنية والعسكرية . عمل أفراد طبقة القولاار في الجيش وفي الإدارة المركزية وفي حكومة الولايات وفي البلاط السلطاني . وكان أعلى منصب وصلوا إليه هو منصب الصدارة العظمى .

وعلى هذا النحو عملوا أدوات للحرب والحكم والخدمة الداخلية والخدمة الخارجية للسلطان في قصوره . أما أفراد الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فقد شغلوا مناصب القضاء والإفتاء وتدرّس علوم الدين واللغة والمشاركة على نحو ما في إدارة الأوقاف الخيرية وإقامة الشعائر الدينية والإشراف على المساجد والمؤسسات الدينية والخيرية مثل التكايا والأسبلة وغيرها . وكان أفراد من الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة يصحبون شتى فرق الجيش إلى ميادين القتال ويقومون قبل المعركة بتسخين الجنود روحياً ابتغاء رفع روحهم المعنوية ويضربون للجنود أروع الأمثلة على استبسال الجنود المسلمين في صدر الإسلام حين انطلقوا على موجات بشرية متلاحقة من قلب شبه الجزيرة العربية واتجهوا شرقاً إلى العراق وفارس ، وشمالاً إلى بلاد الشام ، واتجهوا إلى مصر ثم شمالاً إفريقية ، وعبروا البحر المتوسط إلى الأندلس . ويتكبرون لهم الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تلهمهم حول الجهاد الديني والفوز بإحدى الحسينيين : النصر أو الاستشهاد . ويشرحون لهم مواقف الصحابة واسترخاصهم الموت حتى استطاعت الجيوش الإسلامية العربية وقتل ذلك أن تدك معازل دولة الفرس والدولة البيزنطية . كما كان رجال الهيئة الدينية الإسلامية يؤمون الجنود في صلاة الخوف (١) وهم في ساحات القتال . وكان أعلى منصب يصل إليه أفراد هذه الهيئة هو منصب شيخ

---

(١) من المعروف أن الممارسين لا يستطيعون أداء الصلاة في طمأنينة وأمان وهم في ساحات القتال بينما العدو مترصد بهم ، يود منهم الاسترخاء أو الانشغال عن القتال ولو لفترة وحيدة فيأخذهم على غرة . وتقديراً من الله سبحانه وتعالى للظروف الخطيرة والشاقة التي يجارب فيها المسلمون ، وتمكناً لهم من إقامة الصلاة ، وتيسيراً عليهم في أدائها ، فقد وردت في القرآن الكريم صلاة الخوف في قوله تعالى . « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من وراءكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمعتكم ، فبيلون عليكم ميلاً واحدة . » سورة النساء ، صدر الآية الكريمة رقم ١٠٢ .

وفي صلاة الخوف تنقسم المجموعة أي الوحدة - سرية كانت أو فصيلة - بشرط أن تكون متجمعة ، إلى مجموعتين : مجموعة الاستعداد للدرجة القصوى في مواجهة العدو . والمجموعة الثانية مع الإمام ، فيصل بهم ركعتين في الصلاة الرباعية ، ثم يسلمون من الصلاة وينصرفون =

الإسلام . وكان أكبر منصبين في الدولة - الصدر الأعظم وشيخ الإسلام - يتم التعيين فيها بفرمان يصدره السلطان شخصياً ومباشرة لكل منها ، ويستقران في منصبيهما في العاصمة على مقربة من العرش السلطاني . وكذلك كان شأن معظم كبار أفراد الهيئتين .

#### أولاً : اختلاف الأساس الذي قامت عليه الهيئتان :

كان من أهم أوجه الاختلاف بين طبقة القولاخ الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أن الأساس الذي قامت عليه كل منهما كان يختلف عن الآخر اختلافاً جذرياً . قامت طبقة القولاخ على أساس مصطنع غير طبيعي ، ولذلك لم يقدر له الاستقرار أمداً طويلاً . كان أفرادُه عبيداً للسلطان ، ولكنهم لم يولدوا عبيداً . لقد جاءوا إلى الحياة أطفالاً مسيحيين أحراراً ، ثم تغير وضعهم الديني والقانوني والاجتماعي ، فغدوا مسلمين عبيداً للسلطان . ولم يكن في الاستطاعة أن تمضي هذه العملية المصطنعة أعصرراً وأدهاراً وأحقاباً دون أن يعتربها وهن ثم اضمحلال يؤدي بها إلى التوقف والزوال . وقد ذكرنا من قبل أنه كانت هناك أربعة منابع حصلت منها الدولة على أفراد طبقة القولاخ الحاكمة : أسرى الحرب ، الشراء ، الهدايا ، ضريبة الغلمان . وبمضي

---

— لاستلام مهام المجموعة الأولى التي تأتي بدورها لتدخل في الصلاة فتصل مع الإمام ركعتين تسلم بعدها . أما في حالة الاشتباك الفعل أو القتال المتلاحم فإن المحاربين يصلون بالإيماء ومعهم أسلحتهم . ولا يشترط حينئذ استقبال القبلة ، لأنه شرط مع القدرة عليه .

وقد صلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه صلاة الخوف على أنواع مختلفة تناولتها بالتفصيل كتب الفقه . والهدف من هذه الصلاة هو التوفيق بين ضرورات القتال وما يجب له من تجنب وحذر ، لإحباط مكائدها والعلو وهيجاته المباشرة وبين اتخاذ حدة النصر كاملة ، وفي أولها الصلة بالله في الصلاة إذ هي السلاح الأول من أسلحة النصر في المعركة لا يجوز تركها أو تأجيلها ، فجات تلك الآية الكريمة في صلاة الخوف مع رسول الله ومع خلفائه وأئمة المسلمين الملتزمين بسنته .

انظر :

أبو الطيب صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوبلي البخاري : الروضة الدنية . شرح الدرر البهية . جزءان . نشر وتصحيح وتعليق إدارة الطباعة المنيرية لصاحبها ومديرها محمد منير عبيد أغا الدمشقي ، شارع الكهككيين رقم ١ ، القاهرة ، ج ١ ، ص ص ١٤٧ - ١٤٩ .

الزمن انحضرت هذه المنابع الأربعة في مصدرين : الأسرى وضريبة الغلمان . وقد نضب معين المصدر الأول وهو أسرى الحروب بعد أن بلغت الفتوحات العثمانية في أوروبا حد التشبع ، وبعد أن وصلت الجيوش العثمانية في زحفها على قلب أوروبا إلى مشارف فينا ، وتعذر على هذه الجيوش أن تمضى قدماً في زحفها الحافظ والظافر . فالدولة كان قد بدا عليها الهزال ، بينما كانت الدول الأوروبية التي وقفت في وجهها بعد ذلك تملك الكثير من أسباب القوة والمنعة والصمود . أما المورد الآخر وهو ضريبة الغلمان فلم يكن في مقدور الدولة أن تستمر في جمعها قروناً متعاقبة ، وانتهى بها الأمر إلى إلغائها . وكان هؤلاء الصبيان يفصلون عن آبائهم وأمهاتهم وسائر ذويهم فصلاً مصطنعاً وحاداً وعنيفاً . ولما اشتد ساعد هؤلاء الصبية واكتملت رجولتهم لم تشجعهم الدولة على تكوين روابط عائلية . وإذا تزوج فريق منهم — لأن الزواج ظل محرماً على الذين انخرطوا منهم في السلك العسكري ثم أذن لهم في الزواج — لم يكن الآباء مطمئنين إلى أن الثروات التي كونوها سواء كانت عقاراً أو أموالاً سائلة سوف تؤول إلى أبنائهم وذرائعهم ، بل كان ينتابهم خوف مرير مدمر من أن يسلبهم السلطان أموالهم وممتلكاتهم بل وحياتهم . ولذلك كانت طبقة القولاخ الحاكمة في أساسها وفي نظمتها تسير في خطوط تتعارض مع فكرة الأسرة وروابط الأسرة وجو الأسرة . أما الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فكانت تأخذ أفرادها من أبناء المسلمين الأحرار ، وكان يتزايد عددهم باطراد . وكان عليهم إذا أرادوا أن يتبوأوا مكانة مرموقة في وظائف الهيئة أن يواصلوا دراساتهم العليا . وكانوا أحراراً لا يعوقهم عائق في علاقاتهم العائلية أو في حياتهم الخاصة . يتضح مما سبق أن أهم سبب لاختلاف الأساس الذي قامت عليه كل هيئة من هاتين الهيئتين أن أفراد طبقة القولاخ جاءوا — أو جمعوا بعبارة أكثر دقة — من عائلات مسيحية ، بينما جاء أفراد الهيئة الإسلامية من عائلات إسلامية . ومعظم أوجه الاختلاف ، إن لم يكن جميع أوجه الاختلاف بين هاتين الهيئتين ، إنما تنبثق من هذا السبب .

### ثانياً : نظرة كل هيئة إلى السلطان : عبودية أو طاعة :

ينبتق عن الاختلاف السابق اختلاف آخر وثيق الصلة به ، هو نظرة أفراد كل من الهيئتين إلى الرئيس الأعلى للدولة . فعلى الرغم من أن السلطان كان رئيس الهيئتين ، إلا أن نظرة أفراد كل هيئة إلى السلطان كانت تختلف اختلافاً جديراً عن نظرة أفراد الهيئة الأخرى إليه . ومرد هذا الاختلاف إلى أن رئاسة السلطان لطبقة القولار الحاكمة ورياسته للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كانتا تستندان إلى اعتبارات قانونية . فالهيئة الأولى مجموعة من المسلمين العبيد ، والهيئة الثانية مجموعة من المسلمين الأحرار .

كان السلطان بالنسبة لطبقة القولار الحاكمة هو كل شيء : هو السيد المطاع ، وهم العبيد الأرقاء يملك بالنسبة لهم أسباب الموت ، ويتخذ ضدهم ما يشاء من إجراءات بحكم تملكه لهم وما ملكت أيديهم ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لرغبته . وهم كعبيد يدينون له بالعبودية التامة بكل ما تحمله هذه العبارة من معاني الصرامة والسيطرة التي لا يحدها قيد أو حد . أما بالنسبة للهيئة الدينية الإسلامية ، فكانت رئاسة السلطان لها تقوم على أساس أنه يعتبر إماماً للمسلمين الأحرار الذين هم أفراد الهيئة الإسلامية . وتجب عليهم طاعة السلطان بصفته ولى الأمر كما يأمرهم الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً » (١) .

ونقف هنا وقفة قصيرة لنزيد جلاء هذا الوجه من أوجه الاختلاف بين أفراد طبقة القولار الحاكمة وأفراد الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . توجد نقطتان هامتان تقرضان نفسيهما فرضاً في هذا الحال . النقطة الأولى هي أن الفارق كبير بين العبودية التي تدين بها للسلطان العثماني طبقة القولار أى عبيد السلطان ، وبين الطاعة التي يدين بها للسلطان المسلمون الأحرار ، وهم أفراد الهيئة

الإسلامية . والنقطة الثانية هي أن طاعة المسلمين الأحرار مشروطة بأن تكون في نطاق الشريعة الإسلامية . وطبقاً للنص القرآني في الآية الكريمة السابقة يجب على الذين آمنوا أن يطيعوا الله ابتداءً ، وأن يطيعوا الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، بما له من صفة الرسالة . فطاعته هي من طاعة الله الذي أرسله بالشريعة . أما أولو الأمر أيًا كان لقبهم أميراً أو ملكاً أو سلطاناً ، فيجعل الله طاعتهم تبعية ، ولا يجعل طاعتهم أصلية . ولذلك اقتضت حكمة الله أي برد النص القرآني في الآية الكريمة المشار إليها مجرداً من لفظ الطاعة عند ذكر أولى الأمر ليدل على أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله ورسوله ، ومن القيام على شريعة الله ورسوله . فليس لأولى الأمر طاعة فيما وراء الشريعة ، لأن الطاعة لهم تبعية ، وليست طاعة أصلية ، إنها طاعة مستمدة من أصل ، وليست هي بذاتها أصلاً . وقد أشار إلى هذا المعنى أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين (١) في أول خطبة عامة ألقاها بعد مبايعته بالخلافة أوضح فيها مناجاة في الحكم . وكان مما جاء في هذه الخطبة المشهورة قوله « أيها الناس إني وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . . . . . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . . . . . » (٢) وهكذا طلب أبو بكر من جموع المسلمين طاعته طالما كان سائراً على هدى الله وسنة رسوله . لا طاعة لحاكم في معصية الخالق . وقد مر بنا في هذه اللواسة أن شيخ الإسلام كان يلوذ بالشريعة الإسلامية ويعتمد عليها إذا احتدم الخلاف بينه وبين السلطان أو الصدر الأعظم إذا حاد أحدهما أو كلاهما عن مبادئ الشريعة . ويحفل تاريخ مصر إبان الحكم العثماني بمواقف رائعة تمسك فيها علماء الأزهر بهذا المبدأ الإسلامي تمسكاً جعلهم يرفضون تنفيذ أوامر السلطان العثماني إذا رآوا فيها خروجاً على مبادئ الشريعة . كان السلطان قد أرسل إلى مصر عدة

(١) هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن النضر بن مالك . فهو يلتقي مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه في مرة .

(٢) القلقشندي أبو المباس أحمد : صحيح الأعتى في صناعة الإنشاء ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

فرمانات (١) كان بعضها يختص بتغيير نظام صرف الأموال المرصودة على المساجد والأسبلة والتكايا وغيرها من الجهات الخيرية . وطلب قاضي القضاة العثماني في مصر إلى علماء الأزهر تنفيذ هذه فرمانات ، كل فيما يخصه . ولكنهم رأوا أنها تتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية ، فرفضوا تنفيذها . فقال لهم قاضي القضاة « إن أمر السلطان لا يخالف ، ويجب طاعته » . فتصدى له الشيخ سليمان المنصوري ، ويصفه الجبرتي بأنه « أحد الصدور المشار إليهم » وتحدى السلطان وأعلن في مواجهة قاضي القضاة أنه لن ينفذ أمراً أصدره السلطان ، لأنه يخالف لأحكام الشريعة ، ولا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يفعل ذلك » . ويحل الجبرتي موقفاً مماثلاً لعلماء الأزهر حين وقفوا في وجه حسن باشا الجزائري قائد الحملة العسكرية العثمانية التي جاءت إلى مصر سنة ١٧٨٦ لكسر شوكة الأمراء المماليك ودعم نفوذ الدولة العثمانية في مصر . كان هذا القائد وهو في أوج نفوذه قد فكر في استباحة أموال الأمراء المماليك والقبض على نسايتهم وأولادهم وعرضهم في سوق الرقيق بالقاهرة لبيعهم زاعماً أنهم أرقاء لبيت المال . ولما أقدم حسن باشا على تنفيذ فكرته ، ذهب إليه وفد من علماء الأزهر مستنكرين هذه التصرفات . واحتدمت المناقشة بينه وبينهم ، وقال له الشيخ محمد أبو الأنوار السادات « هل أرسلك السلطان إلى مصر لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ؟ أو لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ » فقال « هؤلاء أرقاء بيت المال » . فأجابه الشيخ السادات « هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد » . فنارت ثائرة القائد العثماني ، وأمر مسكتريره بكتابة أسماء العلماء الحاضرين ليبلغ السلطان بمعارضتهم لأوامره . فانبرى له أحد الحاضرين قائلاً « اكتب ما تريد ، بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا » (٢) .

---

(١) حل هذه فرمانات آغا من إستانبول . وكان ذلك في أثناء ولاية بابكر باشا الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩ هـ / ١٧٣٤ - ١٧٣٧ م) . انظر :  
المعبري ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(٢) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٨٨ ، وقد جاء هذا النص في سياق ترجمة الشيخ محمد السادات في وفيات سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١-١٨٧٢ م .



ونخلص من هذا العرض إلى أن المسلمين الأحرار أفراد الهيئة الإسلامية نظروا إلى الشريعة الإسلامية على أنها فوق السلطان العثماني . أما العبيد أعضاء طبقة القولا ر الحاكمة فلم يعترفوا بسلطة أعلى من سلطة السلطان .

ويمكن تفسير هذا الوجه من أوجه الاختلاف بين طبقة القولا ر الحاكمة والهيئة الإسلامية بأن نشأة أفراد كل من هاتين الهيئتين قد انعكست على تصرفاتهم ومسلكتهم بل وعلى روحهم العامة في الحياة . كان أفراد طبقة القولا ر الحاكمة أطفالاً مسيحيين في مهدهم - كما سبق أن ذكرنا - ثم انتزعتهم الدولة من آباءهم وأمهاتهم وحولتهم إلى الدين الإسلامي . فكانوا حديثي عهد بالإسلام . ونجم عن ذلك أن عقيدتهم الدينية الجديدة لم تكن بنفس الأصالة والقوة والصلابة التي كان يشعر بها ويدين بها أفراد الهيئة الإسلامية الذين ولدوا مسلمين ، وشبوا وترعرعوا وعاشوا في جو إسلامي غير مصطنع ، فتشبعوا بالإسلام ديناً بعد أن تمكن من أثبتهم وتغلغل في أعماق نفوسهم .

### ثالثاً : نوعية أفراد الهيئتين :

ومن أوجه الاختلاف بين الهيئتين نوعية الأفراد الذين تستق منهن كل هيئة قاعدتها العريضة . فالدين الإسلامي دين عام بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد بعث به رسوله محمداً صلوات الله وسلامه عليه للبشرية جمعاء ، فهو ليس ديناً خاصاً بقوم ، أو بجنس من أجناس البشرية ، أو بجيل من الأجيال ، أو بإقليم من الأقاليم . والله يقول في كتابه العزيز « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ، الذي له ملك السماوات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي ، الذي يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » . (١) والإسلام يمثل عبر التاريخ الإخاء الإنساني في أروع صوره ، وقد عبر عنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع « أيها الناس ، إن ربكم واحد . وأباكم واحد . لا فضل لعربي على عجمي ،

(١) سورة الأعراف ، آية رقم ١٥٨ .

ولا لعجمي على عربي ، ولا أسود على أحمر ، ولا أحمر على أسود ، إلا بالتقوى » (١) . والإسلام لا يعرف الطبقية ولا التمييز العنصري . والرسول عليه الصلاة والسلام ليس رسولا عنصرياً أو إقليمياً أو طبقياً ، وهو يقول « بعثت إلى الناس كافة ، الأحمر ، والأسود » (٢) . وتأسيساً على هذه المبادئ التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ، فإن الهيئة الإسلامية ، وهي تضم الأفراد الذين ولدوا مسلمين أحراراً ، كانت لا تقيم وزناً لأجناسهم .

أما طبقة القولا ر الحاكمة فكان أفرادها يوثخون من الأسرى المسيحيين واعتنقوا الإسلام . ويوثخون أيضاً من الحصيلة البشرية لضريبة الغلمان ، وهي أغنى منابع الرقيق . وطبقت الدولة هذه الضريبة على طوائف معينة من رعاياها ، وأعفت طوائف أخرى . فقد أعفت رعاياها اليهود كلية ، كما أعفت رعاياها المسيحيين الكاثوليك . وطبقت الضريبة على المسيحيين الأرثوذكس وهم أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ويطلق عليهم في بعض المراجع الروم الأرثوذكس ، ونجم عن هذا الإعفاء فروق صارخة . ونسوق في هذا المجال مثالا لهذه التفرقة . كان من بين رعايا الدولة أرمن كاثوليك وأرمن أرثوذكس . وطبقاً للقانون كانت الدولة تعفى أبناء الأرمن الكاثوليك من ضريبة الغلمان وتطبقها على أبناء الأرمن الأرثوذكس ، مع أن الجميع رعايا الدولة ، والطائفتان من الأرمن . ثم أوغلت الدولة في الإعفاء بين أفراد المذهب الديني الواحد ، فأعفت من الضريبة أبناء المسيحيين الأرثوذكس أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية المقيمين في المدن الكبرى مثل إستانبول وأثينا وبعض الجزر مثل رودس . وترتبت على هذا الإعفاء المكافئ فروق صارخة أيضاً على غرار ما سبق .

ومن ثم كان الاختلاف بين الهيئتين ملحوظاً . فالهيئة الإسلامية تفتح أبوابها على مصاريعها للمسلمين الأحرار ، ويتقلد مناصبها ويتدرج إلى أعلاها

(١) الهيئى ، مجمع الزوائد . ج ٣ ، ص ٢٦٦ .

(٢) مستند أحمد بن حنبل . طبعة دار المعارف ، القاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٦١ عن رواية

ابن عباس .

كل فرد يَمْضِي في دراساته إلى نهاية الشوط ، وإلا فإنه يتولى الوظيفة التي يُوْهله لها مستوى ما حصل عليه من علم ، سواء كانت هذه الوظيفة في القطاع الديني أو في القطاع الإداري . أما طبقة القبول الحاكمة ، وهي في صدد تكوين قاعدتها العريضة ، فكانت تأخذ فريقاً من أبناء رعايا الدولة المسيحيين دون أبناء فريق آخر . ومعيار التطبيق العملي هو انتهاء الغلمان للمذهب الديني مسيحي معين كان يعتنقه آباؤهم ، أو لأنهم يقيمون في إقليم معين من الأقاليم التابعة للدولة العثمانية .

#### رابعاً : امتيازات الهيئتين :

أضفت الدولة العديد من الامتيازات على أفراد طبقة القبول الحاكمة . وكان من بين هذه الامتيازات الإعفاء الضريبي والإعفاء من الخضوع للقضاء العادي ، وأنشأت لهم نظاماً قضائياً خاصاً بهم ، وأصبح التعيين مقصوراً عليهم في بعض فرق الجيش وفي المناصب المدنية خارج نطاق القطاع الديني في شتى مجالاته ، فشغلوا عديد الوظائف سواء في الإدارة المركزية أو في حكومة الولايات أو في البلاط السلطاني . وتمتعوا بمركز مادي واجتماعي وأدبي مرموق . وكانت هذه الامتيازات على اختلاف أنواعها وطبيعتها ومسمياتها تشكل تعميماً للفروق الصارخة بينهم وبين أفراد الهيئة الإسلامية ، إذ انفصل أفراد طبقة القبول الحاكمة مالياً وقضائياً وضريبياً عن سائر رعايا الدولة ، الأمر الذي أوجد حقداً طبقياً على القبول من جانب سائر المجتمعات العثمانية . حقيقة اختصت الدولة أفراد الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وبخاصة الذين شغلوا منهم المناصب الكبرى ، بامتيازات . ولكن لم تكن هذه الامتيازات بمثل ذلك الحجم أو التنوع الذي ظفر به أفراد طبقة القبول الحاكمة .

#### خامساً : القبول طبقة قائمة بذاتها :

والحق أن إطلاق كلمة «طبقة» على أفراد القبول أدنى إلى الحقيقة من لفظة «هيئة» ، لأن القبول - وهم عبيد السلطان - كانوا يشكلون طبقة

خاصة قائمة بذاتها في أجهزة الحكم في الدولة العثمانية . وكانوا في ذات الوقت شريحة هامة من شرائح المجتمع العثماني ، ينتمي إليها أفراد معينون وضعت الدولة لهم مواصفات محددة تحديداً دقيقاً بحيث غلوا يشكلون طبقة مغلقة ، لا يدخلها ولا ينتمي إليها سوى الأفراد الذين جاءوا إلى الحياة مسيحيين ، ويعتقدون مذهباً دينياً مسيحياً معيناً ، هو مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ثم انتزعتهم الدولة من آبائهم وأمهاتهم ، وحولتهم إلى الإسلام ، وجعلتهم عبيداً للسلطان ، وقدمت لهم تعليماً عسكرياً ومدنياً مقروناً بدراسات دينية إسلامية ، ورسمت لهم مجالات واسعة يعملون فيها ، ورتبت لهم امتيازات طبقية . أما الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فكانت هيئة مفتوحة تتسع للمسلمين الأحرار المؤهلين علمياً لتولي مناصبها .

#### سادساً : الأخطار التي كانت تواجهها طبقة القولار :

اختلفت حياة أفراد طبقة القولار عن حياة أفراد الهيئة الإسلامية . كانت حياة القولار مهددة باستمرار . فإذا غضب السلطان على أحد منهم ، كان له الحق في أن يصادر أمواله أو أن يأمر بقتله أو بإعدامه . وتم إجراءات المصادرة أو القتل أو الإعدام دون محاكمة . ولم يكن في مقدور أحد في الدولة أن يراجع السلطان في مثل هذه الرغبات أو الأوامر التي تسلب أحداً من القولار أمواله أو حياته حتى ولو كان يشغل منصب الصدارة العظمى . أما أفراد الهيئة الإسلامية فكانوا بمنجاة ، في الأعم الأغلب ، من أمثال هذه الإجراءات ، إذ كانوا يخضعون لإجراءات قضائية مقررة طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية . وكانت المحاكم تنظر فيما يشجر بينهم من خلاف أو بينهم وبين إدارات الحكومة أو ما يقع منهم من مخالفات . وللك عايشوا في طمأنينة نسبية على أمورهم وعلى حياتهم .

#### سابعاً : مدى نفوذ كل من الهيئتين :

كانت طبقة القولار الحاكمة تملك أسباب القوة المادية التي تمثلت في الجيش والمناصب القيادية في الإدارة المركزية وفي حكومات الولايات وفي ( م - ٣٠ الدولة العثمانية )

البلاط السلطاني ، بينما كانت الهيئة الإسلامية تملك أسباب القوتين الروحية والأدبية اللتين تمثلتا في ممارسة رجال الهيئة أعمال القضاء والإفتاء والإمامة والإشراف على المساجد وإقامة الشعائر الدينية وإدارة المؤسسات الخيرية ، والتنظر على الأوقاف ثم نشاطهم في مجالات التعليم بشتى درجاته وعلى قضاها الدراسات العليا في الكليات حيث كانوا يقومون بتدريس علوم الشريعة الإسلامية وأصول الدين . ولذلك كان رجال الهيئة الإسلامية الذين مارسون هذه الاختصاصات أكثر التصاقاً برجل الشارع وأكثر تفاهماً وتعاطفاً وتجاوباً مع الأهلىن .

كان نفوذ إحدى هاتين الهيئتين ينمو ويزكو على حساب الهيئة الأخرى تبعاً لشخصية السلطان المتربع على العرش . ومع ذلك - كما سنرى في سياق هذه الدراسة المقارنة - كانت كفة الهيئة الإسلامية هي الراجحة في معظم العهود ، إن لم يكن في جميعها . وقد شهدت الدولة نماذج متنوعة من السلاطين . كانت تطنى على بعضهم الزعة الحرية تفكيراً ومنهاجاً في الحكم وأسلوباً في الحياة . فكان حكم كل منهم سلسلة متصلة الحلقات من الحروب الخارجية لا هوادة فيها ، تستهدف توسيع رقعة الدولة سواء في أوروبا أو في آسيا أو في إفريقيا ، أو في هذه القارات الثلاث معاً ، أو في الاستيلاء على جزر في البحر المتوسط كانت بمثابة قواعد عسكرية يتخذها أعداء الدولة جيوباً صليبية لهم . وينطبق هذا النوع على عدد كبير من سلاطين الفترة الأولى ، وقد حفل حكمهم بانتصارات عسكرية رائعة ، نذكر منهم على سبيل المثال السلطان محمد الفاتح . وعلى عهد هذا النوع من السلاطين كان نفوذ طبقة القولاار الحاكمة يزداد بل يشتد ، وبخاصة في القطاع العسكرى . ومع ذلك يظل نفوذ الهيئة الإسلامية قوياً ملحوظاً وبخاصة في ساحات القتال قبيل المعارك وبعد المعارك على حد سواء . وقد تكلمنا عن دورهم الخطير قبيل بداية المعارك التى كان يخوضها الجيش العثمانى . وكان لهم أيضاً دور هام بعد أن تضع الحرب أوزارها ، إذ كانوا يعكفون على تنظيم الحياة الدينية الإسلامية في ضوء مبادئ الشريعة الإسلامية في البلاد المفتوحة .

وكان هناك فريق آخر من السلاطين جمعت الدولة على عهدهم بين

الأجساد العسكرية البراقة والإنجازات الدينية الرائعة . ونذكر منهم على سبيل المثال السلطان سليم الأول . أتجه في فتوحاته وجهة شرقية إسلامية كانت جديدة بالنسبة للدولة ، فقد حارب الدولة الصفوية في بلاد فارس ودخل عاصمتها تبريز وهبط بهذه الدولة من دولة من الدرجة الأولى إلى دولة من الدرجة الثانية أو الثالثة ، ثم فتح بلاد الشام ومصر وقضى على دولة المماليك الشراكسة ، وهي انتصارات عسكرية رائعة خلدت اسم السلطان سليم الأول في تاريخ الدولة العثمانية . وساعدت هذه الانتصارات على نمو نفوذ طبقة القولار الحاكمة . ومن ناحية أخرى دخل إقليم الحجاز دخولاً سلمياً تحت السيادة العثمانية . وهو من أهم الأحداث السياسية في تاريخ العالم الإسلامي في القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي ، وأهم حدث ديني في تاريخ الدولة العثمانية ، إذ أكد زعامتها للعالم الإسلامي . فهذا الإقليم يضم مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وهما أهم الأماكن المقدسة الإسلامية على وجه الأرض . وأضاف السلطان سليم الأول وخلفاؤه إلى ألقابهم لقباً دينياً جديداً استهوى أفئدتهم ، كما ذكرنا من قبل ، وهو «حامي الحرمين الشريفين» . وضمت الدولة العثمانية أيضاً المسجد الأقصى في بيت المقدس وهو ثالث الحرمين الشريفين وأولى القبلةين ، إلى جانب مراكز الحضارة الإسلامية في القاهرة ودمشق وحلب وغيرها . وكان من نتائج هذه الانتصارات العسكرية والدينية التي تمت على يد سليم الأول أن ازداد عدد رعايا الدولة المسلمين زيادة جارية ، وبرز في الدولة الطابع الإسلامي بروزاً واضحاً قوياً . وكانت لكل هذه الإنجازات نتائجها الهامة على الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . فقد سبقت طبقة القولار الحاكمة بمراحل من حيث علو شأنها واتساع نفوذها وازدياد هيبتها . وما حدث لها على عهد السلطان سليم الأول تكرر على عهد ابنه السلطان سليمان المشرع الذي فتح عدة جهات حربية وانساح الجيش العثماني في بلاد المغرب وجاب الأسطول العثماني حوض البحر المتوسط يقضى على بعض الجيوب الصليبية ، ويبسط السيادة العثمانية على شمالي إفريقيا ما عدا مراكش ، ويفتح جهة ثالثة في الشرق الإسلامي ضد فارس وفي العراق . وقد تميز هذا السلطان بجوانب حضارية متعددة تمثلت في التشريعات التي وضعها على هدى من مبادئ

الشريعة الإسلامية؛ وظل معمولاً بها في معظم ولايات الدولة حتى أواخر القرن التاسع عشر، كما تمثلت في المنشآت الدينية المعمارية التي أقامها . وكان أهمها مسجد السلمانية والعديد من المساجد الكبرى والصغرى بالإضافة إلى معاهد تحفيظ القرآن والمدارس وتجديد بناء الكعبة الشريفة في مكة المكرمة وتجديد أسوار بيت المقدس . وكان اهتمامه بالنواحي الدينية بارزاً . وانعكس على وضع الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، فازدادت مصادرها المالية نماء وتعاضل نفوذها .

وكان هناك النوع الثالث والأخير الذي يتمثل في سلاطين ذوى ميول سلمية وتميزت عهودهم بهدوء نسبي . وينطبق هذا الحكم على الغالبية الساحقة من سلاطين الفترة الثانية . وإذا كانت الدولة على عهودهم قد خاضت حروباً خارجية، وهم لم يتولوا قيادتها في معظم الأحوال لأنهم آثروا السلامة والعزلة ، فإن هذه الحروب كان معظمها حروباً دفاعية استهدفت الحفاظ على تماسك الدولة وسلامه ممتلكاتها . وقد استمر مركز الهيئة الدينية الإسلامية على عهودهم قوياً منيعاً لم يهتز ولم يمسسه وهن من قريب أو من بعيد .

ويمكن القول بوجه عام إن نفوذ الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كان يتصاعد باطراد في كل العهود . وكان الفارق بين عهد وعهد يكمن فقط في مدى السرعة التي يزايد بها هذا النفوذ . أما طبقة القولاار الحاكمة فكانت تزايد سلطتها وقيمتها في نظر العالم الخارجي المعاصر ما بقيت عجلة الفتوح الحربية تسير بسرعة مذهلة . فلما توقفت الفتوح، ذهب البريق الذي كان يحيط بها .

أما النمو السريع لنفوذ الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فيمكن إرجاعه إلى عدة عوامل تجمعت على مر السنين . كانت لها موارد مالية ضخمة تمثلت في الأراضي الزراعية والعقارات وغيرها من الأوقاف الخيرية . وقد تكبدت هذه المصادر في أيدي الهيئة ولم تفقد منها شيئاً . وكان السلاطين أنفسهم شديدي الاهتمام برصد الأموال العامة والخاصة على الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة سواء كان الدافع لهم هو التقوى والرغبة في التقرب إلى الله ، أو نيل مزيد

من مظاهر العظمة والتباهى ابتغاء اكتساب محبة الجماهير وتقديرها . وفي ذات الوقت تنافس الأثرياء من أهل البذل على إنشاء المساجد والكتليات والمدارس والحمامات العامة والأسبلة والتكايا وغيرها ، ويوقفون عليها الأوقاف الخيرية للإنفاق من إيراداتها على هذه المرافق الدينية . ومن هذه العوامل أيضاً احتكار الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة التعليم العقلي بعيداً عن ميدان التعليم العسكري . فكان في يدها سلاح أدبي رهيب تغزو به عقول الناشئة . وكانت كل مدرسة جديدة وكل كلية شريعة تنشأ حديثاً مما يقوى أثر الهيئة الدينية الإسلامية ونفوذها في مجال تربية العقول . وكان كبار « الخوجات » يقومون بالتدريس لطوائف الغلمان في القصور السلطانية ويسدون النصائح إلى والدة السلطان ، وإلى زوجاته ، ويتولون تعليم أبنائه .

#### تأثير كل من الهيئتين في الأخرى :

كانت الهيئتان : طبقة القولاار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة تؤيدان رسالتيها وتحققان أهدافهما المرسومة لهما ، وتعتمد عليهما الدولة في مسيرتها سواء في مرحلة التوسع الإقليمي هجوماً على أعدائها أو في مرحلة الجمود الحربي دفاعاً عن أقاليمها . وكان لا مناص من أن تؤثر كل هيئة في الأخرى ، لأنهما الهيئتان الرئيسيتان في نظم الدولة ، وكانتا تشكلان معا العمود الفقري فيها .

جاء تأثير طبقة القولاار الحاكمة في الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة عن طريقين : الحرب ، وارتقاء أفرادها مناصب الحكم والإدارة من أذناها إلى أعلاها . فساندت وجود الهيئة الإسلامية ودافعت عن بقائها وقيامها ووجودها *raison d'être* وكانت هي الوسيلة أو الأداة في تنفيذ قرارات هذه الهيئة وأحكامها القضائية ، والحفاظ على الشريعة الإسلامية عملياً وعدم المساس بالمصادر المالية للهيئة الإسلامية مما كفّل السيولة النقدية قصص في نظام رتيب إلى العلماء والقضاة ورجال الإفتاء ومن إليهم ، واستطاعوا المحافظة على مستوى معيشة محترم . وانصرفوا يكرسون جهودهم وأوقاتهم إلى أداء المهام المنوطة بهم في شتى مجالات الشريعة الإسلامية وأصول الدين نظرياً وتطبيقياً .



وأثرت الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة في طبقة العبيد - القولا ر -  
إذ طبعت الهيئة الأخيرة بطابع المحافظة على القديم الذى وصل فى بعض  
الأحايين إلى الجمود . ومن المعروف أن المحافظة على القديم ومقاومة كل  
جديد كانتا من خصائص الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . فقد قام العلماء  
والمفتون ومن إليهم من أفراد هذه الهيئة الدينية الإسلامية بالتدريس للأمرء  
وغلمان القصور وغيرهم من ناحية ، أو بإصدار الفتاوى لرجال الحكم  
سواء فى الإدارة المركزية أو فى حكومات الولايات من ناحية أخرى . وبذلك  
تناولوا الجانب التعليمى والتثقيفى فى تنشئة فريق من أفراد الهيئة الحاكمة  
وفى التوجيه السياسى والدينى لرجال الحكم المركزى والحكم المحلى فى المسائل  
التي يطلب من رجال الهيئة الدينية الإسلامية إصدار الرأى فيها أو ما يسمى  
الفتاوى . ولذلك ينسب المؤرخون الجمود الذى أصاب نظم الدولة وأجهزتها  
إلى تأثير رجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وهو حكم لا يصور الحقيقة  
من جميع جوانبها . فالأتراك العثمانيون كشعب اشتهروا بالمحافظة على القديم  
والاستمسك بالتقاليد والعرف والعادات لا يغيون عن كل أولئك بديلا .  
فهم يتحملون نصيبهم غير منقوص من مسئولية الجمود الذى ران على  
أنظمة الدولة وأجهزتها فى وقت كان العالم فى أوروبا الغربية بوجه خاص  
يطور حياته ويحول نظمه فى الحكم والإدارة والعسكرية وغير ذلك تحويراً  
يواكب سنة التطور ويتمشى مع إدخال العلوم الحديثة فى شتى مجالات الحياة .  
ومن المعروف أن الموقف الثابت المتجمد الذى تلتزم به دولة ما ، هو الخطوة  
الأولى التى تؤدى بهذه الدولة إلى طريق الاضمحلال .



## الفصل السابع عشر

### مراكز القوى في الدولة (١)

#### فيالق الإنكشارية

بجانب الهيئتين الحاكمين - طبقة القولاار والهيئة الدينية الإسلامية - وجدت في الدولة مراكز قوى كان لها نفوذ واسع وخطير في دوائر الحكومة ، ووجهت شئون الدولة ، سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية ، الوجهة التي كانت تبتيها . وكان من بين هذه المراكز : الفيالق الإنكشارية في الجيش ، الحريم السلطاني ، العبيد الخصبان وروماؤهم .

#### الفيالق الإنكشارية :

نشأت الدولة العثمانية في أول أمرها إمارة غزاة . فكان الغزو العسكري هو شغلها الشاغل ابتغاء التوسع الإقليمي المرحلي . وقد سبق أن ذكرنا أن الطابع العسكري الصارم كان الخصيصة الأولى من خصائص الدولة العثمانية (١) . ولم تظهر هيئة في الدولة تمثل الاهتمام العميق الذي ظفر به الجيش العثماني بوجه خاص . فقد كانت الدولة تنظر إلى الجيش على أنه أدواتها في الفتوحات الحربية ، ووسيلتها في حكم الأقاليم التي استولت عليها ، ودرعها في الدفاع عن ممتلكاتها .

ولن نخوض في هذه الدراسة في ذكر الفرق العسكرية التي كان يتألف منها الجيش العثماني في نشأته ، أو الفرق المستحدثة التي أدخلت عليه تباعاً . ولن نتعرض لتنظيمات الجيش وقياداته والمدارس العسكرية وما إلى ذلك من موضوعات تتصل بالجيش عامة . وسيكون بحثنا في هذه الدراسة مقصوراً

---

(١) انظر في هذه الدراسة ص ٤٩ - ٥٣ .

على الفيلق الإنكشارية مع إشارة سريعة في الحواشي يقتضيها منهاج البحث إلى بعض الفرق العسكرية التي كان لها اتصال مباشر بالفيلق الإنكشارية مثل فرقة البلطجية ، وفرقة البومستنجية ، وفرقة الجبهه جيه .

كان الإنكشارية — وهم طائفة عسكرية من البيادة (١) — أى المشاة — يشكلون تنظيماً خاصاً بهم ، لهم ثكناتهم وشاراتهم ودراساتهم وامتيازاتهم . وكانوا أعز فرق الجيش نفراً ، وأقواها جنداً ، وأكثرها نفوذاً . وأفسحت الدولة لهم الطريق كي يقفروا إلى أعلى الرتب العسكرية ويتقلدوا أخطر المناصب القيادية ، العسكرية والمدنية على حد سواء ، وإذا كانت الدولة قد استفادت منهم في ساحات القتال في عصرها الذهبي ، فقد أضررت منهم في العصور التالية ، إذ نزعوا إلى حركات العصيان العسكري لتحقيق مطالب لم حيناً ، وللتدخل في السياسة العليا للدولة أحياناً متجاوزين اختصاصاتهم كحاربين محترفين . واستراحوا ل سلاح القرد يشهرونه في وجوه السلاطين والصدور العظام ومن إليهم من كبار رجال الدولة ، فيعزلون ويقتلون هؤلاء وأولئك . والأمر العجيب أنه لما دب الوهن إلى صفوفهم ، وفقدوا الكثير من كفايتهم القتالية ازدادوا شعوراً بقوتهم وأمعنوا في طغيانهم بحيث غلوا مركز قوة خطير في الدولة وشجعهم على ذلك ضعف السلاطين والصدور العظام .

#### ضريبة الغلمان :

أشرنا من قبل في هذه الدراسة إلى ضريبة آدمية فرضتها الدولة على أبناء رعاياها المسيحيين الذين يعتقدون مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية القائمة في إستانبول ، ونحولهم إلى الإسلام ، وتجري لهم جراحة الختان La Circoncision ، وتنظم لهم دراسات دينية وعامية — مدنية وعسكرية — لتتخذ منهم في نهاية المطاف أدوات إسلامية للحرب والحكم في خدمة الدولة (٢) . ويطلق على هذه الضريبة الأدمية المصطلح التاريخي

(١) البيادة كلمة فارسية معناها « حل الأقدام » وتقابلها في اللغة التركية « الهيا » بنفس المعنى .

(٢) انظر في هذه الدراسة ص ص ١٢٠ — ١٢٣ .

ديو شيرمه Deuchermé و يترجمها المؤرخون والباحثون في أوروبا  
وأمریکا The Tribute Boys أو The Tribute Children  
أى ضريبة الغلمان ، وقلنا إن الدولة كانت تقسمهم إلى ثلاث مجموعات :  
المجموعة الأولى وتعد أفرادها لشغل وظائف الغلمان في القصور السلطانية ،  
والمجموعة الثانية تعد أفرادها لشغل الوظائف المدنية الكبرى في الدولة ،  
والمجموعة الثالثة لتشكل من أفرادها فرق مشاة في الجيش العثماني . ويطلق  
على أفراد هذه المجموعة الثالثة الإنكشارية<sup>(١)</sup> ومعناها الجنود الجدد وكان  
عددهم ساحقاً جداً بالنسبة لعدد المجموعتين الأوليين .

### نشأة ضريبة الغلمان :

كان صاحب الفكرة في فرض ضريبة الغلمان المسيحيين الأرثوذكس

---

(١) كان المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب  
بجامعة القاهرة يرى أن الباحثين العرب يقومون في خطأ لغوي واضح حين يطلقون على هؤلاء  
الجنود المشاة اسم الإنكشارية ، ويرى أن الثقة في الصياغة اللفظية تتطلب استخدام اللفظ التركي  
وهو البني شرية ، وترد في بعض المراجع بنى ثشرى . واستند في رأيه إلى أن الفرنسيين استخدموا  
في لغتهم اللفظة التركية ، فأصبح مدلولها الفرنسي Les Janissaires .

والواقع أن شكل كتابة هذه الكلمة قد ساعد على تحريفها . فهي تكتب « يكتجرى »  
وتنطق « بنى ثشرى » لأن حرف الكاف في اللغة التركية القديمة كان ينطق فوئاً ، وحرف  
الجيم ينطق ثاء وشوئاً . وهذا المصطلح التاريخي مكون من مقطعين : الأول يكنى - ومعناه جديد  
أو حديث . والثاني - جرى - ومعناه جندي ، فيكون المعنى : الجنود الجدد أو السكر الجديد .  
ونحن - مع احترامنا لرأى أستاذنا الدكتور زيادة ومع تقديرنا العميق لأستاذيته الشاخصة -  
نرى أن اللفظة التركية الأصلية وهي بنى ثشرى Yéni Tchéri ، واللفظة المعربة أو اللفظة  
التي تستخدم في الكتب العربية وهي الإنكشارية قريبتان بعضهما من بعض بحيث لا يستحق الأمر  
مثل هذا التفسير الشكل الذي قد يؤدي إلى بلبلة الأفكار حول مدلول بنى ثشرى ، أو البنى شرية .  
انظر :

الحاشية التي كتبها الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة مقرونة برقم ١ ص ٤٤٥ في ترجمته  
إلى اللغة العربية لكتاب فيشر Fisher H. A. القسم الثاني : تاريخ أوروبا في المصور الوسطى .  
الناشر : دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٥٤ .

هو هاييل الأسود (١) Black Habil وزير السلطان أورخان بن عثمان (١٣٢٦-١٣٦٠) (٢)، فهو الذى حبَّب إلى هذا السلطان الفكرة وزينها له فى قلبه ، فأخذ بها أورخان . وكانت هذه الضريبة الآدمية عوناً كبيراً للدولة الناشئة على إيجاد مورد آدمى لا ينضب معينه لتجنيد فرق عسكرية كاملة من المشاة يضعون عقولهم وأجسامهم وخبراتهم فى خدمة السلطان فى ميادين القتال ابتغاء احراز انتصارات عسكرية تحقق بها الدولة مزيداً من التوسع الإقليمى سواء فى أوروبا أو فى آسيا فى ذلك الوقت ، ثم فى إفريقية منذ أوائل القرن السادس عشر . وقد وضع السلطان أورخان قانوناً خاصاً بالإنكشارية جاء فى أربع عشرة مادة تضمنت النظام الداخلى لهم ، وتنظيم علاقات أفرادها بعضهم ببعض ، كما نصت على الطاعة المطلقة والانقياد التام للسلطان (٣) .

وكانت الحكومة المركزية تقوم بترحيل الغلمان الذين لا يتحدثون اللغة التركية إلى الأناضول حيث يوضعون فى خدمة السباهية — الخيالة الإقطاعيين — فترة قد تطول وقد تقصر ، ثم ينقلون إلى إستانبول حيث يعاد اختبارهم وفرزهم ، ويلحقون بفرقة البلطة جيه (٤) أو فرقة

(١) Fisher H.A.L., A History of Europe. op. cit., p. 402.

(٢) يقرر بعض المؤرخين أن حكم أورخان امتد فقط إلى سنة ١٣٥٩ .

(٣) دكتور عبد العزيز محمد عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٣ .

(٤) البلطة جيه جمع بلطى ، وهى مشتقة من كلمة بلطة ، وهى كلمة عربية وتركى بمعنى الفأس الذى يستخدم فى قطع سيقان الأشجار وفروعها والأغصان بصفة عامة . أما معناها كصطلح تاريخى فهو فرقة عسكرية فى الجيش العثمانى تسمى « بلطى أوجاق » أى فرقة البلطية أو فرقة قاطى الأغصان . وقد أُلشئت قبل فتح القسطنطينية واستخدم أفرادها فى قطع الأشجار وتجهيز المستنقعات وتعميد الطريق أمام الجيش الزاحف ، ثم تحولوا بعد فتح القسطنطينية إلى حرس للحريم السلطانى . وكانت تضاف إلى عملهم الجديده أعمالهم الأولى حين يذهب السلطان إلى الحرب . وقسمت هذه الفرقة إلى قسمين . كان مقر أحدهما القصر القديم ، ومقر الآخر القصر الجديد . وكان أغا الخصيان يقود القسم الأول . أما القسم الثانى فكان يقوده السلحدار أغا ، أى الضابط حامل السيف . وكان يطلق على رجاله هذه العبارة : « رولوقلو بلطه جيلر » ومعناها قاطعو الأغصان ذوو السوالمف ، لأنهم كانوا يصفون ذؤابة من الشعر على جانبي وجوههم . ( رولوقلو كلمة فارسية من زولف Zolf ومعناها عصابة من الشعر تنبثق إلى أسفل ) .

البوستانجية ، أو فرقة الجبه جيه (١) ، أو السلاح البحري في إستانبول

— أنظر

Gibb Hamilton & Bowen Harold ; op. cit, Vol., 1. Part 1, p. 86.

وكلمة بلطجي شائعة الاستعمال في الوقت الحاضر في مصر وفي معظم الدول العربية وتسمى الشخص المنحرف ذا القوة العضلية الذي لا يكتثر بالخروج على القانون في سبيل تحقيق أغراضه . ويدانها في المعنى لفظة أخرى شائعة هي الزلنطى . ويضاف إلى المعاني السابقة معنى آخر هو أن الزلنطى يلجأ إلى استخدام عضلاته في ضرب الآخرين في سبيل حل مشكلاته .

(١) البوستانجية كلمة تركية مقبسة من اللفظة العربية بستان . وأطلقت على أفراد فرقة عسكرية تسمى بوستانجية أو جاقى، أى فرقة البستانين . وكان يقودها ضابط يطلق عليه «بوستانجى باقى» . وكان أحد أقوات الركاب ، أى ضباط الركاب السلطانى . وقد تكونت هذه الفرقة أول الأمر بهدف تنسيق حداثق القصر السلطانى وتحويل الأرض الخلاء المجاورة للقصر إلى حدائق ذات هجة وإلى مزارع خضراء مع استمرار العناية بها . ولم يتم هذا العمل إلا عدد قليل من أفراد هذا الأوجاق واشتغل معظمهم حراساً على المباني الملحقة بالقصر والمبشرة بجوار أراضيه ، وعلى بعض بوابات أسوار القصر ، وعلى المرافق الصغيرة الواقعة حول القرن الذهبي والبوسفور وجزة من بحر مرمره . كما كان لهم الإشراف على السفن التي كانت ترسو في تلك المرافق ، وكانوا يحملون أيضاً بمثابة شرطة محلية . وهكذا كانت اختصاصات الغالية المعطى من أفراد أوجاق البوستانجية بميدنة كل البعد عن العناية بالبساتين .

وكانت اختصاصاتهم الرئيسية تتركز في إجراءات أمن تختص بشخص السلطان وحراسة بعض المنشآت التابعة للقصر والمجاورة له ، ومراقبة السفن التي ترسو في مرافق قريبة من منطقة القصر ويكون في استطاعة هذه السفن إلحاق الضرر بمباني القصر . وقد بلغ عدد أفراد هذا الأوجاق ألفين وخمسة جئى، كان كل فرد منهم يضع فوق رأسه قلنسوة حمراء تميزه عن أفراد الفرق العسكرية الأخرى . وكان يتألف أوجاق البوستانجية من عدة وحدات تكاد تكون كل وحدة منفصلة عن غيرها داخل الأوجاق . فكانت هناك وحدة الخاصكية ، عدد أفرادها ثلاثمائة من ضباط الصف *Sous officiers* يقودهم «خاصكى باقى» أو خاصكى آغا . وكان هذا الضابط يلى في الرتبة رئيس أوجاق البوستانجية . وكان يساعد بعض كبار ضباط الأوجاق . ويشترك ستون من قوة الخاصكية في حراسة السلطان الخاصة ، كما يرافق اثنا عشر من الخاصكية السلطان في جميع تنقلاته وتحركاته بصفتهم «خبرين» ، ويطلق عليهم «تبديل خاصكية» ويرأسهم ضابط يسمى «باقى تبديل» أى رئيس الخبرين . وكانت وحدة الخاصكية تختلف من حيث طبيعتها من الوحدات الأخرى في أوجاق البوستانجية وتفرقها . ومن الوحدات الهامة في هذا الأوجاق أيضاً : الصندلجية - أى المراكبية ( الصندلجية جمع صندلجى ، وهو الرجل الذى يعمل على صندل ، والصندل سفينة تجديف من الطراز الأوروبي ) ، وكان الصندلجية يقومون بالتجديف في «دهية» السلطان ، في حين يملك رئيس أوجاق البوستانجية بالدفة . ولم يكن الصندلجية =

وغالبىولى (١) . ولكن كان مصير معظمهم الانحراط فى سلك الفيالق الإنكشارية .

وجدير بالذكر أن هذه الفيالق لم يكن جميع أفرادها من حصيلة ضريبة الغلمان فقط كما يتبادر إلى أذهان الكثيرين ، بل كانت تضم بين صفوفها مجموعات صغيرة العدد من أولاد أسروا فى الحرب أو اشتروا بالمال (٢) .

== يقومون بالتجديف فى سفن السلطان فحسب ، بل كانوا يجندون أيضاً فى مراكب كبار ضباط القصر السلطانى . وكانت هناك وحدة تسمى « البامية جيه » نسبة إلى خضار البامية لأنهم كانوا يقومون بتجديفهم العسكرية قرب آماسية فى منطقة كانت تزرع فيها البامية بكثرة . وكانت هذه الوحدة تقوم بحراسة قصر ستان باشا الملحق بالقصر السلطانى . وكانت هناك وحدة أخرى تسمى « الطوب قابى » أى بوابة المنفع ويمهد إليها بمنع الأشخاص غير المرغوب فيهم من دخول فناء القصر بالرسو من ناحية البحر . هذا إلى عدد كبير جداً من الوحدات العسكرية تابعة لهذا الأوجاق . وكان البوستاجى باقى يتمتع فى القصر بنفوذ واسع لم يظفر به أحد من زملائه ضباط الركاب السلطانى . وكان مرد هذا النفوذ إلى سببين: أولها أنه كان يرأس أكثر من ألفى رجل يقومون بأعمال شتى ومتشعبة وحساسة تحت إشرافه ، وثالثها أن التحقيقات مع الموظفين المدنيين كانت تتم تحت إشرافه ، وكان ينرف على إجراءات تنفيذ أحكام الإعدام التى كانت تصدر على من تثبت إدانته منهم .

انظر كلا من :

D' Ohsson Ignatius Mouradzea ; op. cit., V.VII, pp 27.—30L ybyer A.H., op. cit., p. 131, fn. 2.

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol 1. Part 1. pp. 350-352.

أما الجيه جيه فهم صائمو الأسلحة ( جيه معناها درع ) ، وكان من اختصاص هذا الأوجاق إنتاج وإصلاح الأسلحة واللخائر للجنود المشاة . وكان من واجبات هذا الأوجاق حراسة وسائل نقل الجيش والمخازن فى أثناء الحرب . وكان السلطان محمد الثانى هو أول من أنشأ هذا الأوجاق . وكان تعداده أول الأمر سبالة جنتى تحت إمرة ضابط يطلق عليه «جيه جى باقى» .

(١) كانت غالبىولى قاعدة البحرية العثمانية ، ثم اتخذت الحكومة فى سنة ١٥١٦ من إستانبول مقراً للبحرية الرئيسية ، وأنشأت مصانع بحرية جديدة فى بقعة تسمى قاسم باشا من ضاحية جالاطه على القرن الذهبى ، وتعرف منذ ذلك الوقت باسم «ترسانة بوغازى» أى بوغاز دار الصناعات البحرية ، أو بوغاز البحرية .

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, (٢)  
Part 1, pp. 59-60.

### مواعيد جمع الغلمان :

اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً حول تحديد مواعيد جمع الغلمان ، فيقرر بعضهم أنهم كانوا يجمعون مرة واحدة كل أربع سنوات . ويقول البعض الآخر إن هذه الفترة لم تكن ثابتة . ففي بعض الأحيان كانت عملية جمع الأبناء المسيحيين تحدث مرة كل خمس سنوات (١) ، وفي أحيان أخرى كانت هذه العملية تتم مرة كل سبعة أعوام (٢) . بينما يذكر المستشرق الألماني بروكلمان أن هذه الضريبة الآدمية كانت تجمع أول الأمر كل خمس سنوات ثم أصبحت تجمع سنوياً (٣) . والشق الأخير من هذا الرأي أدنى إلى الحقيقة ، إذ كانت الدولة في معظم الأوقات في صراع حربي عنيف ضد بعض الدول الأوروبية . وقد اتخذ هذا الصراع طابع التكتلات المسيحية والحروب الصليبية . وكانت الحرب تهادأ في جبهة لتشتعل أعنف ما تكون في جهات أخرى مما جعل الدولة العثمانية في حاجة مستمرة إلى تعزيز الجيش بخوض به المعارك في أوروبا فضلاً عن الجبهات التي فتحتها في آسيا لمحاربة الدولة الصفوية ، ثم فتح بلاد الشام والعراق واليمن وغيرها ، أو في إفريقيا : في مصر وشمال إفريقيا انبثاقاً من سياستها العليا في التوسع الإقليمي المرحل .

### رعايا الدولة الذين طبقت عليهم ضريبة الغلمان :

كان فرض ضريبة الغلمان مقصوداً - كما سبق أن ذكرنا - على رعايا الدولة المسيحيين الذين يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ولذلك أعفى منها اليهود وكذلك الأرمن الكاثوليك بحكم القانون . أما الأرمن الأرثوذكس وهم الذين يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، فقد طبقت عليهم ضريبة الغلمان . كما أعفى من هذه الضريبة الآدمية سكان بعض المدن الكبرى مثل : إستانبول وأثينا وجزيرة رودس وبعض جزر أخرى . وفيما عدا ذلك طبقها

Lavisse et Rambaud ; op. cit., Vol IV, ip. 857.

(١)

سير أدولف توماس ( سير ) : الدعوة إلى الإسلام . تعريب دكتور حسن إبراهيم وزميله . ص ١٧٥ حاشية رقم ٢ .

Lybyer A.H. ; op. cit., pp. 51—53.

(٢) انظر كلا من :

D'Ohsson Ignatius Mouradgea ; op. cit., Vol VII. p. 310 ff.

(٣) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، ج ٣ ، مرجع سبق ذكره ،

ص ٨٤ .



الدولة تطبيقاً صارماً في شبه جزيرة البلقان والمجر والساحل الغربي لآسيا الصغرى والسواحل الشرقية والجنوبية للبحر الأسود . ولكن كان أقوى المجتدين وأقدرهم على الخطة يجلبون من المناطق الجبلية التي تقطنها الطوائف المسيحية في ألبانيا والجبل الأسود والشعوب السلافية أى الصقالية في جنوبي أوروبا (١) . وبعبارة أخرى شملت ضريبة الغلمان اليونانيين والأصرب والبلغار وسكان كرواتيا وأهل المجر والألبانيين والأرمن الأرثوذكس وغيرهم .

### معيشة الإنكشارية :

كانت الدولة تحرص حرصاً بالغاً على منع اتصال الإنكشارية بأقربائهم . وتفرض عليهم في وقت السلم أن يعيشوا كلية في الثكنات (٢) . وخصصت الدولة للإنكشارية الذين يربطون في إستانبول ثكنتين ، كانت تسمى الثكنة الأولى «آسكى أوطه لره» أى الفرقة القديمة . وتسمى الثكنة الثانية «ينى أوطه لره» أى الفرقة الجديدة أو الحديثة . ولم تكن هاتان الثكنتان تحتويان فقط على أماكن النوم لضباط وجنود الإنكشارية ، بل كانتا تضمّان مطابخ ومخازن (٣) للأسلحة والدخائر وكافة الحاجيات المدنية لهم .

وخصصت الدولة لكل أورطة (٤) من الإنكشارية شارة توضع على أبواب ثكنتها وعلى أعلامها وعلى خيامها التي كانت تقام في ساحة القتال . وكانت خياماً مستديرة واسعة . وكانت هذه الشارات إما سمكة ، وإما مفتاحاً ، وإما خطافاً «هلباً» ، وإما هراة ذات طرف مدبب . وجرت عادة الإنكشارية على نقش الشارة المميزة لهم على أذرعهم وسيقانهم مستخدمين طريقة الوشم (٥) . وكانت ترقيات الإنكشارية تم طبقاً لقواعد الألقمية . وكانت الدولة تسرح

(١) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 34, pp. 51—52.

(٢) كانت الثكنة تسمى أوطه أى غرفة . وتسمى في اللغة التركية القديمة أوتاغ .

(٣) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. I Part, I, p. 62.

(٤) الأورطة وحدة حرية يتفاوت عدد أفرادها تبعاً للظروف ، فكان يتراوح عديم بين مائة جندي وخمسةائة جندي وثلاثة آلاف جندي .

(٥) كان الإنكشارية يفرزون رسم الشارة على أجسامهم بإبرة ، ثم يصبون على هذا الرسم مادة مينة تسمى النيلج . فيأخذ رسم الشارة لوناً أخضر ثابتاً لا يمحوه كزمان .

الذين يتقدم بهم السن أو تصيبهم عامة تقاعدهم عن العمل . وفي كلتا الحالتين كانت الدولة تقرر لهم معاشاً ، ويعرفون باسم «أونوراق» . وقد خصت الدولة الطوائف الإنكشارية بعدة امتيازات (١) ، منها : منحهم حصانة تمنع القبض عليهم أو قيام السلطات المدنية بتوقيع العقوبات عليهم . وكان ضباط الإنكشارية دون سواهم يقومون بتنفيذ العقوبات التي يحكم بها عليهم . وكانت العقوبات تتفاوت بين الجلد والسجن والخصاء والإعدام . وكانت عقوبة الخصاص توقع على الإنكشارى إذا اعتاد الإجرام أو تعددت حوادث خروجه على قواعد الانضباط العسكرية . فيأمر « بنى شريه أغاسى » ، أى رئيس الإنكشارية ، بإجراء عملية الخصاص الجزئى أو عملية الخصاص الكلى له . ويفقد الإنكشارى رجولته ويأحق بالخدمة الداخلية فى القصر السلطانى . وسنعرض لهذا الموضوع فى الفصل الثانى والعشرين . أما الإعدام فكان ينفذ سراً فى ظلمة الليل فى روملى حصار . وكانت تصدر الأوامر إلى سلاح الطوبجية - أى المدفعية - بإطلاق طلقة واحدة من مدفع إيداناً بتنفيذ الحكم . فإذا تم التنفيذ رميت جثة الإنكشارى بعد أن تشد إلى القديمين جلة من الحديد . وكان الإنكشارية يتقاضون مرتبات من خزانة السلطان . ولهذا السبب الأخير كان يطلق عليهم «قبوقولارى» (٢) ، وهو اسم عام كان تدرج تحته القوات العسكرية التى تتقاضى مرتبات تمييزاً لها عن القوات الإقطاعية Feudal Forces التى كانت الدولة تعطى أفرادها أراض زراعية يقومون باستغلالها فى مقابل اشتراكهم فى حروب الدولة دون أن تدفع لهم مرتبات .

### تحريم الزواج على الإنكشارية ونتائجه :

وكان يحرم على الإنكشارية الزواج . فكان الفرد منهم يعيش دون أمل فى أن تكون له زوجة أو بنون أو بنات أو حفدة . فالإسلام عقيدته ، والقرآن الكريم كتابه المقدس ، والسلطان العثمانى والده ، والثكنة العسكرية مأواه ،

(١) Lavisso et Rambaud ; op. cit. , Tome IV, pp. 759-760.

(٢) قبر أو قابى لفظة تركية معناها باب أو بوابة . قول بمعنى عبد . وهذا المصطلح له عدة مدلولات ، منها : كل شخص فى وضع العبيد يقوم على خدمة السلطان .

والحرب مهنته ، والفوز بإحدى الحسينين مأربه . وكان الإنكشارى ينظر إلى أعداء الدولة على أنهم أعداء الله ، وليس أمامه إلا أن يمضى فى قتالهم ، فلما أن ينتصر عليهم انتصاراً ساحقاً ، ولما أن يفوز بالجنة إذا استشهد فى الحرب . ولذلك كان يخوض المعارك بروح دينية إسلامية عالية ، ملوئها حماس متأجج وتعصب ركيز (١) . وكما حرم السلاطين على الإنكشارية الزواج حرّموا عليهم أيضاً تحريماً تاماً الاشتغال فى التجارة أو الصناعة خشية أن تحبوا عسكريتهم الصارمة وأن يتحولوا إلى أهل حرف (٢) . ويقول أحد المؤرخين الإنجليز إن الإنكشارية كانوا أول جيش ثابت نظامى عرفته أوروبا منذ العصور الرومانية (٣) .

### العلاقات الوطيدة بين الإنكشارية والطريقة البكتاشية :

يردد فريق من المؤرخين والباحثين رواية تقول إن السلطان أورخان قد حصل على موافقة حاجى بكتاشى — الحاج بكتاشى — شيخ الطريقة الصوفية البكتاشية على مشروعه ، وهو جمع الغلمان المسيحيين ثم تحويلهم إلى الإسلام وإعداد دراسات عقلية وتدريبات عسكرية تجعل منهم فى نهاية المطاف رجال حرب أو حكم يتولون المناصب القيادية فى الجيش أو فى القصور السلطانية أو فى سائر أجهزة الحكم والإدارة . وقال هذا الفريق من المؤرخين والباحثين للتدليل على صحة تلك الرواية أن الحاج بكتاشى قد بارك الرواد الأوائل من الإنكشارية بوضع كم ردائه فوق رءوسهم . وبسبب هذه المباركة وقع اختيارهم على غطاء غريب الشكل لرءوسهم ، كان عبارة عن قلنسوة من الصوف الأبيض تتدل من خلفها قطعة طويلة من القماش أسطوانية الشكل هى رمز للبركة التى منحها الحاج بكتاشى لهم . وفى الصور التى رسمت لغطاء رءوس الإنكشارية يظهر هذا الغطاء واضحاً .

Fisher H.A.L. ; op. cit., p. 402.

(١)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. I, Part. (٢)

I., p. 64.

Grant A. J.; A History of Europe 1494—1610., being Vol. (٣)

V. of " Methuen's History of Medieval and Modern Europe ". Eleventh edition, 1967., p. 212.

وهناك فريق آخر من المؤرخين والباحثين يتشككون في صحة تلك الرواية بل ينفونها نفيًا باتًا تأسيساً على أن الحاج بكتاش كان قد جاز إلى ربه قبل إنشاء أوجاق الإنكشارية بقرن من الزمان (١). ولن نخوض في دراسة مقارنة بين هذين الرأيين المتعارضين أشد التعارض ، لأنها خارجة عن نطاق البحث . ولكن الثابت تاريخياً — وهو ما يهمنا في المقام الأول في هذه الدراسة — أن الإنكشارية كانوا ملتصقين التصاقاً قوياً بالطريقة البكتاشية ، ويظهرون نحو شيوعها طاعة تامة وصلت إلى حد الولاء العميق ، ولذلك كان يطلق على الإنكشارية أحياناً « عسكري بكتاشية » ، أى الجنود البكتاشية ، وأحياناً ثانية « بكتاشية أوجاق » ، أى أوجاق البكتاشية ، وأحياناً ثالثة « حاجي بكتاش أوغلري » ، أى أبناء الحاج بكتاش (٢) . والواقع أن الأهمية السياسية التي اكتسبتها الطريقة البكتاشية إنما ترجع إلى ارتباطها الوثيق بالإنكشارية الذين كانوا ينظرون إلى شيوخ هذه الطريقة بمثابة أئمة لهم (٣) .

وبعض الأيام ازدادت العلاقات توتراً بين فيالق الإنكشارية وشيوخ وأتباع الطريقة البكتاشية . ومن العوامل التي ساعدت على هذا الارتباط الوثيق بين الطائفتين كثرة عدد تلاميذ البكتاشية وانتشارها في طول البلاد وعرضها . وكانت تطلق على شيخ كل تكية بكتاشية كدبة « بابا » ، وعلى الدرويش لفظة « مريد » ، وعلى الملتحق بالتكية لقب « منتسب » . وفي أواخر القرن السادس عشر ، وعلى وجه التحديد سنة ١٥٩١ مفتح ثمانية من البكتاشية أن يقيموا في أحد حناجر فرقة إنكشارية كانت تسكن في الثكنات الجديدة في إستانبول وهي الفرقة التاسعة والتسعون . وكان رئيس هؤلاء

(١) Kopruluzade (Koprulo) Mehemed Fuad : Les Origines du Bektachisme. Paris. 1926, p. 21.

(٢) Tschudi ; Encyc. of Islam. Art. Bektash. (٢)

(٣) عن علاقات الإنكشارية بأتباع الطريقة البكتاشية انظر :

Hasluck F.W.; Christianity and Islam under the Sultans. 2 vols. Oxford, 1929, pp. 483-493.

الدراويش يعتبر وكيلًا لشيخ الطريقة البكتاشية. وكان هؤلاء البكتاشية يتناولون طعامهم في هذا العنبر ، ويعكفون على الصلاة ، وتلاوة القرآن الكريم ، ويدعون الله أن ينصر القوات العثمانية المسلحة ، وأن يجعل الدولة العثمانية مهية منية من كل غزو تتعرض له (١) . وكان هؤلاء الدراويش البكتاشية يسرون في المواكب الرسمية أمام آغا الإنكشارية مرتدين الملابس الخضراء ، وينادى رئيسهم بأعلى صوته : « كريم الله » أى « الله كريم » ، فيرد عليه بقرية البكتاشية في صوت واحد جهير « هو » أى أن الله سبحانه وتعالى موجود . ولهذا أطلق على هؤلاء الدراويش « هوكشان » Hu-kochan — ومعناها الصائحون بلفظة « هو » (٢) .

ومن دلائل التصاق الإنكشارية بالطريقة البكتاشية أن أتباع هذه الطريقة كانوا يقفون إلى جانب الإنكشارية في أثناء حركات العصيان السكرى التى كانت تقوم بها الفياق الإنكشارية ضد السلطان والحكومة المركزية ، بل كانوا يشتركون فيها . كما أن السلطان محمود الثانى حين عصفت بالفياق الإنكشارية أطاح أيضاً بالطريقة البكتاشية فأمر بإلغائها وإغلاق تكاياها ، كما سنوضح فى الفصل التاسع عشر .

### مركز رئيس الإنكشارية :

كان رئيس الإنكشارية — ويطلق عليه آغا الإنكشارية أو المصطلح التركى بـ شرية آغاسى — من أبرز الشخصيات فى الدولة العثمانية ، إذ كانت القوات العسكرية التى تحت قيادته تعد أقوى أداة عسكرية رهية فى سلاح المشاة تحت تصرف السلطان . كما أنه بحكم منصبه كان يشغل وظيفتين أخريين ، فهو رئيس قوات الشرطة فى إستانبول ، وهو فى ذات الوقت عضو فى مجلس الدولة ، وإن كانت مثل هذه العضوية لا تعد وظيفة بالمعنى العام الذى

(١) Gibb Hamilton (Sir) and Bowen Harold ; op. cit. Vol. 1

Part 1, p. 65.

Part 2 p. 193.

(٢) D'Ohsson Ignatius Mouradgæ, op. cit., t. IV, p. 673,

et t. VII, P. 325.

يتبادر إلى الذهن . وكان رئيس الإنكشارية - بحكم منصبه كقائد لقوات الشرطة (١) - يعتبر مسؤولاً عن حفظ النظام وتوفير أسباب الأمن وحماية الأملاك في معظم جهات العاصمة ، ولم يكن يخرج عن اختصاصه سوى القصر السلطاني والمنطقة المحيطة به . والضواحي الثلاث للعاصمة وهي : أيوب ، غلطة ، إشتودرة .

وطبقاً للبروتوكول العثماني كان رئيس الإنكشارية في درجة وزير ، فكان يتقدم على كل من تمثل مرتبته عن مرتبة وزير ، وكان يتقدم أيضاً على جميع القادة العسكريين أيّاً كانوا فيما عدا أيام الأعياد ، فكانت الأسبعية عليه لقادة فرق السباهية وبولوكات السلحدار ، لأن هذين السلاحين أقدم عهداً من سلاح الإنكشارية .

وكان لرئيس الإنكشارية مقر خاص في عاصمة الدولة ومكاتب في الجهات التي تعمل الفرقة فيها . وكان يتبعه على الدوام ضابط أركان حرب يحمل الزنقة . ويتمتع هذا القائد في ميدان القتال علم أبيض يعلوه ثلاثة أطواخ (٢) ، ثم يتبعه الإنكشارية وقد رفعوا أذيال ملابسهم وربطوها بأحزمتهم .

وكان السلطان يختار رئيس الإنكشارية من بين ضباط هذا السلاح . وظل هذا التقليد متبعاً حتى حكم السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠-١٥٦٦) فأراد أن يحد من جبروت أفراد هذا السلاح وطفليانهم وعصيانهم ، فأدخل تعديلاً جوهرياً على نظام الاختيار تقرر بمقتضاه أن يتم اختيار رئيس الإنكشارية من بين كبار ضباط القصر السلطاني .

---

(١) يلاحظ أنه لم تكن توجد قوات شرطة مستقلة سواء في العاصمة أو في الولايات . وعلى ذلك فإن المهام التي يجب أن تكون من اختصاص قوات الشرطة كانت تقوم بها وقت السلم فرق من الإنكشارية . أما المنطقة التي تقع تحت إشراف الأغا فكانت تقوم فرق موضوعة في العاصمة بهذه المهام . وفي وقت الحرب كانت هذه الفرق تنسحب إلى ساحات القتال وتحمل معها قوات من الميكي أوغلان .

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, Part I, p. 66

(٢) سبق أن مررنا مدلول هذا المصطلح . انظر ص ص ٣٦٤-٣٦٥ في هذه الدراسة .

### ويؤلف العائلات المسيحية من ضريبة الغلمان :

لم ترحب معنهم العائلات المسيحية بضريبة الغلمان ، بل عارضتها من حيث المبدأ ، ولجأ دمد من هذه الأسر إلى بعض الوسائل للترب من أداء هذه الضريبة البشرية . فعمدت إلى تزويج الأولاد الذين بلغوا الحلم كى تحول دون انتزاعهم من ذويهم . وكان القانون يمنع أخذ الأولاد المتزوجين . وإذا كانت الأسرة على حظ موفور من الثراء ، فلنما كانت تقام رشوة لمنسوب الحكومة المركزية المنوط به جمع الغلمان . وقد وجد هؤلاء المنسوبون فى هذه الرشا وسيلة لجمع الثروات بطريق غير مشروع . ولكنه كان يحتم مصالح متبادلة بين المنسوب الحكومى والأسرة المسيحية .

وبع ذلك فإن بعض المؤرخين يقدرون أن غالبية الآباء كانوا يرجون بتقديم أولادهم ، ونظروا إلى العملية كلها بجميع جزئياتها ومراحلها على أنها امتياز لهم أكثر منها عبئاً نفسياً ثقيلاً . ويؤكدون هذا الرأى بقولهم إن العائلات المسلمة كانت تطلب إلى الأسر المسيحية أن تقدم أولادها المسلمين إلى مندوب الحكومة المركزية على أنهم مسيحيون بدلا من أولاد هذه الأسر المسيحية . وكذلك عمل اليهود على حشد أولادهم ضمن حصية ضريبة الغلمان على أنهم مسيحيون (١) . وبذلك تسرى ، فى غفلة من الحكومة ، على أولاد المسلمين واليهود الامتيازات التى كانت تفادى إغداقاً على أبناء الأسر المسيحية (٢) . ويذكر بروكلمان المستشرق الألماني فى هذا الصدد : « كان فى المستعبل اللامع الذى ينتظر الإنكشارية ما يخفف كثيراً من صرامة هذه الضريبة . والواقع أنه استثار حسد الأتراك (٣) أنفسهم ، فكانوا يسعون ، فى أحوال

---

(١) Christian parents had sometimes bought off their sons from conscription; Moslem, Jewish, and Gypsy youths had been substituted for Christian.

See

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 180

Lybyer A.H.; op. cit., p. 54.

(٢)

(٣) كان هذا المستشرق يعصد بلفظة الأتراك العثمانيين المسلمين الذين جاؤوا إلى الحياة

من آباء مسلمين أحرار .

كثيرة ، إلى دس أبنائهم في صفوف الغلمان من النصارى « (١) . ولكن كانت الحكومة المركزية توقع عقوبات قاسية على مرتكبي حوادث الغش والزيور والرشا حين تكتشفها ، كما أن هذه المساوىء - إذا مضت دون كشف أمرها - لم تقض على الكفاية القتالية للقيالى الإنكشارية (٢) .

والحقيقة التى لا مرأى فيها أن المعارضة الحقيقية لضريبة الغلمان كانت تكن في الامتلات المسيحية التى كانت الداطنة الدينية تسيطر عليها سيطرة جياذة . فقد كرهت أمثال هذه الامتلات أن يرثد أولادها عن المسيحية وأن يتحولوا إلى الإسلام مهما كان المستقبل أمام هؤلاء الغلمان زاهراً ومبشراً بمجد ورفعة وثراء . فالعاطفة الدينية عند هذه الامتلات كانت من القوة بحيث تبخرت أمامها مغريات الحياة المادية . وجدير بالذكر أن المؤرخين والباحثين الأوروبيين وغير المسلمين عموماً والذين لا يزالون إلى اليوم يهاجمون ضريبة الغلمان في الدواة العثمانية إنما تثبت حملاتهم عليها من الدافع الدينى . كما أن الكراهية الشديدة التى كان ولا يزال يشعر بها الأوروبيون نحو الأتراك العثمانيين كان من بين بواعثها ضريبة الغلمان .

### آراء المؤرخين في ضريبة الغلمان :

اختلفت آراء المؤرخين والباحثين حول ضريبة الغلمان ، فبعضهم هاجمها هجوماً عنيفاً ، والبعض الآخر دافع عنها من حيث المبدأ . وقد أقام الفريق الأول من أولئك المؤرخين والباحثين معارضتهم على ركيزتين . كانت الركيزة الأولى العواطف الإنسانية ، فصوروا الآلام النفسية المبرحة التى كان يشن منها الوالدان وبخاصة الأم التكللى عند انتزاع والدما منها ، وكيف كانت تلذف الدموع غزيرة ، وصوروا هذه اللحظات بأنها أقسى اللحظات التى تمر بها أم في حياتها . ووصفوا ضريبة الغلمان بأنها تمثل أبشع أنواع

---

(١) بروكلمان كارل . الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ،



الظلم والقسوة وافتقار الرحمة من قلوب البشر ، وأنها اعتداء سافر على حرية الفرد وعلى حق الآباء على أبنائهم الصغار ، وقرروا أن هذه الضريبة تنزع من الإنسان أعز ما يملك في حياته ، لأنها ضريبة اللحم الإنساني يفرضها متصصر على قوم شاء سوء حظهم أن تلقى الحكومة المسيحية التي كانت تحكمهم هزيمة عسكرية على يد الأتراك العثمانيين ، ويدفع الشعب ثمن هذه الهزيمة في صورة تنافى مع الأخلاق والمبادئ الإنسانية . ويخلص أولئك الباحثون إلى أن الأتراك العثمانيين قد سلبوا أقوى العناصر من الشعوب المسيحية التي دانت لحكمهم . أما الركيزة الثانية التي أقام عليها خصوم ضريبة الغلمان اعترضهم فكانت لإكراه الغلمان على الارتداد عن المسيحية واعتناق الإسلام . وقالوا إن هذا الإكراه يتنافى مع حرية الفرد في اختيار عقيدته .

أما الفريق الآخر من المؤرخين والباحثين الذين دافعوا عن ضريبة الغلمان من حيث المبدأ فقد استندوا إلى أن الحروب التي خاضها الأتراك العثمانيون في الأقاليم التي فتحوها قد نشرت الخراب والدمار فيها . واستهدف عدد كبير من العائلات المسيحية إلى خطر الملاك جوعاً . وكان معظم الأطفال المسيحيين الذين أخذتهم الدولة العثمانية قد فقدوا آباءهم . ولولا أخذ الحكومة لهم لتعرضوا للهلاك أو الانحراف . كما أن عادة بيع المسيحيين أرقاء كانت معروفة ومنتشرة . فلم تكن ضريبة الغلمان بالشئ الجديد على المجتمعات المسيحية الأوروبية في تلك القرون . بل إن بعض الباحثين يذهبون في هذا الصدد إلى القول بأن هذه العادة لم تكن إلا استمراراً لحالة مماثلة كانت قائمة في ظل الدولة البيزنطية التي سقطت على يد الأتراك العثمانيين بفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ .

### أستاذ أمريكي يدافع عن ضريبة الغلمان :

يقول الأستاذ الأمريكي ليبر Lybyer تعليقا على ضريبة الغلمان . بمجموعاتها الثلاث إنه ربما لم تحدث على وجه الأرض تجربة أكثر جراحة وأوسع نطاقاً مثل التجربة التي أقدم عليها العثمانيون ، فليس لهذه التجربة نظير سوى في جمهورية أفلاطون من الداحة النظرية وفي دولتي الممالك

البحرية والشراسة في مصر من الناحية العملية ، ولكن لا يلبث هذا الأستاذ الأمريكي أن يقيد أوجه الشبه ، فيقول إن نظام جمهورية أفلاطون يشترط أن تكون الفزة الحاكمة مقصورة على الأرستقراطية الهيلينية ، كما أن التجربة العمانية عثرت أكثر مما عثرت تجربة الماليك بعد أن أزال العثمانيون دولة الماليك الشراكية . ويمضى الأستاذ ليبر في تعليقه على ضريبة الغلдан فيقول إن نظامها كان لا يعترف بالفروق الاجتماعية . فالدواة تجمع أبناء رعاياها المسيحيين من الريف ، والغالية الساحقة منهم يعملون في فلاحه الأرض ورعى الأغنام ، وفيهم الفقراء الذين لم قدم راحة في محالفة الفقر ومزاملته حتى الصق بهم الفقر والتصقرا به ، وأصبحوا هم جزءاً لا يتجزأ من حياة البؤس والفاقة والحرمان ، وإذا بأولاد هؤلاء المعدنين في الأرض قد بلغوا بعض الأيام أرقى المناصب : صدوراً عظاماً ، ووزراء ، وقادة عسكريين ، وحكاماً ، في دولة إسلامية مترامية الأطراف في القارات الثلاث التي كانت تشكل العالم القديم وقتذاك .

ويدلل الأستاذ الأمريكي على ديمقراطية النظام العثماني في ضريبة الغلدان بقوله إن شعب الولايات المتحدة الأمريكية قد يفخر بأن رجالاً وصلوا إلى كرسي رئاسة الجمهورية وكانوا في مستهل حياتهم يؤدون أعمالاً متواضعة ومضنية في الغابات المهجورة البعيدة عن العمران . ولكن أمثال هؤلاء الرجال قد بلغوا منصب رئيس الجمهورية بفضل مجهودهم ، وليس بفضل الترقى وفق نظام وضع بعناية ليدفع بهم إلى مدارج الرقى ، ويؤكد هذا المبنى مرة أخرى فيقول إن الكنيسة الكاثوليكية قد تفخر بأن بعض الباباوات كانوا في مطلع حياتهم فلاحين ، ولكن من الثابت أن اختيار الكنيسة لم يقع على أحد ينحدر من أسرة كانت تمتاز دينياً مخالفاً للمسيحية أو تدين بمذهب مخالف للمذهب الكاثوليكي . أما الدولة العثمانية فعلى النقيض من ذلك كله ، أخذت غلماناً كانوا ينتمون انتماء مباشراً إلى عائلات مسيحية . وقد حملت هذه العائلات أسماء مسيحية أجيالاً وأعصراً وأدهاراً . وأخذت الدواة بأبدى أطفال هذه العائلات وفحت أمامهم الأبواب على مصاريعها وجعلت من بعضهم جنوداً في الجيش يصلون إلى أعلى المناصب العسكرية ، وجعلت من البعض

الآخر رجالاً يشتغلون في البلاط العثماني ووزراء ، ولم يحدث أن وجهت الدواة سؤالاً إلى أحد من هؤلاء الأطفال تستفسر منه عن اسم والده أو الحرمة التي كان يزاولها أبوه ، بل كانت الدواة تقول له إن اختيارها قد وقع عليه ليكون جندياً بأسلاً في جيش السلطان ، وإذا أثبت كفاية عسكرية فإنه سيبلغ أعلى الرتب العسكرية وأرقى المناصب القيادية في القوات المسلحة . ويتولى الدواة لطفل آخر وهو ينلق تدريبه المادني والعسكري إنه سيعمل في البلاط السلطاني . وإذا أظهر متانة فإنه سيكون والياً في إحدى الولايات أو وزيراً أو صديقاً أعظم . ويمثل هذا النظام - في نظر الأستاذ الأمريكي - الديمقراطية بأجل معانيها ، كما أنه ينطوي على إفساح الطريق أمام الكفايات فتنبأ مكاناً علياً بعد أن كان متدرباً لها أن تعيش مغدورة وتقمضي حياة يحف بها البؤس من يمين وشمال (١) .

### تقديم ضريبة القليان :

إن تلك الآراء التي بسطها الفريتمان المتعاضدان من المؤرخين والباحثين ليست إلا آراء اجتهادية لا تعدو أن تكون تبريراً لموقفهم من ضريبة آدمية فرضتها الدواة على قليان مسيحيين ، ولكن هناك رأى واحد يمكن أن نسوقه هنا تفسيراً لهذه الضريبة يجتنب جميع الآراء التي سبق عرضها تأييداً أو اعتراضاً على ضريبة القليان . إن هذه الضريبة ليست إلا صورة من صور التجنيد العسكري الذي تباشره الحكومات في كافة الدول النامية والمتقدمة على حد سواء لسد حاجة القوات المسلحة من الرجال مع وجود عدة فروق هامة ، نذكر من بينها :

أولاً : إن الشاب المخذ يتخضع فترة التجنيد لمدة زمنية محددة ، وقد تطول وقد تقصر تبعاً للظروف السياسية والعسكرية التي تجتازها الدواة ،

Lybyer A.H.; op. cit., pp. 45-47.

(١)

ولمعلومات أوفى انظر في هذا المرحع الفصل الثاني بعنوان :

The Ottoman Ruling Institution : as a Slave-Family. General Description, pp. 45-61.

بل إن بعض الدول كانت تستبقي الجندي في سلك الجيش حتى يتقضى نحبه سواء حثف أنفه أو في ساحات الوغى . أما الدولة العثمانية فبدلاً من أن تنتظر الغلام حتى يبلغ أشده ويصبح في عنفوان شبابه لتجنده ، نجد أنها تأخذه وهو في سن مبكرة لتدريبه التدريب الذى يتشبه مع استعداداته القتالية والجسمانية تمهيداً لتعيينه في وظائف السلك العسكرى أو السلك المدنى ، ويظل في خدمة الدولة طوال حياته .

ثانياً : إن الجندي في الدول الأخرى لا يبلغ عند وفاته أو عند تسريحه من الجيش رتبة من الرتب العسكرية الكبيرة . بينما كان الغلام الذى تأخذه الدولة العثمانية يصل إلى أعلى الرتب العسكرية والمناصب القيادية في الجيش أو البلاط السلطاني أو المصدرة العظمى - رئاسة الوزارة - أو كرسى الوزارة أو الوظائف الإدارية المدنية ذات المستوى العالى . وعلى ذلك فإذا كانت الدولة العثمانية تأخذ الأطفال المسيحيين وهم في سن غضة ، فإن مسنة بلا زاهر أكان ينتظرهم في قابل الأيام ويظلون ينعمون به مدى الحياة .

ثالثاً : إن الجندي في الدول الأخرى كان لا يطلب منه في الأعم الأغلب تغيير عقيدته الدينية أو مذهبه الدينى . أما في الدولة العثمانية فكان يتم تحويل الغلمان إلى الدين الإسلامى ، لأن هذه الدولة كانت تلتزم في معظم الأوقات التزاماً صارماً بتطبيق مبدأ عام هو عدم إشراك غير المسلمين في الجيش الذى يظل مقصوراً على المسلمين دون سواهم .

ويلاحظ أن فريقاً من المؤرخين والباحثين يتناسون المسافة الزمنية التى تفصل بين الغلمان الذين عاشوا في أوروبا في القرن الرابع عشر وما تلاه وبين غلمان أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وتجاهلوا الحروب الدينية العديدة والعنيفة التى خضبت أرض أوروبا بالدماء منذ حركة مارتن لوثر ، ونحن نقتصر حديثنا في نطاق التاريخ الحديث ، ولا نوغل بعيداً في أغوار تاريخ العصور الوسطى أو تاريخ العصور القديمة . وكانت كل طائفة دينية تريد لإكراه طوائف أخرى على اعتناق مذهبها ، وما تخلل هذه الحروب من اغتيالات ومذابح عامة تنوعت صورها وأشكالها ووحشتها ، سواء في شبه

جزيرة إيطاليا ، أو ما يسمى الآن ألمانيا الاتحادية ( الغربية ) ، أو ما يسمى الآن ألمانيا الديمقراطية ( الشرقية ) ، أو فرنسا ، أو سويسرا ، وغيرها بين الكاثوليك والبروتستانت ، أو في أسبانيا بين الكاثوليك والمسلمين بوجه خاص . ونحن إذا أشرنا إلى هذه الأمثلة فلنأنا لا ندافع عن سياسة الدولة العثمانية في هذا الصدد استناداً إلى أن أحداثاً على شاكلتها قد وقعت من قبل في أوروبا . ومن المبادئ المستقرة في مناهج البحث العلمى التاريخى أن تقييم الحادث ووزنه لا يتهان إلا في ضوء تقاليد المجتمع وقتذاك وحضارته والعصر الذى وقع فيه هذا الحادث .

### أهمية الإنكشارية :

ترجع أهمية الإنكشارية إلى عدة عوامل ، من بينها كفاءتهم القتالية وشجاعتهم المفرطة ووفرتهم العددية (١) وضراوتهم في المعارك الحربية . فكانوا يشكلون ثقلًا حربيًا رهيباً لمصلحة الدولة في الحروب التي كانت تخوضها الجيوش العثمانية دفاعاً أو هجوماً سواء في آسيا ، أو في أوروبا ، أو في إفريقيا .

وقد أرجع أحد المؤرخين ضراوة الإنكشارية في القتال وخشونتهم وجفاء طباعهم إلى الصرامة التي اتسمت بها تربيتهم ، وإلى عمو ماضيهم محوً أكاد يكون تاماً ، وإلى التركيز على الاستبسال في الحرب واسترخا ص الموت . فكانت حصيلة هذه التربية البعيدة عن جو الأسرة والذى تزكو فيه شتى المشاعر من الحب والعطف والحنان ، أن نشأوا مجردين من جميع المؤثرات الإنسانية التي تلهب الطباع ، ومحرومين من جميع الصفات المكتسبة التي تفتح الأذهان ، وبعيدين عن كل المثل التي تحرك الإرادة . فغداً تفكيرهم وسلوكهم ومستقبلهم مرتبطاً بالحرب (٢) .

---

( ١ ) كان عدد الإنكشارية أول الأمر ١٢,٠٠٠ ثم ارتفع عددهم باطراد إلى ١٣,٠٠٠ ثم ٤٦,١١٣ ثم قفز إلى ١٤٠,٠٠٠ .

( ٢ ) Fisher H.A.L.; A History of Europe, op. cit., p. 402.

وكان الإنكشارية يأخذون شتى المواقع في ميدان المعركة ، بل وقبل بدايتها . كان فريق منهم يرافقتون طليعة الجيش يتبعهم عدد من رؤسائهم . فإذا بلغ الجيش مكان المعركة وقف الإنكشارية في القلب واتخذ السلطان مكانه خلفهم ، وإلى جانبه يرق الحرب ، وهو العلم الإمبراطوري (١) . وكان الصلر الأعظم يقف إلى جانب السلطان ، وكذلك كبار القادة . وجميعهم من نجاج ضريبة الغلمان ، أى القرلار عبيد السلطان .

وكان الإنكشارية أيضاً يتبعون السلطان في تنقلاته . ويمرّو بعض المؤرخين والباحثين مصاحبة الإنكشارية للسلطان في تحركاته إلى أنهم كانوا يؤلفون الحرس السلطاني . ويقولون إن هذه المرافقة للسلطان كانت وظيفتهم الرئيسية . ومن الخطأ الأخذ بهذا الرأي الذى يجعل البعض يعتقد أن عمل الإنكشارية الرئيسى كان مقصوراً على الخدمة في الحرس السلطاني في حين أنه كانت هناك أربع فرق عسكرية ذات مركز عال تعمل إلى جانب فرق أخرى في الحرس السلطاني . وهذه الفرق الأربع هى : الصولاق ، والبيكات ، والجاوشية ، والمتفرقة . وكان أفراد بعض هذه الفرق يحيطون بالسلطان في المواكب الرسمية ، بينما كان البعض الآخر لا يتركون السلطان إطلاقاً حين كان يذهب إلى الحرب ، وكان البعض الثالث يتناوبون الحراسة في القصر : وكان البعض الرابع يلازمون السلطان باستمرار . وكانت الغالبية العظمى من أفراد هذه الفرق لا يقومون بأى خدمة حربية إلا في تلك المناسبات (٢) . وما يدحض الرأي الذى ذهب إليه ذلك الفريق من المؤرخين والباحثين ،

---

(١) استبدلت الدولة راية الرسول صلوات الله وسلامه عليه والمهابة البيرق النبوى بالعلم الإمبراطورى . وقد تم هذا التغيير منذ حكم السلطان سليم الأول ، ودخول الحجاز تحت السيادة العثمانية عام ١٥١٧ وكان المهابيون يعتبرون هذا البيرق من أهم الأمانات المقدسة ، وأللقوا عليه « صحنج شريف » أى البيرق الشريف . وكان هذا البيرق الشريف من من الهدايا التى أرسلها بركاب شريف . مكه إلى السلطان سليم الأول في أثناء إقامته في القاهرة عنواناً على ولاته للدولة ودخول الحجاز تحت السيادة العثمانية . وكان السلاطين منذ ذلك الوقت يحرصون على أخذ هذا البيرق الشريف معهم حين يخرجون إلى الحرب تذكراً به .

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold: op. cit., Vol. 1, Part 1, pp. 86-88.

وهو أن الإنكشارية كانوا يؤلفون الحرس السلطاني ، أن الفياق الإنكشارية كانت من أهم الثروات الضاربة الرئيسة التي اعتمدت عليها الدولة في فتوحاتها لأقاليم مترامية الأطراف ، وفي صمودها أمام تكتلات صليبية أوروبية رهيبة واجهتها الدولة عبر تاريخها الطويل (١) .

ويؤيد هذا الرأي جمهرة من أعلام الممشرقين والمؤرخين الأجانب . وحسبنا أن نذكر أربعة منهم . يقرل بروكلان الممشرق الألماني إن الإنكشارية كانوا قوام الجيش العثماني وعماده (٢) . ويقرر الممشرق كليان إيرارت أن الإنكشارية كانوا أكبر قوة في فرق المشاة استطاع بها السلاطين تمهيق الفتوح الواسعة التي قاموا بها في القرن الرابع عشر وفي القرون التالية (٣) . وهناك مؤرخ إنجليزي - هو الأستاذ جرانث - يذهب إلى أبعد من هذا الرأي ، فيقول « إن المشاة الإنكشارية كانوا أكثر أهمية من سلاح الفرسان . وكان مصير أو مستقبل الدولة العثمانية يعتمد إلى حد كبير جداً على الإنكشارية » (٤) ، ثم يقول في موطن آخر إن الدولة العثمانية أحرزت أعظم انتصاراتها في ساحات القتال بفضل الإنكشارية ، بسبب مقدرتهم القتالية وشجاعتهم الحربية . ولما افقدوا هذه المزايا والحصول ولت الأيام الذهنية التي عاشتها الدولة عبر تاريخها الطويل (٥) . أما المؤرخ الإنجليزي فيشر فكان أكثر تفصيلاً لهذا

---

(١) عن التوسع الإقليمي وعن التكتلات أنظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة . ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ٥٦٤ - ٥٨٢ ، ص ٥٩٣ - ٦٢٠ ، ص ٦٢٥ - ٦٥٠ ، ص ٦٥٥ - ٦٦٨ ، ص ٦٧٥ - ٦٧٧ ، ص ٦٨٩ - ٧٠٦ ، ص ٧١٠ - ٧٢٤ ، ص ٧٤٨ - ٧٥٠ ، ص ٧٦٠ - ٧٧٧ ، ص ٧٨٤ - ٧٨٨ ، ص ٧٩٣ - ٧٩٥ ، ص ٧٩٩ - ٨١٠ .

(٢) بروكلان كارل : الأمراء العثمانيون وحفاراتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣

ص ٨٣ .

Huart Cl., Encyc. of Islam. Art. Janissaries. (٣)

Grant A.J., A History etc., op. cit., p. 211. (٤)

op. cit., p. 212. (٥)

الرأى من سابقه ، فهو يقول إن وجود فرقته واحدة من الإنكشارية في أى جيش عثماني كان كفيلاً باستماتة هذا الجيش كله في ميدان القتال ، ثم يقول في موطن آخر إن الإمبراطورية العثمانية قامت ، وظلت قائمة ، لا بفضل رجال من العثمانيين فحسب ، وأولئك لم يكونوا كثرة في الجيوش العثمانية ، بل كذلك بفضل رجال معظمهم صفة الأصل ، والنتهم أمهاتهم مسيحيين ، ثم جرى بهم إلى مدارس الإنكشارية حيث طبعوا بطابع الخضوع العسكري والعقيدة الإسلامية (١) .

ويسجل أحد الباحثين العرب المحدثين رأيه في أهمية الفياق الإنكشارية في الفتوحات المسلحة العثمانية ويشيد بصنات أفراد هذه الفياق ودورهم في الفتوحات العثمانية التي تمت غرباً وشرقاً ، فيقول إن الفياق الإنكشارية كانت محور قوة الدولة ، وبهذه الفياق المنظمة والمدربة والمتفانية استطاعت الدولة أن توسع حدودها بسرعة . فلأنها من ناحية فتحت بلاداً في أوروبا كانت حتى ذلك الوقت خارج حوزة الإسلام ، ومن ناحية أخرى استولت على الإمارات الإسلامية الصغيرة التي قامت في الأناضول على أنقاض دولة الروم السلاجقة (٢) . ولا شك أن هذا الباحث العربي كان يتكلم عن القوات الإنكشارية في عصرها الذهبي قبل أن يتطرق إليها الفساد وتغدو مآثر أخطار على الدولة .

ونضيف إلى ما قرره هؤلاء الأربعة ، عن الدور الرئيسي الذي قام به الإنكشارية في حروب الدولة هجوماً ودفاعاً ، أن الإنكشارية كانوا يشكلون

---

".....it is clear that without such a tribute ( the tribute (١)  
of Christian children) a regular recruitment could not have been maintained. It followed, as a consequence, that the Ottoman Empire was made and maintained, not only or even mainly, by men of the Ottoman race, but by the slave children of Christian parents, who had issued through the seminaries of the janissaries. with the appointed stamp of military subservience and the Moslem faith".

Fisher H. A. L.; op. cit., p. 402.

(٢) ساطع الحصري ، مرجع سبق ذكره ، صص ١٧-١٨



الحاميات التي ترابط على حدود الدولة . وكانوا يتلقون مرتباتهم من الحكومة المركزية في إستانبول .

وجرت العادة على أن ترسل هذه الحكومة عدداً من ضباط الإنكشارية أول الأمر إلى المواقع المقترحة لإنشاء الحاميات فيها . ويقوم هؤلاء الضباط بدراساتها على الطبيعة وتقديم مقترحاتهم إلى إستانبول . وكانت الدولة أيضاً تعزز جيوش الاحتلال في الأقاليم التي فتحتها بقوات من الإنكشارية . وكانت هذه القوات الصدارة على سائر فرق جيوش الاحتلال في الولايات العثمانية في أوروبا ، و فرق الحاميات العثمانية في الولايات العربية . ونذكر على سبيل المثال بلاد الشام بتقسيماتها الإدارية ، ومصر ، والعراق . وكان الإنكشارية في الممتلكات العثمانية يخضعون لإمرة الولاة المحليين ، ويتقاضون مرتباتهم من الحكومة المحلية في الولاية .

#### جبروت الإنكشارية وطفانيهم :

كان الإنكشارية سلاحاً رهيباً حاداً باتراً استطاعت به الدولة أن تمضي قدماً في سياسة التوسع الإقليمي المرحلي . وكان الجيش العثماني يضارع أقوى الجيوش الأوروبية . ثم غدوا مركز قوة خطير في حياة الدولة تعرضت بسببه لأخطار جسيمة . استشرى نفوذهم وازدادوا إدراكاً لأهميتهم ومقدرتهم القتالية فدخلهم الغرور ، أو بعبارة أكثر دقة ، ازدادوا غروراً على غرور ، و صلفاً على صلف .

كانوا يزجون بأنفسهم في السياسة العليا للدولة ، وهي مسائل ليست من اختصاصاتهم . كانوا يطالبون بخلع السلطان القائم بالحكم بمقولة أنه ليس له نشاط حربي ، ويتدخلون في اختيار السلطان الجديد . ويأخذون عطايا يطلق عليها البخشيش - أي البقشيش - كلما ارتقى عرش الدولة سلطان جديد ، بحيث أصبحت هذه العطايا تقليداً راسخاً لا يستطيع سلطان مهما أوفى من قوة أو عزيمة أن يتجاهلها وإلا تعرض للمهانة على أيديهم . ثم ألغيت هذه العطايا منذ عام ١٧٧٤ حين تولى السلطان عبد الحميد الأول عرش الدولة في اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام

١٧٧٣ (١) وكانت حجته في إلغاء هذا التقليد حجة قوية ، هي أن الدولة كانت تحتاز وقتذاك أزمة مالية عصبية بسبب ضخامة الإنفاق العسكرى على القوات العثمانية المسلحة إبان الحرب التى اشتعلت بين الدولة وبين روسيا . وهى الحرب التى استطالت ست سنوات كوامل وتحطم فيها الجيش والأسطول العثمانيان ، وانتهت بتقدم معاهدة جائرة هى معاهدة كوتشك كينارجى فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٧٧٤ . وقد ألحق بهسنة المعاهدة بندان سريان : نص أولها على أن تدفع الدولة العثمانية لروسيا غرامة حربية قدرها خمسة عشر ألف كيس ، تسدد على ثلاثة أقساط متساوية فى اليوم الأول من شهر يناير - كانون ثان - فى عام ١٧٧٥ ، وعام ١٧٧٦ وعام ١٧٧٧ .

وتد بدأت ظاهرة تدخل الإنكشارية فى المسائل السياسية العليا منذ عهد السلطان « أبى يزيد الثانى » ( ١٤٨١ - ١٥١٢ ) ، ثم اشتدت هذه الظاهرة على جهود معظم خلفائه السلاطين . حدث أن السلطان سليم الأول ( ١٥١٢ - ١٥٢٠ ) - وهو معروف بصرامته وإسرافه فى سفك الدماء - كان قد توغل فى أراضي الدولة الصفوية فى فارس على رأس قوات زاحفة جراءة . وفجأة طلب الإنكشارية من هذا السلطان وقف العمليات الحربية بحجة الاكتفاء بما حققوه من انتصارات واستيلاءات على أراضي العدو . وخشى السلطان أن يعمدوا إلى التمرد والعصيان وهو بعيد عن قاعدة دولته بما قد يرض الجيش العثمانى إلى التفرق . وكان تقدير السلطان للموقف الحربى أن الانسحاب هو أخف الضررين . فرضخ لطلب الإنكشارية . وعاد أدراجه إلى إستانبول . وتكرر مثل هذا الحادث على عهد سلطان لاحق هو السلطان عثمان الثانى . وسنوضح هذين الحادثين فى الفصل القادم .

وازداد نفوذ الإنكشارية بعد أن انتقلت قوات كثيفة العدد منهم إلى عاصمة الدولة مما أتاح عديد الفرص لروشائهم ليتمادوا فى طلباتهم كلما آتسوا

( ١ ) يرى بعض المؤرخين والباحثين التفاضى عن الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر - كانون الأول - ١٧٧٣ ، ويحصلون عام ١٧٧٤ بداية حكم السلطان عبد الحميد الأول .

من السلطان الحاكم ضعفاً . كانوا يعزلون السلاطين والصدور العظام والوزراء ومن إليهم من رجال الدولة ، ويتخلون بهمهم ، ويتدخلون في تعيين غيرهم في المناصب التي تخلو بقتل أو عزل شاغلها . وأصبح كبار موظفي الدولة ينحشون الإنكشارية ويتماقرون رؤسادهم ، وينفثون أوامرهم خوفاً من بطشهم . وبلغ من عتو الإنكشارية أنهم كانوا لا يحفلون بتنفيذ الأوامر العسكرية التي تصدر لهم من قيادة الجيش . ونذكر على سبيل المثال أنه إذا استول الجيش على مدينة وعينات مدنة أو اتفاقية مؤتة تتضمن شروط التسليم ، وكان من بينها المحافظة على أرواح سكان المدينة وأموالهم وأعراضهم ، كانت الفيلق الإنكشارية لا تعبأ بشروط التسليم ، وتنطلق في نشاط محمود تمارس أعمال النهب والسلب والقتل وتهتك الأعراض وإحراق المباني .

وكان الإنكشارية في أوقات السلم يشقون عصا الطاعة ، ويلجأون إلى سلاحهم الثابت ، وهو القيام بحركات عصيان تحمل معنى التحدي للسلطان والحكومة المركزية في العاصمة . وانتهى بهم الأمر إلى أن أصبحوا بمثابة عصابات عسكرية تهفون نفوسهم إلى أعمال التمرد وخلع السلطان الحاكم والمادة بتنصيب سلطان جديد يقع عليه اختيارهم طمعاً في تجديد العطايا . وكانوا يلجأون إلى وسائل بعيدة كل البعد عن الانضباط العسكرية . كانوا يترضون الموكب السلطاني ويمتنعون السلطان من الوصول إلى القصر ويهتفون في وجهه هتافات غير كريمة مطالبين إما بمزيد من العطايا والإميازات ، وإما بإلغاء قوانين كانت قد صدرت بإغلاق محلات بيع الخمر وحظر تناول هذه المشروبات . فكانوا يحملون في أيديهم كؤوس الشراب ويرفعونها في وجه السلطان مما يعد تحدياً صريحاً للرئيس الأعلى للدولة وحكومته .

**الإنكشارية يتخلون من القزانات رمزاً لتمردهم :**

كان الإنكشارية يتخلون من القزانات — وهي القدور التي يطهى فيها الطعام — رمزاً إعلامياً يعبرون به عن مسلكتهم . فكانوا لا يجتمعون حول

القزانات لتناول الطعام فحسب ، بل وللتشاور في أمورهم الخطيرة أو الهامة . فإذا استقروا رأياً على القيام بحركة عصيان عسكري جماعى قلبوا القزانات بعد التهام الأطعمة الموجودة بها ، ووضعوها صفوفاً متراصة أمامهم في ساحة آت ميدانى — أى ميدان الخيل — وكانت تقع في هذا الميدان ثكناتهم . ويمكنون أمام القزانات بعض الوقت ، وهم في هرج ومرج شديدين . فإذا أقبل رؤساؤهم ساد الحاضرين صمت مطبق ، ويعلن أحد الرؤساء تفاصيل التمرد العسكرى وأهدافه سواء قتل شخصية كبيرة ، أو عدة شخصيات ، أو تنظيم مظاهرات عسكرية تتعرض لموكب السلطان في أثناء مروره ، أو الهجوم على القصر السلطانى والمناداة بخلع السلطان وتنصيب غيره . وبعدئذ ينطلق الإنكشارية وحوشاً كاسرة لتنفيذ مخطط العصيان . وهم في وضع استعداد تام لمواجهة أية قوات ترسلها الدولة للتصدى لهم . وكانوا إذا قتلوا شخصاً أو أكثر حملوا رموس القتلى معهم ووضعوا كل رأس أمام قزان مقلوب . وعند نجاح تنفيذ مخططهم تصدر لهم الأوامر من قيادتهم بإعادة القزانات إلى ثكناتهم تعبيراً عن انتهاء التمرد العسكرى .

### تفاقم خطورة الإنكشارية :

وازدادت مشكلة الإنكشارية تفاقماً عندما قررت الحكومة المركزية ، أو بعض عناصر هامة مستتيرة فيها ، تطوير الجيش بإدخال النظم العسكرية الحديثة التى أخذت بها الدول الأوروبية في جيوشها . وقد أطلق العثمانيون على مشروع تطوير الجيش « النظام الجديد » (١) . وجاء قرار الحكومة في هذا الصدد نتيجة لتعرض جيوش الدولة لمزائم أليمة متعاقبة من الدول

---

(١) كان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) هو الذى أطلق هذه التسمية على الفرق العسكرية التى بدأ في إنشائها ، وجعل مقرها ساحة لوند چفتك على مرتفعات أورتوكوى ، وأرنالوكوى على الساحل الأوروبى لبوسفور .

الأوروبية . وبات واضحاً عجز الدولة عسكرياً عن الدفاع عن ممتلكاتها الأوروبية بوجه خاص . ونبتت الفكرة القائلة إن ضعف الدولة هو ضعف عسكري قبل كل شيء ، وأنه لا يرجى أى إصلاح إلا إذا بدأت الدولة بإدخال النظم الحربية الحديثة في قواتها العسكرية بحيث يسير الجيش العثماني جيوش الدول الأوروبية تسليحاً وتنظيماً وتدريباً . ومن المعروف أن الدولة العثمانية كانت دولة عسكرية عاشت أزهى عصورها على الأجداد العسكرية التي حققها الجيش العثماني . وكان هذا الجيش أداة للحرب أولاً ، وأداة للحكم ثانياً . وقد ذكرنا من قبل أن بعض المؤرخين شبهوا الجيش العثماني بعملة ضربت على أحد وجهيها لفظة «الحرب» ، ونقشت على الوجه الآخر كلمة «الحكم» . فكان الحكم العثماني في لحمة وسداه حكماً عسكرياً .

عارض الإنكشارية معارضة شديدة لإدخال النظام الجديد في فيالقهم ، لأنهم أدركوا أن تطبيقه في محيطهم العسكري سيؤدى إلى إدماجهم أو ذوبانهم في الفرق العسكرية الجديدة التي أنشأتها الدولة وفقاً للنظام الجديد . وكانوا حريصين الحرص كله على الاحتفاظ بكيانهم الخاص ووضعهم الخاص وامتيازاتهم الخاصة في الجيش . ولذلك رفضوا رفضاً باتاً وقاطعاً العروض التي قدمها لهم بعض السلاطين ، مثل السماح لهم بالانضمام إلى الفرق العسكرية الحديثة ، ورفضوا أيضاً قبول معاش تقررته الدولة لمن يرفض منهم النظام الجديد . واستهجوا هذا النظام ، بل أنكروه قائلين «إن ولى الله الحاج بكتاشي كان قد بارك جماعة الإنكشارية عند تكوينها ، ودعا لها بالنصر الدائم» (١) . وزعموا ، تأسيساً على دعاء هذا الولي وبركاته ، أنهم في غنى عن كل تعليم .

وقد ذهب الإنكشارية في معارضتهم لتطبيق النظام الجديد عليهم إلى أنهم لجأوا إلى سلاحهم الرهيب وهو تنظيم حركات التمرد أو العصيان في وجوه السلاطين والصدور العظام ومن إليهم معتمدين على قوتهم العسكرية ووفرة أعدادهم بحيث أصبحوا مركز قوة خطير عرض أمن الدولة الداخلى والخارجى

لأخطار بالغة . ونجحوا في إكراه عدد من السلاطين على إلغاء النظام الجديد . وهكذا أصبح الإنكشارية بمضى الزمن عنصر فساد في جسم الدولة ، يؤثرون مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة . وتعددت حركات العصيان وارتاحوا إليها ، إذ وجدوا فيها وسيلة عملية لتحقيق رغباتهم من ناحية ، ولكي يثبتوا من ناحية ثانية لسائر أسلحة الجيش ولكبار موظفي الدولة وللقطاعات الجماهيرية أنهم لا يزالون أولى بأس شديد ، وفي استطاعتهم عزل السلاطين وقتلهم وتعيين غيرهم ، فضلاً عن قدرتهم على البطش برجال الدولة من ناحية ثالثة .

### شُرور الإنكشارية تمتد إلى المدنيين :

وامتدت شرور الإنكشارية في أوقات السلم إلى المدنيين الوادعين ، سواء في عاصمة الدولة أو في عواصم الولايات ، فارتاحوا نشاطاً إجرامياً في السلب والنهب . كانوا يعملون إلى إحراق أحد أحياء مدينة بيغون منها ، فإذا اشتعلت النيران وارتفعت ألسنة اللهب في عنان السماء انطلق الإنكشارية ينهبون الأحياء الأخرى في المدينة . فكانوا يقتحمون البيوت ، ويهتكون الأعراض ، ويهاجمون المحلات التجارية ، ويركزون هجومهم على محلات اليهود ويخطفون بضائعها (١) . وبلغ بهم الجبروت والعصيان أنهم اعتقدوا أن جميع الأفعال مباحة لهم حتى ولو كانت قوانين الدولة تمنعهم من ارتكابها أو الإتيان بها (٢) . ووصل بهم الأمر إلى مهاجمة الدار المخصصة لسكنى الصدر الأعظم إذا تباطأ في تنفيذ طلباتهم (٣) . وبذلك أصبح الإنكشارية كأن قلوبهم غلف (٤) لا تقي شيئاً ولا تقبل نصيحاً أو أمراً عسكرياً ، لأنها مغلفة ، ولكن طبع الله عليها بسبب جبروتهم وطغيانهم .

Lybyer A.H.; op. cit., p. 92.

(١)

Lavisse et Rambaud; op. cit., tome IV, p. 759.

(٢)

D'Ohsson Ignatius Mouradega; op. cit., tome VII, pp.

(٣)

359 - 360.

(٤) غلف مفرداً أغلف . ويقال قلب أغلف لا يمي لعدم فهمه ، كأنه حجب عن الفهم كما يحجب السكين وغوه بالغلاف .

### إجراءات الدولة للحد من طغيان الإنكشارية :

استبان للسلطان سليم الأول ( ١٥١٢ - ١٥٢٠ ) نزعة الإنكشارية نحو التمرد العسكري ثم تدخلهم في السياسة العليا للدولة . وقد وضحت هذه المثالب منذ الأيام الأولى لحكمه وفي أثناء الحرب التي نشبت بين الدولة والصفويين على النحو الذي سنشرحه في الفصل التالي ، ورأى هذا السلطان ، مع الإبقاء على الإنكشارية كتنظيم عسكري في الجيش ، أن يكسر حدة طغيانهم وجبروتهم من ناحية ، وأن يفيد منهم كقوة من المشاة لها وزنها وثقلها في الحرب من ناحية ثانية . ولما فتح بلاد الشام سنة ١٥١٦ ثم مصر سنة ١٥١٧ عزز القوات العثمانية المسلحة التي تركها في هذين الإقليمين بفيالق من الإنكشارية لدعم الحكم العثماني فيهما وتشتيت جموع الإنكشارية بحيث لا يتجمعون أو يتكتلون في عاصمة الدولة . ولما عاد إلى إستانبول تلقى نداء من خير الدين بربروسه ، أي خير الدين ذى الحجة الحمراء ، كى يعاونه في جهاده ضد الإسبانين ، فأرسل له السلطان سليم في عام ١٥١٨ ألفين من الإنكشارية (١) كإجراء سريع ، وسمح له بتجنيد الأهالي من الأناضول حتى يتمكن من مواجهة الأخطار الاستعمارية الصليبية . وقد أقبل أهالي الأناضول على الالتحاق بخير الدين طمعاً في الغنائم (٢) من ناحية ، وإسهاماً منهم في حركة الجهاد الديني في شمالي إفريقيا من ناحية أخرى . وكان هذا التصرف من جانب السلطان سليم الأول متمشياً مع السياسة التي أرسى قواعدها تجاه الإنكشارية . ومضت الدولة على عهد السلاطين اللاحقين تتابع هذه السياسة في النيابات العثمانية الثلاث في شمالي إفريقيا والتي دخلت تحت السيادة العثمانية في القرن السادس عشر .

ولما استفحلت شرور الإنكشارية عمد السلاطين إلى وسائل أخرى

---

(١) كان خير الدين بربروسه يقود الحامية العثمانية في الجزائر . وتخرج مركزه بعد مقتل أخيه عروج في أثناء محاولته تخليص مدينة تلمسان من الإسبانين .  
انظر :

ابتغاء الحد من طغيانهم . كان من بينها توزيع الفياقق الإنكشارية على حاميات الحدود كما سبق أن ذكرنا في موطن سابق في هذا الفصل . وكان السلطان مراد الثالث ( ١٥٧٤ - ١٥٩٥ ) أحد السلاطين الذين تصدوا لمشكلة الإنكشارية . كان يدرك تماماً أنهم تجاوزوا المدى وأصبحوا مركز قوة خطير في الدولة ، أو كما يقول المستشرق هارولد برون ، إنهم غلبوا أصحاب الدولة الأقوياء (١) . وانتهر هذا السلطان فرصة وقوع حوادث مؤسفة في إستانبول في أثناء الاحتفالات التي أقامها بمناسبة ختان ابنه سنة ١٥٨٢ . ازدحمت العاصمة بالآف من سكان الأقاليم قدموا إليها لمشاهدة المهرجانات . ومات من شدة الزحام كثير من الوافدين ومن سكان العاصمة . وبرز في هذه الأحداث شبان أظهروا شجاعة وحسن تصرف في إنقاذ الأهليين من الازدحام والموت . وأراد السلطان أن يكافأهم فألحقهم بفياقق الإنكشارية (٢) ، كما أمر هذا السلطان بإلحاق عدد كبير من المجندين غير المدربين بفياقق الإنكشارية مباشرة . ولقي هذا الإجراء معارضة شديدة من رئيس الإنكشارية . ولكن لم يأبه السلطان بهذه المعارضة ومضى ينقل هذا الإجراء الذي قابله رجال الحاشية بترحيب حار . وانتهر السلطان مراد الثالث فرصة تجدد الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية ، فوجه ضربة شديدة إلى الإنكشارية كتنظيم عسكري ، إذ سمح بإدخال أعداد وفيرة من المجندين المسلمين الأحرار ، أي الذين ولدوا من آباء مسلمين ، في الفياقق الإنكشارية بعد أن كانت هذه الفياقق مغلقة تماماً في وجه هؤلاء المجندين . وترتبت على إدخالهم نتيجة هامة هي مطالبة هؤلاء المجندين بإلغاء الحظر المفروض على أفراد الفياقق الإنكشارية بعدم الزواج . واستجاب السلطان لهذا المطلب ، وبعبارة أكثر دقة ارتاحت الدولة لهذا المطلب ، ورفعت الحظر عن جميع أفراد

The Potential Masters of the State.

(١)

انظر

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 180.

(٢) انظر تفصيلات عن هذا الموضوع في :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع المصور الحديثة . مرجع سبق ذكره .

الطبعة الأولى ، ص ٧٥٥-٧٥٦ .



هذه الفياق . فشغل الإنكشارية بمشكلات الحياة الزوجية والإنسال عن الحياة العسكرية التي كانوا منصرفين إليها كلية . وضعف استعدادهم الحربي وأصبح الانتهاء إلى الفياق الإنكشارية وراثياً بغض النظر عن كفايتهم القتالية مما أدى إلى تدهور نظام الإنكشارية . ثم خطت الدولة خطوة أخرى في سبيل كسر شوكة الإنكشارية واسترضائهم معاً . فأذنت لهم في ممارسة بعض الحرف أو الاشتغال بالتجارة في أوقات السلم بعد أن كان محرماً عليهم العمل في أمثال هذه الأنشطة الحرفية والتجارية (١) فازدادوا ابتعاداً عن الحياة العسكرية البحتة ، وازداد مستواهم القتالي هبوطاً . وأصبح بعضهم لا يذهبون إلى ثكناتهم إلا لتسلم مرتباتهم . وكانت الدولة لا تسمح لهم بحمل الأسلحة النارية في أوقات السلم تجنباً لاستخدامها في حركات العصيان العسكري أو في الفتك بالمدنيين . وعلى الرغم من كل هذه القيود التي أحيط بها الإنكشارية من يمين وشمال فقد ظلوا يثقلون كاهل الحكومة بمرتباتهم وسائر النفقات العسكرية . وظلوا في مركز القوة لأن ثكناتهم التي كانوا لا يذهبون إليها إلا لما كانت مكاناً لتجمعاتهم إذا أرادوا القيام بحركة تمرد . وكانت لهم صيحة تجمعهم في الثكنات ، وهي « يولدأش يوقى » (٢) ومعناها أليس لنا زملاء ؟ وكان لهم ضباط يقومون بتسليحهم وتوجيههم قبل تنفيذ حركات التمرد .

ونعرض في الفصل التالي صوراً من طغيان الإنكشارية وجبروتهم كمرکز قوة خطير في تاريخ الدولة .



---

Marriot J.A.R. (Sir); op. cit., pp. 102-103.

(١)

(٢) يولدأش معناها زميل طريق . كلمة يول معناها طريق وتستخدم في الوقت الحاضر عبارة زميل في السلاح . وتكتب هذه الصيحة في اللغة التركية بالحروف اللاتينية : Yoldas Yokmu

## الفصل الثامن عشر

### مراكز القوى في الدولة (٢)

#### صور من

#### طفيان الانكشارية وجبروتهم

الانكشارية يرتكبون عمليات القتل والسلب عند تعيين أبي يزيد الثاني سلطاناً :

توفي السلطان محمد الثاني أو السلطان أبو الفتح أو السلطان الفاتح عن ولدين، أكبرهما «أبو يزيد» (١) ، وكان حاكماً على آماسيا، والآخر، «جم». وكان يحكم القرمات . وقد أخبر قزمانى محمد باشا الصدر الأعظم نبأ وفاة السلطان محمد الفاتح إلى ابنه الأكبر كى يسرع في العودة إلى إستانبول ويتبوأ العرش . ولكن عاد الصدر الأعظم فأرسل إلى الابن الثاني الأمير جم يخبره سرّاً بوفاة والده . وحدث تسابق بين الأخوين على السفر إلى العاصمة ، وكان كل منهما يبغي الوصول إليها قبل الآخر مما يتيح له الفرصة لارتقاء العرش . وعلم

---

(١) يرد اسم هذا السلطان في الغالبية العظمى من الكتب العربية مكتوباً على هذا النحو : بايزيد . والواقع أن كلمة بايزيد هي التلقى التركى للإسم العربى «أبو يزيد» .

وما هو جدير بالذكر أنه توجد مدينة تحمل هذا الإسم في آسيا الصغرى ، وكانت حاضرة سنجق في ولاية أرضروم وتبعد ستة كيلومترات عن الحدود العثمانية الفارسية . وتشرف على الطريق المؤدى إلى أذربيجان . وقد أنشأ هذه المدينة السلطان أبوزيد الأول واتخذ منها مركزاً لمراقبة تيمور ، وفيها قلعة قديمة . وفي داخل البلدة مسجد رائع شيده بهلول باشا ألوالى العثمانى على تلك الولاية . وظل في هذا المنصب حتى عام ١٨٢١ ، ولم يسيطر عليها العثمانيون سيطرة تامة إلا بعد الحملات التي وجهها السلطان سليمان المشرع على الدولة الصفوية في سنوات ١٥٣٣ ، ١٥٤٨ ، ١٥٥٢ . واستولى عليها الروس عدة مرات في القرن التاسع عشر في سنوات ١٨٢٨ ، ١٨٥٤ ، ١٨٧٧ ثم في سنة ١٩١٤ . وهي تقع حالياً جمهورية تركيا . ومعظم سكانها من الأتراك والأكراد . ويتركز نشاطهم في تربية الأغنام وإنتاج الصوف والجلود الخام والجلود المدبوغة وصنع السجاجيد .

الإنكشارية بتصرف الصدر الأعظم فثاروا عليه وقتلوه ، ثم عاثوا في  
إستانبول نهياً وسلباً . وأقاموا ابن الأمير أبي يزيد ، واسمه قرقند ، « قائماً »  
عاماً للدولة ، أى سلطاناً بالنيابة حين حضور والده إلى العاصمة ويباشر مهام  
منصبه سلطاناً للدولة . ووصل أبو يزيد إلى إستانبول حيث كان في استقباله  
كبار رجال الدولة عند بوغاز البوسفور . وفي أثناء اجتيازه البوسفور أحاطت  
به سفن وقوارب عديدة ملئت بالإنكشارية الذين رحبوا به . وكان الهدف  
من هذه المظاهرة البحرية هو إشعار السلطان الجديد بأن لهم اليد الطولى في  
ارتقائه العرش بعد أن كسب الجولة الأولى من أخيه الأمير جم . ولما وصل  
السلطان الجديد إلى القصر السلطاني وجد فيالق من الإنكشارية مرابطة أمام  
القصر ومداخله ، وهم في مظاهرة عسكرية ، وقدموا له عدة مطالب  
وطلبوا تنفيذها فوراً ، وكان من بين هذه المطالب عزل أحد الوزراء واسمه  
مصطفى باشا وتعيين وزير آخر يسمى اسمق باشا كان متعاطفاً معهم ، وأن  
يقدم لهم عطايا ابتهاجاً بتعيينه سلطاناً ، وأن يصدر عفواً عاماً عنهم بسبب  
ما ارتكبوه من أعمال السلب والنهب في العاصمة . وقد استجاب السلطان  
أبو يزيد الثاني لجميع مطالب الإنكشارية . وكانت مبادرة هذا السلطان  
بتقديم عطايا مالية للإنكشارية بمناسبة ارتقائه العرش تقليداً يلتزم به إلزاماً  
صارماً بعد ذلك كل سلطان يتربع على عرش الدولة (١) . واستمر هذا  
التقليد سارياً زهاء ثلاثة قرون - أو مائتين وأربعة وتسعين عاماً على وجه  
التحديد - حتى نجح السلطان عبد الحميد الأول ( ١٧٧٤-١٧٨٩ ) في إلغاء  
هذا التقليد . ولم تكد تنقضى ثلاثة أشهر على ارتقاء السلطان العرش حتى  
طلب منه الإنكشارية أن يسمح لهم بنهب مدينة بروسة عقاباً لسكانها على أنهم  
أبوا لإلهم أخاه الأمير جم الذي كان ينازعه على العرش . ورفض السلطان  
طلبهم . وخوفاً من حدوث شغب منهم دفع لإلهم عطايا مجزية للمرة الثانية  
في مستهل حكمه . وقد مر بنا في الفصل السابق أنهم أجبروا السلطان أبا يزيد على  
إعادة فتح محلات بيع الخمور كي يمارسوا عاداتهم في تناول المسكرات .

---

( ١ ) كان يطلق على عرش الدولة « التخت السلطاني » .

## الإنكشارية يشتركون في عزل السلطان أبي يزيد الثاني :

كان السلطان أبو يزيد الثاني ( ١٤٨١ - ١٥١٢ ) قد أنجب ثمانية أولاد ، توفي خمسة منهم وهو لا يزال على قيد الحياة (١) . وبقي له ثلاثة أولاد هم : الأمير أحمد ، والأمير قرقد Korkoud ، والأمير سليم ، وعين والدهم كلا منهم حاكماً على إقليم من أقاليم الدولة . فعين أحمد حاكماً على آماسيا ، وعين قرقد حاكماً على صاروخان ( مانيسه ) ، وعين سليم حاكماً على طرايزون . وكان الأمير أحمد أكبر الأبناء الثلاثة وأحبهم إلى قلب السلطان فاختره ولياً للعهد . فتحركت عوامل الغيرة في الأميرين الأخيرين . وكان يروم كل منها أن يكون ولياً للعهد . واشتهر الأمير سليم بشغفه بالحرب وجراته وصرامته وميله لسفك الدماء . ويطلق عليه المؤرخون الأوروبيون لقباً يجمع هذه الصفات ، فيقولون إنه الوحش أو المفترس Le Féroce ويصفه أحد البنادقة في هلمه العبارة « إنه أكثر السلاطين قسوة ، ولم يكن يحلم إلا بالغزو والحرب » (٢) . أما المؤرخون العثمانيون فيطلقون عليه « ياوز » (٣) أى السلطان الحاد الباتر العنيد . وينظرون إليه على أنه بطل يمثل أروع تمثيل العبقرية العسكرية

( ١ ) كان هؤلاء الأولاد خمسة هم :

- الأمير عبد الله . وقد توفي عام ١٤٨٢ .
- الأمير محمد . وقد توفي عام ١٥٠٤ .
- الأمير محمود . وقد توفي عام ١٥٠٧ .
- الأمير شاهنشاه . وقد توفي عام ١٥١١ .
- الأمير حلمشاه . وقد توفي عام ١٥١٢ .

الظر :

دكتور أحمد فؤاد متولى : الفتح الثماني للشام ومصر . ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له . الناشر : دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٨٨ .

( ٢ ) دكتور عبد الميزيد محمد الشناوى : أوروبا في مطلع العصور الحديثة . مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، الناشر دار المعارف ، القاهرة : ١٩٦٩ ، ص ص ٦٧٩-٦٨٠ .

( ٣ ) إن لفظة ياوز في اللغة التركية تعادل في اللغة الفرنسية كلمتين : إحداهما Tranchant ومعناها الباتر ، أو الحاد ، أو القاطع ، أو الحاسم . وأخرها Inflexible ومعناها الشطص المتند الصلب الذى لا يلين . ويترجم البعض كلمة ياوز بلفظة مهول .

العثمانية (١) . وقد أكتسبت هذه الصفات شعبية واسعة بين أفراد القيسالتي الإنكشارية . وكانت نفوسهم تنهف إلى استئناف سياسة الفتوح الحربية طمعاً في غنائمها . وكانت معظم الحروب التي خاضتها الدولة على عهد السلطان « أبي يزيد الثاني » حروباً دفاعية أكثر منها حروباً هجوماً نظراً لميوله السلمية حتى اشتهر باسم « أبو يزيد الصوفي » أو « أبو يزيد المتصوف » أو « أبو يزيد الولي » . وعقد معاهدة صلح مع جمهورية البندقية سنة ١٥٠٣ ، تلتها هدنة في ذات السنة مع المجر مدتها سبع سنوات . واكتفى بتميز المجهود الحربي الذي كان يبذله قانسوه الغوري ( ١٥٠١ - ١٥١٦ ) سلطان دولة المماليك الشراكسة في صراعه ضد البرتغاليين في البحار الشرقية . فأرسل إليه أبو يزيد مقادير وفيرة من المدافع والدخائر والأسلحة بالإضافة إلى شحنات كبيرة من الأخشاب لبناء سفن حربية . وقد وصلت هذه الشحنات إلى مصر في شهر يناير - كانون ثان - عام ١٥١١ ورفض أبو يزيد أن يتقاضى ثمنها واعتبرها هدية من الدولة للسلطان الغوري ، ثم أرسل ألفين من البحارة العثمانيين إلى مصر ليشاركوا في بناء وإعداد السفن الحربية في ميناء السويس . وكان هؤلاء البحارة تحت قيادة قائد بحري عثماني هو سلمان الرومي (٢) . وكانت معظم سنوات حكم السلطان « أبي يزيد » قد ران عليها هدوء حربي . وظل الجيش العثماني خلالها بمختلف فرقته في حالة استرخاء . وتعلقت آمال الإنكشارية بوجه خاص بالأمير سليم - إذا ظفر بالعرش - في أن يدفع عجلة الحروب في حركة دائبة مطردة نشيطة .

طلب الأمير سليم أن ينقل من طرابزون . وأقام طلبه تأسيساً على أنه ظل

(١) ومما هو جدير بالذكر أن رجال تركيا الفتاة أطلقوا اسم « ياوز سلطان سليم » على الطراد الألماني « جوين » الذي استطاع أن يتخلص من مطاردة الأسطول البريطاني له في البحر المتوسط في سبيل الحرب المالية الأولى عام ١٩١٤ وانتهى هذا الطراد إلى حوزة تركيا . انظر :

بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون الخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٦٤-٦٥ .  
(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : المراحل الأولى لوجود البرتغالي في شرق الجزيرة البرية وموقف الدول الإسلامية الثلاث الكبرى منه . من بحوث مؤتمر الدراسات التاريخية لشرق الجزيرة العربية الذي عقد في الوحة في المدة من ٢١ مارس - آذار - إلى ٣١ منه عام ١٩٧٧ .

في هذه الصنچقية مدة طويلة ناهزت الثلاثين عاماً (١) ، وأن طرايزون تقع في جهة نائية على أقصى الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الأسود ، وطلب أن ينقل إلى إحدى الصنچقيات في أوروبا . ورفض أبو يزيد طلب ابنه على الرغم من الشكايات العديدة التي بعث بها سليم إلى والده وإلى الصدر الأعظم وإلى أعضاء الديوان الهمايوني في إستانبول (٢) . وفي حديث دار بين سليم وأحد كبار العلماء ، قال الأخير إن عصيان الابن لوالده يؤدي إلى مواجهة عسكرية بينهما . فرد عليه سليم بقوله « ليحدث ما يحدث » (٣) . جمع سليم قوات من رجاله ومن جنود خان القرم واتجه بها إلى أدرنة ليتباحث مع والده الذي كان يقيم وقتذاك في هذه المدينة . وقبل أن يصلها سليم كان السلطان قد غادرها عائداً إلى إستانبول حزيناً على وفاة ابنه الأمير شاهنشاه . واشتد عليه المرض . فأرسل في طلب ابنه الأكبر الأمير أحمد ، بصفته ولياً للعهد ، ليكون قريباً منه إذا وافاه الأجل المحتوم . وفوجيء الأمير أحمد عند وصوله إلى إستانبول بتدخل الإنكشارية ضده وأكرهوه على العودة من حيث أتى . وفي هذا الوقت الحرج تدخل الإنكشارية مرة أخرى لصالح الأمير سليم . وضغطوا على السلطان « أبي يزيد » ضغطاً شديداً حتى أجبروه على إصدار « خطي شريف » (٤) Hatt-i-Sherif بالعفو عن الأمير سليم وإعادةه إلى ولاية

(١) جاء في رسالة أرسلها الأمير سليم إلى الصدر الأعظم أنه أقام في صنچقيه طرايزون ثلاثين عاماً ، ثم ذكر في رسالة بعث بها إلى أعضاء الديوان الهمايوني في إستانبول أنه أقام في طرايزون خمساً وعشرين سنة .

(٢) انظر الرسائل التي وجهها سليم إلى شقي اللواتر العليا في إستانبول مترجمة من اللغة التركية إلى اللغة العربية في : دكتور أحمد غزاد متولى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٩-٩٦ .  
(٣) المرجع السابق ، ص ٩٣ ، وقد جاء في التقرير الذي رفعه هذا العالم - واسمه نور الدين صاري كورز إلى السلطان - أن الأمير سليماً مصر على موقفه ، وأنه عنيد إلى أبعد حدود العناد .

(٤) خطي شريف مصطلح تاريخي مأخوذ من اللغة العربية ترجمته خط شريف . ومعناه بصرف قرار يحمل اسم السلطان . وقد يذكر هذا المصطلح في بعض الأحيان مضافاً إليه لفظ همايوني على هذا النحو : خطي همايوني شريف ، وترجمته الحرفية قرار إمبراطوري شريف . ومعناه بصرف : قرار سلطاني شريف يحمل اسم السلطان . وقد مر بنا صدور خطي شريف لجلخان عام ١٨٣٩ ، وخطي همايوني عام ١٨٥٦ انظر في هذه الدراسة : ص ٩٦ ، ص ٩٧ .

سمندرية (١) Semendris في أوروبا والتي كان قد عينه حاكماً عليها . وفي أثناء سفر سليم إليها قابله الإنكشارية وعادوا به إلى إستانبول . فدخلها سليم وسط حشود عسكرية من الإنكشارية . وشعر السلطان أن الأرض تמיד تحت قدميه ، واهتز مركزه اهتزازاً عنيفاً . وكحل لهذه الأزمة عرض السلطان على ابنه سليم أموالاً طائلة لإغراء له على العودة إلى مقر منصبه . فرفض الابن . وعاد السلطان يعرض على ابنه أن يعينه ولياً للعهد بشرط أن يحتفظ الوالد بالعرش ويمارس مهام منصبه حتى يقضى نجب . ورفض سليم والإنكشارية هذا العرض . وأصرروا على عزل السلطان فوراً وتعيين سليم مكان والده . وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٥١٢ نظمت مظاهرة عسكرية كبرى ضمت الإنكشارية والسيابية - الفرسان الإقطاعيين - وبلغ عدد المشتركين في هذه المسيرة العسكرية اثني عشر ألف جندي . واتجهت هذه المسيرة إلى القصر السلطاني في إستانبول . وطلب كبار الضباط مقابلة السلطان « أبي يزيد الثاني » فأذن لهم . ولم يكن في مقدوره أن يرفض طلبهم . وقالوا له « إن الهادشاه (٢) رجل طاعن في السن تنتابه الأمراض ، ونريد أن يتبوأ ابنكم الأمير سليم العرش بدلاً منك » . وطبقاً للترتيب الموضوع لهذه المقابلة ارتفع إلى عنان السماء صهيب الجنود حتى يدرك السلطان أن الأمر جد وليس بالهزل ، فتهاير حالته النفسية . وقد نجح هذا الترتيب فأذعن السلطان وتنازل عن العرش لابنه سليم . وبعد عشرين يوماً طلب الوالد من ابنه السلطان سليم الأول أن يأذن له في مغادرة إستانبول والتوجه إلى مسقط رأسه في ديموتيقه Demotica ليقضى فيها ما تبقى له في الحياة من خطوات . وفي اليوم الثالث للرحلة توفي في الطريق (٣) .

---

(١) سمندرية هي العاصمة القديمة لبلاد العرب ، وهي تقع عند التقاء نهر الدانوب بنهر مورافا . وإليها سميت ولاية سمندرية .

(٢) الهادشاه - وتكتب في بعض المراجع الهادشاه - عبارة عن كلمتين فارسيتين : هاد ، وشاه ، ومعناها ملك الملوك Rots des Rots . ويقصد بها في هذه الدراسة السلطان . ولذلك ترد هذه اللفظة في بعض الكتب بادشاه آل عثمان ، وفي كتب أخرى بادشاه الإسلام .

(٣) يرى بعض المصاحرين أنه مات حزناً وكداً . ويرى البعض الآخر أنه مات بعد =

وهكذا قام الإنكشارية بالدور الرئيسى فى خلع السلطان « أبى يزيد الثانى » لأنهم ضاقوا ذرعاً بالسياسة السلمية التى اتبعها هذا السلطان فى معظم سنوات حكمه . وانتهزوا فرصة الصراع الذى نشب بين أولاد السلطان الثلاثة على العرش فزجوا بأنفسهم فى هذا الصراع ابتغاء تحقيق منافع لهم ، لأنهم توسعوا فى الأمير سليم الرغبة والمقدرة معاً على دفع عجلة الحروب الخارجية واستئناف سياسة التوسع الإقليمى للدولة العثمانية .

### موقف الإنكشارية من السلطان سليم الأول :

كانت أول مشكلة واجهها السلطان سليم الأول ( ١٥١٢-١٥٢٠ ) هى موقف الإنكشارية منه ، اعتقلوا أنه مدين بعرشه لهم . فأرادوا أن يتقاضوا منه الثمن أضعافاً مضاعفة . كان سليم قد خرج إلى أسوار العاصمة مودعاً والده ، وعاد إلى القصر السلطانى لياشر سلطات الحكم . ولكن ترامت إليه الأنباء بأن الإنكشارية محتشدون فى مظاهرة عسكرية فى الطريق المؤدى إلى القصر ليطالبوا السلطان بمكافآت ضخمة لقاء مساعدتهم له فى ارتقاء العرش . وقد استاء السلطان من هذا التصرف ، فأفسد تدبيرهم وسلك طريقاً آخر وصل منه إلى القصر . ولكن لحق به الإنكشارية واضطروا أن يدفع لكل جندى اشترك فى الحركة خمسين دوكة (٢) . وتشجع أحد الرؤساء وطلب من السلطان زيادة مرتبات العسكريين ، فاستل سليم سيفه ، وبضربة واحدة سرية أطاح برأس هذا القائد .

= أن دس أحد المرافقين له فى الرحلة السم فى الطعام . وهو رأى صائب تؤيده ملايسات الموقف . ويذكر أحد المؤرخين أن سليماً الأول هو الذى قتل أباه أباً يزيد الثانى بمساعدة الإنكشارية .

Grant A. J.; A History etc.; op. cit., p. 213.

(٢) الدوكة Le Ducat هى عملة ذهبية كانت متداولة فى أقاليم الشرق الأدنى . وأقبل التجار والأهالى على التعامل بها نظراً لأنها ذات عيار حال يقرب من أربعة وعشرين قيراطاً . وكانت هذه العملة تضرب فى البندقية . ويطلق عليها البنق تمييزاً لها من « الدوكات النمساوية » . انظر :

دكتور عبد الرحمن فهمى : النقود المتداولة أيام الجبرق . بحيث منشور فى مجلد بمنوان : عبد الرحمن الجبرق . دراسات وبحوث . نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ ص ص ٥٥١-٥٨١ .



### الإنكشارية يجبرون السلطان سليم الأول على إنهاء الحرب :

غير أن خطر الإنكشارية ظل جاثماً على الدولة العثمانية وعلى السلطان سليم الأول بالذات ، على الرغم من أن هذا السلطان كان قد استجاب استجابة فورية لطلبهم توزيع عطايا مالية عليهم بمناسبة توليه العرش ، وكان وقتئذ في السابعة والأربعين من عمره ، إذ سرعان ما ظهر نفوذهم وتدخلهم في شئون الدولة أخطر ما يكون هذا التدخل وذلك النفوذ ، فلم يمض عام وبعض عام حتى استكمل سليم استعداداته للحرب شاملة يشنها على الشاه إسماعيل الصفوي . واندلعت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في فارس . واستطاع سليم أن يوقع هزيمة بالصفويين في موقعة تشالدران (١) في اليوم الثاني والعشرين من شهر أغسطس - آب - عام ١٥١٤ وأن يدخل في العام التالي تبرز عاصمة الدولة الصفوية في ذلك الوقت ، وأن يستولى على عرش الشاه وكنوزه وتحفه ونسائه ، ومضى سليم ينتقل من نصر إلى نصر متوغلاً في أراضي الدولة الصفوية ، وانسحب الشاه إسماعيل إلى داخل بلاده خشية وقوعه في الأسر . وبينما كان سليم في قمة انتصاره إذ حدث تطور في الموقف الحربي . فقد أوقف سليم العمليات الحربية فجأة . وعاد إلى استانبول قانعاً بما استولى عليه من كثير من بلاد أرمينية وما بين النهرين . وكان سبب هذا التطور المفاجئ هو أن الإنكشارية طلبوا من السلطان سليم لإنهاء الحرب (٢) وخشى سليم أن يعملوا إلى التمرد وهو بعيد عن بلاده . وينتظر الشاه إسماعيل هذه الفرصة الذهبية ويعيد الكرة على الجيش العثماني . وقد ينال منه منالاً عظيماً ويتعرض الجيش للتمزق .

---

( ١ ) تشالدران سهل يقع بين العاصمة تبريز وبحيرة أرمية .

( ٢ ) تختلف المراجع التاريخية في ذكر السبب الذي تدرج به الإنكشارية لمطالبهم السلطان سليم بإنهاء العمليات الحربية . فتذكر بعض المراجع أنهم تملأوا بسوء الأحوال الجوية في فارس ، بينما تذكر مراجع أخرى أنهم تدرجوا بحجة أخرى هي الاكتفاء بالانتصارات التي حققوها للسلطان في هذه الحرب نظراً لخطورة تعقب الشاه إسماعيل بسبب وعورة المسالك وكثرة المستنقعات ووجود الغصاب .

### الإنكشارية يدبرون حركة تمرد على عهد السلطان سليمان المشرع :

دبر الإنكشارية حركة عصيان في شهر مارس - آذار - عام ١٥٢٥ في إستانبول عقب عودة السلطان سليمان المشرع ( ١٥٢٠ - ١٥٦٦ ) إليها من أدرنة حيث كان يقضى فصل الشتاء . وقاموا بنهب قصر الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، وكان وقتذاك في مصر ، كما هاجموا الديوان جبركي - ديوان الجمارك - وعدداً من مساكن الأعيان ، ثم اتجهت جموعهم إلى حارة اليهود . حيث قاموا بعمليات النهب والسلب . ويلاحظ أن الهدف من عصيانهم كان اغتصاب الأموال سواء من أماكن حكومية أو أهلية ، وسواء من المسلمين أو اليهود ، وقد تدارك السلطان سليمان الأمر بنفسه بمنتهى السرعة ، فوزع عليهم ألف دوكة Ducats كدفعة أولى تتلوها أقساط أخرى إذا أخللوا إلى النظام . وأنهى الإنكشارية حركة التمرد طمعاً في الحصول على مزيد من العطايا . وقد فاجأهم السلطان بتشتيت شملهم بتوزيعهم على عدة أماكن يربطون فيها ، ثم ألقى القبض على رؤسائهم الذين تزعموا حركة العصيان فقتل بعضهم وعزل البعض الآخر (١) . وكان من بين المكاسب التي عادت على الدولة من الحروب التي خاضها تباعاً السلطان سليمان المشرع وبخاصة في أوروبا وفي آسيا امتصاص نزعة التمرد من الإنكشارية (٢) . إذ لم يكن لديهم من الوقت متسع لتدبير حركات تمرد يثقلون بها الدولة . ويضاف سبب آخر هو قوة شخصية السلطان سليمان المشرع وشدة بطشه .

### الإنكشارية يعرضون موكب سليم الثاني ويطالبونه بأعطيات :

تعرض السلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) في مسهل حكمه للمهانة على

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٦-٦٧

(٢) يذكر المؤرخون للسلطان سليمان أنه جهز ست عشرة حملة .

انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، مرجع سبق ذكره ،

ج ١ ، الطبعة الأولى . الناشر دار المعارف . القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٦٨٤ ، ص ٦٩٣ -

أيدى الإنكشارية حين دخل إستانبول لأول مرة عقب ارتقاءه العرش مباشرة وسط مظاهرات صاخبة قاموا بها وأظهروا في أثناءها ازدراءهم الشديد له ، إذ اعترضوا طريق موكبه بعربة ملئت تبناً . وتوقف الموكب السلطاني وطالبوا السلطان بدفع مبالغ ضخمة بمثابة إعطيات لم حتى يسمحوا لموكبه بمواصلة التقدم إلى القصر . وقد رضخ السلطان لطلبهم .

### نحدي الإنكشارية للسلطان مراد الثالث :

وعلى عهد السلطان مراد الثالث ( ١٥٧٤ - ١٥٩٥ ) طالب الإنكشارية بتسليمهم كل من الباشا دفتردار (١) وكان يتولى المسئولية عن أموال الإمبراطورية كلها ، ومحمد باشا بكسر بك الروملی (٢) ، وهو رئيس البكوات الصناجق ويشمل نفوذه الولايات العثمانية في أوروبا . وكانت مدينة صوفيا مقر قيادته . وكان يحمل ثلاثة أطواخ (٣) ولقب باشا (٤) ، ويمثل السلطان كقائد أعلى في الولايات الأوروبية ، ويتعين على الأمراء أنفسهم أن يطيعوه ويخضعوا له (٥) . وكانت حجة الإنكشارية في طلبهم القبض على هذين الموظفين الكبيرين أنهما أرادا أن يصرفا لم نقوداً قضية ناقصة المعيار . وكانت الحكومة المركزية في إستانبول قد لجأت فعلاً إلى هذا الإجراء

---

(١) كان الباشا دفتردار هو دفتردار الرومل أول الأمر ، وكان يتولى الشؤون المالية في ولاية الهجر ومنطقة الدانوب . وكان السلطان سلجان المشرع هو الذي أنشأ منصب دفتردار الرومل . فلما ضاعت الهجر في أواخر القرن السابع عشر ألغت الدولة هذا المنصب ، وأصبح دفتردار الرومل يلقب بإسم الباشا دفتردار . وغدا مقره إستانبول .  
انظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. 1, Part, 1, p. 129, Fn. No. 5.

(٢) يرد ذكره في بعض المراجع بكسر بك روم ليل .  
(٣) سبق أن شرحنا مدلول لفظة أطواخ في ص ص ٣٦٤ - ٣٦٥ في هذه الدراسة .  
(٤) كان بكسر بك الرومل أعلى مرتبة من زميله بكسر بك أناضول ، أى باشا الأناضول ، وكانت ألقاه مقر قيادته حتى عام ١٤٥١ ثم أصبحت كوتاهية مقر قيادته .  
(٥) بروكلان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص

لمواجهة زيادة حجم الإنفاق العسكرى نتيجة تضخم عدد أفراد الإنكشارية بعد أن سمح السلطان مراد الثالث للمجندين المسلمين الأحرار بالالتحاق بالفيالق الإنكشارية كما رأينا فى الفصل السابق . ولما لم تستجب الدوائر العليا فى الدولة لطلب الإنكشارية جمعوا جموعهم واتجهوا إلى سكن كل منهما وضربوا حصاراً حول داريهما . ومنعوا دخول أو خروج أحد ، ثم اقتحموا الدارين وقتلوهما شر قتلة . وعجز السلطان وحكومته عن منع الإنكشارية من ارتكاب جريمتى القتل . وذهبت هاتان الشخصيتان ضحية طغيان الإنكشارية . وكان قتلها تحدياً صارخاً لأكبر شخصية فى الدولة ، وهو السلطان مراد الثالث ، ومشجعاً فى ذات الوقت لبعض الفرق الأخرى فى الجيش على القيام بثورات أو حركات عصيان مثل فرقة الخيالة التى قامت بثورة بعد ذلك بسنوات قليلة على عهد السلطان مراد الثالث ، وثورة أخرى فى سنة ١٦٠٣ إبان حكم ابنه السلطان محمد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣) ، ولكن كانت هذه الحركات قليلة إن لم تكن نادرة ، وكانت تحدث على فترات متباعدة ، وأهم من ذلك كله لم تبلغ درجة الخطورة التى كانت تبلغها حركات الإنكشارية .

#### الإنكشارية يعزلون ثم يعدمون السلطان عثمان الثانى :

اشتهر السلطان عثمان الثانى ( ١٦١٨ - ١٦٢٢ ) فى تاريخ الدولة العثمانية بلقب « كنج » بمعنى الحدث أى صغير السن الذى لم يبلغ الحلم . فكان يطلق عليه كنج عثمان ، لأنه تولى العرش فى سن مبكرة غير مسبوقة بمثل . وطبقاً لما يذكره أحد الباحثين كان عثمان من مواليد سنة ١٦٠٤ (١) . وهناك سبب آخر لإطلاق هذا اللقب عليه هو تمييزه عن عثمان الأول مؤسس الأسرة والدولة . وقد استخف به الإنكشارية وثاروا عليه وطلبوا منه إنهاء الحرب التى كان يخوضها ضد بولندا . وكان موقفهم يتعارض مع تقاليدهم بصفته

---

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٧ .

جنوداً محترفين ، ووظيفتهم الوحيدة هى القتال يستهوى أفئدتهم . واضطر السلطان إلى النزول على رغبتهم ، وعقد الصلح مع البولنديين فى أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٦٢٠ . وحق السلطان على الإنكشارية لموقفهم الخفى ، فقد أوقف العمليات الحربية وعقد الصلح دون أن يحقق جميع أهدافه من هذه الحرب . فاعززم السلطان عثمان الثانى تصفية قوات الإنكشارية . وأمر بمحشد قوات عسكرية كثيفة العدد من ولايات آسيا حتى إذا كملت هذه القوات عدداً وعدة استعان بها على إبادة هذه الفئة من الإنكشارية . وشرع فعلاً فى تنفيذ خطته . وأحسن الإنكشارية بهذه الحركة واثارت ثأرتهم . ووطدوا العزم على عزل السلطان عثمان الثانى . ونجحوا فعلاً فى عزله فى اليوم الثلاثين من شهر مايو - آيار - عام ١٦٢٢ ، وهجموا عليه فى القصر السلطانى وأخلدوه إلى ثكناتهم ، وأوسعوه سباً وشتماً وضرباً ، ثم ساقوه إلى يدى قوله - قلعة الأبراج السبعة - التى أصبحت السجن الرسمى للدولة (١) حيث تم إعدامه (٢) . وقد كان لإعدام السلطان أصداء بعيدة ، إذ انتشرت الرهبة فى دوائر الحكومة وفى شتى القطاعات الجاهلية . وعلا شأن الإنكشارية علواً كبيراً ، وأخذوا يولون الوزراء ويعزلونهم .

#### الإنكشارية يقتلون الصدر الأعظم إبان حكم السلطان مراد الرابع :

لم يمض وقت طويل على قتل السلطان عثمان الثانى حتى أقدم الإنكشارية على قتل حسن باشا الصدر الأعظم على عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٨) (٣) . وقد بدأت أحداث هذه الجريمة حين أصدر السلطان مراد

(١) كان السلطان محمد الثانى - عقب فضحه القسطنطينية عام ١٤٥٣ - قد أمأ إنشاء الأسوار المحيطة بها ، وشيد عند طرفها الجنوبي الغربى ، إلى جانب بحر مرمره ، هذه القلعة .

(٢) محمد فرید بك : مرجع سبق ذكره ، ص ١١٨ - ١٢٠ .

(٣) تولى عرش الدولة بعد السلطان القاتل عثمان الثانى سلطان آخر ، أو بعبارة أكثر دقة أميد للعرش السلطان مصطفى الأول (١٦٢٢ - ١٦٢٣) لأنه كان قد سبق أن ارتقى العرش (١٦١٧-١٦١٨) ، ثم خلع ، ثم أميد عام ١٦٢٢ وظل متربطاً على العرش إلى أواخر شهر أغسطس - آب - عام ١٦٢٣ حيث خلع بإشارة المدعو كما نكش على باشا الصدر الأعظم لمصفىه

فرماناً بعزل خسرو باشا الصدر الأعظم وإعادة حافظا باشا إلى منصب  
الصدارة العظمى . فأراد الباشا المعزول أن يكيد كيداً للسلطان ، فاتصل  
برؤساء الإنكشارية وأبلغهم أن السلطان لم يعزله من منصبه إلا لأنه كان  
متعاطفاً مع الإنكشارية ويسارع إلى تنفيذ رغباتهم . فثار الإنكشارية وطلبوا  
بإعادة خسرو باشا إلى منصبه . وأصر السلطان مراد الرابع على موقفه ،  
فأشعل الإنكشارية فتنة كبيرة في العاصمة ، وقتلوا حافظ باشا الصدر الأعظم  
في اليوم التاسع من شهر فبراير - شباط - عام ١٦٣٢ ، وكان السلطان قد  
أخفق في بسط حمايته عليه . ولكنه عمد إلى الرد عليهم رداً عملياً ، فأمر بقتل  
خسرو باشا على أساس أنه محرك الفتنة العسكرية التي قام بها الإنكشارية ،  
وأصدر فرماناً بتعيين بيرام محمد باشا صديراً أعظم . وأصر السلطان على  
المضي في خطته وهي إبادة الإنكشارية ، وأمر بقتل رؤسائهم الذين شاركوا  
في الفتنة كخطوة أولى ، فلما فرغ منها أمر بتوسيع عمليات القتل لتشمل  
كل من يثبت عليه أنه شارك ولو مشاركة جانبية في الفتنة التي أشعلوها .  
فلجأ الإنكشارية إلى خداع السلطان ، وتظاهروا بأنهم يلتزمون بقواعد  
الإنضباط العسكرية ، وأنهم يكونون للسلطان مراد الرابع كل تقدير  
وينفذون أوامره تنفيذاً صارماً ويطيعونه طاعة عمياء . واستهدفوا من  
هذا التظاهر التويه على السلطان كي يوقف المذابح التي أمر بها . ولكنهم  
كانوا يبيتون أمراً آخر .

فلم يكد يمر شهران وبعض شهر حتى قاموا بحركة عصيان بقيادة  
رجب باشا في شهر مايو - آيار - في ذات السنة ( ١٦٣٢ ) ، فأمر

---

= حزمته ووهن قواه العقلية . والحق أن هذا السلطان كان من أتمس سلاطين الدولة ، لأنه قضى  
حياته قبل توليه العرش معزولاً عن العالم في القفص ( أنظر ما سبق ص ٣٥٠-٣٥١ ) . فلما  
تولى العرش أول مرة كان عديم التجارب . ولم يكن يدرى شيئاً عن أحوال الدولة . ولم يكن  
قد مارس أعمالاً عامة . وقد أطلق عليه في تاريخ الدولة لقب الممتوه أو الأبله . ويرد ذكره في  
المراجع الفرنسية مقروناً بوصف L'idolet بنفس المعنى السابق . وتولى العرش بعد عزله للمرة  
الثانية السلطان مراد الرابع . وظل السلطان العتيق مصطفي الأول مبدئاً عن العرش وعن المجتمعات  
إلى أن قضى نحبه في سنة ١٦٣٩ .

السلطان بقتله وإلقاء جثته من شباييك القصر حتى يراها الإنكشارية (١) . ومضت السنوات الأخيرة من حكم هذا السلطان في جو هادئ نسبياً إذ أدرك الإنكشارية أنهم أمام سلطان قوى مقتدر .

### الإنكشارية يعزلون ثم يختفون السلطان إبراهيم الأول :

من الجرائم البشعة التي ارتكبتها الإنكشارية أنهم قتلوا خنقاً السلطان إبراهيم الأول ( ١٦٤٠-١٦٤٨ ) . وكانت الحجة التي استدلوا إليها أن السلطان يقف موقفاً عدائياً منهم ، وأخلوا يتناولونه بالنقد والتجريح ، واستقر رأيهم على عزله ، وانهزوا فرصة زواج إحدى بنات السلطان من ابن الصدر الأعظم . وفي ليلة الزفاف اجتمعوا في أورطة جامع - مسجد الفرقة - وانضم إليهم بعض علماء الدين وشيخ الإسلام عبد الرحيم أفندي . وقرروا عزل السلطان إبراهيم وتولية ابنه محمد الرابع ( ١٦٤٨-١٦٨٧ ) واتخذوا إجراءات عسكرية واسعة النطاق لتنفيذ قرارهم . وتمت هذه الثورة في اليوم الثامن من شهر أغسطس - آب - عام ١٦٤٧ . وبدأ أن زمام الموقف في أيديهم . ولم تكد تمر عشرة أيام حتى أظهر رؤساء فرق الجيش الأخرى عدم ارتياحهم لتولية سلطان صغير السن عرش الدولة وطالبوا بإعادة السلطان إبراهيم إلى العرش . ورأى الإنكشارية إزاء هذه المعارضة أن يضعوا الجميع أمام الأمر الواقع . وقرروا قتل السلطان إبراهيم . وسرعان ما قاموا بحركة تمرد وانجهدت جموعهم ومعهم الجلاد - قره علي - إلى حيث يقم السلطان وقتلوه خنقاً (٢) . كما قتلوا السلطان عثمان الثاني من قبله . وارتاحت نفوس الإنكشارية لهذا الانتصار الرخيص وانفسح المجال رحباً أمامهم كي يعيشوا في الأرض فساداً منتهزين فرصة تولي سلطان صغير السن هو محمد الرابع ( ١٦٤٨-١٦٨٧ ) عرش الدولة ، وعمت الاضطرابات أرجاء البلاد وتعرضت الدولة لهزائم أمام روسيا والنمسا والمجر وغيرها . وتدهور موقف الدولة إلى أسوأ مما كان قد وصل إليه قبل أن يلي الحكم السلطان مراد الرابع . ومع ذلك فلن السلطان

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

الجديد - محمد الرابع - على الرغم من حكمه الطويل لقي نفس المصير الذي لقيه معظم أسلافه . فقد عزله الإنكشارية في اليوم الثامن من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٦٨٧ ، وولوا أخاه السلطان سليمان الثاني وهو ابن السلطان إبراهيم الأول الذي سبق أن قتلوه ختفًا . أما السلطان المعزول - محمد الرابع - فلم يتعرض له الإنكشارية بالقتل ، وظل معزولاً قرابة خمس سنوات حتى قضى نحبه في اليوم السابع عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٦٩٢ .

**الإنكشارية يعمدون إلى قتل الصدر الأعظم وسبي زوجاته أيام السلطان سليمان الثاني :**

اغدق السلطان سليمان الثاني ( ١٦٨٧-١٦٩١ ) العطايا على الإنكشارية وصفح عن عصيانهم الذي كانت نتيجته عزل السلطان محمد الرابع . ولكن لم تثمر الثمرة المرجوة سياسة المال والصفح التي انتهجها هذا السلطان مع الإنكشارية ، إذ اتخذوا إلى حركات العصيان سبيلاً . فحاصروا قصر سياوس باشا الصدر الأعظم ، ثم اقتحموه ، وقتلوا الصدر الأعظم وعرف باسم قتيل الإنكشارية ، وألقوا القبض على زوجاته واتخذوهن سبايا . وأصبحت إستانبول تموج بالفتن والاضطرابات مما شجع أعداء الدولة على مهاجمة الممتلكات العثمانية الأوروبية : في النمسا ، والمجر ، وبلاد اليونان ، والصرب .

**الإنكشارية يطالبون بقتل شيخ الإسلام والصدر الأعظم وقبودان باشا :**

نشبت الحرب بين الدولة العثمانية على عهد السلطان أحمد الثالث ( ١٧٠٣-١٧٣٠ ) وبين الدولة الصفوية على عهد الشاه طهاسب الثاني ( ١٧٢٢-١٧٣٢ ) . وكان السلطان العثماني عزوفاً عن الحرب ، رغب في تسوية النزاع القائم بين الدولتين بالطرق السلمية . ولكن ثار الإنكشارية في اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٧٣٠ على سياسته السلمية ، إذ تحول بينهم وبين الحصول على غنائم الحرب وما تتيحه فتوح المدن من ممارسة



عمليات السلب والنهب . وتزعّم ثورة الإنكشارية بطرونا خليل (١) . وطلب من السلطان قتل شيخ الإسلام والصدر الأعظم وقبودان باشا - قائد السلاح البحرى العثماني - بحجة أنهم يؤيدون السلطان في انتهاج سياسة سلمية تجاه الدولة الصفوية . ورفض السلطان الاستجابة لطلبهم أول الأمر . ولكنه تراجع عن موقفه حين تأكد من إصرارهم على قتلهم طوعاً أو كرهاً ، وخشى أن تمتد شرور الإنكشارية إليه ، فسمح لهم بقتل الصدر الأعظم وقبودان باشا والإبقاء على حياة شيخ الإسلام خوفاً من إثارة الرأى العام عليه . وقبل الإنكشارية هذا الحل على مضض . وقتلوا الصدر الأعظم وقبودان باشا ، وألقوا بجثثهما في البحر في أول أكتوبر - تشرين أول - ١٧٣٠ . وعلى الرغم من ذلك ، فلم يمنع رضوخ السلطان لطلبات الإنكشارية من تطاولهم عليه . وشجعهم على هذا التطاول تساهله المستمر معهم . فأعلنوا في مساء ذات اليوم عزل السلطان ونادوا بتنصيب ابن أخيه السلطان محمود الأول . وأدعن السلطان أحمد الثالث لطلب الإنكشارية بدون معارضة . وظل معزولاً إلى أن جاز إلى ربه في اليوم الخامس من شهر أبريل - نيسان - عام ١٧٥٨ (٢) .

### الإنكشارية يقتلون رئيسهم :

لم تكن شرور الإنكشارية مقصورة على السلاطين والصدور العظام وكبار رجال الدولة فحسب ، بل امتدت إلى زعمائهم . لم يكن للسلطان محمود الأول ( ١٧٣٠-١٧٥٤ ) من السلطة إلا اسمها . واستأثر بالنفوذ بطرونا خليل رئيس الإنكشارية الذى قاد حركة الانقلاب وعزل السلطان أحمد الثالث بعد أن قتل الصدر الأعظم وقبودان باشا . فكان يعزل من يشاء ويولى من يشاء من كبار الموظفين تبعاً لأهوائه ، وأصبح كبار رجال الدولة يتملقون هذا الزعيم الإنكشارى . وقد أوغل في استبداده حتى عيل صبر السلطان محمود الأول .

---

(١) يرد ذكر اسمه في بعض المراجع على هذا النحو : بطرونا خليل .

(٢) بما يذكر لهذا السلطان أنه أدخل المطبعة في إسطنبول وأسس دار طباعه فيها بعد أن استصدر فتوى من شيخ الإسلام تجيز هذا الإجراء واشترط الأخير ' عدم طبع القرآن الكريم خشية وقوع أخطاء مطبعية أو تحريف فيه .

وفي ذات الوقت تحركت الإطباع في نفوس أفراد القبائل الإنكشارية. وطالبوا زعيمهم بترونا خليل بتحسين أوضاعهم المالية . ولكنهم وجدوا على عكس ما كانوا يتوقعون أنه يستولى على بعض غنصصاتهم، فاتفقوا على التخلص منه معتمدين على كثرتهم العددية وتم لهم قتله دون أن يتحرك أحد للدفاع عنه . وهكذا انطبق على الإنكشارية القول إن الثورات تأكل بنينا . وبقتل هذا الزعيم عادت السكينة إلى إستانبول وأمن سكانها على أموالهم وأرواحهم . وباشر السلطان محمود الأول سياسة حربية نشيطة ضد الدولة الصفوية في فارس ثم ضد النمسا والروسيا .

### السلطان مصطفى الثالث يتجنب الاحتكاك بالإنكشارية :

ولما تولى العرش السلطان مصطفى الثالث ( ١٧٥٧-١٧٧٤ ) أراد أن يعضى في حكمه آمناً مطمئناً من الإنكشارية حتى لا يصيبه منهم ما أصاب أسلافه . واتجه إلى تطوير السلاح البحرى وسلاح الطوبجية - المدفعية - واستقدم عدداً من الخبراء العسكريين الأوروبيين . وكان من بينهم البارون دى توت De Tott وهو مجرى الأصل ، التحق والده بخدمة الحكومة الفرنسية وحصل على الجنسية الفرنسية . وأوفدت حكومة باريس ابنه البارون دى توت إلى إستانبول حيث عكف على إصلاح سلاح المدفعية وسلاح البحرية (١) . وكانت الحرب الروسية العثمانية على أشدها ، وهى الحرب التى انتهت بمعاهدة كتشك كينارجى Kiciik Kaynarca في اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٧٧٤ (٢) . ولم تثمر إصلاحات السلطان مصطفى الثالث ، لأنها لم تمتد إلى القوات الضاربة الرئيسية في الجيش وهى

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على . الناشر مطبعة الماعوف ومكتبتها بمصر . لم تذكر سنة الطبع ، ص ص ٧٦ - ٨٠ .  
 (٢) عقدت معاهدة كتشك كينارجى بعد أن جاز إلى ربه السلطان مصطفى الثالث في اليوم التاسع من شهر شوال عام ١١٨٧ - الموافق اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - ١٧٧٣ وأبرمت المعاهدة في مستهل حكم أخيه السلطان عبد الحميد الأول .

البيادة - المشاة - ومن بينها الفيالق الإنكشارية (١) .

### تعود الإنكشارية على الدولة في الصرب :

من الصور التي يتشع بها تاريخ الإنكشارية أنهم قاموا بحركة عضيان ضد الدولة في الصرب في السنوات الأولى من حكم السلطان سليم الثالث ( ١٧٨٩-١٨٠٧ ) . كانت الحرب قد اندلعت بين الدولة العثمانية وبين روسيا والنمسا في التاسع من شهر فبراير - شباط - عام ١٧٨٨ ليان حكم السلطان عبد الحميد الأول ( ١٧٧٤-١٧٨٩ ) . واستطاعت هاتان الدولتان إزال هزائم بالقوات العثمانية في اليوم الواحد والثلاثين من شهر يوليو - تموز - واليوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - من عام ١٧٨٩ . وفي أثناء اشتعال هذه الحرب هزعت جموع كثيفة العدد من أهل الصرب إلى البحر حيث انضم أفرادها جنوداً بواسل إلى الجيش النمساوي أملاً في أن تنهى الحرب بهزيمة ساحقة للدولة العثمانية ، ويستطيع الصربون التخلص من الحكم العثماني لبلادهم . ولكن لم تؤد الحرب إلى نتيجة حاسمة بسبب نشوب الثورة الفرنسية في منتصف عام ١٧٨٩ وانصراف حكام أوروبا إلى مراقبة تطوراتها ونتائجها على بلادهم . وتدخلت بين الدول الثلاث المتحاربة بعض الدول المعادية لفرنسا مثل إنجلترا وبروسيا فتوقفت العمليات الحربية بعقد هدنة مع النمسا عام ١٧٩٠ تلتها معاهدة صلح معها في ٤ من أغسطس - آب - ١٧٩١ ردت النمسا بمقتضاها معظم الأراضي التي احتلتها إلى الدولة العثمانية ، ثم دارت مفاوضات طويلة مضيئة مع روسيا تدخلت فيها بعض دول أوروبا لإنجاحها ، وأسفرت عن إبرام معاهدة صلح في اليوم التاسع من شهر يناير - كانون ثان - ١٧٩٢ احتفظت فيها روسيا لنفسها ببعض الأقاليم التي كانت قد استولت عليها في أثناء الحرب .

ولما عاد الصربيون إلى بلادهم عقب انتهاء الحرب تعرضوا لعمليات

(١) دكتور السيد رجب حراز . الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب . ( ١٨٤٠ - ١٩٠٩ ) ، القاهرة ، ١٩٧٠ . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، ص ١٥ - ١٦ .

السلب والنهب والقتل بصورة وحشية لم يسبق لها من قبل مثيل على أيدي الإنكشارية . وكانت الذريعة التي استندوا إليها هي أن الصريين انضموا إلى أعداء الدولة فلا مناص من التكتيل بهم . وكان هذا القول تبريراً يتسترون به على غرضهم الحقيقي والأوحد ، وهو تحقيق منافع شخصية وعاجلة لم بطريق غير مشروع . وكان تصرفهم مدعاة لإحراج الباب العالي أمام النمسا . إذ نصت الفقرة الثانية من المادة الأولى من معاهدة الصلح على أن « يمنع كل من الطرفين حصول التعدي والإهانة على الآخر ، ويعفو عن كل من اشترك في الحرب من رعايا أحد الطرفين ضد الآخر ، وعلى الأخص جميع صنوف أهالي الجبل الأسود والبوسنة والصرب والأفلاق والبغدان ، بحيث يكون لم الحق بمقتضى هذا العفو العمومي في الرجوع إلى أوطانهم والتمتع بجميع أملاكهم وحقوقهم أيّاً كانت بدون أن يسألوا أو يحاكموا أو يعاقبوا على عصيانهم جلالة السلطان صاحب السيادة عليهم والخليفة الأعظم ، أو لإظهار ولائهم لجلالة إمبراطور النمسا » (١) .

أرسل الباب العالي تعليمات عاجلة إلى السلطات العثمانية الحاكمة في بلغراد استنكر فيها تصرفات الإنكشارية ضد الصريين ، وقال إنه أصدر عفواً عاماً لجميع أهل الصرب . وطلب أن تصدر السلطات العثمانية في بلغراد أوامر مشددة إلى الفياقي الإنكشارية بعدم الاعتداء على الصريين . غير أن الإنكشارية لم يحفلوا بهذه الأوامر واستمروا في غيهم . وتوالت شكايات الصريين على الحكومة المركزية في إستانبول . فأصدرت أمراً إلى والي بلغراد بالتصدي للإنكشارية وطردهم من الأراضي الصربية كلية . وسارع الوالي إلى تنفيذ هذا الأمر وخاض ضدهم قتالاً معتمداً على بقية القوات التي لديه ، وكان على رأسها السباهية - الفرسان الإقطاعيون - وتغلب عليهم ، ولقي رئيسهم « ولى أحمد » مصرعه .

**الإنكشارية ينضمون إلى أحد الثائرين العتاة :**

لجأ الإنكشارية إلى أحد المغامرين الثائرين العتاة ، وهو بازوند

أوغل (١) ، ويعرف أيضاً باسم عثمان باشا . شق عصا الطاعة على الدولة ، واتخذ من ولاية ودين (٢) في بلغاريا مقراً له ، وجمع فيها حوله قطاع الطرق والإنكشارية المتلمرين الذين أخرجوا من الصرب . ووجدت الدولة عليه قوات جراحة ، ولكنه انتصر عليها ، فأرسلت إليه كوجك حسين باشا (٣) وظلت الحرب بينهما بجالا . وخشي حسين باشا أن يخلو حكام الولايات العثمانية في البلقان حلوا هذا التأثير ويقومون بثورات ضد الدولة . وأخذ السلطان سليم الثالث باقتراح حسين باشا وهو منح التأثير عثمان حكم ولاية ودين طوال حياته . وكان هذا التأثير من أكبر المعارضين لمشروع تطوير الجيش ومن أشد خصوم السلطان سليم الثالث عنفاً (٤) . وكان من الطبعي أن يتصوى

---

(١) يرد ذكر اسمه في بعض المراجع : باسبان أوغل ، بازواند أوغل ، نازوانت أوغل ، بازواند زاده عثمان .

(٢) يرد ذكرها في بعض المراجع العربية فيدين استناداً إلى اسمها بالفرنسية Viddin وهي مدينة حصينة في بلغاريا ، وتقع على نهر الدانوب وهي ذات موقع إستراتيجي هام وتبعد ٢٢٥ كيلو متراً عن بلغراد . واكتسبت شهرة خاصة في تاريخ الدولة العثمانية ، إذ كانت مقراً للتأثير بازواند زاده عثمان .

(٣) يد كوجك حسين باشا من أحلام العسكريين العثمانيين . وكان الذراع الأيمن للسلطان سليم الثالث في تنفيذ مشروع تطوير القوات المسلحة العثمانية . وتطابقت وجهتا نظرها في ضرورة التخلص من الإنكشارية بعد أن أصبحوا عنصر فساد في جسم الدولة ومن أسباب تأخرها . وقد ظفر بتقدير عميق من سليم الثالث وزوجه إحدى أخواته . وعينه عبوداً عاماً أي رئيساً للسلح البحري العثماني . وبذل جهوداً كبيرة في إصلاح النور وإقامة القلاع الحصينة لحمايتها ، وأنشأ عدة سفن حربية على شرار أحدث السفن الإنجليزية والفرنسية . واستقدم عدداً كبيراً من مهرة المهتمين من السويد وفرنسا لنصب المدافع ، وأدخل تطويراً جذرياً في المدرسة البحرية ومدرسة الطبجية - المدفعية - متشياً مع أحدث النظم في المدارس العسكرية الأوروبية . وظل الرغم من أنه كان قائداً للسلح البحري ، فإنه أنشأ في سنة ١٧٩٦ فرقة مشاة وفقاً للنظام الجديد ، وجعل عددها ١٦٠٠ جندي ، وعهد بتدريبهم إلى ضابط إنجليزي اعتنق الإسلام واشتهر باسم « إنجليز مصطلق » .

(٤) كان عثمان باشا الملقب بازواند أوغل ( ١٧٥٨ - ١٨٠٧ ) من أسرة نخسارية اعتنقت الإسلام . وكانت تقيم في مدينة توزله من أعمال البوسنة في النمسا . وأقطعت الدولة في عام ١٧٣٩ على عهد السلطان محمود الأول ( ١٧٣٠ - ١٧٥٤ ) جده المسمى باسبان أها قريتين بالقرب من ودين في بلغاريا مكافأة له على حسن بلائه في الحرب التي خاضتها الدولة ضد روسيا والنمسا عام ١٧٣٦ ، وكانت الجيوش النمساوية قد أغارت على -

= البوسنة والصرب وغيرهما . ولم يقتصر ميراث ابنه - عمر أغا باسيان أوغل - على هاتين المقريتين اللتين آلتا إليه ، بل كان بصفته بركةداراً - حامل العلم - رجلاً ثرياً مرموقاً . وقد قتله والى الجبهة لأنه شق عليه عصا الطاعة . وكاد يلقى ابنه عثمان نفس مصير والده لولا أنه فر إلى ألبانيا . ولكنه عاد إلى انفسا بعد أن اشترك في الحرب التي اشتملت مرة أخرى بين الدولة وبين روسيا وانفسا عام ١٧٨٨ م نزح إلى ولاية ودين عام ١٧٩١ ، وفيها انشغل هو ورجاله في إعداد الحملات التي كان يبيت بها إلى الأطلاق والصرب ضد الدولة العثمانية . ولما أراد السلطان سليم الثالث مفاقته أعلن عثمان عصيانه عام ١٧٩٣ واعصم بالجبال ، وغزا إقليم ودين في أواخر ١٧٩٤ مستعيناً بمصايبات قطاع الطرق والإنكشارية ، ثم هاجم في سنة ١٧٩٥ الحاج مصطفى باشا والى بلغراد . وكان الأخير من أنصار تطور الجيش العثماني وعهدت إليه الدولة بالتخلص من عثمان ، إلا أنه أخفق في تأديبه أو قتله . فأرسل الباب العالي عدة فرق لمحاربته ، ولكنها فشلت في التغلب عليه . ورأت الدولة اتباع الطريق السلمي ابتداء بإعادته إلى حظيرتها رجلاً من رجالاتها . ودارت اتصالات بينها وبينه في أواخر عام ١٧٩٥ ، وأخفق الحل السلمي وظل عثمان مستعلاً بالقطاع الشمالي من بلغاريا . ولم تتعرف الدولة رسمياً به ، فسد هذا إلى طرد الولاى العثماني في ودين . وقام عثمان بغزو الولايات المجاورة عام ١٧٩٧ واحتل وهدد في الشرق بلداناً كثيرة في بلغاريا ثم اتجه إلى بلغراد وقصصها ولكن استعصت عليه قلعة هذه المدينة ، إذ نجح في الاحتفاظ بها العثمانيون والصربون الذين سلحهم الحاج مصطفى باشا والى بلغراد .

وزاد من خطورة عثمان أن اتصالات دارت في الخفاء بين فرنسا وبينه لتنسيق الصليبات الحربية ضد الدولة . ووقف الباب العالي على أمر هذه المحادثات ، فأرسل قوات كثيفة العدد بقيادة كوزيك حسين باشا وحاصرت ودين حتى أكتوبر ١٧٩٨ ثم رفعت الحصار بسبب وصول الحملة الفرنسية إلى مصر في مطلع شهر يوليو - تموز - عام ١٧٩٨ ونجاحها في دخول القاهرة وانصراف الدولة إلى مواجهة هذا الموقف العسكري والسياسي الجديد . كما أنها غشيت اتساع حركة المصيان في البلقان فأخذت بمصيعة كوزيك حسين باشا وعقدت على كرهها صلحاً مع عثمان ومنحته لقب باشا عام ١٧٩٩ .

وكان عثمان باشا يصرح بمعارضته لتطوير الجيش ، وباحتقاره للحكومة المركزية في إسطنبول ، وبعدم ولائه للسلطان سليم الثالث ، مما يدل على أنه لم يكن صادق النية في قبول الصلح . وقد أرسل عدة حملات لنهب ولاية الأطلاق في عامي ١٨٠٠ ، ١٨٠١ . وبمساعده نجح الإنكشارية في احتلال قلعة بلغراد في صيف ١٨٠١ وفي قتل الحاج مصطفى باشا في أواخر العام نفسه .

ولم يقنع عثمان باشا بما حققه من نجاح ، فسمى جاهدًا لدى بعض الروسيا كي يعتبره من رعاياه المخلصين . وعرض خدمته على فرنسا . واستبان للباب العالي أن عثمان يتأرجح في ولائه للدولة ، فقرر معارضة عام ١٨٠٣ ولم يكذب يبدأ القتال حتى توقف بسبب ثورة الصرب عام ١٨٠٤ . ثم وجد عثمان باشا في ظهور الروس حل الصفة اليسرى لهر الدانوب عام ١٨٠٦ فرصة لمصالحة =

الإنكشارية تحت لواء هذا التأثير، واستطاعوا بمساعدته حصار بلغراد، ثم دخلوها وقتلوا واليها وانتشروا في أطراف البلاد يهبون ويسرقون . ولما ضاق الصربون ذرعاً بالإنكشارية اجتمعوا لمناقشة وسائل الدفاع عن أرواحهم وأعراضهم وأموالهم . واستقروا رأياً على ضرورة ردع الإنكشارية باستخدام القوة ضدهم . ولانتخبوا رئيساً لهم منهم هو قره جورج Kara George أى جورج الأسود وهو سليل أسرة كارچيفيتش Kargeorgevic وطاردوا الإنكشارية وأبعدهم عن القرى وضيقوا عليهم الخناق حتى حصروا إقامتهم في المدن . وكان ساكنوها متحزين للانقضاض عليهم إذا حدثتهم أنفسهم بالسلب والنهب أو أية صورة من صور العدوان . وأدرك الباب العالي خطورة الموقف في الصرب نتيجة تصرفات الإنكشارية، وأدرك أن هذا الموقف ملئ بالمفاجآت . وخشى أن ينقلب قتال الصربين للإنكشارية إلى حركة قومية لا تستهدف القضاء على هذه الفئة الباغية ، بل طرد العثمانيين كلية من الصرب .

= الدولة العثمانية فرضت خدماته عليها، ولكنها أكرمته وعهدت بالقيادة العامة إلى قائد روستيچ مما أثار حفيظة عثمان باشا وصمم على أن يدافع عن ودين وحلها ضد هجمات الروس والصربيين . ولكن عاجلة المنية في ٢٧ يناير — كانون ثان — عام ١٨٠٧ .

والحق أن التقييم المحايد لشخصية عثمان باشا يكشف عن عدة حقائق عنه ، منها : أن الطابع الإسلامي العثماني كان ضعيفاً باهتاً في تصرفاته المتناقضة . وكان رمزاً للخيانة ، تأرجح في ولاءه بين أربع دول هي النمالية والنمساوية والروسية والفرنسية . وكان رائده في هذا التطيُّب تحقيق منافع شخصية وأجناد في مجالات السياسة والحكم والحرب والمسال . وكانت الدولة العثمانية هي أكثر الدول الأربع معاناة من تصرفاته . انقلب عليها ، وساعد الإنكشارية في حركة التمرد التي قاموا بها في الصرب ، وانضم إلى صفوف الجيش النمساوي وحارب القوات النمالية . وصبرت عليه الدولة وصارته مصابة مثابة ، وأصدرت عفواً شاملاً عن جميع جرائمه التي وصلت إلى حد الخيانة العظمى ، وصالحته وعينته والياً على ودين طوال حياته ، وأخذ بجميع منها في حزم واستبداد الكوس والفرائب . ثم عاود أسلوبه غير الأخلاق واتصل بأعداء الدولة لمساندتهم عليها . ولما وجد إصرافاً منهم ، عاد يعرض خدماته عليها ، ولكنها نبذته ، إذ وجدت أنه وصولي متقلب ، فكان بحق رمزاً للسياسة المكيافيلية بين باشوات الدولة ينقلب بين عشية وضحاها على أولياء نعمته .

انظر :

فأرسل الباب العالي إلى بكير باشا وإلى البوسنة بأمره بالزحف على بلغراد وطرده الإنكشارية منها . وقد استطاع بكير باشا بقواته ومساعدة الصربيين دخول بلغراد التي كان الإنكشارية معتصمين بها . ونجح في طردهم منها ثم تعقبهم حتى شنت شملهم . وعاد بكير باشا إلى مقر منصبه في البوسنة .

وبعد فترة قصيرة عاود الإنكشارية سيرتهم الأولى . جمعوا فلولهم ومارسوا بحماس مسعور عمليات النهب والسلب ولزهاق الأرواح . فقام الصربيون عام ١٨٠٤ بزعماء قره جورج وقاتلوا العثمانيين قتالا عنيفاً ، لأن الصربيين اعتبروهم مسئولين مسئولية كاملة ومباشرة عن الأعمال الإجرامية التي قام بها الإنكشارية وعن إبتعادهم عن قواعد الانضباط العسكري . وحفلت هذه الحرب بملاحم بطولية ، واتشحت أيضاً بمذابيح دموية بين الطرفين . واستطاع الصربيون مقاومة العثمانيين ثمانى سنوات متعاقبة . ونجح قره جورج في تدعيم مركز الصربيين فحصل في المعاهدة العثمانية الروسية عام ١٨١٢ على وعد بالاستقلال الذاتي لبلادهم ، غير أنه لم يلبث أن دب الشقاق بين الصربيين واضطر إلى الفرار إلى الأراضي النمساوية ، ثم أشعل منافسه وقاتله ميلوش أوبرينسوفيتش Milos Obrenovic ثورة أخرى عام ١٨١٥ ونجح في دعم استقلال الصرب استقلالاً واقعياً *de facto* أي يستند إلى الأمر الواقع (١) ، واستطاع بعد الكثير من التسويات المفضية للحصول على دستور لبلادهم والاعتراف به أميراً للصرب (٢) .

نخرج من هذا العرض السريع لحركات تمرد الفياثي الإنكشارية في الصرب بحقائق هامة ، منها : أن شرور أفراد هذه الفياثي لم تكن مقصورة على إستانبول وضواحيها وعواصم الولايات العربية فحسب ، بل امتدت شرورهم إلى البلقان ، وهي منطقة حساسة ، إذ كانت موطن الثورات قامت بها الشعوب المسيحية البلقانية على الحكم العثماني مدفوعة بعامل القومية من ناحية ، وعامل

---

(١) سبق أن شرحتنا مدلول هذا المصطلح القائلون . انظر ص ص ٢٦٤ - ٢٦٥

في هذه الدراسة .

Grant A.J. and Temperley,; op. cit., p. 203.

(٢)



الدين من ناحية ثانية ، وتشجيع روسيا من ناحية ثالثة . وكان قيام الصربيين بقتال الإنكشارية للحد من شرورهم مقدمة لتطور هذا القتال إلى محاربة الدولة العثمانية لإجبارها على دفع عادية الإنكشارية عنهم ، ثم تطور القتال إلى محاربة الوجود العثماني في الصرب . وكان الصربيون ، وليس اليونانيون ، هم أول شعوب البلقان سعيًا وتحركًا في سبيل حرية البلقان ، فهم الذين أشعلوا الشرارة الأولى عام ١٨٠٤ بزعماء قره جورج ، على الرغم من أن الصرب كانت أكثر خضوعًا لإستانبول من إقليمى مولداڤيا ، وولاشيا (١) . وكان ضعف الدولة العثمانية وتردها أو تلكوها في الضرب على أيدي الإنكشارية في الوقت المناسب مما شجع شعوب البلقان على القيام بحركات استهدفت الانفصال عن الدولة واستقلال هذه الشعوب .

### سليم الثالث يعين قائد الإنكشارية صدرًا أعظم :

أبدى السلطان سليم الثالث ( ١٧٨٩ - ١٨٠٧ ) منذ أن ارتقى العرش اهتماماً عميقاً بإدخال « النظام الجديد » في الجيش وذلك بإعادة تنظيم الفرق العسكرية وتطوير أسلحتها وتدريبها على غرار الجيوش الأوروبية الحديثة . واتخذ الزى الأوروبي للجيش ، وشيد ثكنة خاصة به ، واستقدم من أجل تعليمه وتدريبه خبراء عسكريين من بعض الدول الأوروبية ، ولكن اعترض الإنكشارية على هذه السياسة الإصلاحية في الجيش جملة وتفصيلاً اعتقاداً منهم أن هذه السياسة وإن لم تمسهم مساً مباشراً وفورياً في أول الأمر ، فلننها ستؤدي في النهاية إلى القضاء على الفياقق الإنكشارية .

والحق أن الشغل الشاغل للسلطان سليم الثالث كان - بجانب الحروب التي خاضها ضد روسيا والنمسا وفرنسا والثورات الداخلية التي واجهها - هو إدخال « النظام الجديد » وتعميمه في جميع فرق الجيش . وقد تحبط في سياسته لإزاء المعارضة التي حمل لواءها الإنكشارية ، فكان يتجنب الاحتكاك

---

(١) يطلق على هذين الإقليمين أيضاً البلدان والأفلاق ، وهما يكوئنان الجزء الأكبر من رومانيا حالياً .

بهم حيناً ، ويدخل معهم في مواجهة عسكرية حيناً ثانياً ، ويرضخ لطلباتهم حيناً ثالثاً .

كان مركز الخطر هو الفياق الإنكشارية المرباطة في الولايات العثمانية في أوروبا . وقد اتخذ أفرادها من مدينة أدرنة وكرآ للموامرات . ورأى السلطان استخدام سياسة الضغط العسكرى عليهم ، واستقدم من الأناضول قوات عسكرية بقيادة عبد الرحمن باشا ، وكان من أشد المتحمسين لتطوير الجيش . وبعد أن أقامت هذه القوات بعض الوقت في إستانبول حيث استعرضها السلطان ، واصلت مسيرها إلى أدرنة في منتصف شهر يوليو - تموز - عام ١٨٠٦ ، ولكنها فشلت في اقتحام المدينة بعد عدة محاولات وعادت أدراسها إلى إستانبول . وأذن السلطان لمطالب الإنكشارية وهم في قمة الانتصار . وكان من بينها إعادة الفرق العسكرية الجديدة التي هاجمهم في أدرنة إلى الأناضول ، وإلغاء النظام الجديد أو على الأقل وقف تطبيقه على الفياق الإنكشارية ، وعزل الصدر الأعظم ، وتعيين أغا الإنكشارية صدرأ أعظم ، وتعيين بعض ضباط الإنكشارية في مناصب قيادية في أجهزة الحكومة . وهكذا استشرى نفوذ الإنكشارية وطغيانهم ، فأصبحوا وكأنهم دولة معادية انتصرت على السلطان وأملت عليه شروطها ، فقبلها كرئيس دولة منهزمة .

### الإنكشارية يضمون المتصوفة وبعض علماء الدين إليهم :

لم يمتنع الإنكشارية برضوخ السلطان لمطالبهم . بل كان هذا الرضوخ مشجعاً لهم على مواصلة سياستهم العدائية نحو السلطان . وأخطوا يتناولون هذا العاهل بالنقد والتجريح . واستقر رأيهم على خوض جولة جديدة لعولته من الحكم . واصطنعوا وسائل جديدة ، منها : تأليب بعض عناصر الشعب عليه ، وضم فريق من علماء الدين ورجال الطرق الصوفية إليهم . وكانت هذه الطرق قد انتشرت انتشاراً واسعاً في آسيا الصغرى أولاً ثم في الروم إلى بعد ذلك . وكان الإنكشارية يستمدون نفوذهم وسطوتهم من البكتاشية ،

وهم من أكبر الطرق الصوفية في الدولة . ويقول أحد المستشرقين الألمان « إن الإنكشارية قد انضبوا تحت لواء الطريقة البكتاشية » (١) . واستند علماء الدين والمتصوفة في معارضتهم للنظام العسكري الجديد إلى أن التعليم العسكري من الأمور التي لم يعرفها الإسلام ، وأن الفتوحات الإسلامية كلها تمت دون أن تحتاج إلى أمثال هذا التعليم (٢) . وخلصوا من هذا القول إلى أن النظام الجديد إنما هو بدعة . وأخطوا بردون الحديث النبوي الشريف « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » . وذهبوا في معارضتهم إلى الزعم بأن من مبادئ الإسلام أن من تشبه بقوم فهو منهم (٣) . وكان لصدور هذه الآراء وغيرها عن بعض علماء الدين والمتصوفة أصداء بعيدة في الرأي العام . وهكذا تكونت جبهة عريضة لمعارضة « النظام الجديد » . وكان قوام هذه المعارضة الفياتي الإنكشارية وعلماء الدين ورجال الطرق الصوفية وعدة قطاعات جماهيرية أخرى كثيفة العدد من الجهلاء ، وانضم إليهم فريق من النفعيين والوصوليين من رجال الدولة . وانفسح المجال أمام النعاس والمؤامرات . ووقع اختيار هذا الخليط من المعارضين لتطوير أنظمة الجيش على رئيس لم يدعي قباهجي أوغلي . وضع خطة محكمة لاغتيال كبار رجال الدولة المؤيدين للنظام الجديد ، ثم إلغاء هذا النظام ، ثم عزل السلطان سليم الثالث أو اغتياله إذا تطلب الأمر إقصاءه عن العرش .

### الإنكشارية يعزلون السلطان سليم الثالث :

ولما اطمأن رؤساء الإنكشارية إلى هذا التخطيط واستكمال خيوطه وعناصره ، قررو القيام بحركة تمرد تعبيراً عن استنكارهم للنظام العسكري الجديد . وحشدوا في اليوم السابع والعشرين من شهر مايو — آيار — عام ١٨٠٧ جموعاً غفيرة العدد من الجنود الإنكشارية في آت ميداني ، أي ميدان الخيل .

(١) بروكلان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ،

ص ٢٢ .

(٢) ساطع المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٩ .

(٣) دكتور السيد رجب حراز : الدولة العثمانية ألب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧ .

وطبقاً لتقاليدهم جاءوا بالقزانات ، وهى قدور الطعام ، فارغة ، ووضعوها مقلوبة فى صفوف متراصة ومنظمة ، علامة على عصيانهم . وتليت عليهم أسماء جميع المؤيدين للنظام العسكرى الجديد من الوزراء وكبار موظفى الدولة ، ثم انطلقوا إلى مساكنهم وقتلوهم ، وأتوا برؤوسهم ووضعوا كل رأس أمام قزان من القزانات ، ثم فرضوا حصاراً محكماً حول قصر السلطان . وأرغموه على إصدار فرمان بإلغاء النظام الجديد وتسريح الجنود الذين التحقوا بالجيش وفقاً لهذا النظام . ولكن لم يقنع الإنكشارية بتراجع السلطان سليم الثالث عن مشروع إصلاح الجيش ، وخشوا أن يعود فى يوم ما إلى تنفيذ هذا المشروع ، فقرروا عزله بعد أن استصعدوا فتوى من شيخ الإسلام جاء فيها « إن كل سلطان يدخل نظم الإفرنج وعاداتهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك » (١) . وعهد الإنكشارية إلى شيخ الإسلام ، وكان ضالعا معهم ، بتبليغ هذه الفتوى إلى السلطان . فذهب إليه وأبلغه بها « مظهراً أسفه من هذه الحادثة الجبرية » (٢) . وأذن السلطان وغادر القصر السلطانى . ولم تستمر حركة عصيان الإنكشارية سوى يومين . ونودى فى اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٠٧ بعزل السلطان سليم الثالث وتنصيب السلطان مصطفى الرابع - وهو ابن السلطان عبد الحميد الأول - خلفاً له . وتفرق الجنود النظاميون شذراً مذبذباً ، وألغى مشروع تطوير الجيش العثمانى لاعتراض الإنكشارية عليه . وقتل بعض الوزراء المجهدين لهذا المشروع ، بينما اختفى البعض الباقى منهم عن الأنظار . ولم يكن خضوع السلطان سليم الثالث لقرار الإنكشارية بعزله عاصماً له من القتل فى العام التالى ، أى فى سنة ١٨٠٨ ، حين أمر خلفه السلطان مصطفى

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٢ .

وانظر أيضاً :

سأى الكيالى : الأدب والقوة فى سورية . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٨٣ .

(٢) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٢ .

الرابع بقتله عندما طالب أنصار النظام الجديد بإعادته إلى العرش حتى يستمر في تنفيذ مشروع إنشاء الجيش الجديد .

### الصراع بين أنصار النظام الجديد وخصومه :

كان السلطان مصطفى الرابع ( ١٨٠٧ — ١٨٠٨ ) يدرك أنه مدين بارتقائه العرش للإنكشارية ولشيخ الإسلام . فالأولون قاموا بحركة عصيان ونادوا بتنصيبه سلطاناً بعد أن خلعوا سلفه السلطان سليم الثالث ، بينما كان شيخ الإسلام ضالماً معهم في هذه الحركة . وقد وعى السلطان الجديد هذا الدرس تماماً . ففدا أداة طيعة لينة في أيدي الإنكشارية وشيخ الإسلام . وأمسى النفوذ في إستانبول مركزاً في هاتين القوتين . استجاب السلطان لرغبة الإنكشارية ، فعين قباچجي أوغلي قائداً لجميع قلاع البوسفور . وأعاد الإنكشارية القزانات — قدور الطعام — إلى ثكناتهم كتعبير عملي عن رضائهم على السلطان مصطفى الرابع ، وأخلدوا إلى السكينة .

ولكن حين ترامت إلى الجيش العثماني الذي كان يخوض حرباً أوروبية ضد روسيا في ولاية البغدان — أبناء الفتنة التي قام بها الإنكشارية المرابطون في إستانبول اغتبطت فيالق الإنكشارية المشتركة في هذه الحرب ، لأنه كان من نتائج هذه الفتنة وقف تنفيذ مشروع « النظام الجديد » . ولكن القائد العام للجيش ، وهو حلمي إبراهيم باشا ، الصدر الأعظم ، اعترض على حركة العصيان التي قام بها الإنكشارية في إستانبول وعزلوا فيها السلطان سليم الثالث . فثار الإنكشارية على الصدر الأعظم وقتلوه ، وأقاموا مكانه مصطفى شلبي باشا وأصبح لقبه القائمقام مصطفى باشا إلى أن يصدر السلطان فرماناً بتشيته في منصبه الجديد . ووقع الاضطراب في صفوف الجيش وفي وقت عصيب كانت تمر به الدولة وقتذاك . . ولكن كان من حسن حظ

(١) أنظر دور الإنكشارية في الاضطرابات العسكرية والسياسية التي واجهتها الدولة في تلك الفترة في كل من :

محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢١١ — ٢١٧ .

Lewis B. : The Emergence etc., op. cit., pp. 74—76.

الدولة أن انتصر في ذلك الوقت نابليون الأول على روسيا وبروسيا في موقعة فريدلاند Friedland في اليوم الرابع عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٠٧ وتقهقرت الجيوش الروسية من ولاية البغدان . من غير قتال ونجا الجيش العثماني من التمزق أو التحطيم . ويلاحظ أنه تعاقب على منصب الصدارة العظمى في إستانبول عدد من الصدور العظام في الفترة من سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٧ حتى شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٨ ، وكان عدم الاستقرار السياسي في أجهزة الحكم من أبرز خصائص هذه الفترة . وانقسمت البلاد بين أنصار النظام الجديد وخصومه . وكان للإنكشارية دور بارز في تصعيد الفوضى السياسية والعسكرية التي حاقت بالبلاد .

### مصطفى باشا البيرقدار وخلان روستجق :

كان مشروع إصلاح الجيش قد اكتسب أنصاراً أقوياء في بعض الولايات العثمانية . واستنكروا الأحداث التي تتابعت في إستانبول من عصيان الإنكشارية وإلغاء النظام الجديد وعزل السلطان سليم الثالث . وكان فريق من هؤلاء الأنصار يقيمون في روستجق (١) Ruschuk وعرفوا فيما بعد باسم « خلان روستجق » وكان على رأسهم مصطفى باشا البيرقدار (٢) حاكم

(١) يرد اسم المدينة في بعض المراجع على هذا النحو : روسجوق ، روسجق ، روسيك

(٢) يرد اسمه في بعض المراجع : اللمدار . والكلمتان بمعنى واحد هو حامل العلم . وكلمة بيرقدار تتكون من يرق بمعنى علم وكلمة دار ومنها البيرق النبوي أي العلم النبوي . وترجم بعض المراجع الإنجليزية كلمة البيرقدار Standard - bearer بينما تذكر بعض المراجع الإنجليزية اللفظة التركية بحروف لاتينية على هذا النحو :

بيرقدار Bayrakdar

علمدار Alemdar

والأصل في شغل هذه الوظيفة أنه كان أكبر ضباط الخدمة الخارجية في قصر السلطان . وكان مسئولاً عن العلم السلطاني والشعار الخاص بالسلطان وهو تسمية أطواخ . ولم يكن يطلق على هذا الضابط « بيرقدار » بل « ميرعلم » . ومنعاه أمير العلم وكان البيرقدار يقدم إلى حكام الولايات عند تعيينهم شعارات تتناسب مع درجة وظيفة كل منهم . وكان مسئولاً أيضاً عن فرقة القصر الموسيقية العسكرية ، ثم أضيف إليه اختصاص آخر هو الإشراف على مجموعة من المبهوتين الخصوصيين الذين سموا لأسباب تاريخية قبايجي باشي -

المنطقة . وكان هو الآخر يفيض حماساً لإدخال النظم الأوروبية الحديثة في الجيش ، بعد أن كان في مطلع حياته من أشد المعارضين عنفاً لتطوير الجيش . وكان تحت إمرته قوة تتكون من ستة عشر ألف جندي ، وقرر الزحف على إستانبول لردع الإنكشارية وإعادة السلطان سليم الثالث إلى العرش لتمكينه من مواصلة تنفيذ مشروع إصلاح الجيش . وكان هذا السلطان لا يزال على قيد الحياة .

أُسِرَ مصطفى باشا البيرقدار إلى مصطفى باشا شلبي الصدر الأعظم وبعض الوزراء برأيه وهو إعادة السلطان سليم الثالث إلى العرش ، وأقنعهم بضرورة مسالة كل من شيخ الإسلام وقباچجي أوغلي باعتبارهما مسئولين عن حركة التمرد التي حمل لواءها الإنكشارية وعزلوا فيها السلطان سليماً الثالث واستأثروا بالنفوذ . واستصدر الصدر الأعظم أمراً من السلطان بإعدام قباچجي أوغلي تأسيساً على أنه كان السبب المباشر في قتل الكثيرين من كبار موظفي الدولة بصفته رئيساً لحركة التمرد التي تمت في أواخر شهر مايو - آيار - عام ١٨٠٧ . وقد عهد الصدر الأعظم إلى أحد رجاله - حاجي علي - بتنفيذ هذا الأمر على أي صورة من صور القتل . فسار الأخير على رأس مائة فارس إلى إستانبول لقتله ، بينما كان مصطفى باشا البيرقدار متجهاً إلى العاصمة في ستة عشر ألف جندي عن طريق أدرنة . ولما وصل حاجي علي إلى مشارف إستانبول علم أن قباچجي أوغلي مقيم في قصر خارج العاصمة فاقتحم القصر وقتله . وفي ذات الوقت وصل مصطفى باشا البيرقدار مع قواته وعسكر خارج إستانبول ، وانضم فرسان حاجي علي إلى قوات البيرقدار .

#### عزل ثم قتل السلطان مصطفى الرابع :

حين علم السلطان مصطفى الرابع بهسذه التطورات ازدادت هواحه

---

== (جمع قاييحي باي) أي كبار الحراس . وكان حكام الولايات العتابة بمهدون إلى شباط من ذوى الرتب العتابة بالعتابة بأعلامهم الخاصة وبشعاراتهم . وكان يطلق على كل من هؤلاء الضباط بيرقدار أو لقب آخر له نفس المعنى هو الصنّيق دار . وكان لكل أوطه من الإنكشارية شامل عليها ويسى بيرقدار . وكان هذا اللقب يطلق أيضاً على بعض زعماء ألبانيا الوريثين .

وخشى على نفسه أن يصيبه سوء ، فانقلب على الإنكشارية وأنصارهم ،  
أو لعله تظاهر بهذا الموقف المعادى لهم ، فأمر بعزل شيخ الإسلام الذى كان  
ضالماً مع خصوم « النظام الجديد » والذى حارب بقلبه ولسانه وقلمه إدخال  
الأنظمة الحديثة فى الجيش ، وأمر السلطان أيضاً بتسريح الفياق الإنكشارية  
التي كانت تحت قيادة قباچجى أوغلى ، وهى الفياق التي كانت لها اليد الطولى  
فى عزل السلطان سليم الثالث وإيقاف العمل فى تطوير الجيش . وتظاهر  
البرقदार بأنه راض تماماً عن الوضع الجديد ، وأشاع أنه عارم على العودة  
إلى مقر منصبه فى روستحق . وفى صبيحة اليوم الثامن والعشرين من شهر  
يوليو - تموز - عام ١٨٠٨ اتجه بقواته إلى القصر السلطاني ، وطالب بإعادة  
السلطان سليم الثالث إلى العرش . وازداد السلطان مصطفى الرابع  
اضطراباً ، وتأرجح فى موقفه حيال أنصار « النظام الجديد » وخصوم هذا  
النظام . وتغلّبت عليه نزعة البقاء على العرش ، فأمر بقتل السلطان سليم  
جثته إلى الثأرين . وكان فى تقديره للموقف الصعب الذى يحيط به من يمين  
ويسار أن الثأرين يعودون أدراجهم بعد أن يروا بأعينهم ويتأكدوا أن  
السلطان الذى يطالبون بإعادته إلى الحكم قد غدا جثة هامدة . ولكن أدى  
هذا القتل إلى نتيجة عكسية تماماً ، فازداد الثأرون هياجاً ، ونادوا على الفور  
بعزل السلطان مصطفى الرابع وتعيين أخيه محمود سلطاناً للدولة باسم محمود  
الثانى . وأمرؤا باعتقال السلطان المعزول فى نفس القصر الذى كان محجوزاً  
فيه السلطان سليم الثالث . وقد قتل فى ذات السنة التى عزل فيها ( ١٨٠٨ )  
وهى ذات السنة أيضاً التى شهدت قتل سلفه .





## الفصل التاسع عشر

### مراكز القوى في الدولة (٣)

#### الخطوة الحاسمة

#### الفاء الفيالق الانكشارية

السلطان محمود الثاني يحاول تطويع الإنكشارية بالحسنى :

كان السلطان محمود الثاني ( ١٨٠٨ - ١٨٣٩ ) ذا عزيمة قدت من حديد . صمم على تعميم تطوير القوات المسلحة بجميع أسلحتها وفرقها بما فيها الفيالق الإنكشارية ، ولكنه آثر أول الأمر أن يسلك مسلكاً سلمياً تجاه الإنكشارية . وحاول بالحسنى إقناعهم بقبول إدخال النظم الحديثة في الفيالق الإنكشارية حتى تكون متمشية في تنظيمها وتسليحها وتدريبها مع سائر الفرق العسكرية في الجيش . وعرض في ذات الوقت معاشاً على كل من يرفض منهم مشروع الإصلاح الجديد في الفيالق الإنكشارية . ولكنهم رفضوا هذا العرض بشقيه ووضعوا أصابعهم في آذانهم وأصروا واستكبروا استكباراً .

وعلى الرغم من موقف الرفض الذي اتخذه الإنكشارية ، وعلى الرغم من أن السلطان محمود كان مؤقتاً أنهم لن يرضخوا لطلبه ، إلا أنه أراد أن يمد لهم في جبال الصبر ويمنحهم فرصة أخرى لحسم موقفهم قبل أن يخوض مواجهة عسكرية مأساوية ضدهم . فعهد إلى الصدر الأعظم مصطفى باشا البيرقدار بتنفيذ خطته . وكان قد عينه في منصب الصدارة العظمى منذ أن ارتقى العرش ، لأنه كان من أنصار تطوير الجيش من ناحية ، ولأنه كان قائد حركة الانقلاب العسكرى التي نادت به سلطاناً من ناحية أخرى . دعا البيرقدار إلى اجتماع يعقد في القصر السلطاني في إستانبول في مطلع شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٨ ، ووجه البيرقدار الدعوة إلى عدد من

أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وعلى رأسها شيخ الإسلام ، وبكلربك الروم إلى ، وبكلربك أناضولى ، وحكام الولايات القريبة من العاصمة ، وقادة أسلحة الجيش ، ومن إليهم من كبار الموظفين المدنيين والعسكريين ، وكذلك الأعيان (١) ، ورؤساء العائلات الإقطاعية القوية فى الأناضول والذين يطلق عليهم «دره بكوات» (٢) Derebays أى أمراء الوديان (٣) Valley Lords . وشرح لهم الصدر الأعظم التدهور الذى أصاب الإنكشارية بعد أن كانوا أداة بطش يرهبون أعداء الدولة وينزلون بهم أفدح الحسائر ، وما يجب أن يكونوا عليه من الالتزام الصارم بالانضباط العسكرى ، وضرورة استخدام الأسلحة الحديثة ، التى كان استخدامها فى الجيش الروسى فى مقدمة أسباب انتصارات الروس الأخيرة على جيش الدولة . ثم اختتم الصدر الأعظم حديثه إلى المحتجمين بعرض اقتراحات هامة ، كان من بينها : إلزام الإنكشارية فى أوقات السلم بملازمة ثكناتهم ، وخصوصاً غير المتزوجين منهم ، وإيقاف صرف مرتبات وبدلات الساكنين خارجها ، وضرورة مواظبتهم على حضور التدريبات العسكرية ، وتسليحهم بالأسلحة النارية الحديثة . وأكد الصدر الأعظم اعتقاده الراسخ أنه لو استجاب الإنكشارية لهذه المقترحات وغيرها فلنهم يستعيدون مجدهم الحربى القديم ويصبح الجيش العثمانى من أقوى جيوش العالم كما كان فى أول الأمر ، وقبل أن تنسرب القوضى إلى صفوفهم وقبل أن يتجاوزوا اختصاصاتهم بتدخلهم فى الشؤون السياسية الخارجية والداخلية للدولة مثل عزل السلاطين والصدور العظام والوزراء ومن إليهم مما عرض الأجهزة الحكومية لمزات عنيفة أمام أعداء الدولة . . وقد أقر

---

(١) الأعيان طبقة بدأ ظهورها فى القرن السابع عشر تتكون من الشخصيات البارزة فى كل ولاية . وكان الأمالى هم الذين ينتخبون أولئك الأعيان لتمثيلهم لدى السلطات المحلية . وكان السلطان يصدر فرماناً بتمييزهم . وكانوا يخاطبون بهذا المصطلح : « أعيان ولاية وإيش أرلرى » أى أعيان الولاية ورجال الشؤون . وكانوا يستمدون نفوذهم من كونهم ملاك الأرض . وفى القرن الثامن عشر تطورت اختصاصاتهم فأصبحوا يشرفون على الإدارات المدنية والمالية فى المدن .

(٢) انظر نشأة واختصاصات هذه العائلات فى

الحاضرون مقترحات الصدر الأعظم الذى لم يكتف بهذه الموافقة الإجماعية ، بل استصدر فتوى من شيخ الإسلام الجديد بضرورة تنفيذ نظام الإنكشارية بكل حزم وصرامة . فأصدر الصدر الأعظم أوامره بتنفيذ مقترحاته متحصناً بموافقة المجلس الذى دعا إليه وبالفتوى التى حصل عليها من شيخ الإسلام (١).

### تحدى الإنكشارية للسلطان والصدر الأعظم :

لم يأبه الإنكشارية برغبة السلطان ولا بأوامر الصدر الأعظم . وصحت عزيمتهم على مقاومته . وطبقاً لتقاليدهم وضعوا القرائن ، قدور الطعام ، مقلوبة دلالة على قيامهم بحركة عصيان . ولم يكن لدى الصدر الأعظم قوات تحت تصرفه سوى ستة عشر ألف مقاتل جاء بها من روستحق ، وهى المنطقة التى كان يحكمها قبل تعيينه صدرأ أعظم ، وثلاثة آلاف جندي تحت قيادة عبد الرحمن باشا رئيس الجنود النظاميين السابقين ، وبعض سفن حربية تحت إمرة رامز باشا أمير البحر .

### هزيمة الصدر الأعظم أمام الإنكشارية ومصرعه :

حشد الإنكشارية جموعهم فى مدينة فيلية (٢) وأعلنوا العصيان . فوجه الصدر الأعظم اثني عشر ألف جندي لمحاربتهم . ولم يبق لديه سوى أربعة آلاف مقاتل والثلاثة آلاف جندي تحت قيادة عبد الرحمن باشا . وأدرك الإنكشارية ضالة حجم القوات التى لدى الصدر الأعظم . وانتهزوا هذه الفرصة الذهبية كى يكيدوا كيداً للسلطان الجديد محمود الثانى وللصدر الأعظم مصطفى باشا البرقدار . وانجهوا فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٨ إلى قصر السلطان المعزول مصطفى الرابع لإعادته إلى العرش . وتصدى لهم الصدر الأعظم وقاومهم مقاومة عنيفة . ولكن استبان له أن القتال يدور فى صالح الإنكشارية . وخشى العواقب الوخيمة التى تنجم عن انتصارهم ، ومن أهمها أن الإنكشارية يعلنون عزل السلطان محمود

(١) محمد فرديك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) مدينة تقع فى مقدونيا .

الثانى وإعادة السلطان مصطفى الرابع إلى العرش . فأمر الصدر الأعظم بقتل السلطان المعزول . وكان رائده من هذا القتل هو إفساد خطة الإنكشارية ، فإن السلطان مصطفى الرابع كان الورقة الراجعة في أيديهم . وقد أمر الصدر الأعظم بإلقاء جثة السلطان مصطفى للإنكشارية ، وما أن وقعت أعينهم على جثة السلطان حتى ازدادوا هياجاً ، وأضرموا النار في القصر كي يضطر الصدر الأعظم إلى الفرار ويقع أسيراً في أيديهم ويمثلون بجثته بعد قتله . ولكن الصدر الأعظم آثر الموت على التسليم للإنكشارية ، فأقدم على عملية انتحارية وظل يدافع هو ومن معه حتى مات حرقاً . ويقال إنه تحصن في أحد الأبراج ثم أشعل النار في البارود المكس في هذا البرج ومات هو ومن معه تحت الأنقاض في شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٨ .

وفي أثناء دفاع الصدر الأعظم كان رامز باشا أمير البحر قد رسا بسفنه الثلاث في مضيق البوسفور وسلط مدافعها على ثكنات الإنكشارية ، ثم نزل إلى البر مع فريق من البحارة ورجال المدفعية وسار بهم لتدعيم قوات الصدر الأعظم . ولم يكن يلرى أنه قضى نحبه ، وفي ذات الوقت كان عبد الرحمن باشا ومعه ثلاثة آلاف جندي يسرعون في زحفهم لمساعدة الصدر الأعظم ، وفوجئوا بنبا وفاته . ولم يتطرق اليأس إلى رامز باشا وعبد الرحمن باشا وقررا مواصلة قتال الإنكشارية ، ولكنهما عجزا عن إحراز أى نصر عليهم . واستمر إطلاق المدافع والبنادق في الآستانة طوال اليوم ، ولما سحا الليل رأى رامز باشا أمير البحر أن يعفو عن جميع الإنكشارية بشرط أن يلقوا سلاحهم ويسلموا أنفسهم لرحمة السلطان محمود الثانى . أما عبد الرحمن باشا فلم يشاطره هذا رأى ، ورأى مواصلة القتال . وانخاذ حركة العصيان التى قام بها الإنكشارية وسيلة لإعدامهم وإلغاء طائفهم بتشكيلاتها الحربية . وكان السلطان محمود من أنصار هذا رأى . وعمشياً مع هذا الاتجاه تحركت جيوش السلطان في صبيحة اليوم التالى تتقدمها المدافع تطلق قذائفها على الإنكشارية من كل حذب وصوب . ولما رأى الإنكشارية أن الموت يحيط بهم من يمين وشمال أضرموا النار في جميع أرجاء المدينة حتى

كادت النيران تلتهم جميع مبانيها . وفي هذا الموقف العصيب تلوع السلطان  
بسياسة الحلم والأناة على ما فيها من غضاضة ، لأن حركة العصيان التي قام  
بها الإنكشارية في هذه المرة كانت أوسع مدى وأشد خطراً من سابقتها .  
واضطر إلى الإذعان كي ينقل المدينة من دمار محقق ، وأن يرجىء حسابه مع  
الإنكشارية إلى فرصة أخرى في قابل الأيام . ومن ثم انصرف إلى لإخاد  
الحرائق التي كادت تلتهم المباني لو لم يتداركها السلطان . واستمر الإنكشارية  
في محضهم وضجيجهم مصرين الإصرار كله على معارضة إدخال النظم الحربية  
الحديثة في الفيلق الإنكشارية . ولم يلبث أن تفرغ السلطان لمواجهة الحرب  
التقليدية التي اشتعلت بين الدولة والروسيا وانتهت بعقد معاهدة بخارست  
في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨١٢ .

#### الدرس الذي خرج به السلطان من الثورة اليونانية :

استطاع السلطان فيما بين عامي ١٨١٤ - ١٨١٦ أن يتخلص سراً من  
جماعات صغيرة العدد من الإنكشارية (١) . وأجل القيام بحركة تصفية  
شاملة لجموع الإنكشارية حتى تحين له فرصة مواتية فيوجه إليهم ضربة قاضية  
ويتخلص منهم جميعاً . ولم تمض سنوات ذات عدد حتى اندلعت الثورة  
اليونانية في شبه جزيرة المورة في اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس -  
آذار - عام ١٨٢١ وظفر الثوار بانتصارات سريعة وباهرة على القوات  
العثمانية التي بعث بها السلطان بقيادة خورشيد باشا (٢) . وكانت هذه

---

Haasluck F.W.: op. cit., Vol. 2, p. 619.

(١)

(٢) هو أحمد خورشيد باشا وكان حاكماً للإسكندرية ثم رقي والياً على مصر . ودخل  
القاهرة في ٢٦ من مارس - آذار - عام ١٨٠٤ . وفي أثناء ولايته قام أهل القاهرة بانتفاضة  
شعبية احتجاجاً على مقالته . وتزعم الانتفاضة الشيخ عبد الله حجازي الشهير باسم الشرقاوي شيخ  
الجامع الأزهر والسيد عمر مكرم الأسوطي نقيب الأشراف ، وانتهت هذه الانتفاضة بالمناذاة في  
١٣ من مايو - آيار - عام ١٨٠٥ بخلع خورشيد وتعيين محمد علي مكانه . واستجابت الدولة على  
كره منها لهذه الرغبة الشعبية . فصدر فرمان بتثبيت محمد علي في ولاية مصر . ونقل - خورشيد إلى  
سالونيك . وظل خورشيد يتقلب في حديد من المناصب القيادية إلى أن عهدت إليه الدولة بإخماد ثورة  
قام بها علي باشا في ألبانيا وتحصن في أيرروس واتخذ يالينا Janina مقراً له . ودارت اتصالات =

القوات تضم عدداً من الفيلق الإنكشارية . وانتقل الثوار اليونانيون من نصر إلى نصر . وملوا عملياتهم الحربية إلى مقلونيا وقساليا ، واستولوا على المدن والمراكز الحصينة ، وكان من بينها : تريبوليتزا (١) مقر السلطة العثمانية في هذه المنطقة ، وأوقعوا بالقوات العثمانية والسكان المسلمين مذابح رهيبة (٢) . ولم يمض عام ١٨٢٢ حتى كان النفوذ العثماني قد تقلص من المورة مما جعل الإنكشارية موضع التهم والسخرية من الجماهير العثمانية

= بين هذا التأثير وقادة الثورة اليونانية لتفسيق التعاون العسكري بين الثورتين . واستطاع خورشيد باشا إخماد الثورة بعد أن ضرب حصاراً محكماً على مقر الثائر في يانينا . وكان الأخير قد يأس من وصول نهجيات عسكرية إليه من قادة الثورة اليونانية . واستسلم في الخامس من شهر فبراير - شباط - عام ١٨٢٢ لخورشيد باشا الذي أمر بأن يساق إلى الحمام حيث كان بعض الجنود في انتظاره ، فقاموا بجزء رأسه ، وأرسلت إلى إستانبول . وعندئذ عهد السلطان محمود الثاني إليه بالتنحرف مع قواته إلى المورة للقضاء على الثورة اليونانية ، فأحرز انتصاراً في المرحلة الأولى ثم ظهر عليه الثوار اليونانيون الذين أزلوا به حصاراً جسيماً . وازداد الثوار جرأة بما حققوه من انتصارات في بحر الأرخبيل حيث أحرقوا كثيراً من السفن العثمانية ، وغاثوا في البحر فساداً . وتمرضوا لسفينة أقلت من إستانبول وهي في طريقها إلى الإسكندرية . وكان من بين ركابها قاضي قضاة مصر العثماني وزوجاته وبناته وحواشييه وعدد من الحجاج فقتلهم الثوار ذبحاً عن آخرهم ثم أغرقوا السفينة . انظر كلا من :

(١) الجبرتي . عجائب الآثار الخ ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ٣١٩-٣٢٠  
(حوادث ذى القعدة عام ١٢٣٦ / أغسطس - آب - عام ١٨٢١)

(ب) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٢٧-٢٢٨ .

(ج) عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي . الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، الناشر : مكتبة

النهضة المصرية ، ص ص ١٦٣-١٦٤

(د) دكتور محمد غزاد شكرى : أوروبا في القرن التاسع عشر . الصراع بين البرجوازية والإقطاع ١٧٨٩-١٨٤٨ ثلاثة مجلدات ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، الناشر دار الفكر العربي . المجلد الثاني ، ص ص ٤٥٨-٤٦٢

(١) تقع هذه المدينة في قلب شبه جزيرة المورة . وكانت عاصمة المورة .

(٢) يقول ميلر إن عدد المسلمين الذين ذبحهم الثوار اليونانيون بلغ عدة الآف . وتأثر السلطان محمود الثاني المسلمين فأمر بإجراء مذابح عامة بين اليونانيين . وبدأ بترجاء الباب المائي والشخصيات التي كانت تقطن حي الفناء في إستانبول ، وكان موطن الأرستقراطية اليونانية ثم أمر ببيع جورجى الخامس بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، وهو من المورة موطن الثورة . وظلت جسده معلقة ثلاثة أيام على باب الكنيسة ، ثم أُنزلها الجرد وسحبوها في الشوارع وألقوا بها

التي كانت تعلق آمالا كباراً على الإنكشارية بسبب ما اشتهروا به من شجاعة وكفاية قتالية . وفي هذا الوقت العصيب استعان السلطان بمحمد على باشا والى مصر لإخضاع اليونانيين (١) ، فأرسل الأخير ابنه إبراهيم باشا على رأس حملة كبيرة من الجيش المصرى الحديث تمحوسها وحدات من الأسطول المصرى . وأفلعت الحملة من الإسكندرية فى شهر يوليو — تموز — عام ١٨٢٤ واستطاعت القوات المصرية أن تنزل فى مودن Moden فى أقصى الطرف الجنوبى الغربى للمورة ، وأن تخضعها فى فبراير — شباط — عام ١٨٢٥ وتوجه إلى الثوار ضربات عنيفة ، وتتقدم عبر المورة وتستولى على معظم المواقع اليونانية الحصينة مثل مسولنجى Mesolonghi فى اليوم الثانى والعشرين من شهر أبريل — نيسان — عام ١٨٢٦ ، وتريبوليتزا ، وأثينا فى اليوم الخامس من شهر يونيو — حزيران — عام ١٨٢٧ ، وبسقوط أثينا أصبحت المورة بأكملها تقريباً فى أيدي القوات المصرية . وبلغت الانتصارات الرائعة التى أحرزها الجيش المصرى حداً جعل الروسبا تعلن أنه لا بد من التدخل لإنقاذ اليونانيين من الفناء (٢) . وأخذت الجماهير

---

حق البحر . واستطاع بعض اليونانيين استبحار الجند من البحر ودفنوها فى أوديسا ، ثم نفلت بعد خمسين عاماً إلى كاتدرائية أثينا . وامتدت المذابح إلى اليونانيين فى سالونيك ، وأزمير ورودى ، وقبرص ، وغيروس Chios . انظر .

Miller W.; op. cit., pp. 74—75, 79—80.

(١) كان السلطان محمود الثانى قد عهد إلى محمد على عام ١٨٢١— أى قبل حملة المورة — بأن يرسل أسطوله لضرب سفن النوار . وقد أبحر الأسطول من الإسكندرية فى اليوم التامس من شهر يوليو — تموز — عام ١٨٢١ ، واتجه إلى مياه رودس لمطاردة السفن اليونانية . والتقى بالأسطول العتافى فى مياه الدردنيل . ثم عاد إلى الإسكندرية فى مارس — آذار — ١٨٢٢ لبتأهب لنقل الحملة المصرية إلى جزيرة كريت . وكان السلطان قد عهد إلى محمد على بإخماد الثورة فيها . فأعد محمد على حملة من خمسة آلاف جندياً نزلوا فى جزيرة كريت فى يونيو — حزيران — ١٨٢٢ وظفروا بالنوار وشتتوا شملهم ، وفر كبير منهم إلى الجزر اليونانية الأخرى . أما المورة فقد شمر السلطان أنه عاجز عن القضاء عليها ، فعهد إلى محمد على بإخمادها وتحويله حكم ولاية المورة مكافأة له .

Grant A.J. and Temperley, H; op. cit., p. 204.

(٢)

العثمانية تقارن بين إخفاق الإنكشارية في إخماد الثورة اليونانية ونجاح الجيش المصرى الحديث في القضاء عليها . وانتهز السلطان محمود الثانى هذه الفرصة لبوجه إلى الإنكشارية ضربة قاضية إذا أصروا على الرفض .

والواقع أن السلطان محمود الثانى ازداد اقتناعاً بالكفاية القتالية في الجيوش الأوروبية التي أخذت بالأنظمة العسكرية الحديثة تسليحاً وتدريباً وقتالاً . وأرجع إلى هذا السبب الانتصارات التي أحرزتها الجيوش الأوروبية على الجيش العثماني . وكان أمامه مثل حي في دولته في منطقة الشرق الأدنى كما كانت تسمى في ذلك الوقت (١) ، تمثل في الجيش المصرى الذى شرع في إنشائه منذ سنة ١٨٢٠ محمد على باشا وإلى مصر من الفلاحين المصريين وفقاً للأساليب الأوروبية الحديثة ، واستقدم الخبراء العسكريين من بعض دول أوروبا لتدريب أفرادهم على أحدث النظم الحربية . وكان السلطان يعتمد اعتقاداً راسخاً أن إبراهيم باشا ابن محمد على مدين بانتصاراته التي حققها في بلاد المورة بإبان الثورة اليونانية منذ عام ١٨٢٥ للجيش المصرى الذى أخذ بالنظم والنظريات الحربية الحديثة في التسليح والتدريب والقتال . وكانت هذه الحرب اليونانية أول حرب أوروبية خاض هذا الجيش المصرى الصميم غمارها

---

(١) كان رجال الساسة في أوروبا وأمريكا يعملون إلى تقسيم الشرق إلى ثلاث مناطق : الشرق الأدنى The Near East وكانوا يعبرون عن هذه المنطقة أحياناً بسمارة The Nearer East . وتشمل مصر وبلاد الشام وتركيا واليونان . والشرق الأوسط The Middle East ويشمل شبه القارة الهندية وأفغانستان وفارس والعراق وشبه الجزيرة العربية . والشرق الأقصى The Far East ويشمل جنوب شرق آسيا بأقسامه الآسيوية والصين واليابان . وظلت هذه التسميات قائمة إلى الحرب العالمية الثانية ، ( ١٩٣٩-١٩٤٥ ) ثم أدمج الساسة الأمريكيون التقسيمين الأولين بعضهما في بعض ، وأطلقوا عليهما الشرق الأوسط الذى أصبح يشمل في مدلول السياسة الدولية : مصر ، وفلسطين ، وسوريا ، ولبنان ، والأردن ، وتركيا ، والعراق والسعودية ، وإيمن بقسميهما ، والدول العربية في الخليج ، وإيران ، والهند ، وباكستان ، وبنجلاديش ، وسرى لانكا ، وأفغانستان .

ويلاحظ أيضاً أن المؤرخين والباحثين الغربيين أطلقوا مصطلح اللغات Levant على الدول المطلة على الخوض الشرق لبحر المتوسط والمناطق الساحلية فيها بصفة خاصة ، وهي سواحل مصر ، وبلاد الشام ، وتركيا ، واليونان .



وقد برهن فيها على مقدرة قتالية ممتازة ، وأنه يضارع أرق الجيوش الأوروبية في ميادين القتال .

أربعة عوامل خارجية شددت السلطان إلى تطوير الفياقق الإنكشارية أو الغاشا :

ومما جعل السلطان محمود الثاني يزداد تشبهاً برأيه وهو ضرورة تطوير فرق الجيش ، ومن بينها الفياقق الإنكشارية ، أنه كان يشعر بأنه محوط بالوهابيين أو السلفيين (١) في شبه الجزيرة العربية ، وبالشوار اليونانيين في المورة ومياه بحر الأرخبيل ، وكانت لا تغيب عن ذهنه العدواة التقليدية والمزمنة بين الدولة العثمانية والروسيا . وقد شهد مطلع حكمه استئناف الحرب ضد روسيا التي أوقعت هزائم بالجيش العثماني بقيادة يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم (٢) . واستولى الروس على عدد من الأقاليم العثمانية في أوروبا . وانتهت الحرب بمعاهدة بخارست في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو — آيار — عام ١٨١٢ ، وبمقتضاها اختصت روسيا لنفسها بلقلم بسارابيا . يضاف إلى هذه العوامل الخارجية أن السلطان كان يتوجس خيفة من محمد علي

(١) كان الوهابيون يطلقون على أنفسهم أول الأمر « الموحدون » أو « المسلمين » ثم أطلقوا على أنفسهم « السلفيين » .

انظر في هذه الدراسة ص ٧٩ ، الحاشية رقم ١

(٢) كان يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم هو الذي جاء إلى مصر عن طريق بلاد الشام على رأس جيش عثماني ليتسلم مقاليد الحكم في أثناء مفاوضات الصلح بين الفرنسيين والإنجليز والعثمانيين . واستولى ضياء باشا على العرش في اليوم الثلاثين من شهر ديسمبر — كانون أول — عام ١٧٩٩ ولما عقدت معاهدة العرش في اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير — كانون ثان — عام ١٨٠٠ تقدم ضياء باشا بمجنوده تنفيذاً للمعاهدة فدخل بدون قتال قطية ، والصالحية ، وبليس ، والسويس والمنصورة ، وعزبة البرج ، ودمياط ، واستقر في بليس . فلما تقضت معاهدة العرش اشعلت الحرب بين الفرنسيين والعثمانيين . ودارت معركة عين شمس في اليوم العشرين من شهر مارس — آذار — عام ١٨٠٠ ولحق على يد الجنرال كليبر قائد الحملة الفرنسية وقائد هزيمة منكرة انسحب الصدر الأعظم بعدها إلى بليس ثم تهاجر إلى الصالحية ، ثم ارتد إلى حدود فلسطين . ثم عاد إلى مصر في شهر أبريل — نيسان — عام ١٨٠١ على رأس جيش يتكون من عشرين ألف مقاتل للإسهام مع القوات البريطانية في إخراج الفرنسيين من مصر .

باشا والى مصر ، إذ كان يعتقد أن هذا الباشا لن يقنع بمركزه كوال من الولاة العاديين فى الدولة ، بل ببغى الاستقلال بحكم مصر . ويلاحظ أن محمد على كان قد تسرع فأعرب فى وقت مبكر جداً يرجع إلى شهر سبتمبر أيلول — عام ١٨٠٧ — أى بعد تعيينه والياً على مصر بعامين وبعض عام — عن رغبته فى أن يحكم مصر وراثياً فى أسرته متمتعاً بالاستقلال الذاتى فى نطاق الدولة العثمانية ، على غرار الأسرة الحسينية التى حكمت تونس وراثياً منذ عام ١٧٠١ ، وعلى غرار أسرة القرمانلى التى حكمت طرابلس الغرب وراثياً منذ عام ١٧١١ (١) . ومن المحتمل جداً — إن لم يكن من المؤكد — أن

---

(١) كشف محمد على عن مشروعه فى أثناء المفاوضات التى دارت بينه وبين المنتوبين الإنجليز بخلاء الحملة البريطانية التى جاءت بقيادة الجنرال فريزر Mackenzie Frazer إلى مصر واحتلت نهر الإسكندرية فى النصف الثانى من شهر مارس — آذار — عام ١٨٠٧ . وعلى أثر الهزيعتين اللتين لقيتهما الحملة فى رشيد وفى الحماة ، ولأسباب أخرى، رأت الحكومة البريطانية إخلاء من الإسكندرية . ودارت المفاوضات لتنظيم حملات إخلاء وتوقيعها وتبادل الأسرى وما إلى ذلك من مسائل . وكانت المفاوضات ذات طابعين : طابع عسكرى خاص بالإخلاء ، وطابع سياسى يتعلق بمشروع محمد على فى تحقيق الاستقلال الذاتى ، أى حكم مصر وراثياً فى أسرته ، ويستقل عن الدولة العثمانية فى تشئون الحكم الداخلى ، ولا تربطه بالدولة سوى السيادة الاسمية التى يرمز إليها بحزبة سنوية يلغها محمد على للسلطان فى مواعيد منتظمة وبصفة رتيبة على أن تحدد قيمة هذه الجزية ، وبعض مسائل أخرى يتفق عليها فيما بعد . وطلب محمد على أن تبذل الحكومة البريطانية مساهماتها الممثلة لدى دوائر الباب العالى لتحقيق هذا المشروع فى مقابل عقد معاهدة تحالف بين بريطانيا ومصر تنص على تمهيد محمد على برعاية المصالح التجارية البريطانية فى مصر ، وتسجيل المواصلات البريطانية عبر الأراضي المصرية إلى الهند ، وتزويد القوات البريطانية فى مالطة وسائر القواعد العسكرية التى كانت تحت سيطرة بريطانيا فى ذلك الوقت بالمواد التموينية وماء الغرب ، وأن تبادر الحكومة البريطانية إلى وقف أى محاولة قد يقوم بها الباب العالى لتقلل محمد على من مصر إلى ولاية أخرى، كما حدث عند ما أصدر السلطان فرماناً بنقله والياً على سالونيك وتمين موسى باشا والياً على مصر ، وقرن السلطان هذا فرمان بإرسال أسطول بقيادة صالح باشا قبودان وحمل إلى الإسكندرية فى أول يوليو — تموز — عام ١٨٠٦ . وطلب محمد على أيضاً أن تستخيم بريطانيا قواتها البحرية فى الدفاع عن الإسكندرية إذا حاول العثمانيون أو الفرنسيون أو جيش أى دولة أخرى مهاجمة الإسكندرية أو غيرها من ثغور سواحل مصر . ومن المعروف أن محمد على لم يكن قد ولد بعد علاقاته مع فرنسا . وبمبادرة أخرى أراد محمد على من معاهدة التحالف مع بريطانيا أن يؤمن مركزه فى مصر ضد العثمانيين والفرنسيين والماليك . وكان الأخيرون حلفاء الإنجليز . ولم يجد مشروع محمد على أذاناً صاخبة من الإنجليز . وعقدت معاهدة إخلاء عن الإسكندرية فى الرابع =

الإنجليز نقلوا تفاصيل هذا المشروع إلى دوائر الباب العالي وعلم به السلطان محمود الثاني الذي تولى العرش بعد شهر معدودة من تلك المفاوضات ، واستطاع حكمه اثنين وثلاثين عاماً . ومن هنا كانت توجد أزمة عدم ثقة بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي في معظم سنوات حكم هذا السلطان . وكانت سياسته تقوم على اتخاذ الأخطار والمتاعب التي واجهها وسيلة لتحقيق هدفين : أولهما الاستعانة بمحمد علي للقضاء على الحركة الوهابية والإخماد الثورة اليونانية . ثم طلب منه الاشتراك مع جيوش الدولة في حربها ضد روسيا عام ١٨٢٨ ، ولكنه رفض معتبراً ببعد المسافة بطريق البر وبعدم وجود سفن تنقل الجنود بطريق البحر ، وبتفتش وباء الكوليرا في مصر والشام وبانتشاره بين جنود الجيش المصري (١) . وكان ثاني الهدفين لإضعاف محمد علي عسكرياً ومالياً واقتصادياً بسبب إسهامه في حروب الدولة . وقد تكبدت مصر فيها خسائر فادحة في الأنفس والأموال والسفن والأسلحة وما إليها (٢) . وقد صدقت نبوءة السلطان ، فلم تكد تمر سنوات ذات عدد

= عتر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٧ . وكانت مقصورة على المسائل العسكرية المتصلة بجلاء القوات البر بطلابة من الإسكندرية . ولم تتعرض من قريب أو من بعيد للمشروع السياسي الذي عرضه محمد علي .

للاستزادة من المعلومات عن الجانب السياسي للمفاوضات انظر :

Douin George; Mohamed Aly, Pacha du Caire. (1805-1807). Le Caire, 1926.

الوثيقة رقم ١٥٩

وعن الجانب العسكري للمفاوضات انظر :

Douin George et Fawtier-Jones E. C. ; L'Angleterre et L'Egypte etc., op. cit.,

لوثيقة رقم ١٢٠ وما يهدها

(١) أودى وباء الكوليرا بحياة خمسة آلاف جندي . ومات به من المدنيين نحو ١٥٠ ألف نسمة . واستطاع فتك أربعة وثلاثين يوماً في عام ١٨٣١ .

(٢) كانت الحرب الوهابية أشق الحروب التي شاعت مصر نحارها ، وأطولها مدى ، ومن أكثرها ضحايا ومتاعب . جردت مصر خلالها حملات عديدة متعاقبة على امتداد سنوات متوالية . ولقي فيها الجنود الشدائد من وعورة الطرق وشدة القيقظ وقلة المؤونة وتندرة المياه وفي محاربة عدو مستبسل بذل النفس وأنفيس دافعاً عن وطنه وملكه .

أما القوات التي بعثت بها مصر لإخماد الثورة اليونانية فقد بلغ تعداد أفرادها اثنين وأربعين ألف جندي خسرت منهم ثلاثين ألفاً . وبلغت نفقات الحملة ٧٧٥,٠٠٠ جنيه ، وفقدت أسطولها في معركة ناقرين البحرية

على اشتراك مصر في إخماد الثورة اليونانية حتى نشبت بين السلطان ومحمد على حرب الشام الأولى عام ١٨٣١ وتلها حرب الشام الثانية سنة ١٨٣٩ .

### اجتماع موسع لمناقشة مشكلة الإنكشارية :

بعد أن استردت القوات المصرية - باسم السلطان العثماني - مدينة مسولنجي من الثوار اليونانيين في اليوم الثاني والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٢٦ ، كما سبق أن ذكرنا ، رأى السلطان محمود أن يمضي قدماً في إصلاح الجيش . وهو المشروع الذي كان يعلق عليه أعذب الآمال منذ الأسابيع الأولى التي تولى فيها العرش عام ١٨٠٨ . وقد صبر على الإنكشارية وصبرهم أمداً طويلاً لعلهم يغيرون موقفهم المعارض لتطوير الفيسالق الإنكشارية . وقد استطال عداؤهم لهذا التطوير زهاء ثمانية عشر عاماً منذ أن تولى العرش . وتمشياً مع خطته تجاه الإنكشارية بالذات قرر أن يمنحهم فرصة سلمية أخيرة ، فيحاول تطويرهم بالحسنى على غرار ما فعل في مستهل حكمه في مطلع شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٨ ، فإذا رفضوا ، لجأ إلى مواجهة عسكرية يخوضها ضدهم بعد أن يعد عدته من النواحي العسكرية والدينية والشعبية لمثل هذه المواجهة حتى يستأصل هذه الطائفة الباغية ، ويقي الجيش والمجتمع شرورها .

طلب السلطان من محمد مظهر باشا الصدر الأعظم أن يدعو إلى اجتماع موسع يعقد في دار شيخ الإسلام في اليوم السابع والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٢٦ وبحضره قادة أسلحة الجيش بما فيهم كبار ضباط الفياق الإنكشارية ورجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وعلى رأسهم شيخ الإسلام ، وكبار الموظفين والأعيان . وتحدث في هذا الاجتماع الصدر الأعظم موضحاً ما وصل إليه الإنكشارية من تدهور وعدم انقياد للرؤساء وتعدد حوادث تمردهم وعصيانهم وتدخلهم في المسائل السياسية متجاوزين حدود اختصاصاتهم

= أنظر :

عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٥ ، وص ١٨٦

ونزوعهم إلى سلب ونهب المدنيين . ومضى محمد مظهر باشا يعدد في استفاضة آثامهم التي دأبوا على ارتكابها في وضع النهار وظلمة الليل حتى أصبح الإنكشارية من أكبر أسباب اضمحلال الدولة وضعف مركزها العسكرى أمام تقدم الدول الأوروبية المطرد في المحالات الحرية . وخلص الصدر الأعظم من حديثه الضافى إلى ضرورة الأخذ بالنظم العسكرية الحديثة في الفياق الإنكشارية ، إذ لا يمكنها بحالها في ذلك الوقت الوقوف أمام الجيوش الأوروبية الحديثة التنظيم والتسليح والتدريب . وقد لقيت هذه الآراء والتوجهات التي جاءت على لسان الصدر الأعظم موافقة فورية وجماعية من الحاضرين . وعندئذ قرأ المکتوبى - وكان يقوم بعمل كاتم السر في هذا الاجتماع - مشروعاً بإعادة تنظيم القوات الإنكشارية . وكان هذا المشروع يتكون من ست وأربعين مادة تناولت جميع التعديلات المراد إدخالها على نظام الفياق الإنكشارية . وتحررت مضبطة لهذا الاجتماع وقع عليها جميع الحاضرين بما فيهم ضباط الإنكشارية . وكانت هذه المضبطة تشمل أيضاً التعديلات التي اقترحها الصدر الأعظم فيما يختص بالنظام المطور للفياق الإنكشارية . ثم قرئ المشروع مرة ثانية على ضباط الإنكشارية فأقروه . وأصدر شيخ الإسلام فتوى بوجوب تنفيذ التعديلات الجديدة ومعاينة كل شخص تسول له نفسه الاعتراض عليها (١) . ويلاحظ أن اختيار السلطان محمود الثانى دار شيخ الإسلام مكاناً لعقد هذا المجلس الموسع كان اختياراً هادفاً انبثق عن رغبته في إضفاء الشرعية الدينية الإسلامية على القرارات التي يتخذها المجلس في دار شيخ الإسلام وفي حضوره وبموافقته مما يجعل الجماهير تتقبل قرارات المجتمعين دون مناقشة وأن تؤيدها قلباً وقالياً .

موقف الإنكشارية من الخط الشريف كان البداية السريعة لنهايتهم :  
وفي اليوم التالى لهذا الاجتماع الموسع - أى في الثامن والعشرين من

---

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٤٥-٧٤٦ .

شهر مايو - آيار - عام ١٨٢٦ (١) أصدر السلطان محمود الثاني في ضوء القرارات التي صدرت عن ذلك الاجتماع الموسع - ما عرف باسم خطي شريف - ويقتضى بإنشاء جيش جديد وفقاً للنظم الأوروبية الحديثة في التنظيم والتسليح والتدريب . واشتمل هذا الخط الشريف على الست وأربعين مادة التي أقرها الاجتماع الموسع . ولنا عدة ملاحظات على هذا الخط الشريف فيما يتصل بالإنكشارية كمركز قوة خطير في الدولة :

أولاً : لم يعمد السلطان محمود إلى إلغاء الفياقق الإنكشارية ، بل أبقى عليها وقرر أن تقدم كل كتيبة مرابطة في إستانبول مائة وخمسين جندياً لإحراقهم بالفرق الجديدة . ولعله استهدف من إدراج هذا النص في « الخط الشريف » استئالة الإنكشارية حين يدركون أن السلطان قد أبقى على طاقاتهم كمسكرين . وأنهم لن يصبحوا مبدئياً بعيدين عن هذه القوات بل سيزودونها بوحدهاتها الأولى .

ثانياً : أنه قرر في ذات الخط الشريف أن الدولة لن تستخدم ضباطاً أو خبراء مسيحيين في تنظيم وتدريب الفرق الجديدة . وقد أراد السلطان أن يقطع الطريق عليهم فلا يعمدون إلى الإثارة الدينية سواء في محيطهم أو محيط علماء الدين أو الجماهير المسلمة .

ثالثاً : تجنب السلطان ذكر « النظام الجديد » في « الخط الشريف » ، لأن هذا النظام يقترب في الأذهان باسم السلطان سليم الثالث ، وعلى التقيض صور الفرق الجديدة على أنها بعث للنظام العسكري الصارم الذي أرسى قواعده السلطان سليمان المشرع . وهو النظام الذي نظر إليه دعاة الإصلاح في الدولة منذ أن قدم كوتشى بك (٢) Khodji-Bey رسالته الشهيرة على أنه

---

(١) تذكر بعض المراجع أن السلطان أصدر الخط الشريف في ذات اليوم الذي عقد فيه الاجتماع الموسع برئاسة محمد منظر باشا الصدر الأعظم ، أى في اليوم السابع والعشرين من شهر مايو آيار - عام ١٨٢٦ . وهذه نقطة شكلية لا تقدم ولا تؤخر في جوهر المسألة .

(٢) كان كوتشى بك من مواليد ألبانيا أو مقدونيا . وجاء إلى إستانبول ضمن الحصيلة الآدمية لضريبة الفلّان . وأظهر منذ حداثة سنه مواهب عقلية ، فاختارت له الدولة الدواست العلمية مبدئاً لتحصنه بالتفوق ببدأً من التعليم العسكري . ووقع عليه الاختيار ليمثل في القصر السلطاني وعظمر بتقدير حقيق من السلطان مراد الرابع وجعله مستشاره الخاص . وقد عهد إليه -

النظام الأمثل والدواء الشافى من جميع العلل التى تضافرت على إضعاف الدولة ،  
والوسيلة العملية لاستعادة عصرها الذهبى . فلما أصدر السلطان محمود الثانى  
« الخط الشريف » لى تأييداً واسعاً على المستوى الرسمى والدينى والشعبى .

آخر تمرد عسكري فى تاريخ الدولة الخمسة لىائق إنكشارية فى إستانبول :  
وعلى الرغم من أن ضباط الإنكشارية قد أقروا المشروع الذى عرضه  
عليهم الصدر الأعظم محمد مظهر باشا فى اجتماع اليوم السابع والعشرين من  
شهر مايو — آيار — عام ١٨٢٦ ، اتضح أنهم يقولون بالسنتهم ما ليس فى  
قلوبهم ، وأنهم قوم مردوا على العصيان والعناد والسلب . فى اليوم الخامس  
عشر من شهر يونيو — حزيران — عام ١٨٢٦ — بعد مضى عشرة أيام على  
الحفل الرسمى الذى أقيم بمناسبة بدء تكوين الفرق الجديدة فى الجيش — تعرض

بوضع مذكرة يتعرض فيها أسباب اضمحلال الدولة فى ذلك الوقت والوسائل التى يرى أنها كفيلة  
بإنقاذها . وقد أتم كوتشى بك وضع المذكرة وقدمها للسلطان عام ١٦٣٠ ، ويطلق عليها فى  
تاريخ الدولة العثمانية « رسالة » . ويقصد بها رسالة كوتشى بك . والرسالة لفظة مأخوذة من اللغة  
العربية بنفس المعنى . وهى عبارة عن بحث أو تقرير ضاف يتكون من سبعة عشر فصلاً . ومن  
الملاحظات التى تشد انتباه الباحث أن كوتشى بك استل كل فصل من فصول الرسالة بمبارات  
موحدة واختتمها بمبارات موحدة امتتح فيها السلطان مراد الرابع وأعطى عليه الكثير من صفات  
الذكاء والمظلة والمقدرة .

وكانت هذه الرسالة موضع التقدير العميق من رجالات الدولة وفى الأوساط الأوروبية .  
كما أصبحت مصدراً تاريخياً استقى منه مؤرخو الدولة العثمانية مادتهم العلمية فى الكتابة عن أسباب  
اضمحلال الدولة . كما جعلت هامر يطلق على مؤلفها العثماني اسم أحد أعلام الفكر الفرنسى قبل  
الثورة الفرنسية وهو مونتسكيو Montesquieu ( ١٦٨٩ — ١٧٥٥ ) صاحب كتاب  
« روح القوانين L'Esprit des Lois فقال إن كوتشى بك هو « مونتسكيو العثماني »  
Le Montesquieu Ottoman . وقد ذكر الأستاذ برنارد لويس هذا التشبيه  
« مونتسكيو التركى » The Turkish Montesquieu وهى تسمية تنطوى على خطأ ،  
لأن كلمات تركى ، وأتراك ، وتركيا ، لها مدلولات أخرى قبل القرن الثمىن ، كما سبق  
أن ذكرنا فى الفصل الأول .

انظر كلامن :

Lavisse et Rambaud; op. cit., Tome v, p. 880—881.

Lewis B., The Emergence etc., op. cit., p. 22 N. 3 and pp. 78 — 79.

ويلاحظ أن اسم كوتشى بك يرد فى المراجع الأوروبية مكتوباً فى صيغ شتى مثل :  
khoudj, khodjia, Koçu—Bey, .

الإنكشارية للجنود وقت التدريب ، وأوسعهم ضرباً . واستقر رأيهم على القيام بحركة تمرد . وكانت لانزال عالقة في أذهانهم حركات التمرد التي قاموا بها من قبل احتجاجاً على مشروع تطوير الجيش ونجاحهم في تحقيق مآربهم . وحجراً على عاداتهم اجتمعت خمسة فيالق إنكشارية في ميدان الخيل ووضع أفرادها القزانات أمامهم وهي مقلوبة ، وانطلقوا في شوارع إستانبول يشعلون النار في مبانيها ، ويهاجمون المنازل ، ويحطمون المحلات التجارية ، ويسلبون البضائع . وكانت حركة العصيان هذه هي آخر حركة تمرد يقوم بها الإنكشارية في تاريخ الدولة في إستانبول . وكان السلطان أكثر استعداداً لمواجهة الجاهل أكثر ميلاً للإسهام في مقاومة الإنكشارية بعد أن لاقوا من جبروتهم وطفانهم ما لم يكونوا يظنون .

#### الطوبجية والغمجية في مواجهة عسكرية ضد الفياق الإنكشارية :

كان السلطان محمود الثاني يقيم يومئذ في قصره القائم في بشيكطاش (١) ، فأسرع بالانتقال في قارب إلى القصر السلطاني في إستانبول . وأمر بادئ ذي بدء بقتل كل إنكشاري يتعرض بسوء إلى الجنود أو يعث بالنظام العام . واستدعى السلطان إليه شيخ الإسلام والمفتين ومن إليهم من أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والذين كانوا وقتذاك في العاصمة . وشرح لهم موقف الإنكشارية فاستهجنوا قصر فاتهم وأشاروا عليه بمقاومتهم ، فاستصبر من

---

(١) بشيكطاش ضاحية إستانبول على بعد ميلين ونصف الميل من جسر جالطة على الساحل الأوروبي لبوسفور . وكان البيزنطيون يطلقون على هذه الضاحية اسم ديوكيونون *Diplokionion* نسبة إلى صودين أقامهما هناك رومانوس الأكبر . ومن هذا الموضع استطاع السلطان محمد الثاني عند شروعه في فتح القسطنطينية أن يتغل سفته فوق تلال *Pera* إلى القرن الذي إلى سد مدخله من ناحية البوسفور بسلسلة حديدية . وكانت هذه الضاحية في القرنين السابع عشر والثامن عشر تزخر بعدد من القصور البديعة التي كان يصطاف فيها السلاطين . وفي الوقت الحالي تحيط به سلسلة الضاحية مجموعة من القصور الرائعة مثل ضلوه داغية ، وقصر بلذر . ومن الأماكن السياحية ذات الأهمية التاريخية في هذه الضاحية قبر غير الدين يريروسة أمير البحر المتوفى عام ١٥٤٦ . وكانت بشيكطاش عبارة عن الدائرة السادسة لبلدية إستانبول .

انظر :



شيخ الإسلام فتوى بوجوب إبادة هذه الفئة الطاغية والضالة . وأمر السلطان باستدعاء عدة فرق عسكرية كان من بينها : آلاى طوبجية وهي فرقة من سلاح المدفعية كان قد أعاد تنظيمها وتدريبها عقب احتلاله العرش . وكوّن أفراد هذه الفرقة مع أوجاق اللغمجية - أى الذين يثبتون الألغام (١) - فيلقاً ، وكون حملة البنادق ورجال البحرية فيلقاً آخر . ودعا السلطان أفراد الشعب إلى قتال الإنكشارية . وقد صحت عزيمته السلطان في هذه المرة على إبادة الإنكشارية ووضع نهاية لشروهم واسترسالهم في حركات التمرد والطغيان .

### الواقعة الخيرية :

وفي صباح اليوم السادس عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٢٦ أخرج السلطان البيرق النبوى - العلم النبوى الشريف - واتجه مع القوات العسكرية ومع المدنيين المسلمين إلى آت ميدانى - ميدان الخيل - وكانت تطل عليه ثكنات الإنكشارية . وكانت قد احتشدت في هذا الميدان خمسة فيالق من الإنكشارية ، وكانت القزانات - قنود الطعام - أمامهم وهي مقلوبة رمزاً لاستمرار حركة العصيان العسكرى . وكانوا في هرج ومرج شديدين وأقاموا المتاريس أمام البوابة الكبرى لثكناتهم . ولم يمض قليل من الوقت حتى أحاط رجال المدفعية بالميدان ، واحتلوا جميع المرتفعات المشرفة عليه . وسلطوا مدافعهم على الإنكشارية من جميع الجهات . وهجم الإنكشارية على مواقع المدافع ييغون الاستيلاء عليها ، فحصدتهم المدفعية ونالت منهم مثالا كبيراً . وأيقنوا أنه لا طاقة لهم على مقاومة المدفعية . والتجأوا إلى ثكناتهم طلباً للنجاة . وفشل تخطيطهم . إذ سلطت المدافع قذائفها على الثكنات وهدمتها واشتعلت فيها النيران حتى دمرتها على رعوس البقية الباقية

(١) لعم كلمة تركية بمعنى ثقب تحت الأرض . وكان شأن أوجاق اللغمجية شأن أوجاق الخمبرجية - أى قاذف القنابل - من حيث أن أفراد هاتين الأقسامين لم يكونوا يتسلمون مرتبات من غزاة الحكومة ، بل يمضون إقطاعات عسكرية من الأراضي .

منهم وتولى الجنود النظاميون إلقاء جثث الإنكشارية في البحر . ويقدر عدد قتلاهم في ذلك اليوم بستة آلاف إنكشارى ، ولو أن البعض يقفز بعدد القتل إلى أضعاف هذا العدد (١) . وعلى هذا النحو انتهت في السادس عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٢٦ حركة العصيان والتمرد التى قام بها الإنكشارية بإبادة معظمهم . ويسمى العثمانيون قتل الإنكشارية في هذا اليوم « وقعة خيرية » أى الواقعة الخيرية لأنهم تفاءلوا بها خيراً (٢) .

### إلغاء نظام الإنكشارية :

واستتبع إبادة الإنكشارية في الواقعة الخيرية اتخاذ عدة قرارات لاحقة وعاجلة لتأمين المجتمع . فأصدر السلطان في اليوم التالى - السابع عشر من شهر يونيو - حزيران - فرماناً بإلغاء الفياق الإنكشارية إلغاء كلياً بحيث يشمل الإلغاء تنظيماتهم العسكرية وأسماء الفياق الإنكشارية وشاراتها وأعلامها ومصطلحاتها العسكرية في جميع أنحاء الدولة . ونودى بهذا القرار في شوارع إسطنبول . وفي ذات الوقت صدرت الأوامر إلى حكام جميع ولايات الدولة بتعقب كل من بقى من الإنكشارية على قيد الحياة وإعدامه أو نفيه خارج البلاد حتى لا تبقى منهم باقية في نطاق الدولة ، ولا تقوم لهم قائمة

وفي ذات اليوم أصدر السلطان محمود الثانى فرماناً بإنشاء جيش جديد وفق النظم الأوروبية الحديثة ، وأطلق عليه « عساكرى منصورى محمدى » أى العساكر المنصورة المحمدية . وهو تعبير ذو طابع دينى إسلامى لا يفوتنا أن نسجله في هذه الدراسة استهدف منه السلطان قطع الطريق أمام أى هيئة أو طائفة تحاول الإثارة الدينية بين الجماهير نتيجة إبادة الفياق الإنكشارية ، وقد أراد السلطان أيضاً من هذه التسمية تسجيل الآمال التى تعلقها الدولة

---

(١) دكتور جلال يحيى : المخل إلى تاريخ العالم الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨١ .

(٢) Lewis B. ; The Emergence etc. ; op. cit., p. 79.

وانظر أيضاً :

ساطع الحصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨١ ، ويقول هذا المؤلف إن التعبير الثماني « وقعة خيرية » يدل بالحساب الأبعدى على تاريخ الواقعة بالسنة الهجرية .

والجماهير على المقدرة القتالية للجيش الجديد في تحقيق انتصارات عسكرية باهرة لا تقل في روعتها عن انتصارات الإنكشارية في عهدهم الأول .

وبإلغاء الفياق الإنكشارية ألغى السلطان محمود الثاني منصب نبي شرية أغاسى - أى رئيس الإنكشارية - واستبدل منصباً جديداً بالمنصب القديم وأطلق على شاغله سر عسكر ، وهو مصطلح تاريخي عثمانى استخدم في العهود السابقة وكان يمنح لقادة الجيش ، ومعناه رئيس العسكر أو القائد العام (١) . ولكن أدخل السلطان محمود تعديلات شتى على اختصاصات شاغل هذا المنصب ، فأصبح يجمع في يديه اختصاصات وزير الحرية واختصاصات القائد العام للجيش ، وأضاف إليه اختصاصاً ثالثاً هو مسئولية المحافظة على الأمن العام وواجبات الشرطة في العاصمة (٢) . وقد عين في منصب سر عسكر حسين باشا أغا وهو أحد كبار ضباط الفياق الإنكشارية ، وكان قد انقلب عليهم من قبل احتجاجاً على تصرفاتهم وانضم إلى السلطان . وكانت له اليد الطولى في واقعة ١٦ من يونيو - حزيران - ولم يمض عام ١٨٢٦ حتى تم تدريب وتسليح عشرين ألف جندي كمرحلة أولى ، على أن تكون حصيلة المرحلة الثانية في نهاية العام التالى ١٠٠ ألف جندي نظامي (٣) .

### حل الطريقة البكتاشية دعامة الإنكشارية :

لم يكد يمر شهر واحد على إلغاء الفياق الإنكشارية حتى أصدر السلطان محمود الثاني فرماناً بحل الطريقة الصوفية البكتاشية وهدم تكاياها التي كانت قائمة في إستانبول وما جاورها ، وإغلاق بقية تكاياها التي كانت منتشرة انتشاراً واسعاً في أنحاء البلاد ، وهدم دفع أى إعانات لها (٤) . واستند السلطان

(١) يرد كثيراً ذكر هذا المصطلح في كتاب الجبرقي إبتداء من الجزء الثالث عند كلامه عن المنشورات التي كانت تصدر عن قيادة الجيش الفرنسى إبان الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨-١٨٠١ .

(٢) Lewis B. ; The Emergence etc., op. cit.;p. 80.

(٣) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٧ .

(٤) Lamouche (Colonel); Histoire de la Turquie. Paris, 1953, (٤) pp. 250-252.

في قراره إلى أن أتباع هذه الطريقة أخلوا يثرون القلاقل وبحرضون الجماهير على القيام في وجه الحكومة احتجاجاً على قتل الإنكشارية في واقعة ١٦ من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨١٦ . وقد سبق أن تكلمنا في الفصل السابق عن العلاقات الوثيقة التي كانت تربط الإنكشارية بأتباع الطريقة البكتاشية .

ولكى يضفي السلطان محمود الثاني الشرعية الدينية على قراره بحل الطريقة البكتاشية استصدر فتوى من شيخ الإسلام بأن البكتاشية خارجون على القانون ، وأنه لا تريب على ولى الأمر إذا اتخذ إجراءات أمن كي يمنع شروهم عن المسلمين . واستناداً إلى هذه الفتوى بشقيها أمر السلطان بأن يعدم علناً ثلاثة من كبار البكتاشية ، وأن ينفى الباقون ، وأن يشتت شمل أتباع الطريقة بترحيلهم إلى أطراف الدولة متفرقين منعاً لأى تجمعات يقومون بها في إستانبول (١) . وكان تصرف السلطان في هذا الصدد نابهاً من حرصه الشديد على تفادى أى نتائج ضارة قد تحدث بعد إلغاء الفياقق الإنكشارية .

ويبدو من ملابسات هذه الفترة العصية - شهرى يونيو ويوليو - حزيران وتموز - عام ١٨٢٦ أن حل الطريقة البكتاشية كان إجراء مكملًا لإلغاء الفياقق الإنكشارية ، وأن هذا الإجراء كان أمراً لا مندوحة عنه *Sine qua non* في خلال هذه الأزمة ، لأن الطريقة البكتاشية لم تلبث أن عادت بعد ذلك إلى الازدهار رويداً رويداً ، ولو أنها لم تستعد قط ما كان لها من مركز مرموق في تاريخ المجتمع العثماني (٢) .

---

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٦ .

Lewis B.; The Emergence etc, op. cit., p. 79.

(٢) وجدت في شمال الأناضول تكية عبّان جيك ، فضلاً عن التكية الأصلية المقامة في هذه المنطقة . وجدت في غرب الأناضول تكية أخرى في مدينة إسكى شهر . وهما من التكايا البكتاشية الهامة . وهناك تكية ثالثة أقيمت على سفح جبل المقطم بالقاهرة ، وتوجد أعداد كبيرة نسبياً من البكتاشية إلى الوقت الحاضر في التجمعات الإسلامية في شبه جزيرة البلقان ، وبخاصة في ألبانيا حيث توجد تكية البكتاشية الكبرى في تيرانا عاصمة الإقليم . وجاء في بعض الوثائق أنه كان لا يزال في جمهورية تركيا إلى عام ١٩٥٢ ثلاثون ألف بكتاشي . انظر :

Tachudi; Encycl. of Islam. Art. Bektash.

ويلاحظ أن الأرواح الدينية سواء بالنسبة للإسلام أو المسيحية قد تغيرت تغيراً جذرياً في ألبانيا منذ أن توطد الحكم الشيوعي فيها منذ الستينات في القرن العشرين .

ولكن يؤخذ على السلطان محمود الثاني أنه أسرف في الاقتصاد من البكتاشية . كان يدخل في زمرتهم كل شخص كان متصلاً بهم أو متعاطفاً معهم على أى نحو من الأنحاء . ومن الأمثلة التى تساق في هذا الصدد عطا الله محمد ويشتر باسم ساني زاد (١٧٦٩-١٨٢٦) . كان أحد أعلام الفكر العثماني في القرن التاسع عشر . كان ذا عقلية موسوعية وتعلم عدة لغات أوروبية . ودرس الطب ، وعينه السلطان سنة ١٨١٩ مدوناً للتاريخ العثماني . وعكف على ترجمة بعض المراجع الطبية إلى اللغة التركية ووضع بحوثاً في علوم وظائف الأعضاء ، والتشريح ، والتعليم . وأدخل في اللغة التركية لأول مرة مصطلحات لغوية في علوم الطب . وقد أخذ عليه السلطان أنه على صلات بأتباع الطريقة البكتاشية ، فأمر بعزله ونفيه . ولم يشفع له الإراء العلمى الطبى الذى حفلت به حياة هذا العالم مع أنه لم يكن رجعيًا . وقد جاز إلى ربه في ذات السنة التى شهدت نفيه من إستانبول إلى أحد الأطراف النائية على حدود الدولة (١) .

وبعد أن نجح السلطان محمود الثاني في استئصال شأقة الإنكشارية مضى يستكمل إصلاح الجيش وأصدر تباعاً عدة قوانين عسكرية تخرج عن نطاق هذه الدراسة . وحسبنا أن نذكر أن هذا السلطان تطلع إلى محمد على باشا وإلى مصر ليساعده في تدريب الجيش الجديد . فطلب منه في ذات السنة (١٨٢٦) أن يمدّه بآئتي عشر خبيراً من الخبراء العسكريين لتدريب الجيش العثماني . واعتذر محمد على عن عدم إرسال الخبراء بأعداد مخادعة (٢) . وولى السلطان وجهه شطر أوروبا كما فعل محمد على من قبل . وترددت فرنسا وبريطانيا ، بينما لقي استجابة من روسيا والنمسا . فجاء من روسيا في أواخر عام ١٨٣٥ في زيارة خاصة الضابط الروسي ذو الشهرة العالمية فون مولتكه (٣)

Lewis B.; The Emergence etc., op. cit., pp. 85—86. (١)

Lewis B.; The Emergence etc., op. cit., p. 81. (٢)

(٣) كان مولتكه أحد أربعة عالقة قامت على أكثافهم الإمبراطورية الألمانية الحديثة في مطلع عام ١٨٧١ ( غليوم الأول ، وبيمارك ، وفون رون Von Roon وزير الحرب وفون مولتكه ) . وقد ولد عام ١٨٠٠ وعين ضابطاً بالجيش البروس ، ثم سافر إلى إستانبول وظفر بتقدير عظيم من السلطان محمود الثاني ، وعين في الجيش العثماني . وحضر موقعة نصيبين =

Helmuth von Moltke وقد عينه السلطان مستشاراً لشئون تدريب الجيش ، ثم جاء في أثره خمسة ضباط روسيين آخرين . وكان استخدام الضباط الألمان في الجيش العثماني خطوة هامة على أول الطريق الذي أدى فيما بعد إلى نمو النفوذ الروسي ( الألمانى ) في الجيش العثماني نمواً عظيماً (١) ، وباكورة أولى لمعالم سياسة التقارب التي انتهجتها ألمانيا فيما بعد نحو الدولة العثمانية . وهي السياسة المعروفة باسم Drang Nach Osten أى الاتجاه نحو الشرق .

### تقدير عام محمود الثانى لإلغاء الفياق الإنكشارية :

هناك شبه إجماع من المؤرخين والباحثين على الإشادة بالسلطان محمود الثانى لنجاحه فى إلغاء الفياق الإنكشارية وتخليص الحكومة المركزية والجمعية العثمانى من شروهم . ويصفه البعض بالحزم والشجاعة ورجاحة الفكر والحصافة . وقالوا إنه اكتسب معظم هذه الخصال من احتكاكه بالأوروبيين (٢) . ويعلق أحدهم على نجاح السلطان فى القضاء على الإنكشارية بقوله إنه لو لم

- 
- = ويسمى المؤرخون الفرنسيون نزيب Nezib ( ٢٤ من يونيو - حزيران - ١٨٣٩ ) . وقد مئ فيها الجيش العثماني هزيمة ساحقة على يد الجيش المصرى . وكان مولتكه فى هيئة أركان الحرب بالجيش العثماني . ويقال إنه ولئ الأدهار مع سائر الضباط العثمانيين دون أن يتسكن من أخذ ملايمه وأوراقه الخاصة . وعاد إلى يروسيا وتدرج فى الوظائف العسكرية إلى أن عين رئيساً لأركان الحرب بالجيش الروسى ، وحصل على رتبة مشير Field Marshal وبفضل جهوده غدا الجيش أقوى جيش فى أوروبا . وكانت له اليد الطولى فى انتصار يروسيا على النمسا فى معركة سادوا . وهى التى يسميها المؤرخون الألمان كونيجراتز Koniggratz ( ٣ من يوليو - تموز - ١٨٦٦ ) ، وعلى فرنسا فى موقعة سيدان Sedan ( ٢ من سبتمبر - أيلول - ١٨٧٠ ) . وأقيم له تمثالان فى حياته . واضرل الخلع فى سنة ١٨٨٨ ، وتوفى عام ١٨٩١ .

(١) أرسلت الحكومة الألمانية فى عام ١٨٨٣ بعثة عسكرية إلى الأستانة لتتولى تنظيم الجيش العثماني وفق الأساليب الحديثة . وكانت هذه البعثة برئاسة الكولونيل فون درسولتس .

(٢) قيل إن والدة السلطان محمود الثانى كانت فرنسية . وهذه رواية ضعيفة ، يدحضها أنه لم يكن يعرف اللغة الفرنسية على الإطلاق . كما أنه لم يكن يتكلم أى لغة أوروبية . وكان تعليمه عادياً بالنسبة لأمر من أمراء الأسرة الحاكمة . وكانت دراسته مقصورة على الشريعة الإسلامية واللغة التركية وبعض اللغات الشرقية والتاريخ والشعر . ولم تكن له معرفة مباشرة بالدول الغربية على الرغم من أنه كان يقوم بجولات فى الولايات العثمانية والأوروبية مستظلاً أحوالها .

يكن للسلطان « من الأيادي البيضاء على الممالك المحروسة (١) إلا إلغاء طائفة الإنكشارية لكنى ذلك لتخليد اسمه في بطون التاريخ مشكوراً ممدوحاً إلى أبد الآبدين » (٢). ويعلق آخر تعليقاً متزناً فيقول إن نجاح محمود الثانى فى القضاء على الإنكشارية « كان كافياً وحده لاعتباره من أعلام الإصلاح فى الدولة العثمانية » (٣). وذهب أحد المؤرخين فى تمجيد السلطان إلى القول بأنه يشبه بطرس الأكبر قيصر روسيا من حيث الدور الذى قام به كل منهما فى دولته ، ومن حيث الإصلاحات التى أدخلها كل منهما فى بلاده (٤).

والحق أن الباحث المحايد لا يستطيع أن يقلل من أهمية وحجم النجاح الذى أصابه السلطان محمود الثانى فى إلغاء الفياق الإنكشارية بعد أن تفاقم طغيانها وجبروتها وغدت مركز قوة خطير فى حياة الدولة . وتتضح قيمة انتصاره على هذه الفئة الباغية إذا وضعنا فى اعتبارنا المعوقات العديدة التى فرضت نفسها فرضاً على السلطان . ونشير هنا إلى أهم هذه المعوقات حتى عام ١٨٢٦ وهو تاريخ إلغاء الفياق الإنكشارية . كان على رأسها الحركة الوهابية أو السلفية فى شبه الجزيرة العربية ، واستئناف الحرب الروسية التى انتهت بمعاهدة بخارست عام ١٨١٢ ، والثورة التى حمل لواءها على باشا والى يانينا ، والثورة اليونانية وما صحبها من تدخل دولى - حربى وسياسى - لصالح الثوار اليونانيين . وقد استغرقت هذه المعوقات ثمانية عشر عاماً من حكم السلطان . فلما فرغ منها ، أو كاد يفرغ منها ، التفت إلى مشكلة الإنكشارية وهى مشكلة حساسة سبق أن تعرض معظم السلاطين السابقين لحلها على نحو من الأنحاء . ولكن بآء جميعهم بالفشل . كانت نهاية بعضهم العزل ، بينما كان مصير البعض الآخر القتل ، واعتصم البعض الثالث بالسلبية حرصاً على أرواحهم ومراكزهم . أما محمود الثانى فقد اتسمت تصرفاته بالحصافة والأناة فى المرحلة الأولى ، فلم يتجه إلى إلغاء الفياق الإنكشارية ،

(١) للمالك المحروسة يقصد بها الممتلكات المالية .

(٢) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٢ .

(٣) دكتور السيد رجب حرار ، الدولة العثمانية الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ .

(٤) Phillips W.A.; Modern Europe (1815—1899), p. 210.

بل عمد إلى الإبقاء عليها والعودة بها إلى وضعها الأول في عصرها الذهبي مثلاً أعلى للنظام والطاعة والاستبسال في ساحات القتال . وقد بذل السلطان محمود الثاني في هذا الصدد محاولة سلمية في خلال الشهور الأولى لتوليهِ العرش . ولما لم يجد استجابة من الإنكشارية أعرض ونأى بجانبه عنهم ، ثم بذل محاولة سلمية أخرى بعد ثمانى عشرة عاماً لتعديل نظام الفياق الإنكشارية مع الإبقاء عليها . ولكن أصر الإنكشارية على موقف العناد . وحينئذ عول السلطان على أن يدخل في مواجهة عسكرية استهدف منها إلغاء الفياق الإنكشارية لإلغاء كلياً بدلاً من تعديل نظامها والإبقاء عليها . وكانت هذه المواجهة تمثل المرحلة الثانية . واتسمت تصرفات السلطان فيها بالتخطيط الدقيق والشجاعة والمقدرة الحربية . وسار على رأس بعض القوات العسكرية وجهابرة الشعب واستخدم أسلحة أشد خطراً من تلك التي كانت في أيدي الإنكشارية ففتكت بهم فتكاً ذريعاً وانهارت ثكناتهم فوق رؤوسهم مما كفل له الانتصار الساحق عليهم وألقى بجثثهم في البحر . وقرن إلغاء الفياق الإنكشارية بحل الطريقة البكتاشية بصفتها دعامة قوية كانت تشد أزر الإنكشارية في الأوساط الجاهلية وعمل في غير هوادة على سد الفراغ الذي تركته الفياق الإنكشارية ، فأنشأ في ذات السنة ( ١٨٢٦ ) فرقاً عسكرية جديدة وفق النظام الحديث . وأرسل بعثات عسكرية إلى الكليات الحربية في بروسيا والنمسا وفرنسا وإنجلترا . واستقدم الخبراء العسكريين الأوروبيين لتدريب الفرق العسكرية . وأصبحت هذه الخطوة سياسة عليا التزمت بها الدولة حتى القرن العشرين .

على هذا النحو توارى إلى الأبد الوجود الإنكشارى العسكرى في الدولة منذ صيف ١٨٢٦ ، ونجح السلطان محمود الثاني في القضاء على مركز خطير من مراكز القوى في الدولة كان يهدد أمنها الداخلى والخارجى بأشد الأخطار . يقول أحد كبار المؤرخين الإنجليز إن الإنكشارية كانوا مصدر هلع وذعر لأوروبا حيناً من الدهر ، ثم ضلوا مصدر رعب وإرهاب للسلطين ولرعاباهم المدنيين الخاضعين عن طيب خاطر للقانون يلتزمون به في حياتهم سلوكاً ومنهجاً (١) .



كانت حركات العصيان التي قام بها الإنكشارية من وقت لآخر تتم في العلن . وإمعاناً في تحدى السلطان كانوا يتخلون من القرائات وسيلة إعلامية لحركات التمرد . ولا يتورعون عن عزل وقتل السلاطين والصدور العظام والوزراء وغيرهم . واعتمدوا على القوة العسكرية في تنفيذ مخططاتهم . ومن هنا كانت تكمن خطورتهم ، على النقيض من المركزين الآخرين من مراكز القوى في الدولة ، وهما : الحريم السلطاني والخصيان وأغواتهم . فلإن مؤامرات وخطط هذين المركزين كانت تحاك في السر ، وتنفذ في السر ، ولا يعلم بها أو بنتائجها أحد سوى فئة قليلة العدد من موظفي الخدمة الداخلية أو الخدمة الخارجية في القصر السلطاني وعدد ضئيل من كبار الموظفين في أجهزة الدولة . وهذا ما سنتناوله في الفصول الثلاثة التالية ، مع فصل رابع لتقييم مراكز القوى الرئيسية مع مراكز جانبية أخرى أطلت برأسها ، وأرادت أن يكون لها نصيب من الجاه والنفوذ والتسلط .



# الفصل العشرون

## مراكز القوى في الدولة (٤)

### الحريم السلطاني

#### نظام الحريم السلطاني :

أخذ سلاطين الدولة العثمانية بنظام الحريم في قصورهم . وأطلق على هذا النظام « الحريم السلطاني » . وكانت أسرة السلطان هي مركز الدائرة بالنسبة إلى جميع الهيئات والطوائف التي تعمل في منطقة الحريم . كانت تخصص عدة أجنحة في القصر لسكنى والدته السلطان الحاكم ، إذا كانت لا تزال على قيد الحياة ، وزوجات السلطان . ونطلق عليها وعليهن في هذه الدراسة سيدات الفئة الأولى ، ثم بنات السلطان وأولاده الصغار ، ثم فئات من الجوارى الحسنان كن يعشن في القصر ، ويشغل بعضهن شتى الوظائف الكبرى والصغرى فيه . كما كانت توجد طائفتان كثيفتا العدد من الخصيان البيض والخصيان السود . وعليهم رؤساء على شاكلتهم يطلق عليهم رؤساء أو أغوات الخصيان يقومون بحراسة منطقة الحريم وخدمة ساكناته . وكانت أجنحة الحريم عبارة عن مباني مستقلة أو وحدات سكنية مستقلة بلغت الروعة من حيث فخامة المبنى وزخرفته وأثاثه وتعدد حجراته وقاعاته . وكان يطلق على كل مبنى « دائرة » . ونخصص دائرة لكل سيدة من سيدات الفئة الأولى في الحريم السلطاني وكذلك لأولاد السلطان وبناته .

ومما هو جدير بالذكر أن موضوع الحريم السلطاني من الموضوعات الصعبة للغاية في تاريخ الدولة العثمانية نظراً لقلة المادة العلمية عنه . إذ كان الحريم السلطاني بكل فئاته وهيئاته يعيش وراء الأسوار العالية بعيداً عن العالم الخارجي . ويذكر المؤرخ دوسو D'Ohsson أنه لقي مصاعب جمة في

الوقوف على مادة علمية موثوق بها عن هذا الموضوع ، وأنه اتصل بعدد من زوجات اللاتين واللاتي غادرن القصر بعد وفاة أزواجهن ، كما اتصل بالفتيات اللاتي سبقت لمن الإقامة في القصر ثم حررن وتزوجن ، وأنه قدم هؤلاء وأولئك الهدايا الثمينة لإغرائهن على تزويده بالمعلومات . وقال إن التحقيقات التي قام بها بخصوص هذا الموضوع قد كلفته متاعب أكثر مما تتطلبه الأجزاء الأخرى من كتابه الذي يقع في سبعة مجلدات (١) وقد سبق أن ذكرنا أنه أقام في إستانبول سنوات طويلا وحكف خلال ثلاثين عاماً ( ١٧٨٨ - ١٨١٨ ) على وضع كتابه فجاء أشبه بموسوعة علمية عن تاريخ الدولة العثمانية (٢) . وقد أشار مؤرخ أمريكي إلى الصعوبات التي صادفها هو الآخر في جمع المادة العلمية عن موضوع الحريم السلطاني (٣) .

#### أجنحة الحريم :

كانت تحاط منطقة الحريم بأسوار عالية تقوم عليها حراسة مشددة ، وكان الطريق المؤدى إلى منطقة الحريم عبارة عن ممر طويل ، له أربعة أبواب ، بابان منها مصنوعان من الحديد ، وبابان من البرونز . وكان رئيس الحصيان السود وعدد من هؤلاء الحصيان التابعين له من رتبة «نوبت قلفه سيه» (٤) وهم من الصف ضباط يتناوبون الاحتفاظ بمفاتيح هذه الأبواب ليلاً ونهاراً. وكانت أجنحة الحريم تحده منطقة مغلقة a closed zone ومنطقة محرمة out of boundr

(١) D'Ohsson Ignatius Mouradzea; op. cit., Vol. VII, p. 58.

(٢) انظر في هذه الدراسة ص ١١٩ حاشية رقم ١ .

(٣) Lybyer A.H; op. cit., p. 126.

(٤) نوبت كلمة تركية مقتبسة من اللفظة العربية نوبة . أما قلفة لعناها رئيس . والعبارة معناها « رئيس نوبة الحراسة » . انظر رتبة هذه الطائفة من الحصيان في ص ٦٥٨ حاشية رقم ٢ ، وانظر سائر اختصاصاتها في ص ٦٦٠ حاشية رقم ٤

لا يسمح لأحد بدخولها أو الاقتراب منها أو النظر إلى ساكناتها إلا لرجل واحد وعدد كبير نسبياً من أشباه الرجال . أما الرجل الواحد فهو السلطان . أما أشباه الرجال فهم الخصييان - وهم عبيد بيض وسود - استوصلت من أجسامهم أعضاء التناسل . وبذلك يتنقّى منهم كل خطر أو شبهة خطر أو مظنة خطر على ساكنات أجنحة الحريم ومما يدل على صرامة النظام الموضوع لأجنحة الحريم السلطاني أنه حدث على عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) أن تجرأ أحد التجار من رعايا جمهورية البندقية وحاول أن ينظر من بعد إلى أجنحة الحريم السلطاني واستخلم نظارة تقريب المسافات *une lunette d'approche* وسرعان ما اكتشف أمره وهو يقوم بمحاولته ، فأمر السلطان بشنقه فوراً (١) . وتكررت المحاولة بعد ذلك وقام بها أرمني يعمل ترجماناً - مترجماً - للسفير الفرنسي في إستانبول ، وألقت السلطات العثمانية القبض عليه وأسرعت بشنقه قبل أن يتدخل السفير الفرنسي ، مارشيل Marecheville ، التماساً للعفو عنه .

وبلاحظ أن عزلة النساء كانت من التقاليد القديمة في العالم الإسلامي . وكانت المجتمعات في ذلك الوقت مجتمعات دينية إسلامية . وكان احتجاب النساء من أبرز سمات هذه المجتمعات . فلم يأت الثمانيون بمجديد في هذا الصدد ، بل إنهم احترموا تقليداً إسلامياً موروثاً وراسخاً . ولذلك لم يكن يسمح لأية سيدة - ابتداء من زوجات السلطان حتى الخاديمات بالخروج من القصر إلا في حالات نادرة ، حين كان السلطان يصحب بعضهن في زيارة لأحد القصور الصيفية . وكانت القاعدة العامة هي ضرورة التواجد الدائم داخل أجنحة الحريم السلطاني . وإذا أرادت إحدى سيدات الفئة الأولى وكذلك بنات السلطان التنزه في حدائق القصر ، كان عليها أن تحصل أولاً على إذن من السلطان شخصياً ، فإذا استجاب السلطان اتخذت سلطات القصر احتياطات

شديدة لمنع أى شخص من النظر إليها . وقد أخذت كلمة حريم Harem فى ذلك الوقت مدلولين ، هما : « الممنوع forbidden والمقدس sacred (١) » وتطبيقاً لهذا المعنى المزدوج ، فإن عبارة الحريم السلطانى تعنى الشئ المقدس والمحرّم على الغير الاقتراب منه أو النظر إليه سوى السلطان والخصيان وروسائهم أى أخوات الخصيان .

### معيشة السلطان وسط الحريم :

وكانت توجد فى منطقة أجنحة الحريم مساحات واسعة من الحدائق المنسقة أجمل تنسيق ، وإلى جانبها عدد من الساحات المكشوفة . وكان للسلطان مقصورة خاصة وسط أجنحة الحريم ، وتحتوى غرفة نومه وحماماً وقاعة استقبال كبيرة كان يؤدى فيها الصلاة ، ويستقبل فيها قريباته المتزوجات . وعند زيارته لأجنحة الحريم كانت تصحبه الكايا ، وهى من كبرى موظفات الحريم السلطانى ، ومن بين اختصاصاتها تنظيم الأوقات التى يقضيها السلطان مع ساكنات دوائر الحريم سواء فى الليل أو فى النهار ، وعلى زهراته مع البعض منهن فى حدائق أجنحة الحريم . وكان يطلق على هذه الزيارات « خلوت هابون » (٢) أى الخلوة السلطانية . ولكى يتم الإعلام بوصوله إلى منطقة الحريم كان السلطان يلبس صندلاً من فضة كى يحدث صوتاً على الأرض المكسوة بالرخام (٣) . أما إذا فاجأه السلطان بوجوده فى منطقة الحريم فإنه كان من قواعد البروتوكول ألا تنظر السيدات والفتيات إلى وجه السلطان ، بل يفضضن من أبصارهن وينظرن إلى الأرض حياء وخشياً (٤) وكان السلطان يتمتع باحترام يفوق ما يتمتع به سائر البشر (٥) . ويرى أحد المؤرخين الإنجليز أن الحريم السلطانى بهذه القيود الثقيلة المفروضة على ساكناته

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. I, Part 1, p. 72. (١)

D' Ohsson Ignatius Mouradega; op. cit., Vol. VII 82. أنظر كلامه: (٢)

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. Cit., Vol. 1 Part. p. 329 N.8.

D' Ohsson Ignatius Mouradega; op. cit. Vol. VII, p. 62. (٣)

Loc. cit.

(٤)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol I, Part I, p. 76. (٥)

كان ممبناً للعبيد a prison of slaves ثم عمم هذا الرأى على حاشية السلطان (١). ويذهب مؤرخ أمريكى إلى القول بأن الحريم السلطانى ينتمى إلى نظام القولار أى عبيد السلطان . ويستثنى من هذا التعميم أولاد السلطان وبناته . أما سائر السيدات والفتيات اللاتى كن يقمن فى منطقة الحريم فكان عبيدات السلطان (٢).

### نساء السلاطين :

ليست الحياة الخاصة لرئيس الدولة أياً كان لقبه : إمبراطوراً ، أو سلطاناً ، أو ملكاً ، أو أميراً — ملكاً خالصاً له ، لأن هذه الحياة الخاصة والشخصية ، فى استقامتها أو فى حوجها ، تترك بصمات قوية على مصائر الدولة . وقد كان لسلاطين الدولة العثمانية مواقف معينة من تعدد الزوجات ، والإنسال من الجوارى . والزواج من الكتائب الأجنبية . ولذلك نرى لزماً علينا فى هذه الدراسة أن نمر مروراً سريعاً على المبادئ العامة للشريعة الإسلامية فيما يختص بهذه الموضوعات الثلاثة التى تعد مدخلاً ضرورياً توضيح مدى استفادة السلاطين أحياناً من الرخص المقيدة التى جاء بها الإسلام ، أو مدى استغلالهم لها أحياناً أخرى . فقد كان لمسلك السلاطين تجاه هذه المسائل الثلاث آثار خطيرة ، إذ أصبح عدد كبير من نساء الحريم السلطانى — راکز قوى خطيرة سواء فى السياسة الداخلية أو فى السياسة الخارجية للدولة .

### الإسلام وتعدد الزوجات :

أباح الإسلام للرجل أن يتزوج بأكثر من زوجة . ولكنه وضع لهذا التعدد قيوداً وشروطاً منها : ألا يحتفظ الرجل بأكثر من أربع زوجات فى وقت واحد ، واشترط أن يلتزم الزوج بإقامة العدل بينهن . « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم . ذلك أدنى ألا تعولوا (٣) » (٤) .

Ricault Paul (Sir) ; op. cit., p. 16.

(١)

Lybyer A.H.; op. cit., p. 56 .

(٢)

(٣) أى تجودوا ، يقال حال الحاكم إذا جاور .

(٤) سورة النساء ، آية رقم ٣ .

وقصدت الشريعة الإسلامية بالعدل أن يقيم الرجل العدل بين زوجاته في المعاملة وفي الحقوق الظاهرة مثل توزيع ميبته عندهن والإنفاق عليهن وما إلى ذلك ، فلا يكون الأساس في معاملة الزوج لزوجاته الزوجة الحديثة والزوجة القديمة ، أو الجميلة والقيحة ، أو الزوجة التي تنتمى إلى أسرة غنية والأخرى التي تنسب إلى أسرة فقيرة . وفي الحديث الشريف « من لم يعدل بين نسائه جاء يوم القيامة وشقه ساقط » . أما العدل في توزيع عواطف الرجل نحو زوجاته ، وهو ما يعبر عنه بالميل القلبى ، فلا قبل به لإنسان ولا تكليف به لإنسان ما اتقى لإظهاره في المعاملة وتأثيره على حقوق الزوجات الأخريات . « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء (١) ولو حرصتم ، فلا تملوا كل الميل (٢) فتلوهوا (٣) كالمعلقة (٤) ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً » (٥) .

وهذا القيد الذى وضعه الإسلام لتعدد الزوجات ، وهو أن يلزم الزوج نحو زوجاته بالعدالة المطلقة الشاملة فيما ظهر منها وما بطن ، إنما هو شرط بعيد المثال . فإذا صرف الزوج أن في نفسه ضعفاً أو عدم مقدرة على تحقيق هذا العدل المطلق الشامل بين زوجاته ، فالخلال زوجة واحدة فقط ، وما سواها محظور . « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . والنص القرآنى الشرطى يؤكد هذا المعنى هنا . ويفسر به بأن التحديد بزوجة واحدة في هذه الحالة أقرب إلى اجتناب الظلم والجور « ذلك أدنى ألا تعولوا » . والظلم حرام ، فالوسيلة إليه حرام . واجتناب الظلم واجب ، فالوسيلة إليه — أى إلى اجتناب الظلم — واجبة . والوسيلة إلى الظلم هنا هى التعدد ، والوسيلة إلى اجتنابه هى التوحد (٦) .

#### (١) في الهبة

(٢) إلى الزوجة التى تكون لما حياً يفوق حيزكم للزوجات الأخريات ، فتوثرن الزوجة المفصلة بكثرة الإنفاق عليها وقضاء الوقت عندها ، وما إلى ذلك .

(٣) تركوا الزوجة المال عنها . وهذا الفعل لا يستعمل إلا في المضارع والأمر .

(٤) أى تركوا مثل هذه الزوجة كالمعلقة لا هى ذات بعل ولا هى أيم ، أى لا هى متزوجة ولا هى مطلقة .

(٥) سورة النساء ، آية رقم ١٢٩ .

(٦) سيد قطب : في ظلال القرآن . الجزء الرابع ، الطبعة الثانية ، طبع دار إحياء الكتب

العربية . عيسى البابى الحلبي وشركاه ، القاهرة ، د . ث ، ص ٨٤ .

ولكن تواجه الجماعات البشرية في مسيرتها عبر العصور والدهور والحقب ظروفاً سياسية ، أو أزمات سكانية ، أو حالات أجنبية تجعل تعدد الزوجات علاجاً لهذه الحالات الطارئة . والإسلام جاء لجميع الأجناس وكل الأجيال ، ولكل زمان ومكان . فهو يتسم بالمرونة ولا يقف جامداً لزاء هذه المشكلات التي تفرض نفسها على البشرية سواء كانت شعباً أو أفراداً .

والظروف السياسية ، وهي التي تمهنا بالدرجة الأولى في هذه الدراسة ، تتمثل في أن يرى الحاكم ، أياً كان لقبه ، للنواحي الحكمة السياسية وإجراءات الأمن القومي ، أن يصهر إلى عدد من العائلات أو القبائل الكبرى ذات البأس والثراء والعصبية والتفوذ والكثرة العددية في أفرادها وبطونها ، فترتبط مصالح هذه العائلات أو القبائل بمصالح الحاكم ، ومن ثم تشد أزره في مواجهة خصوم نظام الحكم الجديد ، وبذلك يتوطد مركز الحاكم وتستقر دعائم الحكم . وما هو جدير بالذكر أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه تزوج السيدة خديجة بنت خويلد وهو في الثامنة والعشرين من عمره ، وكان وقتذاك في شرح الصبا وريعان الفتوة واكتمال الرجولة . وظلت السيدة خديجة وحدها زوجه ثمانية وعشرين عاماً حتى تخطى الخمسين لم يشرك معها زوجة أخرى على امتداد هذه السنوات الطوال على الرغم من أن تعدد الزوجات كان أمراً شائعاً عند العرب في ذلك العهد ، وعلى الرغم من أنه كان لمحمد عليه الصلاة والسلام مندوحة في الزوج على خديجة لأنه لم يعيش له منها ذكر في وقت كان وأد البنات أمراً درج عليه المجتمع الحجازي بعامة والمجتمع المكي بخاصة ، وكان الذكور وحدهم هم الذين يعتبرون خلفاً . وقد ظل عليه الصلاة والسلام مع السيدة خديجة سبع عشر سنة قبل بعثه وإحدى عشرة سنة بعده ولم يفكر قط في أن يتزوج عليها ، ثم هو بعد أن يتخطى الخمسين يجمع في خمس سنوات أكثر من سبع زوجات ، وفي سبع سنوات تسع زوجات على القول الراجح (١) . وكان الهدف من تعدد الزوجات هو توثيق أواصر الجماعة

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد . الطبعة الثالثة ، مطبعة دار الكتب المصرية ،



الإسلامية الناشئة . فهو لم يتزوج بهذا العدد من النساء بدافع من شهوة أو غرام . ومع ذلك فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يتهبب من عجزه عن إقامة العدل بينهم ، وتقصد بالعدل هنا توزيع ميله القلبي نحوهم توزيعاً متساوياً، ولذلك كان يقول عند قسمه (١) بين أزواجه « اللهم إن هذا قسمي فيما أملك . فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك » (٢) .

وقد أخذ عدد كبير من رؤساء الدول الإسلامية في العصور الوسطى بمبدأ تعدد الزوجات لهذا السبب السياسي ، كما أخذ به الملوك الأوائل لبعض الدول الإسلامية الكبرى في التاريخ المعاصر لهذا السبب أيضاً .

أما الأزمات السكانية فقد تندلع حروب أو تنشب ثورات ، وتخصد هذه وتلك من الرجال أضعاف ما تخصد من النساء ، بحيث يصبح عدد النسوة ثلاثة أضعاف عدد الرجال ، فيقل عدد الرجال الصالحين للإنسال ، ويكون التمدد علاجاً لاختلال التوازن بين عدد الذكور وعدد الإناث ، وصوناً للمرأة من الدنس ، وتعويضاً للأمة عما فقدت .

أما الحالات الاجتماعية فن بينها مرض الزوجة أو عقمها ورغبة الزوج في الإبقاء عليها أو حاجتها هي إليه . وهناك بواعث أخرى تساق في هذا الصدد مثل القول إن في بعض الرجال طاقات حيوية فائضة لا تستجيب لها الزوجة أو لا تجد كفايتها في زوجة واحدة، ومن ثم يصبح تعدد الزوجات أمراً لا غناء عنه لأمثال هؤلاء الرجال . والواقع أن هذه مبررات يلوذ بها بعض المخلوقات ممن تسيطر على تفكيرهم وسلوكهم في الحياة رغبات جنسية جارفة يدعهم أنهم أوتوا نصيباً من المال الموروث . وتصبح الممارسة الجنسية هي شغلهم الشاغل ، بل هي وظيفتهم الوحيدة في الحياة لا يبغون عنها حولا . وما لا جدال فيه أن أمثال هذه الخلائق هم ضحايا تربية فاسدة ونتاج بيئات يعيش الجهل والحماقة على عقول أصحابها . وإن الحياة المنتظمة والعلم الحديث

(١) القسم بفتح القاف وسكون السين هو توزيع الميث بين الزوجات

(٢) محمد أبو زهرة : الأحوال الشخصية . الطبعة الثالثة . القاهرة ١٩٧٧ ، ١٩٥٧ م

كفيلان بالتخفيف من حدة هذه الحيوانية اللاهوائية عن طريق إعلاء الغريزة والتساقى بها Sublimation أولاً ثم لإبدالها Substitution ثانياً .

نخلص من هذا العرض السريع لأهم مبادئ الشريعة الإسلامية فيما يختص بتعدد الزوجات إلى عدة حقائق ، نذكر منها :

أولاً : ينصح الإسلام بالاكْتفاء بالزوجة الواحدة في الحياة العادية ، ويشيد بفضل الزوجة الواحدة لمجرد الخوف من عدم إقامة العدالة في شتى صورها وأشكالها بين الزوجات مع التأكيد بأن هذا العدل غير مستطاع . ويرى أحد كبار رجال الفقه المحدثين أن الزواج الأمثل في الإسلام هو الزواج بواحدة ، لأن فيه بعداً عن نطاق الظلم ، ولكن لا يرضى بهذا الزواج الأفضل والأمثل إلا أمثل الرجال ، ثم يتساءل عما إذا كان الرجال جميعاً من هذا الطراز ؟ (١) .

ثانياً : أما التعدد فهو في أصله رخصة ، وهو ضرورة تواجه ضرورة ، هو إجراء أمن قوى في الظروف السياسية غير العادية ، وهو صمام أمن في حالة كثافة عدد السكان الإناث بالنسبة لعدد الذكور ، وهو وقاية خلقية في الحالات الاجتماعية الصارخة .

ثالثاً : لم نجد البشرية حتى اليوم حلاً أفضل من نظام التعدد كعلاج لتلك الظروف الاستثنائية . فقد جربت الإنسانية حلولاً أخرى أدت إلى عواقب وخيمة خلقياً واجتماعياً . وأباح الإسلام نظام التعدد ، ووضع في تطبيقه قيوداً كانت أقصى ما يمكن من الاحتياط (٢) .

---

(١) محمد أبو زهرة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦ .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن . مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٨٤-٨٥ .

وانظر له أيضاً

السلام العالمي والإسلام . الطبعة الأولى . مكتبة ربه شارع الجمهورية ( إبراهيم باشا سابقاً )  
بمبدين . القاهرة . وقد عالج في إسهاب موضوع تعدد الزوجات في فصل عنوانه « سلام البيت » .

## زوجات السلطان :

ارتاحت الغالبية العظمى من سلاطين الدولة العثمانية إلى مبدأ تعدد الزوجات والذي جاء به الإسلام ، والتزموا بالشرط العددي الذي ورد في القرآن الكريم ، وهو ألا يحتفظ الزوج بأكثر من أربع زوجات في وقت واحد . وليس معنى ذلك أن جميع السلاطين تزوجوا أربع زوجات ، بل إنهم تزوجوا أكثر من زوجة واحدة ، تزوجوا مثني ، أو ثلاث ، أو رباع ، . ولكن المهم أنهم لم يتخطوا بأي حال الحد الأقصى لعدد الزوجات المقرر في الشريعة الإسلامية . وكانت هؤلاء الزوجات أميرات مسلمات ومسيحيات ، ولبن حرائر ، وحسن حرائر ، ومتن حرائر ، بمعنى أنهم لم يقعن في حياتهن في الأسر ، ولم يخطفنهن أحد من تجار الرقيق ، ولم يحصل حينئذ السلاطين عن طريق الشراء بالمال أو الهدايا . وقد تزوجهن السلاطين بعقود زواج شرعية . وقد نهج هذا النهج السلاطين السبعة الأوائل ابتداء من عثمان الأول وانتهاء بالسلطان محمد الفاتح (١) . وقد حكم هؤلاء السلاطين السبعة حقاً بلفظ زهاء مائة واثنين وثمانين عاماً ( ١٢٩٩ - ١٤٨١ ) (٢) . ولكن حدث بعد ذلك

( ١ ) كان هؤلاء السلاطين السبعة هم :

عثمان الأول ( ١٢٩٩ - ١٣٢٦ )

أورخان بن عثمان ( ١٣٢٦ - ١٣٥٩ )

مراد الأول ابن أورخان ( ١٣٥٩ - ١٣٨٩ )

أبي يزيد الأول المشهور باسم يلدريم أي البرق ، ( ١٣٨٩ - ١٤٠٢ ) وهو ابن مراد الأول

محمد الأول بن أبي يزيد الأول ( ١٤٠٣ - ١٤٢١ )

مراد الثاني ابن محمد الأول ( ١٤٢١ - ١٤٥١ )

محمد الفاتح ابن مراد الثاني ( ١٤٥١ - ١٤٨١ )

( ٢ ) يستبعد بعض الباحثين من هذه الحقب الفترة التي أعقبت هزيمة السلطان أبي يزيد الأول

على يد المغول بقيادة تيمور الأهرج في معركة أنقرة في اليوم العشرين من شهر يونيو - حزيران -

عام ١٤٠٢ ووقوع السلطان في الأسر . وقد ظل يرسف في أغلاله حتى وافاه الأجل في السنة التالية ،

ثم نشوب الحرب الأهلية بين أبناء السلطان أبي يزيد الأول وهم عيسى ، ومحمد ، وسليمان ،

وموسى ، بسبب تنافسهم على العرش . واستطاعت هذه الحرب الأهلية زهاء إحدى عشرة سنة

( ١٤٠٣ - ١٤١٣ ) وانتهت باحتلال محمد عرش الدولة ، وقد عرف باسم السلطان محمد الأول -

أن جميع السلاطين الذين حكموا الدولة بعد محمد الفاتح قد نبذوا نبذاً تاماً الزواج من الحرائر بعبود زواج شرعية وانصرفوا إلى الجوارى الحسان اللاتي كان يزوج بهن القصر السلطاني (١) . ومنعروض لموضوع الجوارى في هذا الفصل .

ولذا كان أولئك السلاطين السبعة الأوائل قد انزمو بالشرط العدي لتعدد الزوجات ، إلا أنهم أغفلوا الشرط الآخر ، وهو إقامة العدل بين الزوجات . كان لكل سلطنة وضع محدد ومقرر في البروتوكول العثماني . وهذا المركز يختلف علواً وهبوطاً عن مركز زميلاتها . فالسلطنة التي تنجب ولداً تميز عن زميلتها التي تنجب بنتاً . ويتبع هذا التميز تميزاً آخر في المخصصات المالية التي ترصد لكل سلطنة . وفي العادة تظفر السلطنة والدة الإبن برعاية وتقدير يفوقان الرعاية والتقدير اللذين تحظى بهما زميلاتها على أساس أن ابنها هو ولي العهد . ولكن فيما هنا ذلك تقريباً كانت كل سلطنة تقيم في جناح خاص بها في الحرم السلطاني . كما كانت لكل سلطنة حاشية خاصة بها تضم سيدات وفتيات تقمن على خدمتها . وكانت هذه الحاشية تضم عدداً معيناً من الخصيان ورئيساً لهم يسمى أغا الطواشية أو أغا الخصيان ، يقوم فريق منهم بخدمة الزوجة بينما يقوم فريق آخر منهم بحراسة الجناح وبواباته والمسالك المؤدية إليه . وكان يبلغ عدد هؤلاء الحراس أربعين شخصاً . أما الأغا فيتلقى رغبات السلطنة أو أوامرها ، فينقلها إلى السلطان في الحالة الأولى ، وإلى الصدر الأعظم في الحالة الثانية .

---

= وسمى أيضاً السلطان محمد شلي . ويخلص هذا الفريق من الباحثين رأياً إلى وجوب استبعاد فترة تلك الحرب الأهلية من هذه الحقب .

أنظر : دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع الخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ٦٢١ - ٦٢٤ .

(١) يستثنى من هذا الحكم العام سلطانان توليا الحكم في النصف الأول من القرن السابع عشر تزوجا بعبود زواج شرعية نسوة من عامة المسلمين . وكانت واحدة منهن جارية فأعتقت .

## الإسلام والزواج من الكتابيات :

يجز الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية ، سواء كانت يهودية أو مسيحية . وقد جاء في القرآن الكريم « اليوم أحل لكم الطيبات (١) ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل (٢) لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات (٣) من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتهم من أجورهن (٤) محصنين (٥) غير مسافحين (٦) ولا متخذين أخطان (٧) ، ومن يكفر بالإيمان (٨) فقد حبط عمله (٩) ، وهو في الآخرة من الخاسرين » (١٠) . وهذه الآية القرآنية الكريمة تذكر العفيفات الحرار من الكتابيات جنباً إلى جنب مع العفيفات الحرار من المسلمات . وهي سماحة لا يفيض بها إلا الإسلام من بين سائر الأديان (١١) . كما أن هذه الآية الكريمة تشترط لزواج المسلم من الكتابية أن يدفع لها المهر . وأن تكون النية لدى الزوج هي الإعفاف والإحصان الذي يحصن به الرجل زوجته ويقبها زلات الحياة ، فلا يكون المهر وسيلة إلى اتخاذ الزوجة صديفة سراً يمارس معها السفاح .

( ١ ) الطيبات جمع طيب ، وهو ضد الخبيث .

( ٢ ) حل لكم أى حلان لكم .

( ٣ ) المحصنات هن الحرار العفيفات من الزنا .

( ٤ ) أوتوهن بمعنى يهودهن .

( ٥ ) محصنين أى عفيفين . مشتقة من أحسن أى عف .

( ٦ ) مسافحين أى زانين ومجاهرين بالزنا .

( ٧ ) أخطان جمع خدن ( بكسر الخاء وسكون الدال ) أى الصديق في السر حل وزن حمل

وأحمال . وتستخدم تلك اللفظة للدلالة على الذكر أو الأنثى . والمعنى : ولا متخذين صديقات سراً .

( ٨ ) يقصد بالإيمان في هذه الآية الكريمة : شرائع الإسلام .

( ٩ ) حبط عمله أى بطل ثواب عمله .

( ١٠ ) سورة المائدة : آية رقم ٥

( ١١ ) إن المسيحي الكاثوليكي يخرج من الزواج بأرثوذكسية أو بروتستانتية أو بأية

فئة تمتنع مذهباً مسيحياً آخر . ولا يقدم حل ذلك الا المتصلون عنهم من العقيدة .

المظر :

سيد قطب : في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٦ ، ص ٣٢

وقد وضع علماء الشريعة عدة مبادئ فيما يختص بالزواج من الكتابيات نذكر من بينها :

- ١ - أن يكون جميع الأولاد مسلمين بدون فرق بين الذكور والإناث .
- ٢ - عدم التوارث بين الزوجين إذا مات أحدهما ، لأن شرط إرث المسلم اتحاد الدين . أما الأولاد فيرثون والدهم ولا يرثون والدتهم .
- ٣ - يكون للزوجة الكتابية كل حقوق الزوجة المسلمة ، وعليها كل واجباتها نحو زوجها وأولادها فيما عدا التوارث (١) .

ولذا كان الإسلام قد حرم زواج المسلم من الوثنية وأجاز زواجه من الكتابية ، فلأن الكتابية تلتقى مع المسلم في لب الفضائل الخلقية والاجتماعية ، لأن الأديان السماوية في أصلها واحد . ومن الممكن أن تستمر العشرة الزوجية بينها معتدلة من غير استهواء . وكان الرعي الأول من الصحابة لا يتحمس للزواج من الكتابيات ، وإن كانت قلة عديدة منهم قد أقدمت على الزواج منهن . ونذكر على سبيل المثال طلحة بن عبيد الله . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينهى عن الزواج من الكتابيات إلا إذا كان الزواج يستهدف غرضاً سامياً كارتباط سياسى يجمع القلوب ويؤلف بينها أو نحو ذلك (٢) . ويرى بعض الفقهاء أن الأفضل ألا يتزوج المسلم إلا مسلمة لقيام الألفة من كل وجه (٣) .

وعلى الرغم من أن الإسلام يجعل الرجل قواماً على زوجته في كل ما يحقق صالح الأسرة والصالح العام ، إلا أنه لا يميز للمسلم المتزوج كتابية أن يرغبها على ترك دينها ، كما لا يميز له أن يمنعها من أداء عباداتها وشعائر دينها ، بل إن بعض أصحاب المذاهب الفقهية الإسلامية يرون أنه ينبغي عليه أن يصحبها إلى حيث تؤدي هذه العبادات في كنيسها أو يبعثها إذا رغبت في ذلك (٤) .

(١) محمد أبو زهرة ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١١

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٤

(٣) المرجع السابق ، ذات الصفحة .

(٤) دكتور على عبد الواحد واى : الحرية في الإسلام . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨

## البواعث السياسية والعسكرية وراء زواج السلاطين من الكنائيات الأجنبية :

عدد عدد كبير من سلاطين الدولة إلى الزواج من الكنائيات الأجنبية. ونقصد بهن في هذه الدراسة المسيحيات اللاتي لم يكن من رعايا الدولة العثمانية. فكان الحريم السلطاني في أعلى مراتبه يضم غالباً زوجة كنانية أجنبية إلى جانب الزوجات العثمانيات المسلمات . وقد بدأت ظاهرة الزواج من الكنائيات الأجنبية منذ نشوء الدولة العثمانية على عهد عثمان الأول (١٢٩٩ - ١٣٢٦) الذي تنسب الدولة والأمة إليه . فقد رأى عثمان أن إمارته أو دولته تحيط بها كيانات سياسية إسلامية ومسيحية معادية تبرص بالعثمانيين الموارث . وأراد تجنب إمارته مواجهة حرية ضد تكتلات إقليمية عسكرية . وأدرك أنه لا يستطيع — بالإمكانات المحدودة التي لديه — ممارسة سياسة التوسع الإقليمي المرحل للدولة التي يتطلع إلى تكوينها ، فإمارته ذات تعداد سكاني قليل . فلجأ إلى وسائل متعددة سبق أن عرضنا طرفاً منها (١) . وكان من بينها مصاهرة الدول أو الكيانات السياسية المجاورة أو المتاخمة . فاختار عثمان لنفسه زوجة مسيحية من قيليقييا (٢) ، ورشح سيده يونانية مسيحية رائعة الجمال زوجة لابنه أورخان (٣) وكان يطلق عليها نيلوفير Nenufar أو Nilufer ومعناها زهرة اللوتس (٤) . وقد وضع هذان العاهلان تقليداً للبنين والحفدة من أعضاء الأسرة العثمانية الحاكمة وهو الزواج من الكنائيات الأجنبية (٥) . وقد أنجب السلطان أورخان من تلك السيدة اليونانية ابناً تولى العرش من

(١) انظر ص ٤٠ في هذه الدراسة .

(٢) تسمى أرمينيا الصغرى ، وهي دولة مسيحية .

(٣) يقال إن عثمان أسر هذه السيدة في إحدى حروبهِ ، وبقيت على المسيحية .

(٤) Lybyer A.H.; op. cit., p. 17 .

(٥)

(٥) من دلائل ميل السلطان أورخان إلى التوسع في تطبيق سياسة الزواج من الكنائيات الأجنبية بين أعضاء الأسرة العثمانية الحاكمة أنه في معاهدة سكوتاري Scutari (١٣٥٩) التي عقدت بينه وبين حنا باليولوح إمبراطور الدولة البيزنطية تقرر أن يتزوج خليل ابن السلطان أورخان من ابنة الإمبراطور حنا باليولوح . وكانت تبلغ من العمر عشر سنوات . ويعلن أن هذا الزواج قد أدرج في صلب المعاهدة ضماناً لتنفيذها ، لأنها أبرمت أصلاً على أساس احترام الدولة البيزنطية بقصوحات الدولة العثمانية في إقليم تراقيا في البلقان .

بعده باسم السلطان مراد الأول (١٣٥٩ - ١٣٨٩) . وقد حذا هذا السلطان حذو أبيه وجده ، فتزوج من ابنة ملك بلغاريا المسمى سيثمان Sischman بعد أن طوَّقه العثمانيون في نيقوبوليس على نهر الدانوب . وارتضى هذا الملك أن يدفع الجزية للعثمانيين وأن زوج ابنته للسلطان مراد الأول (١) . ولما تولى العرش السلطان أبو يزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢) أراد أن يتخذ من دولة الصرب ، أو بعبارة أدق ما تبقى منها ، دولة حليفة له كي يجعل منها دولة حاجزة un état tampon بينه وبين دولة المجر ، إذ كان يخشى أن تنهز هذه الدولة فرصة انشغاله في الجبهة الأناضولية فتغزى الأقاليم العثمانية في البلقان . فتزوج من أوليفيرا Olívera ابنة ملك الصرب لازار Lazare الذى كان العثمانيون قد ذبحوه عقب معركة قوصوه الأولى Kossovo عام ١٣٨٩ رداً على قيام صربي يدعى كويلتش ميلوش K. Miloch بقتل السلطان مراد الأول (٢) . وتمشياً مع السياسة الودية التي انتهجها أبو يزيد الأول ابن السلطان القليل وافق أبو يزيد على أن يحكم بلاد الصرب ابنا الملك لازار ، حسب قوانين المصرب وعاداتهم وتقاليدهم ، ويدينان له بالولاء ويقدمان له جزية سنوية وعدداً معيناً من الجنود يشتركون في فرق خاصة بهم إلى جانب الجيش العثماني . واتخذت خطوات أخرى لامتصاصهما (٣) بجانب زواجه من أختها أوليفيرا . وسار على هذا

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع النخ ، مرجع سبق ذكره ،

ج ١ ، الطبعة الأولى ، صص ٥٩٩-٦٠٠ .

(٢) بينما كان السلطان مراد الأول يتفقد ميدان القتال بعد المعركة إذا به يغر صرباً ويموت لسانه في الخامس عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٣٨٩ إذ تقدم منه هذا الصربي ، وكان قد أصيب بجراح في أثناء المعركة وأراد أن ينتقم لهزيمة بلاده . وظن السلطان مراد أن لديه شكوى فسمح له بالتقدم نحوه فطعته بخنجره . وقد بذل العثمانيون جهوداً جبارة حتى استطاعوا أسر لازار ملك الصرب وعدد كبير من النبلاء . وصدرت الأوامر بلجهم جميعاً أمام جيّان السلطان مراد الأول المسجى في ساحة القتال .

انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع النخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ،

الطبعة الأولى ، صص ٦٠٦-٦٠٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦١٠



النهج - الزواج من الكتانيات الأجنبية - السلطان مراد الثاني (١٤٢١-  
١٤٥١) فقد تزوج من مارا Mara ابنة أمير الصرب جورج  
برانكوفيتش G. Brankovitch . وكانت هذه الزيجة من  
الزيجات السياسية الناجحة القليلة التي أثمرت ثماراً طيبة في مجال العلاقات  
الدولية . فقد كانت سبباً في توثيق عرى التحالف بين الدولة العثمانية  
ودولة الصرب التي امتنعت عن تقديم أية مساعدة للقائد حنا هنيادي (١)  
J. Hanyade حين زحف في أواخر سبتمبر - أيلول - عام ١٤٤٨  
على رأس جيش يتكون من ٢٥,٠٠٠ رجل من الألمان وسكان والاشيا  
وبوهيميا والمجر وترانسلفانيا . وأدخل في تقديره تأييداً عسكرياً يظفر  
به من الصرب . ولكن خابت تقديراته . وزحف مراد الثاني وهو يقود  
جيشاً بلغ عدده خمسين ألف جندي وتقابل مع القوات المتحالفة في سهل  
قوصوه في ١٧ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٤٤٨ واستمرت المعركة  
ثلاثة أيام حسوما . وانتهت في ١٩ من ذات الشهر بفوز ساحق للعثمانيين  
الذين اقتحموا معسكر هنيادي فهرب ، وحاول أن يشق طريقه عبر الدانوب  
فوقع في أيدي أعدائه الصرب . واما توفى السلطان مراد الثاني بالسكتة القلبية  
في اليوم الخامس من شهر فبراير - شباط - عام ١٤٥١ خلفه ابنه السلطان  
محمد الثاني أو الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١) ، وكإجراء أمن داخلي أمر بترحيل

---

(١) حنا هنيادي ابن أمير شرعي ملك المجر سيجسموند ، أنجبه من سيدة مجرية . وعين  
حاكماً لإقليم ترانسلفانيا المجرية . وأظهر صفات حرية ممتازة في صد النمانيين حين كانوا يتوغلون  
في ترانسلفانيا . وأصبح حديث الأوساط الرسمية والشعبية في أوروبا ، وازداد اعتداداً بنفسه  
وحترق واستعلاء ، وأخذ على عاتقه عبء الكفاح عن المسيحية والتصلي للنمانيين ، وباركت البابوية  
حركة الجهاد الذي التي تصدرها . وقد أوقع بالنمانيين عدة هزائم متلاحقة ، ثم انتصر النمانيون  
عليه في معركة فارنا Varna في اليوم التاسع من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٤٤٤  
وتخلوا فيها فلاديسلاف ملك المجر . وقد حكم هنيادي بلاد المجر بعد مصرع ملكها باسم ابنه القاصر .  
انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشاوي : أوروبا في مطلع الخ . مرجع سبق ذكره ج ١ ،  
الطبعة الأولى ، ص ٦٣١-٦٣٥

زوجة أبيه - مارا - إلى موطنها الأصلي في الصرب كي يأمن شر الدمائن التي قد تحيكمها ضده في أوساط الحريم السلطاني وكانت والدته السلطان محمد الثالث (١٥٩٦ - ١٦٠٣) قد جرى بها من البندية . وهناك مثال آخر صارخ ، فإن سيدة يونانية تزوجت السلطان أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) وأنجبت منه ولدين تربعا على عرش الدولة الواحد بعد الآخر ، وهما مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) وإبراهيم الأول (١٦٤٠ - ١٦٤٨) . ويطول بنا الحديث إذا مضينا في ذكر الزوجات الكتابيات الأجنبية اللاتي تزوجن سلاطين الدولة . ونكتفي هنا بذكر الحقائق التالية وبعض النتائج التي ترتبت عليها :

أولاً : إن الغالبية العظمى من السلاطين أقدموا على مثل هذه الزيجات بحيث نادر من السلاطين من لم يدخل في حريمه زوجة كتابية أجنبية وقد أصبحت هذه الزيجات تقليداً درج عليه سلاطين الفترة الأولى وسلاطين الفترة الثانية .

ثانياً : إن سلاطين الفترة الأولى كان لهم من قوة الشخصية ومضاء العزيمة والانكباب على تصريف شئون الدولة ما جعل زوجة كل منهم تأخذ حجمها الطبيعي فقط كزوجة للسلطان ، فلا تتدخل في شئون الدولة ولا تمارس نفوذاً على الصدر الأعظم والوزراء وعلى غيرهم من كبار رجال الدولة . أما سلاطين الفترة الثانية فلن غالبيتهم قد خضعوا خضوعاً كاد يكون تاماً لأولئك الزوجات . حتى أصبح مركز قوة خطير . وكان بعض هؤلاء الزوجات يتدخلن في السياسة العليا للدولة ويوجهن الوجهة التي تزدنها . وهكذا استفحل خطر أولئك الزوجات وتركن بصمتهن بارزة قوية في تاريخ الدولة .

ثالثاً : إن زواج سلاطين الفترة الأولى بالكتابيات الأجنبية كان يتم في ظروف متباينة وللموافع مختلفة بحيث كان لكل زواج ملاسماته ودوافعه . كان بعض السلاطين يطلبون أو يسعون لمصاهرة أسرة حاكمة في دولة مجاورة توثيقاً لعلاقات حسن الجوار . وكان البعض الآخر يتزوجون الكتابية الأجنبية

تنفيذاً لبند في المعاهدة التي فرضوها على دولة أوروبية منهزمة كضمان لتنفيذ بنود المعاهدة . وكان البعض الثالث يتزوج الكتائية الأجنبية كظهر على التحالف العسكري الذي تعقده الدولة العثمانية مع دولة أخرى تنتمي إليها الزوجة الكتائية أو على الأقل لتلتزم بحكومتها بموقف الحيطة في حرب تعزم الدولة نخوضها ضد أحلاف صليبية أوروبية تكونت للقضاء على الدولة العثمانية . ولذلك كانت تغلب البواعث السياسية أو العسكرية على معظم هذه الزيجات .

رابعاً : إن عدداً من الزوجات الكتائيات الأجنبية احتنقن الإسلام بمجرد التحاقهن بالحريم السلطاني . وظل عدد آخر منهن على المسيحية بموافقة أزواجهن السلاطين إبقاء على مشاعر الأصهار الجدد وضماناً لتحقيق الأهداف السياسية أو الحربية التي كانت وراء زواج السلاطين بهن . ومع ذلك فإن أولئك الزوجات كن يسخطن في الإسلام بعد فترة قد تطول حيناً وقد تقصر أحياناً أخرى تبعاً للعلاقات السياسية وتطورها بين الدولة العثمانية والدولة الأجنبية التي تنتمي إليها الزوجة الكتائية الأجنبية .

خامساً : إن بعض الزوجات الكتائيات كن يتظاهرن باعتراف الإسلام ، ويتظاهرن بحب أزواجهن السلاطين ، ويتظاهرن بولائهن للدولة العثمانية . ولكن كانت كل منهن تخفي بين ضلوعها حباً وولاء لوطنها الأول ، وتعمل على تنفيذ برنامج من وحي حكومة بلادها لتحقيق مصالح وطنها الأول ، حتى ولو كان هذا البرنامج ينطوي على الإضرار بمصالح الدولة العثمانية . التي جعلت منها سلطنة لأكبر دولة إسلامية ومن كبرى دول العالم .

#### الإسلام والجواري :

الجارية ، في الشريعة الإسلامية ، هي كل امرأة أسلمت في الحرب ، أو نقلت قسراً من بلاد العدو بشرط أن تكون غير مسلمة ، لأنه لا يجوز ، لأي سبب من الأسباب ، أن تسبي المسلمة وتسرق ، أو هي التي تنجبها أمة مملوكة ، ويكون أبوها عبداً ، أو غير مالك لها ، مسلمة كانت أو كتائية . أو هي التي تؤخذ شراء من أسواق الرقيق حيث يبيعها النخاسون .

وهؤلاء ليس بوسعهم استرقاق المسلمين أو الكنائيات اللاتي تعود أصولهن إلى ديار الإسلام . ولما يأتون بالرقائق من البلاد غير الإسلامية ، ويتاجرون به ، لأن الإسلام حرم السبي منذ قضاؤه على عادة الغزو المتأصلة في نفوس البدو .

ومن الثابت أن العرب قبل الإسلام عرفوا نظام الجوارى . وكان لأثرياء قريش وزعمائها عدد من الجوارى انصرفن إلى الغناء أو الأعمال التي قامت بها الجوارى بعد ذلك في قصور المسلمين . ولما جاء الإسلام أغلق جميع أبواب الرق بالنسبة للرجال والسيدات ما عدا رقيق الحرب ، فقد أبقي عليه للضرورة ، كما سنوضح ذلك في الفصل الثاني والعشرين الخاص بالعبودية الخصبان . وكانت الفتوح الإسلامية الكبرى في صدر الإسلام فرصة مواتية للحصول على المقاتلين العرب على أعداد وفيرة جداً من الجوارى ، لأن العرب إذا دخلوا مدينة حنة ، ولم تكن قد وضعت شروط للفتح ، كانوا يعتبرون المدينة المفتوحة حنة ملكاً لهم بما فيها من أرض ومن عليها من محاربين وشيوخ ونساء وأطفال . وكانوا يتصرفون بهم تصرف المالك . وتصبح كل من تقع في أيديهم من نساء المحاربين وبناتهم إماء لهم ينقلونهم معهم إلى بلادهم مع الأسلاب الأخرى . ويوزعونهم بينهم بعد أن يقدموا النسبة المقررة إلى الخليفة أو بيت المال وهي الخمس ، ويحولون ما يبقى منهم إلى منازلهم . وقد برزت هذه الظاهرة بصورة واضحة وصاحقة على عهد الدولة الأموية . وكان العرب قد انساحوا غرباً في شالي إفريقية والأندلس وجنوب فرنسا ، وشرقاً نحو الهند وما وراءها . ويقال إن موسى ابن نصير فاتح المغرب والأندلس لما عاد إلى دمشق كانت معه جموع كثيفة العدد بلغت عدة آلاف من عذارى العائلات القوطية النيلية (١) . ثم اشتدت ظاهرة الجوارى بروزاً على عهد الدولة العباسية . ولما هدأت حركة الفتوح الإسلامية اتجه حكام المسلمين وأثريائهم إلى الحصول على

(١) دكتور جوردن عبد النور : الجوارى . الناشر دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة

الثالثة ، د.ت ، صص ٢٣-٢٧ .

الجوارى عن طريق الشراء من تجار النخامة بأثمان باهظة . وكانت قصور دمشق وبغداد والفسطاط وعواصم مصر الإسلامية الأخرى التى تعاقب لإنشاؤها وكذلك قصور قرطبة وإشبيلية وغيرها مليئة بالجوارى القاتنات . وقد حفلت حياتهن بالترف : كن يرتدين الشفيف من الملابس ، ويتفنن فى الزينة ، وفى تعطير أجسامهن ، وإبراز عماسنها ، ويتناولن أشهى الأطعمة ، ويظفرون بقلمر كبير من الإعزاز والإكرام . ومن أجلهن أهدرت الأموال . وقيل عنهن تعبير لاذع يصور جانباً كبيراً من الحقيقة ، فأطلق عليهن « سلع الجمال والمتعة » .

وكان عددهن يفوق عدد السيدات الحرائر فى هذه القصور . وهكذا تسربت الجوارى الحسان إلى بلاط الخلفاء وقصور الأمراء والقادة العسكريين ومنازل الأثرياء . وكانت غالبية الجوارى يمارسن ألواناً من فنون النشاط وبث المرح فى قلوب أسيادهن بما يتقنه من الرقص والغناء (١) ، وسيطرن على عقول مواليهن حتى انقادوا لهن وأصبحوا أداة طيعة فى أيديهن . وحاول بعض الخلفاء الأمويين ولا سيما معاوية إقصاء الجوارى عن النفوذ وحصرهن فى الخلدور حتى لا يتطاولن إلى السلطة . وذهب التحفظ بالأشياخ المترمين إلى الخط من أبناء الجوارى ونصحوا بالابتعاد عنهن لأنهن يفسدن العرق العربى . ونظر كثير من هؤلاء إلى المهجاء (٢) نظرة أمهان أول الأمر . وكان من بينهم أبناء خلفاء وأشراف . وقد خبت هذه الكراهية على تعاقب السنين . وأقبل العرب إقبالاً شديداً على الزواج من الجوارى الحسان . وكانت هناك عدة عوامل وراء هذا الإقبال المتزايد ، منها : اعتقاد العرب أن زواجهم من الجوارى يؤدى إلى إنجاب أولاد أشداء أقوىاء وإلى ظهور أجيال صاعدة تبرز فيها اللعلاء العربية باللعماء الأجنبية ، إذ كانت الجوارى من بلاد شتى من أوروبا وآسيا . وفى الحديث الشريف « اغتربوا لا تضرخوا » (٣) . وقتن

(١) كانت تطلق لفظة قينة - بلعج القاف وسكون الياء - على الأمة البيضاء التى تمجد الغناء .

(٢) المهجاء جميع هجين ، وهو الشخص الذى أبوه عربى وأمه أمة .

(٣) ضوى الولد إذا ضمر جسمه وهزل ، فهو ضاوى ( مثقل ) . والضموى - بلعج الضاد -

العرب بلون الجوارى المشرق ، وسرهم أن يجيء أبناؤهم على شيء من بياض البشرة على عكس أبنائهم السمر الوجوه أو المائلين إلى السواد . ومن هذه العوامل أيضا انتقال المحاربين العرب من بلد إلى بلد وابتعادهم عن العرييات الخالصات ، ثم كان فوق ذلك كله الميل الجنسي العنيف نحو جوار فانتات حسناوات الوجوه ، زرق العيون ، ناعمات البشرة ، تمثلت فيهن روعة الجمال الأوروبي أو التركي أو الشركسى .

أخذ نفوذ الجوارى يشتد في بلاط الخلفاء . وكن أقرب النساء إلى قلوبهم ، وتدخلن في شئون الدولة ، وأصبحن المرجع الرئيسى في كثير من المسائل الهامة . وكان الخلفاء يستجيون لرغباتهن أو توجهاتهن أو أوامرهن . وكن بأدوار حاسمة في تاريخ العباسيين بحيث غلبن مركز قوة خطير . وكان هارون الرشيد أول من أسرف من العباسيين في تقريب الجوارى إليه ، بل وفي تفضيلهن على الحرائر . وكان معظم أولاده من الإماء (١) . وأسهمت الجوارى

سوتشدينها وفتح الواو - هو المزال . وكان العرب يعتقدون أن ولد الرجل من قريته يجيء ضاويًا نحيفًا .

(١) كان منهم :

أ - عبد الله المأمون ، كانت أمه جارية فارسية ، يقال لها مراجل ، وأصبحت أم ولد .

ب - القائم المقتدر ، كانت أمه جارية ، يقال لها فصف ، وأصبحت أم ولد .

ج - محمد أبو إسحاق المعتصم ، كانت أمه جارية تركية ، يقال لها ماردة ، وأصبحت أم ولد . وكانت أكثر الإماء خطرا . أثرت تأثيراً كبيراً على ابنها لما تولت الخلافة وزيدته استعماله الأتراك ، وشغلوا المناصب القيادية في أجهزة الدولة على حساب العرب والفرس . وانتهوا من الخلفاء كل نفوذ .

د - صالح ، أمه جارية ، يقال لها رثم ، وأصبحت أم ولد .

هـ - محمد أبو عيسى ، أمه جارية يقال لها عرابة ، وأصبحت أم ولد .

و - محمد أبو يعقوب ، أمه جارية ، يقال لها شذرة ، وأصبحت أم ولد .

ز - محمد أبو العباس ، أمه جارية ، يقال لها عيث ، وأصبحت أم ولد .

ح - محمد أبو سليمان ، أمه جارية ، يقال لها رداح ، وأصبحت أم ولد .

ط - محمد أبو علي ، أمه جارية ، يقال لها دواج ، وأصبحت أم ولد .

ي - محمد أبو أحمد ، أمه جارية ، يقال لها كتيان ، وأصبحت أم ولد .

أنظر :

للطبرى أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك . ج ٦ ، ص ٥٤٠

في تنفيذ المؤامرات التي كانت تحاك في بلاط الخلفاء لخلع خليفة وتعيين آخر •

وكما كانت الجوارى متعدّدات المصادر والأجناس والألوان ، متفاوتات في الجمال ، كن أيضاً مختلفات في الدين . إذ كن ينتمين عادة إلى الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو المجوسية أو الوثنية . أما المجوسيات والوثنيات فكن يدخلن في الإسلام . وتحولت غالبية المسيحيات واليهوديات أيضاً إلى الإسلام أو تظاهرن بالندخول في الإسلام حرصاً على مصالحهن أو تملقاً لآسيادهن الذين كانوا يمحرون بعضهم للزوج منهن زواجاً شرعياً ، لأن اختلاف الزوجين في الدين كان - كما ذكرنا - يمنع أن يرث أحدهما الآخر . أما الجوارى اللاتي بقين في الرق فكن يحافظن في أغلب الأحيان على ديانتهم الأولى . وكان آسيادهن يقبلون هذا الوضع ولا يكرهونهن على اعتناق الإسلام ، وأكثر من هذا كانوا يسمحون لهن بالقيام بالطقوس الدينية في الأعياد والمناسبات الدينية . وكان المقربون إلى الخليفة المأمون يدخلون مجلسه فيجدون عدداً من الجوارى الروميات وقد تمتطقن بالزنانير<sup>(٢)</sup> وحلقن على صدورهن صلباناً من الذهب ، وأمسكن في أيديهن الخوص بمناسبة عيد

( ١ ) من الأمثلة التي تساق في هذا الصدد ما حدث على عهد الخليفة المقتدر . فقد قول الخلافة بمساعدة الأتراك . وكان لا يزال صبيّاً في الثالثة عشرة من عمره . واعتقدوا أن في مقدورهم السيطرة عليه وممارسة شئون الدولة باسمه لصغر سنه وضعف شخصيته . ولكنهم فوجئوا بهواله وكانت جارية رومية أصبحت أم ولد ، تستأثر بالنفوذ وتصرف في شئون الدولة بحزم وكفاية مدة ربع قرن ، وهي أطول مدة تولّى فيها أحد الباسيين الحكم وقتذاك . وتعرض الخليفة للقول مرتين . ووقفت أمه إلى جانبه تبذل مساعيها وتضع الخطط لإعادته إلى كرسى الخلافة إلى أن نجح انصوم في الفتك به .

وكانت هناك جارية أخرى من شيراز عاشت مركز قوة في الدولة أيام الخلفيتين المقتدر والمستكن . وسمت في إقصاء الأول عن الخلافة وحرغت غلامها السنلى على سمل عليه بنظامه حديد حماة بعد أن اعتذر القواد من عدم فقاً عينه . وأرادت أن تسيطر على الخليفة الثاني ، ولكنه رفض أن يتيح لها أية فرصة للتدخل في شئون الدولة ، فاصطلمت له العديد من المشكلات إلى أن نجحت في القضاء عليه .

( ٢ ) الزنانير جميع زمار وهو للتصارى . يقال تزلزل التصارى أى شد التزلزل على وسطه . وزلزلته بالانشهد أليسه الزنار .

الشعانيين ، ومن في غاية البهجة والمرح . والخليفة المأمون بنظر لإيهن دون أن يعترض عليهن (١) . فمن الخطأ القول إن المسلمين أكرهوا جوارهم على اعتناق الإسلام . وقد ذهب بعض حكماء المسلمين إلى أبعد من هذا الحد في التسامح الديني . فبنى أحدهم ، وهو الأمير خالد بن عبد الله القسري عامل العراق للأمويين كنيسة خاصة لوالدته المسيحية ، إذ لم تكن في زمانها كنيسة للروم الملكيين في الكوفة ، وبنى حولها حوانيت بالآجر والجص (٢) .

وكان يحدث أن بعض الحرائر كن يقدمن لأزواجهن هدداً من الجوارى الفائنات من ما هن الخالص . فعند ما هام هارون الرشيد بحب « دنائير » جارية جعفر البرمكي . وازداد تردده عليها اشترت زوجته زبيدة عشر جوارى جيلات وأهدتهن إليه لينصرف عن المضي في حب « دنائير » . وكان من بين هؤلاء الجوارى أم المعتصم وأم المأمون وأم صالح . وبرى الجبرقي وهو يتحدث عن إحدى زوجات أبيه أنها كانت لصاحها وكالمها وبرها بزوجه تشتري له الجوارى الحسان من مالها وتعمل على تزيينهن بالذهب وارتداء الملابس الفاخرة وتقدمهن لزوجها طلباً للأجر والثواب ! !

### الدولة العثمانية لم تستحدث نظام الجوارى :

مخلص من هذا العرض إلى حقيقة تاريخية هامة هي أن سلاطين الدولة العثمانية لم يستحدثوا نظام الجوارى في قصورهم ، بل كان هذا النظام قائماً وشائعاً في دول إسلامية كبرى سبقت قيام الدولة العثمانية مثل الدولة الأموية والدولة العباسية والدولة الفاطمية وما تفرع عن هذه الدول الثلاث الكبرى من دول ودويلات وكيانات سياسية مختلفة الأسماء والأنواع سواء في الشرق أو في الغرب .

### نكاح الجوارى :

وقد أجاز الإسلام نكاح الجوارى إذا لم يكن في مقدور الرجل نكاح

(١) الدكتور جوبور عبد النور ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٦-٨٩

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٠-٩١



الحرائر لضيق ذات يده وخشى المشقة في مغالبة دوافع الفطرة . والنصوص القرآنية الكريمة الواردة في سورة النساء تفضل الزواج من الحرائر أولاً ، ثم تبين لأسباب قهرية نكاح الجارية . ولكنها تنصح بعدم الالتجاء إلى ذلك ، لأنه من الخير للرجل عند ربه إذا استطاع أن يصبر عن نكاح الجارية ، وإذا استطاع أن يغالب الشهوة البهيمية .

يقول الله سبحانه وتعالى : « ومن لم يستطع منكم طولاً (١) أن ينكح المحصنات (٢) المؤمنات ، فمن ما ملكت أيمانكم (٣) من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض . فانكحوهن بأذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسافحات (٤) ولا متخذات أنداد (٥) . فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة (٦) فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشى العنت (٧) منكم ، وأن تصبروا خير لكم (٨) ، والله غفور رحيم . يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن (٩) الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم والله عليم حكيم » (١٠) .

### والمعاني المستفادة من هاتين الآيتين الكريمتين أن الزواج من الجارية أو

- (١) سمة في المال . وأصله الزيادة والفعل . يقال طال على فلان يطول فهو طائل إذا أنعم عليه ورفه مكاناً علياً .
- (٢) المحصنات المراد هنا الحرائر المؤمنات .
- (٣) أي ما ملكت أيديكم من النساء المسويات في الحروب وهن أزواج غير مسلمين فهن حلال للباين .
- (٤) مسافحات أي زانيات .
- (٥) سبق أن شرحنا مدلول هذه اللفظة في هذا الفصل .
- (٦) منهاها هنا الزنا .
- (٧) العنت انكسار العظم في جسم الإنسان بعد جبره ، ثم استمرت هذه اللفظة لكل مشقة وضرب . يقال عنت عنتاً أي وقع في العنت .
- (٨) أي وإن تصبروا عن الزواج بالأرقاء حتى تصيبوا ثراء فتزوجوا بالحرائر فهو خير لكم .
- (٩) جمع سنة وهي الطريقة .
- (١٠) سورة النساء : الآيتان رقم ٢٥ ، رقم ٢٦ .

الأمة ليس هو الزواج الأمثل . وليس ذلك كراهية لنكاح الجارية أو الأمة في ذاته ، ولكن لأن الكثيرين — كما سبق أن ذكرنا — كانوا ينظرون إلى أبناء الجوارى والإماء نظرة أدنى من نظرتهم إلى أبناء الحرائر ، وهى نظرة منبذة من نظرتهم إلى الجوارى والإماء أنفسهن . فلان آدميتهن فى نظر هذا الفريق من الناس آدمية مهذرة ، أو أنهم من الناحية الإنسانية البحتة هابطات (١) . وقد ذهب بعض علماء الدين إلى القول بأن الشريعة رخصت نكاح الجوارى والإماء للضرورة (٢) .

### أوضاع الجوارى فى الفقه الإسلامى :

وقد وضع أصحاب المذاهب الفقهية قواعد تنظم أوضاع الجوارى من رق وعتق ، ووطء وزواج ، وإنجاب وطلاق ، وغير ذلك من مسائل تتصل بأحوالهن الشخصية . واستهدفت هذه القواعد بوجه عام إتاحة القرص أمام الجوارى للعتق وتضييق عدد من روافد رق الجوارى تمهيداً لنضوب معينه مع الزمن . وبهنا أن نذكر بعض القواعد العامة التى تتصل بهذه الدراسة .

**أولاً :** إذا وطأ السيد الجارية التى هى ملك يمينه وأنجب منها تغير وضعها القانونى إذ تصبح « أم ولد » (٢) . ولا يجوز له بعدئذ أن يبيعها أو يهبها أو يتصرف معها أى تصرف بنقل ملكيتها لآخر أو يعوق حريتها . ولا تعود « أم الولد » إلى الرق ، ويصبح أولادها — الذكور والإناث — أحراراً وينسبون لأبهم ويأخذون اسمه ويرثونه أسوة بأخوتهم وأخواتهم ممن ولدوا من أمهات حرائر . وتصبح أم الولد حرة عقب وفاة زوجها فلا يرثها الوارثون أو يستحوذ عليها الدائنون . وفى هذا الشأن قال عليه الصلاة والسلام « أم الولد لا تباع ولا توهب ، وهى حرة من جميع المال » . ولما أنجب صلوات الله وسلامه عليه ابنة لإبراهيم من امرئته مارية قال « أحقتها ولدها » أى أن إلحاقها

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ٨٠-١٠٠

(٢) دكتور محمد محمود حجازى : التفسير الواضح . ثلاثون جزءاً ، ج ٥ ، الطبعة

السادسة ، القاهرة ، ١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٢ م ، ص ٦

(٣) أم الولد مصطلح فقهى ، يجمع أمهات الأولاد .

منه هذا الإبن جعلها مستحقة للعتق بعد وفاته . واستنكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه المحاولات التي بلغها بعض العرب لبيع أمهات أولادهم وصاح فيهم قائلاً : أنبعد أن اختلطت دماءكم بدمائهن ولحومكم بلحومهن تریلون بیعن ۱۹ .

ثانياً : إذا أعتق السيد جاريته ، وعقد عليها ، وتزوجها ، تمتعت بجميع الحقوق الخاصة بالزوجات الحرائر .

ثالثاً : إذا كان الإسلام قد أذن للسيد في أن يتسرى بجواريه ، إلا أنه حرص في ذات الوقت على تذليل العقبات التي قد تقف في سبيل عتقهن . ومن ذلك أنه لم يقيد عدد الجوارى اللاتي يجوز للسيد امتلاكهن وتسريهن . فأجاز له أن يحصل على أى عدد يريد منهن متى كانت إمكانياته تسمح له بذلك على عكس القيد العددي الذي فرضه الإسلام على تعدد الزوجات ، لأن الكثرة العددية للجوارى كانت وسيلة عملية وسريعة وفعالة تؤدي إلى عتق الجوارى وحرية أولادهن واتصال نسب الجوارى وأولادهن بالسيد . ومن المعروف أن المتعة الجنسية كانت في مقدمة الدوافع وراء اقتناء الجوارى . ولا يجوز أن تقيد تلك الوسيلة بقيد عددي ، لأن مثل هذا التقييد يؤدي إلى تضيق منافذ الحرية أمام الجوارى كما يؤدي إلى الإبقاء على أوضاعهن كرقائق . وكذلك لم يقيد الإسلام هذا التسرى بعقد زواج ، ولم يقيده بإيجاب وقبول ، لأن وسيلة تؤدي إلى حرية الجارية وحرية نسلها لا يصح أن توضع أمامها عقبات أو قيود تجعلها مشروطة بدفع صداق أو إحضار شاهدين على عقد الزواج أو على تسريها أو أخذ رأيها وموافقتها .

وتطبيقاً لهذه القواعد العامة فإن معاشره السيد لجاريته وإيجابه منها كانا يؤديان في الإسلام إلى عتقها وحرية جميع نسلها .

رابعاً : تميز الشريعة بين ثلاثة أنواع من الفرش : فراش قوى للزوجات الحرائر ، وفراش متوسط لأمهات الأولاد . أى الجوارى اللاتي أنجن من أسيادهن نسلاً . وفراش ضعيف للجوارى اللاتي يتسراهن أسيادهن ولا يتجن منهم .

عماساً : تشجع الشريعة على عتق الرقيق عتقاً خالصاً لوجه الله وتقرباً إلى الله ، أى دون أن يكون هذا العتق بمثابة كفارة للذنوب ارتكبه المسلم كالفعل الخطأ وشبه الخطأ أو الحنث في اليمين وما إلى ذلك . ويسرى هذا العتق الخالص لوجه الله على الذكور والإناث من الرقيق . ومما هو جدير بالذكر أن سلاطين الدولة العثمانية قد درجوا على عتق عدد من الجوارى كل عام بعد أن يختاروا من أزواجاً من كبار موظفي الدولة . وكان السلاطين يحرصون على ألا تقل الجارية في الرق بعد أن تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً كحد أقصى .

### مصادر حصول السلاطين على الجوارى :

كان القصر السلطاني يجمع بأعداد وفيرة من الجوارى الحسنان . وكان السلاطين يحصلون عليهن من ثلاثة مصادر : بشرائهن من تجار الرقيق الذين كانوا يسارعون إلى ساحات القتال حين يسمعون أن حرباً أوروبية قد اشتعلت ، ويشترون السيدات والفتيات اللاتي يوقعهن سوء الحظ أسيرات في أيدي المتحاربين . وكان أمين جمرک العاصمة يأخذ حاجة القصر السلطاني من الفتيات اللاتي تراوح أعمارهن بين العاشرة والحادية عشرة . وفي أوقات السلم كان تجار النخاسة في أوروبا وبعض أقاليم من آسيا يعملون إلى خطف البنات لبيعهن . وكن من بلاد شتى : بلاد اليونان ، وجمهورية البندقية ، وألبانيا ، والنمسا ، وبلاد القرم ، والروسيا . وكن على حفظ موقور من الجمال . وكان أهل القوقاز قد انجهموا إلى تجارة الرقيق الأبيض نظراً إلى المكاسب الكبيرة التي كانت تدرها عليهم هذه التجارة الآدمية . ومنذ نهاية القرن السادس عشر كانت غالبية الجوارى تأتي من القوقاز حل يد أولئك التجار . وكان الإقبال على شرائهن شديداً لأنهن كن يظفرن بإحجاب شديد بسبب جمالهن المفرط (١) . أما المصدر الثالث والأخير فكان الهدايا يتلقاها السلطان . ولم تكن هذه الهدايا سوى جوار كن آية في الجمال ، يقدمهن بعض كبار موظفي الدولة أو حكام بعض الدول الأوروبية بعد أن يكن قد حضرن

دراسات علمية واجتماعية واكتسبن مهارات شتى بحيث لم يقل مستوى هؤلاء الوافدات الجليليات عن مستوى الجاريات اللاتي قُصين في الحريم السلطاني سنين عدداً (١).

من هذه المصادر الثلاثة كان السلطان يأخذ حاجته من أولئك الفتيات ليكون لديه رصيد بشري نسائي كبير في الحريم السلطاني يملأ بهن المراكز والمناصب التي تخلو تباعاً . وكانت أولئك الفتيات في أصولهن الأولى مسيحيات (٢) ، وفي ذات الوقت كن حرائر ، وذات جمال باهر ، ثم وقعن في الأسر لسبب من الأسباب ، واشتراهن السلطان . وبمجرد التحاقهن بالقصر السلطاني تتغير أوضاعهن . فيصبحن مسلمات ، ويصبحن جواري ملك يمين السلطان . ويعشن عيشة رغدا ، وينتظرهن مستقبل باسم .

#### مستقبل الجواري في القصر :

وبمجرد التحاق الجواري بالقصر السلطاني ، ودخولهن في الإسلام ، كانت تعد لمن في داخل القصر دراسات في الثقافة الدينية الإسلامية وبعض مواد الثقافة العامة والسلوك الاجتماعي واللغة التركية . وكانت جميع الجواري ينتظمن في هذه الدراسات . وإذا كان لدى الجارية استعداد عقلي للدراسات النظرية أضيفت إلى هذه الدراسات مقررات لتعلم اللغة الفارسية أو اللغة العربية بجانب إحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية ثم التاريخ الإسلامي والجغرافية . أما إذا لم يكن لديها استعداد ذهني لهذه الدراسات النظرية فإنها تتلقى دروساً في التفريز والحياكة والموسيقى والغناء والرقص . وتم هذه الدراسات بكافة نوعياتها في نطاق التقاليد الإسلامية . وكانت الجواري تنتظمن في مجموعات ، قوام كل مجموعة عشر جوار . وتشرف رئيسة على كل مجموعة . وتمضي الأيام وتزداد الجارية جمالا في الحلقة ، ورشاقة في الجسم ، وعمقا في الثقافة ، وأدبا في الحديث ، ورفاهية في الحس . وكان لا بد

(١) D'Ohsson Ignatius Mouradega; op. cit., t. VII, pp 63—64.

(٢) يستثنى من هؤلاء الفتيات أولئك اللاتي يحصل عليهن السلطان بطريق الهدايا من كبار مولاي الدولة .

أن يتحدد مستقبلها عند سن معينة أقصاها الخامسة والعشرين ، فيعتقها السلطان . ويأذن لها كسيدة حرة في الزواج من أحد كبار العسكريين أو المدنيين . وكان السلطان هو الذي يختار لها الزوج وتغادر القصر كما سبق أن ذكرنا . وقد تجلبد الجارية انتباه السلطان إليها ويعتقها وتنجب منه ولداً أو بنتاً أو أكثر وتصبح أمّاً لأولاده ويعلو مركزها إلى مرتبة تقرب من مرتبة السلطنة . ويطلق عليها لقب قادين (١) . وعلى ذلك فلن عبارة « الحریم السلطانی » كانت تعني في أحد مدلولاتها المكانية مدرسة لإعداد قادينات السلطان أو زوجات لكبار موظفي الدولة المدنيين أو العسكريين .

#### قادينات السلطان :

ذكرنا أن السلاطين السبعة الأوائل تزوجوا نساء حرائر بعقود زواج شرعية . وأن السلاطين الذين تعاقبوا على عرش الدولة بعد السلطان محمد الفاتح قد أطرحوا لإطراحاً تاماً مثل هذه الزيجات ، واتجهوا إلى جوارى القصر باعتبار الجارية ملك يمين السلطان ، له أن يطلّها وتنجب منه ذكوراً وإناثاً ، فتصبح أم ولد ويتمتع نسلها بالحرية . أما هي فتعتق عقب وفاة السلطان . وله أيضاً أن يعتقها ويعقد عليها ، وينجب منها .

وقد اكتفى كل من هؤلاء السلاطين بأربع جوار من جوارى القصر . واحتفظ في ذات الوقت بسائر جواريه ، لأن الشريعة الإسلامية لا تضع قيداً على عدد الجوارى اللاتي يجوز للرجل المسلم أن يحتفظ بهن ويطلّهن .

#### امتيازات القادينات :

حرص كل سلطان من أولئك السلاطين على أن يرفع « الجوارى » السابقات الأربع مكاناً علياً بعد أن أحققن وتغير وضع كل منهن الاجتماعي ومركزها القانوني من مجرد جارية ملك يمين السلطان إلى سيدة يطلق عليها قادين (٢) Une Cadine ، وكانت القادينات الأربع تظفرن بمعاملة تقرب

---

(١) أنظر مايل .

(٢) قادين كلمة تركية معناها سيدة . وفي الأمم الأتلي تطلق على السيدة ذات المركز

الاجتماعي المتين . وتجمع قادينات . وورد ذكرها في المراجع الإنجليزية Kadin وتجمع Kadins أما في المراجع الفرنسية فورد في بعضها Cadine وفي صيغة الجمع Cadines . وفي بعض -

من المعاملة التي كانت تلقاها السلطانات من حيث الاحترام العميق ، وتحديد أوضاعهن في البروتوكول العثماني ، وتخصيص جناح خاص لكل منهن في منطقة الحرم السلطاني . فكانت كل قادين تعيش بمعزل عن زميلات القادينات الثلاث الأخريات ، ولا يرى بعضهن البعض إلا في الحفلات . فكانت كل قادين بمثابة سلطنة . كانت لكل منهن حاشية تقوم على خدمتها ، وكانت ترصد أعبادات مالية لكل منهن ، وترتب قوة من الحرس لكل منهن ، وغير ذلك من امتيازات بحيث كن يشكلن أعلى درجة في الحرم السلطاني باستثناء والدة السلطان إذا كانت لا تزال على قيد الحياة .

### تحديد أوضاع القادينات :

وكان هناك اعتباران في تحديد أوضاع القادينات في البروتوكول العثماني : أحدهما أقدمية القادين بين أرباب القادينات . ولذلك كانت تطلق عليهن ألقاب معينة ، هي : بيوك ، ليكنجي ، أورتنجيه ، كجرك (١) . أي الكبرى ، الثانية ، الوسطى ، الصغرى ، على التوالي . وثانيهما ، وهو الأهم ، نوعية الطفل الذي تنجبه . فإذا أنجبت ولداً للسلطان أطلق على والدته لقب أكثر فخامة ، وهو « باش قادين » أي كبيرة القادينات . ويطلق عليها أيضاً « خاصكي سلطنة » (٢) Hasseki Sultan تقريباً لمركزها من مركز السلطنة الحقيقية . وتصبح السيدة الأولى في القصر بعد والدة السلطان . ويكون ابنها في العادة ولياً للعهد ويتربع على العرش بعد وفاة والده إذا سارت الأمور سيراً عادياً ولم يتعرض لمؤامرات تحاك ضده سواء في القصر أو في الدوائر العليا في الحكومة المركزية في إستانبول . وكان يطلق لقب « خاصكي سلطنة » أيضاً على بنات السلطان من باب التجاوز . أما إذا أنجبت القادين بنتاً فقط أطلق عليها « خاصكي قادين » Hasseki kadin أو « خاصكي خاتون »

المراجع الفرنسية الأخرى ترد مكتوبة على هذا النحو : La Khatoune أي « خاتون » أو « كاتون »

(١) ترد ألقاب هؤلاء القادينات في اللغة التركية مكتوبة بالحروف اللاتينية على هذا النحو :

Buyuk, İkinci, Ortanca, Kuçuk.

(٢) خاصكي مأخوذة من الكلمة العربية خاص ، ويقال إنها مأخوذة من اللفظة الفارسية

خاصكى بمعنى خاص أو حسن . ويجمع هذا القاب « خاصكى سلطات » .

ويطلق عليها أيضا « خاصكي كاتون » Khasseki-khatoun ومعناها  
والدة ابنة السلطان .

مستقبل القادين إذا انصرف السلطان عنها في حياته أو توفي عنها :

وعلى الرغم من الامتيازات التي كانت تتمتع بها القادينات ، فإن مركزهن  
لم يكن مستقراً بصفة عامة . فقد يحدث أن يسأم السلطان من إحدى القادينات  
لسبب من الأسباب . ولا معقب لرأيه في هذه المسائل الشخصية والحساسة ،  
فينفصل عنها بسهولة وسرعة ، ويأمر بأن تغادر القادين السراى الجديد -  
القصر الجديد - إلى القصر القديم (١) . وفي هذه الحال يملأ مكانها الشاغر  
في الحرم السلطاني بحارية يعتقها السلطان ويرفعها إلى مرتبة قادين .

وإذا توفي للسلطان تنتقل قاديناته إلى القصر القديم ما عدا الباش قادين -  
كبيرة القادينات - إذا تولى ابنها العرش ، فلأنها تبقى في القصر الجديد ،  
وأكثر من ذلك ، تغلو بين عشية وضحاها ، والدة السلطان الجديد والسيدة  
الأولى في القصر ، وتمارس في هذا الموقع نفوذاً كبيراً على الحرم السلطاني  
بكافة هيئاته النسائية والخصيان . وسرى أمثلة لأمهات سلاطين بلغن من  
حلو التفرد أنهن نجحن في إقصاء أبنائهن السلاطين عن ممارسة معظم

---

(١) السراى Serây كلمة تركية مأخوذة من اللغة الفارسية ومعناها قصر . وهناك  
رأى آخر يقول إنها مأخوذة من الكلمة الإيطالية Seraglio بنفس المعنى . وكان السراى القديم  
مبارة من مبنى أقيم على عهد الدولة البيزنطية . ولما فتح السلطان محمد الثاني ( ١٤٥١-١٤٨١ )  
القسطنطينية أمر بترميمه واستخدمه بعد فتح هذه العاصمة فوراً ( ١٤٥٣ ) . ويقع هذا القصر  
القديم في المكان الذي تشغله حالياً جامعة إستانبول .

أما السراى الجديد فقد أمر هذا السلطان بتشييده . وآمه عام ١٤٦٨ ، وهو الآخر كان  
يسمى بعض مبان كانت موجودة بالفعل . ويطلق على هذه المباني الآن طوب قاي سراى Top  
Kapi Serây . وإلى عهد السلطان سليمان المشرع كان السلاطين يوزعون إقامتهم - حين  
يكونون في إستانبول - بين القصرين . ولم يصبح القصر الجديد المقر الوحيد لإقامتهم إلا مع  
حكم السلطان سليمان المشرع .  
أنظر :



اختصاصاتهم بعد أن هبّان لهم الجوارح للانغماس في النساء . وأصبحت هؤلاء الأمهات القادينات في ظل هذه الأوضاع مراكز قوى خطيرة في تاريخ الدولة . وعلى هذا النحو أصبح القصر القديم في فترة من الفترات بمثابة مئوى للقادينات اللاتي هجرهن السلطان أو توفى عنهن هذا السلطان . ومع ذلك لم يكن الطريق أمامهن مسوداً وبخاصة اللاتي لم ينجبن ذرية من السلطان المتوفى . فقد كن على أية حال سيدات حرائر سبق أن نلن حريتهن من السلطان . وكان كثير من رجال الدولة الطموحين يسعون إلى الزواج بهن ليتخذوا منهن وسيلة إلى الظفر ببعض المناصب ذات المستوى الرفيع . إذ كانت أولئك « القادينات السابقات » يسمح لهن بالتردد على الحرم السلطاني وزيارة قادينات السلطان الجديد . يلتصقن منهن مساعدهن على تعيين أزواجهن في مناصب مرموقة . وكانت القادينات الجديدات يستجبن في الأعم الأغلب لرغباتهن . وكان السلطان بدوره ينفذ رغبات قاديناته . وكانت نوعية سلاطين الفترة الثانية مما ساعد على نمو هذا النفوذ الجانبي ، لأن هؤلاء السلاطين اعتادوا الحياة معزول عن الناس مما جعلهم يتأثرون بتوجيهات أو آراء المحيطين بهم وبخاصة النساء .

لم تكن هناك أسباب جديدة لتعدد زوجات وقادينات السلاطين :

ومن الصعب تفسير تمسك سلاطين الدولة بنظام تعدد الزوجات بأنه كان وسيلة شرعية يضمن بها كل سلطان إنجاب ابن له يرث العرش من بعده . إن هذا القول يعتبر تبريراً ولا يعد تفسيراً علمياً ، لعدة أسباب ، منها :

أولاً : ثبت تاريخياً أن ثلاثة عشر سلطاناً تعاقبوا على عرش الدولة منذ حكم عثمان الأول حتى محمد الثالث ، وهي فترة زمنية استطلت أكثر من ثلاثة قرون ( ١٢٩٩-١٦٠٣ ) ، كان كل سلطان خلالها يورث العرش من بعده لإبنه . ولم يحدث سوى استثناء واحد بعد هذه الفترة حين جاز إلى ربه السلطان مراد الرابع ( ١٦٢٣-١٦٤٠ ) بدون عقب . ومع ذلك لم يتعرض العرش الدائمى لأية هزة ، لأن السلطان أحمد الأول ( ١٦٠٣-١٦١٧ ) كان قد أبى على إخوته ، وأصبح العرش ينتقل إلى غير الأبناء ، وأوصى إلى

أنه بالملك وأصبح توارث العرش على قاعدة الأرشد فالأرشد . وتولى العرش أخوه باسم مصطفى الأول (١٦١٧-١٦١٨) (١) ثم تعاقب على عرش الدولة ثلاثة إخوة من أبناء السلطان أحمد الأول (٢) . وتولى العرش بعد ذلك ثلاثة إخوة وكانوا من أبناء السلطان إبراهيم (٣) .

ثانياً : إن أحد سلاطين الفترة الثانية وهو سليم الثاني قد توفي عن ستة أولاد (٤) وثلاث بنات . وتولى أكبر الأبناء العرش ، وهو مراد باسم السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) . وكان أول عمل قام به أنه أمر بذبح لإخوته الخمسة كي يأمن على نفسه وعرشه من دسائسهم (٥) . فإذا كان الهدف من تعدد الزوجات والتقايدات هو ضمان إنجاب ابن يكون وريثاً للعرش لما أنجب ذلك السلطان ستة أولاد .

ثالثاً : تكررت هذه المأساة بصورة أشد عنفاً وأكثر إبلاماً . فإن ذلك السلطان مراد الثالث توفي في مساء اليوم السادس من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٥٩٦ عن خمسين سنة وبعد حكم دام إحدى وعشرين سنة :

---

(١) عاد إلى العرش سنة ١٦٢٢ بعد غلمه ، وعلج ثانية سنة ١٦٢٣ لأسباب لا تمت بصلة إلى نظام توارث العرش ، بل لأسباب تتعلق بالإلشارية كتركز قوة خطير في الدولة يتدخلون في عزل وقتل السلاطين والصور النظام ومن إليهم .

(٢) كان هؤلاء السلاطين الثلاثة الإخوة هم :

أ- حيان الثاني ١٦١٨-١٦٢٢ .

ب- مراد الرابع ١٦٢٣-١٦٤٠ .

ج- إبراهيم ١٦٤٠-١٦٤٨ .

(٣) كان هؤلاء السلاطين الثلاثة الإخوة هم :

أ- محمد الرابع ١٦٤٨-١٦٨٧ .

ب- سليمان الثاني ١٦٨٧-١٦٩١ .

ج- أحمد الثاني ١٦٩١-١٦٩٥ .

(٤) كان الأولاد الستة هم : مراد ، محمد ، سليمان ، مصطفى ، وجهانكبر ،

وعبدالله .

أنظر :

محمد فريد بك مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٥

(٥) Grant A.J., A History of Europe (1494—1610), op. cit., p. 225. (٥)

وانجب عشرين ابناً غير عدد من البنات . وقد تولى العرش من بعده أكبر أولاده باسم السلطان محمد الثالث ( ١٥٩٦-١٦٠٣ ) . وكانت والدته من جمهورية البندقية . وكان أول عمل قام به هو ذبح لإخوته التسعة عشر أفي الوقت الذي كان يوارى فيه جثمان والده . فإذا كان الهدف من تعدد الزوجات والقادينات هو ضمان إيجاد وريث للعرش لما أنجب ذلك السلطان هذا العدد الوفير من الأبناء .

رابعاً : إن السلطان أحمد الثالث ( ١٧٠٣-١٧٣٠ ) قد أنجب مالا يقل عن واحد وثلاثين ولداً . وعلى الرغم من أنه كان يجب المال حياً حياً إلا أنه أنفق الكثير من الأموال على حفلات ختان أولاده . وكان يميل إلى حياة التهلكة ، ويقضى وقته في اللهو والمتع الجنسية مع قاديناته وجواريه (١) .

خامساً : إن ظاهرة تعدد الزوجات والقادينات وما أحاط بها من حياة الجون كالإسفاف في النساء وإدمان الخمر كانت ظاهرة بارزة على عهد سلاطين الفترة الثانية ، إذ كان عدد منهم قد استغرقوا في شهواتهم .

سادساً : لم يكن الباحث هؤلاء السلاطين على تعدد الزوجات والقادينات هو الاستفادة من رخصة أجازها الإسلام للزوج لاستخدامها في ظروف استثنائية سبق أن شرحناها ، ولكن كان الباحث لهم هو استغلال هذه الرخصة . وفارق كبير بين الاستفادة والاستغلال .

سابعاً : لم يقنع السلاطين بتعدد الزوجات ، إذ كانت توجد في الحرم السلطاني أعداد وفيرة من الجوارى الحسن يحفظ كل سلطان بهن . وتقوم سيدة عجوز من سيدات القصر بتنظيم ليالى السلطان مع الفتيات الفانات . وكان الآية القرآنية الكريمة تنطبق على فريق من سلاطين الفترة الثانية ممن أطلقوا العنان لشهواتهم ، زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر

المنظرة (١) من الذهب والفضة والخيل المسومة (٢) والأنعام (٣) والحراث (٤)، ذلك متاع (٥) الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب ، (٦).

### العواقب الوخيمة لتعدد زوجات وقادينات السلاطين :

نجم عن تعدد الزوجات والقادينات مشكلات خطيرة انعكست آثارها على الدولة . فإن تعدد من أدى إلى تعدد الأمهات . وأدى تعدد الأمهات بدوره إلى إشاعة جو صانع من الغيرة والحقد والتنافس بينهن . إذ كانت كل أم أنجبت مولوداً ذكراً تسمى سعيّاً حثيثاً كي يكون ابنها ولياً للعهد ، ولو كان ترتيبه أى وضعه في البروتوكول لا يؤهله لشغل هذا المنصب . ومن ثم تحاك المؤامرات ويشترك في تنفيذها الخسبان وروساؤهم ، فضلاً عن الصبر الأعظم المتعاطف مع القادين أو المنصاع لها أو الضالع معها بدافع مصلحة مشتركة بينها . وتغزو القادين مركز قوة خطير ، إذ نجد من السلطان أذنّاً صاغية . وتنتهى هذه المؤامرات عادة بقتل ولي العهد الذى كان والده قد اختاره ليتولى العرش من بعده . كما أدى تعدد الزوجات والقادينات إلى وجود تنافر حنيف بين السلطان وأبنائه الذين أنجبهم من سيدة أخرى والذين حرموا من وراثة العرش . وقد وصل هذا التنافر في عدة حالات إلى حد الصراع الحربى السافر بين السلطان وهؤلاء الأبناء . ثم كان هناك أيضاً للتنافر بين الإخوة وخصوصاً الإخوة غير الأشقاء . وكان كل منهم يلوذ بوالده ففسح عن طريق المؤامرات الممصرة للدولة لتحقيق حلم جميل يرادو الإبن

(١) القتالير جميع قطار . والمنظرة مشقة منها تأكيد . ويراد بالبادة المال الوفير .

(٢) المسومة أى المعلقة ، من السومة وهى العلامة ، وقيل المرسله وعليها ركبائها ، وقيل التى ترمى في المروج والمرامى .

(٣) الأنعام جميع نعم ، وهى الإبل والبقر والغنم .

(٤) الحراث إلقاء البذر في الأرض وتجهيزها للزرع . وقد يسمى المحرث حراثاً . والمراد هنا المزدوجات .

(٥) المتاع بمعنى التمتع .

(٦) المآب المرجع ، من آب يقرب أوباً ، أى رجع .

(٧) سورة آل عمران ، آية رقم ١٤ .

والدته معاً . وهكذا امتلاً الحرم السلطاني بجو خائق موبوء بالمؤامرات والدماسيس والتكتلات النسائية والتيارات الخفية المتنافرة أشد التنافر .

### شخصيات نسائية أخرى في الحرم السلطاني :

بجانب الزوجات الحرائر المسلمات والمسيحيات للسلطين ، وبجانب قاديئاتهم بعد ذلك ، كانت توجد في الحرم السلطاني سيدات ونبات أخريات كان هن وزن وثقل رهيبان إلى حد أن بعضهن كن يفقن الزوجات والقاديئات في المكانة والنفوذ بحيث أصبحن يشكلن مركز قوة خطير في تاريخ الدولة . وكان على رأس هذه الشخصيات النسائية : والدة السلطان ، ومجموعات من الجوارى الفاتنات كان هن ، بطبيعة أعمالهن واختصاصاتهن ، دلال على السلطان .

### والدة السلطان :

كان أعلى مركز في الحرم السلطاني يمكن أن تسمو إليه سيدة هو مركز والدة السلطان الحاكم ، ويطلق عليها « سلطنة والدة » La Sultane - Valide . أى والدة السلطان ، إذ كان السلاطين العثمانيون يكونون لأمهاتهم قدراً كبيراً من التبجيل ، ولا يرفضون هن طلباً . ولا يقف نفوذ والدة السلطان عند هذا الحد ، بل كان نفوذها يمتد إلى جميع زوجات ابنها السلطان وجواريه .

وكانت لها سيلة بمثابة رئيسة أو مديرة لمكتبها أو وكالة عنها تسمى « كاخيا سلطنة والدة » . ويقع عليها الاختيار عادة من بين السيدات المتقدمات في السن ، واللاتي قضين سنين عدداً في أجنحة الحرم السلطاني حتى يكن الاستفادة من تجاربها وخبراتها . ويعمل تحت إمرتها عدد كبير من السيدات والفتيات . وكانت تعد الشحنة الرسمية باسم والدة السلطان . وفي ذات الوقت كانت أداة الاتصال بينها وبين السلطان وزوجاته أو قاديئاته . وفي ظل هذا المركز مارست نفوذاً واسعاً جداً سواء في القصر أو في دوائر الحكومة . ويتصاحد نفوذها ويتألق نجمها إذا كانت والدة السلطان سيدة أجنبية الأصل ذات شخصية قوية . ويلاحظ أن قسماً من اختصاصات هذه السيدة « كاخيا

سلطانة والدة ، كان يتداخل مع اختصاصات رئيس الخصيان . وكان الأخير يمثل مركز قوة خطير في الحريم السلطاني ، ويدور في الخفاء صراع بين هاتين الشخصيتين . وكانت الغلبة في معظم الحالات للسيدة « كاخيا سلطانة والدة » بصفتها أداة الإتصال بين أكبر شخصية نسائية في الدولة وبين السلطان . وكانت تستأثر بموضوعات تتصل بالسياسة العليا أو بمسائل هامة ذات الطابع العاجل وتتطلب الاتصال الفوري بالمسؤولين والمستولات .

### أولاد السلطان وبناته :

ولدى جانب السلطانة والدة وزوجات السلطان كان يعيش في القصر أولاده وبناته . أما الأولاد فكانوا يتلقون دراسات مدنية وعسكرية مع اهتمام عميق بالجوانب الدينية ومواد الثقافة العامة واللغات . وكانوا يغادرون القصر السلطاني في سن مبكرة ، ويصدر السلطان فرماناً بتعيين الإبن حاكماً على مدينة كبيرة أو مقاطعة ومنحه رتبة صنيق بك ، ويغادر القصر والعاصمة وبصحبه حاشية كبيرة العدد للخدمة الداخلية والخارجية وعدد من الخصيان وحرس كثيف العدد . ويعيش في موقعه الجديد وكأنه سلطان صغير . فإذا ابتسم له الحظ وترجع على عرش الدولة بعد وفاة أبيه فإن والدته لا تغادر القصر المسمى السراي الجديد إلى السراي القديم شأن الزوجات والنساء الأخريات للسلطان المتوفى ، بل تصبح سيدة القصر الأولى بصفتها والدة السلطان الحاكم ، وتغدو صاحبة النفوذ الأعلى . أما البنات فكان يحضرن دراسات خاصة تعد لهن في الدين واللغة التركية وإحدى اللغات والموسيقى ومواد ذات ثقافة نسائية وثقافة عامة . ويظللن في القصر حتى يأمر السلطان بنزويج الإبنة إلى أحد كبار رجال الدولة مثل الصدر الأعظم أو أحد الوزراء أو أحد كبار السباهية . وكان يغادرن القصر بعد إتمام الزواج ؛ وكان يتزوجن في مستقبل العمر ، ولذلك لم تكن إقامتهن في القصر السلطاني تمتد سنوات طويلاً .

### عناصر نسائية أخرى في الحريم السلطاني :

كانت تلى القادينات في المركز أربع جوار يطلق عليهن « الكدكليات (١)

(١) Gediklis أو Guédikli ومعناها المميزات أي اللاتي يعتمدن مميزات معينة .

أى المميزات . وكن مرشحات للترقية إلى مرتبة قادين عندما يخلو هذا المنصب لسبب أو لآخر . وكانت الكليات تقمن على خدمة السلطان شخصياً . وكان السلطان يتخذ من محظيات له *des concubines* وكانت تعمل معهن في هذا المجال وعلى اتصال أوثق بالسلطان مجموعة من أترابهن يطلق عليهن « خاص أوطة لق » (١) أو فتيات الحجرات . وكان يطلق على الواحدة منهن أيضاً « إقبالة » أى معينة الحظ (٢).

وكانت توجد في الحرم السلطاني وظيفتان رئيسيتان تشغلها جارتان ، يطلق على شاغلة الوظيفة الأولى « كاخيا قادين » (٣) وكان يطلق عليها أيضاً « المعلمة » . وكانت مسئولة عن النظام في أجنحة الحرم . ويطلق على شاغلة الوظيفة الرئيسية الثانية « خزينة دار أوسطى » (٤) أى الخازنة . وكانت مسئولة عن المسائل المالية الخاصة بالحرم السلطاني بجميع فئاته وطوائفه . وكان إلى هؤلاء عدد من الجوارى كن يقمن على خدمة والدة السلطان والقادينات وأولادهن وبناتهن . ثم كانت هناك طائفة أخرى تسمى « شاكر زاده » (٥) بمعنى الملبسات ، وهن الجوارى اللاتي انتحن حديثاً بالقصر ، وكن يقضين أوقانهن في دراسات نظرية وعملية وتدريبات تطبيقية . وأخيراً كانت هناك طائفة الخادعات ، وكن يشكلن أدنى الطوائف مرتبة في الحرم السلطاني . وكن لا يرفعن عن مرتبتين إلا نادراً (٦) ، بينما كانت سيدات وفتيات الطوائف الأخرى يشقن طريقهن من درجات إلى المراتب العليا (٧) .

( ١ ) *Khass-Odalik* أو *Hass-Odalik* بمعنى « تابع للفرقة » .

( ٢ ) إقبالة *Ikbale* كلمة تركية مقتبسة من الكلمة العربية إقبال .

( ٣ ) كاخيا بمعنى وكيل أو وكالة .

( ٤ ) خزينة مأخوذة من الكلمة العربية في اللغة الفصحى خزانة . وكلمة دار فارسية بمعنى صاحب أو مدير . وأوسطى لفظة فارسية أيضاً بمعنى أستاذ أو رئيس أو رئيس عمل . والمعنى العام هو الأستاذة ورئيسة الخزانة .

( ٥ ) شاكر زاده كلمة فارسية معناها تلميذ وتطلق على البنين .

*Lybyer A.H; op. cit., p. 56 .*

( ٦ )

*Gibb Hamilton and Harold Bowen, op. cit., Vol. 1, Part 1, ( ٧ )*

على هذا النحو كان الحرم السلطاني بمثابة مدينة صغيرة، ويشمل إلى جانب  
الخصيان عماداً كبيراً من السادات والجواري وغيرهن ذوات مستويات مختلفة  
من حيث المركز الاجتماعي والثقافي والعمل الذي تقوم به كل منهن . وقد  
بلغ حاد الحرم السلطاني ما يقرب من ثلاثمائة على عهد السلطان سليمان  
المشرع (١) ، وقد قفز هذا العدد اللاحقة قفزات سريعة وكبيرة .





## الفصل الحادى والعشرون

### مراكز القوى فى الدولة (٥)

#### الحريم السلطانى

تغلغل نفوذ الحريم السلطانى فى شئون الدولة :

قامت سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى ببلور خطير فى توجيه السياسة العليا للدولة حتى أصبحن يشكلن أقوى وأخطر مراكز القوى فى الدولة على الإطلاق . كن يعملن على إشعال الحرب بين الدولة وأعدائها سواء فى أوروبا أو فى آسيا . وكن يتدخلن فى شئون الجيش وبخاصة قياداته العليا ، وكن يتدخلن فى تعيينات كبار الموظفين أحياناً ، وفى ترقياتهم أحياناً ثانية ، وفى عزلهم أحياناً ثالثة . فإذا كان الصدر الأعظم هو الشخص المطلوب عزله ، تدخلت السلطنة الوالدة لدى ابنها ، أو الباش قادين أو القادين لدى السلطان فيصدر الأخير فرماناً بعزله . وكان هذا المزج يقترن عادة بقتله فوراً أو بعد أيام ذات عدد . أما إذا كان الشخص المراد إقالته يشغل منصباً ثقل مرتبته عن مرتبة الصدر الأعظم تدخلت إحدى سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى لدى الأخير فيصعد بما يؤمر به . وكان رؤساء الأخوات الخصيان السود أو البيض هم حلقة الاتصال بين هؤلاء السيدات وبين السلطان والصدر الأعظم . يقول المستشرق بوون فى تعليقه على تسلل نفوذ الحريم فى أجهزة الحكومة إن كلمة واحدة تصدر عن قادين كانت تصنع الأعاجيب فى معظم

الأحوال . (١) A word from a kadin often worked wonders.

## أسباب نمو مراكز القوى في الحريم السلطاني :

ومرد هذه الظاهرة التي فشت فشواً كبيراً منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر والقرن التالي له إلى سببين رئيسيين هما : ضعف شخصيات السلاطين الذين حكموا الدولة إبان هذه الفترة ، ومجموعة الباشوات الذين تعاقبوا بكثرة ملحوظة على منصب الصدارة العظمى في أثناء هذه الفترة أيضاً . ويستثنى من أولئك السلاطين والصلوات عدد قليل جداً كانوا على درجة كبيرة من الخلق والكفاية . وانكشف على عهد هذه القلة نفوذ الحريم السلطاني كمرکز قوة . ولكن سرعان ما كانت تستعيد سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطاني نفوذهن بمجرد قتل أو وفاة هذه القلة من السلاطين والصلوات العظام .

## أولاً : ضعف شخصية سلاطين تلك الفترة :

انصرف معظم سلاطين تلك الفترة عن شئون الدولة . وكانوا لا يقابلون كبار الموظفين إلا على فترات زمنية متباعدة ، وكانوا لا يخرجون مع الجيش إلى ساحات القتال باستثناء ثلاثة من السلاطين الثمانية الذين حكموا الدولة بعد سليمان المشرع حتى محمد الرابع . وكان هؤلاء السلاطين الثلاثة هم : محمد الثالث ( ١٥٩٦-١٦٠٣ ) في حملة كيريزنس (١) Keresztes ، وعثمان

(١) تعالت أصوات المسلمين في إستانبول بوجه خاص بضرورة خروج السلطان محمد الثالث إلى الحرب بعد أن توالى على العاصمة أثناء الهزائم الأليمة والمتعاقبة التي نزلت بالجيش العثماني في أوروبا . وخرج السلطان معه البيرق البوي لقتال الجيوش الإمبراطورية التي كانت تتكون من الألمان والإيطاليين والمجر . وكان يقود هذه الجيوش الأرشيدوق مكسيميليان L'Archiduc Maximilien وسيجيسموند زابوليا Sigismond Zápolya وتقابل المتحاربون في معركة ساخنة في كيريزنس استمرت ثلاثة أيام تبادل فيها المتحاربون الهزيمة والانتصار ، وانتهت في اليوم الثالث - السادس والعشرين من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٩٦ - بانتصار ساحق للعثمانيين الذين أزلوا غصائر قادة بالقوات الأوروبية المتحالفة . وبلغت خسائرها خمسين ألف جندي . وكانت هذه المعركة تشبه بالنسبة للمجر معركة موهاكز في اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس - آب - عام ١٥٢٦ وهي المعركة التي أباد فيها الجيش العثماني بقيادة السلطان سليمان المشرع الجيش المجرى وقتل فيها لويس الثاني ملك المجر . هذا وتقع كيريزنس على نهر الثايس Theiss الذي ينبع من جبال الكربات في أوروبا الوسطى . ويمجرى في تشيكوسلوفاكيا والمجر ويوغوسلافيا ويصب في نهر الدانوب -

الثاني ( ١٦١٨-١٦٢٢ ) في حملة كوتين (١) Khotin ، ومراد الرابع ( ١٦٢٣-١٦٤٠ ) في حملة بغداد (٢).

من شاطئ الأيسر على مقربة من بلغراد . ويطلق بعض الباحثين على هذه المعركة اسم معركة التاييس .  
انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع الخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ،  
الطبعة الأولى ، ص ص ٧٨٤ - ٧٨٥ .

(١) كان يمش على حدود الدولة العثمانية وبولندا القوزاك Les Kosaks والتار . وكان القوزاك المقيمون في كرواتيا يعتبرون من رعايا بولندا . أما التار فكانوا يشكلون دولة تسمى غانية القرم ، وكانت شبه مستقلة ومرتبطة بالدولة العثمانية التي أبقت عليها لاتخاذها دولة حاجزة لأنها تقوم على حدود دول معادية . وكان خانات القرم يعترفون بسيادة السلطان عليهم . وكانوا يتسلمون من السلاطين الأمواخ والأعلام والتفويضات الكتائية . وكثيراً ما أدى احتكاك التار بالقوزاك إلى اشتعال الحروب بين الدولة العثمانية وبولندا . وكانت بولندا تتطلع إلى احتلال إقليم مولدافيا وانزاعه من العثمانيين . وفوجئت الدولة العثمانية في عام ١٦١٨ باضطرابات خطيرة تشعل في مولدافيا بقيادة حراثاني Gratiari . وسارع البولنديون والقوزاك بالانضمام إليه مما أدى إلى اشتداد ساعد التوار . وكانت قد أبرمت معاهدة بوسا Bousa في اليوم السابع والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٦١٧ بين الدولة العثمانية وبولندا تقرر فيها ألا تتدخل بولندا في شئون مولدافيا وولاشيا وترنسلفانيا ، وأن يظل نهر دانيستر Daniester الحد الفاصل بين الدولة العثمانية وبولندا ، وأن يتعهد السلطان بمنع التار من مهاجمة الأراضي البولندية . وصحبت عزيمة السلطان عثمان الثاني على إخماد هذه الاضطرابات ، وزحف عام ١٦٢١ على رأس الجيش على كوتين . وحققت الحملة العثمانية معظم أهدافها وعقدت معاهدة في عام ١٦٢٣ تقرر فيها أن تستمر بولندا في دفع جزية سنوية حددت بأربعين ألف فلورين Florins إلى خان القرم ، وأن يتعهد الخان بعدم الإغارة على الأراضي البولندية .

(٢) كانت الحدود بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في فارس مصدراً لاحتكاكات عديدة بينهما . وأدت إلى نشوب حروب عديدة وطويلة وضارية . كما تعددت الثورات والاضطرابات في الأقاليم العثمانية في تلك المناطق . وأراد السلطان مراد الرابع أن يحسم حرياً المشكلات العسكرية والسياسية مع الدولة الصفوية . فقد كانت هذه المشكلات بمثابة زيف دموي حاد ، وتكبدت الدولة الكثير من الخسائر في الأرواح والأموال والمتاد . وفي سنة ١٦٣٥ تول السلطان قيادة حملة كبرى زحف بها على تلك الأقاليم الشرقية ، واستولى على بعض المدن والمواقع الهامة مثل إريفان Erivan ، ثم توجه إلى بغداد واستطاع حصاره لما أربعين يوماً ، ثم دخلها في اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٦٣٨ وقام الجيش -

وبما هو جليله، بالذكر أن محمد فريد بك أحد رؤساء الحزب الوطنى فى مصر ومن أعلام الفكر والسياسة فيها ( ١٨٦٨ - ١٩١٩ ) ( ١ ) قد

المعاني جذابع رهبة للقوات الفارسية التى كانت تدافع من بغداد . وقد أبادها على بكرة أبيها . ويقال إن عدد أفرادها بلغ ثلاثين ألف جندي . وشملت المذابح أيضاً عدداً كبيراً من السكان المدنيين فى العاصمة ، وأضربت مصالح المدنيين الآخرين الذين نجوا من المذابح . وانتهت حملة مراد الرابع بعقد معاهدة صلح بين الدولتين الثمانية والصفوية فى اليوم التاسع عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٦٣٩ ( ورد فى بعض المراجع ذكر تاريخ المعاهدة اليوم السابع عشر من شهر مايو - آيار - عام ١٦٣٩ ) ونص فيها على أن تحتفظ الدولة الصفوية بمدينة إربيل والمناطق المتاخمة لها . وأن تستولى الدولة الثمانية على بغداد ومناطق أخرى عديدة حددت فى المعاهدة . وعاد الراق مرة أخرى إلى الحكم الثنائى ، كما عادت الحدود بين الدولتين إلى وضعها السابق أيام سليم الأول وسليمان المشرع . وتسمى هذه المعاهدة صلح إستابول الثانى تمييزاً لها عن صلح إستابول الأول الذى أبرم بين الدولتين فى اليوم الحادى والعشرين من شهر مارس - آذار - عام ١٥٩٠ .

( ١ ) كان محمد فريد بك من المعروفين بتعلقهم بالدولة الثنائية طبقاً للمفاهيم السياسية التى كانت سائدة فى الولايات العربية .

وقد وضع فريد بك عدة كتب ، منها :

الهبجة التنوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الحميدية ( ١٨٩١ ) ( محمد على )

تاريخ الدولة اليلية الثنائية ١٨٩٣ .

تاريخ الرومان . وقد نشر تباعاً حتى سقوط قرقاطجة فى مجلة الموسوعات ، ١٩٠٠ ،

١٩٠١ .

وله عدة بحوث منشورة فى مجلة الموسوعات ، منها :

إنجلترا وفرنسا بإفريقية ( عدد ٢٩ أبريل - نيسان - عام ١٨٩٩ ) .

الإنجليز فى غرب إفريقية ( عدد ٨ أغسطس - آب - عام ١٨٩٩ ) .

كيف ضاع استقلال جزائر حاواى ( عدد ٢٣ أغسطس - آب - عام ١٨٩٩ ) .

إنجلترا والبرتغال ( عدد ٢١ سبتمبر - أيلول - عام ١٨٩٩ ) .

إنجلترا فى جنوب إفريقية ( عدد ١٩ نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٩٩ ) .

الروسيا فى ملكة كوريا ( عدد ١٣ يونيو - حزيران - عام ١٩٠٠ ) .

مطامع أوروبا فى الصين ( عدد ١١ أغسطس - آب - عام ١٩٠٠ ) .

رئاسة جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية وكيفية انتخاب رئيسها ( عدد ٥ فبراير -

شباط - عام ١٩٠١ ) .

وكان آخر عدد من مجلة الموسوعات هو العدد ١٩ من السنة الثالثة وقد صدر فى غرة ربيع

آخر عام ١٣١٩ - ١٧ يوليو - تموز - عام ١٩٠٩ وكانت مجلة علمية نصف شهرية أصدرها

محمد فريد بك بالاشتراك مع الأستاذ أحمد حافظ عوض بك والأستاذ محمود أبو النصر بك .

تعرض للسلطان مراد الثالث - وهو أحد سلاطين الفترة الثانية - ونهى عليه عدم خروجه مع الجيوش العثمانية إلى ساحات الحرب ، وأرجع الهزائم العسكرية التي لقيتها الدولة من جيوش المجر والنمسا إلى تلك الظاهرة . وعلق عليها تعليقاً يفيض بالأسى والحسرة . وكان مما قاله « يجب علينا وعلى كل عثمانى التأسف والتحسر على عدم خروج السلطان بنفسه (١) إلى الحرب وتحجبه عن أعين جيوشه وعدم قيادتهم بذاته الشريفة إلى ساحات النصر ، فلولا ذلك لكانت الغلبة دائماً لهم بإذنه تعالى . فقا، عودهم عز وجل النصر على الأعداء في زمن أجداده سليمان وسليم الأول ومن قبلهم ، لأن وجود الخليفة الأعظم في رأس جيوشه يثبت فيهم روحاً جديدة ، فيتحدون معه قلباً وقالباً ، ويسرون معه إلى النصر المبين . والفوز العظيم . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » (٢) .

#### سلاطين لا يراهم أحد : *Des Sultans Invisibles*

لم يتخلف السلاطين عن حضور ورياسة جلسات الديوان الحمايوى - الإمبراطورى - فقط ، بل تكاسلوا أيضاً عن مراقبة أعماله وسماع مناقشات أعضائه من وراء ستار ، وهو تقليد حرص عليه سلاطين العصر الذهبي .

وكان السلاطين لا يبرحون القصر ، واستطابوا الإقامة في أجنحة الحرم السلطاني يوزعون ، أو بعبارة أكثر دقة ، يبددون أوقاتهم بين القادينات حيناً ، وفتيات الغرف أحياناً كثيرة التماساً للمتعة ، ويسرفون في تنازل المحرم ، ويرتكبون سائر المديقات مستغلين العزلة التي أحاطوا أنفسهم بها أو التي أحاطتها سيدات الفئة الأولى من الحرم السلطاني بهم . وقد أطلق عليهم « السلاطين الذين لا يراهم أحد » *Les Sultans Invisibles* إذ لم يكن يراهم

== النظر :

جد الرحمن الرافعي : محمد فريد رمز الإخلاص والتفسية . الطبعة الثالثة ، ١٩٦٢ ،  
الناسر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة . ص ص ٣١ - ٣٣ .

(١) يقصد السلطان مراد الثالث .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٠ .

رحا اهم ولا الجيش ولا الوزراء . وكانوا لا يعلمون شيئاً عن تصرفات  
حكام الولايات .

*Des Sultans Fainéants*

سلاطين « تنابلة » :

كانت أجنحة الحريم هي مأواهم ، وكان الانغماس في الممتع الجنسية  
وغير الجنسية مع القادينات وفتيات الغرف هو شغلهم الشاغل ، وقد قيل إنه  
كان لأحد سلاطين الفترة الثانية في أثناء توليه الحكم أكثر من ثلاثمائة فتاة  
من الجوارى الفاتنات (١) ، كما قيل إن عدد الذكور والإناث الذين  
أنجبهم السلطان مراد الثالث ( ١٥٧٤ - ١٥٩٥ ) لم يقل عن مائة وثلاثين  
نتيجة لمرافقه في المسائل الجنسية (٢) ، وأخيراً فإن جهل أولئك السلاطين  
بالأحداث الجسام التي تجري في الدولة نتيجة انصرافهم عن ممارسة  
اختصاصاتهم كانت سمة بارزة في أخلاقهم . ولذلك أطلق عليهم أحد  
المؤرخين الفرنسيين اسم « السلاطين التنابلة » (٣) *Les Sultans fainéants*  
وقد أشاد أحد كبار المؤرخين الإنجليز بهذه التسمية واستخدمها وهو  
يتناول تاريخ تلك الحقبة ، فقال إن الدولة العثمانية ، وهي أعظم الدول  
العسكرية ، قد وقعت في أيدي سلاطين « تنابلة » (٤) .

وكان عدد من أولئك السلاطين يتعرضون للزل نتيجة تمرد عسكري  
تقوم به الفياق الإنكشارية أو نتيجة فتوى تصدر عن شيخ الإسلام يعلم  
صلاحيتهم للاستمرار في الحكم . وكان عزلهم يقترن عادة بقتلهم أو خنقهم .  
والحق أن مركز السلاطين في تلك الفترة قد اهتز اهتزازاً حقيقياً في نظر  
الجيش وموظفي الدولة وسائر هيئاتها والجياهير بعد أن استفاضت الأنباء

---

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol.1, (١)  
Part 1, p. 73, f.n

Loc. Cit. (٢)

(٣) كلمة *fainéant* الفرنسية معناها الشخص الكسول جداً ، والحامل جداً ، والذي  
ليس لديه أى استعداد للقيام بعمل جدى . وتقابل في اللغة العربية الدارجة « قتل » .

Grant A.J.; op. cit., p. 225. (٤)

بصرفات أولئك السلاطين . وانتقلت هذه الأنخابر عبر الحدود إلى العالم الخارجي . وإن السيف الذي كان يمسك به السلاطين الشوامخ في العصر الذهبي للدولة من أمثال أبي يزيد<sup>(١)</sup> الأول الذي اشتهر باسم يديرم أى البرق لتتقلته الحرية السريعة بين الجبهتين الأناضولية والبلقانية ، والسلطان محمد الثانى الذى فتح القسطنطينية ، وسليم الأول وسليمان المشرع ، قد تحول من سيف باتر إلى شخصية<sup>(٢)</sup> un hochet (٣) .

وقد بلغ من هوان السلاطين على أنفسهم فى تلك الفترة أن اتصالات السلطان بالصدر الأعظم كانت تتم عن طريق أحد العبيد الخصبان ، وكان يطلق عليه « دار السعادت أغاسى » أى أغا دار السعادة . وكان يشار إلى الأنخابر عادة باعتباره القبزلر أغاسى أى أغا البنات<sup>(٤)</sup> . وطبقاً للبروتوكول العثمانى كان هذا الأغا يعد أكبر موظف فى القصر السلطانى كله . وكان يشغل المركز الثالث فى الدولة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . وكان فى درجة وزير ويحمل ثلاثة أطواخ . وقد أتاح الوضع المتميز جداً لهذا الشخص فرصة ذهبية للحريم السلطانى لتصبها ، نفوذهم كمركز قوة ، فينتقلن إليه أوامرهن أو رغبتهن سواء للسلطان أو الصدر الأعظم . وكانت مؤامراتهن تجمد طريقتهما معبداً وميسراً للتنفيذ الفورى .

### أشهر قصة غرام فى تاريخ الدولة العثمانية :

ونلحق بسلاطين الفترة الثانية . سلطاناً آخر كان آخر سلاطين الفترة الأولى وهو سليمان المشرع . وعلى الرغم من أنه يقف فى الصف الأول من بين سلاطين الدولة فى جميع عصورها وبلغت الدولة على عهده الأوج فى القوة

(١) بايزيد هى التلق التركى لكلمة « أبو يزيد » .

(٢) كلمة hochet فى اللغة الفرنسية تقابل فى اللغة العربية الدارجة لفظة شخصية بهم حرف اللين وسكون حرف الخاء . وهى لمبة خفيفة جداً فى وزنها تعلق للطفل الذى لا يزال يمحو فى يده . وهى عبارة عن كرة صغيرة مفلقة تماماً . ويدخلها عدد من الكرات الصغيرة - البلى - ولها مقبض فيمسك الطفل المقبض ، ويهز الكرة فتحدث صوتاً يبهت من هذه الكرات . وتستخدم هذه الكلمة أيضاً للدلالة على الشيء قليل النفع أو ضئيل القيمة .

Lavisse et Rambaud op. cit., t. v, p. 883.

(٣)

(٤) انظر الفصل التالى .

والنفوذ في السياسة الدولية وفي الإتساع الإقليمي ، إلا أنه كان على شاكلة سلاطين الفترة الثانية من ناحية واحدة ، هي خضوعه في سنواته الأخيرة من عمره المديد لإحدى قاديناته خضوعاً كاد يكون تاماً . وهي جارية روسية الأصل تدعى روكسلانه Roxelane وكانت ذات وجه باسم ، وكانت على حظ موفور من الجمال هام بحبها وأنجب منها ذكوراً وإناثاً . ولما بلغ من الكبر عتياً ووهن العظام منه سيطرت على قلبه وتغلبت بحيث أصبحت مستشاره الأول . وحاول السلطان استعادة أيام الشباب وميعة الصبا ، وهي أيام كانت قد ولت بالنسبة له . وكان في حكم الاستحالة أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء . ومن الحقائق التي يستخلصها الباحثون من دراسة سير عظماء التاريخ أن بعضاً منهم يحاولون وهم يخطون خطواتهم الأخيرة في الحياة أن يعرضوا ما فاتهم في حياتهم من متع رخيصة صرفتهم عنها الأعباء العسكرية أو السياسية أو العلية التي شاركوا في صنعها وتركوا بهمتهم قوية في تاريخ بلادهم بسبب هذه الأعباء ونتيجة لها . وهكذا كان شأن سليمان المشرع مع روكسلانه ذات الجمال والدلال والإغراء . وكان لإفراطه في الافتتان بها وخضوعه لها نتائج أضرت بالمصالح العليا للدولة ضرراً بليغاً . وفي رأينا كان هيامه بها يشكل أشهر قصة غرام في تاريخ الدولة العثمانية على الإطلاق . وسنعرض في موطن قادم في هذا النصل لروكسلانه كمركز قوة خطير ، ليس في الحرم السلطاني فحسب ، بل على أعلى المستويات في الدولة . فقد بلغ نفوذها للورة من الخطورة في توجيه القبادات العليا على النحو الذي كانت تشهيه . وكان نفوذها الرهيب وسيطرتها - كمركز قوة خطير في الحرم السلطاني - على السلطان سليمان المشرع نقطة سوداء في تاريخ هذا العاهل .

### أسباب ضعف أولئك السلاطين :

كان من أسباب ضعف شخصية أولئك السلاطين الأسلوب الذي اتبعوه منذ أواخر القرن السادس عشر في تنشئة الأمراء العثمانيين . فقما جلدوا إقامتهم في داخل القصر ، كل منهم في مقصورة أطلق عليها التفتص (١) وأحاطوا

(١) سبق أن شرحنا هذا النظام في الفصل الثاني عشر تحت عنوان : « أقفاص الأمراء »



كل أمير منهم بعدد من الجوارى والخصيان . وحرروا عليهم الاتصال بالعالم الخارجى ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن أخبار الدولة . ف عاشوا فى عزلة مدمرة ، وأصيبوا بانحيار الأعصاب ، وميل مبكر إلى التسايات مع الجوارى . وقد طبق هذا النظام أيضاً على الأمراء الذين اختيروا لتولى العرش . فكان الأمير ولى العهد يخرج من القفص بعد وفاة السلطان الحاكم ليرتقى العرش وهو محطم نفسياً ، مهتز الشخصية ، ضعيف فى تفكيره ، عديم التجارب ، تعوزه الشجاعة . يريد أن يعوض حياة الحرمان والعزلة بجو آخر فيه تحرر ، وفيه انطلاق ، وفيه تمتع بمباهج الحياة . أما اختصاصاته كسلطان فكان لا يكاد يعرف شيئاً عنها . ومن هنا كان انصرافه عن ممارسة شئون الدولة ، ومن هنا أيضاً كان التأثير عليه سهلاً وسريعاً من جانب والدته أو أخته أو القادينات وجميعهن من سيدات الفئة الأولى فى الحرم السلطانى . وكان مطمع كل واحدة منهن أن تستأثر بالنفوذ الأعلى ، وأن تتبوأ القمة بين مراكز القوى فى الدولة . والواقع أن هؤلاء السلاطين كانوا ضحية نظام فاسد ، هو نظام القفص ، استحدثه الآباء حرصاً منهم على المحافظة على مراكزهم من دسائس الأبناء أو أقاربهم أو كبار رجال الدولة يتخلدون من أحد الأمراء مطية للإطاحة بالسلطان الحاكم وتعيين آخر يأنسون إليه .

ويبين فساد هذا النظام إذا قارناه بالنظام الذى كان قائماً أيام سلاطين العصر الذهبى . فقد عمل الأخبرون على الإفاضة من نشاط أمراء الأسرة الحاكمة فى قيادة الجيوش أو فى حكم بعض الأقاليم . وقد طبقوا هذا النظام حتى على الأمراء الذين لم يكونوا مرشحين لتولى العرش . فإذا توفى السلطان الحاكم جىء بولى العهد من موقعه إلى إستانبول لتولى العرش ، وهو بعيد عن العقد النفسية ، متفتح الذهن ، كثير التجارب ، قوى الشخصية ، على دراية واسعة بشئون الحكم والحرب ، لا يهاب أحداً (١) .

== انظر ص ٢٥٠ فى هذه الدراسة .

(١) حدث استثناءان لنظام القفص على عهد سلاطين الفترة الثانية هما سليم الثانى أول سلاطين هذه الفترة . ولم يكن مقولاً أن يلجأ والده سليمان المشرع إلى هذا النظام الفاسد المدمر . أما السلطان الآخر فكان محمداً الثالث .

يضاف سبب هام مساعد على ضعف شخصيات بعض سلاطين الفترة الثانية ، ومن ثم أدى هذا الضعف إلى تصاعد نفوذ الحريم السلطاني كركز قوة في الدورات ، وهو أن عدداً من سلاطين الفترة الثانية تولوا العرش وهم في سن مبكرة جداً . تراوحت أعمارهم بين سن السابعة وسن الرابعة عشرة . فقد ارتقى العرش السلطانان أحمد الأول وعثمان الثاني وكان كل منهما في الرابعة عشرة من عمرهما ، والسلطان مراد الرابع في سن الثانية عشرة ، والسلطان محمد الرابع وله من العمر سبع سنوات . وأقيمت على هؤلاء السلاطين وصاية باشرها عدد من الوزراء ومن إليهم من كبار رجال الدولة ، ولكنها كانت وصاية صورية ، لأن الوصاية الفعلية كانت في أيدي سيدات الةمة الأولى في الحريم السلطاني .

#### ثانيا : ضعف الصدور العظام :

أما الصدور العظام فكانوا بدورهم - بسبب الملايسات والتيارات السياسية الخفية التي أحاطت بهم من يمين ويسار - من العوامل التي ساعدت على اتهم مراكز القوى في الحريم السلطاني . فقد كثر تعاقبهم على منصب الصدارة العظمى خلال الفترة التي تبدأ من أواخر القرن السادس عشر . ونذكر على سبيل المثال أنه في أثناء حكم السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) اغتيل عام ١٥٧٩ محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم . وتعاقب بعد اغتياله تسعة صدور عظام على هذا المنصب خلال المدة التي تبت على حكم مراد الثالث وهي ستة عشر عاماً ، أي بمعدل صدر أعظم واحد لكل مدة تقل عن سنتين . ولم تشغل شخصية قوية منصب الصدارة العظمى بعد ذلك إلا بعد مضي قرن من الزمان بتعيين محمد كوبرلي باشا (١) . وهناك مثال صارخ وقع في أثناء الحكم الثاني للسلطان مصطفى الأول المعروف باسم

(١) هو من أسرة ألبانية تنسب إلى كوبري ، وهي مدينة صغيرة في آسيا الصغرى على أحد روافد نهر قزل إرمك على مسافة ١٢ فرساً من مدينة آمانيا . وقد نزع إلى هذه المدينة رجل من ألبانيا مع عائلته . وعرفت هذه العائلة باسم كوبرلي نسبة إلى المدينة التي اتخذها مهجراً لها .

السلطان الأبله أو المحتوه L'idiote (١٦٢٢ - ١٦٢٣) ، فقد تعاقب ستة صدور عظام على ذلك المنصب مع أن حكمه في الفترة الثانية لم يزد عن خمسة عشر شهراً ، أى بمعدل شهرين ونصف شهر لكل صدر أعظم .

وكان الصدور العظام — باستثناء محمد صوقلو باشا إلى حد ما — (١) ضعاف الشخصية ويتم تعيينهم وعزلهم وفقاً لرغبات سيدات الفتة الأولى في الحريم السلطاني . فكن يتدخلن لدى السلطان إما لتدخل مباشرة وإما غير مباشرة عن طريق أغوات الحصيان . وكان السلاطين في مجملهم يستجيبون لرغبات الحريم .

وكان هؤلاء الصدور العظام يدركون تماماً أنهم مدينون بمناصبهم للسلطنة والوالدة ، أو الباش قادين ، أو القادين . ويدرك كل منهم أن بقاءه في منصبه مرتين برضاء الحريم السلطاني عليه . ومن ثم كان الواحد منهم أداة طيعة لينة في أيدي الحريم . وكان كل واحد منهم يدرك أيضاً أن تباطؤه في تنفيذ أمر يصدر إليه منهن كان كفيلاً بزمه من منصبه . ومع ذلك فإن سيدات الفتة الأولى في الحريم السلطاني كن يعمدن إلى تغيير الصدور العظام متى حقق الأخيرون الأغراض التي من أجلها حينوا في مناصبهم .

وكان يراعى في اختيار الصدور العظام في تلك الفترة عدة اعتبارات تتعارض مع المصالح العليا للدولة . وكان من بين هذه الاعتبارات ما عرف عن الواحد منهم من السلبية أو ضعف الشخصية أو ضيق الأفق العقلي أو مصاهرته للسلطان الحاكم كأن يكون متزوجاً من ابنته أو أخته ، أو يكون ذا سن متقدمة جداً . وسرى عند عرض مراكز القوى في الحريم السلطاني أن أحد الصدور العظام تولى منصبه الخطير وقد بلغ من الكبر عتياً ، إذ كان

---

(١) سبق أن سجلنا عليه بعض المآخذ . انظر في هذه الدراسة ص ٢٦٨ ، وهناك فريق من الباحثين يرمون صوقلو باشا مكاناً علياً في تاريخ الدولة العثمانية . والواقع أن هذه الشخصية كانت تجمع بين جوانب حسنة وأخرى سيئة .

عمره وقتذاك مائة عام . وكان هناك صلب أعظم آخر بلغ من العمر تسعين عاماً وكان ذلك على عهد السلطان أحمد الأول . وقد عهد إليه السلطان لإجراء مفاوضات مع شاه الدولة الصفوية ، عباس الأول الكبير ، لتحديد الحدود بين الدولتين . ولكنه لم يكد يبدأ المفاوضات حتى لفظ أنفاسه الأخيرة وسقط جثة هامدة أمام مائدة المفاوضات (١) . وكان الدولة قد أجذبت أو أصيبت بالعمم . فلم تكن لديها كفايات سياسية أو إدارية أو حرية يكون أصحابها في حنفوان الرجولة ومضاء العزيمة ورحابة الأفق العقل وقوة الذاكرة . ولكنها كانت سياسة مرسومة من سيدات الحرير السلطاني ، إذ كن يرتحن لمثل هذه النوعية من الصبور العظام . وهكذا غدت الدولة تجمع بين المتناقضات : سلطان يتبوأ العرش وهو في سن السابعة أو الثانية عشرة أو الرابعة عشرة ، وفيها صلب أعظم يتقلد منصبه وهو في سن المائة ، وغدا رجلاً طاعناً في السن ومن العظم منه . والاثنتان - السلطان والصبر الأعظم - لا يصلحان لحكم دولة من كبرى دول العالم وتمتد أقاليمها في ثلاث قارات وتربص بها معظم الدول الأوروبية الدوائر .

ولما انصرف السلاطين عن حضور ورياسة جلسات الديوان الهمايوني وعن مراقبة مناقشات أعضائه من وراء ستار ، كما سبق أن ذكرنا ، انتهزت سيدات الفتنة الأولى من الحرير السلطاني هذه الفرصة ، فبددن نفوذهن إلى هذا الديوان الذي كان أعلى هيئة أو مجلس في الدولة . وأصبح هذا الديوان برئاسة الصبر الأعظم يخضع لتوجيهاتهن . ومن أجل المحافظة على حياتهم وعلى مناصبهم ترك الصبور العظام أو تلك السيدات يتدخلن في اختصاصاتهم .

وكان الصبور العظام يتأهبهم الخوف بل اللذر إذا عمدت الفياقق الإنكشارية أو فرق عسكرية أخرى إلى التمرد كوسيلة للضغط على الحكومة لإجابة مطالبهم . وبدلاً من أن يواجه الصبر الأعظم الموقف منذ بدايته بجزم ، كان يتركه يتفاقم . وتكون نتيجة هذا التمرد من ناحية ، والتراخي

في معالجته من ناحية أخرى ، عزل الصدر الأعظم بل وعزل السلطان أيضاً وقتل الاثنين معاً .

وكان الصدر العظام - شعوراً منهم بضعف مراكزهم تجاه مراكز القوى في الحريم السلطاني - ينشدون تأييد الفياقق الإنكشارية أو فرق السباهي - الإسماعيلية - لهم . وكان أفراد كل من هذين السلاحين يضمرون العداوة والبغضاء لأفراد السلاح الآخر . وأسرف الصدر العظام في تقديم المنح والامتيازات وإجراء الترقية السريعة لأفراد السلاح المؤيد لهم كضمان لاستمرار تأييدهم العسكري . ولكن كان العسكريون يطلبون المزيد . وفي إحدى المرات فتح مير حسين باشا الصدر الأعظم للإنكشارية المؤيدين له المخازن السلطانية يأخذون منها اللحوم والشموع وكل ما هو ضروري لهم . وقال لهم هذا الصدر الأعظم « الحمد لله ، إن البادشاه - أي : السلطان - رجل واسع الثراء » (١) . وثار أفراد سلاح السباهي وطالبوا بالمعاملة بالمثل من هذا الصدر الأعظم فيأذن لهم في أخذ بعض الأواني الفضية . وفي دجى الليل كانوا يسرون في شوارع العاصمة يهبون ويقتلون ويشعلون الحرائق . وكان إستانبول مدينة معادية فتحت عنوة . وكان مير حسين باشا لا يستطيع لهم دفعاً . وفي ذات الوقت رفضت الفياقق الإنكشارية المؤيدة أن تخوض صراعاً حريياً أو صداماً دموياً رهيباً ضد فرق السباهية من أجل صدر أعظم كان الإنكشارية يعلمون أنه عما قليل مقصى عن منصبه .

وعقب الانقلاب الذي تم في الأيام الأولى من شهر أغسطس - آب - عام ١٦٤٨ والذي كان من بين نتائجه خلع وشنق السلطان إبراهيم المعنوه وتولية ابنه السلطان محمد الرابع البالغ من العمر وقتذاك سبع سنوات - أدلى أحد الذين شاركوا في هذا الانقلاب بتصريح جاء فيه « إنه من الممكن مع ارتقاء العرش سلطان حدث ، أن يشغل منصب الصدارة العظمى رجل حصيف في مقدوره أن يضع الأمور في نصابها » . ولكن كان هذا الرأي

Lavisse et Rambaud; op. cit., t.v, p 851.

(١)

Loc. cit .

(٢)

سراباً ، ويدل على جهل صاحبه بحقيقة الأوضاع في الدولة في ذلك الوقت ، لأن تعيين الصدور العظام كان يخضع لتوجيهات أو رغبات أو أوامر سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطاني ليستمر نفوذهن في تصاعد ويكون الصدور العظام أدوات طيعة في أيديهن .

### بلطه جى باشا يتشاهى رشوة :

لم يكن بعض الصدور العظام في تلك الفترة فوق مستوى الشبهات . ونذكر على سبيل المثال بلطه جى محمد باشا الصدر الأعظم على عهد السلطان أحمد الثالث ( ١٧٠٣ - ١٧٣٠ ) فقد رددت الألسنة أنه تقاضى رشا (١) من بطرس الأكبر قيصر روسيا ( ١٦٨٢ - ١٧٢٥ ) حين أطبقت عليه الجيوش العثمانية عام ١٧١١ وهو يسير جنوباً بمحاذاة نهر بروث . فلم يجد بداً من طلب الصلح . واستجاب بلطه جى محمد باشا لطلب القيصر وعقد اتفاق أو سلم بروث (٢) في الثالث والعشرين من شهر يوليو - تموز - ١٧١١ وتنازل بطرس عن آزوف ، ووافق على هدم القلاع المعترض على إقامتها ، وتمهد بعدم الزج بنفسه في شئون تار القرم أو في شئون بولنده ، وبألا يعود إلى تعيين سفير له في إستاتنبول ، وأن يكف عن التآمر مع رعايا السلطان الأرثوذكس . واقضح أنه كان في استطاعة الصدر الأعظم أن يجبر القيصر على قبول جميع مطالب الدولة نظراً لخرج مركزه الحربى . ومن ثم قامت الشبهات قوية حول بلطه جى محمد باشا أنه أخذ رشا حتى ارتضى التوقيع على هذا الاتفاق الذى انطوى على تسامح وسخاء . ويذكر بعض

(١) رشا بضم اللام جمع رشوة بكسر الراء .

(٢) يرد اسم هذا الاتفاق في المراجع الإنجليزية على أحد هذين النحويين :

Agreement of Pruth

Peace of Pruth.

Traité du Pruth

ويرد في المراجع الفرنسية مساعدة بروث

ولعله المعادة اسم آخر تعرف به ، هو : فالكسن Falksen

انظر : Lavisse et Rambaud ; op. cit., tome V1, pp. 810—812

Reddaway W.F.; A History of Europe 1610—1715.

London, 1967, p. 437.

لأورخين أن كاترين الأولى (١) قد ضحّت بجميع مجوهراتها وحليها وأمور أخرى ، إذ أوعزت إلى زوجها بطرس الأكبر بأن يقدم هذه الثروة الهائلة إلى بلطه جي محمد باشا الذى ضعف أمام هذا الإغراء المالى وغير المالى ، ووافق على إبرام معاهدة بروث (٢) .

### صانع حلوى يغدو صدراً أعظم :

كانت نوعية بعض الصدور العظام مثار إعجاب الجماهير عليهم . كانوا من حصيلة ضريبة الغلمان وأعلنوا إعداداً طويلاً لشغل المناصب القيادية ، العسكرية أو المدنية فى الدولة ، ولكن تسلسل إلى صفوفهم - نتيجة حماقة أو سداجة بعض السلاطين - رجال بدأوا حياتهم بداية متواضعة وفى مجالات لا تمت بصلة إلى اختصاصات الصدر الأعظم فى دولة من كبرى دول العالم . نذكر من هذا الفريق رجلاً يسمى إبراهيم . بدأ حياته صانع حلوى فى إسكى سراى - أى السراى القديم فى إستانبول - وهى حرفة يطلق على شاغلها فى اللغة التركية « حلوجى » ، واكتسب إعجاب السلطان أحمد الثالث ، وأخذ صفياً له . وظل يتدرج فى مناصب الخليفة الخارجية فى السراى القديم وفى مناصب أخرى فى إستانبول والأقاليم . ثم انتهى به الأمر إلى أن زوجه السلطان إحدى بناته ، وهى الأميرة فاطمة ، فى عام ١٧١٧ وكانت تبلغ من العمر وقتئذ ثلاث عشرة سنة . واكتسب « العريس » لقب داماد ، فأصبح اسمه إبراهيم باشا داماد (٣) أى إبراهيم باشا صهر السلطان ، وحينه

(١) تنحدر كاترين الأولى من أسرة فقيرة . تزوجت فى مطلع شبابها جندياً من السويد ، ثم وقعت أسيرة فى يد الروس سنة ١٧٠٢ ، وكانت على حظ موفور جداً من الجمال ، فأحببها الأمير منشكوف وأخذها خليلته له . وفى عام ١٧١١ وقعت أبصار بطرس الأكبر عليها فهام بحبها وأخذها حبيته له ، وراقته فى معظم حروبه . وبعد أن أنجبت منه عدداً من الأولاد تزوجها رسمياً وتوجها إمبراطورة فى عام ١٧٢٤ . ولما توفى القيصر فى السنة التالية . خلفته فى حكم الدولة وتوفيت سنة ١٧٢٧ .

Huart Cl.; Encycl. of Islam. Art. Ahmed III .

(٢)

(٣) توجد فى تاريخ الدولة شخصية أخرى تحمل ذات الاسم وذات اللقب ، وهى شخصية إبراهيم باشا داماد . وكان صفياً للسلطان مراد الثالث ، وتولى منصب الصدرة العظمى ثلاث

السلطان صديقاً أعظم وظل يشغل منصبه اثنتي عشرة سنة حتى قام الشعب بفتنة خطيرة في شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٧٣٠ أسفرت عن سقوط إبراهيم باشا وخلع أحمد الثالث. وقد رفض السلطان تسليم صفيه حياً إلى الشعب الناثر فشققه في القصر في ٣٠ من سبتمبر - أيلول - عام ١٧٣٠ وفي اليوم التالي اضطر السلطان إلى التنازل عن العرش.

كان تضامون نفوذ السلاطين والصدور العظام يسير سيراً عكسياً مع زيادة نفوذ الحريم السلطاني ، بمعنى أنه كلما انكش نفوذ السلاطين والصدور العظام ازداد نفوذ مراكز القوى في الحريم السلطاني علواً وطغياناً . وينطبق هذا الحكم العام على محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم أيضاً . وقد سبق أن التقينا به في هذه اللواسة . ونضيف هنا أنه استحال عليه ممارسة اختصاصات منصبه أمام مراكز القوى في الحريم السلطاني ، وتعلم عليه الاتصال بالسلطان مراد الثالث أو التعاون معه على الرغم من أنه كان متزوجاً من الأميرة إسماحت أخت السلطان . لم تشفع له خدماته التي أسداها للدولة ولا مصاهرته للسلطان . ورؤى التخلص منه ودخل الجاني متنكراً في زي أحد الدراويش إلى مجلسه بحجة تقديم شكوى له . وطعنه بخنجر في قلبه فأرداه قتيلًا في الحال . وقد وقع حادث اغتياله في اليوم الحادي عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٥٧٩ بعد مضي أربع سنوات من تولى مراد الثالث العرش . ولم تشغل شخصية قوية منصب الصدارة العظمى إلا بعد قرن من الزمان بتعيين محمد كوبرلي باشا .

### روكسلانه ذات الوجه الباسم مركز قوة خطير في الدولة :

ومن أبرز الأمثلة على استفحال نفوذ الحريم السلطاني المور التي قامت

= مرات حل عهد خلفه السلطان محمد الثالث . وتزوج الأميرة عائشة ابنة السلطان مراد الرابع في آخر شهر مايو - آيار - ١٥٨٦ .

وفي تاريخ الدولة يوجد سمي آخر هو إبراهيم باشا كان صديقاً للسلطان سليمان المشرع الذي عينه صديقاً أعظم ومنحه اختصاصات واسعة في الحكم . وحضر السلطان حفل زفافه في ٢٢ مايو - آيار - عام ١٥٢٤ وكان يوماً مشهوداً في التاريخ العثماني . وكانت نهاية هذا الصدر الأعظم مروعة ، إذ أمر السلطان بإعدامه فجأة نتيجة مؤامرة دبرتها روكسلانه قاذبة السلطان ، وكان ذلك في ١٥ مارس - آذار - ١٥٣٦ . وسنلتق بهذه الشخصية في مواطن قادمة في هذا الفصل .



به روكسلانه Roxelane ، وهى روسية الأصل اختطفها  
تجار الرقيق من ذوبها فى بلاد القوقاز . وكانت ابنة لأحد رجال الدين واسمه  
دى روجالينو de Rogalino ، وباعوها للسلطان سليمان  
المشرع فألحقها بالحریم السلطانى . واستهلكت حياتها الجديدة فى القصر كجارية .  
كانت على حظ موفور جداً من جمال الخلقة والفرقة وخفة الروح  
ورهاقة الشعور . وكان يطلق عليها خورم ، Kourrem ، وهى لفظة تركية  
معناها الباسمة ، أو ذات الوجه الباسم . كما عرفت باسم روكسلانه Roxelane  
أى الروسية . هام بها السلطان سليمان المشرع ، وبلغ حبه لها شغاف قلبه فأعتقها  
وأنجب منها ذكوراً ولاناثاً ، وارتفعت مكانتها طبقاً لقواعد البروتوكول  
من جارية إلى قادين وظل حبه لها نبياً نصيراً يتفياً ظلالة عن يمين ويسار .  
وسيطرت على قلب السلطان وحقله معاً ، فأصبحت مستشاره الأول فى  
شئون الدولة (١) . واحتجب فى قصره لأنه كان لا يطيق عنها بعداً . وتحلى  
عن قيادة الحملات الحربية . وكان وجوده فى ساحات الحرب يثير حماس  
الجنود . واحتاد الإنكشارية ألا يخرجوا للحرب إلا والسلطان يقود الحملة .  
وكانت أوروبا تدرك جيداً مدى النفوذ العريض . والرهيب الذى كانت تتمتع  
به روكسلانه . وأجمت آراء المعاصرين لها على أنها كانت السيدة الأولى فى  
الدولة العثمانية ، وكانت تمنحها جباه الجميع ، ويتضاءل أى نفوذ فى الدولة  
أمام شخصيتها الطاغية وذكائها اللامع .

أرادت روكسلانه أن يكون ابنها الأمير سليم ولياً للعهد بدلاً من الأمير  
مصطفى ، وهو الابن الأكبر للسلطان سليمان من زوجة أخرى شركسية .  
ودبرت روكسلانه مؤامرة محكمة لتحقيق آمانيها . وكان أول خيوط هذه  
المؤامرة لإفساد الجو العائلى بين السلطان وزوجته الشركسية . افتعلت مشادة  
كلامية مع غريمها . وبدأت هذه المشادة بالمقارنة بين النشأة الأولى لكل  
منهما . وتطورت المناقشة إلى الاشتباك بالأيدي . واصطنعت روكسلانه  
الضعف وتركت غريمها تنال عليها ضرباً ولكها ، وشدت شعر رأسها  
وزنعت بعضاً منه ، وتمادت الزوجة الشركسية فخلشت وجه روكسلانه

بأظافرها بحيث أصبحت آثار الخلعوش بادية على وجهها . ونالت منها منالاً كبيراً، وهذا ما كانت تبغنيه روكسلانه . واحتجبت عن السلطان على غير عادتها ، واستبد به القلق عليها . وأرسل يستدعيها ، فاحتذرت عن علم الحضور إليه . وتكرر الاستدعاء والاعتذار . وفي آخر الأمر أرسلت إليه رسالة شفوية قالت فيها إنها غير جديرة بالظهور أمام السلطان ، لأنها « لحم يباع ويشترى » ، وهى العبارة التى أطلقتها عليها الزوجة الشركسية . وأصر السلطان على حضورها . فجاءته على استحياء وتظاهرت بتأثرها الشديد لما وقع لها من إهانات بالغة . وكانت الدموع تنهمر من مقلتها ، وآثار الخلعوش والكدمات بادية على خديها . وكان شعرها غير منظم . وقصت عليه ما حدث لها من زوجته الشركسية . واثارت ثائرة السلطان على الأخيرة . وقال إنها لا تستحق معه تقديراً (١) . ونجحت حيلة روكسلانه فى إفساد الجو بين السلطان وزوجه الأولى .

مضت روكسلانه بعد ذلك فى تنفيذ حلقات المؤامرة . فنقلت الأمير مصطفى ولى العهد وابن غريمته حاكماً على آماسيا (٢) *Amasia* كى يكون بعيداً عن إستانبول مقر الحكم وعن « وإمراتها » (٣) . ثم التفت إلى إبراهيم باشا الصدر الأعظم فطلبت من زوجها السلطان سليمان عزله من منصبه . وكان هذا الرجل الألبانى (٤) من نخيرة الصنوبر العظام على عهد السلطان سليمان وثقه النامة وتقديره العميق . وقد زوجه السلطان من إحدى شقيقاته . وكان يخرج مع السلطان فى الحملات العسكرية فى

(١) نشر المؤرخ الفرنسى رامبو لغرات من تقرير وقعه عام ١٥٥٣ من هذا الحادث برناردو نايجيرو *Bernardo Navgero* مثل جمهورية البندالية لدى السلطان المبانى فى إستانبول .

انظر المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٧٦١ حاشية رقم ١ .

(٢) مدينة فى الأناضول ، وتقع على نهر ليكى إرماك *Yechil-Irmack* . وتسمى شهرتها من أنها كانت مسقط رأس سترابون *Strabon* الجغرافى اليونانى المشهور .

ويكتب اسم هذه المدينة فى بعض المراجع الفرنسية *Amasiah* .

(٣) كان الأمير مصطفى حاكماً على ماغنيسيا *Magnesie* وهى فى إقليم ليديا فى الأناضول وقرية نسيماً من إستانبول . وكان يستغرق السفر إليها من العاصمة بقصة أيام .

أما آماسيا فكانت تهدد من إستانبول بحسيرة خمسة وعشرين يوماً فى ذلك الوقت .

(٤) تذكر بعض المراجع أن إبراهيم باشا كان يونانى الأصل .

أوروبا وآسيا . وكان له دور بارز في الانتصارات الحربية على الدولة الصفوية في فارس . وأكمل فتح إقليم آذربيجان ، واتجه إلى العراق وفتح بغداد في آخر عام ١٥٣٤ ودخلها السلطان سليمان في يناير - كانون ثان - ١٥٣٥ . وكان السلطان ينييه في إجراء المفاوضات مع الدول (١) . وكان على حظه موفور من العم والثقة والتدين وراعياً للشعراء والفنانين العثمانيين . واستجاب السلطان سليمان لرغبة روكسلانه ، ف عزل إبراهيم باشا الصدر الأعظم من منصبه . ولكنها لم تقنع بهذا العزل ، بل طلبت من زوجها قتله . وتم اغتياله في اليوم الخامس من شهر مارس - آذار - عام ١٥٣٦ وهو يدخل القصر السلطاني ليلا ليتناول طعام العشاء على مائدة السلطان . ولم تشفع له انتصاراته وإنجازاته عند السلطان . وهكذا قتل الصدر الأعظم غيلة دون أن يوجه إليه اتهام أو يقدم لمحاكمة . وكان اغتيال إبراهيم باشا فرصة ذهبية لروكسلانه لإطلاق يدها في استكمال حلقات المؤامرة . ووقع اختيارها بعد فترة على أحد الباشوات ، ويدهى رسمه باشا ، اطاعت اليه ليكون حوناً لها في تحقيق حلمها بتعيين ابنها ولياً للعهد ، وزوجه لإحدى بناتها واسمها محرمه Mihrmah . وطلبت من زوجها تعيينه صديقاً . حقق السلطان رغبة روكسلانه . وأصبح الصدر الأعظم العوي في يدها تحركه كيف شاءت وأنى شاءت . وتحقيقاً لرغبتها واسترضاء لها أغلق السلطان الكثير من الرعايا على صهره رسمه باشا . وانتهز الأخير مصاهرته للسلطان ، ف لجأ إلى وسائل الكسب غير المشروع طمعاً في الإثراء الحرام والسريع . وغض السلطان الطرف عن انحرافاته واستغفاله المشين لمنصبه الكبير ، فوضع يده على عدة قرى كبيرة من أملاك الدولة ، وأوقف على نفسه « التيارات » وهي الأرض الزراعية التي كانت تعطى لطوائف من العسكريين طبقاً للنظام الإقطاعي العسكري (٢) . ولما اشتعلت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية مرة أخرى عام ١٥٤٨ سحنت لها الفرصة التي طال انتظارها لها للتخلص من ولي العهد الأمير مصطفى .

(١) انظر عرضاً للإنجازات التي قام بها إبراهيم باشا في :

Lavisse et Rambaud; op. cit. t. IV, p. 762.

(٢) سبق أن تعرضنا في هذه الدراسة لهذا النظام .

انظر ص ص ١٣١ - ١٣٣ .

ويقال إن هذه الحرب قد قامت بإيعاز منها ، ويقال في هذا الصدد أيضاً إن روكتسلانه كانت تتبادل مراسلات مع زوجه طماسب الأول Tamsap I ( ١٥٢٤-١٥٧٦ ) شاه الدولة الصفوية . واتفقت السلطنة روكتسلانه مع رستم باشا على إيفار صدر السلطان إيفاراً حنيفاً على ابنه وولى عهده الأمير مصطفى . فأدخل رستم باشا في روع السلطان أن ولى العهد يتآمر مع الفرس لتحقيق مآرب شخصية له ، ثم عاد فأبلغ السلطان أنه سمع الجنود الإنكشارية يقولون إن السلطان قد غدا رجلاً طاعناً في السن ووهن العظم منه بحيث لا يستطيع أن يخوض المعارك ، وقد حان الآوان للمناداة بالأمير مصطفى سلطاناً وتنحية والده رحمة به وشفقة عليه . وقد فعلت هذه الرشاية فعلها . وأصبح الأب يتوجس خيفة من ابنه وولى عهده . وانتهى رأياً إلى ضرورة التخلص منه بقتله . ولكنه أراد أن يطمئن إلى سلامة الفعلة النكراء التي أزمع تنفيذها ، أو لعله أراد أن يضنى عليها صبغة شرعية إسلامية . فعرض على شيخ الإسلام أبي سعود الموضوع بعد أن غير معالنه الشكلية واستطلع رأيه في هذه المسألة . وقد عرضها السلطان سليمان المشرع على شيخ الإسلام بقوله إنه كان في إستانبول تاجر رى ذو مركز اجتماعى مرموق . وتطلبت تجارتها أن يغيب عن العاصمة بعض الوقت . وعهد إلى عبد له كثيراً ما أحسن إليه أن يشرف على أعماله ويرعى في ذات الوقت زوجته وأولاده في أثناء غيابه. ورأى التاجر أن يبلغ زوجته وأولاده أنه عهد إلى هذا العبد برعايتهم في أثناء غيابه . ولم يكذ التاجر يفادر إستانبول حتى سعى العبد لاختلاس أموال سيده وتدمير تجارتها وتآمر على حياة زوجته وأولاده . وخلص السلطان سليمان من هذه القصة الخيالية إلى سؤال طرحه على شيخ الإسلام ليجيب عليه : ما هى العقوبة العادلة التي يستحقها هذا العبد ؟ فأجاب أنه يستحق الإعدام . يقول ليبير الأمريكى - الذى نقلنا عنه هذه الرواية (١) إن هذه الفتوى التي

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 213.

(١)

وقد نقلها من كتاب وضعه باللاتينية أحد السفراء في إستانبول على عهد السلطان سليمان المشرع تناول فيه تاريخ الدولة العثمانية، وكان سفيراً للملك شارل الخامس، وأقام في إستانبول من عام ١٥٥٥ إلى عام ١٥٦٢ واسمه

De Busbecq Ogier Ghiselin; Life and Letters. Translated by C.T. Forster and F.H. B. Daniel, 2 vols. London, 1881. vol. I, pp. 116—117 .

صلرت عن شيخ الإسلام - سواء كانت تعبيراً حقيقياً عن رأيه في ضوء الشريعة الإسلامية أو أنه أصلر هذه الفتوى بإيعاز من رسم باشا أو من روكسلانه - فلنأخذ - أى الفتوى - جعلت السلطان سليمان يزداد تصميماً على قتل ابنه وولى عهد هذه الأمير مصطفى تأسيساً على أن خيانة الابن لوالده لا تقل في بشاعتها عن خيانة العبد لسيدته التاجر في إستانبول (١) . وبعث سليمان في استدعاء ابنه إلى أماسيا حيث كان يقيم السلطان مع جيشه . وخصى أصدقاء الابن مغبة هذه المقابلة ونصحوه بعدم الذهاب إلى والده . ولكنهم رفضوا ، وقال إن طاعة والدين أمر يفرضه الدين . وإنه لم يرتكب عملاً يخشى منه غضب والده ، وإنه إذا قتله فهو على كل حال والده ، وهو الذى أتى به إلى هذه الحياة . ولما دخل الابن على أبيه في خيمته أعطى الأخير إشارة معينة ، فانقض عليه ثلاثة من الجلادين وقتلوه . وكان ذلك في اليوم الحادى والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٥٣ ، وكان من سوء حظ الدولة العثمانية أن تمت هذه الفعلة الشنعاء ، إذ كان من بين نتائجها :

أولاً : حرمان الدولة من سلطان مرتقب هو الأمير مصطفى أجمع معاصروه على أنه كان يتمتع بكفايات ممتازة تجعله جديراً بارتقاء العرش خلفاً لسلطان عظيم هو سليمان المشرع .

ثانياً : اندلاع حرب أهلية في الدولة . فقد كان الأمير سليم أكبر أبناء السلطنة روكسلانه موضع احتقار شديد من الفيالق الإنكشارية . وكانت تصرفاته المشينة موضوع حديث الجاهلير . ثم وقف لجيش في وجهه بصفته ولياً للعهد . فدأبت الآمال الابن الثانى لروكسلانه ، وهو الأمير أبو يزيد ، كان حاكماً على إقليم قرمان Karamine في جنوبى آسيا الصغرى ، وأراد أن يستأثر بولاية العهد دون أخيه الأكبر . واستعان بقوات من الجيش . واندلعت حرب أهلية ، وحدث انقسام خطير في صفوف الجيش . وماتت السلطنة روكسلانه في مستهل هذه الحرب . وحزن زوجها عليها حزناً شديداً أصبح مضرب الأمثال في وفاء بعض الأزواج لزوجاتهم بعد رحيلهن عن

هذه الحياة الدنيا . وعلى الرغم من حزنه ومن شيخوخته سار السلطان على رأس قوات من جيشه لمحاربة ابنه الأمير أبي يزيد . واستطاع السلطان سليمان وابنه الأمير سليم إيقاع هزيمة ساحقة بالأمير أبي يزيد في قوته عام ١٥٥٩ ، وفر الأمير المهزوم إلى فارس . وطلب والده من طاسب الأول شاه الدولة الصفوية تسليم الأمير اللاجيء . وقبل الشاه بعد أن تقاضى أربعمائة ألف قطعة ذهبية . وكانت نهاية هذا الأمير العنصر مروعة . فقد ذبح هو وأولاده الخمسة عام ١٥٦١ (١) وكان انصياع السلطان سليمان المشرع لزوجته روكسلانة وتلفه على استرضائها على أى نحو من الأنحاء ، والمذابح التى قام بها في نطاق الأسرة الحاكمة ، نقطاً سوداء في تاريخ هذا السلطان الذى يعد من أعظم سلاطين الدولة العثمانية سواء في الحرب أو السياسة أو التشريع أو التعبير الذى يتمثل في بناء مسجده الكبير الرائع في إستانبول بالإضافة إلى أكثر من ثمانين مسجداً كبيراً واثنين وخمسين مسجداً صغيراً والكتائب التى أنشأها لحفظ القرآن الكريم والمعاهد للدراسة والمستشفيات والمطاعم العامة والمحميات العامة والمتاحف والقصور وغيرها من المنشآت العمرانية (٢) . وينطبق عليه المثل الفرنسى المشهور *cherchez la femme* أى ابحث عن المرأة . ولم تكن هذه السيدة سوى روكسلانة زوجته وهى جودته اتخذها مثله الأدل بين نساء العالمين .

**ثالثاً :** انتقل وراثة العرش ظلماً وغدراً إلى الأمير سليم الذى ارتقى العرش باسم السلطان سليم الثانى (١٥٦٦-١٥٧٤) عقب وفاة والده السلطان سليمان المشرع (٣) . وكانت حياته الخاصة تتشعب بأقندر أنواع الرذائل التى

---

(١) Lavisse et Rambaud; op. cit., tome IV pp. 763—764.

(٢) أنظر مرصفاً شاملاً لمنشأته المعمورة سواء في مكة المكرمة أو بيت المقدس أو بغداد أو قونية وغيرها في :

دكتور عبد العزيز عبد الشاوى : أوروبا في مطلع الخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ص ٦٨٦ - ٦٨٨ .

(٣) جاز السلطان سليمان المشرع إلى ربه ليلة ٥ - ٦ سبتمبر - أيلول - عام ١٥٦٦ ليلة =

يشعر الإنسان بالخجل عند سماعها ، إلى جانب إسراره في تناول الخمر . وكان لا يفتق من سكره إلا لماما . وأطلقت عليه الجاهير - من باب التهمك عليه والسخرية به - سليم مست ، أى سليم السكر ، وأطلق عليه سليم نصف الرسمى le demi - Russe إشارة إلى أن والدته روكسلانه كانت روسية . وكان يقضى أوقاته في داخل القصر يمارس هواياته في شرب الخمر ومطلقاً العنان لشهواته البهيمية ، ومسامراً حثالة الناس الذين كان بعضهم في حاشيته . ولم يذهب هذا السلطان قط إلى ساحة قتال . ويقرر أحد كبار المؤرخين الفرنسيين أن سليماً الثاني كان أول سلطان في الدولة العثمانية لم يخرج إلى الحرب . ويوجز هذا المؤرخ بعض هذه المعالم الرئيسية في الحياة الخاصة والحياة العامة للسلطان سليم الثاني في هذه العبارات :

Sélim. II, le demi-Russe, fut sur le trône une manière de roi fainéant. Le fils de ce Soliman qui avait passé sa vie en chevauchées est le premier des sultans osmanlis qui n'ait jamais paru dans les camps. Il passait ses jours au fond du Sérail, livré à tous les vices, même les plus honteux. Il lui en est resté le surnom de Sélim Mest (Sélim l'ivrogne). (١)

والترماً بالموضوعية نقول إنه تم في عهده إرسال حملة عسكرية بقيادة سنان باشا عام ١٥٦٩ إلى اليمن لإعادة السيطرة العثمانية على هذه البلاد ، وهي

١٩٠٠ - ٢٠ صفر سنة ٩٧٤ عن ثلاث وسبعين سنة قفى منها سباً وأربعين سنة في الحكم . ويلاحظ أنه ولد في اليوم السابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٤٩٤ (غرة شعبان ٩٠٠) . وقد قفى نحبه وهو بعيد عن العاصمة ، إذ كان على رأس الجيش إلى مدينة أرلو وهي في بلاد المغرب في الشمال الشرق من مدينة بود (بودابست) على مسافة مائة وثمانين كيلو متراً . وعلم وهو في الطريق إليها أن أمير سكندوار ، وهي مدينة في بلاد المغرب تشتهر بصناعة النبل ، قد أعلن العصيان . فرأى أن يحجه إليها أولاً . واحتل مآقلاها الأمامية ، فأغل جنودها مواقم خفية واحتلوا بقلعتها . واشتد عليه المرض في أثناء العمليات الحربية ولفظ أنفاسه الأخيرة . وأخى محمد صوقلو باشا نبأ وفاته عن الجيش . وأذاع أن السلطان مريض ولا يستطيع مقابلة أحد . وأبلغ ابنه سليم الثاني ، فاصرح بالسفر إلى إستانبول حيث قفى فيها يومين ، ثم استأنف سفره إلى سكندوار لمرافقة جئان والده إلى إستانبول . ولما بلغ صوفيا أذاع سليم في ٦ من أكتوبر - تشرين أول - ١٥٦٦ وفاة والده وتولية العرش . ثم قصد مدينة بلغراد ومكث فيها حتى وصل محمد صوقلو باشا ومعه جئان سليمان وعاد الجميع إلى إستانبول .

الحملة التي يطلق عليها بعض الباحثين تجاوزاً الفتح العثماني الثاني لليمن . كما تم لإبان حكم سليم الثاني فتح جزيرة قبرص ( ١٥٧٠-١٥٧١ ) . ويرجع هذا النجاح العسكري إلى قوة الدفع التي كانت لا تزال كامنة في الدولة بعد حكم والده السلطان سليمان المشرع . وكانت شعلة الجهاد لا تزال مشتعلة في نفوس أفراد القوات المسلحة العثمانية ووجود شخصيات عثمانية قوية وزينة تركها سليمان لابنه في المراكز القيادية في الدولة . ومع ذلك فإن فتح قبرص يرتبط بواقعة تسمى إلى سمعة سليم الثاني . كان في حاشيته صديق حميم من مثالة اليهود يسمى جوزيف ناسي Joseph Nassi كان يسمى أول الأمر دون ميجيه Don Miguez وهومن البرتغال . ونجح في التسلل إلى حاشية السلطان . وفي ظل شتى أنواع الانحراف الخلقى الذي تردى فيه سليم الثاني تمتع اليهودى بنفوذ كبير لديه . وزين له غزو جزيرة ناكسوس Naxos وتم استيلاء العثمانيين عليها عام ١٥٦٧ ، وبلغ من حظوة اليهودى لدى سليم أن الأخير أعطاه جزيرة ناكسوس إقطاعاً له . ولم تمض سنوات معدودة حتى تجاسر اليهودى وأعلن نفسه دوقاً عليها « بفضل الله » . ولم تقف أطماع اليهودى عند هذا الحد ، بل زين للسلطان فتح جزيرة قبرص على أمل أن يأخذها إقطاعاً له . وكان من بين الأسانيد التي ساقها اليهودى للسلطان أن نبيل قبرص لا يضارعه نبيل آخر في العالم . وفي نشوة الخمر والملذات قال سليم لليهودى : « ستكون ملكاً على قبرص » (١).

وعلى عهد هذا السلطان السكير والنصف روسي والمنحرف خلقياً ، تعرضت الدولة لكارثة حرية دينية قومية . إذ تكون حلف صليبي أوروبي ضدها . وكان قوام هذا الحلف : إسبانيا ، وجمهورية البندقية ، والبابوية في روما ، وتسكانيا، وجنوا، وسافوى، وبارما Parme ، وماندو Mandoue ، وفارارا Ferrare وغيرها من الكيانات السياسية في شبه الجزيرة الإيطالية ، وكللك فرسان القديس يوحنا في جزيرة مالطة . وكان من بين أسباب قيام

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع ألخ ، مرجع

سبق ذكره ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ٧٦٢ - ٧٦٣ .



هذا التحالف الصليبي ما تراه إلى مسامع ملوك وروثاء هذه الدول والكيانات السياسية من أبناء ضافية عن انصراف ساييم الثاني عن شئون الدولة والرغبة في القضاء على وجودها في البحر المتوسط واسترجاع المكاسب الإقليمية التي حققها والده السلطان سليمان . واشتبكت القوات البحرية لدول هذا الحلف الصليبي ، وكان عدد سفنها مائتين وخمسين سفينة ، مع الأسطول العثماني وكان عدد سفنه ثلاثمائة سفينة في معركة لپانت (١) Lepanto في السابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٧١ ، ولم تستمر المعركة أكثر من ثلاث ساعات. وعلى الرغم من الخسائر الكبيرة التي تكبدها أعضاء الحلف الصليبي في السفن والأرواح ، إلا أن خسائر العثمانيين كانت فادحة . فقد تحطم الأسطول العثماني . غرقت معظم سفنه ، وأسرت سفن أخرى ، ولاذت بالفرار ثلاث عشرة سفينة . وقتل في المعركة القبطان باشا وعدد من الباشوات والبهكوات وحكام بعض الأقاليم العثمانية . وبلغت خسائر الدولة في الأفراد زهاء عشرين ألفاً (٢) . وكان البابا بيوس الخامس Pius V هو المخطط والمحرك الأول لهذا الحلف (٣) ويطلق المؤرخون على هذه الحرب La Croisade Chrétienne أى الحرب الصليبية المسيحية (٤) . وكانت معركة لپانت إحدى معركتين بحريتين كبيرتين وقعتا في القرن السادس عشر (٥) .

وقابل العالم المسيحي بابتهاج شديد أبناء الهزيمة التي نزلت بالدولة العثمانية بصفتها دولة الإسلام الكبرى. وأقيمت في كنائس جميع أنحاء العالم المسيحي صلاة شكر to Deum لانتصار المسيحية على الإسلام . ونظمت الاحتفالات

(١) يطلق اسم لپانت على مضيق يصل خليج باتراس Patras بخلج كورنت Corinthe ، ولپانت حالياً ثغر بحري يوناني .

(٢) انظر وصفاً تفصيلياً لمعركة لپانت وخسائر الجانبين في :

Lavisse et Rambaud; op. cit. t. v, pp. 859—862.

Loc. Cit.

(٣)

Loc.Cit.

(٤)

(٥) كانت المعركة الثانية هي معركة الأرمادا البحرية عام ١٥٨٨ ، وقد استطاع فيها

الأسطول البريطاني تحطيم الأسطول الإسباني على الساحل الفرنسي قرب كاليه Calais

وأقيمت الزينات في روما والبندقية وغيرها. وكانت احتفالات البابوية في روما بالغة الروعة ، فقد نظمت طهناً للتقايد الرومانية القديمة (١) . وتعد معركة لبات من أفدح الكوارث في تاريخ البحرية العثمانية .



ذلك هو السلطان سليم الثاني غرس يد والدته الروسية روكسلانة ، فرضته فرضاً على الدولة ، بعد مؤامرة محكمة الحلقات متعددة الخطوات . نجحت في حمل زوجها السلطان سليمان المشرع على إصدار أوامر متعاقبة بعزل ثم قتل إبراهيم باشا الصدر الأعظم ، وتزويج ابنتها من رسم باشا ثم تعيينه صدر أعظم ، وقتل الأمير مصطفى ولي العهد ، وتعيين ابنها سليم في هذا المنصب . وكان نجاحها في تنفيذ هذه المؤامرة يعكس الأوضاع السياسية على أعلى المستويات في الدولة ، ويجسد الدور البارز للمحرّم السلطاني كمرکز قوة من أخطر مراكز القوى . وكان رائدها في هذه المؤامرة تفضيل مصلحة ابنها على المصالح العليا للدولة . ويزيد في خطورة هذه السيدة — كمرکز قوة — أنها نقلت مؤامرتها على عهد زوجها السلطان سليمان المشرع الذي يقف في الصف الأول من بين ملاطين الدولة العثمانية على امتداد تاريخها . ولو كان سليم الثاني شخصية قوية وعلى خلقه هان الأمر ، ولكنه كان من أسوأ السلاطين ويطلق عليه رامبو Rambaud المؤرخ الفرنسي وصفاً دقيقاً هو « التنبل » (٢) fainéant . ويجمع المؤرخون على أن حكم سليم الثاني كان البداية الحقيقية والفعلية لاضمحلال الدولة العثمانية (٣) ، وأن الدور الخطير الذي قامت به روكسلانة في هذا الأمر قد جلب الكوارث على مستقبل الدولة العثمانية (٤) .

أربع سيدات كن دعائم الدولة :

سبق أن ذكرنا أن بعض المؤرخين شبهوا الدولة العثمانية إبان عصرها

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع ألب ، مرجع سبق ذكره .

ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ص ٧٧٥ - ٧٧٧ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٦٠٣ .

Grant A.J; A History etc., op. cit., p. 225. (٣)

Lavisse et Rambaud; op. cit., t. IV p. 761. (٤)

الذهبي الأول بخيمة كبيرة شملت إلى أربعة أوتاد ، وأن هذه الأوتاد الأربعة كانت بالنسبة للدولة بمثابة دعائم أربعة quatre supports ، وأن هذه التسمية مقتبسة من حياة المجتمعات في المراعى التى عاش فيها أجداد العثمانيين فى سهول الإستبس فى آسيا قبل نزوحهم إلى الأناضول . وكانت هذه الدعائم تتمثل فى الوزراء ، ورؤساء القضاة ، والدفترداريين ، والنشاجية . ولكن تحولت هذه الدعائم الأربع على عهد السلطان مراد الثالث ( ١٥٧٤-١٥٩٥ ) إلى أربع سيدات ، هن :

أولا : والدة السلطان مراد الثالث ، ويطلق عليها المصطلح التاريخي « سلطنة والدة » ، وهى إحدى قادينات السلطان سليم الثانى . وكانت تسمى نور بانو Nour Bano ومنها سيدة النور Dame de Lumière وكانت مركز قوة خطير فى الدولة ، وهى تشبه من هذه الناحية ملكة فرنسا والوالدة كاترين دى مديشى ، وكانت معاصرة لها .

ثانياً : الزوجة الأولى للسلطان ، وبعبارة أكثر دقة الباش قادين أى كبيرة القادينات واسمها صفية . وهى من جمهورية البندقية ، وتنتمى إلى أسرة نبيلة مسيحية تسمى أسرة بافو Baffo ويطلق بعض المؤرخين عليها اسم أسرتها المسيحية فيقولون السلطنة بافو بدلا من صفية . وكان والدها حاكما على جزيرة كورفو Corfu . وبينما كانت فى سفينة مع بعض السيدات النزيلات فى طريقها إلى والدها خطفها القراصنة . وكان عمرها وقتذاك أربعة عشر ربيعاً . وكانت على حظ موفور من الجمال . وقد بيعت وألحقت بالقصر السلاطاني ودخلت الحريم كجارية . وسرعان ما تألفت بحبها وجلبت انتبا، السلطان وهام بعشقتها ، فأحتقها وتزوجها وأنجب منها وارتفع مركزها من جارية إلى قادين ثم إلى باش قادين . ومما يذكر أنها - بعد أن غدت مركز قوة خطير ودعامة من الدعائم الأربع للدولة - عملت على أن توجه السياسة الخارجية للدولة العثمانية على نحو يخدم مصالح وطنها الأول ، وهو جمهورية البندقية . ويلوح أنها أرادت أن تكفر عن هذا الانحراف الخلقى والسياسى ، فتبنت عدة مشروعات خيرية دينية إسلامية . ولا يزال يوجد فى

القاهرة مسجد يحمل اسمها خفياً ، وأوقفت عليه أوقافاً خيرية مدرة . وأقيمت فوق الباب الأوسط لقبة الجامع لوحة تذكارية هذا نصها : « أنشأت هذا الجامع المبارك المعمور بذكر الله تعالى » صاحبت « الخيرات الآدر الشريفة (١) والدة المرحوم مولانا للسلطان محمد خان طاب ثراه على يد فخر الخواص المتقربين مولانا الناظر الشرعى حلى الوقف المذكور . وكان الفراغ من هذا البناء المذكور فى السابع والعشرين من شهر محرم الحرام من سنة تسع عشر وألف من الهجرة » (٢) . كما يوجد بدار الوثائق والكتب المصرية

(١) الآدر الشريفة يقصد بها الحرم السلطانى . والآدر أيضاً من ألقاب التشريف التى تشمل للإشارة إلى الخوالات أو صاحبات المصبة من علية النساء دون ذكر أسمائهن . وهناك أيضاً مصطلح تاريخى هو آدر الضرب أى دور سك العملة . وآدر جمع دار .  
انظر :

دكتور سيد عبد الفتاح عاشور : مصر المالكي فى مصر والشام . مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨٨ .

(٢) يوافق هذا التاريخ المجرى اليوم الحادى والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٦١٠ . ويقع هذا الجامع فى خط المدايع .

وقد تضمنت حجة الوقف أن تصرف من ريع الأوقاف المرسودة مربيات موظفى الجامع والمقرئين وأمين حفظ المصاحف الشريفة ، ومعمارى ترميم المسجد أو إصلاحه كلما دعت حالة المسجد إلى ذلك . كما تضمنت شروط الوقفية تعيين أربعة رجال للقناية بالبستان الذى يطل على الميدان الكبير المواجه للجامع . ويقوم اثنان منهم بفرس الأشجار والرياحين ، ويشترط فيما أن يكونا على دراية بهذه الأعمال . ويقوم الاثنان الآخران بسق البستان ويشترط فيهما أن يكونا شديدى البنية .

وقد بنى هذا الجامع على غرار الجوامع العثمانية فى إستانبول . وهو ثالث جامع فى مصر يشيد على الطراز المهندي المئاني . أولها جامع سليمان باشا بالقلمة ، وثانيها جامع سنان باشا ببولاق ، وثالثها جامع صليحة ، تليها أربعة جوامع هى جامع محمد بك أبى الذهب ببحوار جامع الأزهر ، وجامع محمد على باشا بالقلمة ، وجامع الصبح ببابدين .  
انظر :

Mme Devonshire R.L.; L'Egypt Musulmane et Les Fondateurs de ses Monuments. Paris, 1925, pp. 123—124.

على مبارك باشا : الخطط التوفيقية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ٣٩ - ٤٠ .  
حسن عبد الوهاب باشا : تاريخ المساجد الأثرية ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٣٦ - ٣٧ ، ج ٢ ، ص ١٤٨ - ١٥٠ .

بالمقاهرة مصحف شريف مجبول ومحل بالذهب مكتوب عليه أنه « وقف  
المرحومة صفية أم السلطان محمد خان في سنة ١٠٣٢ هـ (١) » (٢).

ثالثاً : أخت السلطان مراد الثالث والمسيما إسمات Esmat وكانت  
متزوجة من محمد صوقلو باشا الصلر الأعظم . ولتلك الحق باسمه لقب  
« داماد » ومعناه صهر . وأصبح اسمه يرد في الوثائق مذكوراً على هذا النحو :  
داماد صوقلو محمد باشا .

رابعاً : سيدة عجوز تسمى چانفيد خاتون Djonféda - Khatoun  
كانت تقوم بعمل كايا Riaya وهي القبيحة على الجوارى في القصور السلطانية  
وكان من بين اختصاصاتها تنظيم ليالى السلطان وتوفير أسباب المتعة المشروعة  
وغير المشروعة .

### الصراع بين والدة السلطان مراد الثالث والقادين صفية :

دار صراع خفى حياً وسافر أحياناً بين نور بانو والدة السلطان مراد  
الثالث وبين القادين صفية . وكان هذا الصراع في لحمته وسداه يلور حول  
مراكز القوى ، كل منها تريد أن تستأثر بها لنفسها . ولجأت السلطانة والدة  
إلى سلاح خطير ثبت أنه كان مدمراً لسمعة ابنها مراد وكفايته كسلطان يحكم  
دولة كبرى مترامية الأطراف . فأحاطت ابنها بعدد من الجوارى الفاتنات .  
وكان معروفاً عنه شغفه العميق بالنساء . وكانت هذه الهواية أضعف نقطة في  
خطقه . واستهدفت السلطانة والدة من هذا الإجراء أن ينحسب حب السلطان  
للقادين صفية أو ينصرف عنها ، وبذلك تكيد لها كيداً . واستهدفت السلطانة  
والدة أيضاً من هذا السلاح تحقيق مصالح شخصية لها تمثلت في إخلاء الجو  
لها لتستأثر في غفلة من السلطان بالنفوذ في الحريم السلطاني وتسيطر على أجهزة  
الحكومة ، وأهم من هذا كله ، وأخطر من هذا كله ، لتوجه السياسة الخارجية  
لائولة لخدمة مصالح وطنها الأول وهو جمهورية البندقية . (٣)

(١) يوافق هذا العام الهجرى جزءاً من سنة ١٦٢٢ وشطراً من سنة ١٦٢٣ م .

(٢) دار الوثائق والكتب المصرية ، القاهرة . فهرس المصاحف الشريفة ، ج ١ ،

ص ٢٠٠ .

— Lavisce et Rambaud; op. cit. t.v, p. 846.

(٣)

وقد تجاوز نفوذ الحريم السلطاني كل حد على عهد هذا السلطان - مراد الثالث - وانتقلت أنباء نفوذهن في الأجهزة الحكومية إلى الدول الأوروبية . وقد كتب دى جرميني de Gernigny السفير الفرنسي في إستانبول مذكرة مؤرخة في اليوم الثامن من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٥٧٩ إلى وزارة الخارجية الفرنسية . وكان مما جاء فيها قوله إن ميدات الحريم السلطاني يقمن بلمور كبير في حكم الدولة ، وإن السلطانة الوالدة على قمة هذا الفريق من السيدات . فهي تسيطر على الباشوات ، وهي التي تشير بتعيينهم في المناصب الرئيسية في الدولة ، وهي التي تضيء عليهم الكثير من مظاهر الرعاية (١) .

ولما توفيت السلطانة الوالدة ، نور بانو ، كان من المنتظر أن تخف وطأة مراكز القوى في الحريم السلطاني . ولكن حدث أن السيدة العجوز المتخصصة في تنظيم لبالي السلطان ، وهي چانفيدا خاتون ، تطلعت إلى شغل موقع السلطانة الوالدة الراحلة فتغلص هي الأخرى مركز قوة خطير . فسارت على نهجها ، وأكثر من شراء عدد كبير من الجوارى الفاتحات وألحقتهن بالحريم السلطاني حتى قيل إن مشتريات القصر من هؤلاء الجوارى قد زادت زيادة لم يشهد لها القصر من قبل مثيلا . وأدى الإقبال الشديد على شرائهن إلى لارتفاع جنوني في أسعار هذه السلعة الآدمية المتميزة بجمال الوجه ، ورشاقة الجسم ، وخفة الدم ، والحياة المتدفقة . ومما ساعد على إطلاق يد هذه السيدة العجوز في شراء عدد كبير للغاية من الجوارى الحسن أن لم يكن للدرلة في ذلك الوقت ميزانية منظمة ، إذ لم يكن هناك تمييز واضح بين مصروفات الدولة ومصروفات السلطان . وقد واجهت الحكومة المركزية في إستانبول أزمة مالية خانقة على عهد السلطان مراد الثالث نتيجة لإسراف الحريم السلطاني في الإنفاق . واضطرت الحكومة إلى سلك عمالة ناقصة المعيار ورفض الإنكشارية

---

Grant A. J.; A History of Europe 1494-1610, op. cit., p. 225. —

(١) نشر المودخ الفرنسي داميوفرات من هذا التقرير . أنظر :

Lavisse et Rambaud; op. cit. t. v, p. 846.

تسلمها ، و لجأوا إلى سلاحهم التقليدى ، وهو إعلان التمرد العسكرى ، وقتلوا الدفتردار باشى ، ومحمد باشا بككر بك الروملى كما سبق أن ذكرنا .

### ناقوس العثمانيين :

انعكست هذه الأوضاع على مركز الدولة العثمانية فى أوروبا بوجه خاص . قامت مناقشات على حدود النمسا واشتعلت الحرب بين الدولة والمجر . وثارت ولايات الأفلاق والبغدان وتراسلافانيا ، وانضمت إلى رودلف الثانى Rodolphe II ملك النمسا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وقد جاء الأخير بناقوس كبير وأمر بأن يدق ناقوس الخطر ثلاث مرات فى اليوم تذكيراً لرعاياه بضرورة حشد الجهود لمحاربة العثمانيين . ولذلك أطلق على هذا الناقوس « ناقوس الأتراك La Cloche des Turcs » وقد لقي العثمانيون الهزائم وانسحبوا من بعض المواقع الهامة . وفى الجبهة الشرقية اشتعلت الحرب التقليدية بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية بعد وفاة الشاه طاسب الأول سنة ١٥٧٦ ووقوع اضطرابات داخلية . وتبادلت الدولتان الهزيمة والانتصار فى حرب استمرت سنوات طوالاً كثر خلالها تغيير القيادات العسكرية فى الجيش العثمانى نتيجة استئصال نفوذ الحريم السلطانى وتدخلهن فى تعيينات المناصب العسكرية الكبرى .

وفى تقدير أحد أعلام المؤرخين الفرنسيين ، وهو ألفريد رامبو Alfred Rambaud أن السلطان مراد الثالث يسلخ فى زمرة السلاطين « التنابلة » Les Sultans Fainéants الذين حكموا الدولة ، وأن تربيته الثانى فى مجموعة هؤلاء السلاطين . أما السلطان الذى يحمل رقم ١ فى هذه المجموعة فهو والده السلطان سليم الثانى .

وفى رأى كوتشى بك الفيلسوف السيامى العثمانى أن الإخلال الخلقى والتدهور المالى فى الحكومة العثمانية إنما يبرزان بصورة صارخة إبان حكم للسلطان مراد الثالث . وهو رأى صحيح إلى حد بعيد . وقد سجل هذا رأى

في المذكرة التي وضعها وحرفت باسم « الرسالة » وقلمها سنة ١٦٣٠ إلى السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) كما سبق أن ذكرنا .

ولما توفي السلطان مراد الثالث ارتقى العرش أكبر أولاده باسم محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣) وكانت والدته ، صفية ، لا تزال على قيد الحياة . وقد ذكرنا أن هذه السيدة كانت أصلاً من جمهورية البندقية . ولذلك لم يلق باسم ابنها السلطان محمد الثالث لقب السلطان نصف البندقى أو نصف الفينيسى *Le Sultan demi-Vénétien* وكان نفوذ السلطنة الوالدة عليه عظيماً . وهكذا مارست نفوذاً واسعاً إبان حكم زوجها وحكم ابنها محمد الثالث. وتذكر بعض المراجع الفرنسية أن هذه السيدة كانت حريصة كل الحرص على استمرار نفوذها في شتى أجهزة الحكومة بعد وفاة زوجها مراد الثالث . فلما تولى ابنها العرش أصدرت أوامرها لجهة الاختصاص في الحريم السلطاني بتقديم الجوارى اللغاتات واحدة بعد أخرى لابنها السلطان (١) ، لأنها كانت تعرف نقطة الضعف في ابنها ، وهي شغفه الزائد بالجحيميلات اللغاتات ، وأنه جاء على شاكلة أبيه مفتوناً بالنساء الحسنات ، فعملت على إغواء بل وإشغال الغريزة الجنسية في ابنها . ونجحت السلطنة الوالدة في مخططها ، إذ انصرف الابن للنسائيات مطلقاً العنان لشهوته ، وترك لوالدته تصريف شئون الدولة واستمرت مركز قوة وظلت تتبوأ مكاناً علياً وتسيطر على شئون الدولة حتى . إذا توفي ابنها عام ١٦٠٣ وخلفه على العرش ابنه باسم أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) كان في مقدمة تصرفاته تجريد جدته العجوز من كل نفوذ . فأمر بحبسها في السراى القديم ومنع اتصال أحد بها كما أبعد خلعاءها . ولكن شهد حكمه انتشار الفتن والاضطرابات في شتى أنحاء الدولة وبوجه خاص في أوروبا وفي آسيا .

### السلطان إبراهيم الأول المعنوي :

وجدت سيدات الحريم السلطاني في ارتقاء إبراهيم الأول (١٦٤٠-١٦٤٨) عرش الدولة فرصة ذهبية لتحقيق مزيد من النفوذ كتركز قوة ،



فاذا لم يستطعن بلوغ هذه الغاية ، فلا أقل من الحفاظ على نفوذهن وسطوتهن ويقاھن مركز قوة . كان هذا السلطان هو آخر أبناء السلطان أحمد الأول ، وأخ كل من السلطان عثمان الثاني ، والسلطان مراد الرابع . واشتهر باسم السلطان إبراهيم الخنوں . كانت تصرفاته شاذة تدعو إلى السخرية ، وتجعله أدنى إلى المصائب بأمراض عفاية منه إلى الأصحاء .

### السلطان برصع لحيته باللؤلؤ :

كان لإبراهيم غرام شديد بتزيين لحيته بطريقة غريبة وشاذة . كان يضع في شعر لحيته ، عند جلوس الشعر ، أسلاكاً رفيعة يخفيها شعر لحيته الكثيف عن الأعين . وكان بعض هذه الأسلاك من الذهب الخالص ، والبعض الآخر من الفضة الخالصة ، ثم يثبت تثبيتاً محكماً في هذه الأسلاك فصوصاً من اللؤلؤ . ويفسر الباحثون هذا التصرف بتفسيرات شتى . فيرى بعضهم أن السلطان كان يعتقد أنه بهذه اللآلئ يبلو جيلاً مهيباً أمام ناظره وبخاصة النساء ، فيزددن هياماً به وتقديراً له . وكان معروفاً عنه أنه يميل إلى السيدات ميلاً عظيماً ويرى البعض الثاني من الباحثين أنه كان يزين باللؤلؤ في لحيته لسبب آخر هو أنه كان يميل إلى محاكاة النساء ، إذ كان متخفئاً ، ويستنون إلى أن إبراهيم كان أكثر السلاطين تخفئاً . وقد ننسى هذا البعض أن النساء لا يضعن اللؤلؤ على أذقانهن أو أصداھن أو خلودھن ! ! . ويرى فريق ثالث أن هذا التصرف من جانب السلطان إبراهيم إنما ينم عن خجل أو اضطراب أو ضعف في قواه العقلية . والرأى الأخير هو الأرجح ، وبخاصة أنه اشتهر بلقب الخنوں لهذا التصرف وتصرفات شاذة أخرى ، نشير إليها تباعاً . وأنه بسبب هذه التصرفات صدرت فتوى من شيخ الإسلام بعدم صلاحيته للحكم وتم عزله .

### صور أخرى من شذوذ السلطان إبراهيم الخنوں :

كان السلطان إبراهيم يوحز لبعض المقربين إليه بكسر أبواب محلات بيع المجوهرات لنهب ما فيها . ولم تكن عمليات النهب مقصورة على المحال التي يمتلكها وعابا الدواة ، بل كانت تمتد إلى محلات الأوروبيين الذين يشتغلون

في تجارة المجوهرات. ولم يأبه باحتياجات سفراء الدول الأجنبية على هذه العمليات الإجرامية . فإلهم لديه أن يحصل على كميات وفيرة من اللؤلؤ رصع بها لحيته ويغير أوضاعها في كل يوم . وكان يستلهم حبات الكهرمان في تزيين سقرته . وفي إحدى المرات أراد أن يغطي جدران القصر السلطاني بالفراء السور . وبحجة تنفيذ هذه الرغبة استحدث ضريبة تغطي حصيلها أثمان الفراء وتكاليف شحنها من روسيا ، وسميت ضريبة الفراء *taxe de fourrures* كما استحدث ضريبة الكهرمان *taxe d'ambre* .

### ١ / والده السلطان تدفع ابنها في طريق الغواية :

استحوذت الجوارى الحسنات على عقله وتفكيره ووقته . وقامت والدته السلطانة كوزم (١) Koezem بنور، كبير في دفعه في هذا الطريق . وكانت حياته الخاصة مليئة بالقاذورات . وقد فاق هذا السلطان في الفسق والفجور والانحلال الخلق السلطان مراد الثالث . زين له الشيطان أن يعتدى على زوجات بعض رجال الدولة . وآثر الأخيرون ترك مناصبهم والمجرة من إستانبول إلى الحجاز ليقضوا بقية أعمارهم متنقلين بين الكعبة الشريفة في المسجد الحرام بمكة المكرمة وبين المسجد النبوي في المدينة المنورة . ووقت سفينة كانت تقل بعضهم في أيدي فرسان القديس يوحنا — كان مقرهم وقتذاك في جزيرة مالطة — فقتلوا الرجال وسبوا النساء وحولوا الأطفال إلى المسيحية . دربهم ليكونوا في زعم هؤلاء الفرسان جنوداً من جنود المسيح عليه السلام يحاربون ويقتلون ويأسرون المسلمين في أعالي البحار .

### تصاعد نفوذ مراكز القوى في الحريم السلطاني :

تفرغ السلطان ابراهيم للنسائيات وترك والدته والقادينات يتصرفن في شئون الدولة . ويقول المؤرخ الفرنسي رامبو لانه لم يحدث من قبل أن حكمت سيدات الحريم السلطاني الدولة العثمانية بمثل هذا الشمول والتغلغل في أجهزة الحكومة كما حكمتها سيدات الحريم على عهد ابراهيم المحنون . وبلغت والدته

(١) كان اسمها كوزم ماهبيكر Koezem Mahpeiker .

للدعوة في مراكز القوى في الدولة . طلبت من ابنها قتل قره مصطفى باشا الصدر الأعظم، واستجاب السلطان لطلب والدته عام ١٦٤٣ ، ولم تشفع للصدر الأعظم بسالته في عارية الدولة الصفوية . وكان المأخذ الوحيد عليه أن والده السلطان كانت تشعر نحوه بكرهية . وامثالاً لأمرها أقدم السلطان على قتل يوسف باشا قائد الحملة على جزيرة كريت بحجة أنه لم يقدم النصيب الأوفى من غنائم الحرب للسلطان ووالدته (١) . وازداد خجل السلطان فضى يقتل الصدر العظام الواحد بعد الآخر . فأمر بقتل صالح باشا الصدر الأعظم سنة ١٦٤٧ لأنه رأى عربة نقل بضائع تقف في أحد الشوارع التي مر منها

(١) كان الإسلام قد تزع أول الأمر ملكية غنائم الحرب التي يستول عليها المقاتلون المسلمون في المارك ، ورد هذه الغنائم إلى الله والرسول ، ليجرد المسلمين من الأطلاع ويسلموا أمم كله في دهم والرسول صلوات الله وسلامه عليه إمامهم . وبذلك يخوض المجاهدون المارك لله وفي سبيل الله وتحت راية الإسلام ولطاعة الله . وقد جاء هذا الحكم الإلهي في أول سورة الأنفال « يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » .

حتى إذا طمأن نفوس المسلمين واستقر في أذهانهم أنهم لا يملكون الغنائم ابتداء ولا يملكونها بحق الفرو ، عاد الإسلام في ذات السورة ليرد عليهم أربعة أخماس الغنائم ويستبقى الخمس على الأصل لله والرسول ولمن يعولم الرسول والجماعة الإسلامية من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . قال تعالى في الآية ١ رقم ٤٢ « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن الله خمسته والرسول ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير » .  
ويلاحظ أن :

١ - الأنفال جمع نفل على وزن سبب وأسباب وهي الفئمة . ومنها : إن تقوى الله هي خير نفل ، أى غير غشمة .

٢ - وأصلحوا ذات بينكم أى المشكلات التي هيتم بخصوص توزيع غنائم الحرب في معركة بدر .

٣ - يوم الفرقان يوم معركة بدر . وكانت فرقاناً بين الحق والباطل ، أو فرقاناً بين عهدين في تاريخ الدعوة الإسلامية : عهد الصبر والانتصار والتجمع ، وعهد القوة والانتفاخ والمباذاة . ولكن السلطان ابراهيم الأول لم يقبل أن يستولى على الغنائم طبقاً للنسبة التي قررتها الشريعة الإسلامية وأراد أن يحصل على غنائم تتجاوز الخمس .  
انظر بخصوص موقف هذا السلطان :

المركب السلطاني . واعتزم مرتين قتل جميع المسيحيين في إستانبول لولا أن  
 توقف في وجهه أسعد زاده أبو سعيد أفندي شيخ الإسلام وحلّله من مغية  
 هذا الإجراء . وأدرك محمد زاده باشا الصدر الأعظم أنه يشعر باستحالة  
 ممارسة اختصاصات وظيفته أمام رغبات مجموعة من الجوارى الحسان الروسيات  
 والبولنديات والمجريات والفرنسيات . وقال إنهن لا يفكرن إلا في أنفسهن ،  
 ولا يقدرن المسئولية ، وإن الدولة على وشك الانهيار . وقد أسر بهذا الحديث  
 إلى أحد أصدقائه . وانعكست هذه الأوضاع على مركز الدولة . فهاجم  
 القوزاق سواحل البحر الأسود . وأغارت جمهورية البندقية على البوسنة  
 ودلماشيا وجزر بيلوبونيز Péloponèse أما الموقف الداخلي فقد ازداد  
 إندهوراً ، إذ استمر السلطان في مجونه وفسقه . وغدا ألعبه في أيدي محظياته .  
 وكان له من بين أصفياه أحد علماء الدين ، واسمه جنجي خوجه حسين ،  
 كانت بضاعته من العلم قليلة ، وكان سعى السيرة ، استغل نوبات  
 الإغماء التي كانت تعترى السلطان وحالجه بطلسيات صحرية حتى استطاع أن  
 يسيطر عليه سيطرة تامة . واستنفدت شهوات إبراهيم ومطالب الحريم وأهواء  
 رجال البلاط الموارد المالية للدولة . وزيدت فئات الضرائب المقررة  
 واستحدثت ضرائب أخرى لسد نفقات الترف الجنوني في القصر . وأدت  
 هذه العوامل مجتمعة إلى قيام ثورة حاون فيها علماء الدين وعلى رأسهم شيخ  
 الإسلام أبو سعيد . ولجأت الفياق الإنكشارية إلى حركة تمرد . وكان الصدر  
 الأعظم ، هزار پاره أحمد ، أول ضحايا الثورة التي أدت إلى عزل هذا السلطان  
 عام ١٦٤٨ والمناداة بابنه محمد سلطاناً باسم محمد الرابع ، وكان لا يزال صبيّاً ،  
 له من العمر سبع سنوات (١) . أما والده المحزول فقد تم نقله إلى « جيلي  
 كوشك » أي القصر الصنفي حيث شق في اليوم الثامن عشر من شهر أغسطس -  
 آب - عام ١٦٤٨ بعد أن قضى عشرة أيام في موقعه الجديد والأخير قبل  
 أن يضم القبر هذا السلطان الذي باع نفسه للشيطان .

## الصراع على مراكز القوة بين والده السلطان وجدته لأبيه :

أجلس على عرش الدولة السلطان محمد الرابع ( ١٦٤٨-١٦٨٧ ) . وكان من الطبيعي أن يدور صراع سافر وعنيف في الحرم السلطاني على مركز القوة في حكم سلطان يبلغ من العمر سبع سنوات . وتنافست سيدتان تبغى كل منهما أن تستأثر بالنفوذ الأعلى . كانت إحداهما جدته لأبيه وهي سيدة يونانية الأصل عجوز اسمها كوزم ماهيكر Koezem Mahpeiker ، وكانت الأخرى والدته ، وهي سيدة روسية الأصل ، لا تزال في ميعة الصبا ونضارة الشباب ، عرفت باسم السلطانة الوالدة طرخانة Trkxhane واشتدت حدة التنافس بين الالفتين . ولم تأخذ الجدة العجوز بنصائح وتوجيهات العقلاء من أحلام السياسة والفكر في الدولة . واتجهت إلى زعماء الحركة التي قامت عام ١٦٤٨ وأسفرت عن عزل وقتل السلطان إبراهيم المحنون . وتآمرت مع الإنكشارية على قتل منافستها السلطانة الوالدة طرخانة . وفي الليلة المحددة لتنفيذ المؤامرة فتحت أبواب القصر السلطاني وأبواب جناح طرخانة ليسهل على الإنكشارية التسلل إلى مخدعها . وشعر الحرس بحركات مريبة وكان الأخوات الخصيان يكونون ولاء عميقاً للسلطانة الوالدة . ودوت في أرجاء القصر نوبة الخطر في سكون الليل ، وفرغ الحرس إلى أسلحتهم وأغلقوا جميع الأبواب ، واتخذ الجميع أماكنهم على أهبة الاستعداد لقتل كل من تحدته نفسه بالاقتراب من القصر . وتوجهت فرقة من الحرس إلى جناح السيدة العجوز جدة السلطان واندفع أفرادها إلى مخدعها ، فوجدوها مختفية في دولاب الملابس بحجرة نومها ، ولم تكذب أعينهم تقع عليها حتى ذبحوها . وعلى الرغم من انفراد السلطانة الوالدة طرخانة بعد هذا الحادث الذي وقع في عام ١٦٥١ ، استمرت شئون الدولة في التدهور واستشرى نفوذ مراكز القوى فيها : حلا نفوذ الأخوات الخصيان في دوائر الحكومة ، وتصاعد نفوذ الحرم السلطاني ، وطمع العسكريون وبخاصة الإنكشارية واملأوا البلاد فساداً ونهباً . وتعاقب على منصب الصدارة العظمى حتى عام ١٦٥٦ ثمانية صدور عظام أعدم معظمهم نتيجة دسائس الحرم السلطاني وطمغيان الإنكشارية .

إحدى مراكز القوى في الحريم السلطاني : يونانية تتعطر بورد الربيع :

كان السلطان محمد الرابع قد شب عن الطوق واستعال حكمه زهاء أربعين عاماً ، وأصبح له قاديئات ، وفي مقدمتهن باش قادين أو خاصكي سلطنة ، أطلق عليها ربيعة جولمش Rabia Gulmish ومعناها السيدة التي تتعطر بخلاصة عطر ورد الربيع ، أو التي لا تروى عطشها إلا بماء ورد الربيع . وكانت جارية يونانية الأصل ، يميل لون بشرتها إلى السمرة الخفيفة ، ولكنها كانت ذات جمال ودلال وجاذبية . وسرعان ما اشتعل الصراع التقليدي على مراكز القوى في الحريم السلطاني بين السلطنة الوالدة والخاصكي سلطنة . وكان السلطان يستجيب لرغبات الأخيرة ، ويستمع لتوجيهاتها ونجا نفوذ السلطنة الوالدة طرخانة التي تفرغت إلى تنشئة ولديها سليمان وأحمد . وكانا يليان أخاهما السلطان في السن . وكانت طرخانة تعدها لارتقاء العرش بعد أخيها .

ولم يشترك السلطان في أي حرب خاضتها الدولة على عهده . وفي إحدى المرات التي كان الجيش يتأهب فيها للتحرك إلى ميدان القتال أعلن محمد الرابع عن عزمه على قيادة الجيش وخرج فعلا مع الجيش راكباً حصانه . ولما وصلت القوات العثمانية إلى أدرنة توقفت قليلا ، ونزل السلطان من حصانه ، وسلم البريق النبوي إلى الصدر الأعظم وعلق على عنقه نخصلة من الريش رمزاً لشجاعته ، وقال له إنه سيدعو الله كي ينصر الجيش . وقفل السلطان راجعاً إلى قصره حيث استدعى إليه كبار المنجمين ليخبروه عن نتيجة الحرب التي سيخوضها الجيش ، وهل ستكون انتصاراً أو هزيمة .

هذه الشجاعة المزعومة التي تخلت عنه أو تخلى هو عنها وهو يسير مع الجيش إلى إحدى الجبهات الحربية كانت تعاوده من وقت لآخر حين شرع أكثر من مرة في قتل أخويه سليمان وأحمد ، كي يفسح الطريق أمام ولديه ليحكم بعده مباشرة . وكان على أفندي شيخ الإسلام يحول بينه وبين ما كان يشبهه . وفي إحدى المرات لما سما الليل تسلل إلى مخدع أخويه وفي يده سيف

مسلول يريد قتلها. وقصدت له والدته واستطاعت أن تنزع السيف من يده . وقد وقع هذا الحادث في عام ١٦٦٩ (١).

وقع اختيار مراكز القوى على رجل يسمى جورديج Gourd لشغل منصب الصدر الأعظم . وكان يبلغ من العمر مائة عام وكان الدولة قد أصيبت بالعقم في الرجال ، فلم تجد مراكز القوى خيراً منه . ولكنها كانت في الحقيقة تهدف إلى اتخاذ العوبة في يدها تتخذ عن طريقه ما تشاء من قرارات . كان هذا الرجل ضعيف الذاكرة ، بطيء التفكير ، وهن العظم منه ، واشتعلت لحيته شيئاً . وكان في مناقشاته يشير إليها ويمسكها بيمينه . وكانت السلطنة الوالدة طرخانة تراقب من وراء ستار مناقشاته في أثناء رياسته للديوان المهيأ . وفي إحدى المرات فقدت أعصابها وصاحت قائلة : يا أبتى إن المسألة ليست لحيه ذات شعر أبيض أو شعر أسود . إن المسألة أعمق من ذلك بكثير . إنها تحقيق الحكم الصالح ولإبداء الآراء السديدة .

**رئيس الخصيان السود يقدم للسلطنة الوالدة أحد الصلور العظام :**

ولما تزايدت الأخطار وأحلت بالدولة من يمين ويسار، رأت السلطنة الوالدة طرخانة أن تعهد بمنصب الصدارة العظمى إلى رجل ذى بأس شديد هو محمد باشا كوبرلي وهو ينتمي إلى أسرة كوبرلي الألبانية . وقد أحضره إليها في الخفاء رئيس الخصيان السود في الحرم السلطاني . واشترط محمد كوبرلي عدة شروط لقبول هذا المنصب ، منها : إطلاق يده في اختيار العناصر الصالحة لشغل المناصب الحكومية ، ومنحه سلطات واسعة للضرب على أيدي أصحاب مراكز القوى في الدولة ، وسمح المؤامرات التي قد يديرها

(١) تولي كلاهما الحكم بعد أخيهما . وتراوحت مدة حكم كل منهما بين أربع وخمس سنوات . فحكم سليمان الثاني من عام ١٦٨٧ حتى توفي سنة ١٦٩١ ، وخلفه أخوه أحمد الثاني (١٦٩١-١٦٩٥) وقد أظهر الأول ضعفاً شديداً أمام التمرد السكري الذي قام به الإنكشارية واتصموا دار سيلاس باشا الصدر الأعظم وقتلوه واعتلوا اعتداء متكرراً على حريمه . أما السلطان أحمد الثاني فكان غاملاً وانحصرت هوايته في الشعر والموسيقى مع ميل إلى التصوف . واحتلت جمهورية البندقية جزيرة سانز سنة ١٦٩٤ وخسرت الدولة مصطفى كوبرلي باشا الصدر الأعظم وخلفه في منصبه مره بي باشا وكان غاملاً ضعيفاً وعلا نفوذ الحرم السلطاني .

البعض ، وعدم الاستماع إلى الوشايات التي قد يروجها المرجفون ابتغاء النيل من تصرفاته أو سمعته ، وغير ذلك من شروط وافقت السلطنة الوالدة عليها وعلى غيرها ، وتقلد منصبه في عام ١٦٥٦ ونستخلص من هذا التبين حقيقة هامة هي أن أحد الصلور العظام الذين تركوا بصمات قوية في تاريخ الدولة قد وصل إلى منصبه عن طريق رئيس الخصبان السود والحريم السلطاني . وتدل هذه الحقيقة ببلورها على عظم نفوذ هاتين القوتين : الخصبان وأغواتهم ، والحريم السلطاني ، كركيزين من مراكز القوى في الدولة .

ولم يكن السلطان محمد الرابع ذا مواهب ممتازة ، وكان مستوى تفكيره عادياً للغاية وشخصيته مهتزة . اهتم بتجديد الأوامر الصادرة بحظر تناول الخمر ، أو شرب القهوة ، أو التدخين . وكان الدولة قد فرغت من مشكلاتها الداخلية والخارجية التي كانت تحيط بها . وكانت هوايته الرئيسية صيد البر . وقد بدد في هذه الهواية وقته وجهده ، وشغل أجهزة الحكومة بتشديد الحراسة عليه ، إذ كان لا يحول له الصيد إلا في الأقاليم العثمانية الأوروبية تاركاً نصريف الأمور لمركز من أقوى مراكز القوى في الدولة : الحريم السلطاني : جدته ، ثم والدته ، ثم زوجه . واستراح لحكم مجموعة من الصلور العظام كانت غالبيتهم ألوية في أيدي الحريم السلطاني وأغوات الخصبان . ولم يشذ عنهم سوى آل كوبرلي .

وكان السلطان أحمد الثاني ( ١٦٩١-١٦٩٥ ) ، وهو ابن السلطان ابراهيم المعنوي ، على غرار من سبقوه . كان مسرفاً في الشراب ضعيف الشخصية تسيطر عليه حاشية تحرکه كيف شاءت . وكان سوداوى المزاج ، أكثر من عزل الصلور العظام . ووقعت على عهده اضطرابات في الحجاز والعراق . وفقدت الدولة بعض ممتلكاتها في أوروبا . ولقيت الجيوش العثمانية الهزائم في معظم المعارك التي خاضتها ضد النمسا والبندقية وسيطر البنادقة على جزيرة خيوس الهامة ، وكابلا من أعمال دلماشيا . ولم تكن الجيوش العثمانية أكثر توفيقاً في بولندا منها في دلماشيا .

ومن الأمثلة التي تساق في هذا الصدد أيضاً السلطان أحمد الثالث ( ١٧٠٣- )



( ١٧٣٠ ) وهو ابن السلطان محمد الرابع . استتال حكمه زهاء ثمانية وعشرين عاماً . وفي الفترة الأولى من حكمه ( ١٧٠٣-١٧١٨ ) عين ما لا يقل عن ثلاثة عشر صندراً أعظم . ولكنه لم يكن حكيماً في اختيارهم أو بارعاً في توجيههم توجيهاً سليماً ، فلم يستعن بهم في القضاء على نفوذ مراكز القرى في الدولة مثل الحريم السلطاني والخصيان أو الإنكشارية ، إذ لم يكن هو نفسه قسوة طيبة . فقد كان يميل إلى حياة المحن والفسق مع الجوارى الحسنات في القصر الجديد ، ولأنه أحاط نفسه بمركزين من مراكز القوى وهما السلطانة والدة ، ورئيس الخصيان السود . واتخذ له صديقاً زوجة ابنته وعينه صندراً أعظم سنة ١٧١٣ وعرف باسم سلحدار داماد على باشا . وكان هذا السلطان يجمع بين المتناقضات . ازدهر حكمه وانتصر على بطرس الأكبر قيصر روسيا ، وهو الانتصار الذي قلل من حجمه خيانة بلطجي محمد باشا الصدر الأعظم كما سبق أن ذكرنا . وجدد تجديداً شاملاً السلاح البحري ، ونفذ لأول مرة مشروع بناء السفن الحربية من ذوات الطبقات الأربع . وشهد عهده أيضاً توسعاً مؤقتاً للحكم العثماني في مناطق واسعة من غربي فارس . ولكن تضاعفت عدة عوامل أثارت سخط الشعب على السلطان أحمد الثالث . كان من بينها حياة الترف التي عاشها البلاط بكافة هيئاته ، والأخذ بالأساليب الأوروبية الحديثة في الحياة العامة وتدهور مالية الدولة ، وانتشار المحسوبية . وأخيراً قام الإنكشارية بحركة تمرد عسكري احتجاجاً على محاولة السلطان إدخال الأنظمة الحديثة في الجيش . وطالبوا بقتل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وقبودان باشا . وأظهر السلطان ضعفاً شديداً في مواجهة العصيان العسكري ، ووافق على قتل الأول والثالث فقتلها الإنكشارية وألقوا بجثتيها في البحر على الرغم من أن الصدر الأعظم الذي وافق السلطان على أن يقتله الإنكشارية كان صديقاً له وصهرأ له بسبب زواجه من ابنة السلطان - فاطمة سلطان - التي كانت في الثالثة عشرة من عمرها ، كما كانت من قبل زوجة سلحدار على باشا بالإسم . وكان اسم هذا الصدر الأعظم الذي ضحى به السلطان لإرضاء للإنكشارية هو : نوشهرلي داماد إبراهيم باشا . ولم تمنع استجابة السلطان لطلباتهم من التطاول عليه ، وجرائمهم تساهله معهم على المطالبة

بعزله من العرش . ووافق السلطان واشترط تأمين حياته وحياة أبنائه . وتم عزله في أول أكتوبر - تشرين أول - عام ١٧٣٠ ، وخلفه ابن أخيه محمود الأول . أما السلطان أحمد الثالث فقد بقى في العزلة التي فرضت عليه حتى وافاه أجله المحتوم في عام ١٧٣٦ . ربما يذكر أنه على الرغم من الحروب التي خاضتها الدولة على عهد أحمد الثالث في الجبهات الأوروبية والآسيوية ، لم يذهب هذا السلطان قط إلى ساحات القتال ، وقنع أو لعله ارتاح لقضاء وقته مع سيدات الحريم السلطاني .

والحق أن هاتين القوتين - الحريم السلطاني ، والخصيان البيض والسود يكملان بعضهما البعض في مجالات مراكز القوى في الدولة بحيث يصعب الفصل بينهما . ولا يمكن دراسة موضوع الحريم السلطاني دون استكمالته بدراسة موجزة لموضوع الخصيان . فقد كانوا اليد اليمنى واليد الطولى لسيدات القبة الأولى من الحريم السلطاني ، وأسهموا إسهاماً كبيراً في تصعيد نفوذ الحريم السلطاني .



## الفصل الثاني والعشرون

### مراكز القوى في الدولة (٦)

#### الخصيان وأهواتهم

#### الخصاء الجزئي والخصاء الكلي :

يقصد بالخصيان في هذه الدراسة طائفة من العبيد — يبيض وسود — كانت الدولة تحصل عليهم من عدة روافد، وتلحقهم بخدمة الحريم السلطاني في القصور السلطانية . وقبل أن يباشروا أعمالهم كانت الدولة تعهد إلى بعض غير المسلمين بإجراء عمليات جراحية لهم . وكانت هذه الجراحات على نوعين : النوع الأول ويطلق عليه الخضاء الجزئي *La Castration Partielle* ، وفي هذه العمليات تستأصل من أجسامهم أو تستل منها الخصيتان . والنوع الثاني ويطلق عليه الخضاء الكامل *La Castration Complète* ، إذ كان يستأصل إلى جانب الخصيتين عضو التناسل . وكان يلحق بالعبد اسم الخصى (١) سواء أجريت له عملية الخضاء الجزئي أو الخضاء الكامل . وكان الهدف من هذه العمليات هو القضاء تماماً على المقدرة الجنسية لدى أولئك العبيد ، وبذلك يكون ولي الأمر — وهو السلطان في هذه الدراسة — مطمئناً لاطمئنان الكامل إلى سلوك أولئك الخصيان عندما يختلطون في أجنحة الحريم بزوجات السلطان وجواريه وأميرات الأميرة العثمانية الحاكمة . وكان هناك تمايز بين العبد الذي تجرى له عملية الخضاء الكامل والعبد الذي تجرى له عملية الخضاء الجزئي . فالأول كان يؤدي شتى أعمال الخدمة الداخلية للسيدات في أدب جم وتغان بالغ ابتغاء النظر بمرضاتهن . وكانت الخدمات الداخلية على الرغم من تنوعها وحساسيتها توزع على هذا الفريق من الخصيان . ولذلك كانوا على اتصال

(١) جسمها خصيان بكسر الخاء ومكون الصاد .

دائم ووثيق جهولاء السيدات مما أتاح لهم حديد الفرص لمزيد من النفوذ والجاه . أما الخصى الذى تجرى له عملية الخصاء الجزئى فيكون عمله مقصوراً على الخدمة الخارجية وعلى حراسة أجنحة الحريم . وتكون مرتبته أدنى من مرتبة زميله الذى أجريت له عملية الخصاء الكامل . ولكنه لم يكن يقل عن زميله أدباً وخلقاً وإخلاصاً وتفانياً فى العمل .

وكانت تظهر تغيرات جسمية ونفسية على أفراد هاتين الطائفتين من الخصيان فتغدو قامتهم طويلة أكثر من الطول الطبيعى لأجسامهم ، وكذلك أصابع أيديهم . وتميل قامتهم إلى الإنحناء عند الكتفين ، وتنتلى شفاههم السفلى ، وتتأثر قوة الإبصار لديهم .

وكان شعورهم بفقدانهم القدرة الجنسية يترك آثاراً عميقة فى نفوسهم . وينطوون على أنفسهم فى أوقات الفراغ أو الراحة ويحاولون فى ذات الوقت تعويض هذا النقص بنوع من الجبروت والتحكم والعتو يسيطر عليهم إذا تولوا منصباً ذا نفوذ . ومن هنا كان لهم ولرؤسائهم نفوذ كبير فى دوائر القصور السلطانية وفى أجهزة الحكومة على السواء كما سنرى بعد حين .

### ألقاب الخصيان :

وكان يطلق على العبد الخصى فى تاريخ الدولة أحد لقبين : أولهما طواشى (١) وثانيها أفا (٢) . وكان يطلق على الخصيان السود فى القصور السلطانية قرة أغالر (٣) . ويطلق على زملائهم الخصيان البيض فبو أفا (٤) . ويلاحظ أن

(١) طواشى جمعها طواشية . وبجسمها الجبرى طواشون . وهى غير كلمة طواش بلصاح الطاء وتشديدها ، وهى شائعة الاستخدام فى دول الخليج العربية ، ومعناها تابغر اللؤلؤ وجسمها طواويش أو طواشون . أما الطواشة فمعناها تجارة اللؤلؤ . ويتردد الطواشون على البحرين والكويت وقطر والأحساء وهناك لممارسة نشاطهم فى تجارة اللؤلؤ .  
أنظر :

سيف مرزوق الشعلان : تاريخ النفوس على اللؤلؤ فى الكويت والخليج العربى . الكويت ١٩٧٥ ، ج ١ ، ص ص ٢٨٠ - ٢٨٦ .

(٢) أفا جمعها أفوات

(٣) قره فى اللغة التركية معناها أسود ، أى الأفوات السود .

(٤) فبو فى اللغة التركية معنى باباً أو بوابة ، أى أفوات البوابة أو أفوات الرب .

( م ٤١ - الدولة العثمانية )

لقب أغان كان يطلق على أفراد فئات كثيرة من موظفي الدولة في شتى مراحل تاريخها. وكان هذا اللقب يباحق بوجه خاص بأسماء شاغلي المناصب العسكرية (١)

### الإسلام والرق :

وقبل أن نمضي في الكلام عن العبيد الخصيان ودورهم في تاريخ الدولة كمرکز قوة ، نلم إلاماً سريعاً بموقف الإسلام من الرق ومن رق الحرب ، لأن الخصيان كانوا أولاً وقبل كل شيء رقيقاً ، ثم أجزيت لهم إحدى عمليتي الخصاص . فالرق بالنسبة لهم كان الأصل أو الأساس الذي وجد حياتهم وجهة معينة . أما الخصاص فقد لحق بهم بعد استرقاقهم .

لما جاء الإسلام وجد الرق نظاماً اجتماعياً واقتصادياً متغلغلاً في حياة المجتمعات في معظم أنحاء العالم في ذلك الوقت . وكان موقف الإسلام من الرق واضحاً كل الوضوح . فقد أغلق جميع أبواب الرق ما عدا رق الحرب . وعلى عادة الإسلام أخذ المجتمعات في هودة لنبد نذام الرق ، فعمل على الترغيب في تحرير الرقيق في صورة سلمية وهادئة ، وأتاح للمجتمعات فرصة الانتعاش كي تتخلص شيئاً فشيئاً من هذا النظام . فعمد إلى طائفة من الجرائم والأخطاء التي يكثر حدوثها وجعل كفارتها تحرير الرقيق ، مثل كفارة القتل الخطأ وما في حكمه . قال الله سبحانه وتعالى « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً »

---

(١) كان يطلق على قائد الفائق الإنكشارية يكنى جري أعاسى أى أما الإنكشارية . وكانت له أسقيته على جميع ضباط الجيش الثماني وعلى وزراء الدولة . ويعد أن النبي السلطان محمود الثاني نظام الإنكشارية كانت تطلق كلمة أغان على الضباط الأيمن حتى رتبة قائمقام (عقيد) . أما الضباط المتصلون بحرمي المدارس العسكرية فكان يطلق عليهم « أفندي » تمييزاً لهم عن الضباط الأيمن . وكانت كلمة أفندي تطلق على المدنيين المتعلمين من أرباب القلم . وكانت توجد حتى سقوط الدولة العثمانية عقب الحرب المالية الأولى رتبة عسكرية بين اليوزباشي ( النقيب ) والباشي ( المقدم ) تسمى قول أعاسى ، أى قائد جناح أى صاغ ( رائد ) انظر :

Bowen Harold; Encycl. of Islam. Art. Agha. Eunuchs.

ويطلق على الخصيان في اللغة الفرنسية Eunuches وفي اللغة الإنجليزية Eunuchs والكلمتان الأخيرتان مشتقتان من اللفظة اليونانية Eunonchos بمعنى حارس غرفة نوم أو حارس في منطقة داخلية تقيم فيها سيدات .

إلا خطأ . ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة . . . (١) . وجعل الإسلام تحرير الرقيق كفارة للحث في اليمين . قال تعالى « لا يؤاخذكم الله بالغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام . ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » . (٢) . وجعل الإسلام تحرير الرقيق أيضاً كفارة إذا أوقع الزوج على زوجته ظهاراً ثم عاد في ظهاره (٣) . قال تعالى علواً كبيراً « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم . ولأنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتموا ، ذاكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير » (٤) .

وقرر الإسلام للرقيق حقه كاملاً في العتق والتحرر في نظير مبلغ يؤديه لسيده مؤجلاً ويتفق معه على مقداره . وهذا الاتفاق الذي يتم بينها يسمى في الشريعة « المكاتبه » (٥) ومنذ أن تم المكاتبه يملك العبد حرية العمل وحرية الكسب ويعود إليه أجر عمله . وفرض الله على السيد أن يستحط جزءاً من المبلغ مساعداً للعبد على جمع المبلغ الذي كوتب عليه . قال سبحانه وتعالى

(١) سورة النساء ، آية رقم ٩٢ . (٢) سورة المائدة ، آية رقم ٨٩ .

(٣) كان من عادة العرب أنه إذا غضب الزوج من زوجته قال لها « أنت هل تظهر أمي » فصيح محرمة عليه . وهذا هو الظهار . وهو محقوث شرعاً ، وقول منكرو زور بنص الآية الكريمة ، لأن الأم هي التي أنجبت الرجل ، والزوجة هي التي يزوجها الرجل ، ولا يصح أن يجعل الرجل الزوجة محرمة عليه كماه أبداً يمثل هذا القول الباطل .

(٤) سورة المائدة ، الآية رقم ٢ ورقم ٣ .

(٥) كانت تم صيغة المكاتبه على النحو التالي . يقول السيد لسيده « كاتبك على ألف دينار في أربعة أشهر ، تدفع في كل شهر مائتين وخمسين ديناراً . فإذا أميتها فانت حر » فيقول العبد « قبلت » .

« الذين يبتغون الكتاب (١) مما ملكت أيماكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً (٢) . وآتوهم من مال الله الذي آتاكم (٣) . . . » (٤) ويلاحظ أنه إذا كان المكاتب جارية فلن يحكمها يسرى على من تلده بعد مكاتبها . فيعتق معها بدون دفع مبلغ آخر بمجرد قيامها بأداء المبلغ الذي كرتبت عليه .

ويحرص الإسلام أيضاً في مواطن عديدة أخرى في القرآن الكريم على التنويه بأهمية إحتاق الرقيق وتحرير من أوقعهم سوء الطالع في الرق حتى يستردوا آدميتهم وكرامتهم وحريتهم السليمة . قال تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين (٥) وابن السبيل (٦) والسائلين (٧) وفى الرقاب (٨) وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء (٩) والضراء (١٠) وحين البأس (١١) ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (١٢) .

وقد نزلت هذه الآية الترتابية الكريمة فى أعقاب محوّل المسلمين فى صلاتهم عن قبله المسجد الأقصى فى بيت المقدس إلى المسجد الحرام حيث الكعبة الشريفة . وذكرت الآية أن البر ليس مقصوداً منه أن يولى الناس

(١) الكتاب هنا بمعنى المكاتب (٢) إن توسّم فيهم صلاحاً لذلك واستعداداً طيباً للوفاء . (٣) هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للسادة أصحاب العبيد بأن ينفقوا جزءاً من المال يستعين به العبيد فى الوفاء بالتزاماتهم المالية نحوهم . وفى معنى الإيتاء حطّ شئ من المال المتفق عليه . وتحرص الآية الكريمة على أن الأموال التى لدى السادة الأتربةاء التى فرض عليهم أن يؤدّوا جزءاً منها لمساعدة الرقيق على التحرر إنما هى من نعم الله عليهم ومن أفضاله عليهم .

(٤) سورة النور ، جزء من الآية رقم ٣٢ .

(٥) هم الذين لا ينعون حاجتهم ولا يسألون الناس .

(٦) ابن السبيل هو المسافر المنتقطع عن ماله ولو كان غنياً فى بلده . ويسرى هذا الحكم فى الوقت الحاضر على اللاجئين من فلسطين وغيرها من بلاد الإسلام التى دنسها الاستعمار والصهيونية .

(٧) السائلون هم الذين أجهلّتهم الحاجة إلى سؤال الناس .

(٨) وفى الرقاب أى للصرف فى فك رقاب الأرقاء أى تحريرهم ، إما بإعانة من يكاتب سيده على العتق فى نظير مبلغ يؤديه إليه ، وإما بشراء رقيق وإعتاقهم من هذا المال .

(٩) البأساء شدة الفقر (١٠) الصراء المرضى

(١١) حين البأس وقت شدة القتال فى سبيل الله . (١٢) سورة البقرة ، آية رقم ١٧٧ .

وجوههم في الصلاة نحو المشرق والمغرب ، وإنما البر هو أعمال وتكاليف تنشئ آثارها الطيبة في حياة المجتمع الإسلامي . والبر الذي يحقق أهداف الإسلام هو الإيمان بالله الواحد الأحد وباليوم الآخر والملائكة وبالرسالات جميعاً وبالرسل أجمعين ، وإنفاق المال ، على الرغم من حب الناس له واعتزازهم به ، على فئات من المجتمع حددتها الآية الكريمة ، وكان من بينها « فك الرقاب » أى أن الإنفاق يوجه - فيما يوجه إليه - لعنق الرقيق بشرائه وتحريره ، أو بتقديم بعض المال الذى كوتب عليه الرقيق المكاتب مع سيده في نظير عتقه . ويلاحظ أيضاً أن هذه الآية القرآنية الكريمة ذكرت الزكاة بعد الحديث عن إنفاق المال على حبه على من جاء ذكرهم في الآية . والترتيب هنا مقصود . فالإنفاق في تلك الوجوه ليس بديلاً عن الزكاة ، وليست الزكاة بديلاً عنه . وإنما الزكاة هي ضريبة إجبارية لا اختيار للمسلم فيها . أما ذلك الإنفاق فهو مجاله الحر لتطهير قلبه ووصله بالمجتمع الذى يعيش فيه ووصل هذا المجتمع به . والزكاة ضريبة لا يسقطها الإنفاق . ولا تفى هي عن الإنفاق . وإذا علمنا أن الشريعة تخصص سهماً من حصيلة الزكاة لعنق العبيد ، فإن معنى هذا الازدواج أن الشريعة قد أوجبت منفذين هامين وواسعين لتحرير الرقيق . إن هذه الآية تجمع بين أصول العقيدة وتكاليف النفس والمال وتجعلها كلها وحدة لا تنقسم ، وتضع على هذا كله عنواناً واحداً هو البر . وتصف الدين يتسمون بهذه الصفات بأنهم صادقون في إيمانهم وصادقون في ترجمة عقيدتهم إلى أعمال بارزة ذات أثر طيب في المجتمع الإسلامي ، كما تصفهم بأنهم متقون يخشون الله ويتصلون بالله ويؤدون واجبه لله (١) . ففى ترغيب في تحرير الرقيق أقوى أثراً في النفس من هذا السياق القرآنى البليغ ؟

ولا يدع الإسلام فرصة تمر إلا ويحث المسلمين على التوسع في عتق الرقيق . فأمر بتخصيص جزء من حصيلة أموال الصدقات لشراء العبيد

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ج ٢ ، الطبعة الثانية ، ص



وتحريرهم أو تقديم المساعدات المالية لمن يحتاج منهم إليها في سبيل عنتهم كالملكائين ومن إليهم . قال تعالى « إنما الصدقات للفقراء (١) والمساكين (٢) والعاملين عليها (٣) والمؤلفة قلوبهم (٤) وفي الرقاب (٥) والغارمين (٦) وفي سبيل الله (٧) وابن السبيل (٨) فريضة من الله والله عليم حكيم » (٩).

ويرى بعض كبار رجال الفكر الإسلامى أن المعنى من لفظة « الصدقات » التى وردت في هذه الآية القرآنية الكريمة إنما هو الزكاة (١٠). وكانت الزكاة تشكل مورداً هاماً من موارد الحكومة الإسلامية تشدد في تحصيلها . وكانت الحكومات الإسلامية على تعددها تحترم مصارف الزكاة بعامة ومصرف عتق الرقيق بخاصة . وفي بعض الأحيان كانت تنفق فيه أكثر من المبلغ المرصود لهذا الغرض (١١). ويلاحظ أيضاً أن الله سبحانه وتعالى جعل الرقيق من بين

(١) الفقراء هم الذين يملكون دون الكفاية .

(٢) المساكين سبق شرح معناها في الآية السابقة .

(٣) العاملون عليها الذين يقومون على تحصيلها ما لم تخصص لهم مرتبات من خزانة الحكومة .

(٤) المؤلفة قلوبهم هم طوائف من الناس دخلوا حديثاً في الإسلام ويراد تثبيتهم عليه ،

ومنهم الذين ترجو الدولة أن تتألف قلوبهم فيسلموا ، ومنهم الذين أسلموا وثبتوا وترجو الدولة

تأليف قلوب أمثالهم في قومهم ليثوبوا إلى الإسلام حين يرون إخوانهم يرضون ويصادون .

(٥) وفي الرقاب سبق شرح معناها .

(٦) المدنيون في غير مصيبة لمساعدتهم في سداد ديونهم .

(٧) وفي سبيل الله أى إعداد العدة للجهاد وتجهيز المتطوعين وتدريبهم وبعث البعث

للدعوة إلى الإسلام وبإذن أحكامه وشرائعه للناس أجمعين ، وتأسيس المدارس والمعاهد والجامعات

التي تربي الناشئة تربية إسلامية سليمة ولا تتركهم يلتحقون بمدارس البعثات التنصيرية .

(٨) وابن السبيل سبق شرح معناها .

(٩) سورة التوبة ، آية رقم ٦٠

(١٠) تفسير الجلالين - جلال الدين محمد بن أحمد ، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر

السيوطي . . القاهرة ، د . ت ، ص ١٦٠

سيد قطب : في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ١٠ ص ٨٠

دكتور عبد الواسطى : الحرية في الإسلام ، أدار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٣٨-٤١ .

دكتور محمد محمود حجازى : التفسير الواضح ، مرجع سبق ذكره ، ج ١٠ ، ص ٦١

(١١) يذكر يحيى بن سعد أن الخليفة الأموى صرب بن عبد العزيز قد عهد إليه بجمع الزكاة من

بعض الأقاليم الإسلامية في إفريقية فانتضاها . وطلب فقراء يعطهم منها فلم يجد ، لأن هر -

طوائف ثمان أوجب الإنفاق عليها من أموال الزكاة . وقد حدد الله هذه الطوائف تحديداً دقيقاً ، ولم يترك لرسوله عليه الصلاة والسلام ولا لأحد اختيار هذه الطوائف . وإنفاق هذه الأموال مقصور على أفراد هذه الطوائف ولا يتعداهم إلى غيرهم أبداً . وهى تؤخذ من الأغنياء فريضة من الله وترد على الفقراء والرقيق ومن إليهم ممن حددت أوضاعهم الاجتماعية فريضة من الله « وهى ليست تطوعاً ، ولا تفضلاً ، أو منحة ممن فرضت عليهم ، فهى فريضة محتمة ، وهى ليست إحساناً من المعطى ، وليست شحاذة من الآخذ . فاقام النظام الاجتماعى فى الإسلام على التسول ، ولن يقوم (١) .

وحبب الإسلام إلى الناس تحرير الرقيق وجعله أعظم قرابة يتقرب بها الإنسان إلى ربه . فتد ذكر الله فى القرآن الكريم عدة قربات يتخذها عباده الصالحون زلى إليه سبحانه وتعالى . ولكنه جعل تحرير العبد على قة هذه القربات . وفى هذا قال عز من قائل « فلا اقتحم العقبة (٢) . وما أدراك

صالحين عبد الميز بداله وحكمته قد جعل الناس فى غنى عنها . فأمر بتحويل الأموال المرسودة للفقراء والمساكين ليشتري بها كلها عبيداً واعتقهم .

(١) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ١٠ ، ص ٨٠

(٢) العقبة فى تفسير الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده ، الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها . ولكن الله سبحانه وتعالى فر المراد بالعقبة هنا حيث قال « وما أدراك ما العقبة ، فلك رقة » فأراد منها الطريق التى يصعب سلوكها إلى حيث تنال سعادة الدنيا والآخرة . وإنما كانت صعبة للسلوك لمعارضة الهوى ومغالبة الشهوة لسالكها . وفى هذا كتابه عن ميل الإسلام إلى الحرية وجفوته للأسر والمؤبدية .

ويقول الدكتور محمد محمود حجازى عن العقبة إن للإنسان عقبات من نفسه وشيطانه ودنياه . فيجب أن يكون جواداً لله فهلك الرغبة ويمتقها أو يعمل على ذلك بكل قواه .

ويرى الدكتور على عبد الواحد وأن العقبة هى العقبة الكبرى التى لا بد من اقتحامها للوصول إلى الجنة . وهى تتطلب أن يقترب المؤمن فى أثناء حياته إلى ربه بميل جليل من أعمال البر لتحرير الرقيق .  
أنظر كلامه :

الإمام محمد عبده : تفسير جزء عم . الناشر مطابع الشعب . القاهرة ، الطبعة الرابعة . دت

ص ٦٩ .

دكتور محمد محمود حجازى ، التفسير الواضح ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢٠ ، ص ٥١

دكتور على عبد الواحد وأن : الحرية فى الإسلام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١

مالعقبة . فك رقبة (١) ، أو إطعام في يوم ذى مسغبة (٢) ، يتيماً ذا مقربة (٣) ، أو مسكيناً ، إذا متربة (٤) ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا (٥) بالصبر (٦) وتواصوا بالرحمة . أولئك (٧) أصحاب الميمنة (٨) و (٩) .

وقد بلغ من تنظيم الإسلام لقربة تحرير الرقيق أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان يضرب بها المثل في تقييم هذه القربة وعظام الثواب عليها ، فيقول « من فعل كذا فكأنما أعتق رقبة » أو « يكون ثوابه عند الله ثواب من أعتق رقبة » (١٠) .

### الإسلام ورق الحرب :

سبق أن ذكرنا أن الإسلام قد أغلق جميع أبواب الرق ما عدا رق الحرب (١١)

( ١ ) فك رقبة أى عتقها

( ٢ ) المسغبة هى المجاعة

( ٣ ) المقربة هى القرابة أو الصلة العائلية

( ٤ ) المسكين ذو المتربة هو الفقير الشديد الفقر اللاصق بالتراب . ويقال فقر مدقع وفقر مدقع أى ملتصق بالبقاء وهى التراب .

( ٥ ) تواصوا أى أوصى بعضهم بعضاً .

( ٦ ) الصبر على المكروه وعن المصيبة

( ٧ ) الموصفون بهذه الصفات .

( ٨ ) الميمنة أى اليمين أو اليمن .

( ٩ ) سورة البقرة ، آيات من رقم ١٠ إلى رقم ١٨

(١٠) أنظر ما جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة عن ثواب عتق الرقيق ووجوب إسقام الحكومة الإسلامية والمجتمع الإسلامى فى مساعدة المبيد المكاتبين على أداء جزء من المبالغ التى يتعين عليهم أدائها لتحريرهم من الرق ، فى :

صحيح البخارى : لأبى عبد الله محمد بن أساميل بن إبراهيم بن المنيرة بن بردزبه البخارى .  
جزءان . د . ت ، ج ٢ فصل عنوانه « العتق وفضله » ص ٦٥-٧٧

(١١) استثنت الشريعة الإسلامية من رق الحرب الذين يؤسرون فى حرب بين طائفتين من المسلمين . فهؤلاء لا يفرض عليهم الرق سواء كانوا من الطائفة الباغية أو من الطائفة المحيى عليها .  
أما الحروب التى تكون بين المسلمين وغيرهم فلا تؤدى فى رأى أصحاب المذاهب الفقهية إلى رق من يؤسرون فيها إلا بشروط كثيرة ، من أهمها أن تكون أمثال هذه الحروب شرعية أى =

وقد أبقى عليه للضرورة ، لأن المجتمعات المعادية للإسلام كانت تسترق أسرى المسلمين طبعاً للتقاليد السائدة . ولم يكن في مقدور الجماعة الإسلامية وقتذاك إجبار هذه المجتمعات على نيل تقاليد حرية عميقة الجذور أنخذت ما يعرف بالتعبير الحديث قواعد القانون الدولي العام . ولو فرض أن الإسلام قرر إبطال استرقاق الأسرى لكان مثل هذا الإجراء مقصوراً على الأسرى الذين يقعون في أيدي المسلمين ، بينما الأسارى المسلمون يلاقون مصيرهم السيئ في عالم الرق هناك . وفي ذلك إبطاء للمعادين للإسلام في أهل الإسلام (١) .

وفي أول الأمر كان الإسلام يمنع فداء الأسرى المشركين الذين يقعون في أيدي المسلمين كي يستبقهم في حوزتهم لإضعافاً لشوكة المشركين وتقوية للمحسكر الإسلامي . ففي غزوة بدر - وهي المعركة الأولى الكبرى بين المسلمين والمشركين - كان النصر فيها حليف المسلمين إذ قتلوا سبعين رجلاً من المشركين وأسروا منهم سبعين رجلاً ، وولى الباقون الأدبار . واستشار النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر في مصير الأسرى . فكان رأى أبي بكر أن يأخذ منهم الفدية العادية تأسيساً على أن أولئك الأسرى هم بنو العم والعشيرة من

---

== يميزها الإسلام . وحسبنا أن نذكر هنا ثلاث حالات تشغل فيها أمثال هذه الحروب :

**أولاً :** حالة الدخاخ المذروح . وفي هذا يقول الله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تحذروا ، إن الله لا يحب המתدين » . سورة البقرة ، آية رقم ١٩٠ .

**ثانياً :** بحالة نكث العهد والكيد للدين الإسلامي . وفي هذا يقول الله تعالى : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا في دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا إيمان لهم ، لعلهم ينتهون » . سورة التوبة ، آية رقم ١٢ .

**ثالثاً :** قيام أسباب تعرض أمن الدولة الداخل أو الخارج للخطر ، مثل إثارة الفتن . وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » . سورة البقرة ، آية رقم ١٩٣ .

ولم تتجاوز حروب الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذه الحالات سواء في ذلك سريته ضد العرب أو ضد اليهود أو ضد الروم .

أنظر

دكتور على عبد الواحد وافي . الحرية في الإسلام . مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨-٢٩ .

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

ناحية ، وأن أخذ الفدية منهم يدعم مركز المسلمين تجاه الكفار من ناحية ثانية ، وقد يهدى الله أولئك الأسرى للإسلام ويصبحون عضداً للمسلمين من ناحية ثالثة . أما عمر فكان رأيَه أن يمكنه رسول الله عليه الصلاة والسلام من قريب له فيضرب عنه ، وأن يمكن علياً من عتيل بن أبي طالب فيضرب عنه ، وأن يمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنه حتى يعلم الله سبحانه وتعالى - علم ظهور - أن ليس في قلوب الصحابة هودة في جهادهم ضد أعداء الإسلام . فالصحابة يضربون أعناق أئمة الكفر وصناديدهم وقادتهم . وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم رأى أبي بكر . وارتضى أن يأخذ الفداء في مقابل إطلاق سراح الأسرى . فنزلت هذه الآيات القرآنية الكريمة « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض (١) ، تريدون عرض الدنيا (٢) ، والله يريد الآخرة (٣) ، والله عزيز حكيم . ألا كتاب من الله سبق (٤) لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٥) . فكلوا مما ضمنكم حلالاتها واتقوا الله ، إن الله غفور رحيم (٦) .

وتشير الآية القرآنية الأولى في مطاوعها إلى ضرورة الإثخان في الأرض ، أى يمضى المسلمون في خوض معارك ضارية تالية وعديدة يتألون فيها الكثيرين من الكفار المحاربين ، ويستبقون ما يقع في أيديهم من الأسرى . والهدف من الإثخان والاستبقاء هو إضعاف قوى المشركين . وتنطوى الآية على لوم المسلمين الذين قبلوا فداء أسرى المشركين في غزوة بدر « تريدون عرض الدنيا » حين قبأوا المال وأطلقوا أسارى المشركين « والله يريد الآخرة » أى يبتغى توجيه المسلمين إليها لتكون هدفهم . ثم تقول الآية الكريمة « لولا كتاب

( ١ ) يثخن في الأرض أى يكثر فيها القتل ويبالغ فيه لئلا يذل الكفر ويقل عدد أنصاره . مشتق من أتخنه المرض أى أثقله .

( ٢ ) عرض الدنيا أى حطامها .

( ٣ ) والله يريد الآخرة أى يريد لكم ثوابها ونعيمها .

( ٤ ) لولا كتاب من الله سبق ، أى لولا حكم سبق من الله ، وهو أنه لا يعاقب المخطئ منكم .

( ٥ ) أى لنا لكم عذاب عظيم بسبب ما أخذتم من الفداء من الأسرى .

( ٦ ) سورة الأنفال ، الآيات من رقم ٦٧ إلى رقم ٦٩ .

من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم. أى أنه أحق المسلمين من عذاب عظيم في قبول الفداء من أسرى بدر تنقيداً لوعده سابق بالعفو عن الخطئين . ثم أضمن الله الكثير من آلائه عليهم فأحل لهم الغنائم ، وكانت محرمة على المحاربين .

ولذا كان الإسلام قد منع فداء أسرى المشركين في غزوة بدر ، فقد قرر في ذات الوقت الإبقاء على حياتهم وهم في الأسر ، لا ليستسلم انتقاماً ، ولكنه لمس قلوبهم لمسة إنسانية رقيقة تحيي الرجاء في نفوسهم وتطلق فيهم الأمل في مستقبل مشرق خير من الماضي ، وفي مكاسب ترجع ما فقلوه من مال الفداء ومن الديار التي تركوها . قال تعالى « يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم » (١) . وفي ذات الوقت الذي فتح فيه للأسارى نافذة الرجاء المشرق في قابل الأيام ، حلهم خيانة الرسول صلوات الله وسلامه عليه كما خانوا الله من قبل ، فلاقوا هانا المصير . « وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ، والله عليم حكيم » (٢) ، خانوا الله فأشركوا به . فإذا عمدوا إلى خيانة الرسول وهم أسرى في يديه ، فليذكروا عاقبة الخيانة الأولى . والله عليم بسر أروهم ، حكيم في إيقاع العقاب عليهم .

ولم يستمر قائماً هذا الحذر - عدم قبول فداء الأسرى الذين يقعون في أيدي المسلمين ، فلما اشتد ساعد المسلمين واستقرت أوضاعهم السياسية والعسكرية وقويت دعائم الدولة الإسلامية في المدينة المنورة أجاز لهم الإسلام حرية التصرف مع الأسرى في نطاق المبادئ العامة للشريعة مع الاستمرار في سياسة الإثخان في الأرض . قال تعالى في كتابه العزيز « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب (٣) ، حتى إذا ألحقتهم (٤) فشدوا الوثاق (٥) ،

(١) سورة الأنفال ، الآية رقم ٧٠ . (٢) سورة الأنفال ، الآية رقم ٧١ .

(٣) أصله قاضروا الرقاب ضرباً قتلهم والقول وقدم المصدر .

(٤) أى أكثرتم قتلهم وألحقتهم وجعلتهم خيلاً أى خليلاً .

(٥) قيودا الوثاق أى قاسروهم . والوثاق بفتح الواو أو كسرهما ما يوثق به ، أى ما

فلما متأ بعد (١) ، وإما فداء (٢) ، حتى تضع الحرب أوزارها (٣) . . . هـ (٤) ويلاحظ أن هذه الآية القرآنية الكريمة لم يرد فيها ذكر لكلمة الرق ، بل جاء فيها ذكر المن والفداء بعد وقوع الأعداء أسرى في أيدي المسلمين . ولم تعمل على الترخيب في الرق ، بل حثت على الترخيب في غيره . وفضلت المن والفداء على الرق .

نخلص من هذا العرض السريع لموضوع رق الحرب أن الإسلام لم يقر الرق في صورة مطلقة ودائمة . ولم يجعل الرق نتيجة حتمية للأسر ، بل ترك للدولة الإسلامية أن تعامل أسرارها وفقاً لما تتفق عليه مع أعدائها في ضوء قواعد الشريعة الغراء : فتمن عليهم أو على فريق منهم بإطلاق سراحهم بدون مقابل ، وتغدى من تغدى من الأسارى من الجانبين ، وتبادل الأسرى بين الفريقين ، وتسترق من يسترقون المسلمين ، حتى لا يصبح الأسارى من المسلمين أرقاء ، والأسارى من الكفار طلقاء (٥) . والإسلام لم يجعل الرق الحرب سوى مسلك من المسالك التي يجوز للدولة الإسلامية أن تتخذها حيال الأسرى . وقيدته بقيود تؤدي إلى نضوب موارده وتفضي عليه بالتدريج . وأتاح الإسلام عديد الفرص أمام رقيق الحرب للعق والتحرر متى انضموا إلى الجماعة الإسلامية وقطعوا صلاتهم بالكفار المخاربين .

وقد أوجز أحد الأسماتلة الباحثين الخطوط الرئيسية لموقف الإسلام من الرق في هذه الفقرة : لم يقر الإسلام الرق في صورة مطلقة دائمة ، وإنما أقره في صورة تؤدي هي نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج ، بدون أن يحدث ذلك أى أثر سى في نظام المجتمع الإنسانى ، بل بدون أن يشعر أحد بتغير في مجرى الحياة . وقد ارتضى للوصول إلى هذه الغاية أبلغ الوسائل أراً ، وأصدقها

(١) فلما متأ بعد أى فلما تمنون عليهم بإطلاق سراحهم متأ أى من غير شيء .

(٢) وإما فداء أى وإما تقويمهم فداء بمال أو يأسرى مسلمين أو يعمل يمهون إليهم بأدائه .

(٣) أى حتى تضع الحرب ثقلها ، وهو كناية عن انتهاء العمليات الحربية .

(٤) سورة محمد عليه الصلاة والسلام ، آية رقم ٤

(٥) سيد قطب : في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

نتيجة ، وأقصرها أمداً . ويتلخص ما ارتضاه للوصول إلى هذه الغاية في مسلكين : أحدهما تضييق الروافد التي كانت تمد الرق وتغذيه وتكفل بقاءه ، بل العمل على تجفيفها تجفيفاً كاملاً ، والآخر توميع المناقل التي تؤدي إلى الحق والتحرير . وبذلك أصبح الرق أشبه شئاً بمجدول كثرت مصباته ، وانقطعت عنه موارده التي يستمد منها الماء . وخلق مجدول هذا شأنه أن يكون مصيره إلى الجفاف ١ (١).

بعد هذا العرض الموجز لموقف الإسلام من الرق ومن رق الحرب ، ننتقل إلى موضوع العبيد الخصيان .

### الخصاء بين التحريم والإباحة :

عرف الخضاء منذ عصور موغلة في القدم في الشرق والغرب على السواء . استخدم في الصين والهند . وأدخله ملوك دولتي آشور وبابل في بلاطهم . وشاع الخضاء في العصر اليوناني وأدخله الرومان عن اليونانيين (٢) . وكان في مقدمة الواجبات التي عهد بها إلى الخصيان القيام على خدمة وحراسة السيدات والآفات في القصور الحاكمة . ولما جاءت المسيحية وأصبحت ديناً رسمياً للدولة الرومانية وتوطد مركز الديانة الجديدة انقسم رجال الكنيسة حيال نظام الخضاء ففريقين : فريق عارض الخضاء على أساس أنه نظام يتنافى مع الطبيعة البشرية ويتعارض مع ما أراده الله من تعبير الأرض . وذهب هذا الفريق إلى القول بأنه يكفي أن طوائف كثيفة العدد من رجال الدين حرموا من الزواج أو الاتصال الجنسي على أي نحو من الأنحاء ، وأنه لا داعي لهذا التحريم إلى طائفة من الرجال مهما كان عددهم صغيراً من أجل أقلية ضئيلة العدد من السيدات ، وأن على أوليائهن أن يدبروا وسائل أخرى لخدمة هؤلاء السيدات وحمايتهن . وقد ظل هذا الفريق من رجال الكنيسة متمسكاً برأيه عبر العصور التاريخية الوسيطة والحديثة . وكان من أبرز البابوات الذين عارضوا الخضاء

(١) دكتور عل عبد الواحد رافى : الحرية في الإسلام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢-٢٤

(٢) أحمد صليحة الله : القاموس الإسلامي ، المجلد الثاني ، القاهرة ، ١٩٦٦ .



في العصور الحديثة البابا ليو الثالث عشر ، وهو من أصل إيطالي تولى كرسي البابوية من عام ١٨٧٨ إلى عام ١٩٠٨ (١) . أما الفريق الآخر فقد أيد نظام الخصاء . وكان في مقدمة المؤيدين له القسس . وقد اندفعوا يشجعون خصاء الصبية لاستخدامهم في فرق الترتيل الكنسي محتفزين بسبب الخصاء بأصوات رفيعة رخيمة ، وكان يطلق عليهم السوبرانو (٢) Soprano ، كما كانوا يعرفون باسم الكاسترا (٣) Les Castrats والتعبير الأخير مقصور استخدامه على الصبية الذين أجريت لهم عملية الخصاء . وبمضي السنين نشأت طوائف دينية مسيحية شجعت عمليات الخصاء مثل طائفة « السكوبس الروسية » .

ولما جاء الإسلام كانت عادة الخصاء معروفة بل شائعة في جميع البلاد التي فتحها المسلمون . وما هو جدير بالذكر أن الشريعة الإسلامية لا تقر مبدأ الخصاء إلا للضرورة القصوى إنقاذاً لحياة مريض أصيب ذلك الجزء من جسمه بمرض خبيث يتطلب استئصال الجزء المصاب من جسمه منعاً لانتشاره في باقي أجزاء الجسم . ولكن ظل مبدأ الخصاء محرماً تحريماً قاطعاً بحكم السنة . جاء في الصحيحين أن عثمان بن عفان سأل النبي صلوات الله وسلامه عليه أن يأذن له في خصاء نفسه ، إذ أنه رجل تشق عليه الغربة في المغازي ، فرد النبي صلى الله عليه وسلم « لا ، ولكن عليك بالصوم » . وجاء في الحديث الشريف « لا يعتبر مسلماً من اختصى أو خُصَّ آخر » (٤) . وعلى الرغم من هذا التحريم كان الرقيق من الخصيان يباعون في أسواق العواصم الإسلامية .

---

(١) اسم هذا البابا جواشم بيتشي Joachim Pecci وقد ولد في مدينة كارينتو Carpinetto في إيطاليا .

(٢) Soprano كلمة فرنسية اشتقت من كلمة إيطالية بهذا المعنى . وتجمع في اللغة الفرنسية Sopranos .

(٣) Castrat كلمة فرنسية من أصل لا تيني Castratus .

(٤) اعتبر علماء الشريعة الإسلامية أن الخصاء من العيوب التي تسوغ الطلاق باعتباره حياً مستحكماً لا يمكن البرء منه ، ولا تستطاع منه العشرة إلا بصبر . فإذا تزوجت امرأة ووجدت زوجها خصياً ولم تكن قد علمت بحقيقة حاله عند عقد قرانها ولم ترض بالقيام معه وطلبت طليقها ، طلقها القاضي منه في الحال .

## الدولة العثمانية تأخذ بنظام الخصاء :

وقد أخذت الدولة العثمانية بنظام الخصاء في قصور السلاطين على الرغم من أن الشريعة الإسلامية تحرم تحريماً قاطعاً مبدأ الخصاء . وكان أخذ الدولة بهذا النظام غير الشرعي من الحالات القليلة بل النادرة التي خرجت فيها الدولة على الشريعة الإسلامية . وقد سبق أن ذكرنا أن من الخصائص البارزة أنها دولة دينية تحرص حرصاً بالغاً على تطبيق مبادئ الشريعة والإلتزام التام بها في تصرفاتها وفي سياستها الخارجية والداخلية . ولا يعتبر وجود عبيد خصيان في بعض مدن وعواصم العالم الإسلامي مبرراً لأن تحلوا الدولة العثمانية هذا الخلو .

### أقباط التصعيد يقومون بعمليات الخصاء للعبيد الوافدين من السودان :

كانت هناك طائفتان من الخصيان : الخصيان السود ، والخصيان البيض . وكانت مصر تعد المورد الأول للعبيد السود الخصيان . وكان الولاة العثمانيون في مصر يترقبون وصول قوافل العبيد من دارفور وكردفان وسنار في السودان إلى أسبوط . وكانت قوافل دارفور وكردفان تسلك في رحلتها الشاقة طريقاً أطلق عليه ضرب الأربعين لأن الرحلة كانت تستغرق أربعين يوماً . وكانت أسبوط هي نهاية المطاف . وكانت قافلة دارفور وكردفان تحمل مئويّاً عدداً من العبيد يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف عدا كميات من العاج والتمر هندي وجاود النمر والصبغ وريش النعام والكمون وتراب الذهب والتفرون . أما قافلة سنار فكانت تحمل في رحلتها السنوية بضع مئات من العبيد . وكان الباشا العثماني في القاهرة يبعث مندوبين إلى أسبوط أو يعهد إلى حاكم الصعيد ولقبه بك جرجا أو حاكم جرجا . وكان أحد كبار الأمراء المماليك (١) ، بشراء

( ١ ) كانت سلطته تمتد إلى معظم أقاليم الوجه القبلي وإلى الواحات و قبيلة الحوارة و سلالة القتائل النازلة في تلك الأقاليم .  
أنظر

عدد معين من العبيد الذين جاءت بهم التافة . وكان الباشا العثماني يوصي بشراء العبيد صغار السن . وفي أسبوط أو أبي تيج ، وبأمر الباشا ، كانت تجرى لهؤلاء العبيد عمليات الخصاء الجزئي أو الخصاء الكلي . وكان أقباط أسبوط هم الذين يتولون لإجراء عمليات الخصاء ، لأن الشريعة الإسلامية تحرم الخصاء كما ذكرنا . وبعد أن يتم شفاؤهم كانت سلطات أسبوط تقوم بترحيلهم إلى القاهرة بالطريق النهري في معظم الأحوال (١) . ويبعث الباشا العثماني في القاهرة بهذه التافة البشرية بمثابة هدايا إلى السلطان في إسطنبول . وقد نهج حكام بعض الولايات العثمانية الأخرى نهج حكام مصر في خصاء السيد وتقدمهم هدايا للسلطان . وكان أولئك الحكام يحصلون على العبيد بالشراء أو بآية طريقة أخرى . وهكذا كان للسلطان العثماني مورد ثان للخصيان . وكان هناك مصدر ثالث يحصل منه السلطان على الخصيان هو الشراء . ومن هذا المصدر الثالث كان السلطان يحصل على الخصيان البيض . وكان موطنهم الأصلي بلاد القوقاز . وكان أسرى الحروب من قبائل الالاف وأهل بوهيميا ومن الحرمان بضاعة آدمية ثمينة . كانت تجرى لهم عمليات الخصاء بمعرفة أسريهم ويعاونون رقيقاً للسلطان وما يفيض عن حاجة السلطان كان يرسل إلى العواصم الإسلامية حيث يعرضون للبيع في أسواق الرقيق . وأخيراً كان هناك مصدر رابع يحصل منه السلطان على الخصيان مباشرة وذلك بإجراء عملية الخصاء لأفراد من الغياقي الإنكشارية كنوع من العقوبة توقع عليهم بعد أن تكون القيادة العسكرية قد استغفلت معهم كل الوسائل لردعهم . وكان هذا الفريق من أفراد الإنكشارية ينضمون إلى الخصيان البيض . ويقرر بعض الباحثين أنه كان قليلاً جداً عدد الإنكشارية — وهم الجنود البواسل — الذين

(١) انظر ما جاء بخصوص مدينة أسبوط وقافلة دارفور وستار في :

Description de L'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant L'Expédition de L'Armée Française. Edition de C.L.F. Panckoucke, Paris, de 1821 à 1829, 26 vols de texte in—8 et le même nombre de Planches; vol. IV, pp.125—133, vol XVII p.p. 277—305, 278—291 et 291—299.

جولتهم الدولة إلى خصيان . بينما يرى البعض الآخر من الباحثين أن عدد الإنكشارية الذين أجريت لهم عمليات الخصاء كان على العكس كبيراً جداً (١) . ونرى أن كلا الرأيين صحيح . ففي عصر ملاطين الفترة الأولى كان الإنكشارية يستبسلون في القتال ويسترخصون الموت ومثلاً أعلى في الطاعة والانضباط العسكري ، والملك نذر منهم من كانت الدواة تحوّلهم إلى خصيان . ولما تدهور نظام الإنكشارية في عصر ملاطين الفترة الثانية تعددت حوادث التمرد والعصيان التي كانت تصدر منهم ، فزاد عدد الإنكشارية الذين وقعت عليهم عقوبة الخصاء . ويلاحظ أيضاً أنهم كانوا يفقدون لياقتهم البدنية ركفايتهم الحربية بعد إجراء عمليات الخصاء . فلذا كانت التصور السلطانية قد كسبت الإنكشارية الخصيان ليقوموا على حراسة وخدمة الحرم السلطاني ، فإن الجيش العثماني قد خسرهم كمحاربين أشداء .

#### إجراءات استقبال الخصيان الجدد :

وضعت الدولة أنظمة في التصور السلطانية لتعقب على الخصيان . وبتعاقب السنين رنخت هذه الأنظمة حتى غلّت من التقاليد المرحية . ومنرى صوراً منها في هذا الفصل . فعند وصول الخصيان إلى إستانبول كانوا يعتنقون الإسلام ويأتحقون بالسرائى الجديد . ويبدأون حياتهم الجديدة فيه بعرضهم أولاً على « القيزلر أغاسى » وهو رئيس الخصيان السود ، ثم يعرضون على ضابط كبير يطلق عليه « باش قانى غلامى » أى رئيس غلمان البوابة ، وهو في ذات الوقت كبير ضباط حرس الخصيان ، فيأرجح أسماء الخصيان الوافدين الجدد في كشوف التعيينات . ثم تمجى الخطوة التالية والأخيرة فيؤخذون إلى المشرف العسكري الذى يشرف على إعدادهم علمياً وعسكرياً . وكان يطلق عليه بهذه الصفة لقب « لا لا » (٢) أى المشرف . ويكون هذا المشرف أحد

Lybyer A.H.; op. cit., p. 57 and f.n. no.5.

(١)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part 1, p. 331.(٢)

وكان يطلق على كبير المشرفين : « لا لا باتى » . ويلاحظ أن لقب « لا لا » كان يطلق أيضاً على الشخص الذى يتولى الإتراف على تربية أبناء السلاطين . وكان هذا المصطلح مدلول آخر هو « الأب العزيز » .

الصف ضباط من رتبة « حاصلية » (١) Hasillis أو « أورتنجه » (٢) Ortança وكان على الخصيان أن يقبلوا يد هذا المشرف في مستهل لقاءهم الأول معه .

### تدريب الخصيان :

أوعقب الفواخ من إجراءات الاستقبال كانت تمتد للخصيان دراسات تدريبية نظرية وعملية على المهام التي يعهد بها إليهم في قابل الأيام . فيتعلمون القراءة والكتابة باللغة التركية ، وقدراً يسيراً من الثقافة الدينية الإسلامية باللغة العربية تمكيناً لهم من أداء شعائرهم الدينية ، ثم المعلومات العامة مع دراسة في السلوك الإجتماعي الممتاز . وكان يقوم بتعليمهم المواد النظرية مجموعة من المدرسين يطلق عليهم « الخوجات » (٣) . وفي ذات الوقت يتلقون تدريباً على بعض المهارات العسكرية . ويقوم رؤسائهم بالمهمة الأخيرة . وكان الخصيان في أثناء تلقيهم دراساتهم يستخدمون بمثابة حرس لأبواب أجنحة الحرم . وعندما يستكملون دراساتهم كانوا يعينون للخدمة التي تبدأ بحراسة أبواب دوائر الحرم . ولذلك خصصت لهم عتابر يعيشون فيها على مقربة من هذه الأبواب . وكان كل خصي عندما تنتهي نوبة حراسته يتلقى في أثناء جزء من فترة راحته مزيداً من الثقافة الدينية والمعلومات العامة .

وكان لكل مبنى مستقل في منطقة الحرم السلطاني ، وهو الذي يطلق عليه دائرة ، مثل دائرة السلطنة الوالدة ، ودائرة الباش قادين ، ودوائر القادينات ، ضابط خصي مسئول يطلق عليه باش أغا . ويعمل تحت إمرته

---

(١) حاصلية ومفردها حاصل ، معناها كامل التدريب . وكان يحصل هذه الرتبة صف ضابط . وكان عدد صف الضباط الذين يحملون هذه الرتبة اثني عشر . وكانوا يسبقون في المركز الأورتنجات .

(٢) الأورتنجات ومفردها أورتنجه ، عدد صف الضباط الذين يحملون هذه الرتبة لا يزيد عن خمس . ومعنى أورتنجه وسط أي أن صف الضباط الأورتنجه يكون في مركز وسط بين الحاصلية وبين « النوبت قلغه سيه » الذين يحق مركزهم بعده : النظر اختصاصات هذه الطائفة الأخيرة في ص ٦٦٠ ، حاشية رقم ٤

(٣) خوجات كلمة تركية مفردها خوجه . ومعناها المعلم أو المدرس .

عدد كبير من الحصيان من أخصاب الرتب الصغيرة ، ويسمون « حرم أغاسية » .  
لدى أغوات الحريم تمييزاً لهم عن أغوات الحراسة . وكان فى القصور السلطانية  
الأخرى حرس من الحصيان ، يرأس حرس كل قصر « باش قاي غلامى » ،  
ولكن كانوا جميعاً يخضعون لرئيس الأغوات السود . وكان شأنهم فى ذلك  
شأن الحصيان الذين يعملون فى خدمة الأمراء والأميرات المتزوجات وغير  
المتزوجات . وكان لكل أميرة « باش أغا » على غرار النظام الموضوع للسلطنة  
الوالدة والقادينات . وكان لها أيضاً « باش قاي غلامى » ، و « مايينجى » (١)  
يأمر على عشرة أو اثني عشر شخصاً من خدعيان الحريم . وكان فى مقدور كل  
قادين ، فضلاً عن الباش قادين والسلطنة الوالدة ، أن تستخدم الحصيان فى  
أى مرحلة من مراحل تربيتهن لخدمتهن فى الحريم . فقد كان من حق كل منهن  
أن تستخدم كثيرين من الحصيان . وكان هناك أيضاً عدد من الحصيان السود ،  
يطلق على كل منهم « مصاحب » . ومهمة كل منهم مصاحبة السلطان وهو  
ذاهب إلى أجنحة الحريم ، وكذلك تلقى أوامر السلطان فى بعض الأحيان  
وحملها إلى القصر لأغاسى . وكان عدد المصاحبين يتراوح بين ثمانية وعشرة ،  
يعمل كل اثنين منهم معاً فى وقت واحد ، ويرأسهم جميعاً « مصاحب باشى » .

وكان القصر يهتم اهتماماً بالغاً بنظافة الحصيان وقيامهم بواجباتهم الدينية  
وبمراعاتهم للتقاليد المعمول بها فى القصور السلطانية ويتمسكهم بقواعد  
الإنضباط العسكرية على أكمل وجه . وكان يقوم بمراقبتهم خدعيان يطلق  
عليهم « موصلرة جية » (٢) يرأسهم « موصلرة جى باشى » .

وكان جميع الحصيان حتى رتبة الحاصلى يعاقبون بالضرب . أما الحصيان  
الذين فعلوا مرتبتهن عن مرتبة الحاصلى ، فكان يقتصر على نصيحهم ثم زجرهم .

---

( ١ ) مايينجى مشتقة من كلمتين عريبتين هما : ما ، بين ، أى فى الغرف الوسطى . وكان  
هذا الشخص هو وأقرانه الذين يعملون فى هذه الغرف يقومون بشمة السلطان شخصياً . وكانت  
مهمتهم فيها حسنة ، وتحتاج إلى مهارات خاصة .

( ٢ ) موصلرة كلمة تركية معناها الدولاى أو الصلوق الذى تودع فيه الأشياء الثمينة  
جداً ، مثل الماس والمصوغات الذهبية والفضية وما إليها .

فلذا تكررت أخطاؤهم أو كانت أخطاؤهم جسيمة كان السلطان يصدر خطأ شريفاً بتغيبهم إلى مصر .

### الخصيان السود :

كان يطلق على رئيس الخصيان السود « دار السعادت أغامى » أى أغا دار السعادة (١) . كما كان يعرف باسم « قيزلر أغامى » أى أغا البنات . وكان هذا الرئيس — كما ذكرنا من قبل — يشغل المركز الثالث فى الدولة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . أما أصغر الخصيان السود مركزاً فكان يطلق عليه « إن آشاغى أغا » (٢) En Asagi Aga وهو آخر خصى يلحق بالخدمة فى الحرم السلطانى . وكان لا يحتفظ بهذا اللقب أمداً طويلاً ، لأنه إذا جاء بعده خصى آخر والتحق بخدمة الحرم يتغير تلقائياً لقب الخصى الأول فيصبح « عجمى أغا » أى أغا ناشئ (٣) ، ويترك لقبه القديم للخصى الوافد الجديد .

وكان الخصيان السود فى أثناء الفترة التى يتلقون فيها دراساتهم النظرية وتدريباتهم العملية يستخدمون أحياناً بمثابة حرس لأبواب أجنحة الحرم . وعندما يستكملون دراساتهم وتدريباتهم كانوا يعينون للخدمة التى تبدأ بحراسة أبواب الحرم . ولذلك كانوا ، كما سبق أن ذكرنا ، يعيشون فى حناجر على مقربة من الحرم السلطانى . وكان الطريق أمامهم ممهداً للتدرج فى قيادة حرس الحرم فى أربع مراتب . وكان قوام الترقية الأقليمية المطلقه أحياناً أو الخطوة التى يظفر بها بعضهم أحياناً أخرى من السلطان أو من إحدى سيدات الحرم (٤) . وعند ترقية الخصى كان عليه أن يذهب فى صحبة أحد

( ١ ) دار السعادة اسم يطلق على إستانبول .

( ٢ ) إن آشاغى أغا عبارة تركية معناها الأصغر درجة أو الأدنى مرتبة .

( ٣ ) عجمى أغا ، وجمها عجمى أغوات . ويجب التفرقة بين هذا المصطلح الذى يطلق على صفار الخصيان وبين عجمى أو غلان ، وجمها عجمى أو غلانات ، وهو مصطلح يطلق على ناشئ الإنكشارية .

ولعل منشأ الخلط الذى يقع فيه بعض الباحثين أن كلا من هذين المصطلحين يبدأ بكلمة « عجمى » لأن الإنكشارية والخصيان المبيد جاؤا إلى الحياة غير مسلمين .

( ٤ ) كانوا يرقون إلى رتبة ( نوبت قلفه سه ) ، وبعد حامل هذه الرتبة صف ضابط =

كبار ضباط الحرم إلى « القيزلر آغامى » ويشكره ويقبل رداءه ، ثم يذهب إلى مسجد الخصيان حيث يصلى ركعتين شكراً لله سبحانه وتعالى ، ثم يوزع هبة من المال على المعوزين فى العاصمة .

وجدير بالذكر - وهو ما يهمنى إلى أقصى حد فى هذه الدراسة - أن الخصيان السود الذين أجريت لهم جراحة الخصاء الكامل ، أى الذين استقبلت من أجسامهم الخصيتان وعضو التناسل ، كانوا لا يمتكون أمداً طويلاً حراً على أبواب أجنحة الحرم ، بل كانوا يتقلون سراحاً إلى الخدمة الداخلية فى شتى دوائر الحرم . وكان يشاركون فى هذه الخدمة الخصيان البيض من ذات النوعية ، أى الذين أجريت لهم جراحة الخصاء الكامل ، وكانوا يؤدون الخدمة الداخلية فى مختلف صورها وأشكالها وأنواعها لسيدات الفئة الأولى من الحرم السلطانى مثل السلطنة والدة والباش قادين والقادينات وبنات السلطان بالإضافة إلى فتيات الغرف ومن إلين من الجوارى الحسن دون أن تشعر هؤلاء السيدات بمخرج ، ودون أن يشعر السلطان بقلق أو تخوف من أولئك الخصيان ، لأنه كان مطمئناً الاطمئنان كله إلى سليبتهم الجنسية . ولذلك يقرر بعض المؤرخين أن أفراد هذا النوع من الخصيان كانوا يشكلون جزءاً من الهيئة النسائية فى الحرم السلطانى (١) ، وهو تعبير يفتى عن كل تعليق . ومع ذلك فقد كان السلاطين يفضلون الخصيان السود على الخصيان البيض فى مجالات الخدمة الداخلية الحساسة .

وكانت الدولة تخصص خصياً أسود أو أكثر من خصى لكل أمير محددة لإقامته فى مقصورة يطلق عليها القفص ، وعليه أمير القفص (١) . وكان هؤلاء الخصيان السود يعملون فى خدمته بصفتهم المعلمين أو المشرفين عليه . وكان يطلق على كل منهم كلمة لا لا Iala . (٢)

= وكان لا يزيد عدد شاغل هذه الرتبة عن خمسة خصيان سود . وكان من اختصاصاتهم وظائف الإسهام فى حراسة السلطان داخل منطقة الحرم السلطانى حين يخرج مع إحدى ساكنات هذه المنطقة للتزود فى حدائقها . وكان من اختصاصهم أيضاً تنلوب المحافظة على مفاتيح الأبواب الأربعة المؤدية إلى منطقة الحرم . وقد سبق أن تعرضنا بالشرح لمعنى هذه الرتبة فى هذه الدراسة .

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit. vol. 1, Part 1, p. 77.

(٢) سبق أن شرحنا مدلولات هذا التعبير .

انظر ص ٦٥٧ ، ح ٢



وقد بلغ عدد الخصيان السود في الحريم السلطاني في القصر الجديد في القرن الثامن عشر مائتين. ولا يدخل ضمن هذا العدد الخصيان السود الذين كانوا يستخدمون في القصر القديم وفي غيره من القصور السلطانية .

ولكن على قدر هذا النفوذ الواسع العريض الذي تمتع به رئيس الخصيان السود، فإنه كان يتعرض للدسائس والمؤامرات تحاك له من داخل أجنحة الحريم السلطاني . ولا يلبث أن يرى نفسه قد هوى بين عشية وضحاها من قمة النفوذ إلى حضيض الضياع ، إذ يصدر السلطان « إرادة » بعزله من منصبه ونفيه إلى مصر ، ويغادر إستانبول التي شهدت مجده . ويسبقه إلى مصر فرمان سلطاني موجه إلى الباشا العثماني بتقرير مرتب يصرف من ديوان الروزنامة لهذا الخصى المزعول . فلماذا وصل الأغا إلى مصر واطمأن إلى المورد المالي الثابت الذي يعتمد عليه في وضعه الجديد ، قام بأداء فريضة الحج في ذات السنة . وكان بعضهم يفضل الإقامة ببقية حياته في مكة المكرمة أو المدينة المنورة . وكان البعض الآخر يعود إلى مصر يقضى فيها وعلى ثراها ما تبقى له في الحياة من خطوات . وكان هذا الفريق من رؤساء الخصيان السود يشارك في الحياة السياسية المصرية في النطاق الذي يجيده ويرتاح إليه . فكان يسهم مع الأمراء المالك في حبك الدسائس التي تستهدف عزل الباشا العثماني من منصبه وإزاله من قصره في قلعة الجبل وتحديد إقامته حتى تتم محاسبته على تصرفاته المالية . وكان رئيس الخصيان السود يستضيف الباشا العثماني ، أو يحدد له شيخ البلد - وهو كبير الأمراء المالك - مكاناً آخر هو القصر العيني يقيم فيه حتى يتم ترحيله من مصر . ويجدير بالذكر أن الأغوات الخصيان السود كانوا يحملون معهم من إستانبول إلى القاهرة مدخراتهم المالية ، ويعملون إلى استثمارها في مصر بشراء أرض زراعية أو عقارات مبنية دارة ، على أن تحول عقب وفاتهم إلى وقف خيري ينفق لإبراده على أوجه الخير مثل المساجد والتكايا والأسبلة وما إليها. ويذكر أحد المؤرخين السويسريين وهو الأستاذ كرمب أن أحد الأغوات الخصيان السود كانت له ممتلكات كثيرة في مدينة زفتى بالوجه البحري (١) .

## الخصيان البيض :

كان يطلق على رئيس الخصيان البيض « باب السعادت أخاسى » أى أغا باب السعادة (١) ، كما كان يطلق عليه « قابى أخاسى » أى أغا البوابة (٢) . وكان الخصيان البيض يتقاسمون فى بعض الأحيان مع زملائهم الخصيان السود العمل فى حراسة وخدمة الحرم السلطانى . ونقول « فى بعض الأحيان » لأنه كان هناك شد وجذب بين أفراد الطائفتين مرده إلى التنافس على الاستئثار بالنفوذ فى القصور السلطانية ، وسنشير إليه فى موطن قادم فى هذا الفصل . وطبقاً لما ذكره أحد المؤرخين العثمانيين ، وهو عطا طيار زاده أحمد (٣) ، كان السلطان مراد الثانى ( ١٤٢١-١٤٥١ ) أول من استخدم الخصيان البيض فى هذه الخدمة . وكان يؤتى بهم من إقاييم القوقاز ، شأنهم فى ذلك شأن الجوارى اللاتى كان القصر يحصل عليهن بطريق الشراء من تجار الرقيق بسبب جمالهن الفاتن . وظلت حراسة الحرم الساطانى منوطة بالخصيان البيض حتى إذا ارتقى العرش السلطان مراد الثالث ( ١٥٧٤-١٥٩٥ ) استبدل الخصيان السود بالخصيان البيض . ومعنى ذلك أنه منذ أوائل القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن السادس عشر كان الخصيان البيض هم الذين يستأثرون بحراسة الحرم السلطانى وبالخدمة الداخلية فى القصور السلطانية .

وكان يعاون رئيس الخصيان البيض خمسة مساعدون من كبار أفراد هذه الطائفة - الخصيان البيض - وكان يطلق على كل منهم لقب معين ، ولكل منهم اختصاصات محددة (٤) . وكان يلى هؤلاء المساعدين أعداد أخرى من

( ١ ) يطلق عليه أيضاً ضابط باب السادة .

( ٢ ) يطلق عليه أيضاً ضابط الباب . وترد كلمة قابى مكتوبة قبو ، وكلتاهما كلمة تركية

معناها باب

( ٣ ) يسمى كتابه : « تاريخى عطاء وهو يقع فى خمسة أجزاء . وقد طبع فى إستانبول عام

١٢٩٣ هـ ويقابل عام ١٨٧٦ م . وقد نقلنا رأيه الذى ذكره فى ج ١ ، ص ٣٤ ، ص ٣٦ من

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 76.

( ٤ ) كان هؤلاء المساعون :

الخصيان البيض كانوا على شاكلة من سبقوهم، محتافى الألقاب والاختصاصات (١)، تلهم مجموعات كثيفة العدد من زملائهم لأن تعرضوا المكرم اكتفاء بما عرضناه .

وكان الخصيان البيض يشرفون على تعليم وتدريب الغلمان - وهم من حصيلة ضريبة ديوشه (٢) - وكان يطلق على هؤلاء الغلمان المبتدئين « الإيج أوغلان » (٣) وكان الخصيان البيض يقومون بهذه المهمة في جالاتسراى (٤)،

أ - خاص أوطه باشى ، أى كبير المشرفين على الأوطه الخاصة ، وأوطه منها جناح .

ب - خزينة دار باشى ، أى رئيس خزانة القصر .

ج - كلارجى وهو المشرف على الكلار ، أى مستودع المواد الخفيفة في القصر .

د - السراى أغاسى أى أغا أو ضابط القصر . وكان من اختصاصاته تأمين سلامة مباني القصر . ولهذا السبب كان يعمل تحت قيادته أريمون خصياً .

هـ - السراى كاغياسى أى مفتش القصر . واستثناء من القاعدة العامة لم تكن اختصاصاته محددة .

( ١ ) كان من بينهم :

أ - خمسة يطلق عليهم « كوسه باشية » أى رؤساء الركن Heads of the Corner ومهمتهم الإشراف على سلوك مرؤسيهم والاطمئنان إلى قيامهم بواجباتهم على الوجه الأكمل .

ب - عدد غير محدد من « الباشى إسكيه » أى كبار الرؤساء . وكان يطلق على أكبرهم رتبة « أوطه كاغياسى » أى مفتش الأوطه .

ج - إثنان من « الأوزنكى أغاسيه » أى أهوات الركاب . وكان يطلق على أحدهما « البىنى » ، وعلى الآخر الشالى أو اليسارى ، لأنها كانتا يسيران على جانبي السلطان حين يكون متطياً صهوة حصانه .

د - عدد من الخصيان البيض الأقل مرتبة ، ويطلق عليهم « سفرة إسكيسية » أى رؤساء المائدة Seniors of the Table وكان اختصاصهم الإشراف على نوبات طعام « الإيج أهوات » .

( ٢ ) ضريبة الغلمان .

( ٣ ) كان يطلق على الغلمان الذين قضوا مدة طويلة في الخدمة « إيج أهوات » أى أهوات الداخل . بمعنى موظفين في الخدمة الإمبراطورية الداخلية . وفي المصور المبكرة كان من النادر أن يجاوز عمر كبار الغلمان خمساً وعشرين سنة . ولكن بعد إلغاء نظام ضريبة الغلمان أصبح كبار الغلمان رجالاً تبلغ أعمارهم في المادة سبعين عاماً أو أكثر ، ولذلك كانوا لا يظنون في آخر منصب يحصلون عليه أكثر من سبع سنوات .

( ٤ ) قصر مقام في جالاته وهو إحدى ضواحي إستانبول .

أو في القصر القديم في أدرنة ، أو في قصر إبراهيم باشا الذي أنشئ على عهد السلطان سليمان المشرع في الموضع الذي شيد فيه بعد ذلك مسجد السلطان أحمد . وكان هؤلاء الغلمان ينظمون في مجموعات ، قوام كل مجموعة عشرة ، ويرأس شخص أبيض كل مجموعة منها .

وأضيفت إلى اختصاصات رئيس الحصيان البيض الإشراف على الأوقاف المرصودة على الأراضي المقلسة في الحجاز . وكان يعاونه في إدارة هذه الأوقاف طائفة من الموظفين من خارج القصر وبعض علماء الدين من أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة ، ثم استطاع رئيس الحصيان السود انتزاع إدارة الأوقاف من رئيس الحصيان البيض وتصادف نفوذه بسبب هذا العمل الجديد (١) . وكانت تصرف لروساء الحصيان في مقابل إشرافهم على الأوقاف مرتبات إضافية تسمى ثمن الحذاء - جزمة (٢) - وقيل في تبرير صرف بدل الجزمة لرئيس الحصيان إن إشرافه على إدارة الأوقاف كان يستغنى عنه جهداً مفضياً ووقتاً طويلاً . وفي القرن الثامن عشر كان رئيس الحصيان السود يشرف على الأوقاف المرصودة على خمسمائة مسجد . وكان يرأس اجتماعات أسبوعية يحضرها المتولون (٣) مختصون بما يسمى « الحرميين ديواني » أي ديوان الحرمين . وكان يساعد رئيس الحصيان عدد من رجال القضاء كان يطلق على أحدهم « حرمين مفتش » أي مفتش الحرمين واثنتان من القضاة من فئة نائب يقيم أحدهما في بروسة والآخر في أدرنة . وكان من أسباب اختيار رؤساء الحصيان مشرفين على أوقاف الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ،

(١) ما هو جدير بالذكر أن بعض كبار سلاطين الدولة مثل محمد الثاني وسليم الأول وسليمان المشرع قد حينوا الصعود العظيم نظاراً على الأوقاف المرصودة على مساجدهم ، بينما عين السلطانان أبويزيد الثاني وأحمد الأول شيخ الإسلام ناظرًا على مثل هذه الأوقاف .

(٢) الجزمة كلمة تركية تعني الحذاء ذا الرقبة الطويلة أو حذاء ركوب الخيل . ومنها اشتقت العبارة التركية جزمة جي باشي أي كبير صائمي الأحذية ، ويشتق مؤسساؤه لأرجاعات أرباب الحرف .

(٣) المتولون جميع متول وهو بمثابة مدير إدارة الوقف . ويطلق على منصبه في اللغة التركية « توليت » أي تولية ، و « الناظر » وهو أعلى مرتبة من المتول ، إلا كان يشرف على أعماله ، و « السكرتير » و « المحلل »

وعلى الأوقاف السلطانية أيضاً العلاقات الوثيقة التي كانت قائمة بين السلاطين وبينهم .

### التنافس على مراكز القوى بين الخصيان السود والخصيان البيض :

قام تنافس شديداً بين الخصيان السود والخصيان البيض كان مرده إلى رغبة كل طائفة منها في الاستئثار بالنفوذ الأعلى في دوائر القصور السلطانية وفي شئون الدولة . وقد سبق أن ذكرنا أن رئيس الخصيان السود كان يشغل المركز الثالث في الدولة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . وكان هذا العبد الخصى في درجة وزير . ونضيف هنا أن الرسائل التي ترجه إليه باللغة التركية كانت تسهل بهذه العبارة « دولتو عزابتاو أفندم حضرتلرى » أى حضرة صاحب الدولة والفخامة والاحترام « أما الرسائل التي توجه إليه باللغة الفرنسية فكانت تكتب مسبوقه بهذه العبارة الفرنسية . *Votre Altesse* أى « حضرة صاحب السمو » أسوة بأمراء الأسرة العثمانية الحاكمة . وكانت له هيئة من السكرتيرين المخصوصين يعرضون عليه المراسلات الموجهة إليه . وكان السلطان يطمئن إلى الخصيان السود ورئيسهم أكثر من اطمئنانه إلى الخصيان البيض ورئيسهم عادة . ولهذا السبب كانت اتصالات الصدر الأعظم بالسلطان تتم في معظم الأحيان عن طريق رئيس الخصيان السود .

وفي أواخر القرن السادس عشر اهتز مركز الخصيان البيض اهتزازاً عنيفاً على عهد السلطان مراد الثالث ( ١٥٧٤-١٥٩٥ ) فقد أصبح هذا السلطان فرماناً في عام ١٥٨٢ بتعيين أحد كبار العبيد الخصيان السود في منصب دار السعادت أغاسى . وكان هذا المنصب حتى ذلك الوقت تابعاً إما للخزينة دار بائى وإما للسراى أغاسى . وقد استرد الأخير هذا المنصب بعد قرابة عشر سنوات ، ثم أعيد هذا المنصب نهائياً إلى الخصيان السود حين تولى السلطان محمد الثالث العرش ( ١٥٩٥-١٦٠٣ ) وانتقل نهائياً الإشراف على الحرم وعلى التفتيش على بعض الأوقاف السلطانية من يد القابى أغاسى - وهو رئيس الخصيان البيض - مما أدى إلى إضعاف نفوذ الخصيان البيض

وتضاءلت اختصاصاتهم . وعلى سبيل المثال أصبحت مهام الخاص أوطه باشى - وهو أحد كبار المساعدين الخمسة لرئيس الحصيان البيض - مقصورة على إلباس ملابس التشريفة لكبار الموظفين مثل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وبعض موظفى القصر . وبذلك غدا هذا الحصى الأبيض الكبير مجرد تشرىفاً للخدمة الداخلية . وأطلق عليه فى وضعه الوظفى الجايد «أندرون تشرىفاًجى» (١) . وانعكس هذا الوضع الوظفى المتدهور على كبار الحصيان البيض إذ سببت منهم اختصاصاتهم الواسعة ، واقتصرت مهام الخزينة دار باشى والكلارجى باشى على التفتيش وعلى تزويد عتار نومهم بالطعام ، ولكن ظل السراى أغاسى - أى أغا القصر - وهو من كبار الحصيان البيض يشرف على القصر فى أثناء غياب الدخان والضباط الذين كانوا يرافقونه . وكان هناك تسرى لحدى ضواجرى إستانبول يسمى «جالاطه سراى» تحت إشراف حصى أبيض ، ولكن ما بدأ القرن الثامن عشر حتى كان الحصيان البيض قد نقص عددهم نقصاناً كبيراً وفقدوا مركزهم المتميز السابق إلى الأبد . وقا . ذكر المؤرخ الفرنسى دوسو D'Ohsson أن عدد الحصيان البيض قد هبط فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر إلى ثمانين شخصياً ، بينما تجاوز ١٠٠ الحصيان السود مائتى شخصياً (٢) .

### محاولة إلغاء نظام الحصيان :

وقد تغلغل الحصيان فى العديد من وظائف القصور السلطانية وتميزت خدمتهم فى معظم الأوقات بالأمانة والإخلاص والكفاية والطاعة العمياء ، ولكن يؤخذ عليهم أنهم أعطوا لأنفسهم ثقلاً أكثر من اللازم وسيطر عليهم الغرور . وقد أدرك بعض كبار رجال الدولة خطورة استفحال نفوذ الحصيان فى القصور السلطانية وفى أجهزة الحكومة . كانت القصور السلطانية مليئة بالزوجهات والجوارى . وكان إشراف الحصيان على شئونهن والقيام على حراسهن والاتصال بهن اتصالاً مباشراً ودائماً قد أدى إلى نقل شطر كبير

(١) أندرون كلمة فارسية أدخلت فى اللغة التركية ، ومعناها داخل أو فى الداخل .

D'Ohsson; op. cit., Vol 7., p. 57.

(٢)

من السلطة العليا إلى الخصيان ، إذ كانوا ينقلون رغبات هؤلاء السيدات إلى المختصين في الباب العالي وغيره من الدوائر العليا في الحكومة، فأصبح الخصيان مركز قوة رهيب في الدولة . وقد جرت محاولة في عام ١٧١٦ لإلغاء استخدام الخصيان البيض والسود على السواء في القصور السلطانية . وكانت هذه المحاولة على عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) . وأرسلت إستانبول تعليمات إلى الباشا العثماني في القاهرة لوقف عمليات نخصاء العبيد والكف عن إرسالهم إلى السلطان . وكان صاحب الفكرة في إلغاء هذا النظام أحد الصلحور العظام - وهو جور ليل داماد على باشا . ولكن ما لبثت أن عادت الأمور بعد وفاته إلى أوضاعها السابقة .

#### محاولة للحد من نفوذ الخصيان :

وجرت محاولة في أثناء حكم السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧-١٧٧٤) للحد من نفوذ الخصيان على الأوقاف خارج القصور السلطانية ، فألغى راغب باشا الصدر الأعظم تنظروءساء الخصيان على الأوقاف ، ووقف موقفاً حازماً منهم ، وجعل الإشراف على جميع إيرادات الأوقاف من اختصاص الدفتردار وهو رئيس الشؤون المالية في الدولة - وقد نجم عن حركة التطهير التي قام بها راغب باشا أن زادت حصيلة الأوقاف زيادة كبيرة . وانكشف نفوذ الخصيان ورؤسائهم . ولكن أخضقت هذه المحاولة ، لأن حركة الإصلاح لم تعم سوى سنوات قليلة العدد ، وعاد نشاط الخصيان خارج القصور إلى وضعه السابق . ونجح القيزلر أغاسي - رئيس الخصيان السود - في حمل الحكومة العثمانية على أن تموضه هو وزملاءه الذين كانوا يعملون معه كمساعدين له في نظارة الأوقاف عن الخسائر التي لحقت بهم طوال الفترة التي حرموا فيها من دخلهم من الأوقاف . ودفعت هذه التعويضات من الزيادة التي طرأت على إيرادات الأوقاف .

وإزداد الموقف تدهوراً لأن رئيس الخصيان السود سعى جاهداً لدعم وترسيخ نظام الخصيان ، وأصبح يمارس نفوذاً كبيراً على السلاطين أنفسهم

بصورة غير مسبوقة بمثال ، وغدا من أكبر مراكز القوى في الدولة .

### تصاعد نفوذ الخصيان :

التحمت مصالح الحريم السلطاني مع مصالح الخصيان ورؤسائهم التماساً وثيقاً . كانت نساء الحريم يصدرن إلى الخصيان حيناً ، وإلى رؤسائهم أحياناً ، رغباتهن التي كانت تأخذ شكل أوامر فينقلها رئيس الخصيان إلى الصدر الأعظم أو الوزراء أو غيرهم من كبار الموظفين في أجهزة الدولة . فتأخذ هذه الأوامر طريقها إلى التنفيذ القوي . وكانت هذه الرغبات أو الأوامر ذات طابع شخصي أحياناً ، وأحياناً أخرى ذات طابع عام تتصل بالأوضاع الوظيفية لكبار رجال الحكومة أو السياسة العليا للدولة . وفضلاً عن ذلك كان الخصيان يسهمون في تنفيذ المؤامرات التي كانت تحاك في داخل القصر . وكان لإسهامهم فيها يتم تحقيقاً لرغبة الحريم السلطاني . فكان الخصيان بطائفتهم - السود والبيض - هم اليد اليمنى لسيّدات الفتنة الأولى من الحريم السلطاني . وكانت هؤلاء السيّدات يغدقن من وقت لآخر المنح والعطايا في شتى صورها وأنواعها على الخصيان ، فيزداد الواحد منهم تفانياً في خدمتهن . وكلما شعر أنه مؤيد منهن أدى مهمته لدى كبار رجال الدولة في حزم وقوة بل وفي صرامة ، لأنه كان يشعر أنه يتكلم من مركز قوة ، وهو نفسه مركز قوة . ومن هنا تفاقم نفوذ الحريم السلطاني والخصيان تفاقماً خطيراً في دوائر الحكومة بحيث غدت هاتان الفئتان من أخطر مراكز القوى في الدولة .

والواقع أن ولاء الخصيان للحريم السلطاني كان أعمق من ولائهم للدولة بدافع المصاحبة الذاتية المشتركة في النطاق الضيق . وكانوا يستمدون نفوذهم كتركز قوة في الدولة من اتصالهم الدائم والوثيق بأولئك السيّدات . ولذلك كان نفوذهم يزداد زيادة طردية مع نفوذ الحريم السلطاني ، بمعنى أن نفوذ كل من الحريم والخصيان كان يتصاعد معاً بحيث أصبحت هاتان القوتان تشكّلان مركزين متساندين متحالفين من أكبر مراكز القوى في الدولة ، بل لعلها كانا يكملان بعضهما بعضاً .



ولذا كان الخصيان قد عماروا لتحقيق رغبات سيدات الحريم السلطاني وتنفيذ رغباتهن ، فلأنهم لم ينسوا أنفسهم . وعملوا أيضاً من أجل تأمين مصالحهم الشخصية . وحسبهم أنه حيل بينهم وبين لإنجاب ذرية تكون عوناً لهم في شيخوختهم الواهنة . ولم تكن لهم حرية رفض أو قبول لإجراء عمليات الخصاء لهم ، إذ كانوا قد فقدوا حريتهم وكرامتهم بل وأدميتهم . ووجدوا في وضعهم الجديد ودم في نهاية المطاف أنهم على قار من الأهمية ، وأن الطريق أمامهم متشعب ، وأن السبيل إلى المجد ذى البريق المزمع المرتقت سيسر ، فلأن عدداً من الوظائف القيادية التي كان الخصيان يتدرجون في الترقية إليها كان يشغل بالأقدمية المطلقة ، وكان عدد آخر من هذه الوظائف يشغل نتيجة الحظرة التي يذئبر بها الخصيان من لدن الحريم السلطاني ، فضلاً عن أن عدداً من الأغوات الخصيان كانوا يتعرضون للعزل إذا غضبت سيدات الحريم السلطاني عليهم . لذلك كانوا يتفانون في خدمة هؤلاء السيدات بوجه خاص ابتداء من القادين الرابعة فصاعداً حتى السلطانة الوالدة . وكانوا أداة طيعة لينة في أيديهن . وعلى الرغم من حرهم وطاعتهم ، كانوا يتعرضون في بعض الأحيان لدسائس الحريم السلطاني ، وما كان أكثرها في السراى الجديد حيث كان الجو موبوءاً في أجندة الحريم . ويفاجأ كبير الأغوات الخصيان وبعض مساعديه بالعزل . ولذلك كان الخصيان بعامة وكبارهم بخاصة يعملون حساباً لمواجهة مثل هذا اليوم العصيب، وقد جردوا من المنصب والجاه والنفوذ وأغلقت في وجوههم الأبواب بعد أن كانت تعزو لهم جباه الجميع، وأصبحوا بن عشية وضحاها نسياً منسياً .

وهدى تفكير الخصيان إلى تكوين ثروات خاصة بهم جمعوها إما عن طريق المدخرات المالية الشخصية والهدايا التي يحصلون عليها من سيدات الحريم السلطاني أو من كبار الشخصيات التي كانوا يتقربون بها إليهم ، وقد عملوا على مضاعفة هذه المدخرات إما من التناظر على الأوقاف الخيرية أو الأهلية . وإما عن طريق الكسب غير المشروع . وكانت الفرص أمامهم متاحة وبعاقبة ، لأن شغل المناصب الكبرى في الدولة أو منح الألقاب كان يتم بطريق الوفاة

والنفوذ، وبعبارة أخرى لمن يدفع فيها أغلى ثمن . وكان الثراء يظهر عليهم بعد عزلهم من مناصبهم ونفيهم إلى مصر حيث يقتنون العقارات المبنية أو الأرض الزراعية يحصلون على دخلها طوال حياتهم ، وينصون على تحويلها إلى أوقاف شخصية بعد مماتهم .

وكانت نهاية الحصيان والحريم السلطاني متقاربة إن لم تكن متشابهة . فإذا جاز السلطان إلى ربه انتقلت سائر سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطاني من السراى الجديد إلى السراى القديم وعشن على ذكرى مجد ولى . وقضين بقية أيامهن مغمورات أو على هامش الحياة . وقد يسعى أحد الوصوليين من كبار رجال الدولة ليتزوج إحدى القادينات السابقات وبخاصة اللاتي لم يتجنبن من السلطان المتوفى ذكوراً أو إناثاً . ويستهدف مثل هذا الوصولي أن يصيب من مثل هذه الزيجة مغناً .

وكان يحدث نفس المصير تقريباً بالنسبة للخصيان ، لأن ارتقاء سلطان جديد العرش كان يقترن عادة بحركة تغييرات أو تنقلات بين شاغلي المناصب القيادية بين الخصيان . فقد يكون لمثل هذا السلطان الجديد نساء ، أو يسارع ليجعل له نساء ويصبحن على قمة الحريم السلطاني ، ويقع اختيارهن على خصيان آخرين يتوسمن فيهم الأمانة والإنخلاص ويخبو نجم الخصيان السابقين .

والحق أن نمو نفوذ الخصيان ، وتسلسل هذا النفوذ إلى أجهزة الدولة على أعلى المستويات ، ونجاح هذه الفئة من العبيد في أن تجعل من أفرادها مركز قوة خطير ، كل أولئك يعد نقطة سوداء في تاريخ دولة إسلامية كبرى مثل الدولة العثمانية .



## الفصل الثالث والعشرون

### تقييم مراكز القوى في الدولة

عهد ملئ بالمتناقضات :

في تاريخ الدولة العثمانية وفي الشطر الأول من عصرها الثاني ظاهرتان تبدوان للبعض أنهما ظاهرتان غريبتان ومتناقضتان تناقضاً صارخاً مع المعالم الرئيسية لتاريخ الدولة في تلك الفترة ، ويقف حيالهما بعض المؤرخين والباحثين حيارى في تفسيرهما . وتتمثل الظاهرة الأولى في أن الدولة حققت انتصارات عسكرية هامة في جبهات جديدة أو في جبهات قديمة على عهود مراكز القوى حين كان على رأس الدولة سلاطين ينتمون إلى العصر الثاني عرف بعضهم باسم السلاطين « التنايلة » *fainéants* وعرف البعض الآخر باسم السلاطين الذين لا يراهم أحد *Invisibles* لأنهم احتجبوا عن الشعب والجيش والصلور العظام والوزراء ومن إليهم من رجالات الدولة ، وآثروا حياة المتع ومط نساءهم وجوارهم . ثم كان هناك السلطان المعتوه إبراهيم الأول . وقد رزئت الدولة بهم وتعاقبوا على عرشها إما تعاقباً مباشراً ، وإما على فترات متقاربة كأن يفصل بينهم سلطان واحد قد برقوى الشكيمة لا يلبث أن يخبى بريق حكمه بوفاته ، ثم يتعاقب على العرش سلاطين ضحاف يسرفون إسرافاً بعيداً في الملذات ويبددون أوقتهم وجهودهم في حياة اللهو والخبون مما أتاح مناحاً صحياً لمراكز القوى فامتدشروا نفوذها وطغيانها وجبروتها ، سواء الفياقق الإنكشارية أو الحريم السائد في أو الخصيان وروساء الخصيان . وإذا كانت الدولة على عهد مراكز القوى قد انتهت بكوارث عسكرية حيناً وهزائم حربية أحياناً في بعض الجبهات إلا أنها أحرزت انتصارات عسكرية وسياسية هامة جداً في ذات الوقت . ونذكر على سبيل المثال ما حدث على عهد السلطان سليم الثاني الذى اشتهر

في تاريخ الدولة باسم السكير ، وبارتكابه المويقات ، وبالتصاقه بصحبة  
السوء ، فقد تم إبان حكمه إرسال الحملة العسكرية بقيادة سنان باشا عام  
١٥٦٩ لإعادة السيطرة العثمانية على اليمن ، وفتح جزيرة قبرص (١٥٧٠-  
١٥٧١) . أما حملة اليمن فكانت دعماً للإستراتيجية العثمانية في البحر الأحمر  
وغلقت هذا البحر في مواجهة الغزو البرتغالي الصليبي الاستعماري للبحار  
الشرقية والأقاليم التي تطل عليها ، لأن اليمن بحكم موقعها في جنوب غربى  
الجزيرة العربية وإشرافها على باب المندب تعد منطقة دفاع هامة عن حدود  
الدولة العثمانية من ناحية الجنوب بحيث تستطيع بالسيطرة على اليمن أن تطمئن  
إلى سلامة الأراضي المقدسة الإسلامية في الحجاز من الغزو البرتغالي (١) . وكان  
استيلاء الدولة على قبرص نجاحاً عسكرياً رائعاً إذ انتزعت من جمهورية  
البندقية هذه الجزيرة التي كانت تتخذها قاعدة عسكرية صليبية تهدد  
المواصلات العثمانية البحرية في الحوض الشرقى للبحر المتوسط . وكانت

(١) أنظر كلامين :

دكتور السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨-١٦٣٥ ، من مطبوعات معهد  
البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، الفصل الخامس بعنوان : الفتح العثماني الثاني لليمن  
١٥٦٩-١٥٧١ ، ص ص ٢٣٥-٢٨٦

دكتور فاروق عثمان أباطة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨ .  
لناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٤٩

دكتور عبد الميزيد محمد الشناوى : المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة  
العربية وموقف الدول الإسلامية الثلاث الكبرى منه ، مرجع سبق ذكره ويلاحظ أن العثمانيين  
أخرجوا من اليمن عام ١٦٣٥ ولم يعودوا إليها إلا في منتصف القرن التاسع عشر ليقوموا بحكمهم  
فيها قرابة نصف قرن تحولت فيها اليمن إلى « مقبرة لأبناء الأناضول » حتى تم جلاؤهم عنها عقب  
الحرب العالمية الأولى . وكانت طبيعة بلاد اليمن عقبة أمام القوات العثمانية ، لأن بلاد اليمن لا تصلح  
لحرب نظامية ، كما أن أهل اليمن كانوا يتحسسون بأن يكون حكمهم من ينتمون إلى مذهب  
دينى معين هو الإمامية الزيدية . يضاف إلى هذين السببين بعد اليمن عن إستانبول ومشقة نقل  
القوات إليها إذ لم تكن قد شقت بعد قناة السويس . وكان أهل اليمن يطلقون على الحكام العثمانيين  
« ولاة الصم » ومع ذلك فقد أسس العثمانيون خدمات جليلة لليمن .

انظر عرضاً لهذه الخدمات في :

دكتور السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث اليمن والإمام يحيى ( ١٩٠٤-١٩٤٨ )

من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ص ٢٨-٣٠

( ٤٣ - الدولة العثمانية )

العمليات الحربية في اليمن وقبرص تأكيداً عملياً للخصيصتين الرئيسيتين للدولة ، وهما الطابع العسكري والطابع الدينى في مواجهة الغزو البرتغالى الصليبي والتسلط البندقى . ولم يشترك السلطان سليم الثانى فى هذه العمليات الحربية ، ولكن أسهم فيها إسهاماً فعلياً رجال أفذاذ تركهم السلطان سليمان المشرع لابنه سليم الثانى (١) .

وحققت الدولة نصراً عسكرياً آخر حين انزعت تونس فى شهر أغسطس - آب - عام ١٥٧٤ من حكم إسبانيا . وكانت أوروبا ترى أن استيلاء الإسبان على تونس من أبهى الصفحات فى تاريخ الإمبراطور شارل الخامس - شارلكان - ومن مفاخر حكمه . ولكن أطاحت الدولة العثمانية بهذه المفخرة وأعادت تونس إلى حظيرة العالم الإسلامى العثمانى وحفظت لهذه النيابة (٢) لإسلامها وعروبتها . وقد تم هذا الانتصار بفضل سنان باشا

---

(١) نذكر منهم فى الجهة اليمنية : سنان باشا قائد الحملة ، وعثمان باشا ، ورموف باشا ، وغنغار باشا ، وحسى باشا .  
وفى الجهة القبرصية :

مصطفى باشا قائد القوات البرية ، وبيال Piali باشا قائد الأسطول ، ودرميش باشا والى حلب ، وإسكندر باشا والى الأناضول ، وبهرام باشا والى قرمان .

(٢) دخلت ثلاثة أقاليم فى شمال إفريقيا تحت السيادة العثمانية فى القرن السادس عشر ، وهى حسب ترتيب تأسيسها : الجزائر ، وطرابلس الغرب ، وتونس . وقد أطلق الأستاذ محمد شفيق غربال على هذه الأقاليم الثلاثة اسماً علمياً هو النيبات . فقال فى فصل عنوانه « الأوضاع الراهنة فى حول المغرب العربى ما نصه » وأرى أن أسمها « نيبات » نقلاً عن المصطلح المصرى السورى فى أيام السلطنة المملوكية ، حينما كانوا يطلقون على دمشق أو حلب أو ما مائل اسم النياحة ، وحاكمها نائب السلطة . كما أطلق الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شكرى على هذه الأقاليم الثلاثة « الأوجايات » نسبة إلى أوجاق السلطان أو أوجاق الإنكشارية .

أما حكام أوروبا ومؤرخوها فقد أطلقوا عليها **Les Régences Barbaresques** وهى تسمية تنطوى على غيب وتلاحب بالإنفاذ ، لأنها تعنى أحد مدلولين ، أولها : النيبات المتجبرة أو الهجبة ، وثالثها نيبات البربر ، وهم القبائل التى تقطن شمال إفريقيا بعيداً من الساحل . وباستقراء النصوص الفرنسية أو الإنجليزية التى يرد فيها ذكر هذه الهجبة يتضح أن مدلول النيبات المتجبرة الهجبة هو المقصود . وما يؤيد رأينا أن المؤرخ الفرنسى دو **Douin** نشر مجموعة من الوثائق الخاصة بشمال إفريقيا . وجاء فى الوثيقة رقم ٣٧ هذه العبارة **Les Etats Barbaresques** أى الدول المتجبرة الهجبة .

قبل أن يقضى سليم الثاني السكير نجبه في اليوم الثاني عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - من ذات السنة إثر نوبة قلبية أصابته نتيجة إصرافه في المسائل الجنسية وإفراطه في تناول الخمر (١).

ونجحت الدولة أيضاً نجاحاً عسكرياً باهراً على عهد السلطان محمد الرابع حين تم لها في اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٦٦٩ احتلال جزيرة كريت على الرغم من المساعدات التي قدمها لويس الرابع عشر ملك فرنسا (١٦٤٣-١٧١٥) لجمهورية البندقية. ولكن كان أحمد باشا كوبرلي الصدر الأعظم قد انتقل إلى جزيرة كريت ليكون على رأس

== وما هو جدير بالذكر أن إتهام حكومات أوروبا في القرن التاسع عشر كان منصبا على الأجزاء الساحلية من أقاليم شمال إفريقيا حيث كان سكانها المغاربة والعرب والأتراك العثمانيون يباشرون عمليات الجهاد النقيض البحري ضد السفن المسيحية التي ذابت على التبرص للسفن الإسلامية في حوض البحر المتوسط ومصادرة حمولاتها وأسر ركبها. وكانت السفن الإسلامية المسلحة يطلق عليها «مراكب الجهاد» تخرج من موافق شمال إفريقيا للدفاع عن السفن الإسلامية ولم تكن تخرج للقرصنة. ومع الأسف الشديد حدا بعض المؤرخين والباحثين العرب حلو للقروغين الأوروبيين وأطلقوا على سلسلة شمال إفريقيا صفة القرصنة. والحق أنهم قاموا بدور واضح في الدفاع عن الإسلام والعروبة أو السيادة العثمانية، وفي الكفاح ضد استعمار أوروبي كانت تزايد أخطاره يوماً بعد يوم. وقد تولى تصحيح هذه الفرية أو الخطأ المتصد الثالغ بعض الأساتذة، فذكر منهم على سبيل المثال الأستاذين الدكتورين جلال يحيى وصلاح العقاد.

انظر المراجع التالية حسب ترتيب ورودها في هذه الحاشية :

محمد شفيق غريبال : منهاج مفصل ألغ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٠ .

دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر في مطلع القرن التاسع عشر . ثلاثة أجزاء . مطبعة جامعة

القاهرة ، ١٩٥٨ ، ج ٢ ، ص ٨٥٥-٨٥٦

Douin George; Mohamed Aly et l'Expédition d'Alger. Le Caite, 1930, p. XLIV et P. 108

دكتور جلال يحيى : المدخل إلى تاريخ العالم العربي الحديث . الناشر : دار المعارف ، القاهرة

١٩٦٦ ، صص ٣٦-٣٧

دكتور جلال يحيى : المغرب الكبير . ، المصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، مرجع سبق

ذكره ، ج ٣ ، صص ٢٥-٢١

دكتور صلاح العقاد : المغرب العربي ، الجزائر - تونس - المغرب الأقصى . مرجع سبق

ذكره ، ص ٢٨

(١) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون ألغ ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٢٧

القوات العثمانية ويستكمل فتحها بعد حرب استطالت خمساً وعشرين سنة (١).

وبين هذين الانتصارين الكبيرين وهما فتح جزيرة قبرص وفتح جزيرة كريت ( ١٥٧١-١٦٦٩ ) تعرضت الدولة لهزائم عسكرية ألمة وفرضت عليها معاهدات جائرة ، نذكر منها على سبيل المثال أنها فقدت أجزاءً من أملاكها مثل البغدان وشطراً من ترنسلانيا . وواجهت الدولة قوات جرارة من الألمان والإيطاليين والمجريين . وتصادعت الحرب بين الدولة والنمسا التي نجحت في فرض معاهدة توروك (٢) في الحادى عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٦٠٦ ، وبعد زهاء نصف قرن أرسلت الدولة قوات كثيفة العدد عام ١٦٦١ إلى ترنسلانيا والمجر . ولكن استطاعت النمسا إبادتها . ولم تمر سنتان على هذه الكارثة حتى قاد أحمد باشا كوبريلى الصدر الأعظم عام ١٦٦٣ حملة قوامها ١٢٢,٠٠٠ جندي وانتصر على النمسا لانتصاراً كان له دوى في أنحاء أوروبا ، وأعاد إلى الأذهان انتصارات السلطان سليمان المشرع في العصر الذهبي للدولة . واحتل العثمانيون في ٢٨ من شهر سبتمبر - أيلول - ١٦٦٣ قلعة نوهرل Neuhaeusel وتعد من أمنع القلاع في أوروبا واستعصت على كثير من كبار العسكريين من قبل . ونجحت الدولة في عقد معاهدة فاسقار (٣) في العاشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٦٦٤ مع النمسا . وكانت أحكام هذه المعاهدة في مجموعها في صالح الدولة العثمانية أكثر منها في صالح النمسا . وبالتالي فلأن الدولة بعد معركة سان جوتار Saint Gothard ( أول أغسطس

(١) دكتور زيلب صصت راشد . كريت تحت الحكم المصرى ، القاهرة ١٩٦٤ ،

وأنظر أيضاً :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع الخ ، الطبعة الأولى صص ٨٠١-٨١٠

(٢) يطلق على هذه المعاهدة أيضاً اسم سيتفاتوروك Sitvatorok وقد أكثرنا أن نطلق عليها في هذه الدراسة الاسم المختصر ، وهو توروك Torok كما أطلق عليها غيرنا من قبل هذا الاسم المختصر .

(٣) يطلق على هذه المعاهدة أيضاً اسم ليزنبرج Eisenberg

آب - ١٦٦٤) لم تكن في مركز الدولة المهزومة التي تملى عليها شروط مهينة . ولا نريد أن نخصي في عرض مزيد من الأمثلة لهُزائم وانتصارات الدولة العثمانية في تلك الفترة لأنها ألصق بالتاريخ الحربى للدولة . وقد سبق لنا في أحد كتبنا السابقة أن عرضنا لصور من هزائم وانتصارات الدولة (١) .

والأمر العجيب أن الهزائم العسكرية التي منبت بها الدولة في تلك الفترة قد كشفت عن حقيقة هامة ، هي أن الدولة كانت لا تزال تزخر بطاقات حيوية تتدفق في أوصالها . ففي أثناء حكم السلطان سليم الثانى السكير أصيبت الدولة بكارثة عسكرية ودينية حين تحطم أسطولها في معركة لِهانت Lépante في السابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - ١٥٧١ ، وهى المعركة البحرية التي أطلق عليها المؤرخون الأوروبيون اسم الحرب الصليبية المسيحية كما سبق أن ذكرنا . وتكبدت الدولة خسائر فادحة فيها . وعلى الرغم من أن الدوج لويجي مويسنجو وحلفاؤه متصرون من هذه الصليبية الأوروبية ، فقد رأى أنه لا فائدة ترجى من استمرار حالة الحرب بين جمهورية البندقية وبين الدولة العثمانية . واستقر رأياً على أن إعادة العلاقات السياسية مع الدولة خير وأبقى (٢) . وبذلك الحكومة الفرنسية مساعيا الحميدة *ses bons offices* في هذا الصدد . وكان نائب البندقية في إستانبول ، واسمه أنطونيو باربارو Antonio Barbaro لا يزال مقيماً بالعاصمة العثمانية في أعقاب المعركة الصليبية . وطلب مقابلة محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم ليسر غوره ويقف منه على اتجاهات السياسة العليا للدولة تجاه البندقية بعد معركة لِهانت . وقد بادره الصدر الأعظم قائلا

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشاوى : أوروبا في مطلع الخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة

الأولى ص ص ٧٥٠-٨١٠

وانظر أيضاً :

Reddaway W.F.; A History of Europe etc.; op.cit., pp. 236-245.

(٢) كانت في جمهورية البندقية عدة هيئات تشترك في الحكم ، منها : المجلس الكبير ، ومجلس الشيوخ ، والمجمع ، ومجلس العشرة وغيرها . وكانت هذه الهيئات تحد من لفرؤ الدوج حتى قبل إله كان ملكه ، ولكن لم يكن يحكم .



« إنك جئت بلا شك تتحسّس شجاعتنا ، وترى أين هي . ولكن هناك فرق كبير بين خسارتكم وخسارتنا . إن إستيلاءنا على جزيرة قبرص كان بمثابة ذراع قنا بكسره وبتره . ويليقا بكم الهزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئاً أكثر من خلق لحانا . وإن اللحية لتنمو بسرعة وبكثافة تفوقان السرعة والكثافة اللتين نبتت بهما في الوجه لأول مرة » (١) . وقد قرن الصدر الأعظم قوله بالعمل الفوري الجاد . كان بيالى باشا القيودان من بين قتلى معركة لپانت ، فعهد محمد صوقلو باشا إلى القبطان باشا الجديد ، واسمه العليج علي ، ومعناه السيف علي ، ببناء أسطول جديد في الشتاء الذي أعقب هذه الهزيمة (١٥٧١-١٥٧٢) . وانصرف إلى تنفيذ هذا الأمر . ولقى العليج علي كل معاونة من الصدر الأعظم في إعادة إنشاء السلاح البحري الجديد لحوض البحر المتوسط وزودته النولة بكافة الأسلحة والنخائر . وإنصافاً للسلطان سليم الثاني نذكر أنه على الرغم من سمعته السيئة أبدى تحمساً شديداً لإعادة بناء الأسطول العثماني . فقد تبرع بسخاء من ماله الخاص لهذا الغرض ، كما تنازل عن جزء من حدائق القصر السلطاني لتبنى فيه أحواض سفن للتعجيل بإنشاء وحدات بحرية جديدة . ويعلق كريسزى Creasy على تصرف سليم الثاني في هذا الصدد بقوله إن ذلك التصرف كان الومضة الوحيدة في حياة هذا السلطان والتي من أجلها يستحق الانتساب إلى بيت آل عثمان (٢) . واستطاع الأسطول الجديد منذ شهر يونيو - حزيران - عام ١٥٧٢ أن يهاجم جولاته في البحر المتوسط وأن يتحرش بالدول الأوروبية وبالكليات السياسية المسيحية التي وقفت موقفاً عدائياً من الدولة في صليبية لپانت . وأخذت الوحدات البحرية العثمانية الجديدة تجوب المياه الإقليمية لسواحل إيطاليا دون أن تجرؤاً لإحدى الدول أو رؤساء الفرسان الإستبارية على التعرض لها . واستغلت الدولة العثمانية إعادة التوازن الدولي البحري لمصلحتها في حوض البحر المتوسط ، واستطاعت أن تملئ معاهدة جائرة على جمهورية البندقية في السابع من شهر مايو - آيار -

(١) دكتور هاندريز محمد الشنوى : أوروبا في مطلع ألع ، مرجع سبق ذكره ج ١ ،

الطبعة الأولى ، ص ٧٧٩

(٢) Creasy, E.S.; Histry of the Ottoman Turks, from the beginning of their Empire to the present time London, 1877, p. 223.

عام ١٥٧٣ (١) . وتساءل الرأي العام الأوروبي عن الدولة التي انتصرت في صليبية لپانت ، وهل هي جمهورية البندقية والبابوية وحليفاتها ؟ أو الدولة العثمانية ؟ ويقول لاغاليه ، وهو من المؤرخين الفرنسيين الذين لا يكون تقديره للدولة العثمانية ، إن انتصار المسيحية في هذه المعركة كان انتصاراً حقيقياً ، بل كان كسر اب بقية يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً (٢) .

نصت هذه المعاهدة على أن تدفع البندقية على مدى ثلاثة أعوام ثلاثمائة ألف بندق كجزء من نفقات الحرب التي تكبدتها الدولة العثمانية من أجل استيلائها على جزيرة قبرص ، كما نصت على زيادة الجزية التي تؤدّيها البندقية من خمسمائة بندق إلى ألف وخمسمائة بندق من أجل احتفاظها بجزيرة زنتا Zante ، وتقع على مقربة من شواطئ بلاد المورة ، وجاء في مواد المعاهدة أيضاً أن تتنازل البندقية للدولة العثمانية عن جزيرة قبرص وجزيرة سوبوتو Sopoto

كانت هناك ظاهرة أخرى واكبت ظاهرة الانتصارات العسكرية إبان الفترة التي استشرى فيها نفوذ وجبروت وطغيان مراكز القوى في الدولة . ونعني بهذه الظاهرة استمرار حركة إقامة المساجد الكبرى التي ازدهرت في العصر الذهبي للدولة ، وأصبحت المساجد من أبرز عناصر الحضارة العثمانية ومن أعظم ما يميز الفن المعماري العثماني بهاء وروعة وجلالا ورفرة عديدة (٣) . فلما ولى العصر الذهبي لم يفتر أو يتوقف بناء المساجد الكبرى . ولنا عدة ملاحظات في هذا الصدد نذكر من بينها :

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشاوي : أوروبا في مطلع ، مرجع سبق ذكره ، ج ١

الطبعة الأولى ، ص ٧٨٠

Lavallée, op. cit., t. II, p. 161.

(٢)

(٣) فذكر على سبيل المثال أن سنان باشا المهتمس المعماري قد شيد بأمر السلطان سليمان المشرح إبان حكمه الطويل واحداً وثمانين جامعاً كبيراً وأثنين وخمسين مسجداً صغيراً . وكانت هذه المساجد من أهم الآثار العمرانية للسلطان سليمان . وكان في مقدمتها جامع الكبير في إستانبول . ومن قبل أنشأ السلطان محمد الفاتح مسجداً في إستانبول هو الجامع الحمصي ، كما أنشأ السلطان أبويزيد الثالث مسجداً أيضاً في الفترة من ١٤٩٧-١٥٠٣

أنظر بروكلمان كارل ، الأتراك العثمانيون ، وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧١-٧٢

**أولاً :** إن عدداً من سلاطين الفترة الثانية الذين عرفوا بالبحون وإحمان الخمور تولوا إنشاء مساجد شائعة بلغت الروعة في الجمال والزخرفة والشموخ. نذكر منهم على سبيل المثال السلطان سليم الثاني . فقد أقام في مدينة أدرنة مسجداً كان أعظم مبنى فيها . وقد قام ببناؤه سنان باشا كبير المهندسين المعماريين في الفترة من ١٥٦٨ إلى ١٥٧٤ ، وأطلق عليه مسجد السليمية نسبة إلى السلطان سليم الثاني . ويقول سنان باشا إن بناءه هذا الجامع يعد من أعظم أعماله ، وهو يقوم على أعلى بقعة في أدرنة ، وله قبة ضخمة ، وأربع مآذن رفيعة كالعمد ، لكل منها ثلاث طبقات وثلاث من الدرج . وللمسجد فناء رحيب . وقد بلغ هذا المسجد من فخامة البناء والروعة والزخرفة ما جعله المسجد الرئيسي للسلاطين في أدرنة على الرغم أن في أدرنة أربعين مسجداً كبيراً وصغيراً (١) .

وأمر السلطان أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) ببناء المسجد الفخم الذي يحمل اسمه . واستغرق بناؤه الفترة من عام ١٦٠٩ إلى عام ١٦١٦ وهو يقع في آت ميداني - ميدان الخيل - في إستانبول .

أما السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) الذي كان عميل إلى حياة الخون والتهتك والعبث وسط الحزيم السلطاني فقد أمر ببناء مسجد لوالدته في أسكدار (٢) . وقد تم بناء هذا الجامع عام ١٧٠٨ ويسمى بكى والده جامعى .

**ثانياً :** إن عدداً من سلاطين الفترة الثانية أدخلوا تحسينات على المسجد الرئيسي في العاصمة .

كان السلطان محمد الفاتح قد حول كاتدرائية القديسة صوفيا في القسطنطينية إلى مسجد عقب فتح هذه المدينة . وقد أضاف السلطان سليم الثاني وخلفاؤه ثلاث مآذن بجانب المآذنة الأولى التي كان السلطان محمد الفاتح قد أقامها .

(١) Mordtmann J.H.; Encycl. of Islam. Art. Adrianople.

(٢) وترد هذه الكلمة في بعض المراجع مكتوبة على هذا النحو : أسكدار وهو أقدم وأكبر حي في إستانبول في جزئها الواقع على الجانب الأيسر من البوسفور . ويطلق عليه أيضاً اسم سكوتارى Scutari

وأقام سليم الثاني فوق القبة الرئيسية هلالاً من البرونز بلغ قطره ثلاثين متراً .  
وأضاف السلطان مراد الرابع ( ١٦٢٣-١٦٤٠ ) نقوشاً ضخمة كتب بعضها بحروف بلغ طولها تسعة أمتار . وكانت تنتظم اسم الله سبحانه وتعالى ، واسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأسماء الخلفاء الراشدين .

**ثالثاً :** مساجد أنشأتها سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطاني .

ومما هو جدير بالذكر أن عدداً من سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطاني اللاتي كن يشكلن مركز قوة في الدولة قد تنافسن في إنشاء مساجد زلن إلى الله . وقد ركزت هذه المساجد في ضاحية واحدة من ضواحي إستانبول ، هي ضاحية « أسكودار » أو « سكوتاري » . وقد بنيت قبلها مساجد أخرى فيها لا تدخل في نطاق هذه الدراسة . ونذكر من تلك التي شيدت في عصر مراكز القوى .

لمسكى والدة جامعي . وقد سبق أن أشرنا إليه .

جامع جنيلي . وقد فرغ من إقامته عام ١٦٤٠ في نهاية حكم السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول .

**رابعاً :** إعداد كسوة الكعبة الشريفة في إستانبول :

يجمع مستشرقان ، هما : ليوار ، ومانتران ، على أن السلطان أحمد الأول على الرغم من حيوبه الكثيرة مثل القسوة والتقلب وسهولة التأثير عليه والتناكر لمن أسلوا خدمات جليلة للدولة ، كان يغمره الورع والتقوى فكان يجمع بين المتناقضات . أقام عدة منشآت دينية وخيرية . وكان أول من أمر بأن تعد في إستانبول كسوة للكعبة الشريفة في المسجد الحرام بمكة المكرمة (١) وأن ترسل سنوياً مع قافلة الحج الشامي (٢) . وكانت هذه القافلة تعد للقافلة

Huart C.I., Encycl. of Islam. Art. Ahmed I.

(١)

Mantran R., Loc.cit.

(٢) يرد ذكرها في بعض المراجع قافلة الحج الرومي أي التركي أو العثماني ، لأنها أصبحت

تهدأ رحلتها من إستانبول .

الأولى في الدولة وتضم المحمل الشريف وحجاج بلاد الشام وحجيج الأناضول والروم إلى<sup>(١)</sup> . ويلاحظ أن إعداد الكسوة الشريفة في إستانبول وإرسالها لم يمنح الحكومة المصرية من الاستمرار في إعداد الكسوة أيضاً وإرسالها مع قافلة الحج المصرى إلى مكة المكرمة . وكان وصول القافلتين الشامية والمصرية بالمحملين يعد حادثاً عظيماً عند أهل مكة . وكانوا يحتفلون بمقدمها . وتنصب القافلتان نيامهما في أماكن معينة خارج مكة المكرمة .

وتفسر هاتين الظاهرتين لا يحتاج إلى عناء فكرى كبير . ولا يمكن القول إن مراكز القوى قد أسدت إلى الدولة خدمات جليلة ، بل كان العكس هو الصحيح . ولا يمكن القول أيضاً إن مراكز القوى كانت تتميز بالحصافة السياسية أو المقدرة الإدارية أو الكفاية الحربية أو التعمق في الثقافة الدينية الإسلامية العليا . ولكن الصحيح أن الدولة العثمانية كان قد مضى على إنشائها من عهد عثمان الأول حتى عزل السلطان أحمد الثالث أكثر من أربعة قرون ( ١٢٩٩-١٧٣٠ ) فلم تكن دولة ناشئة ، وإلا كان حكم سلطان واحد من السلاطين « التنابلة » كفيلاً بالإطاحة بها . يضاف إلى ذلك سبب آخر هو أن الدولة كانت دولة عسكرية بكل ما يحمل هذا الوصف من معان . وكانت العسكرية الصارمة هي الخصيصة الأولى من خصائص الدولة . وكان لها قوات عسكرية مسلحة ضاربة رهبة كثيفة العدد متعددة الأسلحة ، مثل سلاح البيادة — المشاه — وسلاح الخيالة — الفرسان ، وسلاح الطوبجية — المدفعية — بكافة أفرصها . وكانت لها قوات بحرية بصفتها إحدى دول البحر المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر . ويلاحظ أيضاً أن الصعوبة التي صادفها رجال الإصلاح في الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الثامن عشر والقرن التالى هي تحويلها من دولة عسكرية إلى دولة مدنية . وفي ظل الدولة العسكرية كان العسكريون —

---

(٢) كانت قافلة الحج الشامي أو الرومي تسلك الطريق التجارى القديم من إستانبول إلى دمشق وتحرق ما وراء الأردن ، وهي موآب القديمة مارة إجمان ، فذائق صالح ، فالمدينة المنورة ، ثم مكة المكرمة . وأقامت الحكومة العثمانية معاقل في المخطات يجد فيها الحجاج طعاماً مهيباً وشراباً . وكانت الرحلة من إستانبول إلى مكة المكرمة تستغرق زهاء خمسة وأربعين يوماً .

وهم أهل الثقة بالتعبير المعاصر - يتقلدون المناصب المدنية فضلاً عن الوظائف العسكرية . ولم تجد الدولة رصيداً بشرياً من أصحاب الكفايات المدنية - وهم أهل الخبرة - لتلائمهم المناصب المدنية فيما عدا علماء الشريعة من أعضاء الهيئة الدينية الحاكمة . وأخيراً كان هناك سببان آخران لم يجعلا لمراكز القوى الأثر السريع في انهيار الدولة . فقد كانت هذه الدولة لا تزال تسير بقوة الدفع التي أودعها فيها سلاطين عصرها الذهبي في الفترة الأولى من تاريخها . وأخيراً كانت الدولة العثمانية من كبرى دول العالم بحيث لم يكن اضمحلالها أو سقوطها أمراً ميسراً يقع بين عشية وضحاها . وقد كان اضمحلالها حصيلة عوامل داخلية وخارجية عديدة ومتباينة في أصولها ووسائلها وأهدافها ، وظلت تنخر في عظام الدولة أعصرراً وأدهاراً وأحقاباً . وكانت مراكز القوى من بين هذه العوامل المبكرة ، ومن بين النذر الأولى لاضمحلال الدولة . ومع ذلك فقد ظلت هذه الدولة قائمة أكثر من ثلاثة قرون ، لأنها كانت دولة شامخة البنيان قوية الدعائم وطيدة الأركان . عاصرت الزحف الاستعماري الأوروبي في أعنف مراحلها صراوة . نظر إليها على أنها دولة إسلامية دخيلة على أوروبا ، ويجب طردها من هذه القارة ومن شمالي إفريقيا وسائر القواعد العسكرية التي تحتلها في حوض البحر المتوسط كمقدمة للقضاء عليها وإزالتها . من خريطة العالم السياسية . وكذلك واجهت تكتلات عسكرية صليبية نظمها الدول الأوروبية الاستعمارية ، وشتت عليها حروباً متصلة بحيث كانت الدولة تخرج من حرب لتخوض حرباً أخرى في جهة أخرى . ولا تكاد الحرب الثانية تضع أوزارها حتى تواجه الدولة ثورة عارمة في ولاية أو أكثر من ولاية مسيحية في أوروبا تروم الاستقلال بتحريض وتشجيع ومساعدة بعض الدول الأوروبية الاستعمارية الكبرى .

وأخيراً فإن الدولة العثمانية كانت دولة الإسلام الكبرى . وكانت فتوحاتها الحربية وسط شعوب مسيحية ثم باسم الإسلام ، وكما سبق أن ذكرنا كان إذا دخل مسيحي أوروبي في الدين الإسلامي قال عنه زملاؤه إنه غداً حثانياً ، ولم يقولوا عنه إنه أصبح مسلماً . فالدولة العثمانية كانت الرمز الحي

المجسد للإسلام . وكان للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة مركزها المرموق بين الهيئات الحاكمة في الدولة ونفوذ متشعب في أجهزة الدولة بحيث لم يكن من السهل أن ينكمش نشاطها الديني .

\* \* \*

والمعنى الذي نستخلصه مما سبق أنه من بين الخصائص العديدة التي تميزت بها الدولة ظلت الخصيصتان الأوليان الرئيسيتان ، وهما العسكرية والدينية ، بارزتين في نشاط الدولة . ولم تتأثرا من وجود مراكز قوى فيها تأثراً خطيراً أو كبيراً ، بل ظلت الدولة محتفظة بهما ، ولهما مكان الصدارة مما يعد من دلائل أصالة هذه الدولة ، وأنها كانت ذات رصيد زاهر من مجد مؤثل عاشت عليه في أحلك الفترات التي سيطرت فيها على مصائرنا مراكز قوى لم تكن تروم غير تحقيق مغام شخصية لها .

ولا يعد هذا التتبع دفاعاً عن مراكز القوى الثلاثة أو تقليلاً من الأضرار التي لحقت بالدولة من جرائها . فما لاجدال فيه أن القوضى ضربت أطنابها في أجهزة الحكومة وساد الاضطراب في الدولة ، كان السلاطين لا يحكمون ، وكان الصنوبر العظام لا يحكمون ، وانتقلت السلطة في الدولة إلى أيدي طوائف غير مسئولة : جوار حسان اشترت غاليتهن بالمال الوفير ، وعبيد خصيان بيض وسود وأغواتهم ، فضلاً عن أخلاط شتى من العسكريين خرجوا على قواعد الانضباط العسكري . ولم يفكروا في المصالح العليا للدولة ، واقتصر تفكيرهم ونشاطهم على تحقيق مصالح شخصية وعاجلة لهم مثل زيادة مرتباتهم وإجراء ترقية سريعة لهم ومنحهم المزيد من البدلات والامتيازات . ولكن كان العسكريون لا يقتنعون ولا يشعرون . وفكر بعضهم في الاستيلاء على الفضليات الموجودة في القصر السلطاني معتمدين على كثرتهم العددية وأسلحتهم ودربتهم على اقتحام المواقع ، وكان بعض العسكريين يشورون على بعض التصرفات التي تصدر عن السلاطين ولا تروقهم . ومن الأمثلة الصارخة التي تساق في هذا الصدد أن الإنكشارية لجأوا إلى أن يحكم السلطان مصطفى الثاني ( ١٦٩٥ - ١٧٠٣ ) إلى سلاحهم التقليدي ، وهو إعلان العصيان العسكري ، بحجة أن السلطان أطال إقامته في مدينة أدرنة بدلاً

من إستانبول . وقد أسفرت حركة التمرد عن خلع السلطان مصطفى الثانى .  
ومند ذلك الحين تجنب السلاطين زيارة مدينة أدرنة إلا لماماً ثم هجروها  
تدريجياً خلال القرن الثامن عشر .

\* \* \*

وقد صعب نشوء مراكز القوى الثلاثة ونموها واستفحال خطرها ظهور  
عناصر جانبية أخرى تطلعت إلى أن تكون موئلاً للنفوذ أو بعض النفوذ ،  
وأطلت برأسها على مجالات مراكز القوى ، وتزاحمت وتنافست على أن  
تكون مماليد الأمور فى يدها على نحو من الأنحاء . وكان من بين هذه العناصر  
الجانبية فرق السباهية أو السباهى ، وكبار أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية  
الحاكمة بعد أن زجوا بأنفسهم فى هذا المعترك ، ووقت طوائف الحرف  
Trade Guilds (١) تراقب عن كثب تصارع هذه القوى لعلها تصيب منه  
مغنا . وكان ولاء أعضاء طوائف الحرف للسلطان يغلب عليه الطابع الدينى ،  
بينما كان ولاؤهم لطوائفهم ذا طابع مادى واقتصادى واجتماعى .

وعلى تعدد مراكز القوى فى الدولة وتباين نفوذها علواً و هبوطاً ،  
كان لسيدات الفئة الأولى من الحریم السلطانى وغيرهن من الجوارى الحسان  
النفوذ الأول والأعلى بين جميع مراكز القوى فى الدولة نظراً لاتصالهن  
الوثيق والدائم بالسلطان من ناحية ، وتسلمتهن على الصدور العظام من ناحية  
أخرى . وقد كن أساس جميع المساوىء أو معظم المساوىء التى تعرضت لها  
الدولة فى أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر . وفى رأى المؤرخ  
الإنجليزى الأستاذ جرانث أن سيدات الحریم السلطانى جعلن ظهور سلطان

---

(١) كان لأصحاب الحرف فى الدولة بعامه وفى المدن الكبرى بخاصة منظمات أو هيئات  
تسمى طوائف الحرف . وكان لكل طائفة رئيسها ونقيبها ونظمتها الخاصة بها . وكانت الحكومة  
تتصل بأفراد كل حرفة عن طريق رئيس الطائفة الذى يطلق عليه شيخ الطائفة . وكان يجمع  
الضرائب والإتاوات المقررة عليهم ويوردها لخزانة الحكومة كما يبلغهم بأوامرها . وتمتصت  
هذه الطوائف شبه استقلال ذاتى فى إدارة شئونها . وكان أعضاء كل طائفة يدينون بولاء حقيقى  
جداً لطاقبتهم إلى حد كان يفوق ولايم للسلطان . ولما كانت طوائف الحرف تقوم فى المدن فقد  
كان يقابلها فى الريف مجالس القرى ، أو القبيلة فى حالة البدو الرحل .



قوى الشكيمة أشبه بمعجزة (١). وهورأى صائب يصدر عن مؤرخ عملاق .  
والحق أن الأمثلة الصارخة العديدة التي سقناها في هذه الدراسة عن تساطع  
الحريم على السلاطين تؤكد ذلك الرأي وتصور حقيقة الأوضاع في  
الدولة .

وكان التوسع في استخدام الحصيان البيض والسود في خدمة وحراسة  
الحريم السلطاني دليلاً على ارتياح سلاطين الدولة لنظام الحصيان واطمئنانهم  
لهؤلاء الحصيان من الناحية الخلقية على الأقل . وقد أدى هذا التوسع في  
استخدامهم إلى تغلغلهم في شتى دوائر الحريم حتى أصبحوا ظاهرة اجتماعية  
بارزة في حياة القصور السلطانية ، ومثالا يتداعى إلى الأذهان بكل جوانبه  
وصوره ومعانيه بل ومآسيه إذا ذكر اسم دولة في الشرق أخذت بهذا النظام .  
أما النفوذ الكبير الذي نجح الحصيان في استقطابه نحوهم فكان نتاج عدة  
حوامل ، منها : أنهم كانوا الرجال أو أشباه الرجال الوحيديين الذين كانوا  
يقيمون أو يعيشون في داخل مناطق الحريم السلطاني في القصور السلطانية ،  
ولم يجلدوا منافسين لهم في هذا الصدد ، وأنهم كانوا على اتصال دائم ووثيق  
بسيادات الحريم نتيجة قيامهم بحراستهن وخدمتهن ، وأنهم كانوا موضع  
الثقة التامة للحريم وأداة الاتصال الوحيد بين الحريم وكبار رجال الدولة في  
خارج القصور . فإذا كانت نهاية المطاف بالحصيان أنهم أصبحوا مركزاً  
من مراكز القوى فإن هذه النهاية كانت أولاً نتيجة « الوضع » الذي أنشأته  
الدولة لهم في داخل مناطق الحريم السلطاني في القصور السلطانية بالإقامة  
الدائمة في تلك المناطق المغلقة لتجعل منهم مراكز نفوذ وقوة دون قصد منها .  
وثانياً نتيجة « الوضع » الذي أنشأته لهم سيادات الحريم السلطاني بجعلهم اليد  
اليمنى لمن وأداة الاتصال بينهن وبين رجال الدولة على أعلى المستويات .  
وكان ثالثاً نتيجة استغلال الحصيان للوضعين السابقين في ذكاء وفطنة وهندسة  
وتفان في الخدمة وأدب جم مما أضفى عليهم النفوذ والجاه . لقد كان الحريم

السلطاني والخصيان مركزين هامين من مراكز القوى يكمل بعضهما بعضا .  
ولذلك كان يقترن ذكر الحريم السلطاني بذكر الخصيان سواء في أذهان  
المؤرخين والباحثين أو في كتاباتهم .

### حكومة الحريم والخصيان :

وقد وصف بعض المؤرخين والباحثين الحكومة العثمانية خلال تلك  
الفترة بأنها « حكومة السيدات ( الحريم ) والخصيان » Gouvernement des Femmes et des Eunukes (١) وقد يرى البعض في هذا الوصف  
نوعاً من المبالغة أو الرغبة في التشهير بالدولة العثمانية . ولكن التزامنا  
بمبدأ الحيادة المطلقة في هذه الدراسة وفي غيرها من الدراسات يفرض  
علينا أن نذكر أن هذا الوصف يصور جانباً كبيراً من الحقيقة .  
يفرض علينا مبدأ الحيادة أيضاً أن نشير إلى أنه - كان هناك جانبان  
يتصلان بهذه الحقيقة . الجانب الأول أن ظاهرة تفاهم نفوذ الحريم  
السلطاني والخصيان ورؤسائهم قد تفشت في العصر العثماني الثاني أو ما يسمى  
عصر سلاطين الفترة الثانية ، وإن كانت هذه الظاهرة قد بدأت على وجه  
التحديد في أواخر حكم السلطان سليمان المشرع آخر سلاطين الفترة الأولى  
أو ما يسمى سلاطين العصر الذهبي . وكانت بداية هذه الظاهرة عند ما شرعت  
روكسلانة تضع الخيوط الأولى لمؤامرتها التي استهدفت منها قتل الأمير  
مصطفى ولي العهد وتعيين ابنها الأمير سليم مكانه ، أما سلاطين الفترة الثانية  
فلم تكن لدى معظمهم قوة الخلق أو الشخصية التي تجعلهم يقفون في وجه  
الجميلات الفاتنات من سيدات الحريم السلطاني ويمنعون تدخلهن في شئون  
الدولة ، كما أن هؤلاء السلاطين لم يتصدوا للإطاحة بنفوذ العبيد الخصيان

Lavisse et Rambaud; op. cit., vol. v, p 882.

( ١ )

محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، الكتاب الثاني ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٩

٦٢-٥٩

دكتور عبد العزيز محمد الشاذلي : أوروبا في مطلع النخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ،

الطبعة الأولى ، ص ٢٥٥

ومخاصة الخصيان السود الذين أصبحوا يباشرون حتى القرن الثامن عشر نفوذاً على السلاطين لم تعرف له الدولة من قبل مثيلاً :

ويعرض المؤرخ الفرنسى رامبو فى العبارات التالية الخطوط الرئيسية لنشأة مراكز القوى فى الدولة وتطورها منذ الصراع الذى خاضته روكسلانه ذات الوجه الهامس من أجل ابنها وتعيينه ولياً للعهد :

«Déjà, au temps de Soliman le Grand, il y avait eu conflit entre le harem et le grand-vizirat, et Roxelane avait obtenu la mort d'Ibrahim. déjà, de son temps, le harem avait commencé à se subordonner le Divan: Roustem n'était devenu grand-vizir que parce qu'il était le gendre de Roxelane et son docile instrument. D'autres catastrophes achevèrent d'assouplir les grands-vizirs de la décadence. Pour se maintenir en place, ils laissent le harem piller et ruiner l'empire. Le Sultan ne gouvernant plus, le grand-vizir étant empêché de gouverner, c'est en dernière analyse, aux mains nègres eunuques et d'esclaves achetées qu'est remis le pouvoir absolu. Le sabre de Bayézid l'Eclair et de Mohammed le Conquérant n'est plus qu'un hochet. Le gouvernement est tombé en de telles mains que l'on comprend que d'autres prétendent y avoir leur part : l'odjak des janissaires, l'odjak des spahis, le corps des oulémas, bientôt les corps de métiers. L'anarchie militaire ou clericale est-elle pire, après tout, que cette anarchie du harem ? Que de fois les soldats mutinés allèguent des griefs légitimes ! que de fois aussi les oulémas ont eu un sens juste des nécessités de l'empire ! La domination du harem est le pire mal dont souffre celui-ci : il s'attaque au nerf même de la monarchie, aux sources de sa force, en détruisant ses finances, ses armées, l'honneur de ses tribunaux et de son Eglise<sup>(١)</sup>, la patience et la fidélité de ses sujets» <sup>(٢)</sup>.

---

(١) المقصود بكلمة Eglise فى هذا الموضع السلطة الدينية ، أى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فى الدولة العثمانية .

Lavisse et Rambaud; op. cit., t. v, p. 883.

(٢)

ولم يستمر طويلا عهد مراكز القوى في الدولة . فقد انتهى نهائياً المركز الأول من هذه المراكز وهو الفياق الإنكشارية حين نجح السلطان محمود الثاني في إبادة هذه الفئة العسكرية الباغية في « الواقعة الخيرية » سنة ١٨٢٦ . أما الحريم السلطاني فقد توارى نفوذ سيداته رويداً رويداً . وعمل السلاطين على أن تأخذ هؤلاء السيدات حجمهن الطبيعي ، وأن يجردوهن من النفوذ ويمنعهن من التدخل في شئون الدولة . أما الأغوات الخصيان فقد قللت الدولة من أعدادهم ، وعملت في ذات الوقت على أن تستبدل بمعظمهم سيدات يشتغلن في خدمة الحريم . وحالت بين الخصيان المتبقين وبين التسلسل إلى أجهزة الدولة . أما ظاهرة خلع السلاطين فقد استمرت حتى القرن العشرين وسقوط السلطنة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وكانت هذه الظاهرة أشد عنفاً مما كانت عليه على عهد مراكز القوى . فمن بين السلاطين الستة الأواخر الذين جلسوا على عرش الدولة تم عزل خمسة منهم (١) . ولم يكن عزلهم نتيجة تسلط مراكز القوى التي كانت قد توارت ، وإنما كان عزلهم يتم نتيجة معارضة داخلية أو ضغوط خارجية تمثلت في هيئات وجمعيات من أخلاط شتى مارست نشاطها في أقاليم بعيدة عن عاصمة الدولة أو في بعض دول أوروبية ليتسنى لأعضائها حرية التخطيط والحركة وجميع الأنصار والاصلاء .



---

(١) كان هؤلاء السلاطين الذين عزلوا

عبدالمعز بن محمود ( ١٨٧٦ )

مراد الخامس بن عبدالمجيد ( ١٨٧٦ )

عبدالمجيد الثاني بن عبدالمجيد ( ١٩٠٩ )

محمد السادس بن عبدالمجيد ( ١٩٢٢ )

أما عبدالمجيد بن عبدالمعز فقد عين سنة ١٩٢٢ بصفته خليفة ، ولم يمين بصفته سلطاناً . ومع ذلك فقد تم عزله وترحيله مع أفراد أسرته في ظروف فاسدة سنة ١٩٢٤ بعد إلغاء الخلافة .

فهارس  
الاعلام والامكن والموضوعات  
توجد في نهاية الجزء الثانى

تم بعون الله طبع الجزء الاول  
فى مطبعة جامعة القاهرة  
المراقب العام  
البرنس حموده حسين

رقم الايداع ٥١٠٨ سنة ١٩٧٨  
الترقيم الدولى ٨ - ٢٧٢ - ٢٦٦

# **THE OTTOMAN EMPIRE**

## **An ISLAMIC MALIGNED STATE**

*By*

**Abdel Aziz M. El-Shennawy**

Professor of Modern History,  
Head of the Department of History,  
Faculty of Humanities,  
Azhar University, Women's Branch, Cairo.

**Volume I**

**1980**

**Publisher : Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo**

**CAIRO UNIVERSITY PRESS.**

# **THE OTTOMAN EMPIRE**

## **An ISLAMIC MALIGNED STATE**

*By*

**Abdel Aziz M. El-Shennawy**

**Professor of Modern History,**

**Head of the Department of History,**

**Faculty of Humanities,**

**Azhar University, Women's Branch, Cairo.**

**Volume I**

**Publisher : Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo.**

**CAIRO UNIVERSITY PRESS.**

**1980**